سورة فاطر

سورة الملائكة

[٧٦٢] أخرج(١) جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: أنزلت هذه الآية: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾(٢) الآية حيث قال النبي [ﷺ]: **«اللّهم أعز دينك بعمر ابن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام»** فهدى الله عمر وأضل أبا جهل ففيهما أنزلت.

[٧٦٣] وأخرج عبد الغني بن سعيد الثقفي في تفسيره عن ابن عباس أن حصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف القرشي نزلت فيه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾(٣) الآية.

[٧٦٤] وأخرج البيهقي في البعث وابن أبي حاتم من طريق نفيع بن الحارث عن عبدالله بن أبي أوفى قال: قال رجل للنبي [ﷺ]: يا رسول الله أن النوم مما يقر الله به أعيننا في الدنيا فهل في الجنة من نوم قال: **«لا أن النوم شريك الموت وليس في الجنة موت»** قال فما راحتهم فأعظم ذلك رسول الله [ﷺ] وقال: **«ليس فيها لغوب كل أمرهم راحة»** فنزلت ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾(٤).

[٧٦٥] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن أبي هلال أنه بلغه أن قريشاً كانت تقول لو أن الله بعث منا نبياً ما كانت أمه من الأمم طوع لخالقها ولا أسمع لنبيها ولا أشد تمسكاً بكتابها منا فأنزل الله: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾(٥) ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾(٦) ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن

---

[٧٦٢] (١) كذا بالأصل والحديث رواه ابن ماجة في سننه (١٠٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٣٧٠)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٨٣)، والطبراني في الكبير (٢/ ٩٣)، وابن حبان (٢١٨٠ موارد الظمآن).

(٢) سورة فاطر: الآية (٨).

[٧٦٣] (٣) سورة فاطر: الآية (٢٩).

[٧٦٤] (٤) سورة فاطر: الآية (٣٥).

[٧٦٥] (٥) سورة الصافات: الآية (١٦٧ و١٦٨).

(٦) سورة الأنعام: الآية (١٥٧).

جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾[1] وكانت اليهود تستفتح به على النصارى فيقولون إنا نجد نبياً يخرج.

* * *

---

(١) سورة فاطر: الآية (٤٢).

(٣٥) سُورَةُ فَاطِرٍ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ

سورة فاطر من السور المكيَّة التي تُعنى بأصول العقيدة الإسلامية « الإيمان بالله ، وباليوم الآخر ، والملائكة ، والكتب ، والرسل » وسائر شئون الإيمان كما هو الحال في السور المكية ، وهي ختامُ السور المفتتحة بالحمد ، التي فصّلت فيها أصولُ النِّعم على العبادِ من ربّ الأرباب ، وهي سورة « الفاتحة ، والأنعام ، والكهف ، وسبأ ، وفاطر » وهي خمسُ سور في القرآن ليس غير . سُميت بسورة فاطر لذكر هذا الاسم الجليل ، والنَّعْت الجميل في طليعتها ، ولما فيها من الوصف الدالِّ على عظمة ذي الجلال ، وعجيب صنعه ، وباهر قدرته ، فقد خلق الملائكة خلقاً عظيماً ، وجعلَهم ذوي أجنحةٍ متنوعة في العدد ، يطيرون بها ليبلّغوا ما أُمروا به سريعاً ﴿ الحمدُ للهِ فَاطرِ السمواتِ والأرضِ ، جاعلِ الملائكةِ رُسُلاً أُولي أَجْنحةٍ مَثْنى ، وثُلاَثَ ، ورُبَاعَ ، يزيدُ في الخَلْق ما يشاءُ ، إنَّ اللهَ على كلِ شيءٍ قدير ﴾ .

وتذكِّر السورة بنعم الله على العباد ، فما مِنْ نعمةٍ إلاّ واللهُ مُسْديها ، ولا مِن فضلٍ وإحسانٍ إلاّ وهو من مِنَن الرحمن ، ولا من خلقٍ وتقدير إلاّ وهو من صنع العليّ القدير ﴿ ما يفتحِ اللهُ للناسِ من رحمةٍ فلا مُمْسك لها ، وما يُمْسك فلا مُرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم . يا أيها الناسُ ذكروا نعمةَ الله عليكم ، هل من خالقٍ غيرُ الله يرزقُكم من السماء والأرض ؟ لا إلهَ إلاّ هو فأنَّى يُؤفكون ؟ ﴾ .

وتحذِّر السورة من الاغترار بهذه الحياة العاجلة الفانية ، ومن العدوِّ الأكبر إبليس اللعين الذي قعد للناس بالمرصاد ليصدَّهم عن دين الله ويجعلهم من حزبه ﴿ يا أيها النَّاسُ إنَّ وعد اللهِ حقٌ فلا تغرنَّكم الحياةُ الدنيا ، ولا يُغُرنَّكم باللهِ الغَرُور . إنَّ الشيطانَ لكم عدوٌ فاتَّخِذوه عَدُوّاً ، إنَّما يدعو حزبَه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ .

وتقيم السورة الأدلة والبراهين على البعث والنشور في صفحاتِ هذا الكون المنظور بالأرض تحيا بعد موتها بنزول المطر ، وبخروج الزرع والثمر ، وهذا من أظهر الآيات وأوضحها على إمكان البعث بعد الموت ﴿ واللهُ الذي أرسَلَ الرياحَ فتثير سحاباً ، فَسُقْناه إلى بلدٍ ميِّتٍ ، فأحيَيْنا به الأرض بعد موتها ، كذلك النشور ﴾ .

ثم تتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية في خلق الإنسان في أطوار ، وعن المياه في الأنهار والبحار ، وعن إيلاج الليل في النهار ، وتسخير الشمس والقمر عبرةً لأولي النُّهى والأبصار ﴿ والله خَلَقكُمْ من تُرابٍ ، ثُمَّ من نُطْفةٍ ، ثم جعلكم أَزْواجاً ، وما تَحْمِلُ من أُنْثَى ولا تَضَعُ إلا بعِلمِه ، وما يُعَمَّرُ من مُعَمَّرٍ ولا يُنْقَصُ من عُمُره إلاَّ في كتابٍ ، إنَّ ذلكَ على الله يسيرٌ . وما يستوي البحرانِ : هذا عذبٌ فُراتٌ سائغٌ شرابُه ، وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ، ومن كلٍّ تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حليةً تَلْبسونها ، وترى الفُلْكَ فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل ، وسخَّر الشمسَ والقمر كلٌ يجري لأجلٍ مُسمًّى ، ذلكم اللهُ ربُّكم له المُلْكُ ، والذين تدعون من دونه ما يَمْلكون مِنْ قِطْمير ﴾ ثم يبيّن لهم قيمة الآلهة المزعومة التي لا تسمع الدعاء ، ولا تستجيب النداء ﴿ إنْ تَدْعُوهم لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ، ولَوْ سَمِعُوا ما اسْتَجَابوا لكم ، ويومَ القيامةِ يَكْفُرون بِشرْكِكُمْ ، ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِير ﴾ .

وتتحدث السورة عن الفارق الهائل بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، وتضرب الأمثال بالأعمى والبصير ، والظلام والنور ، والحيّ والميّت ليظهر لذي البصائر المؤمن الذي يسير على نورٍ من ربه ، والكافرُ الذي يتخبَّطُ في ظُلُماته ﴿وما يستوي الأعمى والبصيرُ . ولا الظلمات ولا النُّورُ . ولا الظِّلُ ولا الحَرُورُ . وما يستوي الأحياء ولا الأمواتُ ، إن الله يسمع من يشاء وما أنتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ في القبور . إنْ أنتَ إلا نذير﴾ .

ومن العِبَر والعِظَات إلى الدلائل الواضحات على وحدانية الله العليّ القدير ، تتحدث السورة عن أنواع الثمار المختلفة الألوان ، من أصفرَ ، وأحمرَ ، وأخضرَ ، وأبيض مع أختلاف الطعوم والروائح ، وكلُّها تُسقى بماءٍ واحد ، ثم الاختلاف الواضح بين طبقات الأرض ، وبين سائر المخلوقات من البشر والدوابِّ والأنعام ، المختلفة الأشكال والأجناس والصُّوَر ، وكلُّها شاهدةٌ بوجود الله ، ناطقةٌ بعظمته وجلاله ﴿ألم تَرَ أنَّ اللهَ أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانُها ، ومن الجبالِ جُدَدٌ بيضٌ وحُمْر مُخْتَلفٌ ألوانُها وغرابيبَ سُوْدٌ . ومن الناس والدوابِّ والأنعام مختلفٌ ألوانُه كذلك ، إنما يَخْشَي اللهَ من عبادِهِ العلماءُ ، إنَّ الله عزيزٌ غفور﴾ .

وتتحدث السورة بعد ذلك عن ميراثِ الأمة المحمدية لأشرف الرسالات السماوية ، بإنزال هذا الكتاب المجيد الجامع لفضائلِ الكتب ، ثم انقسام الناس أمام هذه الوراثةِ الربانية إلى ثلاثة أنواع : المقصِّر ، والمحسن ، والسابق بالخيرات . وكلُّهم من هذه الأمة المحمدية التي ورَّثها الله أشرف الرسالاتِ السماوية ﴿ثم أورثنا الكتابَ الَّذينَ اصْطَفَينا من عبادنا ، فمنهم ظالمٌ لنفْسِهِ ، ومنهم مُقْتَصِدٌ ، ومنهم سابقٌ بالخيراتِ بإذن الله ، ذلك هو الفضلُ الكبير . جناتُ عدنٍ يدخلونها يُحلَّون فيها من أساورَ من ذهبٍ ولُؤْلُؤاً ، ولباسُهم فيها حرير﴾ وفي مقابل هؤلاء

السعداء الأبرار يأتي الحديث عن الأشقياء الفُجّار ، للموازنة بين الفريقين أهل الجنة وأهل النار ﴿ والذين كفروا لهم نارُ جهنم لا يُقضى عليهم فيموتوا ، ولا يُخفَّفُ عنهم من عذابها ، كذلك نجزي كلَّ كفور . وهم يصطرخون فيها ربَّنا أخرجنا نعملْ صالحاً غيرَ الذي كنّا نعمل ، أوَ لمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يتذكَّرُ فيه مَنْ تذكَّر ، وجاءكم النذيرُ فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ وتختم السورة الكريمة بفضل الله على العباد بإمهالهم حتى يتداركوا في هذه الحياة مافاتَ ، وهذا من نعم الله تعالى عليهم كما ذكَّرهم بنعمه الفائضة في أول السورة الكريمة ليتناسق البدء مع الختام ﴿ ولو يؤاخذ اللهُ الناسَ بما كسبوا ما ترك على ظهرها ظهرها من دابة ولكنْ يؤخرهم إلى أجلٍ مُسمًّى ، فإذا جاء أجلُهم فإنَّ الله كان بعباده بصيراً ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة فاطر[1]

بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللّٰهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١]

قوله عز وجل: **الحمد لله فاطر السماوات والأرض**، ما ذكر في القرآن "الحمد لله" إلا وذكر على إثره التعظيم لله والإجلال له. وذكر ما أنعم[2] به على الخلق ليُلزمهم الشكر له والثناء عليه نحوَ ما ذكر: **الحمد لله فاطر السماوات والأرض**، الآية،[3] ونحو ما قال: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ،[4] الآية، ونحو قوله: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي / خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ،[5] الآية،[6] وقوله: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ،[7] الآية، وقوله: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا،[8] الآية. [٦٢٢ظ]

جميع ما ذكر في القرآن من الحمد له[9] ذُكِر على إثره ما يوجب التعظيم له والتبجيل والثناء عليه والشكر له تعليمًا[10] منه الخلقَ الثناءَ على ذلك والشكرَ له. وبالله[11] المعونة والقوة على ذلك.

---

[1] ر – سورة فاطر؛ ن: ذكر أن السورة التي يذكر فيها الملائكة وهي نزلت بمكة؛ ث: سورة الملائكة وهي أربعون وخمس آيات مكية؛ ث هـ: ذكر أن السورة التي يذكر فيها الملائكة نزلت بمكة؛ م: ذكر أن السورة الفاطر نزلت بمكة.

[2] ر م: على ما أنعم.

[3] ر ن م – الآية.

[4] سورة سبأ، ١/٣٤.

[5] سورة الأنعام، ١/٦.

[6] م – الآية.

[7] سورة الكهف، ١/١٨.

[8] سورة الإسراء، ١١١/١٧.

[9] ر ث م + ما.

[10] ن + له.

[11] ن + العصمة.

وقوله: **فاطرِ السماوات والأرض**، قال بعضهم: الفاطر هو المبتدئ أو البادئ،[1] وهو قول القُتَبي[2] من أهل الأدب.[3] وكذلك ذكر عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: ما أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى جاء أعرابيان فاختصما في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها[4] [أي] أنا بدأتها، فعند ذلك عرفت،[5] أو كلام نحوه.

ويجيء أن يكون الفاطر هو الشاقّ، أي شقَّ السماوات كلها من واحدة، وكذلك الأرَضين، كقوله: إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ،[6] أي انشقت، كما قال: إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى،[7] أي الشاق. لكنَّ جميع ما أضيف إلى الله من الشق والفَطْر والجَعْل وغيره من نحو قوله: **جاعل الملائكة رسلا** كلُّه على اختلاف الألفاظ عبارة عن الخلق، أي خالق ذلك كله. وأصل الخلق في اللغة هو التقدير، خلقت أي قدرت. وكذلك قال الكسائي:[8] إن الفَطْر في كلام العرب هو الشقّ؛ معناه أنه شقّ من السماء سبع[9] سماوات ومن الأرض مثلهن. ومنه الحديث: «حتى تفطَّرت قدماه دمًا».[10]

---

[1] ر م: او البارئ.

[2] القُتَبي نسبة إلى قتيبة. وهو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م)؛ من أئمة الأدب ومن المصنفين في ميادين شتى. له مؤلفات في الأدب، والتفسير، والحديث، والسياسة، وغيرها من العلوم. انظر: *الفهرست* لابن النديم، ٨٥-٨٦؛ *واللباب* لابن الأثير، ١٥/٣؛ *وإنباه الرواة* للقفطي، ١٤٣/٢-١٤٧؛ *ووفيات الأعيان* لابن خلكان، ٤٢/٣-٤٤.

[3] تفسير غريب *القرآن* لابن قتيبة، ١٥١.

[4] ر: فظرتها؛ ث: فطرتهما؛ ن: افطرتها.

[5] تفسير *الطبري*، ١٧٥/٩؛ وتفسير *ابن كثير*، ٣٠٤/١١؛ *والدر المنثور* للسيوطي، ٢٤٩/١٢.

[6] سورة الانفطار، ١/٨٢.

[7] سورة الأنعام، ٩٥/٦.

[8] هو أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن عثمان الأسدي الكسائي (ت ١٨٩هـ/٨٠٤م)؛ إمام في اللغة والنحو والقراءة. أخباره مع علماء الأدب في عصره كثيرة. وله تصانيف غير قليلة. انظر: *الفهرست* لابن النديم، ٧٢-٧٣؛ *وتاريخ بغداد* للخطيب البغدادي، ٤٠٣/١١؛ *وإنباه الرواة* للقفطي، ٢٥٦/٢-٢٧٤.

[9] جميع النسخ: ست. لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن﴾ (سورة الطلاق، ١٢/٦٥).

[10] عن عائشة رضي الله عنها أنّ نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم كان يقوم من اللّيل حتّى تتفطّر قدماه. فقالت عائشة: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أحبّ أن أكون عبدًا شكورًا». فلمّا كثر لحمه صلّى جالسًا فإذا أراد أن يركع قام فقرأ ثمّ ركع (صحيح *البخاري*، التفسير، ٢/٤٨، التهجد ٦؛ وصحيح *مسلم*، صفة المنافقين ٨١).

وقوله: **جاعلِ الملائكة رسلا**، ففي ظاهر الآية أنه جعل جميع[١] الملائكة رسلا؛ فإن كان على ذلك فكأنه ولّى كلّ واحد منهم أمرًا من أمور الخلق والعباد، وإن كان على البعض فيكون تأويله: جاعلٍ من الملائكة رسلاً، أو في الملائكة رسلا.[٢]

ثم أخبر عن الملائكة أنهم أولو[٣] أجنحة مثنى وثُلاثَ ورباعَ يطيرون بها. ليس كالطيور التي تطير[٤] بجناحين، لو زيد لها جناح أو جناحان لمنعه[ا][٥] عن الطيران، كالإصبع الزائدة لبني آدم تمنعهم عن بعض العمل ولا تزيد لهم نفعًا بل يَنقص. وأما ما ذُكِر من عدد الأجنحة للملائكة فذلك لا يمنعهم عن الطيران، بل يزيد[٦] لهم قوة ومَقْدَرَةً على ذلك.

ثم قال: **يزيد في الخلق ما يشاء**، قال بعضهم: يزيد في الملائكة على أربعة أجنحة ما يشاء. **إن الله على كل شيء** من خلق الأجنحة و الزيادة[٧] **قدير**. وذكر أن لِإسرافيلَ[٨] ستةَ أجنحةٍ[٩] ولجبريل ستّمائةِ جناحٍ.[١٠] ذكر عن ابن مسعود رضي الله عنه يقول: أُرِيَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم جبريلُ وله ستمائة جناح.[١١] وقال بعضهم: **يزيد في الخلق ما يشاء**، أي الصوت الحَسَن، وقال بعضهم: الشعر الحسن. [ولكن][١٢] ما ذكروا من الزيادة في الأجنحة أشبه وأقرب. **إن الله على كل شيء قدير** من الزيادة والابتداء، لا يصعُب عليه.

---

١ ن – جميع.

٢ ن – أو في الملائكة رسلا.

٣ ث: اولوا.

٤ ر م: يطير.

٥ ر ث م: يمنعه.

٦ ر م: زيد.

٧ جميع النسخ: في. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٦٢١و.

٨ ر: الاسرافيل.

٩ لم أجده بهذا اللفظ ولكن ذكر السيوطي عن عبد الله بن الحارث ما نصه: كنت عند عائشة رضي الله عنها وعندها كعب رضي الله عنه فذكر إسرافيلَ عليه السلام، فقالت عائشة: أخبرني عن إسرافيل عليه السلام. قال: له أربعة أجنحة: جناحان في الهواء، وجناح قد تسرول به، وجناح على كاهله، والقلم على أذنه فإذا نزل الوحي كتب القلم ودَرَسَتِ الملائكةُ. وملك الصُور أسفل منه جاثٍ على إحدى ركبتيه وقد نصب الأخرى فالتقم الصور فحنى ظهره وطرفه إلى إسرافيل ضمّ جناحيه أن ينفخ في الصور (*الدر المنثور* للسيوطي، ٧٠٧/١٢).

١٠ ر: اجناح. *تفسير القرطبي*، ٣٢٠/١٤.

١١ المرجع السابق، ٣٢٠/١٤.

١٢ جميع النسخ + فهو في. والزيادة من شرح *التأويلات*، ورقة ٦٢١و.

﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٢]

وقوله: **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها**، عن ابن عباس: من عافية؛ وقال قتادة:[١] أي من خير؛[٢] وقال مقاتل[٣] وغيره: أي من رزق،[٤] كقوله: وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ،[٥] أي من رزق. وكله واحد؛ إذ الخير يشتمل على العافية والرزق، وكذلك [العافية يشتمل على][٦] كل واحد من ذلك. وقال بعضهم: الرحمة الغيث[٧] والمطر، وهو ما ذكرنا؛ كله يرجع إلى واحد من ذلك.[٨]

ثم قوله: **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده** يخرج على وجهين. أحدهما على تسفيه أحلام الكفرة في عبادتهم الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله. يقول -والله أعلم- تعلمون أنتم أنه ليس لكم مما تعبدون من دون الله جرُّ نفعٍ أو خير ولا كشفُ ضرٍ عنكم أو سوء فكيف تعبدونها؟ كقوله: قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍ[٩]، الآية، أي تعلمون أنهن لا يملكن[١٠] ذلك،

---

[١] هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز، السدوسي البصري (ت ١١٨هـ/٧٣٦م)؛ مفسر، حافظ، وضرير أكمه. كان رأسًا في العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب. كان يرى القدر، ويدلّس في الحديث. انظر: *معجم الأدباء* لياقوت الحموي، ١٧/٩-١٠؛ و*وفيات الأعيان* لابن خلكان، ٤/٨٥-٨٦؛ و*تذكرة الحفاظ* للذهبي، ١/٩٢-٩٣.

[٢] *تفسير الطبري*، ١٩/٣٢٨.

[٣] هو أبو الحسن مقاتل بن بشير الأزدي بالولاء، الخراساني المروزي (ت ١٥٠هـ/٧٦٧ م). أصله من بلخ انتقل إلى البصرة، ودخل بغداد فحدث بها. وتوفي بالبصرة. كان متروك الحديث. وأخذ عن مجاهد، وعطاء، وأبي إسحاق السبيعي. وروى عنه بقية بن الوليد الحمصي، وعبد الرزاق بن همام الصنعاني، وحرمي بن عمارة، وعلي بن الجعد. له تصانيف كثيرة. انظر: *وفيات الأعيان* لابن خلكان، ٥/٢٥٥- ٢٥٧؛ و*طبقات المفسرين* للداودي، ٥٢٠-٥٢١.

[٤] ذكره ابن أبي حاتم منسوبا إلى السدي. *تفسير ابن أبي حاتم*، ١٠/٣١٧١.

[٥] ﴿وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٢٨).

[٦] الزيادة من شرح *التأويلات*، ورقة ٦٢١و.

[٧] ر م: والغيث.

[٨] ن - من ذلك.

[٩] ﴿قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته﴾ (سورة الزمر، ٣٩/٣٨).

[١٠] م: لا يملكن.

والله هو المالك لذلك كله، فكيف صرفتم[1] العبادة إليها عنه. أو يقول: إنكم تعلمون أن ما تعبدون من الأصنام من[2] دون الله لا يرزقونكم، ولا منها تبتغون الرزق، ولا كانت منها إليكم سابقةُ نعمةٍ. فإنما يَعْبد لإحدى هذه الوجوه مَنْ يعبد إما لسابقة[3] نعمة أو نيل خير أو جر نفع أو كشف ضر أو دفع سوء أو طمع في العاقبة؛[4] فإذا[5] لم يكن شيءٌ من ذلك من[6] الأصنام، ومن الله ذلك كله، فكيف صرفتم عبادتكم[7] عنه إليها؟ كقوله: إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.[8]

هذا إذا كان قوله: **ما يفتح الله للناس من رحمة** راجعًا إلى الكفرة، وإذا[9] كان ذلك راجعًا إلى المؤمنين فهو يخرج على وجهين. أحدهما فيه قطع الطمع من الخلق والإياسُ عما في أيديهم، وأن لا يرجوا من دونه ولا يخافوا غيره،[10] بل فيه الأمر بأن يروا ذلك كله[11] من الله، وأنه هو المالك لذلك دون الخلق.

والثاني قطع طمع الرزق من المكاسب والأسباب التي يكتسبونها[12] والأمر فيها[13] -أعني المكاسب- أن يروها[14] تعبدًا وأن يروا أرزاقهم من فضل الله.[15]

و[في الآية حجة] على قول المعتزلة: إذا فتح الله لأحد رحمة يقدر عبد أن[16] / يمسك ذلك [٦٢٣و]
وإن أمسك هو قدر أن يُرسل؛ لأنهم يقولون: إن الله إذا جعل لأحد أجلا وضمن له الحياة

---

[1] ر م: صرفهم.
[2] ن – من.
[3] ر ث م: السابقة.
[4] ر: العافية.
[5] جميع النسخ: فإذ. والتصحيح مستفاد من نسخة الظاهرية، ورقة ٤٣٨ظ.
[6] ر م – من.
[7] م + عبادتكم.
[8] سورة العنكبوت، ١٧/٢٩.
[9] ر: فاذا.
[10] ر م + بل فيه الامر بان يروا غيره.
[11] ث – كله.
[12] ن: تكتسبونها.
[13] ن م: بها.
[14] جميع النسخ: أي يرونها. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٦٢١و.
[15] ن + كقوله وابتغوا من فضل الله كقوله وابتغوا من فضل الله.
[16] ر ث م + في ان.

ووفاء الرزق إلى مضيّ الأجل، فيجيء عدو من أعدائه، فيقتله قبل انقضاء أجله واستيفاء رزقه. فذلك منع على قولهم عن وفاء ما ضمن وما جعل له من المدة والأجل.[1]

وفي حرف ابن مسعود: ما يفتح الله على الناس من رحمة.[2]

وقوله: **وهو العزيز الحكيم**، قد ذكرنا [تأويله] في غير موضع.[3]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[٣]

وقوله: **يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض**، كأنه هو صلة ما تقدم.[4] ثم هو على التقرير والإيجاب وإن خرج مخرج الاستفهام في الظاهر؛ كأنه يقول: -والله أعلم- إنكم تعلمون أنه[5] هو رازقكم دون من تعبدونه.

لا إله إلا هو فأنى تؤفكون، أي لا إله إلا هو فما الذي حملكم على إفككم وكذبكم أنها شركاؤه وأنها آلهة، وأنها شفعاؤكم عند الله، وأن عبادتكم إياها تقربكم[6] إلى الله زلفى، أكتاب أو رسول؟ وأنتم لا تؤمنون بكتاب ولا رسول، فمن أين تؤفكون وتكذِبون.[7] *والله أعلم*.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾[٤]

وقوله: **وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك**، معلوم أنهم كانوا لا يكذبونه في قوله: هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ،[8] ولا في قوله: مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ،[9] لأنهم كانوا يعلمون أنه ليس من خالق غير الله،

---

[1] قال الشارح: «ثم الآية حجة على المعتزلة فإن الله تعالى أخبر أنه إذا فتح لأحد رحمة لا يقدر أحد من العباد أن يمسكها، وإن أمسك هو لا يقدر أحد أن يرسل. وهم يقولون: إن الله تعالى إذا فتح لأحد رحمة يقدر العبد أن يمسك وإن أمسك هو قدر العبد أن يرسل، لأنهم يزعمون أن الله تعالى إذا جعل لأحد أجلا وضمن له الحياة ووفاء الرزق إلى مضي أجله فيجيء عدو من أعدائه فيقتله بغير إرادته قبل انقضاء أجله واستيفاء رزقه، فذلك منع له لما فتح له من الرزق وقضى له من الأجل» (*شرح التأويلات*، ورقة ٦٢١و).

[2] لم نطلع عليه.

[3] انظر مثلا عند قوله تعالى من سورة البقرة، ١٢٩/٢؛ ومن سورة النحل، ٦٠/١٦؛ ومن سورة العنكبوت، ٢٦/٢٩.

[4] قال الشارح: «قوله تعالى ﴿يرزقكم من السماء والأرض﴾ كأنه صلة ما تقدم من قوله ﴿هل من خالق غير الله﴾» (ورقة ٦٢١و).

[5] ث ن + ليس من خالق غير الله وتعلمون انه.

[6] ر م: يقربكم.

[7] «أي تحملون على الإفك والكذب» (*شرح التأويلات*، ورقة ٦٢١و).

[8] الآية السابقة.

[9] سورة فاطر، ٢/٣٥.

ولا فاتح رحمةٍ سواه[١] إذا كان هو ممسكها، ولا ممسك لها إذا كان هو مرسلها. ولكن إنما يكون تكذيبهم إياه فيما يخبر أنه رسول الله إليهم. كذبوه في الرسالة، أو فيما يخبر أنه أُوحي إليه من الله كذا، أو فيما يخبر عن البعث بعد الموت أنه كائن وأمثال ذلك. فأما فيما ذكرنا فلا.

وهو تعزية منه لرسوله ليصبر على تكذيبهم إياه ليعلم أنه ليس بأول مكذَّب، بل قد[٢] كان إخوانه من قبل قد كُذِّبوا من قبل فيما أخبروا قومهم عن الله، فصبروا على ذلك، فاصبر أنت أيضًا، كقوله: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ،[٣] الآية. **والله أعلم**.

وقوله: **وإلى الله ترجع الأمور**، وإلى الله يرجع تدبير الأمور كلها،[٤] أي لا تدبير للخلق في ذلك؛ أو يقال: إلى الله يرجع الحكم في الأمور، هو الحاكم فيها، كقوله: وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ.[٥] **والله أعلم**.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾[٥]

وقوله: **يا أيها الناس إن وعد الله حق**، قال عامة أهل التأويل: **إن وعد الله حق**، أي البعث، إنه كائن لا محالة. وجائز أن يكون قوله: **وعد الله حق** فيما وعد من الثواب على الطاعات، ووعده حق فيما أوعد من العقاب على السيئات أنه يكون. **والله الموفق**.

وقوله: **فلا تغرنكم الحياة الدنيا**، معنى قوله: **فلا تغرنكم الحياة الدنيا** -والله أعلم- أي لا تَشغلنّكم الحياة الدنيا عن ذكر الحياة[٦] الآخرة أو لا تُنسينّكم[٧] الحياة الدنيا عن الحياة الآخرة، وإلا الدنيا لا تَغُرّ[٨] أحدًا في الحقيقة. وكذلك هي ليست[٩] بلعب ولا لهو، لأنها جعلت زادا للآخرة وبُلْغَةً إليها فإذا كان كذلك فهي ليست بلعب ولا لهو[١٠] ولا هي غارة،

---

[١] ر: سواء.
[٢] ن – قد.
[٣] سورة الأحقاف، ٣٥/٤٦.
[٤] ر م – كلها.
[٥] سورة الشورى، ١٠/٤٢.
[٦] م: حيوة.
[٧] ر م: ولا تنسينكم؛ ث – أو لا تنسينكم الحياة الدنيا عن الآخرة. ث صح: أو لا تنسينكم الحياة الدنيا عن الآخرة.
[٨] ر: لا تغتر.
[٩] ر – ليست.
[١٠] ر ث م – لأنها جعلت زادا للآخرة وبلغة إليها فإذا كان كذلك فهي ليست بلعب ولا لهو.

ولكن يغتر أهلها بها لما غفلوا عما جعلت هي وأنشئت. وهي[١] كما ذكرنا[٢] أنها جعلت زادًا للآخرة وبُلْغة إليها، فمن لم يجعلها زادًا للآخرة ولا بلغة[٣] إلى الوصول إلى الآخرة،[٤] ولكن جعلها في غير ما جعلت هي وأنشئت -وهي الحياة فيها والمقام بها- صارت لعبا ولهوا، وصارت[٥] غرورًا إذ صيروها كالمُنْشَأة لنفسها لا للآخرة. وهذا كما قال: وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ،[٦] أخبر أن السورة كانت تزيد لأهل الإيمان إيمانا ولأهل الكفر والنفاق رجسًا وعمًى. والسورة[٧] لا تزيد رجسًا[٨] ولا عمى في الحقيقة، لأنه وَصَف القرآن بأنه نور وأنه هدى ورحمة وبرهان ولكن صار عمى ورجسًا[٩] لمن أعرض عنه وكذب به،[١٠] وردّه. وأما[١١] من تلقاه بالقبول وأقبل إليه، ونظر إليه بالتعظيم والإجلال له والخضوع فهو له نور وهدى ورحمة.

فعلى ذلك الدنيا وما فيها من النعم واللذات إذا جعلها على[١٢] غير ما جُعلت هي وأُنشئت صارت[١٣] لعبًا ولهوًا وغرورًا. بل لو حُمدت هي على ما أنشئت مكانَ ما ذُمت لكان حقًا وصدقًا، لأنه[١٤] سمى نعيمها حسنة وخيرًا وصلاحًا ونحوه. فلا جائز أن يَذُمّ الحسنة والخير. بل حَقّ الذمُّ على أهلها حيث[١٥] اغتروا بها وصيروها في غير ما صُيّرت وجعلت، لغفلتهم عما جعلت هي وصرفِهم إياها إلى غير الذي صُرفت.[١٦]

---

[١] ر ث م: وهو.
[٢] جميع النسخ: ما ذكرنا.
[٣] ن + اليها.
[٤] ن - إلى الوصول إلى الآخرة.
[٥] م: أو صارت.
[٦] سورة التوبة، ١٢٤/٩
[٧] ن: السورة.
[٨] ر ث م + لمن.
[٩] ر ث م: رجسا.
[١٠] ر م - به.
[١١] ن: فاما.
[١٢] ر م - على.
[١٣] ر م: صار.
[١٤] ر م: لانها. لأنه أي الله تعالى.
[١٥] ر م: وحيث.
[١٦] جميع النسخ + وجعلهم بها.

وعلى ذلك لا يجوز ذم الغَناء والسعة والصحة والسلامة، لأن ذلك كله نعم من الله أنعمها على الناس، فيجب أن ينظروا إلى ما عليهم لله من الشكر في ذلك فيؤدوه؛ وكذلك العز والثناء الحسن ونحوه، لا يجب أن يُذَم شيء من ذلك، بل يذم من لم يعرف أن العز فيم؟ إنما العز / في طاعة الله والعبادة له، لا في معاصيه. فهؤلاء سَمّوا معصية الله عزًّا لجهلهم بالعز.[١] [٦٢٣ظ]
وكذلك الثناء الحسن يجب أن يَحْمَد ربه ويشكر له فيما يستر[٢] على الخلق فضائحه ومساوئه حتى أثنوا عليه ما لو بدا[٣] ذلك منه وظهر[٤] لهربوا منه فضلا أن يثنوا عليه ويحمدوه، فيجب أن يشكر ربه ويُثني بما ستر[٥] على معاصيه وفضائحه. *والله الموفق*.

وقوله: **ولا يغرّنّكم بالله الغَرور**. الغَرور: بفتح الغين، هو الشيطان؛ يقول: لا يغرنكم بالله الشيطان. ثم يحتمل قوله: **بالله الغرور** وجوها. أحدها **لا يغرنكم بالله**، أي بكرمه وجوده؛ يقول: إنه كريم وجواد غفور، يتجاوز عنكم، ويعفو عنكم معاصيكم ومساوئكم.[٦] والثاني **ولا يغرنكم بالله الغرور**، أي بغِناه؛ يقول: إنه غني ما به حاجة إلى عبادتكم إياه وفيما أمركم به ونهاكم عنه. والثالث أن يكون قوله: **ولا يغرنكم بالله**، أي لا يغرنكم عن طاعة الله وعبادته فتعصوه. وذلك جائز في اللغة: الباء مكان عن، كقوله: عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا،[٧] أي عنها، إذ لا يَشرب بالعين، وإنما يشرب عنها. *والله أعلم*.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[٦]

وقوله: **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًّا**، يذكر هذا -والله أعلم- لأن ما يدعو[٨] الشيطان الخلق إليه في الظاهر يخرج مخرج الشَّفقَة لهم والنصيحة كما يدعو[٩] الأولياءُ، لأنه يدعوهم إلى قضاء شهواتهم ولذاتهم وما تَهوَى به أنفسهم،[١٠] وإن كان يضمر ويقصد به هلاكهم.

---

[١] ر م: في العز.
[٢] ث ن: ستر.
[٣] ر: بذا.
[٤] جميع النسخ: أظهر.
[٥] ر: يستر.
[٦] ن: في مساويكم.
[٧] سورة الإنسان، ٦/٧٦
[٨] ر م: يدعوا.
[٩] ر م: يدعوا.
[١٠] ر م: نفسهم.

ألا يرى[١] أنه[٢] كيف أظهر لآدم وحواء من الشفقة لهم والنصيحة، حيث قال: مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ، إلى قوله: لَمِنَ النَّاصِحِينَ،[٣] ونحوه. وكان قصده بذلك ما ذكر: فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ،[٤] الآية، هذا كان يضمر ويقصد في دعائه إياهما إلى التناول من تلك الشجرة التي نهاهما ربهما. فعلى ذلك فيما يدعو الناس به إلى قضاء شهواتهم وحاجاتهم في الظاهر، فهو يقصد بذلك هلاكهم لمخالفتهم المولى لا ما يُظهر ويبدي لهم؛ لذلك قال: إنه عدو لكم، ليس بولي، **فاتخذوه عدوًا** أي كونوا عن دعائه وأمره على حذر كما يحذر المرء دعاء عدوه.

إنما يدعو حزبه، قال بعضهم: أهل طاعته. وقال القُتَبي وأبو عَوْسَجَة:[٥] حزبُه أنصاره. والحزب الأنصار.[٦] وقال بعضهم: جنده، وقال بعضهم: حزبه ولاته[٧] الذين يتولاهم ويتولونه، وكله واحد. ثم قوله[٨] **إنما يدعو حزبه**، وهو يدعو حزبه وغير حزبه،[٩] لكنه[١٠] خص حزبه بالدعاء لهم لما أن حزبه هم المجيبون له والمطيعون، فأما[١١] غير حزبه فلا يجيبونه، وهو كقوله: إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ،[١٢] وكان[١٣] ينذر[١٤] من اتبع الذكر ومن لم يتبع.[١٥] لكن خص بإنذاره من اتبع الذكر لما أن متبع الذكر هو المنتفع به دون من لم يتبع، لذلك خص. *والله أعلم*. فعلى ذلك ما خص بدعائه حزبه لأن حزبه هم المجيبون له والمطيعون.

---

[١] ن: ترى.
[٢] ر ن م: انهم.
[٣] سورة الأعراف، ٧/٢٠-٢١.
[٤] سورة الأعراف، ٧/٢٠.
[٥] ر ث م: وعوسجة. «هو أبو عوسجة توبة بن قتيبة الحُجَيمي النحوي الأعرابي، دخل سمرقند وأقام بها، وكان يذهب مذهب أبي عبيدة معمر بن المثنى في باب الأدب، كان أستاذ الشيخ الإمام أبي منصور الماتريدي في الأدب، روى عنه سَيحان بن الحسين ابن حازم المؤدب من محلة أشتابديزة» (*القند في ذكر علماء سمرقند* لأحمد النسفي، ١١٥).
[٦] لم أجده.
[٧] ر م: ولاية.
[٨] ر م: بقوله.
[٩] ر ث م – وهو يدعو حزبه وغير حزبه.
[١٠] ن: لكن.
[١١] ن: واما.
[١٢] سورة يس، ٣٦/١١.
[١٣] ن: كان.
[١٤] ن: تنذر.
[١٥] ر م + الذكر.

وقوله: **ليكونوا من أصحاب السعير**، قصد[١] بدعائه حزبه[٢] إلى ما يدعوهم، **ليكونوا من أصحاب السعير**. وإلا لو كان أظهر لهم الدعاء إلى عذاب[٣] السعير ما أجابوه ولا أطاعوه، ولكن دعاهم إلى أعمال توجب لهم السعير، أو ليكون لهم عذاب السعير.

﴿اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[٧]

وقوله:[٤] **الذين كفروا لهم عذاب شديد**، وهو[٥] ظاهر. **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير**. قوله: **لهم مغفرة** لما عملوا من غير[٦] الصالحات بعد إيمانهم، أو مغفرة لذنوبهم في الإيمان.[٧] **وأجر كبير**[٨] لإيمانهم وأعمالهم الصالحات.

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[٨]

وقوله: **أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا**، ليس لهذا الحرف في هذا[٩] الموضع جواب. فجائز أن يكون جوابه في قوله: **فلا تذهب نفسك عليهم حسرات** على التقديم له. كأنه يقول –والله أعلم–: أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء. أو أن يكون قوله: **أفمن زين له سوء عمله** فَلَزِمَه كمن قُبِّح له فانتهى عنه؟ ليسا بسواء،[١٠] كقوله: أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ.[١١] ذُكر أن قوله: أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ،

---

[١] ث: قصده.
[٢] ن – لأن حزبه هم المجيبون له والمطيعون وقوله ليكونوا من أصحاب السعير قصد بدعائه حزبه.
[٣] ر ث م: أصحاب.
[٤] ر ن + كقوله.
[٥] ث ن: هو.
[٦] م: غيرا.
[٧] وعبارة السمرقندي هكذا: «مغفرة لذنوبهم السالفة بالإيمان» (ورقة ٦٢١ظ).
[٨] ن – قوله لهم مغفرة لما عملوا من غير الصالحات بعد إيمانهم أو مغفرة لذنوبهم في الإيمان وأجر كبير.
[٩] جميع النسخ: في ذا. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٦٢١ظ.
[١٠] ر م: بسوء.
[١١] سورة الأنعام، ١٢٢/٦.

نزل في عمر بن الخطاب، وقوله: كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ، في أبي جهل؛ فعلى ذلك الأول. أو أن يكون[1] ما ذكر بدءًا على التقديم والتأخير.

وقوله: **فإن الله يضل من يشاء** عن الهدى،[2] **ويهدي من يشاء** من الضلالة إلى الهدى، يضل من عَلِم منه أنه يختار الضلال، ويهدي من علم منه أنه يختار الهدى.

وقوله: **فلا تذهب نفسك عليهم حسرات**، هذا يحتمل وجوها. أحدها قوله: **فلا تذهب نفسك عليهم حسرات**،[3] أي لا تَقتل[4] ولا تُذهِبْ نفسَك عليهم حسراتٍ[5] إشفاقا على ما ينزل بهم بتركهم الإيمان، لأن رسول الله كاد[6] أن يهلك نفسه إشفاقا عليهم، فنهاه عن ذلك.[7]

والثاني على تخفيف الحزن عليه ورفعه عنه وتسليته إياه، لأنه كان يشتد به الحزن لمكان [٦٢٤و] كفرهم وتكذيبهم إياه / وتركهم الإيمان به، ليس على النهي، كقوله: وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ،[8] وقد ذكرنا معناه فيما تقدم مقدار ما حفظنا فيه.[9] *والله أعلم*.

وقوله: **إن الله عليم بما يصنعون**، هذا يخرج على وجهين. أحدهما أن الله على علم بصنيعهم أنشأهم لا عن جهل بما يكون منهم. والثاني **عليم بما يصنعون** فلا تكافِئْهم، ولا تَشتغِلَنّ[10] بشيء مما يكون منهم، ولكن فوّضْ ذلك إلى الله وأَسْلِم إليه.

﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾[٩]

وقوله: **والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابًا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور**، أي كذلك يحيي الموتى،[11] وقد ذكرنا ذلك فيما تقدم.[12]

---

[1] ر م: وأن يكون.
[2] ر م – عن الهدى.
[3] ن – هذا يحتمل وجوها أحدها قوله فلا تذهب نفسك عليهم حسرات؛ ن ث + على النهي.
[4] ر م: أي لا تضل.
[5] ن – عليهم حسرات.
[6] ر: كان.
[7] ر + كقوله وقوله؛ ث + كقوله ولا تحزن؛ ن + كقوله.
[8] ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون﴾ (سورة النحل، ١٦/١٢٧).
[9] انظر عند تأويل قوله تعالى من سورة الحجر، ١٥/٨٨؛ وسورة النحل، ١٦/١٢٧.
[10] ر م: ولا تشتغلن.
[11] ر: الموت؛ ن + بهذا الموت؛ ث + بعد الموت.
[12] انظر عند تأويل الآية ٥٠ من سورة الروم.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾[١٠]

وقوله: **من كان يريد العزة فلله العزة جميعًا**. قال بعضهم: من كان يريد القوة والمَنَعَة بعبادة الأصنام ومن عبدوا دونه. **فلله العزة جميعًا**، أي فبعبادة الله وطاعته ذلك في الدنيا والآخرة، أي فَمِن عنده اطلبوا ذلك، كقوله:[١] مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،[٢] أي من عنده اطلبوا ذلك في الدنيا والآخرة. وقال بعضهم: **من كان يريد العزة**، أي العز[٣] والتعزز،[٤] **فلله العزة جميعًا**، أي فبالله يكون عز الدنيا والآخرة لا[٥] بالأصنام التي عبدتموها. وقد كان منهم بعبادتهم الأصنام طلب الأمرين: طلب العز، كقوله: وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا،[٦] وطلب القوة والمنعة، كقوله: وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ،[٧] فأخبر أن ذلك إنما يكون بالله وبطاعته؛ فمن عنده اطلبوا لا مِن عند[٨] من تعبدون دونه. ***والله أعلم***.

وقوله: **إليه يَصْعَد الكَلِم الطيب والعمل الصالح يَرفعه**، اختلف فيه. قال قائلون: **إليه يصعد الكلم الطيب**، هو الوعد الحسن، **والعمل الصالح يرفعه**، هو إنجاز ما وعد، أي إذا أنجز ما وعد من الوعد الحسن ووَفَى[٩] ذلك رفع ذلك[١٠] الإنجازُ الوعدَ الحسن الذي[١١] وَعَد. قال بعضهم: **إليه يصعد الكلم الطيب**، هو كلمة التوحيد و الإخلاصُ،[١٢] **والعمل الصالح يرفعه**، أي إخلاص التوحيد لله يرفع الكلم الطيب الذي تكلم[١٣] به. فعلى هذا التأويل لا[١٤] يصعد الكلم الطيب إليه ما لم يُخلص ذلك لله.

---

[١] ر م - كقوله.
[٢] سورة النساء، ١٣٤/٤.
[٣] جميع النسخ: العزة. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٦٢٢و.
[٤] ر ن م: والتعزيز.
[٥] ر م - لا.
[٦] سورة مريم، ٨١/١٩.
[٧] سورة يس، ٧٤/٣٦.
[٨] ر م: عبد.
[٩] ر: وق.
[١٠] ر م - رفع ذلك.
[١١] ر م - الذي.
[١٢] جميع النسخ: وشهادة الإخلاص. والتصحيح مستفاد من شرح *التأويلات*، ورقة ٦٢٢و.
[١٣] ن: يكلم.
[١٤] ر م: الى.

وقال قائلون: **إليه يصعد الكلم الطيب** هي كلمة التوحيد على ما ذكرنا، **والعمل الصالح يرفعه**، أي يرفع الله العمل الصالح لصاحبه، يعني لصاحب الكلام الطيب. فعلى هذا التأويل يصعد الكلم الطيب إليه دون العمل الصالح. وبعض أهل التأويل يقولون:[1] يرفع كلامُ[2] التوحيد الطيبُ العملَ الصالح إلى الله وبه يتقبل الأعمال الصالحةَ. وظاهر الآية أن يكون العمل الصالح هو الذي يرفع الكلم[3] الطيب، لكن الوجه فيه -والله أعلم- ما ذكرنا من الوجوه. وبعضهم يقول: إن العمل الصالح يرفع الكلام الطيب، والوجه فيه ما ذكرنا.[4]

وقوله: **والذين يمكرون السيئات**. قال عامة أهل التأويل: والذين يعملون السيئات. وجائز أن يكون ما ذكر من مكرهم السيئات هو مكرهم برسول الله وأذاهم إياه، كقوله: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ،[5] الآية، ويمكر الله بهم في الدنيا بالهلاك والقتل، وفي الآخرة بالعذاب الشديد الذي حيث قال: **لهم عذاب شديد** في الآخرة. **ومكر أولئك هو يبور**، أي هو يَهْلِك، من البوار وهو الهلاك، وهو قتلهم ببدر. ***والله أعلم***.

﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾[١١]

وقوله: **والله خلقكم من تراب**. **خلقكم**، أي قدركم مع كثرتكم من أول أمركم إلى آخر ما تنتهون إليه من التراب الذي خُلِق آدم منه، إذ الخلق في اللغة التقدير.

وقوله: **ثم من نطفة**، أي قدركم أيضًا مع كثرتكم وعِظَمكم من تلك النطفة. يخبر عن علمه وتدبيره في تقديره إيانا مع كثرتنا من ذلك[6] التراب ومن تلك[7] النطفة وإن لم نكن[8] نحن على ما نحن عليه في ذلك التراب وفي ذلك الماء، ليعلموا أن من قدَر على تدبير إنشائنا

---

[1] ر ث م - يقولون.

[2] جميع النسخ: الكلام.

[3] ر: الكلام.

[4] ن + والله أعلم.

[5] سورة الأنفال، ٨/٣٠.

[6] ر ث م: في ذلك.

[7] جميع النسخ: وفي تلك. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٦٢٢و.

[8] ر: وان لم تكن.

وتقدير كلٍ من ذلك التراب[1] والنطفة لا يُعجزه شيء. أو أن يكون إضافته إيانا إلى ذلك التراب والماء لأنه كان ذلك أصلنا ومبادئ أمورنا، وكان المقصود بخلق ذلك التراب والماء والأصل هذا الخلق، وهو العاقبة. وقد تذكر وتضاف[2] العواقب إلى المبادئ وتنسب إليها إذا كان المقصود من المبادئ العواقب. وله نظائر جَمّة[3] كثيرة، وقد ذكرنا في غير موضع.[4]

وقوله: **ثم جعلكم أزواجًا**، أي خلقكم من ذلك ذكرًا وأنثى لِيَسكن بعضه إلى بعض؛[5] أو **جعلكم أزواجا** أصنافا. وفي حرف ابن مسعود: والله الذي خلقكم من نفس واحدة، ثم جعلكم أزواجًا.[6] ***والله أعلم.***

وقوله: **وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه**، يقول: –والله أعلم– ما تحمل من أنثى من أول ما تحمل إلى آخر ما تنتهون[7] إليه إلا بعلمه السابق. وكذلك لا تضع كل حامل من أول ما تضع إلى أخر ما تنتهون[8] إليه إلا بعلمه السابق[9] أنها تحمل كذا في وقت كذا من كذا وأنها تضع كذا في وقت كذا. يخبر عن علمه السابق من أول منشئهم إلى آخر ما يكونون، وينتهون إليه أنه كان كله بذلك التقدير / الذي كان منه. ***والله أعلم.*** [٦٢٤ظ]

وقوله: **وما يُعَمَّر من مُعمَر ولا يُنقَص من عُمُره إلا في كتاب**. قال بعضهم قوله:[10] **وما يعمر من معمر**، أي ما يُطَوَّل من عمر وإن طال،[11] **ولا ينقص من عمره**، أي ما نُقص وقُصِّر من ذلك ولم يُطَوَّل، **إلا في كتاب**، أي إلا كان ذلك كله في الكتاب مُبَيَّنًا هكذا مطوّلًا ومقصَّرا.[12]

---

[1] ر م – وفي ذلك الماء ليعلموا أن من قدر على تدبير إنشائنا وتقدير كل من ذلك التراب.

[2] جميع النسخ: وقد يذكر ويضاف.

[3] ر م: جهة؛ ث – جمة.

[4] انظر مثلا: سورة الروم، ٢٠/٣٠.

[5] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ (سورة الروم، ٢١/٣٠).

[6] لم أجده.

[7] ن: ما ينتهون.

[8] جميع النسخ: ينتهون.

[9] ث ن + وكذلك لا تضع كل حامل من أول ما تضع إلى آخر ما ينتهون إليه إلا بعلمه السابق.

[10] م – قوله.

[11] ن – ولا ينقص من عمره إلا في كتاب قال بعضهم قوله وما يعمر من معمر أي ما يطول من عمر وإن طال؛ ث – من عمر وإن طال.

[12] ر م – ومقصرا.

وقال بعضهم: **وما يعمر من معمر**، أي من كَثُرَ[1] عمره وطال، أو قل عمره فهو يُعمَّر إلى أجله الذي كتب له. ثم قال: **ولا ينقص من عمره** كل يوم وكل ساعة حتى ينتهي إلى آخر أجله **إلا في كتاب** في اللوح المحفوظ مكتوب قبل أن يخلقه.

إن ذلك على الله يسير. قال صاحب هذا [القول]: إن كتاب الآجال حين كتبه الله في اللوح المحفوظ على الله هين. وقال آخر قريبا من هذا في قوله: **ولا ينقص من عمره** في[2] جَرْي الليل والنهار والساعات **إلا في كتاب**. وذلك أن الله تعالى كتب لكل نَسَمة عمرا تنتهي[3] إليه، فإذا أجرى عليها الليل والنهار نقص ذلك عمرَها، حتى يبلغ ذلك أجلها. فمن قُضي له أن يعمَّر حتى يُدركه الكِبَر أو عُمِّر دون ذلك، فهو بالغ ذلك الأجل الذي قضي له، وكان ذلك في كتاب ينتهون إليه. **إن ذلك على الله يسير**، يقول قائل:[4] إنّ حفظ ذلك على الله بغير كتاب يسير هين. وجائز أن يكون قوله: **إن ذلك على الله يسير**، أي إنّ علمَ ما ذكر وتقديره من أول ما أنشأهم وتغيير أحوالهم إلى آخر ما يكونون وينتهون إليه **يسير**، أي لا يخفى عليه.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١٢]

وقوله: **وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج**، فيه وجوه من المعتبر. أحدها يُذكّر أن لا يستوي في الحكمة الخبيث من الرجال والطيّب منهم كما لا يستوي المالح من الماء والأجاج، والعذب[5] منه والسائغ. وقد استوى الطيب من الرجال والخبيث في منافع الدنيا ومَأْكَلَاتها، وفي الحكمة التفريق بينهما والتمييز، دلَّ أن هنالك دارًا يميز [فيها] بينهما ويفرَّق، إذ قد استويا[6] في منافع الدنيا[7] وحُطامها، وفي الحكمة التفريق والتمييز لا الجمع والاستواء. وذلك يدل على البعث.

---

[1] ر ن م: كثرة.

[2] م + من.

[3] ر: عمر انتهى؛ م: ينتهى.

[4] جميع النسخ + هذا.

[5] جميع النسخ: العذب. والتصحيح مستفاد من شرح *التأويلات*، ورقة ٦٢٢ظ.

[6] ر: ليسو. م: يستوي.

[7] ر م – الدنيا.

والثاني فيه أن المُنْشَأ من الأشياء في هذه الدنيا والمخلوق فيها لم ينشئها لحاجة[١] نفسه، ولكن لحوائج الخلق ومنافعهم وما يكون لهم العبرة في ذلك؛ إذ من أنشأ شيئا لحاجة نفسه أنشأ ألذ الأشياء وأحلاها[٢] وأنفعها له لا مرًّا مالحًا أجاجًا ما لا ينتفع به. يخبر عن غناه عما أنشأ من الأشياء ليعلم أنه لم ينشئها لحوائج نفسه، ولكن لما ذكرنا. وهو على المعتزلة في قولهم: إنه لم يخلق شيئًا لا ينتفع به، وإنه لا يفعل بهم إلا ما هو أصلح لهم في الدين؛ إذ قد أنشأ ماء أجاجًا مالحًا لا ينتفع به، ليكون لهم العبرة في ذلك.

والثالث فيه ترغيب في إيمان الخبيث الكافر، ودفعُ الإياس عن توحيدهم وقطعِ الرجاء عن عودهم إليه؛ حيث أخبر عما يأكلون من الماء المالح والأُجاج والعَذْب السائغ جميعًا اللحمَ[٣] الطَّرِيَّ ما[٤] حق[٥] مثله إذا أُلقي فيه أو في مثله اللحم الطريُّ أن يَفْسُدَ[٦] من ساعته.[٧] ويذكرهم أيضًا عن قدرته أن من قدر على حفظ ما ذكر من اللحم الطري في الماء الذي لا يقدر على الدنو منه والقرب فضلا أن يكون فيه حفظ ما ذكر من الإفساد، فمن قدر على هذا لا يُعجزه شيء، ولا يَخفى عليه شيء.

والرابع يذكر نعمه التي أنعمها عليهم حيث قال: **ومن كُلٍّ تأكلون لحما طَرِيًّا وتستخرجون حِلْيَةً تلبسونها**، يذكر عِظَم نِعمه وقدرتَه حيث جعل البحار مسخَّرة مذللة يقدرون على استخراج ما فيها من الحُلِيِّ والجواهر والوصول إلى المنافع التي هي وراء البحار وقَطْعِها بسفن أنشأها لهم وأجراها في الماء الراكد الساكن برياح تعمل عمل جريان الماء. بل الأعجوبة في إجراء السفن بالرياح في المياه الراكدة الساكنة أعظم وأكثر من جريانها على جَرْيَة[٨] الماء، لأنها في الماء الجاري لا تجري إلا على الوجه الذي يجري الماء، وفي البحار تجري بريح واحدة من الأسفل[٩] إلى الأعلى

---

[١] ر: الحاجة.

[٢] ن: وأحلا.

[٣] جميع النسخ: واللحم.

[٤] جميع النسخ: مما. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٦٢٢ظ.

[٥] ر ث م: حقق.

[٦] ر م: ان يفيد.

[٧] قال الشارح: «والثالث فيه ترغيب للنبي صلى الله عليه وسلم في دعاء الكفار الخبيث إلى الإيمان ودفع إياسه عن إيمانهم ورجوعهم إلى الله تعالى حيث أخبر وقال: ﴿ومن كل تأكلون لحما طريا﴾ أخبر عما يأكلون من الماء المالح الأجاج والعذب السائغ اللحمَ الطري، ما حق مثله إذا ألقي فيه اللحم الطري أن يفسد في ساعته» (شرح *التأويلات*، ورقة ٦٢٢ظ).

[٨] ر: على جزئه.

[٩] ن: ومن الأسفل.

ومن الأعلى إلى الأسفل حيث[1] شاءوا. دل أن الأعجوبة في هذا أكثر وأعظم.[2] ومن مَلِك هذا لا يُعجزه شيء.

أو أن يكون المثل الذي ذُكِر في البحرين: أحدهما عذب ماؤه والآخر أجاج ماؤه يكون للعمل الصالح وهو التوحيد، وللعمل السيئ وهو الكفر. يقول:[3] كما لا يستوي في الفضل الماءُ العذب والماء المالح فعلى ذلك لا يستوي العمل الصالح والعمل السيئ.

وقوله: **وترى الفلك فيه مواخر**. قال بعضهم: مواخر تجريان، إحداهما مقبلة، والأخرى مدبرة بريح واحدة، وتستقبل إحداهما[4] الأخرى. وقال بعضهم:[5] المواخر هي التي تشق الماء وتقطعه،[6] من مَخَرَ يَمْخَرُ، وقد ذكرناه[7] فيما تقدم.[8]

وقوله: **لتبتغوا من فضله**، هذا يدل أن ما يصاب بالأسباب والمكاسب إنما هو فضل الله،[9] إذ قد يكتسب [المرء] ولا يكون منه شيء. *والله أعلم*.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾[١٣]

وقوله: **يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى**، يذكر هذا لأهل مكة لإنكارهم / الصانع وإنكارهم البعث وإنكارهم الرسل، [٦٢٥و] لأنهم كانوا فرقا ثلاثا:[10] منهم من ينكر الصانع والتوحيد، ومنهم من ينكر البعث، ومنهم من ينكر الرسل. ففي الآية دلالة إثبات الصانع وتوحيده، وفيها دلالة البعث والإنشاء بعد الموت، وفيها دلالة إثبات[11] الرسالة.

---

[1] ن + يجري الماء وتجري بريح واحدة من الأسفل إلى الأعلى ومن الأعلى إلى الأسفل حيث.
[2] ن: أعظم وأكثر.
[3] ر: بقوله.
[4] م: أحدهما.
[5] ن – مواخر تجريان إحداهما مقبلة والأخرى مدبرة بريح واحدة وتستقبل إحداهما الأخرى وقال بعضهم.
[6] ر ث م: ويقطعه.
[7] ن: ذكرنا.
[8] انظر عند تأويل الآية ١٤ من سورة النحل.
[9] م – الله.
[10] جميع النسخ: ثلاثة.
[11] ن – الصانع وتوحيده وفيها دلالة البعث والإنشاء بعد الموت وفيها دلالة إثبات.

أما دلالة إثبات الصانع والوحدانية[1] [ففي] اتّساق الليل والنهار والشمس والقمر وما ذَكَر وجريانِها وجريانِ الأمور كلِّها على سَنَن واحد وميزان واحد وقَدْرٍ واحد من أول ما كان إلى آخر ما يكون من غير زيادة أو نقصان يدخل فيه أو تقديمٍ أو تأخير يكون فيه. [هذا] يدل على أن لذلك كله صانعًا مدبرًا أنشأه ودبّر كل شيء على ما كان وحَفِظ كله على ميزان واحد، إذ لو كان ذلك[2] بنفسه لكان لا يجري على حد واحد،[3] بل يتفاوت ويتفاضل. وكذلك لو كان فعلَ عددٍ لكان يتقدم ويتأخر ويتغير ويمتنع ويذهب رأسا على ما يكون[4] فعل العدد من الملوك: إنّ ما أراد هذا إثباته أراد[5] الآخر نفيَه[6] ومنعه، وما أراد هذا نفيه[7] وإبطاله أراد الآخر إثباته، وذلك معروف فيهم من مخالفة بعض بعضا. فدلّ اتساق ما ذكرنا وجريانه على تدبيرٍ واحد[8] أنه فعل واحد وتدبير واحد لا عددٍ. *وبالله القوة*. ودلّ ذهاب الليل وتَلَفه بكليته حتى لا يبقى له أثر، وكذلك ذهاب ضوء النهار ونوره، وكذلك الشمس والقمر وإتيان الآخر بعد تلفه [على] أنه بعث، إذ لو لم يكن بعثا[9] كان تدبير ذلك كله وتقديره لعبًا باطلًا، وأن من قدر على[10] هذا يقدر على الإحياء بعد الموت وأنه لا يعجزه شيء.

فإذ ثبت ما ذكرنا لا يحتمل أن يتركهم[11] سدى: لا يأمرهم ولا ينهاهم[12] ولا يمتحنهم بأنواع المحن. فلا بد من رسول يأمر وينهى، ويخبر عما لهم وعليهم. وفيه أن مدبر ذلك كله عليم حكيم. ثم يخبر أن الذي فعل[13] ذلك كله هو **الله ربكم** الذي **له الملك**. يقول: الذي فعل هذا كله [ربكم] لا الأصنام التي عبدتم دونه وسميتموها[14] آلهة. فكيف صرفتم العبادة إليها والألوهية وما تعبدون من دونه لا يملكون ما ذُكر. حيث قال:

[1] ر ث م + له.
[2] ر: بذلك؛ ن – ذلك.
[3] ث ن + ولا ميزان واحد.
[4] ن + من عادة.
[5] ر م – هذا إثباته أراد.
[6] ر م: نفسه.
[7] ر م: نفسه.
[8] ن + وتقدير واحد.
[9] جميع النسخ: بعث.
[10] م – على.
[11] ن: تركهم.
[12] جميع النسخ: ولا ينهى. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٦٢٣و.
[13] م – فعل.
[14] ن: سميتموها.

والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير، يُسَفِّه أحلامهم في عبادة من عبدوا دونه على علمٍ منهم أنهم لا يملكون[1] ما ذكر، وصَرْفِهم العبادة عن الله على علم منهم أن ذلك كله من الله وهو المالك لذلك.

[٦٢٥و س٢٧ *وفي قوله: **يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل**، وجهان من اللطف. أحدهما يُتلف حتى يُذهب أثره، ويأتي بالآخر. أو يزيد في هذا وينقص من الآخر، ويُدخل من ساعات هذا في ساعات الآخر. وفيه نقض قول الثنوية في قولهم: إن منشئ الخير غير[2] منشئ الشر. ويقولون: إن النور من منشئ الخير، والظلمة من منشئ الشر. فلو كان ما ذكروا لكان إذا ذهب النور وجاءت الظلمة صارت الظلمة[3] هي الغالبة والنور هو المغلوب[4] في يدها. وكذلك النور إذا جاء وذهبت[5] الظلمة صارت هي مقهورة مغلوبة في يد[6] النور، والنور[7] هو الغالب عليها. فإذا صار مغلوبًا مقهورًا في يد[8] صاحبه يجيء أن لا يقدر على استنقاذ نفسه[9] من يده أبدا، على ما يكون من عادة الأعداء إذا غلب بعضهم بعضا، وقهر بعضهم بعضا أن يَهلِك ولا يتخلص منه. فإذ لم يكن ولكن جاء كل واحد[10] منهما في وقته بعد ذهاب أثره على التقدير الذي ذكرنا دلّ أنه فعلُ واحد وتدبير واحدٍ،[11] لا تدبير عدد. *وبالله الحول والقوة*.

والقُتَبي يقول: القطمير هو الفُوقَة[12] التي يكون فيها النواة.[13] وأبو عَوْسَجَة يقول: هو القشرة

٦٢٥و س٣٧] الرقيقة التي يكون بين لحم التمرة وبين نواتها، واحده[14] وجمعه سواء.*

---

[1] ر: يملكون.
[2] م – منشئ الخير غير.
[3] ر م – صارت الظلمة.
[4] ر م: هي المغلوبة؛ ث: هو المغلوبة.
[5] ر: وذهب.
[6] ث: يدي.
[7] ن – إذا جاء وذهب الظلمة صارت هي مقهورة مغلوبة في يد النور والنور.
[8] ث ن: يدي.
[9] ر: انفسه.
[10] ر م – واحد.
[11] ر + لا تدبير واحد و.
[12] الفُوقَة والفُوف: القِشْرة التي على حَبّة القلب والنواةِ دون لَحْمة التَّمْرة. وكل قشرة فوف. قال ابن الأعرابي: الفوفة القشرة الرقيقة تكون على النواة. قال: وهي القطمير أيضا (*لسان العرب*، «فوف»).
[13] غريب *القرآن* لابن قتيبة، ٣٦٠.
[14] ر ن: واحدة.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٦٢٥و/ سطر ٢٧-٣٧.

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[١٤]

ثم يخبر عن عجز مَنْ عبدوه حيث قال: **إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم**. يحتمل[١] **إن تدعوهم** على حقيقة الدعاء **لا يسمعوا دعاءكم** حقيقة، **ولو سمعوا ما استجابوا لكم**، أي لو سمعوا دعاءكم ما يملكون إجابتكم في دفع ضر وسوء ولا في جر نفع. أو أن يكون قوله: **إن تدعوهم**، أي تعبدوهم، **لا يسمعوا دعاءكم**، أي لا يجيبوكم إلى ما تقصدون بعبادتكم إياهم، أو أن[٢] يكون:[٣] ما قبلوا ذلك عنكم، ولا نَفْعُكم فيه. *والله أعلم*.

وقوله: **ويوم القيامة يكفرون بشرككم**، ينكرون يوم القيامة أن يكونوا[٤] شركاءهم أو أَمَروهم[٥] بذلك، كقوله: سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ،[٦] الآية، وقوله: ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ،[٧] ونحوه. *والله أعلم*.

وقوله: **ولا ينبئك مثل خبير**، أي لا ينبئك أحد مثل الذي أنبأك الخبير في الصدق والحق. أو أن يكون قوله: **ولا ينبئك مثل خبير**، أي لا يكون نبأ أحد مثل نبأ الخبير، فاعمل به وأقبل إليه، ولا تُقْبل على نبأٍ غيره. *والله أعلم*.*

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[١٥]

وقوله: **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد**، فيه وجوه من الدلالة. أحدها أنه إنما أمركم ونهاكم وامتحنكم بأنواع المحن لحاجتكم وفقركم إليه لا لحاجة وفقر له في ذلك. فإن ائتمرتموه وأطعتموه فإلى أنفسكم ترجع منفعة ذلك، وإن عصيتم فعلى أنفسكم يلحق ضرر ذلك، كقوله: إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ / فَلَهَا.[٩] [٦٢٥ظ]

---

[١] ر م - إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم يحتمل.
[٢] ر ن: وان.
[٣] جميع النسخ: يقول.
[٤] ن + أن يكونوا.
[٥] ن: أمراءهم.
[٦] ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا﴾ (سورة مريم، ٨٢/١٩).
[٧] ﴿ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾ (سورة سبأ، ٤٠/٣٤-٤١).
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة متأخرا فنقلناه إلى موضعه. انظر: ورقة ٦٢٥و/ سطر ٢٧-٣٧.
[٩] سورة الإسراء، ٧/١٧.

والثاني يقول: تعلمون أن فقركم وحاجتكم إلى الله لا إلى الأصنام التي تعبدونها واتخذتموها[1] آلهة،[2] فكيف صرفتم العبادة والشكر إلى من تعلمون أنكم لا تحتاجون إليه ولا تفتقرون؟

والثالث يأمرهم بقطع أطماعهم من الخلق، لأنه خاطب الكل، وأخبر أنكم جميعًا فقراء إلى الله الطامعَ والمطموعَ فيه، فاقطعوا طمعكم ورجاءكم عن الخلق، واطمعوا ذلك من الله، فإنه الغني الحميد والخلق جميعًا فقراء إليه، يؤيسهم عن الطمع والرجاء عن[3] الخلق. ***والله أعلم.***

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[١٦]

وقوله: **إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد**. يخبر عن غناه وقدرته [بأنه] لو شاء أذهبكم، لتعلمون أنه لم ينشئكم ولا أمركم ولا نهاكم لحاجة نفسه ولا لمنفعة له، ولكن لحاجة أنفسكم.

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾[١٧]

وقوله: **وما ذلك على الله بعزيز**، يحتمل هذا وجهين.[4] أحدهما لا يَعِزّ ولا يَثْقُل عليه ذهابكم وفناؤكم لأنه لم ينشئكم لحاجة نفسه، فذهابكم وفناؤكم وبقاؤكم عليه واحد. والثاني لا يَصعُب عليه ولا يَعِزّ[5] إذهابكم وإحداثكم، ولا يعجزه شيء. يخبر عن قدرته. ***والله أعلم.***

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾[١٨]

وقوله: **ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء**، كأن هذا صلة قوله: اِتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ،[6] الآية. يؤيسهم ليقطعوا أطماعهم

---

[1] ن: و اخذتموها.
[2] ن: المدة.
[3] ن: من.
[4] ر م: بوجهين.
[5] ر م: ولا تعز.
[6] ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم﴾ (سورة العنكبوت، ١٢/٢٩).

يومئذ عن تناصر بعضهم بعضا، وتَحَمُّلِ بعضهم مُؤَن بعض وشفاعة بعضهم بعضا على ما كانوا يفعلون في الدنيا: كان ينصر بعضهم بعضًا في الدنيا إذا أصابهم شيء، ويَفْدي بعضهم عن بعض، ويشفع بعضهم بعضا. كانوا يحتالون مثل هذه الحيل في الدنيا ليدفعوا عن المتصلين بهم الضرر. فأخبر أنْ ليس لهم ذلك في الآخرة،[١] كقوله: وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ،[٢] وقوله: وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا،[٣] مثله كثير، يؤيسهم عن أن يكون لهم في الآخرة ذلك. *والله أعلم*.

وقوله: **إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب**، هذا يخرج على[٤] وجهين. أحدهما إنما ينتفع بالإنذار الذين يخشون ربهم بالغيب، فأما من[٥] لا يخشى ربه فإنه لا ينتفع به. وإلا كان منذرَ[٦] من اتبع الذكر[٧] ومن[٨] لم يتبع، ومن خشي ربه ومن لم يخش. والثاني كأنه[٩] يقول: إنك تنذر غير الذي اتبع الذكر[١٠] وغير الذي خشي ربه، فإنما يتبع إنذارك ويقبله الذي خشي ربه واتبع ذكره. *والله أعلم*.

وقوله: **ومن تَزَكَّى فإنما يتزكى لنفسه**، أي من عمل خيرًا فإنما يعمل لنفسه، أو من جاء بالتوحيد والأعمال الصالحة فإنما يَصلُح أمره وعمله حق[١١] يثاب[١٢] عليه. **وإلى الله المصير**، قد ذكرنا في غير موضع فائدة تخصيص ذكر المصير إليه والمرجع إليه في ذلك اليوم وإن كانوا صائرين إليه في كل وقت.[١٣]

---

[١] جميع النسخ: في آخره. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٦٢٣و.

[٢] ﴿واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾ (سورة البقرة، ١٢٣/٢).

[٣] سورة لقمان، ٣٣/٣١.

[٤] ن - على.

[٥] ر - من؛ م: ما.

[٦] ن: ينذر.

[٧] م: الذكرى.

[٨] ن: ومنه.

[٩] ن: كان.

[١٠] ن: الذي.

[١١] ر ث م - حق.

[١٢] ر: يغاب.

[١٣] انظر عند تأويل الآية ٤ من سورة يونس.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾[١٩] ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾[٢٠] ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾[٢١] ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾[٢٢]

وقوله: **وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات**، ضَرْب هذا المثل يخرج على وجوه. أحدها [أنه] شبّه الأصنام التي كانوا[١] يعبدونها بالأعمى والظلمة والميتة والحرور حقيقة،[٢] لأنها كذلك عُمْيانٌ موتى[٣] لا نور فيها يقول -والله أعلم-:[٤] إنكم تعلمون[٥] أن الذي تعبدون من دون الله عميان لا بصر لهم ولا نور ولا حياة ولا شيء من ذلك، وأن الله هو البصير، ومنه يكون كل خير ونفع؛ فكيف اخترتم عبادةَ مَنْ هذا سبيله على عبادة الله تعالى؟ *وبالله الهداية والعصمة.*

والثاني شبّه أولئك الكفرة بالعُمْيَان والظُّلْمة والموت وما ذكر، والمؤمنَ بالبصير والنور والظل والحياة، ليس على إرادة حقيقة البصر والحياة[٦] وما ذكر، لأن لهم بصرًا يُبصرون، وهم أحياء فيقولون: نحن بُصَراء وأحياء،[٧] وأنتم العميان والأموات[٨] وما ذكر.[٩] لكن شبّههم بالعميان والموتى، لأنه لا حجة لهم ولا برهان على عبادتهم الأصنام، وهم يعلمون أنه لا حجة لهم ولا برهان على ذلك من كتاب أو رسول أو نحوه، إنما هو هَوًى يَهْوَوْن ذلك، وللمؤمنين[١٠] في عبادتهم الله[١١] حجة وبرهان. فمن كان له حجة في عبادته فهو بصير حي نور، ومن ليس له[١٢] ذلك فهو[١٣] أعمى ميت.

---

[١] ر ث م: كان.
[٢] ر ث م: وحقيقة.
[٣] م: وموتى.
[٤] ر م – أعلم.
[٥] ن + ان لا يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور ولا الميت والحي تعلمون.
[٦] ن – وما ذكر والمؤمن بالبصير والنور والظل والحياة ليس على إرادة حقيقة البصر والحياة.
[٧] ر ث م: والإحياء.
[٨] ن: والظلمات.
[٩] ن: وبما ذكر.
[١٠] ر ن م: والمؤمنين.
[١١] م: لله.
[١٢] ن: معه.
[١٣] ن – فهو.

والثالث يذكر هذا دلالة على البعث، لأنهم يعلمون أن الخلق ليس كلهم على حد واحد وحالة واحدة، بل فيهم العميان والبصراء، وفيهم الأحياء والأموات، وفيهم ما ذكر، وقد استَوَوْا جميعًا في منافع هذه الدنيا. وفي الحكمة التفريق بينهم لا الجمع، فلا بد من دارٍ أخرى سوى هذه يُفرَّق بينهم فيها[١] إذ في الحكمة والعقل التفريق لا الجمع. *والله أعلم*.

وقوله: **إن الله يُسمع من يشاء وما أنت بمُسمعٍ من في القبور**. دل قوله: **إن الله يسمع من يشاء** على أن قوله: **وما أنت بمسمع من في القبور** إنما أراد به الكافر. ثم أخبر أن رسوله لا يُسمع لما لا يقدر على ذلك وليس عنده ذلك؛ إذ لو كان بيانا مُبيِّنا أو دعاء على ما تقوله المعتزلة لكان يُسمع ويبين ويَقدر على ذلك. فإذ لم يقدر رسول الله على ذلك دلّ أن عند الله لطفا وشيئا[٢] لم يعطهم. فإذا أعطاهم ذلك اهتدَوا وآمنوا، وكذلك هذا في قوله: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ.[٣] ولو كان بيانا على ما تقول المعتزلة لَهَدَى من أحب، وقد أحب فلم يهتد، دل أن عند الله شيئا[٤] لو أعطى ذلك لاهتدى و لم يكن ذلك عند رسوله، وهو التوفيق / والعصمة. [٦٢٦و]
وهذا ينقض على المعتزلة قولهم: إن الله قد أعطى كل كافر ما به يهتدي لكنه لم يهتد.

ثم لا يحتمل قوله: **إن الله يُسمع من يشاء**، على القسر[٥] والقهر، لأنه لا إيمان ولا هدى يكون في حال القسر والقهر،[٦] دلّ أنه لا يحتمل.

﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾[٢٣]

وقوله: **إن أنت إلا نذير**، هذا يحتمل وجهين. أحدهما ليس عليك إلا الإنذار باللسان، كقوله: إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ،[٧] وقوله: مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ،[٨] وأنت لا تؤاخذ بتركهم قبول الإنذار، كقوله: مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ،[٩] الآية، وقوله: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ،[١٠] الآية.

---

[١] جميع النسخ - فيها. والزيادة من شرح *التأويلات*، نسخة مدينة، ورقة ٧٣٢ظ.
[٢] جميع النسخ: لطف وشيء. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٦٢٣ظ.
[٣] سورة القصص، ٥٦/٢٨.
[٤] جميع النسخ: شيء. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٦٢٣ظ.
[٥] ر ن: على العسر.
[٦] ر م - لأنه لا إيمان ولا هدى يكون في حال القسر والقهر.
[٧] سورة الشورى، ٤٨/٤٢.
[٨] سورة المائدة، ٩٩/٥.
[٩] سورة الأنعام، ٥٢/٦.
[١٠] ﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ (سورة النور، ٥٤/٢٤).

و[الثاني] يحتمل الإنذار بالسيف بأمره إياه بالقتال معهم حتى يؤمنوا، وإن كان على هذا فهو يحتمل النسخ؛ يؤمر بالقتال[١] في وقت ولا يؤمر في وقت. وأما النِذارة باللسان فهو لا يحتمل النسخ أبدا. **والله أعلم**.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[٢٤]

وقوله: **إنا أرسلناك بالحق بشيرًا ونذيرًا**. يحتمل قوله: **بالحق**، أي بالتوحيد، أي أرسلناك لتدعو الناس إلى توحيد الله. أو **أرسلناك بالحق**، أي بالحق الذي لله عليهم وما لبعض على بعض، أو **أرسلناك بالحق**، أي للحق،[٢] وهو البعث الذي هو كائن لا محالة. وقوله: **بشيرا ونذيرا**، أي بشيرا بالجنة لمن آمن بالله وأجابك، ونذيرًا بالنار لمن عصاه وخالف أمره[٣] وترك إجابتك. هذا يدل على أنه لم يُرد في قوله: إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ،[٤] أنه نذير خاصة ليس ببشير.[٥]

وقوله: **وإن من أمة إلا خلا فيها نذير**. قال بعضهم: ليس من أصناف الخلق وجواهرهم على اختلاف جواهرهم وأصنافهم إلا وقد خلا لهم نذير يأمر[٦] وينهى، ويمنع ويبيح، كقوله: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ،[٧] الآية، أخبر أن الخلق على اختلاف أصنافهم وجواهرهم أمم أمثال[٨] البشر، فيتحمّلون ما يتحمل البشر من الأمر والنهي والنذارة والبِشارة.

وقال بعضهم: ذلك راجع إلى الجن والإنس خاصة، ليس إلى الكل، لأنهما هما المخصوصان بالخطاب والنطق والعقل وغير ذلك. وفيهما ظهر بعث الرسل والنُذُر، ولم يظهر ذلك في غيرهما. فكأنه قال: **وإن من أمة** من هذين من القرون **إلا خلا فيها نذير**. **والله أعلم**.

---

[١] ن + معهم حتى يؤمنو وإن كان على هذا.
[٢] ن: أي الحق.
[٣] ن ث: أمرك.
[٤] سورة فاطر، ٢٣/٣٥.
[٥] ن: بشير.
[٦] ث: يأمرهم.
[٧] سورة الأنعام، ٣٨/٦.
[٨] ر: امثالهم.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾[٢٥]

وقوله: **وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات**، يُعَزِّي رسوله ويُصَبِّره على تكذيب قومه إياه، يقول: لست أنت بأول مكذَّب من الرسل، بل قد كُذِّب إخوانك الذين من قبلُ بعدَ ما جاءوا بالبينات والزبر، أي بالكتب المنيرة إليهم، فمع[١] ما جاءوهم[٢] بذلك كذبوهم،[٣] فصبروا على تكذيبهم. فاصبر أنت أيضًا على تكذيب قومك. **والله أعلم**.

[٦٢٦و س٢٤ *ودل قوله: **وبالكتاب المنير** أن قوله سبحانه:[٤] اَللّٰهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ،[٥] أي منير السماوات والأرض[٦] بما سمى الكتاب في غير آي من القرآن نورا، هو نور بما ينير القلوب والصدور.* ٦٢٦و س٢٥]

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[٢٦]

وقوله: **ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير**، أي ثم أخذت الذين كذبوا رسلهم بالتكذيب، فآخُذُ قومَك على تكذيبهم إياك أيضًا. يذكر هذا له ليُصَبِّره على ذلك ويَنْفِيَ حزنه على تكذيبهم إياه، أو يذكر [هذا] زجرًا لقومه عن تكذيبهم إياه فينزل بهم من العذاب ما نزل بأولئك بالتكذيب. وقوله: **فكيف كان نكير**. قال بعضهم: فكيف كان إنكاري؟ وقال بعضهم: عذابي؟*

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[٢٧]

وقوله: **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها**، إلى آخر ما ذكر. فيه فوائد من الحكمة. أحدها أنه جعل -عز وجل- طبع الماء مما يلائم[٩]

---

[١] ر م: مع.
[٢] ر م: جاءهم.
[٣] ر م: فكذبوهم.
[٤] ر م - أن قوله سبحانه.
[٥] سورة النور، ٣٥/٢٤.
[٦] ر م - والأرض.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٦٢٥و/ سطر ٢٤-٢٥.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة متأخرا فنقلناه إلى موضعه. انظر: ورقة ٦٢٥و/ سطر ٢٤-٢٥.
[٩] ر ن م: يلاوم.

ويوافق طباع هذه الثمرات على اختلاف جواهرها وألوانها حتى يكون حياة[1] كل شيء منها وقوامه بهذا الماء. وكذلك جعل طبع هذا الماء ملائمًا موافقا طباع جميع الخلائق من البشر والدواب والطير والوحش وجميع الحيوان على اختلاف جواهرهم وأصنافهم وغذائهم، حتى صار هو غذاء وحياة لهم[2] ليعلم أن من مَلَكَ هذا وقَدَر توفيق هذا بهذا[3] على اختلاف ما ذكرنا من الجواهر والأصناف[4] والأغذية وتدبيره، لا يعجزه إنشاء شيء لا من شيء، ولا يخفى عليه شيء. وفي ذلك دلالة البعث أن من بلغت قدرته وتدبيره وعلمه هذا المبلغ[5] لا يعجزه[6] شيء ولا يخفى عليه شيء.

والثاني أنه أنشأ ما ذكر من مختلف الأشياء والجواهر بهذا الماء، وجعله سببًا لحياة ما ذكر من البشر والدواب وغيره، من غير أن يكون في ذلك الماء الذي أنشأ ذلك منه وجعله سببًا لحياتهم من أثر ذلك فيه أو من جنسه، ليعلم أنه لم يكن أنشأ هذه الأشياء بهذه الماء ولا جعله سببا لها على الاستعانة به والتقوية، بل إعلاما للخلق أسباب مطالب الغذاء والفضل لهم. إذ لو كان على الاستعانة وجَعْلِه سببا لها[7] في إنشاء ذلك لكان يكون تلك الأشياء المنشأة مشاكِلةً للماء مشابهة له. دل أنه جعل ذلك سببا للخلق في الوصول إلى ما ذكرنا من الأغذية لهم من غير أن يروا أرزاقهم من تلك الأسباب والمكاسب، ولكن من فضل الله.

والثالث أنشأ هذه الفواكه والثمرات مختلفةً ألوانها وطَعْمُها لِمَا[8] علم من البشر من الملالة والسآمة[9] من نوع واحد ولون واحد ليتم[10] نعمه عليهم [و]ليستأدي[11] بذلك الشكر عليها. *والله أعلم*.

---

[1] ن + كل حيوة.

[2] جميع النسخ + قياما به.

[3] ر م - بهذا.

[4] ر م - والأصناف.

[5] ن - وعلمه هذا المبلغ.

[6] ن + إنشاء شيء لا من شيء.

[7] ر ث ن: له.

[8] ر م: مما.

[9] ن: والشآمة.

[10] ر ث ن: ليتمم.

[11] ر م: لتأدى.

وقوله: **ومن الجبال / جُدَدٌ بِيضٌ وحُمْرٌ مختلف ألوانها وغَرابيب سُودٌ.** قال بعضهم: [٦٢٦ظ]
أنشأ الجبال أيضا مختلفة من بيض وحمر وغرابيب[١] كما أنشأ الثمرات والدواب والحيوان كلها مختلفة، وقال بعضهم: ذلك وصف[٢] للطرق التي أنشأها في الجبال.*

وغرابيب جمع[٤] غِرْبِيب،[٥] وهو الشديد السواد، يقال: أسود غِرْبِيب،[٦] وهو قول[٧] القُتَبي وأبو عَوْسَجَة. ورجل غِرْبِيب[٨] الشَّعر، أي أسود الشعر؛ ومأخذه من الغراب لأنه أسود. والجُدَد الخطوط والطرائق في الجبال.[٩] وقال أبو عَوْسَجَة: الجُدَة الخط،[١٠] والجُدَد[١١] جمع [بمعنى] الخطوط، يقال: جددت أي خططت، يقال: ثوب جديد، وثياب جُدُد. **ومن الجبال جدد**، أي طرائق مختلفة ألوانها بعضها بيض[١٢] وبعضها أحمر وبعضها[١٣] غرابيب، وهي سُود.[١٤]

يذكرهم[١٥] قدرته وتدبيره أن الجبال مع غلظها وشدتها وارتفاعها جعلها بحيث يُتطرق منها[١٦] في صعودها وهبوطها، فمن قدر على هذا لا يعجزه ولا يخفى عليه[١٧] شيء. أو يذكّرهم[١٨] نعمه عليهم حيث سخرها لهم ليقضوا فيها حوائجهم فيما بعد عنهم وصعب عليهم. والله أعلم.

---

[١] م: وغربيب.
[٢] جميع النسخ + وصفها بالسود.
* وقع هنا مقطع من أول الآية التالية وتفسيرها فنقلناه إلى هنالك. انظر: ورقة ٦٢٦ ظ/ سطر ٣.
[٤] ر: جميع.
[٥] ر م: غريب.
[٦] ر: غريب.
[٧] ر م – القول.
[٨] ر: غريب.
[٩] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٣٦١.
[١٠] ر م: والخطة.
[١١] ر م: الجدد.
[١٢] ن: ابيض.
[١٣] ر م – احمر وبعضها.
[١٤] الجُدّة: الطريقة في السماء والجبل. وقيل: الجُدّة: الطريقة، والجمع: جُدَد. وقوله عز وجل: ﴿جُدَدٌ بِيضٌ وحُمْرٌ﴾ أي طرائق تخالف لون الجبل (*لسان العرب*، «جدد»).
[١٥] ر ن م: يذكر؛ ث: يذكره. والتصحيح من *شرح التأويلات*، ورقة ٦٢٤و.
[١٦] ث ن: فيها.
[١٧] ن – ولا يخفى عليه.
[١٨] جميع النسخ: يذكره. والتصحيح من *شرح التأويلات*، ورقة ٦٢٤و.

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[٢٨]

[٦٢٦ظ س٣] *ومن الناس والدواب والأنعام **مختلف ألوانه**، كاختلاف الجبال والثمار، **كذلك**.[١]*

وقوله: **إنما يخشى الله من عباده العلماءُ**، هذا يحتمل وجوها. أحدها أن الذي يَحِق على العالم بالله أن يكون هو يخشاه لما يعلم من سلطانه وهيبته وقدرته وجلاله. والثاني أن العالم بالبعث[٣] والمؤمن به هو[٤] يخشى مخالفة الله في أوامره ونواهيه لما يعلم من نقمته وعذابه مَنْ خالفه وعصى أمره. فأما من لم يعلم[٥] بالبعث ولم يؤمن به فلا يخافه، كقوله: وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا،[٦] وقوله: إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ،[٧] ونحوه.

أو أن يكون قوله: **إنما يخشى الله من عباده العلماء**، عبارةٌ[٨] عن[٩] جملة المؤمنين، يقول -والله أعلم- **إنما يخشى الله من عباده** المؤمنون[١٠] به المصدقون عذابه ونقمته، فأما من لم يؤمن به فلا يخافه، كما ذكرنا في قوله: إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ،[١١] إن في ذلك لآيات لكل مؤمن، ويكون الصبار والشكور كناية عن المؤمن. فعلى ذلك هذا[١٢] محتمل.

وقال أهل التأويل: على التقديم والتأخير، أي أشد الناس لله خشية أعلمهم بالله. والخشية، قال[١٣] الحسن: هي[١٤] الخوف الدائم اللازم في القلب غير مفارق له.[١٥] ***والله أعلم.***

---

[١] ر ث م: وكذلك.

* وقع ما بين النجمتين متقدما عن موضعه فنقلناه إلى هنا. ورقة ٦٢٦ظ/ س ٣.

[٣] ن: بالغيب.

[٤] جميع النسخ: وهو. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٦٢٤و.

[٥] ر ث م: من يعلم.

[٦] ﴿وما يدريك لعل الساعة قريب. يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق﴾ (سورة الشورى، ٤٢/١٧-١٨).

[٧] ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون. والذين هم بآيات ربهم يؤمنون. والذين هم بربهم لا يشركون. والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ (سورة المؤمنون، ٢٣/٥٧-٦٠).

[٨] ر ث م: عباده.

[٩] ر م: من.

[١٠] ر: المؤمنين.

[١١] انظر: تفسير الآية ٥ من سورة إبراهيم، *تأويلات القرآن*، ٧/٤٦٠.

[١٢] ن: فعلى هذا ذلك.

[١٣] ر م: وقال.

[١٤] ر م: هو.

[١٥] *الدر المنثور* للسيوطي، ١٠/٣٦٨.

وقوله: **إن الله عزيز غفور**، قال بعضهم: العزيز المنتقم من[1] أعدائه، والغفور لذنوب المؤمنين، وقال بعضهم: عزيز في ملكه ومَن دونَه ذليل. غفور، أي ستور على ذنوب المؤمنين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾[٢٩] **﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾**[٣٠]

وقوله: **إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة**، يحتمل ما ذكر من تلاوة الكتاب هاهنا ما ذَكَر في آية أخرى حيث قال: يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ،[2] **وأقاموا** ما فيها من الأمر بالصلاة والأمر بالزكاة. أو أن يكون قوله: **يتلون كتاب الله**، أي يتبعون كتاب الله فيما فيه[3] مما لهم ومما عليهم، يتبعون كله من الإقدام على الحلال والاجتناب عن[4] الحرام. والمنتفعون[5] بكتاب الله هم الذين اتبعوا ما فيه من إقامة الصلاة وإنفاق ما رُزقوا. فأما من تلا و لم يتبع ما فيه فكأنه لم يتل. وهو كما نفى [الله] عنهم هذه الحواس من البصر والسمع واللسان وغيره لتركهم الانتفاع بها وإن كانت لهم تلك الحواس حقيقة،[6] وأثبتها للمؤمن لما انتفع بها وإن لم تكن له تلك حقيقة، فعلى ذلك يحتمل الأول. ***والله أعلم***.

وقوله: **وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرًّا وعلانية**، يحتمل قوله: **سرًّا وعلانية**[7] في كل حال وكل وقت، لا يتركون الإنفاق على كل حال، كقوله: أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ،[8] أي ينفقون على كل حال. ويحتمل: **وأنفقوا مما رزقناهم سرًّا وعلانية**، أي يتصدقون الصدقة ظاهرًا وباطنًا، أي ما ظهر للناس وعلموا به وما خفي عنهم واستتر، لما قصدوا بها وجهَ الله لا مراآةَ الخلق. فمن كان قصده بالخيرات وجهَ الله لا مراآة[9] الخلق فعلمهم به وجهلهم سواء لا يمتنع عن ذلك أبدًا. ***والله أعلم***.

---

[1] ر: عن.
[2] ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون﴾ (سورة البقرة، ١٢١/٢).
[3] ر + من.
[4] ر: على.
[5] ر ث م: والمشفقون؛ ن: أو المشفقون.
[6] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يرجعون﴾ (سورة البقرة، ١٨/٢؛ وانظر أيضا: نفس السورة، ١٧١/٢).
[7] ن - يحتمل قوله سرا وعلانية.
[8] ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين. الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾ (سورة آل عمران، ١٣٣/٣-١٣٤).
[9] ر: لا مراآت.

وقوله: **يرجون تجارة لن تبور**، سمى ما يَبذُل[1] العبد لله "تجارة"، وإن كان ذلك له في الحقيقة لطفا منه وإحسانًا. وكذلك ما ذكر من إيفاء الأجر لهم على أعمالهم حيث قال: **ليوفيهم[2] أجورهم**. وذلك ليس في الحقيقة أجرًا، لما لا يستوجبون[3] الأجر قِبَلَه بتلك الأعمال لما عليهم[4] من الشكر فيما أنعم عليهم من أنواع النعم، ومتى يفرغون[5] عن شكر ما أنعم عليهم حتى يكون ذلك أجرًا لهم. لكنه عز وجل بفضله وإنعامه وَعَدَ لهم الثواب والأجر على حسناتهم وأعمالهم الصالحات إفضالا منه وإنعامًا منه، وسَمَّى ذلك تجارة كأن[6] ليس ذلك له في الحقيقة ترغيبا منه الخلقَ[7] على ذلك وتحريضا لهم في ذلك. ***والله أعلم***. **ويَزيدَهم من فضله** على ذلك أيضًا.

وقوله: **إنه غفور شكور**، يحتمل قوله: **غفور**، أي ستور لمساوئهم، **شكور**، أي مظهر لحسناتهم بإدخاله إياهم الجنة ليعلم كل[8] أحد أنه كان محسنًا[9] لا مسيئًا، أو **غفور** يتجاوز عن مساوئهم، **شكور** يقبل اليسير[10] من العمل القليل منهم،[11] ويجزيهم[12] على ذلك الجزيلَ من الثواب. ***والله أعلم***.

وقوله: **لن تبور**، قال أبو عَوْسَجَة والقُتَبي: **لن تبور**، أي لن تفني أو لن تَكسُد، يقال: بارت التجارة تبور، فهي بائرة، إذا كَسَدت.[13]

ليوفيهم[14] أجورهم من الإيفاء، يقال: أوفيته حقه، أي أعطيته كله.

---

[1] جميع النسخ: ما يبدل. والتصحيح مستفاد من شرح *التأويلات*، ورقة ٦٢٤ظ.
[2] ث: ليوفينهم.
[3] ر م: لما يستوجبون.
[4] ن: علمهم.
[5] ر ن ث: يتفرعون.
[6] ن: وكان؛ م: كأنه.
[7] ث: للخلق.
[8] ر ث م – كل.
[9] ر: محصنا.
[10] ر: اليسر.
[11] ن ث: منه.
[12] ر م: يجزيهم.
[13] لم أجده.
[14] ن: ليوفينهم.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾[٣١]

وقوله: **والذي أوحينا إليك** يا محمد / **من الكتاب**، وهو القرآن، **هو الحق**، أي[١] [٦٢٧و] من عند الله، **مصدقا لما بين يديه**، أي موافقا للكتب التي قبله. ثم يكون وفاقه وتصديقه[٢] إياها بأحد شيئين: إما في الأخبار والأنباء، أن يوافق الأنباء والأخبارُ التي في القرآن أنباء الكتب المتقدمة وأخبارَها، ويصدق بعضها بعضًا؛ فكذلك كانت الكتب كلها داعية إلى توحيد الله والعبادة له والطاعة؛ وإما في[٣] الأحكام. فإن كانت الموافقة في الأحكام ففيها الناسخ والمنسوخ. لكنه لم يُجعَل في حق الناسخ والمنسوخ[٤] مختلفة، ألا ترى أن في القرآن ناسخًا ومنسوخًا، ثم أخبر أنه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا.[٥] ولو كان الناسخ والمنسوخ خلافا في الحقيقة لكان من عند غير الله على ما أخبر؛ دل أن بينهما وفاقا[٦] ليس باختلاف.[٧] وقال بعضهم: إن محمدا يُصَدِّق ما قبله من الكتب والرسل. وهو ما ذكرنا أن جميع الكتب والرسل إنما دعوا الخلق إلى توحيد الله وعبادته.

وقوله: **إن الله بعباده لخبير بصير**، أي **لخبير بصير** بما به مصالحهم؛ أو **لخبير بصير**، أي على علم وبصيرة منه بتكذيب القوم رسلَهم بَعَثَ الرسل إليهم، لا عن جهل منه بذلك. وذلك لا يخرجه عن الحكمة، كما[٨] قال بعض الملاحدة[٩] أن ليس بحكيم من بعث الرسل إلى من يعلم أنه يكذّبه ويرد رسالته.

---

[١] ر ن م: انه.

[٢] ر ث م - وتصديقه.

[٣] جميع النسخ: أو يوافق. والتصحيح من *شرح التأويلات*، ورقة ٦٢٤ظ.

[٤] ر م - لكنه لم يجعل في حق الناسخ والمنسوخ.

[٥] ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ (سورة النساء، ٨٢/٤).

[٦] جميع النسخ: وفاق.

[٧] قال الشارح: «فليس المراد هو الموافقة من حيث الظاهر فإن كثيرا من الأحكام كان منسوخا في كتابنا. وكان حلالا في كتابهم وصار حراما في كتابنا، فكيف يكون بينهما موافقة من حيث ظاهر الأحكام؟ ولكن أراد بذلك من حيث المعنى لأن الناسخ لا يكون مخالفا للمنسوخ من حيث المعنى، لأن الأحكام شرعت لمصالح العباد والمصالح يختلف باختلاف الأوقات. فقد يكون المصلحة في وقت في الحل وفي وقت في الحرمة فكانا من حيث المصلحة متحدان وإن كانا من حيث نفس الحل والحرمة مختلفان» (*شرح التأويلات*، ورقة ٦٢٤ظ).

[٨] م - كما.

[٩] ث ن: الملحدة.

فهكذا لو كان بعث الرسل لحاجة المرسِل ولمنفعته[1] يكون إرساله وبعثه إلى من يعلم أنه يكذبه ويرد رسالته[2] [خارجا عن الحكمة]. فأما الله سبحانه وتعالى [فهو] يتعالى عن إرسال[3] الرسل لحاجة له أو لمنفعة، بل لحاجة المبعوث إليه والمرسَل، [فـ]لم يخرج علمه برده وتكذيبه عن الحكمة. *والتوفيق بالله*.[4] أو أن يكون قوله: **لخبير بصير**، يخرج على الوعيد، أي عالم بأحوالهم وأفعالهم ليكونوا أبدًا على حذر ومراقبة. *والله أعلم*.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾[٣٢]

وقوله: **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات**. اختلف فيه.[5] قال بعضهم: **فمنهم ظالم لنفسه**، هو ممن أخبر أنه اصطفاه[6] للهدى من متبعي محمد، وهم أصحاب الكبائر في قول بعض، وقال بعضهم: هم أصحاب الصغائر، وقال بعضهم: هم أصحاب الكبائر والصغائر جميعًا. ومنهم من يقول: هو في الناس جميعًا: المتّبع له، وغيرِ المتبع.[7] ثم اختلف في قوله: **ظالم لنفسه**، قال بعضهم: هو المنافق الذي أظهر الموافقة لرسوله وأضمر الخلاف له. وقال بعضهم: هم اليهود والنصارى، قد[8] آمنوا به قبل أن يبعث، فلما بعث[9] كفروا به.

---

[1] م: ولمنفعة.

[2] ن: يرد رسالته ويكذبه.

[3] ث ن: أن يرسل.

[4] ث - بالله.

[5] قال الشارح رحمه الله: «قال بعضهم: إن قوله ﴿الذين اصطفينا من عبادنا﴾ أراد به جميع المؤمنين، ثم قسمهم على ثلاثة أقسام فقال: ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾...» (شرح *التأويلات*، ورقة ٦٢٤ظ).

[6] م: اصطفيناه.

[7] قال الشارح: «ثم اختلف في ذلك ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾ قال بعضهم: هم أصحاب الكبائر وهو قول المعتزلة، لأن عندهم الصغائر مغفورة بالاجتناب عن الكبائر لا محالة، وعندهم وإن خرجوا بالكبيرة عن الإيمان ولكنهم لم يخرجوا عن الإسلام وهم من أهل القبلة والصلاة عليهم. ومنهم من قال: هم أصحاب الصغائر وهو قول بعض الخوارج، لأنهم يقولون بارتكاب الكبائر يصير كافرا ولكن بارتكاب الصغيرة لا يكفر ولا يخرج عن الإيمان. ولكن عندنا [يخرج] على أصحاب الكبائر والصغائر جميعا، لأن المؤمن بارتكابها لا يخرج و[لكن] يكون ظالما ولا تصير الصغيرة مغفورة بالاجتناب عن الكبائر» (شرح *التأويلات*، ورقة ٦٢٤ظ).

[8] ر م: وقد؛ ث: فقد.

[9] ن: بعثوا.

وقال بعضهم: هم المشركون، وقد أقسموا أنه لو جاءهم نذير ليكونن[١] أهدى من إحدى الأمم.[٢] فهؤلاء كلهم في النار.

[وقال بعضهم المراد من قوله: **الذين اصطفينا من عبادنا** هو الرسول عليه السلام]،[٣] وما ذكر من الاصطفاء والاختيار على قول هؤلاء يكون لرسول الله حيث بعثه[٤] إليهم ليدعوهم إلى توحيد الله.

والأشبه أن يكون قوله: **فمنهم ظالم لنفسه** من أمته من[٥] متبعي الرسول [ولكن ارتكب المعاصي وظلم نفسه، على][٦] ما روى في الخبر عن أبي الدرداء رضي الله عنه -إن ثبت- قال: تلا رسول الله هذه الآية، فقال: «أما السابق بالخيرات فيدخل الجنة بغير حساب، وأما المقتصد فيحاسب حسابًا يسيرًا ثم يدخل الجنة، وأما الظالم لنفسه فيُحْبَس حتى يَظن أنه لن ينجو ثم تناله الرحمة فيدخل الجنة». ثم قال رسول الله: «وهم الذين قالوا: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ»،[٧] الآية. وكذلك روي عن أنس وعائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن[٨] ثبت عنه فهو تأويل الآية وتفسير الظالم من أهل التوحيد والملة.

والمقتصد، قال بعضهم: هو الذي يَخلِط عملا صالحا بعمل سيئ كقوله: وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا.[٩] وقال بعضهم: هو الذي يقوم بأداء الفرائض والأركان، وأما غيره فلا.

والسابق يخرج على وجهين. أحدهما سابق بالخيرات كلها لا تقصير فيه ولا نقصان، أو سابق بالخيرات فيه تقصير ونقصان.

---

[١] ر ن م: لنكونن.

[٢] يشير إلى قوله تعالى: ﴿وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا﴾ (سورة فاطر، ٤٢/٣٥).

[٣] الزيادة من شرح *التأويلات*، ورقة ٦٢٤ظ.

[٤] جميع النسخ: بعث. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٦٢٤ظ.

[٥] ث ن: ومن.

[٦] الزيادة من *الشرح*، ورقة ٦٢٥و.

[٧] سورة فاطر، ٣٤/٣٥. ذكره الطبري وابن الجوزي والقرطبي وابن كثير بلفظ يقاربه. *تفسير الطبري*، ٣٧٥/١٩؛ *وزاد المسير* لابن الجوزي، ٤٩١/٦؛ وتفسير *القرطبي*، ٣٥٠/١٤-٣٥١؛ وتفسير *ابن كثير*، ٣٣٤/١١.

[٨] ر: فانه.

[٩] سورة التوبة، ١٠٢/٩.

وقد ذكرنا هؤلاء الفرق الثلاثة في غير موضع من القرآن. قال في موضع:[1] وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ،[2] الآية، ثم قال: وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ،[3] وقال:[4] وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ.[5] فالذين اعترفوا بذنوبهم هم المقتصد، والآخرون هم الظالم لنفسه. وقال في موضع آخر: وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ،[6] وقال: وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ،[7] إلى آخر ما ذكر. وقال: وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ.[8] ففي ظاهر هذا أن أصحاب الشمال المكذبون[9] حيث ذكر في آخر هذه السورة الفرق الثلاثة، حيث قال:[10] فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ.[11] ففي ظاهر هذا أن الظالم لنفسه هو المكذب، والكافر[12] في قوله:[13] وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ،[14] وفي ظاهر[15] ما ذكر في سورة التوبة أنه من أهل التوحيد حيث قال: وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ،[16] الآية. والله أعلم بذلك.

وقوله: **بإذن الله**، يحتمل: بعلم الله، ويحتمل: بمشية الله، وقيل: بأمره.

[٦٢٧ظ] وقوله: **ذلك هو الفضل الكبير**، يقول، والله أعلم، هذا الذي / أورثناهم من الكتاب هو الفضل الكبير، كقوله: وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا،[17] أو يقول:[18] إدخالهم الجنة فضل منه كبير.

---

[1] ر ث م – من القران قال في موضع.

[2] سورة التوبة، ٩/١٠٠.

[3] سورة التوبة، ٩/١٠٢.

[4] ر م – وقال.

[5] ﴿وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم﴾ (سورة التوبة، ٩/١٠٦).

[6] سورة الواقعة، ٥٦/١٠-١١.

[7] سورة الواقعة، ٥٦/٢٧-٢٨.

[8] سورة الواقعة، ٥٦/٤١.

[9] ن: هم المكذبين.

[10] ر – قال.

[11] سورة الواقعة، ٥٦/٨٨-٩٢.

[12] ن: الكافر.

[13] ن: وكذلك في قوله.

[14] سورة الواقعة، ٥٦/٤١.

[15] ر ث م: في ظاهر.

[16] سورة التوبة، ٩/١٠٦.

[17] ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما﴾ (سورة النساء، ٤/١١٣).

[18] ن: أو نقول.

وروي عن عمر[١] رضي الله عنه قال: **فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات**، قال: ألا إن سابقنا سابق، وإن مقتصدنا ناج، وإن ظالمنا مغفور له.[٢] وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه:[٣] ألا إن سابقنا أهل الجهاد منا، وإن مقتصدنا أهل حَضَرنا، وإن ظالمنا أهل بَدْونا.[٤] وابن عباس رضي الله عنه يقول: الظالم لنفسه كافر.[٥] وعن الحسن قال: الظالم لنفسه المنافق، وهو هالك، وأما السابق والمقتصد فقد نجيا.[٦]

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [٣٣]

وقوله: **جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير**، ذَكَرَ التحلي فيها بالذهب واللؤلؤ ولبس الحرير، وليس[٧] للرجال رغبة في هذه الدنيا في التحلي بذلك ولا لبس الحرير. اللهم إلا أن يكون للعرب رغبة فيما ذكر، فخرج الوعد لهم بذلك والترغيب في ذلك. وهو [كـ]ما ذكر من الخيام فيها والقِباب والغُرُفات، وهذه[٨] أشياء تستعمل في حال الضرورة في الأسفار وعند عدم غيره من المنازل والغُرَف عند ضيق المكان. فأما في حال الاختيار ووجود غيره فلا. لكنه خرج ذلك لهم لما[٩] لهم في ذلك من فضل رغبة، ألا ترى أنهم قالوا: فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ،[١٠] ذكروا ذلك لما لذلك عندهم فضل قدر ومنزلة ورغبة في ذلك.

أو يذكر هذا لهم في الجنة، أعني الذهب والفضة والحرير وما ذكر ليس على أن هذا مما يشابهه[١١] بحال،[١٢] أو يماثله في الجوهر[١٣] على التحقيق سوى موافقة الاسم، لما روي في الخبر:

---

[١] ن + ابن الخطاب.

[٢] *زاد المسير* لابن الجوزي، ٤٨٩/٦؛ و*تفسير القرطبي*، ٣٤٦/١٤؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٢٨٩/١٢.

[٣] م – قال فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات قال ألا إن سابقنا سابق وإن مقتصدنا ناج وإن ظالمنا مغفور له وقال عثمان ابن عفان رضي الله عنه.

[٤] *زاد المسير* لابن الجوزي، ٤٩٠/٦؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٢٨٩/١٢.

[٥] *تفسير الصنعاني*، ١٣٥/٣.

[٦] *تفسير الطبري*، ١٣٥/٢٢.

[٧] ن – وليس.

[٨] جميع النسخ: وذلك. والتصحيح مستفاد من *الشرح* ورقة ٦٢٥و.

[٩] ر م: لها.

[١٠] سورة الزخرف، ٥٣/٤٣.

[١١] جميع النسخ: يشابه. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٦٢٥و.

[١٢] ر: بحاله.

[١٣] في الجواهر.

«أن فيها»، يعني في الجنة «مالا عَينٌ رأت ولا أُذُن سمعت، ولا خطَر على[1] قلبِ بشر أو بال بشر»[2] على ما ذكر. وما ذكر أيضًا: «إن ما في الجنة لا يشبه ما في الدنيا، أو لا يوافقه إلا في الاسم» أو كلام نحو هذا.[3] *والله أعلم*.

[٦٢٩ظ س٢٠] *قال القُتَبي: أَسَاوِرَ جمع إسْوار،[4] وهو الذي تجعله المرأة في مِعْصَمِها.*

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾[٣٤]

وقوله: **وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن**. قال بعضهم: إنما يقول هذا الظالم لنفسه الذي ذُكر في قوله: فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ،[6] إنهم يحبسون على الصراط حبسًا طويلا، أو يحاسبون حسابًا شديدًا، فيطول حزنهم بذلك، ثم يؤذن لهم بالدخول في الجنة. فعند ذلك يقولون ذلك ويحمدون ربهم على إذهاب ذلك[7] الحزن عنهم. وقال بعضهم: لا، ولكن يقول هذا كل مسلم إذا دخل الجنة لما يخاف كل مسلم في الدنيا ويحزن على تَبِعَاته[8] ومساوئه لما لا يدري إلى ماذا يكون مصيره ومرجعه وأين[9] مُقامه[10] في الآخرة؟ فلما أدخل الجنة أمن ما كان يخافه في الدنيا ويحزن عليه وسَلِم من ذلك الأخطار، حمد ربه عند ذلك. وقال بعضهم: ذلك الحمد إنما يكون منهم لَمّا ذهب عنهم غم العيش والحزن[11] الذي كان لهم في الدنيا،

---

[1] ر م – على.

[2] ن: على بال بشر أو قلب بشر. عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فاقرءوا إن شئتم ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾» (*صحيح البخاري*، بدء الخلق ٨، التوحيد ٣٥؛ و*صحيح مسلم*، الإيمان ٣١٢، الجنة ٢–٥).

[3] قال ابن عباس: «ليس في الدنيا مما في الجنة شيء إلا الأسماء» (*تفسير الطبري*، ١/٤٤٦؛ و*تفسير ابن كثير*، ١/٣٢٢؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ١/٢٠٧).

[4] جميع النسخ: سوار. والتصحيح من *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٢٦٧.

* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه فنقلناه إلى هنا. انظر: ورقة ٦٢٩ظ / سطر ٢٠–٢١.

[6] سورة فاطر، ٣٥/٣٢.

[7] ن: تلك.

[8] ر: تباته.

[9] ن: ولين.

[10] م – في الآخرة.

[11] ر: والخبر؛ ث: والخير؛ م: والهم.

إذ كل أحد يهتمّ لعيشه في الدنيا. فلما دخل الجنة ذهب ذلك عنه، فعند ذلك يحمد ربه. وقال بعضهم: يحمدون ربهم لِمَا يأمنون الموت عند ذلك؛ إذ ذكر[١] في الخبر أنه «يؤتى بالموت يوم القيامة على صورة كَبْش فيذبح بين أيديهم، فعند ذلك يأمنون الموت».[٢] *والله أعلم*.

وقوله: **إن ربنا لغفور شكور**، غفور[٣] لمساوئهم من غير أن كان منهم ما يستوجبون المغفرة، شكور لحسناتهم حيث قَبِلها منهم وأعطاهم الثواب. وقال أهل التأويل: غفور لذنوبهم، شكور يعطيهم الجزاء الجزيل بالعمل القليل.[٤]

[٦٢٦ظ س٣٢ *وقال بعضهم في قوله: **إن ربنا لغفور شكور**، شكر لهم ما كان منهم إليه[٥] وغفر لهم ما كان منهم من ذنب. وفي حديث رفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: **إن ربنا لغفور شكور**، قال: «شَكَر الله للمؤمن اليسيرَ من الحسنات، وغفر لهم الذنوب العظام».[٦] * ٦٢٦ظ س٣٥]

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[٣٥]

وقوله: **الذي أحلنا دار المقامة من فضله**. [سُمِّي الجنة][٨] دارَ المقامة لما لا يُتَمَنّى التحول منها ولا الانتقال، كقوله تعالى:[٩] لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا.[١٠]

---

[١] ر م: أو ذكر.

[٢] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يُؤتى بالموت يوم القيامة كبشا أملح، فيقال: يا أهل الجنة! تعرفون هذا؟ فيطلعون خائفين مشفقين. قال: يقولون: نعم. قال: ثم يُنادَى أهل النار: تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. قال: فيذبح. ثم يقال: خلود في الجنة، وخلود في النار» (*مسند أحمد بن حنبل*، ٩/٣؛ وانظر أيضا: *صحيح البخاري*، الرقاق ٥١؛ التفسير، ١١/١٩؛ وصحيح *مسلم*، الجنة ٤٠، ٤٣).

[٣] ر ث م - غفور.

[٤] ن: اليسير.

[٥] جميع النسخ: منه إليهم.

[٦] ذكره ابن كثير منسوبا إلى ابن عباس بلفظ: غفر لهم الكثير من السيئات وشكر لهم اليسير من الحسنات. *تفسير ابن كثير*، ٥٥٨/٣.

* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه فنقلناه إلى هنا. انظر: ورقة ٦٢٦ظ/ سطر ٣٢-٣٥.

[٨] الزيادة من *الشرح*، ورقة ٦٢٥ظ.

[٩] ر م - كقوله تعالى؛ ث - تعالى.

[١٠] ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبغون عنها حولا﴾ (سورة الكهف، ١٠٧/١٨-١٠٨).

وقوله: **لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب**، ليس من صاحب نعمة في هذه الدنيا وإن عظُمت إلا وهو يَمَلّ منها ويسأم، ويتمنى التحول منها والانتقال. وكذلك ليس من لذة وإن جلت[1] في هذه الدنيا إلا وهي تُعقب آفة وتعبًا. فأخبر أن نعيم[2] الآخرة[3] ولذاتها مما لا يُتمنَّى[4] ولا يُبتغَى[5] التحول منها ولا لذتُها تُعقِب آفة ولا تعبًا ولا إعياء. وجائز أن يكون قوله: **لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب** [يراد منه ما تضمنه اللفظ من نفي النصب واللغوب]،[6] وذلك أن من حل بقرابته وبالمتصلين بشيء[7] في هذه الدنيا من آفاتها يهتم لذلك ويتكلف دفع ذلك عنهم. فأخبر أنهم إذا حَلُّوا في دار المُقامة لا يُهيِّبهم[8] شيء من ذلك. ***والله أعلم***. والنَّصب الأذى. ويقال: اللَّغْب[9] واللُّغُوب التعب.*

*قال القُتَبي: النصب: الشدة[11] والتعب، واللغوب الإعياء.[12] يقال:[13] لَغِبت بنفسي ألغَب [٦٢٩ظ س ٢١
لُغوبًا، فأنا لاغب، وألغبت غيري، أي كلّفته حتى أعياه، وهو قول أبي عَوْسَجَة.* ٦٢٩ظ س٢٢]

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾[٣٦]

وقوله: **والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم**[15] بالموت فيموتوا، فيستريحوا من عذابها، **ولا يخفف عنهم من عذابها**.

---

[1] ر ن: وإن حلت.
[2] م: نعيمها.
[3] ر م – الآخرة؛ ث: الجنة.
[4] ن + به.
[5] م – ولا يبتغى.
[6] الزيادة من *الشرح*، ورقة ٦٢٥ ظ.
[7] ث: شيء؛ ن: به شيء.
[8] ن: لا يصيبهم.
[9] ر: اللغاء؛ ث ن م: العناء.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة متأخرا عن موضعه فنقلناه إلى هنالك. انظر: ورقة ٦٢٦ظ/ س ٣٢-٣٥.
[11] ر: لشدة.
[12] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٣٦١.
[13] ر م – يقال.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه فنقلناه إلى هنا. انظر: ورقة ٦٢٩ظ/ سطر ٢١-٢٢.
[15] ن + فيموتوا أي لا يقضى عليهم.

وفي قوله: **ولا يخفف عنهم من عذابها**، نقض قول الجهم[١] وأبي الهذيل المعتزلي.[٢] أما قول الجهم فإنه يقول بانقطاع[٣] العذاب عن أهل النار، فأخبر [عز وجل] أنه لا يخفَّف عنهم العذاب، فلو كان يحتمل الانقطاع يحتمل التخفيف، فإذ[٤] أخبر أنه لا يخفف عنهم دلّ أنه لا ينقطع. وكذلك قول مالك لهم: إِنَّكُم مَّاكِثُونَ،[٥] [وكذا] لَمّا طلبوا منه التخفيف: ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ.[٦]

[٦٢٨و] / وأما أبو الهذيل[٧] فإنه يقول: إن العذاب قد يَفْتُر عن أهل النار، ويصير بحال[٨] لو أراد الله أن يزيد في عذابهم شيئًا ما قدر عليه. وكذلك يقول في لذات[٩] أهل الجنة: إنها تصير بحال[١٠] وتبلغ[١١] مَبْلَغا لو أراد الله أن يزيد لهم شيئًا منها ما قدر عليه. فظاهر الآية[١٢] يكذّبهم ويرد قولهم حيث قال: **ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابها**.

وقوله: **كذلك نجزي كل كفور** لنعمه وجاحد وحدانيته.[١٣]

---

[١] هو أبو محرز جهم بن صفوان السمرقندي، من موالي بني راسب (ت ١٢٨ هـ/ ٧٤٥ م)؛ رأس الجهمية. كان رجلا من ترمذ، وظهرت بدعته هناك. وهلك في زمان صغار التابعين، قتله سَلم بن أحوز المازني بمَرْو في آخر ملك بني أمية. وهو الذي قال بالإجبار والاضطرار؛ وزعم أن الإيمان هو المعرفة بالله فقط وأن الكفر هو الجهل به فقط، كما زعم أن الجنة والنار تبيدان وتفنيان. وقد كان رأيه حول الصفات الإلهية يدور في نطاق ما ذهب إليه المعتزلة أخيرا، فقال بحدوث علم الله وكلامه. انظر: *الفرق بين الفرق* لعبد القاهر البغدادي، ٢١١؛ و*الأعلام* للزركلي، ١٤١/٢.

[٢] هو أبو الهذيل العلاف محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدي، مولى عبد القيس (ت ٢٣٥ هـ/ ٨٥٠ م)، من أئمة المعتزلة. ولد في البصرة واشتهر بعلم الكلام. له مقالات في الاعتزال ومجالس ومناظرات. وكان حسن الجدل قوي الحجة سريع الخاطر. كف بصره في آخر عمره، وتوفي بسامرا. له كتب كثيرة. *الأعلام* للزركلي، ١٢١/٧.

[٣] جميع النسخ: لأنه يقول انقطاع. والتصحيح مستفاد من شرح *التأويلات*، ورقة ٦٢٥ ظ.

[٤] ر م: إذا.

[٥] ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون﴾ (سورة الزخرف، ٧٧/٤٣).

[٦] سورة الأعراف، ٥٥/٧. وعبارة الشارح رحمه الله هكذا: «يؤيد هذا ما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون﴾، وحين طلبوا منه التخفيف ﴿ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب﴾» (شرح *التأويلات*، ورقة ٦٢٥ظ).

[٧] جميع النسخ: أما على قول أبي الهذيل. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٦٢٥ ظ.

[٨] ر: بحاله.

[٩] ر: الذات؛ م: اللذات.

[١٠] ر: بحاله.

[١١] ر: وتبليغ.

[١٢] ن: الامر.

[١٣] ث - وقوله كذلك نجزي كل كفور لنعمه وجاحد وحدانيته.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾[٣٧]

وقوله: **وهم يصطرخون فيها**، قال بعضهم: يصيحون[1] فيها. [و]قال بعضهم: الاصطراخ: [٦٢٩ظ س٢٢] الاستغاثة، أي يستغيثون. *والاصطراخ: صياح الضَّجِر.* واصطراخهم قولهم: **ربنا أخرجنا نعملْ صالحا غير الذي كنا نعملُ**، يفزعون أولا إلى كبرائهم الذين اتبعوهم في الدنيا، يطلبون منهم دفع[3] بعضٍ ما هم فيه من العذاب والتخفيف عنهم، حيث قالوا: إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ، فأجابوا لهم: سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ،[4] وقال في آية أخرى: إِنَّا كُلٌّ فِيهَا،[5] الآية. فلما أيسوا وانقطع رجاؤهم بالفرج من عندهم، فزعوا عند ذلك إلى خزنة جهنم، حيث قالوا: ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ،[6] فلما أيسوا منهم[7] وانقطع رجاؤهم فزعوا إلى مالك يطلبون منه أن يسأل ربه ليقضي[8] عليهم بالموت، حيث قال: وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ،[9] فلما أيسوا سألوا ربهم الإخراج عنها ليعملوا غير الذي عملوا، حيث قالوا: **ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل**. فاحتج عليهم: **أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر**، أي أو لم نعمركم فيها من العمر مثل العمر الذي يتعظ به من يتعظ، فهلا اتعظتم فيه ما اتعظ من اتعظ[10] فيه، وقد أعمرناكم مثل الذي أعمرنا أولئك، أو كلام نحو هذا.

وجاءكم النذير، قال بعضهم: جاءكم الرسول وأنذركم هذا، فقد كذبتموه. وقال بعضهم: **وجاءكم النذير**، أي الشَّيب. ومعناه -والله أعلم- أي قد رأيتم وعاينتم تغير[11] الأحوال

---

[1] ر: يصيحوا.

* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه فنقلناه إلى هنا. انظر: ورقة ٦٢٩ظ/ سطر ٢٢.

[3] ن: رفع.

[4] سورة إبراهيم، ٢١/١٤.

[5] ﴿وإذ يتحاجُّون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار. قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/٤٧-٤٨).

[6] سورة المؤمن، ٤٠/٤٩-٥٠.

[7] م - منهم.

[8] ن: ليقض.

[9] سورة الزخرف، ٤٣/٧٧.

[10] ن - من اتعظ.

[11] ر م: بغير.

في أنفسكم من حال إلى حال، من حال الصغر إلى الكبر، ومن الشباب[١] إلي الشيب، ثم الردِ إلى أرذل العمر، فهلا اتعظتم به كما اتعظ أولئك. **فذوقوا** ما أنذركم به الرسل **فما للظالمين من نصير**.

﴿إِنَّ اللهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٣٨]

وقوله: **إن الله عالم غيب السماوات والأرض**، هذا يخرج على وجهين. أحدهما على الوعيد والتخويف، أي هو عالم بالأشياء التي لم يمتحنها بِمِحَنٍ، ولا أمرها بأمور،[٢] ولا نهاها بِمَنَاهٍ. فالذين امتحنهم بأنواع المحن وأمرهم[٣] بأوامر ونهى بِمَناهٍ[٤] أحق أن يكون عالما بهم.

والثاني أنه على علم بما يكون من خلق السماوات وأهل الأرض [الذين] خَلَقَهم وبعث إليهم الرسل، من التكذيب لهم والرد عليهم، لا عن سهو وجهل بما يكون منهم، ليُعلَم أنه إنما بعث إليهم الرسل لحاجة أنفس[٥] المبعوث إليهم ولمنفعة[٦] لهم في ذلك، لا لحاجة المرسِل والباعث ولمنفعة له. لذلك خرج البعث إليهم -على علم بما يكون منهم من التكذيب والرد للرسالة- على الحكمة، وفي الشاهد على السفه؛ لأن في الشاهد إنما يَبعث [الملك] الرسلَ إلى من يبعث لحاجة نفسه ولمنفعة له في ذلك؛ فخرج البعث إليه على علم منه بالتكذيب والرد عليه سفهًا وباطلًا، ومن الله حكمة وحقًا. *والله أعلم*.

وقوله: **إنه عليم بذات الصدور**، وكأنّ[٧] ذات الصدور هم البشر، خصهم بعلم ما يكون منهم، لأنهم أهل تمييز وبصر وامتحان، فيخرج[٨] ذلك مخرج الوعيد لهم والتحذير. وأما غيرهم من الدواب ونحوها فلا محنة عليهم، ولا تمييز لهم، لذلك خص هؤلاء بذلك، وإن كان عالما بالكل بذات الصدور وغير ذات الصدور. *والله أعلم*.

---

[١] ر م: من الشاب.
[٢] م: مامور.
[٣] ن + باوامرهم.
[٤] ر + فالذين امتحنهم بانواع المحن وامرهم باوامر ونهى بمناه.
[٥] ر: انفسهم.
[٦] ن: والمنفعة.
[٧] ن: كان.
[٨] ن: ليخرج.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾[٣٩]

وقوله: **هو الذي جعلكم خلائف في الأرض**، فإن كان المخاطبون به أصحاب رسول الله وأمتّه فيخبر أنه جعلهم خلائف من تقدم منهم من القرون والأمم الماضية بعد ما أهلكوا واستؤصلوا.[١] وإن كان المخاطبون به[٢] بني آدم كلَّهم فيخبر أنكم خلف من تقدمكم من الجن والملائكة، لأنه ذُكر أن الجن كانوا سكان الأرض قبل بني آدم فجُعلوا خلائف الجن.

ثم وجه الحكمة في جعل بعضٍ خلائف بعض، وإنشاء قرن بعد فناءِ آخَرَ، وإفناء آخر بعد إنشاء آخر وجوه. أحدها أن يعرفوا أنه إنما أنشأهم لعاقبة تقصد وتتأمل، حيث أنشأ قرنا ثم أفناهم، ثم أنشأ غيرهم، ولو لم يكن في إنشائهم إلا هذا كان إنشاؤه إياهم للفناء خاصة، إذ من بنى في الشاهد بناء للنقض والفناء لا لعاقبة تقصد به كان في بنائه عابثا سفيهًا. فعلى ذلك إنشاء هؤلاء في هذه الدنيا لو لم يكن لعاقبة كان الإنشاء للفناء خاصة،[٣] وذلك عبث غير حكمة.

والثاني أن يعرفوا أن الدنيا ليست هي بدار قرار[٤] ومُقام، إنما هي مجعولة زادًا للآخرة وبُلْغَةً إليها ومسلكا لها ومنزلا ينزل فيها ثم يرتحل، كالمنازل المجعولة للنزول فيها في الأسفار والتزود منها ثم الارتحالِ لا للمُقام فيها. فعلى ذلك الدنيا جعلت[٥] لما ذكرنا، لئلا يطمئنوا إليها
[٦٢٨ظ] ولا يركنوا، ويعملون عمل من يريد الارتحال عنها[٦] / لا عملَ المقيم فيها.

والثالث أن يعرفوا أن الآلامَ التي جُعلت فيها واللذاتِ ليست بدائمة أبدا، بل على شرف الزوال والتحول، لأن في الحياة لذة وفي الموت ألمًا. فلا دامت اللذة و لا الألم،[٧] لأنه أحيا[٨] قرنا ثم أفناهم، ثم أحيا قرنا آخر وأفناهم. فلا دامت اللذة ولا الآلام ولكن انقضيا، ليعلموا أنهما لا يدومان أبدًا ولكن يزولان.

---

[١] ر م: او استاصلوا.
[٢] ن – به.
[٣] ر ث م – خاصة.
[٤] ر م: القرار.
[٥] ر ث م: جعل.
[٦] ن: منها.
[٧] ر م: والالم.
[٨] ن: احياء.

والرابع أن يعتبروا بمن تقدم منهم من القرون أنه على ما ذا يكون الثناء الحسن، ويبقى الأثر والذكر الجميل، وبأي عمل ينقطع[١] ويفنى ذلك؟ فمن كان من متبعي الرسل ودعاة[٢] الخير والتوحيد والطاعة فيبقى[٣] له أثر الخير والثناء الحسن والذكر الجميل، ومن كان من أتباع أهل الكفر والشر لم يبق لهم شيء من ذلك ليعلموا بالذي يُبْقي لهم الثناء الحسن، ويُعْقِبُ[٤] لهم الذكر، لا الذي يَقطع ذلك. *والله أعلم*.

وقوله: **فمن كفر فعليه كفره**، أي عليه ضرر كفره. **ولا يَزيد الكافرين كفرُهم عند ربهم إلا مقتًا**، الآية، أي لا يزيد كفرُهم بالله وبرسوله وعبادتُهم الأصنام إلا مقتا وخسارًا، لأنهم كانوا يعبدونها رجاءَ أن تشفع لهم يوم القيامة ورجاء أن تُقرّب عبادتهم إلى الله زلفى. يقول -والله أعلم- لا يزيد ذلك لهم إلا مقتا من ربهم وخسارًا. أو [أن] تكون[٥] أعمالهم التي عملوا في هذه[٦] الدنيا من صلة الأرحام والقُرَب التي رجَوا منها الربح والنفع في الآخرة، لا يزيد ذلك لهم إلا مقتًا وخسارًا. *والله أعلم*.

والمقت: البغض. [٦٢٩ظ س٢٢]

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [٤٠]

وقوله: **قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض.** ظاهر قوله **أروني** أمر لكنه يخرج على وجهين. أحدهما على الإعجاز، أي لا يقدر[٨] ما تعبدون من دونه خلقَ السماوات والأرض ولا إشراكه[٩] في خلق السماوات والأرض[١٠]

---

١ ر: يتقطع.
٢ ر: وعادة.
٣ جميع النسخ: فبقي. والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ٦٢٦و.
٤ ن: ويبقى.
٥ جميع النسخ: أو يكون.
٦ ر - هذه.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه فنقلناه إلى هنا. انظر: ورقة ٦٢٩ظ/ سطر ٢٢.
٨ ر: لا يعجز ويقدر؛ م: لا يعجز يقول.
٩ قال الشارح: «أي إشراك نفسه إياه» (شرح *التأويلات*، ورقة ٦٢٦و).
١٠ ر م - والأرض.

ولا إنزال كتاب من السماء ليأمرهم بذلك، بل الله هو الخالق لذلك كله وهو القادر عليه، فكيف صرفتم العبادة عنه والألوهية إلى من هو عاجز عن ذلك كله.

والثاني على التنبيه والتعيير لهم والتسفيه لأحلامهم، يقول -والله أعلم- إنكم تعلمون أن الأصنام التي تعبدونها دون الله وتسمونها آلهة لم يخلقوا شيئًا مما ذُكر ولا لهم شرك في ذلك، ولا لكم كتاب يبيح لكم ذلك ويأذن لكم، وتعلمون أن الله هو الفاعل لذلك كله، حيث قال: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ،[1] ولا لهم كتاب في ذلك، لأن الكتاب جهة[2] وصوله إليه[3] الرسولُ وأنتم لا تؤمنون بالرسول،[4] فكيف عبدتموها وتركتم عبادة من تعلمون أنه الفاعل لذلك والقادر عليه؟

وقوله: **ماذا خلقوا من الأرض**، يحتمل جواهر الأرض نفسها، ويحتمل الخارج منها مما به معاشهم وقوامهم.[5] وكذلك قوله: **أم لهم شرك في السماوات**، يحتمل في جواهرها، ويحتمل ما ينزل عنها مما به معاشهم[6] وأرزاقهم. وقوله: **فهم على بينة منه**، أي على حجة وبيان منه.

وقوله: **بل إن يَعِدُ الظالمون بعضُهم بعضا إلا غرورًا**، يحتمل وعدهم الذي ذكر لبعضهم بعضًا ما قالت القادة منهم والرؤساء للأتباع: هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ،[7] و مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى،[8] وما لَبَّسوا هم[9] على الأتباع من أمر[10] الكتاب والرسول [بما قالوا إنه][11] ساحر كذاب، وإنه مفترٍ، وأمثال ذلك مما يكثر عدده.[12] فذلك كله منهم تغرير[13] للأتباع.

---

[1] سورة العنكبوت، ٦١/٢٩.
[2] ر: حجة.
[3] أي إلى البشر.
[4] ن ث: بالرسل.
[5] ن: وارزاقهم.
[6] ن – وقوامهم وكذلك قوله أم لهم شرك في السماوات يحتمل في جواهرها ويحتمل ما ينزل عنها مما به معاشهم.
[7] ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ (سورة يونس، ١٨/١٠).
[8] سورة الزمر، ٣/٣٩.
[9] م – هم.
[10] ر: من امره.
[11] جميع النسخ + هو. والزيادة من *الشرح*، ورقة ٦٢٦ و.
[12] ر: عدد.
[13] ر: تقرير.

﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[٤١]

وقوله: **إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده**، يحتمل أن يكون هذا صلة ما تقدم من قوله: أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ[١] فإن كان على هذا فيقول: تعلمون أن الله هو رافع السماوات والأرض والممسك لهما والمانع عن أن تزولا عن مكانهما،[٢] لا يقدر أحد على إزالتهما، ولئن أزالهما عن مكانهما لم يملك أحد[٣] إلى إعادتهما ولا إمساكهما[٤] سواه. فكيف تعبدون دونه[٥] من لا يملك ذلك؟ أو أن يكون ذلك[٦] صلة[٧] قوله: تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ،[٨] الآية، كادت[٩] أن يتفطرن وتنشق [الأرض] حين قالوا: لله ولد وله شريك. فإذا قالوا: اتخذ الله ولدا كادتا أن تزولا من مكانهما وتسقطا عليهم لعِظَمِ[١٠] ما قالوا في الله سبحانه.

وجائز أن يكون لا على الصلة بشيء مما ذكرنا ولكن على الابتداء. فإن كان على الابتداء فهو يخبر عن قدرته وسلطانه حيث رفع السماء وأمسكها في الهواء مع غلظها وشدتها بلا عَمَدٍ مِن تحتُ ولا شيءٍ مِن فوقُ، يمنعها عن الانحدار والزوال عن مكانها والإقرار على ذلك والتقرير. وفي الشاهد أَنْ ليس في[١١] وسع أحد من الخلائق إمساك الشيء في الهواء ولا إقامته إلا بأحد هذين السببين: إما من تحتُ وإما من فوقُ. وكذلك الأرض حيث دحاها وبسطها على الماء، ومن طبعها التسرب والتسفل في الماء لا القرارُ عليه، حيث لا يُحْفر مكان منها إلا ويخرج منه الماء. فدل تقرير[١٢] الأرض على الماء، وإمساك السماء في الهواء بلا شيء يُقِرُّهما ويمنعهما عن التسفل والانحدار أنه الواحد القادر بذاته لا يُعجزه شيء.

---

[١] الآية السابقة.
[٢] م: مكانها.
[٣] ر م – على إزالتهما ولئن أزالهما عن مكانهما لم يملك أحد.
[٤] ر م: ولا امسكهما؛ ن: ولا امساكها.
[٥] ر م: تعبدونه.
[٦] ث ن – ذلك.
[٧] ر م – صلة.
[٨] ﴿تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتَخِرُّ الجبال هَدًّا أن دَعَوْا للرحمن ولدا﴾ (سورة مريم، ١٩/٩٠-٩١).
[٩] جميع النسخ: كادتا.
[١٠] ر م: تعظيم؛ ث ن: لعظيم.
[١١] ر: اني.
[١٢] ر: تعزير.

[٦٢٩و] وقوله: / **إنه كان حليما غفورًا**، **حليمًا** حيث[1] لم يرسل السماوات عليهم لِعِظَم[2] فِرْيَتِهم على الله والقول فيه بما لا يليق به -سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا- وحيث لم يَعْجَل بعقوبتهم في الدنيا؛ **غفورا**[3] حيث ستر عليهم ذلك و لم يَفضحهم في الدنيا. *والله أعلم.*

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾[٤٢] ﴿اِسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلًا﴾[٤٣]

وقوله: **وأقسموا بالله جهد أيمانهم**، قال بعضهم: **جهد أيمانهم**[4] هو قسمهم بالله. ومعناه -والله أعلم- أن العرب كانت من عادتهم أنهم كانوا يحلفون بالآباء والطواغيت، لا يحلفون بالله إلا فيما عَظُم أمره وجلّ قدره تأكيدا لذلك الأمر،[5] لذلك كان قسمهم بالله[6] جهد أيمانهم. وقد ذكرنا معنى جهد الأيمان[7] فيما تقدم.[8]

وقوله: **لئن جاءهم نذير**، قيل: رسول، **لَيكونُنَّ أهدى من إحدى الأمم**، فيه دلالة أنهم قد[9] وقعت لهم الحاجة ومستهم الضرورة إلى رسولٍ يبين لهم أمر الدين وما به[10] مصالحهم وما لهم وما عليهم، حيث أقسموا وعهدوا أنه لو جاءهم نذير لاتبعوه واقتدَوا به. ثم تَرْكُهم لذلك العهد لِمَا لم يروه[11] أهلاً لذلك، لِمَا كان هو دونهم في أمر الدنيا، استكبارًا منهم عليه، ولذلك قالوا: لَوْلَا نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ.[12]

---

[1] ر ث م: حين؛ ن – حيث.
[2] ر ث م: لعظيم.
[3] جميع النسخ + رحيما.
[4] ر م – قال بعضهم جهد أيمانهم.
[5] ر م: لامر.
[6] م + ومعناه.
[7] ن: اليمين.
[8] انظر عند تأويل الآية ١٠٩ من سورة الأنعام، والآية ٥٣ من سورة النور.
[9] ر: وقد.
[10] ر م – به.
[11] أي محمدا عليه السلام.
[12] سورة الزخرف، ٣١/٤٣.

أو أن[1] [يكون] تركوا اتباعه[2] ونقضوا عهدهم لِما رأوا مذاهب الناس مختلفة، فظنوا أن الاختلاف يُرفَع مِن بينهم به، فإذ لم يرتفع تركوا اتباعه؛ أو لمعنى آخر لا نعلمه. *والله أعلم*.

وقوله: **لَيكونُنَ أَهدى مِن إحدى الأمم**، قال بعضهم: يَعنُون اليهود والنصارى. وجائز أن يكونوا أرادوا بذلك الأمم جميعًا، لكنهم لم يروا الحق إلا لواحدة منها، فقالوا: **لَيكونُنَّ أهدى من إحدى الأمم**. *والله أعلم*.

وقوله: **فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورًا استكبارًا في الأرض**، لما ذكرنا. وقوله: **ومَكْرَ السيِّئ**، يحتمل مكرهم ما مكروا[3] برسول الله من أنواع المكر حين همّوا قتله وإخراجه، كقوله: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ،[4] الآية. ويحتمل أيضا ما ذكر أنه لما خرج ودعا الناس إلى توحيد الله أقعدوا على الطرق والمراصد ناسًا[5] يقولون لمن قصد رسول الله: إنه ساحر وإنه كذاب وإنه مجنون يصدون الناس بذلك عنه، فذلك كيدهم ومكرهم به. وقد كان منهم برسول الله من أنواع المكر سوى ذلك مما لا يحصى.

وقوله: **ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله**، يحتمل قوله: **ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله**[6] [أن يكون] هو في الدنيا من أنواع العذاب والقتل الذي نزل بهم. ويحتمل أن يكون ذلك في الآخرة. *والله أعلم*.

وقوله: **فهل ينظرون إلا سنةَ الأولين**،[7] وسنته في الأولين الاستئصال والإهلاك عند العناد والمكابرة. وقال بعضهم: ما ينظرون بإيمانهم إلا سنة الأولين؛ وسنة الأولين الإيمان عند معاينتهم العذاب، وإن كان لا يقبل ولا ينفعهم ذلك، كقوله: فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ،[8] الآية.

وقوله: **فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً**، هذا يحتمل وجوها. أحدها لن تجد لسنة الله -وهي الاستئصال- عند العناد والمكابرة تحويلا وإن اختلفت[9] جهة الهلاك والاستئصال،

---

[1] ر م: وان.

[2] ر م: اتباعهم.

[3] ر: ما مكرهما؛ م: ما مكرهم.

[4] ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ (سورة الأنفال، ٨/٣٠).

[5] ث ن: اناسا.

[6] ر م - يحتمل قوله ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

[7] ر م + وقال بعضهم ما ينظرون الا سنة في الاولين.

[8] ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/٨٤-٨٥.

[9] ر: اختلف.

كقوله: يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ،[١] وقوله: تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ،[٢] لاشك أن نفس القول منهم مختلف في الكفر وسببه متفرق. ثم أخبر أن قول هؤلاء ضَاهَأَ قول أولئك وتشابهت[٣] قلوب بعض[٤] بعضا وإن كان سبب ذلك وجهةُ الكفر مختلفا، فعلى ذلك سنته[٥] لا تُحَوَّل ولا تُبَدَّل وهي الاستئصال، وإن كان جهة ذلك وسببه مختلفا.

والثاني فلن تجد لسنة الله التي سنّ فيهم وحَكَمَ[٦] مَدفعا ولا مَردّا،[٧] أي لن يجدوا إلى دفع ما سنّ فيهم وحَكَم من العذاب والهلاك مردا،[٨] كقوله:[٩] وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا.[١٠]

والثالث فلن تجد لسنة الله -وهي إيمانهم الذي يؤمنون عند معاينتهم العذاب وعند نزوله بهم- تحويلا وتبديلا أي يؤمنون لا محالة، ولكن لا ينفعهم ذلك في ذلك الوقت.

والرابع أن كل سنة سَنّ في كل قوم وكل أمة، وإن اختلفت، لن تجد لذلك تحويلا ولا تبديلا. *والله أعلم*.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[٤٤]

وقوله: **أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم**. هذا يخرج على وجوه. أحدها قد ساروا في الأرض ونظروا إلى ما حلّ بأولئك بالتكذيب والعناد،[١١] لكن لم يتعظوا بهم ولم ينفعهم ذلك.

والثاني على الأمر أن سيروا في الأرض وانظروا ما الذي نزل بأولئك ومم نزل؟ واتَّعِظُوا بهم وامتنعوا عن مثل صنيعهم.

والثالث أنهم وإن ساروا في الأرض ونظروا في آثارهم لم ينفعهم ذلك. ***والله أعلم***.

---

[١] سورة التوبة، ٩/٣٠.
[٢] سورة البقرة، ٢/١١٨.
[٣] ن: تشابهت.
[٤] ر: بعضهم.
[٥] ر: سنة.
[٦] ن: وحكمه.
[٧] ر م: ولا مرادا.
[٨] ر: ولا رد؛ ث: ولا ردا؛ ن م: ردا.
[٩] ن: كقولهم له.
[١٠] ﴿أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا﴾ (سورة النساء، ٤/١٢١).
[١١] ر ث م: في العناد.

وقوله: **وكانوا أشد منهم قوة**، أي إنهم كانوا أكثر عددًا[١] وأشد قوة وبطشًا منكم، ثم لم يمكن لهم دفع ما نزل بهم وحلّ. فأنتم يا أهل مكة مع قلة عددكم وضعفكم لا تقدرون على دفع ذلك عن أنفسكم.

وقوله: **وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض**، الإعجاز / في الشاهد [٦٢٩ظ] يكون بوجهين. أحدهما الامتناع، يقول: لا يقدر أحد أن يمتنع عنه وعن[٢] عذابه. والثاني القهر والغلبة، يقول: لا يسبق منه بالقهر والغلبة بل هو القاهر والغالب على خلقه. **إنه كان عليمًا قديرا**.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾[٤٥]

وقوله: **ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا**،[٣] من المعاصي والمساوئ، **ما ترك على ظهرها من دابة**، أي على ظهر الأرض ووجهه اكتفاء بما سبق من ذكر الأرض وهو قوله:[٤] إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ،[٥] أو علم الناسُ وفهموا من ذكر الظهر ظهر الأرض لما على ظهر الأرض يكتسب ما يُكتسب.

ثم قوله: **ما ترك على ظهرها من دابة**، قال بعضهم: المراد بالدابة الممتحَنون المميَّزون وهم بنو آدم خاصة، لأنهم أهل اكتساب واجتراح؛ إذ قد ذكر الإهلاك بما يكتسبون، وهم أهل الاكتساب دون غيرهم من الدواب. وقال بعضهم: كل دابة من البشر وغيره، لأن غيره من الدواب إنما أنشئت للبشر ولحوائجهم لا لحاجة أنفسها أو لمنفعة لها،[٦] حيث قال: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا،[٧] وقوله: وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ.[٨] فإذا كان غيره من الأشياء مُنْشَأً[٩] لهم، فإذا أهلكوا هم أُهلك ما كان منشأً[١٠] لحوائجهم ولمنافعهم،

---

[١] ن + منكم.
[٢] جميع النسخ: ومن. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٦٢٦ ظ.
[٣] ر: بظلم ما كسبوا؛ ن + أي؛ ث + أي بما كسبوا.
[٤] م + وهو قوله.
[٥] سورة فاطر، ٤١/٣٥.
[٦] ن – لها.
[٧] سورة البقرة، ٢٩/٢.
[٨] سورة الجاثية، ١٣/٤٥.
[٩] جميع النسخ: منشأة.
[١٠] ث ن: منشأة.

ولا يكون إهلاك ما ذكرنا من الدواب خروجًا عن الحكمة على[1] ما يقول الثنوية[2] أن ليس من فعل الحكيم الأمر بذبح أسلم الدواب والانتفاع بلحمها. قيل: هكذا إذا[3] كانت تلك منشأة لأنفسها ولمنافعها. فأما إذا كان ما ذكرنا أنها منشأة لنا ولمنافعنا[4] فجائز الانتفاع بها مرة بعينها ومرة بلحمها، ولا يكون فعل ذلك والأمر[5] به غير حكمة. ثم الفرق بين إباحة الانتفاع بلحم أسلم الدواب وحظر[6] لحم الضارة منها والْمُضِرَة، أنه[7] جُعل حفظ ما ليس بضار ولا مُضِرٍ إلينا، وعلينا جَعْل[8] مؤنتها والذب عنها ودفع المضرة.[9] فأما الضارة منها والمضرة فهي ممتنعة بنفسها متحملة مؤنتها، لذلك[10] كان ما ذكرنا. ***والله أعلم***.

وقوله: **ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى**، أي لم يؤاخذهم بما كسبوا على ظهرها لما جعل لهم من المدة، فأحب[11] أن ينقضي ذلك ويفي بما جعل لهم من المدة وما ضرب لهم من الوقت.

فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرًا، أي عن بصيرةٍ وعلمٍ بكسبهم وصنيعهم وما يكون منهم ضَرَبَ لهم المدة والوقت الذي ينتهون إليه، ويبلغون آجالهم، لا عن جهل، بل لم يزل عالمًا بما يكون منهم. لكن لما كان ضرر ذلك الذي علم أنه يكون منهم راجعًا إليهم أنشأهم، وجعل لهم المدة. وقد ذكرنا هذا[12] في غير موضع. ***والله أعلم***.*

---

[1] ر م – على.

[2] هم أصحاب الإثنين الأزليين، يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان. ولهم طوائف كثيرة، منها المانوية، والمزدكية، والديصانية، والمرقيونية. انظر: *الملل والنحل* للشهرستاني، ٢/٢٦٨-٢٨١؛ و*كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي*، ١/٥٤١.

[3] م – إذا.

[4] م: ولمنافعها.

[5] ر ث م: ولا الامر.

[6] ر م: وخطر.

[7] جميع النسخ: لأنه.

[8] ر: وجعل.

[9] ر م: المضر.

[10] ر ث م: كذلك.

[11] جميع النسخ: أحب.

[12] م – هذا.

* وقع هنا قطع من تفسير الآيات ٣٣ و ٣٥ و ٣٧ و ٣٩ متأخرة عن موضعها فنقلناها إلى محالّها. انظر: ورقة ٦٢٩ ظ/سطر ٢٠-٢٣.

سورة فاطر

اربعون وخمس آيات مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ①﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ قد ذكرنا فيما تقدم أن الحمد يكون على النعمة في أكثر الأمر، ونعم الله قسمان: عاجلة وآجلة، والعاجلة وجود وبقاء، والآجلة كذلك إيجاد مرة وإبقاء أخرى، وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] إشارة إلى النعمة العاجلة التي هي الإيجاد، واستدللنا عليه بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ [الأنعام: ٢] وقوله في الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١] إشارة إلى النعمة العاجلة التي هي الإبقاء، فإن البقاء والصلاح بالشرع والكتاب، ولولاه لوقعت المنازعة والمخاصمة بين الناس ولا يفصل بينهم، فكان يفضي ذلك إلى التقاتل والتفاني، فإنزال الكتاب نعمة يتعلق بها البقاء العاجل، وفي قوله في سورة سبأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [سبأ: ١] إشارة إلى نعمة الإيجاد الثاني بالحشر، واستدللنا عليه بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الأجسام ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأرواح ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ٢] وقوله عن الكافرين: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى﴾ [سبأ: ٣] وهاهنا الحمد إشارة إلى نعمة البقاء في الآخرة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ أي يجعلهم رسلاً يتلقون عباد الله، كما قال تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] وعلى هذا فقوله تعالى ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يحتمل وجهين الأول: معناه مبدعها كما نقل عن ابن عباس، والثاني: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي شاقهما لنزول الأرواح من السماء وخروج الأجساد من الأرض ويدل عليه قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ فإن في ذلك اليوم تكون الملائكة رسلاً، وعلى هذا فأول هذه السورة متصل بآخر ما مضى، لأن قوله كما فعل بأشياعهم بيان لانقطاع رجاء من كان في شك مريب وتيقنه بأن لا قبول لتوبته ولا فائدة لقوله: آمنت. كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ [سبأ: ٥٢] فلما ذكر حالهم بين حال الموقن وبشره بإرساله الملائكة إليهم مبشرين، وبيَّن أنه يفتح لهم أبواب الرحمة.

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أقل ما يكون لذي الجناح أن يكون له جناحان وما

بعدهما زيادة، وقال قوم فيه: إن الجناح إشارة إلى الجهة، وبيانه هو أن الله تعالى ليس فوقه شيء، وكل شيء فهو تحت قدرته ونعمته، والملائكة لهم وجه إلى الله يأخذون منه نعمه ويعطون من دونهم مما يأخذوه بإذن الله، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] وقوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] وقال تعالى في حقهم: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥] فهما جناحان، وفيهم من يفعل ما يفعل من الخير بواسطة، وفيهم من يفعله لا بواسطة، فالفاعل بواسطة فيه ثلاث جهات، ومنهم من له أربع جهات وأكثر، والظاهر ما ذكرناه أولاً وهو الذي عليه إطباق المفسرين.

وقوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ من المفسرين من خصصه وقال: المراد الوجه الحسن، ومنهم من قال: الصوت الحسن، ومنهم من قال: كل وصف محمود، والأولى أن يعمم، ويقال: الله تعالى قادر كامل يفعل ما يشاء فيزيد ما يشاء وينقص ما يشاء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقرر قوله: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾

لما بين كمال القدرة ذكر بيان نفوذ المشيئة ونفاذ الأمر، وقال ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ يعني إن رحم فلا مانع له، وإن لم يرحم فلا باعث له عليها، وفي الآية دليل على سبق رحمته غضبه من وجوه: أحدها التقديم حيث قدم بيان فتح أبواب الرحمة في الذكر، وهو وإن كان ضعيفًا لكنه وجه من وجوه الفضل، وثانيها: هو أن أنث الكناية في الأول فقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ وجاز من حيث العربية أن يقال له ويكون عائدًا إلى ما، ولكن قال تعالى: ﴿لَهَا﴾ ليعلم أن المفتوح أبواب الرحمة ولا ممسك لرحمته فهي واصلة إلى من رحمته، وقال عند الإمساك ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ بالتذكير ولم يقل لها فما صرح بأنه لا مرسل للرحمة، بل ذكره بلفظ يحتمل أن يكون الذي لا يرسل هو غير الرحمة فإن قوله تعالى: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ عام من غير بيان وتخصيص بخلاف قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ فإنه مخصص مبين، وثالثها: قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد الله، فاستثنى ههنا وقال: لا مرسل له إلا الله، فنزل له مرسلًا. وعند الإمساك قال: لا ممسك لها، ولم يقل: غير الله، لأن الرحمة إذا جاءت لا ترتفع فإن من رحمه الله في الآخرة لا يعذبه بعدها هو ولا غيره، ومن يعذبه الله فقد يرحمه الله بعد العذاب كالفساق من أهل الإيمان.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ

رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي كامل القدرة ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ أي كامل العلم.

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ لما بين أن الحمد لله وبين بعض وجوه النعمة التي تستوجب الحمد على سبيل التفصيل بين نعمه على سبيل الإجمال فقال: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ وهي مع كثرتها منحصرة في قسمين نعمة الإيجاد، ونعمة الإبقاء.

فقال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى نعمة الإيجاد في الابتداء.

وقال تعالى: ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى نعمة الإبقاء بالرزق إلى الانتهاء.

ثم بين أنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نظرًا إلى عظمته حيث هو عزيز حكيم قادر على كل شيء قدير نافذ الإرادة في كل شيء ولا مثل لهذا ولا معبود لذاته غير هذا ونظرًا إلى نعمته حيث لا خالق غيره ولا رازق إلا هو.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف تصرفون عن هذا الظاهر، فكيف تشركون المنحوت بمن له الملكوت. ثم لما بين الأصل الأول: وهو التوحيد ذكر الأصل الثاني: وهو الرسالة فقال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾.

ثم بين من حيث الإجمال أن المكذِّب في العذاب. والمكذَّب له الثواب بقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ ثم بين الأصل الثالث: وهو الحشر.

فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾.

أي الشيطان وقد ذكرنا ما فيه من المعنى اللطيف في تفسير سورة لقمان ونعيده ههنا فنقول: المكلف قد يكون ضعيف الذهن قليل العقل سخيف الرأي فيغتر بأدنى شيء، وقد يكون فوق ذلك فلا يغتر به ولكن إذا جاءه غار وزين له ذلك الشيء وهون عليه مفاسده، وبين له منافع، يغتر لما فيها من اللذة مع ما ينضم إليه من دعاء ذلك الغار إليه، وقد يكون قوي الجأش غزير العقل فلا يغتر ولا يغر فقال الله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ إشارة إلى الدرجة الأولى، وقال: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ إشارة إلى الثانية ليكون واقعًا في الدرجة الثالثة وهي العليا فلا يغر ولا يغتر.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ لما قال تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾

[فاطر: ٥] ذكر ما يمنع العاقل من الاغترار، وقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ ولا تسمعوا قوله، وقوله: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي اعملوا ما يسوءه وهو العمل الصالح.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ إشارة إلى معنى لطيف وهو أن من يكون له عدو فله في أمره طريقان: أحدهما: أن يعاديه مجازاة له على معاداته، والثاني: أن يذهب عداوته بإرضائه، فلما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أمرهم بالعداوة وأشار إلى أن الطريق ليس إلا هذا، وأما الطريق الآخر وهو الإرضاء فلا فائدة فيه لأنكم إذا راضيتموه واتبعتموه فهو لا يؤديكم إلا إلى السعير.

واعلم أن من علم أن له عدوًّا لا مهرب له منه وجزم بذلك فإنه يقف عنده ويصبر على قتاله والصبر معه الظفر، فكذلك الشيطان لا يقدر الإنسان أن يهرب منه فإنه معه، ولا يزال يتبعه إلا أن يقف له ويهزمه، فهزيمة الشيطان بعزيمة الإنسان، فالطريق الثبات على الجادة والاتكال على العبادة.

ثم بين الله تعالى حال حزبه وحال حزب الله. فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ فالمعادي للشيطان وإن كان في الحال في عذاب ظاهر وليس بشديد، والإنسان إذا كان عاقلاً يختار العذاب المنقطع اليسير دفعًا للعذاب الشديد المؤبد ألا ترى أن الإنسان إذ عرض في طريقه شوك ونار ولا يكون له بد من أحدهما يتخطى الشوك ولا يدخل النار ونسبة النار التي في الدنيا إلى النار التي في الآخرة دون نسبة الشوك إلى النار العاجلة.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ قد ذكر تفسيره مرارًا، وبين فيه أن الإيمان في مقابلته المغفرة فلا يؤبد مؤمن في النار، والعمل الصالح في مقابلته الأجر الكبير.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾

يعني ليس من عمل سيئًا كالذي عمل صالحًا، كما قال بعد هذا بآيات ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ [فاطر: ١٩، ٢٠] وله تعلق بما قبله وذلك من حيث إنه تعالى لما بين حال المسيء الكافر والمحسن المؤمن، وما من أحد يعترف بأنه يعمل سيئًا إلا قليل، فكان الكافر يقول: الذي له العذاب الشديد هو الذي يتبع الشيطان وهو محمد وقومه الذين استهوتهم الجن فاتبعوها، والذي له الأجر العظيم نحن الذين دمنا على ما كان عليه آباؤنا، فقال الله تعالى لستم أنتم بذلك فإن المحسن غير، ومن زين له العمل السيئ فرآه حسنًا غير، بل الذين زين لهم السيئ دون من أساء وعلم أنه مسيء فإن الجاهل الذي يعلم جهله والمسيء الذي يعلم سوء عمله يرجع ويتوب والذي لا يعلم يصر على الذنوب، والمسيء العالم له صفة ذم بالإساءة وصفة مدح بالعلم. والمسيء الذي يرى الإساءة إحسانًا له صفتا ذم الإساءة والجهل، ثم بين أن الكل

بمشيئة الله، وقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ وذلك لأن الناس أشخاصهم متساوية في الحقيقة والإساءة والإحسان، والسيئة والحسنة يمتاز بعضها عن بعض فإذا عرفها البعض دون البعض لا يكون ذلك باستقلال منهم، فلا بد من الاستناد إلى إرادة الله. ثم سلى رسول الله ﷺ حيث حزن من إصرارهم بعد إتيانه بكل آية ظاهرة وحجة باهرة فقال: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ [الكهف: ٦]. ثم بين أن حزنه إن كان لما بهم من الضلال فالله عالم بهم وبما يصنعون لو أراد إيمانهم وإحسانهم لصدهم عن الضلال وردهم عن الإضلال، وإن كان لما به منهم من الإيذاء فالله عالم بفعلهم يجازيهم على ما يصنعون.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾

ثم عاد إلى البيان فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾.

هبوب الرياح دليل ظاهر على الفاعل المختار وذلك لأن الهواء قد يسكن، وقد يتحرك وعند حركته قد يتحرك إلى اليمين، وقد يتحرك إلى اليسار، وفي حركاته المختلفة قد ينشأ السحاب، وقد لا ينشأ، فهذه الاختلافات دليل على مسخر مدبر ومؤثر مقدر.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ﴾ بلفظ الماضي وقال: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ بصيغة المستقبل، وذلك لأنه لما أسند فعل الإرسال إلى الله وما يفعل الله يكون بقوله كن فلا يبقى في العدم لا زمانًا ولا جزءًا من الزمان، فلم يقل بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنه كان وكأنه فرغ من كل شيء فهو قدر الإرسال في الأوقات المعلومة إلى المواضع المعينة والتقدير كالإرسال، ولما أسند فعل الإثارة إلى الريح وهو يؤلف في زمان فقال: ﴿فَتُثِيرُ﴾ أي على هيئتها.

المسألة الثانية: قال: ﴿أَرۡسَلَ﴾ إسنادًا للفعل إلى الغائب وقال: ﴿فَسُقۡنَٰهُ﴾ بإسناد الفعل إلى المتكلم وكذلك في قوله: ﴿فَأَحۡيَيۡنَا﴾ وذلك لأنه في الأول عرف نفسه بفعل من الأفعال وهو الإرسال، ثم لما عرف قال: أنا الذي عرفتني سقت السحاب، وأحييت الأرض ففي الأول كان تعريفًا بالفعل العجيب، وفي الثاني كان تذكيرًا بالنعمة فإن كما (ل) نعمة الرياح والسحب بالسوق والإحياء وقوله: (سقناه) و(أحيينا) بصيغة الماضي يؤيد ما ذكرناه من الفرق بين قوله: ﴿أَرۡسَلَ﴾ وبين قوله: (تثير).

المسألة الثالثة: ما وجه التشبيه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ فيه وجوه: أحدها: أن الأرض الميتة

لما قبلت الحياة اللائقة بها كذلك الأعضاء تقبل الحياة، وثانيها: كما أن الريح يجمع القطع السحابية كذلك يجمع بين أجزاء الأعضاء وأبعاض الأشياء، وثالثها: كما أنا نسوق الريح والسحاب إلى البلد الميت نسوق الروح والحياة إلى البدن الميت.

المسألة الرابعة: ما الحكمة في اختيار هذه الآية من بين الآيات مع أن الله تعالى له في كل شيء آية تدل على أنه واحد؟ فنقول: لما ذكر الله أنه فاطر السموات والأرض، وذكر من الأمور السماوية والأرواح وإرسالها بقوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١] ذكر من الأمور الأرضية الرياح وإرسالها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾

لما بين برهان الإيمان إشارة إلى ما كان يمنع الكفار منه وهو العزة الظاهرة التي كانوا يتوهمونها من حيث إنهم ما كانوا في طاعة أحد ولم يكن لهم من يأمرهم وينهاهم، فكانوا ينحتون الأصنام وكانوا يقولون: إن هذه آلهتنا، ثم إنهم كانوا ينقلونها مع أنفسهم وأية عزة فوق المعية مع المعبود فهم كانوا يطلبون العزة وهي عدم التذلل للرسول وترك الأتباع له، فقال: إن كنتم تطلبون بهذا الكفر العزة في الحقيقة، فهي كلها لله ومن يتذلل له فهو العزيز، ومن يتعزز عليه فهو الذليل.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال في هذه الآية: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] فقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ يدل على أن لا عزة لغيره فنقول: قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ أي في الحقيقة وبالذات وقوله: ﴿وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: ٨] أي بواسطة القرب من العزيز وهو الله وللمؤمنين بواسطة قربهم من العزيز بالله وهو الرسول، وذلك لأن عزة المؤمنين بواسطة النبي ﷺ ألا ترى قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

المسألة الثانية: قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ تقرير لبيان العزة، وذلك لأن الكفار كانوا يقولون: نحن لا نعبد من لا نراه ولا نحضر عنده، لأن البعد من الملك ذلة، فقال تعالى: إن كنتم لا تصلون إليه، فهو يسمع كلامكم ويقبل الطيب فمن قبل كلامه وصعد إليه فهو عزيز ومن رد كلامه في وجهه فهو ذليل، وأما هذه الأصنام لا يتبين عندها الذليل من العزيز إذ لا علم لها فكل أحد يمسها وكذلك يرى عملكم فمن عمل صالحًا رفعه إليه، ومن عمل سيئًا رده عليه، فالعزيز من الذي عمله لوجهه والذليل من يدفع الذي عمله في وجهه، وأما هذه الأصنام فلا تعلم

شيئًا فلا عزيز يرفع عندها ولا ذليل، فلا عزة بها بل عليها ذلة، وذلك لأن ذلة السيد ذلة للعبد ومن كان معبوده وربه وإلهه حجارة أو خشبًا ماذا يكون هو؟!

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ وجوه: أحدها: كلمة لا إله إلا الله هي الطيبة، وثانيها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر طيب، ثالثها: هذه الكلمات الأربع وخامسة وهي تبارك الله والمختار أن كل كلام هو ذكر الله أو هو لله كالنصيحة والعلم، فهو إليه يصعد.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ وفي الهاء وجهان أحدهما: هي عائدة إلى الكلم الطيب أي العمل الصالح هو الذي يرفعه الكلم الطيب ورد في الخبر «لاَ يَقْبَلُ اللَّهُ قَوْلاً بِلاَ عَمَلٍ». وثانيهما: هي عائدة إلى العمل الصالح وعلى هذا في الفاعل الرافع وجهان: أحدهما: هو الكلم الطيب يرفع العمل الصالح، وهذا يؤيده قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النحل: ٩٧] وثانيهما: الرافع هو الله تعالى.

المسألة الخامسة: ما وجه ترجيح الذكر على العمل على الوجه الثاني حيث يصعد الكلم بنفسه ويرفع العمل بغيره، فنقول الكلام شريف، فإن امتياز الإنسان عن كل حيوان بالنطق ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] أي بالنفس الناطقة والعمل حركة وسكون يشترك فيه الإنسان وغيره، والشريف إذا وصل إلى باب الملك لا يمنع ومن دونه لا يجد الطريق إلا عند الطلب ويدل على هذا أن الكافر إذا تكلم بكلمة الشهادة إن كان عن صدق أمن عذاب الدنيا والآخرة، وإن كان ظاهرًا أمن في نفسه ودمه وأهله وحرمه في الدنيا ولا كذلك العمل بالجوارح، وقد ذكرنا ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [النساء: ٥٧] ووجه آخر: القلب هو الأصل وقد تقدم ما يدل عليه، وقال النبي ﷺ: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ»[(١)] وما في القلب لا يظهر إلا باللسان وما في اللسان لا يتبين صدقه إلا بالفعل، فالقول أقرب إلى القلب من الفعل، ألا ترى أن الإنسان لا يتكلم بكلمة إلا عن قلب، وأما الفعل قد يكون لا عن قلب كالعبث باللحية ولأن النائم لا يخلو عن فعل من حركة وتقلب وهو في أكثر الأمر لا يتكلم في نومه إلا نادرًا، لما ذكرنا أن الكلام بالقلب ولا كذلك العمل، فالقول أشرف.

المسألة السادسة: قال الزمخشري: المكر لا يتعدى فبم انتصاب السيئات؟ وقال بأن معناه الذين يمكرون المكرات السيئات فهو وصف مصدر محذوف، ويحتمل أن يقال استعمل المكر

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الإيمان)، باب: (فضل من استبرأ لدينه) (١/ ١٥٣)، حديث رقم (٥٢) من طريق أبي نعيم... به، ومسلم في كتاب (المساقاة)، باب: (أخذ الحلال وترك الشبهات) (٣/ ١٠٧/ ١٢١٩) من طريق محمد بن عبد الله بن شمير الهمداني... عن أبي، كلاهما (أبو نعيم، محمد بن عبد الله) عن زكريا عن عامر قال: سمعت النعمان بن بشير... فذكره.

استعمال العمل فعداه تعديته كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [العنكبوت: ٤]وفي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [العنكبوت: ٤]يحتمل ما ذكرناه أن يكون السيئات وصفًا لمصدر تقديره الذين يعملون العملات السيئات، وعلى هذا فيكون هذا في مقابلة قوله: ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ إشارة إلى بقائه وارتقائه ﴿وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي العمل السيئ ﴿هُوَ يَبُورُ﴾ إشارة إلى فنائه.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١١﴾

قد ذكرنا مرارًا أن الدلائل مع كثرتها وعدم دخولها في عدد محصور منحصرة في قسمين دلائل الآفاق ودلائل الأنفس، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [فصلت: ٥٣]فلما ذكر دلائل الآفاق من السموات وما يرسل منها من الملائكة والأرض وما يرسل فيها من الرياح شرع في دلائل الأنفس، وقد ذكرنا تفسيره مرارًا وذكرنا ما قيل من أن قوله: ﴿مِّن تُرَابٖ﴾ إشارة إلى خلق آدم ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ إشارة إلى خلق أولاده، وبينا أن الكلام غير محتاج إلى هذا التأويل بل ﴿خَلَقَكُم﴾ خطاب مع الناس وهم أولاد آدم كلهم من تراب ومن نطفة لأن كلهم من نطفة والنطفة من غذاء، والغذاء بالآخرة ينتهي إلى الماء والتراب، فهو من تراب صار نطفة.

وقوله: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾ إشارة إلى كمال العمل، فإن ما في الأرحام قبل الانخلاق بل بعده ما دام في البطن لا يعلم حاله أحد، كيف والأم الحاملة لا تعلم منه شيئًا، فلما ذكر بقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ كمال قدرته بين بقوله: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ كمال علمه ثم بين نفوذ إرادته بقوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ﴾ فبين أنه هو القادر العالم المريد والأصنام لا قدرة لها ولا علم ولا إرادة، فكيف يستحق شيء منها العبادة، وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ أي الخلق من التراب ويحتمل أن يكون المراد التعمير والنقصان على الله يسير، ويحتمل أن يكون المراد أن العلم بما تحمله الأنثى يسير والكل على الله يسير والأول أشبه فإن اليسير استعماله في الفعل أليق.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢﴾

قال أكثر المفسرين: إن المراد من الآية ضرب المثل في حق الكفر والإيمان أو الكافر

والمؤمن، فالإيمان لا يشتبه بالكفر في الحسن والنفع كما لا يشتبه البحران العذب الفرات والملح الأجاج. ثم على هذا، فقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ لبيان أن حال الكافر والمؤمن أو الكفر والإيمان دون حال البحرين لأن الأجاج يشارك الفرات في خير ونفع إذ اللحم الطري يوجد فيهما والحلية توجد منهما والفلك تجري فيهما، ولا نفع في الكفر والكافر، وهذا على نسق قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقوله: ﴿كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٧٤] والأظهر أن المراد منه ذكر دليل آخر على قدرة الله وذلك من حيث إن البحرين يستويان في الصورة ويختلفان في الماء، فإن أحدهما عذب فرات والآخر ملح أجاج، ولو كان ذلك بإيجاب لما اختلف المستويان، ثم إنهما بعد اختلافهما يوجد منهما أمور متشابهة، فإن اللحم الطري يوجد فيهما، والحلية تؤخذ منهما، ومن يوجد في المتشابهين اختلافًا ومن المختلفين اشتباهًا لا يكون إلا قادرًا مختارًا. وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ إشارة إلى أن عدم استوائهما دليل على كمال قدرته ونفوذ إرادته.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال أهل اللغة: لا يقال في ماء البحر إذا كان فيه ملوحة مالح، وإنما يقال له ملح، وقد يذكر في بعض كتب الفقه يصير بها ماء البحر مالحًا، ويؤاخذ قائله به. وهو أصح مما يذهب إليه القوم وذلك لأن الماء العذب إذا ألقى فيه ملح حتى ملح لا يقال له إلا مالح، وماء ملح يقال للماء الذي صار من أصل خلقته كذلك، لأن المالح شيء فيه ملح ظاهر في الذوق، والماء الملح ليس ماء وملحًا بخلاف الطعام المالح فالماء العذب الملقى فيه الملح ماء فيه ملح ظاهر في الذوق، بخلاف ما هو من أصل خلقته كذلك، فلما قال الفقيه الملح أجزاء أرضية سبخة يصير بها ماء البحر مالحًا راعى فيه الأصل فإنه جعله ماء جاوره ملح، وأهل اللغة حيث قالوا في البحر ماؤه ملح جعلوه كذلك من أصل الخلقة، والأجاج المر، وقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ من الطير والسمك ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ من اللؤلؤ والمرجان ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ أي ماخرات تمخر البحر بالجريان أي تشق، وقوله: ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يدل على ما ذكرناه من أن المراد من الآية الاستدلال بالبحرين وما فيهما على وجود الله ووحدانيته وكمال قدرته.

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾

استدلال آخر باختلاف الأزمنة وقد ذكرناه مرارًا، وذكرنا أن قوله تعالى بعده: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ

﴿وَٱلۡقَمَرَ﴾ جواب لسؤال يذكره المشركون وهو أنهم قالوا اختلاف الليل والنهار بسبب اختلاف القسي الواقعة فوق الأرض وتحتها، فإن في الصيف تمر الشمس على سمت الرءوس في بعض البلاد المائلة في الآفاق، وحركة الشمس هناك حمائلية فتقع تحت الأرض أقل من نصف دائرة زمان مكثها تحت الأرض فيقصر الليل وفي الشتاء بالضد فيقصر النهار فقال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ يعني سبب الاختلاف وإن كان ما ذكرتم، لكن سير الشمس والقمر بإرادة الله وقدرته فهو الذي فعل ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾.

أي ذلك الذي فعل هذه الأشياء من فَطْرِ السموات والأرض وإرسال الأرواح وإرسال الرياح وخلق الإنسان من تراب وغير ذلك له الملك كله فلا معبود إلا هو لذاته الكامل ولكونه ملكًا والملك مخدوم بقدر ملكه، فإذا كان له الملك كله فله العبادة كلها، ثم بين ما ينافي صفة الإلهية، وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾، وههنا لطيفة: وهي أن الله تعالى ذكر لنفسه نوعين من الأوصاف أحدهما: أن الخلق بالقدرة والإرادة، والثاني: الملك، واستدل بهما على أنه إله معبود كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ① مَلِكِ ٱلنَّاسِ ② إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٣] ذكر الرب والملك ورتب عليهما كونه إلهًا أي معبودًا، وذكر فيمن أشركوا به سلب صفة واحدة وهو عدم الملك بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ ولم يذكر سلب الوصف الآخر لوجهين أحدهما: أن كلهم كانوا معترفين بأن لا خالق لهم إلا الله وإنما كانوا يقولون بأن الله تعالى فوض أمر الأرض والأرضيات إلى الكواكب التي الأصنام على صورتها وطوالعها فقال: لا ملك لهم ولا ملكهم الله شيئًا ولا ملكوا شيئًا، وثانيهما: أنه يلزم من عدم الملك عدم الخلق لأنه لو خلق شيئًا لملكه فإذا لم يملك قطميرًا ما خلق قليلاً ولا كثيرًا.

قوله تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ ⑭﴾

إبطالاً لما كانوا يقولون: إن في عبادة الأصنام عزة من حيث القرب منها والنظر إليها وعرض الحوائج عليها، والله لا يُرى ولا يصل إليه أحد فقال: هؤلاء لا يسمعون دعاءكم والله يصعد إليه الكلم الطيب، ليسمع ويقبل ثم نزل عن تلك الدرجة، وقال: هب أنهم يسمعون كما يظنون فإنهم كانوا يقولون بأن الأصنام تسمع وتعلم ولكن ما كان يمكنهم أن يقولوا إنهم يجيبون لأن ذلك إنكار للمحس به وعدم سماعهم إنكار للمعقول والنزاع وإن كان يقع في المعقول فلا يمكن وقوعه في المحس به، ثم إنه تعالى قال: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ لما بين عدم النفع فيهم

في الدنيا بين عدم النفع منهم في الآخرة بل أشار إلى وجود الضرر منهم في الآخرة بقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي بإشراككم بالله شيئًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] أي الإشراك وقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون ذلك خطابًا مع النبي ﷺ ووجهه هو أن الله تعالى لما أخبر أن الخشب والحجر يوم القيامة ينطق ويكذب عابده وذلك أمر لا يعلم بالعقل المجرد لولا إخبار الله تعالى عنه أنهم يكفرون بهم يوم القيامة، وهذا القول مع كون الخبر عنه أمرًا عجيبًا هو كما قال، لأن المخبر عنه خبير، وثانيهما: هو أن يكون ذلك خطابًا غير مختص بأحد، أي هذا الذي ذكر هو كما قال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ أيها السامع كائنًا من كنت ﴿مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾

لما كثر الدعاء من النبي ﷺ والإصرار من الكفار وقالوا: إن الله لعله يحتاج إلى عبادتنا حتى يأمرنا بها أمرًا بالغًا ويهددنا على تركها مبالغًا، فقال تعالى: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ فلا يأمركم بالعبادة لاحتياجه إليكم وإنما هو لإشفاقه عليكم.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: التعريف في الخبر قليل والأكثر أن يكون الخبر نكرة والمبتدأ معرفة وهو معقول وذلك لأن المخبر لا يخبر في الأكثر إلا بأمر لا يكون عند المخبر به علم أو في ظن المتكلم أن السامع لا علم له به، ثم أن يكون معلومًا عند السامع حتى يقول له: أيها السامع الأمر الذي تعرفه أنت فيه المعنى الفلاني، كقول القائل: زيد قائم أو قام أي زيد الذي تعرفه، ثبت له قيام لا علم عندك به، فإن كان الخبر معلومًا عند السامع والمبتدأ كذلك ويقع الخبر تنبيهًا لا تفهيمًا يحسن تعريف الخبر غاية الحسن، كقول القائل: الله ربنا ومحمد نبينا، حيث عرف كون الله ربًا، وكون محمد نبيًا، وههنا لما كان كون الناس فقراء أمرًا ظاهرًا لا يخفى على أحد قال: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾.

المسألة الثانية: قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ إعلام بأنه لا افتقار إلا إليه ولا اتكال إلا عليه وهذا يوجب عبادته لكونه مفتقرًا إليه وعدم عبادة غيره لعدم الافتقار إلى غيره، ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ أي هو مع استغنائه يدعوكم كل الدعاء وأنتم من احتياجكم لا تجيبونه ولا تدعونه فيجيبكم.

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ لما زاد في الخبر الأول وهو قوله: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ زيادة وهو قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ إشارة لوجوب حصر العبادة في عبادته زاد في وصفه بالغني زيادة وهو كونه حميدًا إشارة إلى كونكم فقراء وفي مقابلته الله غني وفقركم إليه في مقابلة نعمه عليكم لكونه حميدًا واجب الشكر، فلستم أنتم فقراء والله مثلكم في الفقر بل هو غني على الإطلاق

ولستم أنتم لما افتقرتم إليه ترككم غير مقضي الحاجات بل قضى في الدنيا حوائجكم، وإن آمنتم يقضي في الآخرة حوائجكم فهو حميد.

قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بيانًا لغناه وفيه بلاغة كاملة وبيانها أنه تعالى قال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي ليس إذهابكم موقوفًا إلا على مشيئته بخلاف الشيء المحتاج إليه، فإن المحتاج لا يقول فيه إن يشأ فلان هدم داره وأعدم عقاره، وإنما يقول لولا حاجة السكنى إلى الدار لبعتها أو لولا الافتقار إلى العقار لتركتها، ثم إنه تعالى زاد بيان الاستغناء بقوله: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يعني إن كان يتوهم متوهم أن هذا الملك له كمال وعظمة فلو أذهبه لزال ملكه وعظمته فهو قادر بأن يخلق خلقًا جديدًا أحسن من هذا وأجمل وأتم وأكمل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾.

أي الإذهاب والإتيان، وههنا مسألة: وهي أن لفظ العزيز استعمله الله تعالى تارة في القائم بنفسه حيث قال في حق نفسه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥] وقال في هذه السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨] واستعمله في القائم بغيره حيث قال: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ وقال: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] فهل هما بمعنى واحد أم بمعنيين؟ فنقول: العزيز هو الغالب في اللغة يقال من عزَّبزَّ أي من غلب سلب، فالله عزيز أي غالب والفعل إذا كان لا يطيقه شخص يقال هو مغلوب بالنسبة إلى ذلك الفعل فقوله: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي لا يغلب الله ذلك الفعل بل هو هين على الله وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] أي يحزنه ويؤذيه كالشغل الغالب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾. متعلق بما قبله، وذلك من حيث إنه تعالى لما بين الحق بالدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة ذكر ما يدعوهم إلى النظر فيه فقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل نفس ذنب نفس فالنبي ﷺ لو كان كاذبًا في دعائه لكان مذنبًا وهو معتقد بأن ذنبه لا تحملونه أنتم فهو يتوقى ويحترز، والله تعالى غير فقير إلى عبادتكم فتفكروا واعلموا أنكم إن ضللتم فلا يحمل أحد عنكم وزركم وليس كما يقول أكابركم: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢]

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿وَازِرَةٌ﴾ أي نفس وازرة ولم يقل: ولا تزر نفس وزر أخرى، ولا جمع بين الموصوف والصفة فلم يقل: ولا تزر نفس وازرة وزر أخرى، لفائدة أما الأول: فلأنه لو قال ولا تزر نفس وزر أخرى، لما علم أن كل نفس وازرة مهمومة بهم وزرها متحيرة في أمرها ووجه آخر: وهو أن قول القائل ولا تزر نفس وزر أخرى، قد يجتمع معها أن لا تزر وزرًا أصلاً كالمعصوم لا يزر وزر غيره ومع ذلك لا يزر وزرًا رأسًا فقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ بين أنها تزر وزرها ولا تزر وزر الغير وأما ترك ذكر الموصوف فلظهور الصفة ولزومها للموصوف.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ إشارة إلى أن أحدًا لا يحمل عن أحد شيئًا مبتدئًا ولا بعد السؤال، فإن المحتاج قد يصبر وتقضى حاجته من غير سؤاله، فإذا انتهى الافتقار إلى حد الكمال يحوجه إلى السؤال.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ زيادة بيان لما تقدم من حيث إنه قال أولاً: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فيظن أن أحدًا لا يحمل عن أحد لكون ذلك الواحد قادرًا على حمله، كما أن القوي إذا أخذ بيده رمانة أو سفرجلة لا تحمل عنه، وأما إذا كان الحمل ثقيلاً قد يرحم الحامل فيحمل عنه فقال: ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ يعني ليس عدم الوزر لعدم كونه محلاً للرحمة بالثقل بل لكون النفس مثقلة ولا يحمل منها شيء.

المسألة الثالثة: زاد في ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ أي المدعو لو كان ذا قربى لا يحمله وفي الأول كان يمكن أن يقال لا يحمله لعدم تعلقه به كالعدو الذي يرى عدوه تحت ثقل، أو الأجنبي الذي يرى أجنبيًا تحت حمل لا يحمل عنه فقال: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ أي يحصل جميع المعاني الداعية إلى الحمل من كون النفس وازرة قوية تحتمل وكون الأخرى مثقلة لا يقال كونها قوية قادرة ليس عليها حمل وكونه سائلة داعية فإن السؤال مظنة الرحمة، لو كان المسؤول قريبًا فإذن لا يكون التخلف إلا لمانع وهو كون كل نفس تحت حمل ثقيل.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ إشارة إلى أن لا إرشاد فوق ما أتيت به، ولم يفدهم، فلا تنذر إنذارًا مفيدًا إلا الذين تمتلئ قلوبهم خشية وتتحلى ظواهرهم بالعبادة كقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [فاطر: ٧] إشارة إلى عمل القلب ﴿وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ﴾ [فاطر: ٧] إشارة إلى عمل الظواهر فقوله: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ في ذلك المعنى، ثم لما بين ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ بين أن الحسنة تنفع المحسنين. فقال: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي فتزكيته لنفسه.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي المتزكي إن لم تظهر فائدته عاجلاً فالمصير إلى الله يظهر عنده في يوم اللقاء في دار البقاء، والوازر إن لم تظهر تبعة وزره في الدنيا فهي تظهر في الآخرة إذ المصير إلى الله.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٢٢﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾.

لما بين الهدى والضلالة ولم يهتد الكافر، وهدى الله المؤمن ضرب لهم مثلاً بالبصير والأعمى، فالمؤمن بصير حيث أبصر الطريق الواضح والكافر أعمى.

وفي تفسير الآية مسائل:

المسألة الأولى: ما الفائدة في تكثير الأمثلة ههنا حيث ذكر الأعمى والبصير، والظلمة والنور، والظل والحرور، والأحياء والأموات؟ فنقول: الأول مثل المؤمن والكافر فالمؤمن بصير والكافر أعمى، ثم إن البصير وإن كان حديد البصر ولكن لا يبصر شيئًا إن لم يكن في ضوء فذكر للإيمان والكفر مثلاً، وقال الإيمان نور والمؤمن بصير والبصير لا يخفى عليه النور، والكفر ظلمة والكافر أعمى فله صاد فوق صاد، ثم ذكر لمآلهما ومرجعهما مثلاً وهو الظل والحرور، فالمؤمن بإيمانه في ظل وراحة والكافر بكفره في حر وتعب، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ مثلاً آخر في حق المؤمن والكافر كأنه قال تعالى: حال المؤمن والكافر فوق حال الأعمى والبصير، فإن الأعمى يشارك البصير في إدراك ما. والكافر غير مدرك إدراكًا نافعًا فهو كالميت، ويدل على ما ذكرنا أنه تعالى أعاد الفعل حيث قال أولاً: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ وعطف الظلمات والنور والظل والحرور، ثم أعاد الفعل، وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ كأنه جعل هذا مقابلاً لذلك.

المسألة الثانية: كرر كلمة النفي بين الظلمات والنور والظل والحرور والأحياء والأموات، ولم يكرر بين الأعمى والبصير، وذلك لأن التكرير للتأكيد والمنافاة بين الظلمة والنور والظل والحرور مضادة، فالظلمة تنافي النور وتضاده والعمى والبصر كذلك، أما الأعمى والبصير ليس كذلك بل الشخص الواحد قد يكون بصيرًا وهو بعينه يصير أعمى، فالأعمى والبصير لا منافاة بينهما إلا من حيث الوصف، والظل والحرور والمنافاة بينهما ذاتية لأن المراد من الظل عدم الحر والبرد فلما كانت المنافاة هناك أتم، أكد بالتكرار، وأما الأحياء والأموات، وإن كانوا كالأعمى والبصير من حيث إن الجسم الواحد يكون حيًا محلاً للحياة فيصير ميتًا محلاً للموت ولكن المنافاة بين الحي والميت أتم من المنافاة بين الأعمى والبصير، كما بينا أن الأعمى والبصير يشتركان في إدراك أشياء، ولا كذلك الحي والميت، كيف والميت يخالف الحي في

الحقيقة لا في الوصف على ما تبين في الحكمة الإلهية.

المسألة الثالثة: قدم الأشرف في مثلين وهو الظل والحرور، وأخره في مثلين وهو البصر والنور، وفي مثل هذا يقول المفسرون: إنه لتواخي أواخر الآي، وهو ضعيف لأن تواخي الأواخر راجع إلى السجع، ومعجزة القرآن في المعنى لا في مجرد اللفظ، فالشاعر يقدم ويؤخر للسجع فيكون اللفظ حاملاً له على تغيير المعنى، وأما القرآن فحكمة بالغة والمعنى فيه صحيح واللفظ فصيح فلا يقدم ولا يؤخر اللفظ بلا معنى، فنقول: الكفار قبل النبي ﷺ كانوا في ضلالة فكانوا كالعمي وطريقهم كالظلمة ثم لما جاء النبي ﷺ وبين الحق، واهتدى به منهم قوم فصاروا بصيرين وطريقتهم كالنور فقال: وما يستوي من كان قبل البعث على الكفر ومن اهتدى بعده إلى الإيمان، فلما كان الكفر قبل الإيمان في زمان محمد ﷺ، والكافر قبل المؤمن قدم المقدم، ثم لما ذكر المآل والمرجع قدم ما يتعلق بالرحمة على ما يتعلق بالغضب لقوله في الإلهيات: سبقت رحمتي غضبي، ثم إن الكافر المصر بعد البعثة صار أضل من الأعمى وشابه الأموات في عدم إدراك الحق من جميع الوجوه فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ﴾ أي المؤمنون الذين آمنوا بما أنزل الله والأموات الذين تليت عليهم الآيات البينات، ولم ينتفعوا بها وهؤلاء كانوا بعد إيمان من آمن فأخرهم عن المؤمنين لوجود حياة المؤمنين قبل ممات الكافرين المعاندين، وقدم الأعمى على البصير لوجود الكفار الضالين قبل البعثة على المؤمنين المهتدين بعدها.

المسألة الرابعة: فإن قلت قابل الأعمى بالبصير بلفظ المفرد وكذلك الظل بالحرور وقابل الأحياء بالأموات بلفظ الجمع، وقابل الظلمات بالنور بلفظ الجمع في أحدهما والواحد في الآخر، فهل تعرف فيه حكمة؟ قلت: نعم بفضل الله وهدايته، أما في الأعمى والبصير والظل والحرور، فلأنه قابل الجنس بالجنس، ولم يذكر الأفراد لأن في العميان وأولي الأبصار قد يوجد فرد من أحد الجنسين يساوي فردًا من الجنس الآخر كالبصير الغريب في موضع والأعمى الذي هو تربية ذلك المكان، وقد يقدر الأعمى على الوصول إلى مقصد ولا يقدر البصير عليه، أو يكون الأعمى عنده من الذكاء ما يساوي به البليد البصير، فالتفاوت بينهما في الجنسين مقطوع به فإن جنس البصير خير من جنس الأعمى، وأما الأحياء والأموات فالتفاوت بينهما أكثر، إذ ما من ميت يساوي في الإدراك حيًّا من الأحياء، فذكر أن الأحياء لا يساوون الأموات سواء قابلت الجنس بالجنس أو قابلت الفرد بالفرد، وأما الظلمات والنور فالحق واحد وهو التوحيد والباطل كثير وهو طرق الإشراك على ما بينا أن بعضهم يعبدون الكواكب وبعضهم النار وبعضهم الأصنام التي هي على صورة الملائكة، وإلى غير ذلك والتفاوت بين كل فرد من تلك الأفراد وبين هذا الواحد بين، فقال الظلمات كلها إذا اعتبرتها لا تجد فيها ما يساوي النور، وقد ذكرنا في تفسير قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] السبب في توحيد النور وجمع الظلمات، ومن جملة ذلك أن النور لا يكون إلا بوجود منور ومحل قابل للاستنارة وعدم الحائل بين النور

والمستنير. مثاله الشمس إذا طلعت وكان هناك موضع قابل للاستنارة وهو الذي يمسك الشعاع، فإن البيت الذي فيه كوة يدخل منها الشعاع إذا كان في مقابلة الكوة منفذ يخرج منه الشعاع ويدخل بيتًا آخر ويبسط الشعاع على أرضه يرى البيت الثاني مضيئًا والأول مظلمًا، وإن لم يكن ناك حائل كالبيت الذي لا كوة له فإنه لا يضيء، فإذا حصلت الأمور الثلاثة يستنير البيت وإلا فلا تتحقق الظلمة بفقد أي أمر كان من الأمور الثلاثة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ وفيه احتمال معنيين الأول: أن يكون المراد بيان كون الكفار بالنسبة إلى سماعهم كلام النبي والوحي النازل عليه دون حال الموتى فإن الله يسمع الموتى والنبي لا يسمع من مات وقبر، فالموتى سامعون من الله والكفار كالموتى لا يسمعون من النبي، والثاني: أن يكون المراد تسلية النبي ﷺ فإنه لما بين له أنه لا ينفعهم ولا يسمعهم قال له: هؤلاء لا يسمعهم إلا الله، فإنه يسمع من يشاء ولو كان صخرة صماء، وأما أنت فلا تسمع من في القبور، فما عليك من حسابهم من شيء.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ بيانًا للتسلية.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ لما قال: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ بين أنه ليس نذيرًا من تلقاء نفسه إنما هو نذير بإذن الله وإرساله.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ تقريرًا لأمرين أحدهما: لتسلية قلبه حيث يعلم أن غيره كان مثله محتملاً لتأذي القوم، وثانيهما: إلزام القوم قبوله فإنه ليس بدعًا من الرسل وإنما هو مثل غيره يدعي ما ادعاه الرسل ويقرره.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾.

يعني أنت جئتهم بالبينة والكتاب فكذبوك وآذوك وغيرك أيضًا أتاهم بمثل ذلك وفعلوا بهم ما فعلوا بك وصبروا على ما كذبوا فكذلك نلزمهم بأن من تقدم من الرسل لم يعلم كونهم رسلاً إلا بالمعجزات البينات وقد آتيناها محمدًا ﷺ ﴿وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ والكل آتيناها محمدًا، فهو رسول مثل الرسل يلزمهم قبوله كما لزم قبول موسى وعيسى عليهم السلام أجمعين، وهذا يكون تقريرًا مع أهل الكتاب، واعلم أنه تعالى ذكر أمورًا ثلاثة أولها البينات، وذلك لأن كل رسول فلا بد له من معجزة وهي أدنى الدرجات، ثم قد ينزل عليه كتاب يكون فيه مواعظ وتنبيهات وإن لم يكن فيه نسخ وأحكام مشروعة شرعًا ناسخًا، ومن ينزل عليه مثله أعلى مرتبة ممن لا ينزل عليه

ذلك وقد تنسخ شريعته الشرائع وينزل عليه كتاب فيه أحكام على وفق الحكمة الإلهية، ومن يكون كذلك فهو من أولي العزم فقال: الرسل تبين رسالتهم بالبينات وإن كانوا أعلى مرتبة فبالزبر، وإن كانوا أعلى فبالكتاب والنبي آتيناه الكل فهو رسول أشرف من الكل لكون كتابه أتم وأكمل من كل كتاب.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

أي من كذب بالكتاب المنزل من قبل وبالرسول المرسل أخذه الله تعالى فكذلك من يكذب بالنبي عليه السلام، وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ سؤال للتقرير فإنهم علموا شدة إنكار الله عليهم وإتيانه بالأمر المنكر من الاستئصال.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾.

وهذا استدلال بدليل آخر على وحدانية الله وقدرته وفي تفسيرها مسائل:

المسألة الأولى: ذكر هذا الدليل على طريقة الاستخبار، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وذكر الدليل المتقدم على طريقة الإخبار وقال: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾ [فاطر: ٩] وفيه وجهان الأول: أن إنزال الماء أقرب إلى النفع والمنفعة فيه أظهر فإنه لا يخفى على أحد في الرؤية أن الماء منه حياة الأرض فعظم دلالته بالاستفهام لأن الاستفهام الذي للتقرير لا يقال إلا في الشيء الظاهر جدًا كما أن من أبصر الهلال وهو خفي جدًا، فقال له غيره: أين هو؟ فإنه يقول له: في الموضع الفلاني، فإن لم يره، يقول له: الحق معك إنه خفي وأنت معذور، وإذا كان بارزًا يقول له: أما تراه هذا هو ظاهرًا، والثاني: وهو أنه ذكره بعدما قرر المسألة بدليل آخر وظهر بما تقدم للمدعو بصارة بوجوه الدلالات، فقال له: أنت صرت بصيرًا بما ذكرناه ولم يبق لك عذر، ألا ترى هذه الآية.

المسألة الثانية: المخاطب من هو؟ يحتمل وجهين أحدهما: النبي ﷺ وفيه حكمة وهي أن الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تنفعهم قطع الكلام معهم والتفت إلى غيرهم، كما أن السيد إذا نصح بعض العبيد ومنعهم من الفساد ولا ينفعهم الإرشاد، يقول لغيره: اسمع ولا تكن مثل هذا، ويكرر معه ما ذكره مع الأول ويكون فيه إشعار بأن الأول فيه نقيصة لا يستأهل للخطاب فيتنبه له ويدفع عن نفسه تلك النقيصة، والآخر: أن لا يخرج إلى كلام أجنبي عن الأول، بل يأتي بما يقاربه لئلا يسمع الأول كلامًا آخر فيترك التفكر فيما كان فيه من النصيحة.

المسألة الثالثة: هذا استدلال على قدرة الله واختياره حيث أخرج من الماء الواحد ممرات مختلفة، وفيه لطائف الأولى: قال: (أنزل) وقال: (أخرجنا). وقد ذكرنا فائدته ونعيدها فنقول: قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ﴾ فإن كان جاهلاً يقول نزول الماء بالطبع لثقله فيقال له، فالإخراج لا يمكنك أن تقول فيه إنه بالطبع فهو بإرادة الله، فلما كان ذلك أظهر أسنده إلى المتكلم، ووجه آخر: هو أن الله تعالى لما قال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ﴾ علم الله بدليل، وقرب المتفكر فيه إلى الله تعالى فصار من الحاضرين، فقال له: (أخرجنا) لقربه، ووجه ثالث: الإخراج أتم نعمة من الإنزال، لأن الإنزال لفائدة الإخراج فأسند الأتم إلى نفسه بصيغة المتكلم وما دونه بصيغة الغائب.

اللطيفة الثانية: قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾.

كأن قائلاً قال: اختلاف الثمرات لاختلاف البقاع. ألا ترى أن بعض النباتات لا تنبت ببعض البلاد كالزعفران وغيره، فقال تعالى: اختلاف البقاع ليس إلا بإرادة الله وإلا فلم صار بعض الجبال فيه مواضع حمر ومواضع بيض، والجدد جمع جدة وهي الخطة أو الطريقة، فإن قيل: الواو في: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ﴾ ما تقديرها؟ نقول: هي تحتمل وجهين أحدهما: أن تكون للاستئناف كأنه قال تعالى وأخرجنا بالماء ثمرات مختلفة الألوان، وفي الأشياء الكائنات من الجبال جدد بيض دالة على القدرة، رادة على من ينكر الإرادة في اختلاف ألوان الثمار، ثانيهما: أن تكون للعطف تقديرها وخلق من الجبال. قال الزمخشري: أراد ذو جدد.

واللطيفة الثالثة: ذكر الجبال ولم يذكر الأرض كما قال في موضع آخر: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرعد: ٤] مع أن هذا الدليل مثل ذلك، وذلك لأن الله تعالى لما ذكر في الأول: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾ كان نفس إخراج الثمار دليلاً على القدرة ثم زاد عليه بيانًا، وقال: (مختلفًا) كذلك في الجبال في نفسها دليل للقدرة والإرادة، لأن كون الجبال في بعض نواحي الأرض دون بعضها والاختلاف الذي في هيئة الجبل فإن بعضها يكون أخفض وبعضها أرفع دليل القدرة والاختيار، ثم زاده بيانًا وقال ﴿جُدَدٌۢ بِيضٌ﴾، أي مع دلالتها بنفسها هي دالة باختلاف ألوانها، كما أن إخراج الثمرات في نفسها دلائل واختلاف ألوانها دلائل.

المسألة الرابعة: ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾، الظاهر أن الاختلاف راجع إلى كل لون أي بيض مختلف ألوانها وحمر مختلف ألوانها، لأن الأبيض قد يكون على لون الجص، وقد يكون على لون التراب الأبيض دون بياض الجص، وكذلك الأحمر، ولو كان المراد أن البيض والحمر مختلف الألوان لكان مجرد تأكيد والأول أولى، وعلى هذا فنقول: لم يذكر مختلف ألوانها بعد البيض والحمر والسود، بل ذكره بعد البيض والحمر وأخر السود الغرابيب، لأن الأسود لما ذكره مع المؤكد وهو الغرابيب يكون بالغًا غاية السواد فلا يكون فيه اختلاف.

المسألة الخامسة: قيل بأن الغربيب مؤكد للأسود، يقال: أسود غربيب، والمؤكد لا يجيء إلا متأخرًا فكيف جاء غرابيب سود؟ نقول: قال الزمخشري: غرابيب مؤكد لذي لون مقدر في الكلام كأنه تعالى قال: سواد غرابيب، ثم أعاد السود مرة أخرى وفيه فائدة وهي زيادة التأكيد لأنه تعالى ذكره مضمرًا ومظهرًا، ومنهم من قال: هو على التقديم والتأخير، ثم قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ استدلالاً آخر على قدرته وإرادته، وكأن الله تعالى قسم دلائل الخلق في العالم الذي نحن فيه وهو عالم المركبات قسمين: حيوان وغير حيوان، وغير الحيوان إما نبات وإما معدن، والنبات أشرف، وأشار إليه بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾ ثم ذكر المعدن بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ﴾ ثم ذكر الحيوان وبدأ بالأشرف منها وهو الإنسان فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ثم ذكر الدواب، لأن منافعها في حياتها والأنعام منفعتها في الأكل منها، أو لأن الدابة في العرف تطلق على الفرس وهو بعد الإنسان أشرف من غيره، وقوله: ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ القول فيه كما أنها في أنفسها دلائل، كذلك في اختلافها دلائل. وأما قوله ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ فذكر لكون الإنسان من جملة المذكورين، وكون التذكير أعلى وأولى.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

الخشية بقدر معرفة المخشي، والعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه. وهذا دليل على أن العالم أعلى درجة من العابد، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] فبين أن الكرامة بقدر التقوى، والتقوى بقدر العلم. فالكرامة بقدر العلم لا بقدر العمل، نعم العالم إذا ترك العمل قدح ذلك في علمه، فإن من يراه يقول: لو علم لعمل. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ ذكر ما يوجب الخوف والرجاء، فكونه عزيزًا ذا انتقام يوجب الخوف التام، وكونه غفورًا لما دون ذلك يوجب الرجاء البالغ. وقراءة من قرأ بنصب العلماء ورفع الله، معناها إنما يعظم ويبجل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾.

لما بين العلماء بالله وخشيتهم وكرامتهم بسبب خشيتهم ذكر العالمين بكتاب الله العاملين بما فيه. وقوله: ﴿يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى الذكر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إشارة إلى العمل البدني.

وقوله: ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ إشارة إلى العمل المالي، وفي الآيتين حكمة بالغة، فقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ﴾ إشارة إلى عمل القلب، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ﴾ إشارة إلى عمل اللسان. وقوله: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ إشارة إلى عمل الجوارح، ثم إن هذه الأشياء الثلاثة متعلقة

بجانب تعظيم الله والشفقة على خلقه، لأنا بينا أن من يعظم ملكًا إذا رأى عبدًا من عباده في حاجة يلزمه قضاء حاجته وإن تهاون فيه يخل بالتعظيم، وإلى هذا أشار بقوله: عبدي مرضت فما عدتني، فيقول العبد: كيف تمرض وأنت رب العالمين؟! فيقول الله: مرض عبدي فلان وما زرته ولو زرته لوجدتني عنده، يعني التعظيم متعلق بالشفقة فحيث لا شفقة على خلق الله لا تعظيم لجانب الله.

وقوله تعالى: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ حث على الإنفاق كيفما يتهيأ، فإن تهيأ سرًّا فذاك ونعم وإلا فعلانية ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء، فإن ترك الخير مخافة أن يقال فيه إنه مراء عين الرياء ويمكن أن يكون المراد بقوله: ﴿سِرًّا﴾ أي صدقة ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ أي زكاة، فإن الإعلان بالزكاة كالإعلان بالفرض وهو مستحب.

وقوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ إشارة إلى الإخلاص، أي ينفقون لا ليقال إنه كريم ولا لشيء من الأشياء غير وجه الله، فإن غير الله بائر والتاجر فيه تجارته بائرة.

قوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَٰبِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي ما يتوقعونه ولو كان أمرًا بالغ الغاية ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي يعطيهم ما لم يخطر ببالهم عند العمل، ويحتمل أن يكون يزيدهم النظر إليه كما جاء في تفسير الزيادة ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ عند إعطاء الأجور ﴿شَكُورٌ﴾ عند إعطاء الزيادة.

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَٰبِ هُوَ الْحَقُّ﴾.

لما بين الأصل الأول وهو وجود الله الواحد بأنواع الدلائل من قوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِىٓ أَرْسَلَ الرِّيَٰحَ﴾ [فاطر: ٩] وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم﴾ [فاطر: ١١] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ﴾ [فاطر: ٢٧] ذكر الأصل الثاني وهو الرسالة، فقال: ﴿وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَٰبِ هُوَ الْحَقُّ﴾ وأيضًا كأنه قد ذكر أن الذين يتلون كتاب الله يوفيهم الله فقال: ﴿وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَٰبِ هُوَ الْحَقُّ﴾ تقريرًا لما بين من الأجر والثواب في تلاوة كتاب الله فإنه حق وصدق فتاليه محق ومحقق.

وفي تفسيرها مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿مِنَ الْكِتَٰبِ﴾ يحتمل أن يكون لابتداء الغاية كما يقال أرسل إلى كتاب من الأمير أو الوالي وعلى هذا فالكتاب يمكن أن يكون المراد منه اللوح المحفوظ يعني الذي أوحينا من اللوح المحفوظ إليك حق، ويمكن أن يكون المراد هو القرآن يعني الإرشاد والتبيين الذي أوحينا إليك من القرآن، ويحتمل أن يكون للبيان كما يقال: أرسل إلى فلان من الثياب والقماش جملة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ آكد من قول القائل: الذي أوحينا إليك حق، من وجهين أحدهما: أن تعريف الخبر يدل على أن الأمر في غاية الظهور لأن الخبر في الأكثر يكون نكرة، لأن الإخبار في الغالب يكون إعلامًا بثبوت أمر لا معرفة للسامع به لأمر يعرفه السامع كقولنا: زيد قام، فإن السامع ينبغي أن يكون عارفًا بزيد ولا يعلم قيامه فيخبر به، فإذا كان الخبر أيضًا معلومًا فيكون الإخبار للتنبيه فيعرفان باللام كقولنا: زيد العالم في هذه المدينة، إذا كان علمه مشهورًا.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ حال مؤكدة لكونه حقًّا لأن الحق إذا كان لا خلاف بينه وبين كتب الله يكون خاليًا عن احتمال البطلان، وفي قوله ﴿مُصَدِّقًا﴾ تقرير لكونه وحيًا؛ لأن النبي ﷺ لما لم يكن قارئًا كاتبًا وأتى ببيان ما في كتب الله لا يكون ذلك إلا من الله تعالى وجواب عن سؤال الكفار وهو أنهم كانوا يقولون بأن التوراة ورد فيها كذا والإنجيل ذكر فيه كذا وكانوا يفترون من التثليث وغيره وكانوا يقولون بأن القرآن فيه خلاف ذلك فقال: التوراة والإنجيل لم يبق بهما وثوق بسبب تغييركم فهذا القرآن ما ورد فيه إن كان في التوراة فهو حق وباق على ما نزل، وإن لم يكن فيه ويكون فيه خلاف فهو ليس من التوراة، فالقرآن مصدق للتوراة، وفيه وجه آخر: وهو أن يقال: إن هذا الوحي مصدق لما تقدم لأن الوحي لو لم يكن وجوده لكذب موسى وعيسى عليهما السلام في إنزال التوراة والإنجيل فإذا وجد الوحي ونزل على محمد ﷺ علم جوازه وصدق به ما تقدم، وعلى هذا ففيه لطيفة: وهي أنه تعالى جعل القرآن مصدقًا لما مضى مع أن ما مضى أيضًا مصدق له لأن الوحي إذا نزل على واحد جاز أن ينزل على غيره وهو محمد ﷺ ولم يجعل ما تقدم مصدقًا للقرآن كونه معجزة يكفي في تصديقه بأنه وحي، وأما ما تقدم فلا بد معه من معجزة تصدقه.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ فيه وجهان: أحدهما أنه تقرير لكونه هو الحق لأنه وحي من الله والله خبير عالم بالبواطن بصير عالم بالظواهر، فلا يكون باطلاً في وحيه لا في الباطن ولا في الظاهر، وثانيهما: أن يكون جوابًا لما كانوا يقولونه إنه لِمَ لم ينزل على رجل عظيم؟ فيقال: إن الله بعباده لخبير يعلم بواطنهم وبصير يرى ظواهرهم فاختار محمدًا عليه السلام ولم يختر غيره فهو أصلح من الكل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾

اتفق أكثر المفسرين على أن المراد من الكتاب القرآن وعلى هذا فالذين اصطفيناهم الذين أخذوا بالكتاب وهم المؤمنون والظالم والمقتصد والسابق كلهم منهم ويدل عليه قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [الرعد: ٢٣] أخبر بدخولهم الجنة وكلمة ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا﴾ أيضًا تدل عليه لأن الإيراث

إذا كان بعد الإيحاء ولا كتاب بعد القرآن فهو الموروث والإيراث المراد منه الإعطاء بعد ذهاب من كان بيده المعطى، ويحتمل أن يقال: المراد من الكتاب هو جنس الكتاب كما في قوله تعالى: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥] والمعنى على هذا: إنا أعطينا الكتاب الذين اصطفينا وهم الأنبياء ويدل عليه أن لفظ المصطفى على الأنبياء إطلاقه كثير ولا كذلك على غيرهم لأن قوله: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ دل على أن العباد أكابر مكرمون بالإضافة إليه، ثم إن المصطفين منهم أشرف منهم ولا يليق بمن يكون أشرف من الشرفاء أن يكون ظالمًا مع أن لفظ الظالم أطلقه الله في كثير من المواضع على الكافر وسمي الشرك ظلمًا، وعلى الوجه الأول الظاهر بين معناه آتينا القرآن لمن آمن بمحمد وأخذوه منه وافترقوا ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ﴾ وهو المسيء ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو الذي خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ وهو الذي أخلص العمل لله وجرده عن السيئات، فإن قال قائل: كيف قال في حق من ذكر في حقه أنه من عباده وأنه مصطفى إنه ظالم؟ مع أن الظالم يطلق على الكافر في كثير من المواضع؟ فنقول: المؤمن عند المعصية يضع نفسه في غير موضعها فهو ظالم لنفسه حال المعصية وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[(١)] ويصحح هذا قول عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ظالمنا مغفور له»[(٢)] وقال آدم عليه السلام مع كونه مصطفى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] وأما الكافر فيضع قلبه الذي به اعتبار الجسد في غير موضعه فهو ظالم على الإطلاق، وأما قلب المؤمن فمطمئن بالإيمان لا يضعه في غير التفكر في آلاء الله ولا يضع فيه غير محبة الله، وفي المراتب الثلاث أقوال كثيرة: أحدها: الظالم هو الراجح السيئات والمقتصد هو الذي تساوت سيئاته وحسناته والسابق هو الذي ترجحت حسناته، ثانيها: الظالم هو الذي ظاهره خير من باطنه، والمقتصد من تساوى ظاهره وباطنه، والسابق من باطنه خير، ثالثها: الظالم هو الموحد بلسانه الذي تخالفه جوارحه، والمقتصد هو الموحد الذي يمنع جوارحه من المخالفة بالتكليف، والسابق هو الموحد الذي ينسيه التوحيد عن التوحيد،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الأشربة)، باب: (قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ﴾ [المائدة:٩٠]) (١٠/ ٣٣)، حديث رقم (٥٥٧٨)، ومسلم في كتاب (الإيمان)، باب: (بيان نقصان الإيمان بالمعاصي) (١/ ١٠٠/ ٧٦) من طريق الأعمش... به.

(٢) ضعيف: رواه الثعالبي في (الكشف والبيان) (١١/ ٢٥٦) من طريق عمرو بن الحصين عن الفضل بن عميرة عن ميمون الكردي عن أبي عثمان النهدي قال سمعت عمر بن الخطاب... فذكره، والبيهقي في (البعث والنشور) (١/ ٦٣)، حديث رقم (٥٩) من طريق عبيد الله بن موسى أنبأنا مسكين بن عبد العزيز حدثنا حفص بن خالد بن جابر حدثني ميمون بن سياه عن عمر... به، والعقيلي في (الضعفاء) (٧/ ١٧٨)، حديث رقم (١٦٤١) من طريق عمرو بن الحصين حدثنا الفضل بن عميرة القيسي عن ميمون بن سياه عن أبي عثمان النهدي سمعت عمر بن الخطاب... به، وأورده الألباني في (ضعيف الجامع) (٦٩٤٤)، وقال: رواه البيهقي في البعث عن ابن عمر.

ورابعها: الظالم صاحب الكبيرة، والمقتصد صاحب الصغيرة، والسابق المعصوم، خامسها: الظالم التالي للقرآن غير العالم به والعامل بموجبه، والمقتصد التالي العالم، والسابق التالي العالم العامل، سادسها: الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم، سابعها: الظالم أصحاب المشأمة، والمقتصد أصحاب الميمنة، والسابق السابقون المقربون، ثامنها: الظالم الذي يحاسب فيدخل النار، والمقتصد الذي يحاسب فيدخل الجنة، والسابق الذي يدخل الجنة من غير حساب، تاسعها: الظالم المصر على المعصية، والمقتصد هو النادم والتائب، والسابق هو المقبول التوبة، عاشرها: الظالم الذين أخذ القرآن ولم يعمل به، والمقتصد الذي عمل به، والسابق الذي أخذه وعمل به وبين للناس العمل به فعملوا به بقوله فهو كامل ومكمل، والمقتصد كامل والظالم ناقص، والمختار هو أن الظالم من خالف فترك أوامر الله وارتكب مناهيه فإنه واضع للشيء في غير موضعه، والمقتصد هو المجتهد في ترك المخالفة وإن لم يوفق لذلك وندر منه ذنب وصدر عنه إثم فإنه اقتصد واجتهد وقصد الحق والسابق هو الذي لم يخالف بتوفيق الله، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي اجتهد ووفق لما اجتهد فيه وفيما اجتهد فهو سابق بالخير يقع في قلبه فيسبق إليه قبل تسويل النفس والمقتصد يقع في قلبه فترده النفس، والظالم تغلبه النفس، ونقول بعبارة أخرى: من غلبته النفس الأمارة وأمرته فأطاعها ظالم، ومن جاهد نفسه فغلب تارة وغلب أخرى فهو المقتصد، ومن قهر نفسه فهو السابق. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ يحتمل وجوهًا أحدها: التوفيق المدلول عليه بقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾، ثانيها: السبق بالخيرات هو الفضل الكبير، ثالثها: الإيراث فضل كبير هذا على الوجه المشهور من التفسير، أما الوجه الآخر وهو أن يقال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي جنس الكتاب، كما قال تعالى: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥] يرد عليه أسئلة أحدهما: ثم للتراخي وإيتاء الكتاب بعد الإيحاء إلى محمد ﷺ لم يكن فما المراد بكلمة ثم؟ نقول: معناه إن الله خبير بصير خبرهم وأبصرهم ثم أورثهم الكتاب كأنه تعالى قال: إنا علمنا البواطن وأبصرنا الظواهر فاصطفينا عبادًا ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾، ثانيها: كيف يكون من الأنبياء ظالم لنفسه؟ نقول: منهم غير راجع إلى الأنبياء المصطفين، بل المعنى إن الذي أوحينا إليك هو الحق وأنت المصطفى كما اصطفينا رسلاً وآتيناهم كتبًا، ومنهم أي من قومك ظالم كفر بك وبما أنزل إليك ومقتصد آمن بك ولم يأت بجميع ما أمرته به وسابق آمن وعمل صالحًا، وثالثها: قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [الرعد: ٢٣] الداخلون هم المذكورون وعلى ما ذكرتم لا يكون الظالم داخلاً، نقول: الداخلون هم السابقون، وأما المقتصد فأمره موقوف أو هو يدخل النار أولا ثم يدخل الجنة والبيان لأول الأمر لا لما بعده، ويدل عليه قوله: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١] وقوله: ﴿أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣﴾

وفي الداخلين وجوه أحدها: الأقسام الثلاثة وهي على قولنا أن الظالم والمقتصد والسابق أقسام المؤمنين، والثاني: الذين يتلون كتاب الله، والثالث: هم السابقون وهو أقوى لقرب ذكرهم ولأنه ذكر إكرامهم بقوله: ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾ فالمكرم هو السابق وعلى هذا فيه أبحاث:

الأول: تقديم الفاعل على الفعل وتأخير المفعول عنه موافق لترتيب المعنى إذا كان المفعول حقيقيًّا كقولنا: ﴿ٱللَّهُ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [إبراهيم: ١٩]، وقول القائل: زيد بنى الجدار، فإن الله موجود قبل كل شيء، ثم له فعل هو الخلق، ثم حصل به المفعول وهو السموات، وكذلك زيد قبل البناء ثم الجدار من بنائه، وإذا لم يكن المفعول حقيقيًّا كقولنا زيد دخل الدار وضرب عمرًا فإن الدار في الحقيقة ليس مفعولاً للداخل وإنما فعل من أفعال تحقق بالنسبة إلى الدار، وكذلك عمرو فعل من أفعال زيد تعلق به فسمي مفعولاً لا يحصل هذا الترتيب، ولكن الأصل تقديم الفاعل على المفعول ولهذا يعاد المفعول المقدم بالضمير تقول: عمرًا ضربه زيد، فتوقعه بعد الفعل بالهاء العائدة إليه وحينئذ يطول الكلام فلا يختاره الحكيم إلا لفائدة، فما الفائدة في تقديم الجنات على الفعل الذي هو الدخول وإعادة ذكرها بالهاء في (يدخلونها)؟ وما الفرق بين هذا وبين قول القائل: يدخلونها جنات عدن؟ نقول: السامع إذا علم أن له مدخلاً من المداخل وله دخول ولم يعلم عين المدخل فإذا قيل له: أنت تدخل فإلى أن يسمع الدار أو السوق يبقى متعلق القلب بأنه في أي المداخل يكون، فإذا قيل له: دار زيد تدخلها، فبذكر الدار يعلم مدخله وبما عنده من العلم السابق بأن له دخولاً يعلم الدخول فلا يبقى له توقف ولا سيما الجنة والنار، فإن بين المدخلين بونًا بعيدًا.

الثاني: قوله: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا﴾ إشارة إلى سرعة الدخول فإن التحلية لو وقعت خارجًا لكان فيه تأخير الدخول فقال: ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ وفيها تقع تحليتهم.

الثالث: قوله: ﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾ بجمع الجمع فإنه جمع أسورة وهي جمع سوار، وقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ ليس كذلك لأن الإكثار من اللباس يدل على حاجة من دفع برد أو غيره والإكثار من الزينة لا يدل إلا على الغنى.

الرابع: ذكر الأساور من بين سائر الحلي في كثير من المواضع منها قوله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ [الإنسان: ٢١] وذلك لأن التحلي بمعنيين أحدهما: إظهار كون المتحلي غير مبتذل في الأشغال لأن التحلي لا يكون حالة الطبخ والغسل وثانيهما: إظهار الاستغناء عن الأشياء وإظهار القدرة على الأشياء وذلك لأن التحلي إما باللآلئ والجواهر وإما بالذهب والفضة والتحلي بالجواهر واللآلئ يدل على أن المتحلي لا يعجز عن الوصول إلى الأشياء الكبيرة عند الحاجة

حيث يعجز عن الوصول إلى الأشياء القليلة الوجود لا لحاجة، والتحلي بالذهب والفضة يدل على أنه غير محتاج حاجة أصلية وإلا لصرف الذهب والفضة إلى دفع الحاجة، إذا عرفت هذا فنقول الأساور محلها الأيدي وأكثر الأعمال باليد فإنها للبطش، فإذا حليت بالأساور علم الفراغ والذهب واللؤلؤ إشارة إلى النوعين اللذين منهما الحلي.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾

في الحزن أقوال كثيرة والأولى أن يقال المراد إذهاب كل حزن والألف واللام للجنس واستغراقه وإذهاب الحزن بحصول كل ما ينبغي وبقائه دائمًا فإن شيئًا منه لو لم يحصل لكان الحزن موجودًا بسببه وإن حصل ولم يدم لكان الحزن غير ذاهب بعد زواله وخوف فواته، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ ذكر الله عنهم أمورًا كلها تفيد الكرامة من الله الأول: الحمد فإن الحامد مثاب، الثاني: قولهم (رَبَّنَا) فإن الله لم يناد بهذا اللفظ إلا واستجاب لهم، اللهم إلا أن يكون المنادي قد ضيع الوقت الواجب أو طلب ما لا يجوز كالرد إلى الدنيا من الآخرة، الثالث: قولهم: (غَفُورٌ)، الرابع: قولهم: ﴿شَكُورٌ﴾ والغفور إشارة إلى ما غفر لهم في الآخرة بما وجد لهم من الحمد في الدنيا، والشكور إشارة إلى ما يعطيهم ويزيد لهم بسبب ما وجد لهم في الآخرة من الحمد.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي دار الإقامة، لما ذكر الله سرورهم وكرامتهم بتحليتهم وإدخالهم الجنات بين سرورهم ببقائهم فيها وأعلمهم بدوامها حيث قالوا: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ أي الإقامة والمفعول ربما يجيء للمصدر من كل باب يقال: ما له معقول، أي عقل، وقال تعالى: ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠] وقال تعالى: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩] وكذلك مستخرج للاستخراج وذلك لأن المصدر هو المفعول في الحقيقة، فإنه هو الذي فعل فجاز إقامة المفعول مقامه وفي قوله: ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ إشارة إلى أن الدنيا منزلة ينزلها المكلف ويرتحل عنها إلى منزلة القبور ومنها إلى منزلة العرصة التي فيها الجمع ومنها التفريق. وقد تكون النار لبعضهم منزلة أخرى والجنة دار المقامة، وكذلك النار لأهلها، وقولهم: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي بحكم وعده لا بإيجاب من عنده.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ اللغوب الإعياء والنصب هو السبب للإعياء فإن قال قائل إذا بين أنه لايمسهم فيها نصب علم أنه لا يمسهم فيها لغوب ولا ينفي المتكلم الحكيم السبب، ثم ينفي مسببه بحرف العطف فلا يقول القائل: لا أكلت ولا شبعت، أو: لا قمت ولا مشيت، والعكس كثير فإنه يقال: لا شبعت ولا أكلت، لما أن نفي الشبع لا يلزمه انتفاء الأكل وسياق ما تقرر أن يقال: لا يمسنا فيها إعياء ولا مشقة، فنقول ما قاله الله في

غاية الجلالة وكلام الله أجل وبيانه أجمل، ووجهه هو أنه تعالى بين مخالفة الجنة لدار الدنيا فإن الدنيا أماكنها على قسمين: أحدهما: موضع نمس فيه المشاق والمتاعب كالبراري والصحاري والطرقات والأراضي، والآخر: موضع يظهر فيه الإعياء كالبيوت والمنازل التي في الأسفار من الخانات فإن من يكون في مباشرة شغل لا يظهر عليه الإعياء إلا بعدما يستريح فقال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي ليست الجنة كالمواضع التي في الدنيا مظان المتاعب بل هي أفضل من المواضع التي هي مواضع مرجع العي، فقال: ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي، لا نخرج منها إلى مواضع نتعب ونرجع إليها فيمسنا فيها الإعياء وقرئ (لغوب) بفتح اللام والترتيب على هذه القراءة ظاهر كأنه قال: لا نتعب ولا يمسنا ما يصلح لذلك، وهذا لأن القوي السوي إذا قال: ما تعبت اليوم، لا يفهم من كلامه أنه ما عمل شيئًا لجواز أنه عمل عملاً لم يكن بالنسبة إليه متعبًا لوقته، فإذا قال: ما مسني ما يصلح أن يكون متعبًا يفهم أنه لم يعمل شيئًا لأن نفس العمل قد يصلح أن يكون متعبًا لضعيف أو متعبًا بسبب كثرته، واللغوب هو ما يغلب منه وقيل النصب التعب الممرض، وعلى هذا فحسن الترتيب ظاهر كأنه قال: لا يمسنا مرض ولا دون ذلك وهو الذي يعيا منه مباشرة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ عطف على قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٢٩] وما بينهما كلام يتعلق بالذين يتلون كتاب الله على ما بينا وقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر: ٣٣] قد ذكرنا أنه على بعض الأقوال راجع إلى ﴿الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٢٩]

ثم قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ أي لا يستريحون بالموت بل العذاب دائم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي النار وفيه لطائف:
الأولى: أن العذاب في الدنيا إن دام كثيرًا يقتل فإن لم يقتل يعتاده البدن ويصير مزاجًا فاسدًا متمكنًا لا يحس به المعذب، فقال: عذاب نار الآخرة ليس كعذاب الدنيا، إما أن يفنى وإما أن يألفه البدن بل هو في كل زمان شديد والمعذب فيه دائم، الثانية: راعى الترتيب على أحسن وجه وذلك لأن الترتيب أن لا ينقطع العذاب، ولا يفتر فقال: لا ينقطع ولا بأقوى الأسباب وهو الموت حتى يتمنون الموت ولا يجابون كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] أي بالموت، الثالثة: في المعذبين اكتفى بأنه لا ينقص عذابهم، ولم يقل: نزيدهم عذابًا. وفي المثابين ذكر الزيادة بقوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ١٧٣] ثم لما بين أن عذابهم لا يخفف.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾

قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أي لا يخفف وإن اصطرخوا واضطربوا لا يخفف الله من عنده إنعامًا إلى أن يطلبوه بل يطلبون ولا يجدون والاصطراخ من الصراخ والصراخ صوت المعذب.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ أي صراخهم بهذا أي يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ لأن صراخهم كلام وفيه إشارة إلى أن إيلامهم تعذيب لا تأديب، وذلك لأن المؤدب إذا قال لمؤدبه: لا أرجع إلى ما فعلت وبئسما فعلت، يتركه، وأما المعذب فلا، وترتيبه حسن وذلك لأنه لما بين أنه لا يخفف عنهم بالكلية ولا يعفو عنهم بين أنه لا يقبل منهم وعدًا وهذا لأن المحبوس يصبر لعله يخرج من غير سؤال فإذا طال لبثه تطلب الإخراج من غير قطيعة على نفسه فإن لم يفده يقطع على نفسه قطيعة ويقول: أخرجني أفعل كذا وكذا.

واعلم أن الله تعالى قد بين أن من يكون في الدنيا ضالاً فهو في الآخرة ضال كما قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢] ثم إنهم لم يعلموا أن العود إلى الدنيا بعيد محال بحكم الإخبار، وعلى هذا قالوا: ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ جازمين من غير استعانة بالله ولا مثنوية فيه، ولم يقولوا: إن الأمر بيد الله، فقال الله لهم: إذا كان اعتمادكم على أنفسكم فقد عمرناكم مقدارًا يمكن التذكر فيه والإتيان بالإيمان والإقبال على الأعمال. وقولهم: ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ إشارة إلى ظهور فساد عملهم لهم، وكأن الله تعالى كما لم يهدهم في الدنيا لم يهدهم في الآخرة، فما قالوا: ربنا زدت للمحسنين حسنات بفضلك لا بعلمهم ونحن أحوج إلى تخفيف العذاب منهم إلى تضعيف الثواب فافعل بنا ما أنت أهله نظرًا إلى فضلك ولا تفعل بنا ما نحن أهله نظرًا إلى عدلك وانظر إلى مغفرتك الهاطلة ولا تنظر إلى معذرتنا الباطلة، وكما هدى الله المؤمن في الدنيا هداه في العقبى حتى دعاه بأقرب دعاء إلى الإجابة وأثنى عليه بأطيب ثناء عند الإنابة فقالوا: الحمد لله، وقالوا: ربنا غفور، اعترافًا بتقصيرهم: (شكور) إقرارًا بوصول ما لم يخطر ببالهم إليهم وقالوا: ﴿أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٥] أي لا عمل لنا بالنسبة إلى نعم الله وهم قالوا: ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ إغماضًا في حق تعظيمه وإعراضًا عن الاعتراف بعجزهم عن الإتيان بما يناسب عظمته، ثم إنه تعالى بين أنه آتاهم ما يتعلق بقبول المحل من العمر الطويل وما يتعلق بالفاعل في المحل، فإن النبي ﷺ كفاعل الخير فيهم ومظهر السعادات.

فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾.

فإن المانع إما أن يكون فيهم حيث لم يتمكنوا من النظر فيما أنزل الله، وإما أن يكون في مرشدهم حيث لم يتل عليهم ما يرشدهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ وقوله: ﴿فَذُوقُوا۟﴾ إشارة إلى الدوام وهو أمر إهانة، فما للظالمين الذين وضعوا أعمالهم وأقوالهم في غير موضعها وأتوا بالمعذرة في غير وقتها من نصير في وقت الحاجة ينصرهم، قال بعض الحكماء: قوله: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ وقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠] يحتمل أن يكون المراد من الظالم الجاهل جهلاً مركبًا، وهو الذي يعتقد الباطل حقًّا في الدنيا وما له من نصير أي من علم ينفعه في الآخرة، والذي يدل عليه هو أن الله تعالى سمى البرهان سلطانًا، كما قال تعالى: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [إبراهيم: ١٠] والسلطان أقوى ناصر إذ هو القوة أو الولاية وكلاهما ينصر والحق التعميم، لأن الله لا ينصره وليس غيره نصيرًا فما لهم من نصير أصلاً، ويمكن أن يقال: إن الله تعالى قال في آل عمران: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢] وقال: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الروم: ٢٩] وقال هاهنا: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي هذا وقت كونهم واقعين في النار، فقد أيس كل منهم من كثير ممن كانوا يتوقعون منهم النصرة ولم يبق إلا توقعهم من الله فقال: (ما لكم من نصير) أصلاً، وهناك كان الأمر محكيًّا في الدنيا أو في أوائل الحشر، فنفى ما كانوا يتوقعون منهم النصرة وهم آلهتهم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾.

تقريرًا لدوامهم في العذاب، وذلك من حيث إن الله تعالى لما قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ولا يزاد عليها، فلو قال قائل: الكافر ما كفر بالله إلا أيامًا معدودة، فكان ينبغي أن لا يعذب إلى مثل تلك الأيام، فقال تعالى: إن الله لا يخفى عليه غيب السموات فلا يخفى عليه ما في الصدور، وكان يعلم من الكافر أن في قلبه تمكن الكفر بحيث لو دام إلى الأبد لما أطاع الله ولا عبده.

وفي قوله تعالى: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ مسألة قد ذكرناها مرة ونعيدها أخرى، وهي أن لقائل أن يقول: الصدور هي ذات اعتقادات وظنون، فكيف سمى الله الاعتقادات بذات الصدور؟ ويقرر السؤال قولهم: أرض ذات أشجار وذات جنى، إذا كان فيها ذلك، فكذلك الصدر فيه اعتقاد فهو ذو اعتقاد، فيقال له لما كان اعتبار الصدر بما فيه صار ما فيه كالساكن المالك حيث لا يقال: الدار ذات زيد، ويصح أن يقال: زيد ذو دار ومال، وإن كان هو فيها.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ

أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا
إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا
مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

تقريرًا لقطع حجتهم فإنهم لما قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [فاطر: ٣٧]وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ﴾ [فاطر: ٣٧]إشارة إلى أن التمكين والإمهال مدة يمكن فيها المعرفة قد حصل وما آمنتم وزاد عليه بقوله: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧]أي آتيناكم عقولاً، وأرسلنا إليكم من يؤيد المعقول بالدليل المنقول زاد على ذلك بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي نبهكم بمن مضى وحال من انقضى فإنكم لو لم يحصل لكم علم بأن من كذب الرسل أهلك لكان عنادكم أخفى وفسادكم أخف، لكن أمهلتم وعمرتم وأمرتم على لسان الرسل بما أمرتم وجعلتم خلائف في الأرض، أي خليفة بعد خليفة تعلمون حال الماضين وتصبحون بحالهم راضين ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ بعد هذا كله ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ لأن الكافر السابق كان ممقوتًا كالعبد الذي لا يخدم سيده واللاحق الذي أنذره الرسول ولم ينتبه أمقت كالعبد الذي ينصحه الناصح ويأمره بخدمة سيده ويعده ويوعده ولا ينفعه النصح ولا يسعده والتالي لهم الذي رأى عذاب من تقدم ولم يخش عذابه أمقت الكل.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي الكفر لا ينفع عند الله حيث لا يزيد إلا المقت، ولا ينفعهم في أنفسهم حيث لا يفيدهم إلا الخسارة، فإن العمر كالرأس مال من اشترى به رضا الله ربح، ومن اشترى به سخطه خسر.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾.

تقريرًا للتوحيد وإبطالاً للإشراك، وقوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ المراد منه أخبروني؛ لأن الاستفهام يستدعي جوابًا، يقول القائل: أرأيت ماذا فعل زيد؟ فيقول السامع باع أو اشترى، ولولا تضمنه معنى أخبرني وإلا لما كان الجواب إلا قوله لا أو نعم، وقوله: ﴿شُرَكَآءَكُمُ﴾ إنما أضاف الشركاء إليهم من حيث إن الأصنام في الحقيقة لم تكن شركاء لله، وإنما هم جعلوها شركاء، فقال: (شركاءكم)، أي الشركاء بجعلكم ويحتمل أن يقال: (شركاءكم)، أي شركاءكم في النار لقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]وهو قريب، ويحتمل أن يقال هو بعيد لاتفاق المفسرين على الأول، وقوله: ﴿أَرُونِى﴾ بدل عن ﴿أَرُونِى﴾ لأن كليهما يفيد معنى أخبروني، ويحتمل أن يقال: قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ استفهام حقيقي و﴿أَرُونِى﴾ أمر تعجيز للتبين، فلما

قال: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ يعني أعلمتم هذه التي تدعونها كما هي وعلى ما هي عليه من العجز أو تتوهمون فيها قدرة، فإن كنتم تعلمونها عاجزة فكيف تعبدونها؟ وإن كان وقع لكم أن لها قدرة فأروني قدرتها في أي شيء هي، أهي في الأرض؟ كما قال بعضهم: إن الله إله السماء وهؤلاء آلهة الأرض، وهم الذين قالوا: أمور الأرض من الكواكب والأصنام صورها، أم هي في السموات؟ كما قال بعضهم: إن السماء خلقت باستعانة الملائكة والملائكة شركاء في خلق السموات، وهذه الأصنام صورها، أم قدرتها في الشفاعة لكم؟ كما قال بعضهم: إن الملائكة ما خلقوا شيئًا ولكنهم مقربون عند الله فنعبدها ليشفعوا لنا، فهل معهم كتاب من الله فيه إذنه لهم بالشفاعة؟ وقوله: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ في العائد إليه الضمير وجهان أحدهما: أنه عائد إلى الشركاء، أي هل أتينا الشركاء كتابًا؟ وثانيهما: أنه عائد إلى المشركين، أي هل آتينا المشركين كتابًا؟ وعلى الأول فمعناه ما ذكرنا، أي هل مع ما جعل شريكًا كتاب من الله فيه أن له شفاعة عند الله؟ فإن أحدًا لا يشفع عنده إلا بإذنه، وعلى الثاني معناه أن عبادة هؤلاء إما بالعقل ولا عقل لمن يعبد من لم يخلق من الأرض جزءًا من الأجزاء ولا في السماء شيئًا من الأشياء، وإما بالنقل ونحن ما آتينا المشركين كتابًا فيه أمرنا بالسجود لهؤلاء ولو أمرنا لجاز كما أمرنا بالسجود لآدم وإلى جهة الكعبة، فهذه العبادة لا عقلية ولا نقلية فوعد بعضهم بعضًا ليس إلا غرورًا غرهم الشيطان وزين لهم عبادة الأصنام.

ثم لما بين أنه لا خلق للأصنام ولا قدرة لها ولا على جزء من الأجزاء بين أن الله قدير بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ويحتمل أن يقال: لما بين شركهم قال مقتضى شركهم زوال السموات والأرض كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠، ٩١] ويدل على هذا قوله تعالى في آخر الآية: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ كان حليمًا ما ترك تعذيبهم إلا حلمًا منه وإلا كانوا يستحقون إسقاط السماء وانطباق الأرض عليهم وإنما أخر إزالة السموات إلى قيام الساعة حلمًا، وتحتمل الآية وجهًا ثالثًا: وهو أن يكون ذلك من باب التسليم وإثبات المطلوب على تقدير التسليم أيضًا كأنه تعالى قال: شركاؤكم ما خلقوا من الأرض شيئًا ولا في السماء جزءًا ولا قدروا على الشفاعة، فلا عبادة لهم. وهب أنهم فعلوا شيئًا من الأشياء فهل يقدرون على إمساك السموات والأرض؟ ولا يمكنهم القول بأنهم يقدرون لأنهم ما كانوا يقولون به، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] ويؤيد هذا قوله: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ فإذا تبين أن لا معبود إلا الله من حيث إن غيره لم يخلق من الأشياء وإن قال الكافر بأن غيره خلق فما خلق مثل ما خلق فلا شريك له ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾، حليمًا حيث لم يعجل في إهلاكهم بعد إصرارهم على إشراكهم وغفورًا يغفر لمن تاب ويرحمه وإن استحق العقاب.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

لما بين إنكارهم للتوحيد ذكر تكذيبهم للرسول ومبالغتهم فيه حيث إنهم كانوا يقسمون على أنهم لا يكذبون الرسل إذا تبين لهم كونهم رسلاً وقالوا: إنما نكذب بمحمد ﷺ لكونه كاذبًا، ولو تبين لنا كونه رسولاً لآمنا كما قال تعالى عنهم: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩] وهذا مبالغة منهم في التكذيب، كما أن من ينكر دين إنسان قد يقول: والله لو علمت أن له شيئًا علي لقضيته وزدت له، إظهارًا لكونه مطالبًا بالباطل، فكذلك ههنا عاندوا وقالوا والله لو جاءنا رسول لكنا أهدى الأمم فلما جاءهم نذير أي محمد ﷺ جاءهم أي صح مجيئه لهم بالبينة ما زادهم إلا نفورًا، فإنهم قبل الرسالة كانوا كافرين بالله وبعدها صاروا كافرين بالله ورسوله ولأنهم قبل الرسالة ما كانوا معذبين كما صاروا بعد الرسالة، وقال بعض المفسرين: إن أهل مكة كانوا يلعنون اليهود والنصارى على أنهم كذبوا برسلهم لما جاءوهم وقالو لو جاءنا رسول لأطعناه واتبعناه، وهذا فيه إشكال من حيث إن المشركين كانوا منكرين للرسالة والحشر مطلقًا، فكيف كانوا يعترفون بالرسل، فمن أين عرفوا أن اليهود كذبوا وما جاءهم كتاب ولولا كتاب الله وبيان رسوله من أين كان يعلم المشركون أنهم صدقوا شيئًا وكذبوا في شيء؟ بل المراد ما ذكرنا أنهم كانوا يقولون: نحن لو جاءنا رسول لا ننكره وإنما ننكر كون محمد رسولاً من حيث إنه كاذب ولو صح كونه رسولاً لآمنا، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي فلما صح لهم مجيئه بالمعجزة، وفي قوله: ﴿أَهْدَىٰ﴾ وجهان أحدهما: أن يكون المراد أهدى مما نحن عليه وعلى هذا فقوله: ﴿مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ للنبيين كما يقول القائل زيد من المسلمين ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي صاروا أضل مما كانوا وكانوا يقولون نكون أهدى، وثانيهما: أن يكون المراد أن نكون أهدى من إحدى الأمم كما يقول القائل: زيد أولى من عمرو، وفي الأمم وجهان أحدهما: أن يكون المراد العموم أي أهدى من أي إحدى الأمم وفيه تعريض، وثانيهما: أن يكون المراد تعريف العهد أي أمة محمد وموسى وعيسى ومن كان في زمانهم.

ثم قال تعالى: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ ونصبه يحتمل ثلاثة أوجه أحدها: أن يكون حالاً أي

مستكبرين في الأرض، وثانيها: أن يكون مفعولاً له أي للاستكبار، وثالثها: أن يكون بدلاً عن النفور، وقوله: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ إضافة الجنس إلى نوعه كما يقال علم الفقه وحرفة الحدادة وتحقيقه أن يقال معناه ومكروا مكرًا سيئًا ثم عرف لظهور مكرهم، ثم ترك التعريف باللام وأضيف إلى السيئ لكون السوء فيه أبين الأمور، ويحتمل أن يقال بأن المكر يستعمل استعمال العمل كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [فاطر: ١٠] أي يعملون السيئات، ومكرهم السيئ، وهو جميع ما كان يصدر منهم من القصد إلى الإيذاء ومنع الناس من الدخول في الإيمان وإظهار الإنكار، ثم قال: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ أي لا يحيط إلا بفاعله وفي قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ وقوله: ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ فوائد، أما في قوله: ﴿يَحِيقُ﴾ فهي أنها تنبئ عن الإحاطة التي هي فوق اللحوق وفيه من التحذير ما ليس في قوله: ولا يلحق أو ولا يصل، وأما في قوله: ﴿بِأَهْلِهِۦ﴾ ففيه ما ليس في قول القائل ولا يحيق المكر السيئ إلا بالماكر، كي لا يأمن المسيء فإن من أساء ومكره سيئ آخر قد يلحقه جزاء على سيئه، وأما إذا لم يكن سيئًا فلا يكون أهلاً فيأمن المكر السيئ، وأما في النفي والإثبات ففائدته الحصر بخلاف ما يقول القائل المكر السيئ يحيق بأهله، فلا ينبئ عن عدم الحيق بغير أهله، فإن قال قائل: كثيرًا ما نرى أن الماكر يمكر ويفيده المكر ويغلب الخصم بالمكر والآية تدل على عدم ذلك، فنقول: الجواب عنه من وجوه أحدها: أن المكر المذكور في الآية هو المكر الذي مكروه مع النبي ﷺ من العزم على القتل والإخراج ولم يحق إلا بهم، حيث قتلوا يوم بدر وغيره، .وثانيها: هو أن نقول المكر السيئ عام وهو الأصح فإن النبي عليه السلام نهى عن المكر وأخبر عن النبي ﷺ أنه قال: «لاَ تَمْكُرُوا وَلاَ تُعِينُوا مَاكِرًا فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السيئ إِلاَّ بِأَهْلِهِ» وعلى هذا فذلك الرجل الممكور به (لاَ) يكون أهلاً فلا يرد نقضًا، وثالثها: أن الأمور بعواقبها، ومن مكر به غيره ونفذ فيه المكر عاجلاً في الظاهر ففي الحقيقة هو الفائز والماكر هو الهالك وذلك مثل راحة الكافر ومشقة المسلم في الدنيا، ويبين هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني إذا كان لمكرهم في الحال رواج فالعاقبة للتقوى والأمور بخواتيمها، فيهلكون كما هلك الأولون.

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي ليس لهم بعد هذا إلا انتظار الإهلاك وهو سنة الأولين.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الإهلاك ليس سنة الأولين إنما هو سنة الله بالأولين، فنقول الجواب عنه من وجهين أحدهما: أن المصدر الذي هو المفعول المطلق يضاف إلى الفاعل والمفعول لتعلقه بهما من وجه دون وجه فيقال فيما إذا ضرب زيد عمرًا: عجبت من ضرب عمرو كيف ضرب مع ما له من العزم والقوة وعجبت من ضرب زيد كيف ضرب مع ما له من العلم والحكمة فكذلك

سنة الله بهم أضافها إليهم لأنها سنة سنت بهم وأضافها إلى نفسه بعدها بقوله: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ لأنها سنة من سنن الله، إذا علمت هذا فنقول أضافها في الأول إليهم حيث قال: ﴿ سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ لأن سنة الله الإهلاك بالإشراك والإكرام على الإسلام فلا يعلم أنهم ينتظرون أيهما فإذا قال سنة الأولين تميزت وفي الثاني أضافها إلى الله، لأنها لما علمت فالإضافة إلى الله تعظمها وتبين أنها أمر واقع ليس لها من دافع، وثانيهما: أن المراد من سنة الأولين استمرارهم على الإنكار واستكبارهم عن الإقرار، وسنة الله استئصالهم بإصرارهم فكأنه قال: أنتم تريدون الإتيان بسنة الأولين والله يأتي بسنة لا تبديل لها ولا تحويل عن مستحقها.

المسألة الثانية: التبديل تحويل فما الحكمة في التكرار؟ نقول: بقوله: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ حصل العلم بأن العذاب لا تبديل له بغيره، وبقوله: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ حصل العلم بأن العذاب مع أنه لا تبديل له بالثواب لا يتحول عن مستحقه إلى غيره فيتم تهديد المسيء.

المسألة الثالثة: المخاطب بقوله: ﴿ فَلَن تَجِدَ﴾ يحتمل وجهين وقد تقدم مرارًا: أحدهما: أن يكون عامًّا كأنه قال: فلن تجد أيها السامع لسنة الله تبديلاً، والثاني: أن يكون مع محمد ﷺ وعلى هذا فكأنه قال: سنة الله أنه لا يهلك ما بقي في القوم من كتب الله إيمانه، فإذا آمن من في علم الله أنه يؤمن يهلك الباقين كما قال نوح: ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ [نوح: ٢٧]أي تمهل الأمر وجاء وقت سنتك.

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾

لما ذكر أن للأولين سنة وهي الإهلاك نبههم بتذكير حال الأولين فإنهم كانوا مارين على ديارهم رائين لآثارهم وأملهم كان فوق أملهم وعملهم كان دون عملهم، أما الأول فلطول أعمارهم وشدة اقتدارهم، وأما عملهم فلأنهم لم يكذبوا مثل محمد ولا محمدًا وأنتم يا أهل مكة كذبتم محمدًا ومن تقدمه، وقوله تعالى: ﴿ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قد ذكرناه في سورة الروم، بقي فيه أبحاث:

الأول:قال هناك: ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ﴾ [الروم: ٩]من غير واو، وقال ههنا بالواو فما الفرق؟ نقول: قول القائل: أما رأيت زيدًا كيف أكرمني وأعظم منك؟ يفيد أن القائل يخبره بأن زيدًا أعظم، وإذا قال: أما رأيته كيف أكرمني هو أعظم منك؟ يفيد أنه تقرر أن كلا المعنيين حاصل عند السامع كأنه رآه أكرمه ورآه أكبر منه ولا شك أن هذه العبارة الأخيرة تفيد كون الأمر الثاني في الظهور مثل الأول بحيث لا يحتاج إلى إعلام من المتكلم ولا إخبار، إذا علمت هذا فنقول: المذكور

ههنا كونهم أشد منهم قوة لا غير، ولعل ذلك كان ظاهرًا عندهم فقال بالواو أي نظركم كما يقع على عاقبة أمرهم يقع على قوتهم، وأما هناك فالمذكور أشياء كثيرة فإنه قال: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩] وفي موضع آخر قال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [غافر: ٨٢] ولعل علمهم لم يحصل بإثارتهم الأرض أو بكثرتهم ولكن نفس القوة ورجحانهم فيما عليهم كان معلومًا عندهم فإن كل طائفة تعتقد فيمن تقدمهم أنهم أقوى منهم ولا نزاع فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون بيانًا لهم أي أن الأولين مع شدة قوتهم ما أعجزوا الله وما فاتوه فهم أولى بأن لا يعجزوه، والثاني: أن يكون قطعًا لأطماع الجهال فإن قائلاً لو قال: هب أن الأولين كانوا أشد قوة وأطول أعمارًا لكنا نستخرج بذكائنا ما يزيد على قواهم ونستعين بأمور أرضية لها خواص أو كواكب سماوية لها آثار، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ بأفعالهم وأقوالهم: ﴿قَدِيرًا﴾ على إهلاكهم واستئصالهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

لما خوف الله المكذبين بمن مضى وكانوا من شدة عنادهم وفساد اعتقادهم يستعجلون بالعذاب ويقولون: عجل لنا عذابنا، فقال الله: للعذاب أجل والله لا يؤاخذ الله الناس بنفس الظلم فإن الإنسان ظلوم جهول، وإنما يؤاخذ بالإصرار وحصول يأس الناس عن إيمانهم ووجود الإيمان ممن كتب الله إيمانه فإذا لم يبق فيهم من يؤمن يهلك المكذبين ولو آخذهم بنفس الظلم لكان كل يوم إهلاك.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إذا كان الله يؤاخذ الناس بما كسبوا فما بال الدواب يهلكون؟ نقول: الجواب من وجوه أحدها: أن خلق الدواب نعمة فإذا كفر الناس يزيل الله النعم والدواب أقرب النعم لأن المفرد أولاً ثم المركب والمركب إما أن يكون معدنيًا وإما أن يكون ناميًا والنامي إما أن يكون حيوانًا وإما أن يكون نباتًا، والحيوان إما إنسان وإما غير إنسان فالدواب أعلى درجات المخلوقات في عالم العناصر للإنسان، الثاني: هو أن ذلك بيان لشدة العذاب وعمومه فإن بقاء الأشياء بالإنسان كما أن بقاء الإنسان بالأشياء وذلك لأن الإنسان يدبر الأشياء ويصلحها فتبقى

الأشياء ثم ينتفع بها الإنسان فيبقى الإنسان فإذا كان الهلاك عامًّا لا يبقى من الإنسان من يعمر فلا تبقى الأبنية والزروع فلا تبقى الحيوانات الأهلية لأن بقاءها بحفظ الإنسان إياها عن التلف والهلاك بالسقي والعلف، الثالث: هو أن إنزال المطر هو إنعام من الله في حق العباد فإذا لم يستحقوا الإنعام قطعت الأمطار عنهم فيظهر الجفاف على وجه الأرض فتموت جميع الحيوانات وقوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ الوجه الثالث: لأن بسبب انقطاع الأمطار تموت حيوانات البر، أما حيوانات البحر فتعيش بماء البحار.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ كناية عن الأرض وهي غير مذكورة فكيف علم؟ نقول: مما تقدم ومما تأخر، أما ما تقدم فقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤] فهو أقرب المذكورات الصالحة لعود الهاء إليها، وأما ما تأخر فقوله: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ لأن الدواب على ظهر الأرض، فإن قيل: كيف يقال لما عليه الخلق من الأرض وجه الأرض وظهر الأرض، مع أن الوجه مقابل الظهر كالمضاد؟ نقول: من حيث إن الأرض كالدابة الحاملة للأثقال والحمل يكون على الظهر يقال له ظهر الأرض، ومن حيث إن ذلك هو المقابل للخلق المواجه لهم يقال له وجهها، على أن الظهر في مقابلة البطن والظهر والظاهر من باب والبطن والباطن من باب، فوجه الأرض ظهر لأنه هو الظاهر وغيره منها باطن وبطن.

المسألة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وجوه أحدها: إلى يوم القيامة وهو مسمى مذكور في كثير من المواضع، ثانيها: يوم لا يوجد في الخلق من يؤمن على ما تقدم، ثالثها: لكل أمة أجل ولكل أجل كتاب وأجل قوم محمد ﷺ أيام القتل والأسر كيوم بدر وغيره.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ تسلية للمؤمنين، وذلك لأنه تعالى لما قال: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ وقال: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] قال: فإذا جاء الهلاك فالله بالعباد بصير، إما أن ينجيهم أو يكون توفيهم تقريبًا من الله لا تعذيبًا، لا يقال: قد ذكرت أن الله لا يؤاخذ بمجرد الظلم، وإنما يؤاخذ حين يجتمع الناس على الضلال ونقول بأنه تعالى عند الإهلاك يهلك المؤمن فكيف هذا، نقول قد ذكرنا أن الإماتة والإفناء إن كان للتعذيب فهو مؤاخذة بالذنب وإهلاك، وإن كان لإيصال الثواب فليس بإهلاك ولا بمؤاخذة، والله لا يؤاخذ الناس إلا عند عموم الكفر، وقوله: ﴿بَصِيرًۢا﴾ اللفظ أتم في التسلية من العليم وغيره لأن البصير بالشيء الناظر إليه أولى بالإنجاء من العالم بحالة دون أن يراه والله أعلم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سورة فاطر

مكيةٌ في قولِ الجميع، وهي خمسٌ وأربعون آيةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ①﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يجوز في «فاطر» ثلاثةُ أَوْجُهٍ: الخفضُ على النعت، والرفعُ على إضمارِ مبتدأ، والنصبُ على المدح. وحكى سيبويه: الحمدُ للهِ أهل الحمد [مثله]، وكذا «جاعِلِ الملائكةِ»(١). والفاطِرُ: الخالق. وقد مضى في «يوسف»(٢) وغيرِها. والفَطْر: الشَّقُّ عن الشيء؛ يقال: فَطَرتُه فانفَطَر. ومنه: فَطَرَ نابُ البعير: طَلَعَ، فهو بعيرٌ فاطِرٌ. وتفطَّر الشيءُ: تَشَقَّق. وسيفٌ فُطار، أي: فيه تشقُّقٌ؛ قال عنترة:

وسيفي كالعقيقة فهو كِمْعِي ... سلاحي لا أفَلَّ ولا فُطارا(٣)

والفَطْرُ: الابتداءُ والاختراع؛ قال ابن عباس: كنتُ لا أدري ما ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حتى أتاني أعرابيّان يختصمان في بئر، فقال أحدُهما: أنا فَطَرتُها، أي: أنا ابتدأتُها. والفَطْر: حلبُ الناقة بالسبَّابة والإبهام(٤). والمرادُ بِذِكْرِ السماوات والأرض

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٩، وما سلف بين حاصرتين منه. وقول سيبويه في الكتاب ٢/ ٦٢-٦٣.

(٢) ١١/ ٤٦٣.

(٣) ديوان عنترة ص٤٣، والمعاني الكبير ٢/ ١٠٨٢، والصحاح (فطر) والكلام منه. قال ابن قتيبة: العقيقة: لمعة البرق. كِمْعي: ضجيعي، يريد أنه إلى جانبي، أفلَّ: به فُلول، والفُطار: الذي لم يصقل، فهو متشقِّق.

(٤) الصحاح (فطر)، وخبر ابن عباس أخرجه أبو عبيد في غريب القرآن ٤/ ٤٧٣، والطبري ٩/ ١٧٥، وأبو بكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٧١-٧٢، وابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ٧٨.

العالمُ كلُّه، ونبَّه بهذا على أنَّ مَن قدر على الابتداء قادرٌ على الإعادة.

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ لا يجوزُ فيه التنوين؛ لأنَّه لِمَا مَضَى .﴿رُسُلًا﴾ مفعولٌ ثانٍ، ويقالُ: على إضمارِ فعلٍ؛ لأنَّ «فاعلاً» إذا كان لِمَا مضى لم يعمل[١] شيئاً، وإعمالُه على أنه مستقبلٌ حُذِفَ التنوينُ منه تخفيفاً. وقرأ الضحاك: «الحمدُ للهِ فَطَر السماواتِ والأرض» على الفعل الماضي[٢].

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ الرسلُ منهم جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ ومَلَكُ الموت، صلى الله عليهم أجمعين. وقرأ الحسن: «جَاعِلُ الملائكة» بالرفع[٣]. وقرأ خُلَيد بن نَشِيط: «جَعَلَ الملائكة»[٤] وكلُّه ظاهر.

﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ﴾ نعتٌ، أي: أصحابَ أجنحةٍ .﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أي: اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة. قال قتادة: بعضُهم له جناحان، وبعضُهم ثلاثةٌ، وبعضُهم أربعةٌ[٥]، ينزلون بها من السماء إلى الأرض، ويعرجون من الأرض إلى السماء، وهي مسيرةُ كذا في وقتٍ واحد، أي: جَعَلَهم رسلاً. قال يحيى بن سلام: إلى الأنبياء. وقال السُّدِّيُّ: إلى العباد برحمةٍ أو نقمة[٦].

وفي «صحيح» مسلم[٧] عن ابن مسعود ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ رأى جبريلَ عليه السلام له ستُّ مئة جَناح.

وعن الزُّهريِّ: أنَّ جبريل عليه السلام قال له: «يا محمد، لو رأيتَ إسرافيل، إنَّ

(١) بعدها في النسخ عدا (ظ): فيه، والمثبت من (ظ)، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٩ ، والكلام منه.

(٢) القراءات الشاذة: ص١٢٣، والمحتسب ٢/ ١٩٨ .

(٣) القراءات الشاذة: ص١٢٣، والمحتسب ٢/ ١٩٨ .

(٤) المحتسب ٢/ ١٩٨ .

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٢٦ .

(٦) ذكر القولين الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٦١ . وقول السدي أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٤ .

(٧) برقم (١٧٤)، وهو عند أحمد (٣٧٨٠)، والبخاري (٣٢٣٢).

له لَاثْنَي عَشَرَ جناحاً[١]، منها جناحٌ بالمَشْرِقِ، وجناحٌ بالمغرب، وإنَّ العرش لَعَلَى كاهله، وإنه في الأحايين ليتضاءلُ لعظمةِ الله حتى يعود مثل الوَصَع - والوَصَعُ: العصفورُ الصغير - حتى ما يحمل عرشَ ربِّك إلاَّ عَظَمتُه»[٢].

و«أُولُو» اسمُ جمعٍ لـ«ذو»، كما أن هؤلاء اسم جمع لـ «ذا»، ونظيرُهما في المتمكِّنة: المخَاض والخَلِفة[٣]. وقد مضى الكلام في ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ في «النساء» وأنه غيرُ منصرِف[٤].

﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ أي: في خَلْقِ الملائكة، في قول أكثر المفسِّرين؛ ذكره المهدويُّ. وقال الحسن: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾ أي: في أجنحة الملائكة ما يشاء.

وقال الزُّهريُّ وابنُ جُريح: يعني حُسْنَ الصوت[٥]. وقد مضى القولُ فيه في مقدِّمة الكتاب[٦]. وقال الهيثم الفارسيُّ: رأيت النبيَّ ﷺ في منامي، فقال: أنت الهيثمُ الذي تُزيِّن القرآنَ بصوتك، جزاك الله خيراً[٧].

وقال قتادة: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ المَلاحَة في العينين، والحُسْن في الأنف، والحلاوة في الفم[٨].

---

(١) في النسخ: لاثني عشر ألف جناح، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٢) أخرجه مطولاً ابن المبارك في الزهد (٢٢١)، وذكره أبو الليث ٣/ ٨٠، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٩٨.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٨. والمخاض اسم للنوق الحوامل، واحدتها خَلِفَة. النهاية (مخض).

(٤) ٦/ ٣٠.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٤٦٢، وقول الزهري أخرجه البيهقي في الشعب (١١٥)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٤٤ لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٦) ١/ ٢١.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٩.

(٨) أخرجه ابن عدي ٣/ ٩١٧، والبيهقي في الشعب (٩١٦) مختصراً بذكر الملاحة في العينين. وكذا ورد في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٩، والكشاف ٣/ ٢٩٨.

وقيل: الخطُّ الحَسَن. وقال مُهاجِر الكَلاعيُّ: قال النبيُّ ﷺ: «الخطُّ الحَسَنُ يَزيدُ الكلامَ وضوحاً»[١].

وقيل: الوجه الحسن. وقيل في الخبر في هذه الآية: هو الوجهُ الحسن، والصوتُ الحَسَن، والشَّعر الحسن[٢]؛ ذكره القُشَيريُّ.

النقَّاش: هو الشعرُ الجَعْد. وقيل: العقلُ والتمييز. وقيل: العلومُ والصنائع[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من النقصان والزيادة.

الزمخشريُّ[٤]: والآيةُ مُطْلَقةٌ تتناولُ كلَّ زيادةٍ في الخَلْقِ؛ من طولِ قامةٍ، واعتدالِ صورةٍ، وتَمامٍ في الأعضاء، وقوةٍ في البَطْش، وحَصَافةٍ في العقل، وجَزَالةٍ في الرأي، وجرأةٍ في القلب، وسَماحةٍ في النفس، وذَلاقةٍ في اللسان، ولَباقةٍ في التكلُّم، وحُسْنِ تأتٍّ في مُزَاولةِ الأمور؛ وما أَشْبَهَ ذلك ممَّا لا يحيطُ به وَصْفٌ.

قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ وأجاز النَّحْويون في غير القرآن: «فلا مُمْسِكَ له» على لَفْظِ «ما». و«لها» على المعنى. وأجازوا: «وما يُمْسِكْ فلا مُرْسِلَ لها» [على معنى «ما»]. وأجازوا: «ما يفتحُ الله للناس من رحمةٍ» ـ بالرفع ـ تكونُ «ما» بمعنى الذي[٥].

---

(١) أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة ٣/ ٦٠ ، وقال عن مهاجر، ولست أعرف له صحبة. وذكر الخبر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٩ ، والذهبي في الميزان ٢/ ٣٥٨ وقال: هذا خبر منكر. ووقع في هذه المصادر: «... يزيد الحق وضوحاً».

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٩٨.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٦٢ .

(٤) في الكشاف ٣/ ٢٩٨ .

(٥) وقال الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٦٢: ولا أعلم أحداً قرأ به. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٠، وما سلف بين حاصرتين منه.

أي: إنَّ الرسل بُعثوا رحمةً للناس، فلا يَقْدِرُ على إرسالهم غيرُ الله. وقيل: ما يأتيهم به اللهُ من مطرٍ أو رزقٍ فلا يقدرُ أحدٌ أن يمسكه، وما يُمسِك من ذلك فلا يقدرُ أحدٌ على أن يرسله.

وقيل: هو الدعاء؛ قاله الضحاك. ابن عباس: من توبة. وقيل: من توفيقٍ وهداية[١].

قلت: ولفظُ الرحمةِ يجمعُ ذلك؛ إذ هي منكَّرةٌ للإشاعة والإبهام، فهي مُتناولةٌ لكلِّ رحمةٍ على البدل، فهو عامٌّ في جميع ما ذُكر. وفي «موطأ» مالك[٢]: أنَّه بلغه أنَّ أبا هريرة كان يقول إذا أصبح وقد مُطر الناس: مُطِرْنا بنَوْءِ الفتح، ثم يتلو هذه الآية: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدَّم[٣].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ معنى هذا الذِّكرِ الشُّكرُ. ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ يجوز في «غير» الرفعُ والنَّصبُ والخَفْض، فالرفعُ من وجهين: أحدُهما بمعنى: هل من خالقٍ إلاَّ اللهُ؛ بمعنى ما خالقٌ إلاَّ اللهُ. والوجه الثاني: أن يكون نعتاً على الموضع؛ لأنَّ المعنى: هل خالقٌ غيرُ اللهِ، و«مِن» زائدة. والنصبُ على الاستثناء. والخفضُ على اللفظ[٤].

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٦٢-٤٦٣ . وخبر ابن عباس أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٤ .

(٢) ١/ ١٩٢ .

(٣) ١/ ٤٢٩ و٢/ ٤٠٣ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٠ . وقرأ بنصب «غير» الفضل بن إبراهيم النحوي كما في القراءات الشاذة ص١٢٣ ، وستأتي القراءة بالرفع والجر.

قال حُميد الطويل: قلت للحسن: مَن خَلَق الشرَّ؟ فقال: سبحان الله! هل مِن خالقٍ غيرُ الله جلَّ وعزَّ خَلَقَ الخيرَ والشرّ[١].

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿هل مِن خالقٍ غيرِ اللهِ﴾ بالخفض. الباقون بالرفع[٢].

﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: المطر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: النبات. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ من الأَفْك ـ بالفتح ـ وهو الصَّرْف؛ يقال: ما أفكَكَ عن كذا؟ أي: ما صَرَفَكَ عنه. وقيل: من الإفك ـ بالكسر ـ وهو الكذب، ويرجع هذا أيضاً إلى ما تقدَّم؛ لأنه قولٌ مصروفٌ عن الصِّدْقِ والصَّواب، أي: مِن أين يقعُ لكم التكذيبُ بتوحيد الله. والآيةُ حُجَّةٌ على القَدَرية لأنه نَفَى خالقاً غيرَ اللهِ، وهم يُثْبِتون معه خالِقينَ، على ما تقدَّم في غير موضع[٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يعني كفارَ قريش ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ يعزِّي نبيَّه ويسلِّيه ﷺ، وليتأسَّى بمَن قَبْلَه في الصَّبْر. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ قرأ الحسنُ والأعرجُ ويعقوبُ وابنُ عامرٍ وأبو حيوةَ وابن مُحَيْصِنٍ وحميدٌ والأعمشُ وحمزةُ ويحيى والكسائيُّ وخلفٌ بفتح التاء على أنه مسمَّى الفاعل[٤]. واختاره أبو عبيد لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]. الباقون: ﴿تُرْجَعُ﴾ على الفعل المجهول.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ هذا وعْظٌ للمُكذِّبين للرسول بعد إيضاح

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٠ .

(٢) السبعة ص٥٣٤ ، والتيسير ص١٨٢ .

(٣) ينظر ١/ ٢٣٠ و٢٨٥ .

(٤) السبعة ص١٨١ ، والتيسير ص٨٠ ، والنشر ٢/ ٢٠٨-٢٠٩ .

الدليل على صحةِ قوله: إنَّ البعثَ والثوابَ والعقابَ حقٌّ. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ قال سعيد بن جُبير: غرورُ الحياةِ الدنيا: أنْ يشتغل الإنسانُ بنعيمها ولذَّاتها عن عمل الآخرة، حتى يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤][١].

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ قال ابن السكِّيت وأبو حاتم: «الغَرور»: الشيطان[٢]. وغُرورٌ: جمعُ غَرٍّ، وغَرٌّ مصدر. ويكون «الغُرور» مصدراً، وهو بعيدٌ عند أبي إسحاق[٣]؛ لأنَّ «غَرَرْته» متعدٍّ، والمصدر [من] المتعدِّي إنَّما هو على فَعْل؛ نحو: ضربتُه ضرباً، إلاَّ في أشياءَ يسيرةٍ لا يُقاسُ عليها؛ قالوا: لزمْته لُزوماً، ونَهَكه المرض نُهوكا. فأمَّا معنى الحرفِ فأحْسَنُ ما قيل فيه ما قاله سعيد بن جبير؛ قال: الغرورُ بالله أن يكون الإنسان يعمل بالمعاصي ثم يتمنَّى على الله المغفرةَ.

وقراءة العامة: ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ بفتح الغين: وهو الشيطان، أي: لا يَغرَّنَّكم بوساوسه في أنَّه تعالى[٤] يتجاوزُ عنكم لفَضْلِكم. وقرأ أبو حَيْوَةَ وأبو السَّمَّال العدويُّ ومحمد ابن السَّمَيْفَع: «الغُرور» برفع الغين[٥]، وهو الباطل، أي: لا يغرَّنَّكم الباطل. وقال ابن السِّكِّيت: والغُرور بالضم: ما اغتُرَّ به من متاعِ الدنيا[٦]. قال الزجَّاج[٧]: ويجوز أن يكون الغُرور جمعَ غارٍّ، مثل قاعد وقُعود. النحاس: أو جمع غَرٍّ، أو يُشبَّه بقولهم:

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦١ . وأخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٥ .

(٢) قول ابن السكيت في إصلاح المنطق ص٣٦٧ ، وأخرجه الطبري ١٩/ ٣٣١ عن ابن عباس.

(٣) في النسخ: عند غير أبي إسحاق، والتصويب من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦١ (والكلام وما سيرد بين حاصرتين منه). وكلام أبي إسحاق (وهو الزجاج) في معانيه ٤/ ٢٦٣-٢٦٤ .

(٤) قوله: تعالى، من (ظ).

(٥) ذكرها النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٦١ عن سماك، ووقع في النسخ الخطية: وأبو سماك، بدل: وأبو السمال، والمثبت من (م)، وهو موافق لما في البحر ٧/ ٣٠٠ ووقع في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٩ : سماك العبدي. وسلف ١٤/ ٨١ أن سماك بن حرب وأبا حيوة وابن السميفع قرؤوا: «الغُرور» بالضم في الآية (٣٣) من سورة لقمان.

(٦) إصلاح المنطق ص٣٦٧ ، والصحاح (غرر).

(٧) في معاني القرآن ٤/ ٢٦٣ .

نَهَكَه المرضُ نُهوكاً، ولَزِمَه لُزوماً(١). الزمخشريُّ(٢): أو مصدرُ «غرَّه» كاللُّزوم والنُّهوك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: فَعادُوه ولا تُطيعوه. ويدلُّكم على عَداوتِهِ إخراجُه أباكم من الجنة، وضمانُه إضلالَكم في قوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ الآية [النساء:١١٩]. وقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الآية [الأعراف:١٦-١٧]. فأخبرنا جلَّ وعزَّ أنَّ الشيطان لنا عدوٌّ مبين، واقتصَّ علينا قصَّته، وما فَعلَ بأبينا آدمَ ﷺ، وكيف انْتَدَبَ لعداوتنا وغرورنا من قَبْلِ وجودنا وبعده، ونحن على(٣) ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا. وكان الفضيل ابن عِياض يقول: يا كذَّاب يا مُفْتَرٍ، اتَّقِ الله ولا تَسُبَّ الشيطانَ في العَلانية وأنت صديقُه في السِّرّ. وقال ابن السَّمّاك: يا عَجباً لمن عصَى المُحْسِنَ بعد معرفته بإحسانه، وأطاع اللَّعينَ بعد معرفته بعداوته! وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» مجوَّداً(٤).

و﴿عَدُوٌّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ يجوز أن يكون بمعنى: مُعَادٍ، فيثنَّى ويُجمع ويؤنَّث(٥). ويكون بمعنى النَّسبِ، فيكون موحَّداً بكلِّ حال، كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ [الشعراء:٧٧]. وفي المؤنَّث على هذا أيضاً: عدوّ. النحاس(٦): فأمّا

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/٤٣٨.

(٢) في الكشاف ٣/ ٣٠٠.

(٣) في (د): مع.

(٤) ٣/ ١٣.

(٥) بعدها في (ظ)، ويذكر.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦١، وما قبله منه.

قولُ بعضِ النَّحويين: إنَّ الواوَ خفيةٌ[١]، فجاؤوا بالهاء، فخطأٌ، بل الواو حرفٌ جَلْدٌ.

﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ﴾ كفَّتْ «ما» «إنَّ» عن العمل فوقع بعدها الفعلُ. ﴿حِزْبَهُۥ﴾ أي: أشياعه. ﴿لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فهذه عداوتُه.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يكونُ «الَّذِينَ» بدلاً من «أصحابِ» فيكون في موضعِ خَفْضٍ، أو يكونُ بدلاً من «حِزْبَه» فيكون في موضع نصبٍ، أو يكون بدلاً من الواو، فيكون في موضعِ رفعٍ. وقولٌ رابعٌ وهو أحسنُها: يكونُ في موضعِ رفعٍ بالابتداء، ويكونُ خبرُهُ: «لَهم عذابٌ شديدٌ»[٢]، وكأنه سبحانه بَيَّنَ حالَ مُوافقتِه ومُخالفتِه، ويكون الكلامُ قد تَمَّ في قوله: ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، ثم ابتدأ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في موضعِ رفعٍ بالابتداء أيضاً، وخبرُه: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو الجنة.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ «مَنْ» في موضعِ رفعٍ بالابتداء، وخبرُه محذوفٌ. قال الكسائيُّ: والذي يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ فالمعنى: أفَمَن زُينَ له سوءُ عمله فرآه حسناً ذهبتْ نفسُك عليهم حسرات! قال: وهذا كلامٌ عربيٌّ ظريف[٣] لا يعرفُه إلاَّ قليل ـ وذكره الزمخشريُّ عن الزجاج[٤] ـ قال النحاس[٥]: والذي قاله الكسائيُّ أحسنُ ما قيل في الآية؛ لِمَا ذَكَره من الدلالةِ

---

(١) في (ظ): خفيفة، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٢ .

(٣) في (خ) و (م): طريف، والمثبت من باقي النسخ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٢ ، والكلام منه.

(٤) الكشاف ٣/ ٣٠١، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٢٦٤ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٢ .

على المحذوف، والمعنى: أنَّ الله جلَّ وعزَّ نهى نبيَّه عن شدة الاغتمام بهم والحزنِ عليهم، كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الكهف:٦] قال أهلِ التفسير: قاتِلٌ. قال نصر بن عليٍّ: سألتُ الأصمعيَّ عن قول النبيِّ ﷺ في أهل اليمن: «هم أرقُّ قلوباً وأبْخَعُ طاعةً»[١] ما معنى أبْخَعُ؟ فقال: أنْصَحُ. فقلت له: إنَّ أهلَ التفسيرِ مجاهداً وغيرَه يقولون في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الشعراء:٣]: معناه: قاتِلٌ نفسَك. فقال: هو مِن ذاك بعَيْنه، كأنه من شدة النُّصْح لهم قاتِلٌ نفسَه.

وقال الحسين بن الفضل: فيه تقديمٌ وتأخير، مَجازُهُ: أفَمن زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حَسَناً، فلا تَذهبْ نفسُك عليهم حسَراتٍ، فإنَّ الله يُضلُّ مَن يشاءُ ويهدي مَن يشاء[٢].

وقيل: الجوابُ محذوفٌ، المعنى: أفَمن زُيِّن له سوءُ عملِه كَمَن هُدي، ويكون يَدلُّ على هذا المحذوف: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[٣].

وقرأ يزيد بن القَعْقاع: ﴿فلا تُذْهِبْ نَفْسَك﴾[٤].

وفي ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أربعةُ أقوال:

أحدها: أنَّهم اليهودُ والنصارى والمجوس؛ قاله أبو قِلابة[٥]. ويكون «سُوءُ عَمَلِهِ»: معاندة الرسولِ عليه الصلاة والسلام.

الثاني: أنَّهم الخوارج؛ رواه عمرو[٦] بن القاسم. فيكونُ «سُوءُ عَمَلِهِ»: تحريف التأويل.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٤٠٦)، ووقع في مطبوعه: أنجع، وعليه شرح السندي ـ كما في حاشية المسند ـ فقال: أنجع طاعة، أي: الطاعة فيهم أكثر نفعاً لخلوص قلوبهم! والذي في الفائق ١/ ٨٢ ، والنهاية (بخع)، وغريب الحديث لابن الجوزي ١/ ٥٨ : أبخع ـ بالخاء ـ كما ذكره المصنف عن النحاس.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٥٦٥ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٨٣ .

(٤) النشر ٢/ ٣٥١ ، والقراءة من العشرة.

(٥) أخرجه مطولاً ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٥ ، والكلام في النكت والعيون ٤/ ٤٦٣ .

(٦) في النسخ عدا (ظ): عمر، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون.

الثالث: الشيطان؛ قاله الحسن[١]. ويكون «سُوءُ عَمَلِهِ»: الإغواء.

الرابع: كفارُ قريشٍ؛ قاله الكلبيُّ. ويكون «سُوءُ عَمَلِهِ»: الشِّرْك. وقال: إنَّها نزلت في العاص بنِ وائل السَّهْمي والأسود بنِ المطَّلب. وقال غيره: نزلت في أبي جهل بنِ هشام. ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ أي: صواباً؛ قاله الكلبيُّ. وقيل: جميلاً[٢].

قلت: والقولُ بأنَّ المرادَ كفارُ قريشٍ أظْهَرُ الأقوالِ؛ لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وقولِه في هذه الآية: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾. وهذا ظاهرٌ بيِّن، أي: لا ينفعُ تَأَسُّفُكَ على مُقامِهم على كفرهم، فإنَّ الله أضلَّهم. وهذه الآيةُ تَرُدُّ على القدرية قولَهم على ما تقدَّم[٣]، أي: أفمن زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حسناً تُريدُ أن تَهْدِيَه، وإنَّما ذلك إلى الله لا إليك، والذي إليك هو التبليغ.

وقرأ أبو جعفر وشيبةُ وابنُ مُحَيْصن: «فَلا تُذْهِب» بضمِّ التاءِ وكَسْرِ الهاءِ، «نفسَك» نصباً على المفعول، والمعنَيان مُتقارِبان[٤].

«حَسَرَاتٍ» منصوبٌ مفعولٌ من أجْله، أي: فلا تَذْهَبْ نَفسُكَ للحسرات. و«عليهم» صلةُ «تَذْهَبْ»، كما تقول: هَلَكَ عليه حُبًّا، ومات عليه حزناً. أو هو بيانٌ للمتحسَّر عليه[٥]. ولا يجوز أن يتعلَّق بالحسرات؛ لأنَّ المصدر لا يتقدَّمُ عليه صِلَتُه.

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٣٤، والكلام في النكت والعيون ٤/ ٤٦٣.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٦٣.

(٣) ينظر ١/ ٢٣٠ و٢٨٥.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٣ عن أبي جعفر، وهو يزيد بن القعقاع، وهو من العشرة، وسلفت قريباً.

(٥) في النسخ: وهو بيان للمتحسَّر عليه، والمثبت من الكشاف ٣/ ٣٠١، والكلام منه، وكذا وقع في البحر ٧/ ٣٠١، وروح المعاني ٢٢/ ١٧٠، قال الألوسي: فيكون ظرفاً مستقرًّا، ومتعلَّقهُ مقدَّر، كأنه قيل: على مَن تذهب؟ فقيل: عليهم.

ويجوز أن يكون حالاً، كأنَّ كلَّها صارتْ حسراتٍ لفَرْطِ التَّحسُّرِ، كما قال جرير:

مَشَقَ الهواجِرُ لحمَهُنَّ مع السُّرَى ... حتى ذَهَبْنَ كَلاكِلاً وصُدُورا(١)

يريد: رَجَعْنَ كَلاكِلاً وصدوراً، أي: لم يَبْقَ إلاَّ كَلالُها وصدورُها. ومنه قولُ الآخر:

فَعَلَى إثْرِهم تَساقَطُ نَفْسِي ... حَسَراتٍ وذِكْرُهم لي سَقامُ(٢)

أو مَصْدراً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ مَيِّت ومَيْت واحد، وكذا مَيِّتة ومَيْتة، هذا قولُ الحُذَّاق من النَّحويين. وقال محمد بن يزيد: هذا قولُ البصريين، ولم يَسْتثنِ أحداً، واستدلَّ على ذلك بدلائلَ قاطعةٍ، وأنشد:

ليس مَن مات فاستراحَ بِمَيْتٍ ... إنَّما المَيْتُ مَيِّتُ الأحياءِ

إنَّما المَيْتُ مَن يعيشُ كئيباً ... كاسِفاً بالُه قليلَ الرَّخاءِ(٣)

قال: فهل تَرى بين مَيْتٍ ومَيِّتٍ فرقاً؟ وأنشد:

هَيْنونَ لَيْنونَ أيسارٌ بنو يَسَرٍ ... سُوَّاسُ مَكْرُمةٍ أبناءُ أيْسارِ(٤)

---

(١) ديوان جرير ١/ ٢٢٧، والكشاف ٣/ ٣٠١، والكلام منه، وهو في كتاب سيبويه ١/ ١٦٢، قوله: مَشَقَ، أي: أذهب لحومهن، والكلاكل: الصدور، كأنه أراد هنا أعلى الصدرِ فلذلك ذكر معه الصدر، وصف رواحلَ أهْزلها دُؤوبُ السير في الهواجر والليل. شرح الشواهد للشنتمري ص١٣٣.

(٢) البيت لأبي دؤاد الإيادي كما في الشعر والشعراء ١/ ٢٣٩، والأصمعيات ص١٨٨، والحماسة البصرية ١/ ٢٣٨.

(٣) البيتان لعديّ بن الرَّعلاء النسائي، وسلف البيت الأول ٣/ ٢٣، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٣. قال النحاس: ويروى: قليل الرجاء.

(٤) نُسب لعبيد بن العرندس الكلابي كما في الكامل للمبرد ١/ ١٠٦، والحماسة البصرية ١/ ١٥٠، =

قال: فقد أجمعوا على أنَّ هَيْنون وهيِّنون[١] واحدٌ، وكذا مَيْتٌ ومَيِّت، وسَيْدٌ وسَيِّد.

وقال: ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾ بعدَ أن قال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وهو من بابِ تَلْوينِ الخطاب. وقال أبو عبيدةَ: سبيلُه «فَنَسُوقُه»[٢]، لأنَّه قال: «فَتُثِيرُ سَحَاباً».

الزَّمَخْشريّ[٣]: فإن قلتَ: لِمَ جاء «فتثير» على المُضارَعةِ دونَ ما قَبْلَه وما بعدَه؟ قلت: لتَحْكيَ الحالَ التي تقعُ فيها إثارةُ الرياحِ السحابَ، وتَسْتَحْضِرَ تلك الصورةَ البديعةَ الدالَّةَ على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعلٍ فيه نوعُ تمييزٍ وخصوصيةٌ بحالٍ تُستغرب، أو تَهمُّ المخاطَبَ، أو غير ذلك؛ كما قال تأبَّط شَرًّا:

بـأنـي قـد لـقـيـتُ الـغُـولَ تَـهْـوي ... بِـسَـهْـبٍ كـالـصـحـيـفـةِ صَـحْـصَـحـانِ
فـأضـرِبُـهـا بـلا دَهَـشٍ فـخـرَّتْ ... صـريـعـاً لـلـيـديـن ولـلـجِـرَانِ[٤]

لأنه قَصَدَ أنْ يصوِّر لقومه الحالةَ التي تَشَجَّع فيها بزَعْمِه على ضَرْبِ الغُول، كأنه يُبصِّرهم إياها، ويُطْلِعُهم على كُنْهِها مشاهدةً، للتعجب[٥] من جرأته على كلِّ هَوْلٍ، وثَباته عند كلِّ شدَّةٍ. وكذلك سَوْقُ السحابِ إلى البلد الميِّت وإحياءُ الأرض بالمطر بعدَ موتها لَمَّا كانا من الدلائلِ على القدرةِ الباهرةِ قيل: «فَسُقْنا» و«أحيينا» معدولاً

= ونسب للعرندس كما في أمالي القالي ١/ ٢٣٩، ومعجم الشعراء ص١٣٧، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٥٩٣، وقال المرزباني: وقيل: هو أبو العرندس. قوله: أيسار، قال المرزوقي: جمع يَسَر، وهم الذين يجتمعون في الميسر على الجزور عند الجدب والقحط، فيُجيلون القِدَاح عليها، ثم يفرقونه في الفقراء وأرباب الحاجة.

(١) في النسخ: هينون ولينون، والمثبت عن إعراب القرآن للنحاس.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ١٥٢، ووقع في (د) و(ز) و(م): فتسوقه. قال أبو عبيدة: والعرب قد تضع «فعلنا» في موضع «نفعل».

(٣) في الكشاف ٣/ ٣٠١-٣٠٢، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) ديوان تأبط شرًّا ص٢٢٤-٢٢٥، والأغاني ٢١/ ١٣٤. قوله: بسهب، السهب: الفلاة، والصحصحان: ما استوى من الأرض. قوله: وللجِران، جِران البعير: مقدَّم عنقه من مذبحه إلى منحره. القاموس (سهب) و(صحح) و(جرن).

(٥) في الكشاف: للتعجيب.

بهما عن لفظِ الغيبةِ إلى ما هو أدْخَلُ في الاختصاص وأدَلُّ عليه.

وقراءةُ العامَّةِ: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾. وقرأ ابن مُحَيْصِنٍ وابنُ كثير والأعمشُ ويحيى وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿الريحَ﴾ توحيداً[١]. وقد مضى بيانُ هذه الآيةِ والكلامُ فيها مستوفىً[٢].

﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: كذلك تحيَوْن بعد ما متُّم، مِن نَشَرَ الإنسانَ نشوراً. فالكافُ في محلِّ الرفع، أي: مثلُ إحياءِ المواتِ نَشْرُ الأمواتِ. وعن أبي رَزِينٍ العُقَيْليِّ قال: قلتُ: يا رسول الله، كيف يُحْيِي الله المَوْتَى، وما آيةُ ذلك في خَلْقِه؟ قال: «أمَا مَرَرْتَ بوادي أهلِكَ مُمْحِلاً، ثم مَرَرْتَ به يَهتزُّ خَضِراً؟» قلت: نعم يا رسولَ الله. قال: «فكذلك يُحيي الله الموتَى، وتلك آيتُه في خَلقِه»[٣] وقد ذكرنا هذا الخبرَ في «الأعراف» وغيرِها[٤].

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ التقديرُ عندَ الفرَّاء: مَن كان يريد عِلْمَ العزَّةِ. وكذا قال غيرُه من أهلِ العلم. أي: مَن كان يريدُ عِلْمَ العزَّةِ التي لا ذِلَّةَ معها؛ لأنَّ العزةَ إذا كانت تؤدِّي إلى ذلَّةٍ فإنَّما هي تَعَرُّضٌ للذلَّة، والعزةُ التي لا ذُلَّ معها للهِ عزَّ وجلَّ. ﴿جَمِيعًا﴾ منصوبٌ على الحال. وقدَّر الزجَّاج معناه: مَن كان يريد بعبادته اللهَ عزَّ وجلَّ العزَّةَ ـ والعزةُ له سبحانه ـ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يُعِزُّه في الآخرة والدنيا[٥].

---

(١) السبعة ص١٧٢-١٧٣، والتيسير ص٧٨ عن ابن كثير وحمزة والكسائي.

(٢) ٢/ ٤٩٨-٥٠٢ و٩/ ٢٥٣-٢٥٥.

(٣) الكشاف ٣/ ٣٠٢.

(٤) ١/ ٢٩٦ و٩/ ٢٥٥.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٤، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٦٧، وقول الزجاج بنحوه في معاني القرآن له ٤/ ٢٦٤.

قلت: وهذا أحسنُ، وروي مرفوعاً على ما يأتي.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ ظاهِرُ هذا إيئاسُ السَّامِعينَ من عزَّته، وتعريفُهم أنَّ ما وجب له من ذلك لا مَطْمَعَ فيه لغيره، فتكون الألفُ واللامُ للعَهْدِ عند العالِمينَ به سبحانه، وبما وَجَبَ له من ذلك، وهو المفهومُ من قوله الحقِّ في سورة يونس: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ [الآية: ٦٥].

ويحتملُ أنْ يريدَ سبحانه أنَّ يُنبِّهَ ذوي الأقدارِ والهمم من أين تُنالُ العزةُ، ومن أين تُستحقُّ، فتكونُ الألفُ واللامُ للاستغراق، وهو المفهومُ من آيات هذه السورة. فَمَن طلب العزةَ من الله وصدقه في طلبها بافتقارٍ وذلٍّ وسكونٍ وخضوع، وجَدَها عنده ـ إن شاء الله ـ غيرَ ممنوعةٍ ولا محجوبةٍ عنه؛ قال ﷺ: «مَن تَواضعَ للهِ رَفَعَه الله»[(١)]. ومَن طَلَبها من غيرِه وكَله[(٢)] إلى مَن طَلَبها عنده. وقد ذَكَر تعالى قوماً طلبوا العزةَ عندَ مَن سواه فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]. فأنبأك[(٣)] صريحاً لا إشكالَ فيه أنَّ العزةَ له يُعِزُّ بها مَن يشاء ويُذِلُّ مَن يشاء. وقال ﷺ مفسِّراً لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾: «مَن أراد عزَّ الدَّارينِ فَلْيُطِعِ العزيز»[(٤)]. وهذا معنى قولِ الزجَّاج، ولقد أحْسَنَ مَن قال:

وإذا تذلَّلتِ الرقابُ تواضُعاً ... منَّا إليك فعزُّها في ذلِّها[(٥)]

فَمن كان يريد العزةَ لينال الفوزَ الأكبر، ويدخلَ دارَ العزَّةِ ـ ولله العزةُ ـ فلْيقصِدْ بالعزة[(٦)] اللهَ سبحانه والاعتزازَ به؛ فإنَّه مَن اعتزَّ بالعبيد أذلَّه الله، ومَن اعتزَّ بالله

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧٢٠٦)، ومسلم (٢٥٨٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (ظ): وكل.

(٣) في (ظ): فأبان.

(٤) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد ٦/ ٨٠ و٨/ ١٧١ ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٧/١٢ .

(٥) قائله أبو إسحاق الصابي كما في يتيمة الدهر ٢/ ٣٢٥ ، وسلف ١١/ ١٢٩ .

(٦) في (خ) و(ط): بالذلة.

أعزَّه الله.

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وتمَّ الكلام. ثم تَبتدئُ ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ على معنى: يرفعُه الله، أو يرفعُ صاحبَه. ويجوز أن يكون المعنى: والعملُ الصالح يرفعُ الكلمَ الطيِّبَ[(١)]؛ فيكون الكلامُ متَّصلاً على ما يأتي بيانه.

والصعود: هو الحركةُ إلى فوق، وهو العروجُ أيضاً. ولا يُتَصَوَّرُ ذلك في الكلام لأنَّه عَرَضٌ، لكنْ ضُرب صعودُه مثلاً لقبوله؛ لأنَّ موضعَ الثوابِ فوق، وموضعُ العذابِ أسفل[(٢)].

وقال الزجَّاج: يقال: ارتفع الأمر إلى القاضي، أي: عَلِمَه، فهو بمعنى العلم[(٣)]. وخصَّ الكلام الطيب[(٤)] بالذكر لبيانِ الثوابِ عليه.

وقوله: «إليه» أي: إلى الله يصعد. وقيل: يصعد إلى سمائه والمحلِّ[(٥)] الذي لا يجري فيه لأحدٍ غيرِه حُكْمٌ. وقيل: أي: يُحمل الكتاب الذي كُتب فيه طاعاتُ العبدِ إلى السماء.

و«الكَلِمُ الطيِّبُ» هو التوحيدُ الصادِرُ عن عقيدةٍ طيِّبةٍ. وقيل: هو التحميدُ والتمجيدُ، وذكرُ اللهِ ونحوُه. وأنشدوا:

لا تَرْضَ من رجلٍ حلاوةَ قولِهِ ... حتى يُزَيِّنَ ما يقولُ فَعالُ

فإذا وَزَنْتَ فَعالَه بِمَقالِهِ ... فتوازَنا فإخاءُ ذاك جَمالُ[(٦)]

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٤٨، والوقف عند ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وقف حسن، كما ذكر أبو بكر الأنباري.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٩٣.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٥٠٢ دون نسبة، ولم نقف عليه في معاني القرآن للزجاج.

(٤) في (ظ): الكلم الطيب، وفي (م): الكلام والطيب.

(٥) في الوسيط للواحدي ٣/ ٥٠٢ (والكلام منه): وهو المحل، بدل: والمحل.

(٦) ذكرهما ابن عساكر في تاريخ دمشق ٨/ ١٦٢ عن إسحاق بن إبراهيم بن ميمون الموصلي. قوله: فَعال، كسَحاب: هو اسم الفعل الحسن. القاموس (فعل).

وقال ابنُ المُقَفَّع: قولٌ بلا عملٍ، كَثَرِيدٍ بلا دَسَمٍ، وسَحابٍ بلا مَطَرٍ، وقَوْسٍ بلا وَتَرٍ[١]. وفيه قيل:

لا يكونُ المقالُ إلاَّ بفعلٍ ... كلُّ قولٍ بلا فِعالٍ هَبَاءُ
إنَّ قولاً بلا فِعالٍ جميلٍ ... ونِكاحاً بلا وَلِيٍّ سواءُ

وقرأ الضحاك: «يُصعَد» بضمِّ الياء[٢]. وقرأ جمهورُ الناسِ: «الكَلِمُ» جمع كلمة. وقرأ أبو عبد الرحمن: «الكلامُ»[٣].

قلت: فالكلامُ على هذا قد يُطلَقُ بمعنى الكلِمِ وبالعكس؛ وعليه يخرَّج قولُ أبي القاسم: أقسامُ الكلامِ ثلاثة[٤]؛ فوَضَعَ الكلامَ مَوْضعَ الكَلِم، والله أعلم.

﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ قال ابن عباس ومجاهدٌ وغيرهما: المعنى: والعملُ الصالح يرفعُ الكَلِمَ الطيب[٥]. وفي الحديث «لا يَقْبلُ الله قولاً إلا بعملٍ، ولا يقبلُ قولاً وعملاً إلا بنيَّةٍ، ولا يقبلُ قولاً وعملاً ونيَّةً إلا بإصابةِ السَّنة»[٦]. قال ابن عباس: فإذا ذكر العبدُ الله وقال كلاماً طيِّباً وأدَّى فَرائضَه، ارتفع قولُه مع عمله، وإذا قال ولم يؤدِّ فرائضَه؛ رُدَّ قولُه على عمله. قال ابن عطية[٧]: وهذا قولٌ يَردُّه مُعتقَدُ أهلِ السُّنةِ،

(١) الكشاف ٣/ ٣٠٢.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣١.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣١، وقراءة: «الكلام» في القراءات الشاذة ص١٢٣.

(٤) الجمل في النحو لأبي القاسم الزَّجَّاجي ص١.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٤، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٣٤٠.

(٦) الكشاف ٣/ ٣٠٢، وأخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٦٩٢) من حديث أنس ﷺ، وفي إسناده أبان بن أبي عياش وهو متروك. وأخرجه ابن حبان في المجروحين ١/ ١٥٠ من حديث ابن مسعود ﷺ، وفي إسناده أحمد بن الحسن المصري قال ابن حبان: كذاب. وأخرجه ابن حبان في المجروحين ١/ ٢٨٠، وابن عدي في الكامل ٣/ ٩١٤ من حديث أبي هريرة ﷺ، وفي إسناده أبو يحيى زكريا بن يحيى الوَقَّار، قال ابن عدي: يضع الحديث، كذَّبه صالح جَزَرة. وينظر أيضاً الكامل لابن عدي ٣/ ١٠٧١، والميزان ١/ ٦٣٣ و٢/ ٧٧، وتخريج أحاديث الكشاف ص١٣٨-١٣٩.

(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٣١، وما قبله منه، وخبر ابن عباس أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٣٣٩.

ولا يصحُّ عن ابن عباس. والحقُّ أنَّ العاصيَ التارِكَ للفرائض إذا ذَكَر الله وقال كلاماً طيباً فإنَّه مكتوبٌ له مُتقَبَّلٌ منه، وله حسناتُه وعليه سيئاتُه، واللهُ تعالى يتقبَّلُ مِن كلِّ مَن اتَّقى الشِّرْك. وأيضاً فإنَّ الكلامَ[١] الطيبَ عملٌ صالح. وإنَّما يستقيمُ قولُ مَن يقول: إنَّ العملَ هو الرافعُ للكَلِمِ، بأنْ يُتأوَّلَ أنه يزيده[٢] في رَفْعِه وحُسْنِ مَوْقِعِه إذا تعاضَدَ معه. كما أنَّ صاحب الأعمالِ من صلاةٍ وصيام وغير ذلك؛ إذا تخلَّل أعمالَه كَلِمٌ طَيِّبٌ وذِكْرُ اللهِ تعالى كانت الأعمالُ أشرفَ، فيكون قولُه: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ موعظةً وتَذْكرةً وحَضًا على الأعمال. وأمَّا الأقوالُ التي هي أعمالٌ في نفوسها، كالتوحيد والتسبيح فمقبولةٌ.

قال ابن العربيِّ[٣]: إنَّ كلامَ المرءِ بِذِكْرِ اللهِ إنْ لم يقترن به عملٌ صالح لم يَنْفَع، لأنَّ مَن خالَفَ قولَه فِعْلُه فهو وبالٌ عليه. وتحقيقُ هذا: أنَّ العملَ إذا وقع شرطاً في قبول القول أو مُرْتَبِطاً به، فإنه لا قبولَ له إلا به، وإن لم يكن شرطاً فيه [ولا مرتبطاً به] فإنَّ كَلِمَه الطيبَ يُكتبُ له. وعملُه السَّيِّئ يُكتبُ عليه، وتقعُ الموازنةُ بينهما، ثم يحكم الله بالفوز والربح والخسران.

قلت: ما قاله ابنُ العربيِّ تحقيقٌ. والظاهِرُ أنَّ العمل الصالح شَرْطٌ في قَبولِ القولِ الطيِّب. وقد جاء في الآثار: «أنَّ العبدَ إذا قال: لا إلهَ إلاَّ الله بنيَّةٍ صادقةٍ، نَظَرت الملائكةُ إلى عمله، فإن كان العملُ مُوافقاً لقوله صَعِدَا[٤] جميعاً، وإن كان عملُه مخالفاً وقفَ قولُه حتى يتوبَ من عمله»[٥]. فعلى هذا: العملُ الصالح يَرفعُ الكَلِمَ

(١) في (ظ) والمحرر الوجيز: الكلم.

(٢) في المحرر الوجيز: يزيد.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٥٩٤، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في (ظ): فإن كان العمل صالحاً صعدا.

(٥) أخرجه بنحوه الثعلبي وابن مردويه عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً، كما ذكر الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٣٨، وذكر نحوه أيضاً الواحدي في الوسيط ٣/ ٥٠٢ عن الحسن قولَه، وهو الأشبه.

الطيِّبَ إلى الله، والكنايةُ في «يرفعُه» ترجعُ إلى الكَلِم الطيِّب. وهذا قولُ ابنِ عباسٍ وشَهْر بن حَوشَب وسعيد بن جُبير ومجاهدٍ وقتادةَ وأبي العاليةِ والضَّحاك[١].

وعلى أنَّ «الكَلِم الطيِّب» هو التوحيدُ، فهو الرافِعُ للعمل الصالح؛ لأنه لا يُقبَلُ العملُ الصالح إلاَّ مع الإيمانِ والتوحيد، أي: والعملُ الصالح يرفعُه الكَلِمُ الطيِّبُ، فالكناية تعودُ على العمل الصالح. ورُوي هذا القولُ عن شَهْر بن حَوْشَب قال: «الكَلِمُ الطيِّبُ» القرآن، «والعمل الصالحُ يرفعُه» القرآن[٢].

وقيل: تعودُ على الله جلَّ وعزَّ، أي: أنَّ العملَ الصالحَ يرفعُه اللهُ على الكَلِم الطيِّب؛ لأنَّ العمل تحقيقُ الكلِم، والعاملُ أكثرُ تعباً[٣] من القائل، وهذا هو حقيقةُ الكلام؛ لأنَّ الله هو الرافعُ الخافِضُ. والثاني والأولُ مَجازٌ، ولكنَّه سائغٌ جائز.

قال النحاس[٤]: القولُ الأوَّلُ أَوْلاها وأصحُّها لعلُوِّ مَن قال به، وأنَّه في العربية أَوْلى؛ لأنَّ القُرَّاءَ على رَفْعِ العمل، ولو كان المعنى: والعمل الصالح يرفعُه الله، أو العمل الصالح يرفعُه[٥] الكَلِمُ الطيِّب، لكان الاختيارُ نَصْبَ العمل. ولا نَعلمُ أحداً قرأه منصوباً إلاَّ شيئاً رُوي عن عيسى بن عمر أنه قال: قرأه أناس: «والعملَ الصالحَ يرفعُه الله»[٦].

وقيل: والعملُ الصالح يرفعُ صاحبَه، وهو الذي أراد العزَّةَ وعَلِمَ أنَّها تُطلب من الله تعالى؛ ذكره القُشيريُّ.

الثانية: ذكروا عند ابن عباس أنَّ الكلب يقطعُ الصلاةَ، فقرأ هذه الآية: ﴿إِلَيْهِ

---

(١) تفسير الطبري ١٩/ ٣٣٩-٣٤٠ ، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٤١ .

(٢) ذكر هذا القول عن شهر بن حوشب النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٤٢ .

(٣) في (ظ): نفعا.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٤٤٢ .

(٥) في النسخ: يرفع، والمثبت من معاني القرآن للنحاس.

(٦) القراءات الشاذة ص١٢٣ .

يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ .وهذا استدلالٌ بعموم، على مذهب السَّلَفِ في القول بالعموم. وقد دخل [هذا] في الصلاة بشروطها، فلا يقطعُها عليه شيءٌ إلا بثبوتِ ما يُوجبُ ذلك، من مِثْلِ ما انعقدت به من قرآنٍ أو سُنَّةٍ أو إجماع(١). وقد تعلَّق مَن رأى ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام: «يقطعُ الصلاةَ المرأةُ والحمارُ والكلبُ الأسود» فقلت: ما بالُ الكلب الأسودِ من الكلب الأبيض من الكلب الأحمر؟ فقال: «إنَّ الأسْوَدَ شيطانٌ» خرَّجه مسلم(٢). وقد جاء ما يُعارِضُ هذا، وهو ما خرَّجه البخاريُّ عن ابن أخي ابنِ شهابٍ أنَّه سأل عمَّه عن الصلاة: يَقْطَعُها شيءٌ؟ فقال: لا يقطعُها شيء؛ أخبرني عروة بنُ الزبير أنَّ عائشةَ زوجَ النبيِّ ﷺ قالت: لقد كان رسولُ الله ﷺ يقوم فيُصلِّي من الليل، وإنِّي لَمعتَرِضةٌ بينه وبينَ القبلةِ على فراشِ أهله(٣).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ذكر الطبريُّ في كتابِ «آداب النفوس»: حدثني يونس بن عبد الأعلى قال: حدثنا سفيانُ، عن لَيْث بنِ أبي سُليم، عن شَهْر ابن حَوْشَبٍ الأشعريِّ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ قال: هم أصحابُ الرِّياء(٤). وهو قولُ ابن عباس ومجاهدٍ وقتادة(٥).

وقال أبو العالية: هم الذين مَكَروا بالنبيِّ ﷺ لمَّا اجتمعوا في دار النَّدْوة. وقال

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٩٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه. وخبر ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه عبد الرزاق (٢٣٦٠)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٤٥٩ .

(٢) في صحيحه (٥١٠)، وهو عند أحمد (٢١٣٢٣)، وهو من حديث أبي ذر ﷺ. والقائل: فقلت، هو عبد الله بن الصامت الرواي عن أبي ذرّ ﷺ.

(٣) صحيح البخاري (٥١٥)، وبنحوه عند أحمد (٢٤٠٨٨)، ومسلم (٥١٢).

(٤) وأخرجه الطبري أيضاً بهذا الإسناد في التفسير ١٩/ ٣٤١ ، وسلف الكلام على كتابه آداب النفوس ١/ ٣٥ .

(٥) أخرجه عن مجاهد ابن المبارك في الزهد (٦١- زوائد نعيم)، والبيهقي في الشعب (٦٨٤٥)، ولم نقف عليه عن ابن عباس وقتادة.

الكلبيُّ: يعني الذين يعملون السيئاتِ في الدنيا. مقاتل: يعني الشرك[(١)]، فتكون «السَّيئات» مفعولةً[(٢)]. ويقال: بارَ يَبورُ: إذا هَلَكَ وبطل. وبارتْ السوقُ، أي: كَسَدتْ، ومنه: نعوذُ بالله من بَوَارِ الأيِّم. وقولُه: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢] أي: هَلْكَى. والمَكْر: ما عُمل على سبيل احتيالٍ وخديعة. وقد مضى في «سبأ»[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ قال سعيدٌ عن قتادةَ: يعني آدمَ عليه السلام، والتقديرُ على هذا: خَلَقَ أصْلَكم من تراب. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ قال: أي: التي أخرجَها من ظهورِ آبائِكم ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ قال: أي: زوَّجَ بعضَكم بعضاً[(٤)]. فالذَّكَرُ زوجُ الأنثى ليتمَّ البقاءُ في الدنيا إلى انقضاءِ مُدَّتِها. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: جَعَلَكم أزواجاً، فيتزوَّجُ الذكرُ بالأنثى فيتناسلان بعلم الله، فلا يكون حملٌ ولا وضعٌ إلا واللهُ عالمٌ به، فلا يخرجُ شيءٌ عن تدبيره.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ سمَّاه معمَّراً بما هو صائرٌ إليه. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ إلاَّ كُتِبَ عمرُه، كم هو سنةً، كم هو شهراً، كم هو يوماً، كم هو ساعةً، ثم يُكتبُ في كتابٍ آخرَ: نقصَ من عمره يومٌ، نقصَ شهرٌ، نقصَ سنةٌ، حتى يستوفيَ أجلَه[(٥)]. وقاله سعيد بن جبير أيضاً؛

(١) ذكر هذه الأقوال البغوي ٣/ ٥٦٧ .

(٢) يعني على قول الكلبي ومقاتل، حيث ضُمِّن «يمكرون» معنى يكسبون، وعلى قول أبي العالية ينتصب «السيئات» على نعتِ مصدرٍ محذوف، أي: المكراتِ السيئات، وهي: إثباته أو قتله أو إخراجه. ينظر البحر ٧/ ٣٠٤ ، والدر المصون ٩/ ٢١٨ .

(٣) ص٣٠٢ من هذا الجزء.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٥ ، وأخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٣٤٢ .

(٥) بنحوه في تفسير الطبري ١٩/ ٣٤٥، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٥ ، ومعاني القرآن له ٥/ ٤٤٤ .

قال: فما مَضَى من أجَلِه فهو النقصانُ، وما يُستقبلُ فهو الذي يُعَمَّرُه[١]، فالهاءُ على هذا للمعمَّر.

وعن سعيد أيضاً: يكتبُ عمرُه كذا وكذا سنةً، ثم يكتب في أسفلِ ذلك: ذهب يومٌ، ذهب يومان، حتى يأتيَ على آخره. وعن قتادةَ: المعمَّرُ مَن بلغ ستِّينَ سنةً، والمَنْقوصُ من عمره مَن يَموتُ قبل ستِّين سنة[٢].

ومذهبُ الفرَّاءِ[٣] في معنى ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي: ما يكونُ من عمره ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ بمعنى معمَّرٍ آخرَ، أي: ولا يُنْقَصُ الآخرُ من عمره ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ فالكنايةُ في «عمره» تَرْجِعُ إلى آخرَ غيرِ الأوَلِ، وكَنَى عنه بالهاء كأنه الأوّلُ، ومثلُه قولُك: عندي درهمٌ ونصفُه، أي: نصفُ آخَرَ.

وقيل: إنَّ الله كتب عمرَ الإنسان مئةَ سنةٍ إن أطاع، وتسعين إن عَصَى، فأيَّهما بلغ فهو في كتاب[٤]. وهذا مثلُ قوله عليه الصلاة والسلام: «مَن أحَبَّ أن يُبْسَط له في رزقه، ويُنْسأ له في أَثَرِه، فَلْيَصِلْ رَحِمَه»[٥]. أي: إنَّه يُكتَبُ في اللَّوح المحفوظ: عمرُ فلانٍ كذا سنةً، فإنْ وَصَلَ رَحِمَه زِيْدَ في عمرِه كذا سنةً. فبيَّن ذلك في موضع آخَرَ من اللَّوحِ المحفوظ، أنَّه سَيَصِلُ رَحِمَه. فَمَن اطَّلع على الأوّل دونَ الثاني ظَنَّ أنَّه زيادةٌ أو نقصان. وقد مضى هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد:٣٩]. والكنايةُ على هذا ترجعُ إلى العمر.

وقيل: المعنى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي: هَرِم ﴿وَلَا يُنقَصُ﴾ آخَرُ [﴿مِنْ

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٤٥ .

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٣ ، وأخرج الخبرين ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٧ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٦٨ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٤٦ .

(٥) أخرجه أحمد (١٣٥٨٥)، والبخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس ﷺ، وسلف ١٠/ ٢٠٢ و١٢/ ٨٩ .

عُمُرِهِۦٓ﴾] من عمرِ الهَرِمِ ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ أي: بقضاءٍ من الله جلَّ وعزَّ. رُوي معناه عن الضحَّاك واختاره النحَّاس، قال: وهو أشبهها بظاهرِ التنزيل[(١)]. ورُوي نحوُه عن ابن عباس[(٢)]. فالهاءُ على هذا يَجوزُ أن تكون للمعمَّر، ويجوز أن تكون لغيرِ المعمَّر.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: كتابةُ الأعمالِ والآجالِ غيرُ مُتَعذِّرٍ عليه. وقراءةُ العامَّةِ: ﴿يُنقَصُ﴾ بضمِّ الياء وفتحِ القاف. وقَرأتْ فرقةٌ منهم يعقوبُ: ﴿يَنقُصُ﴾ بفتح الياء وضمِّ القاف[(٣)]، أي: لا يَنْقُصُ من عمرِه شيءٌ. يقال: نَقَصَ الشيءُ بنفسه ونقَصَه غيرُه، وزاد بنفسه وزاده غيره، متعدٍّ ولازمٌ.

وقرأ الأعرجُ والزُّهريُّ: «مِن عُمْره» بتخفيفِ الميم[(٤)]. وضمَّها الباقون. وهما لغتان مثل: السُّحْق والسُّحُق. و«يسيرٌ» أي: إحْصَاءُ طويلِ الأعمارِ وقصيرِها لا يتعذَّر عليه شيءٌ منها ولا يَعْزُب. والفعلُ منه: يَسُر. ولو سمَّيتَ به إنساناً انْصَرَفَ؛ لأنه فَعِيل[(٥)].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ **فيه أربعُ مسائلَ:**

الأولى: قال ابن عباس: «فُراتٌ» حُلْوٌ، و«أُجاجٌ» مرٌّ. وقرأ طلحةُ: «هذا مَلِحٌ أُجاجٌ» بفتحِ الميم وكَسْرِ اللامِ بغير ألف. وأمَّا المالحُ فهو الذي يُجعلُ فيه الملح[(٦)].

(١) معاني القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٣، وما سلف بين حاصرتين منه. وقول الضحاك أخرجه الطبري ١٩/ ٣٤٣.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٤٣.

(٣) النشر ٢/ ٣٥٢.

(٤) ذكرها ابن مجاهد في السبعة ص٥٣٤ رواية عن أبي عمرو، وهي في القراءات الشاذة ص١٢٣.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٦.

(٦) المصدر السابق.

وقرأ عيسى وابنُ أبي إسحاقَ: «سيِّغ شرابه» مثل: سيِّد وميِّت[١]. ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ لا اختلافَ في أنه منهما جميعاً. وقد مضى في «النحل» الكلامُ فيه[٢].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ مذهبُ أبي إسحاق أنَّ الحلية إنَّما تستخرجُ من الملح، فقيل: منهما؛ لأنَّهما مُختلِطان. وقال غيره: إنَّما تُستَخرجُ الأصدافُ التي فيها الحليةُ ـ من الدرِّ وغيرِه ـ من المواضع التي فيها العذبُ والمِلْحُ نحو العيون[٣]، فهو مأخوذٌ منهما[٤]؛ لأنَّ في البحر عيوناً عذبةً، وبينهما يخرج اللؤلؤُ عند التَّمَازُجِ. وقيل: من مطر السماء.

وقال محمد بنُ يزيد قولاً رابعاً، قال: إنَّما تُستخرَجُ الحليةُ من المِلْح خاصةً؛ النحاس[٥]: وهذا أحْسَنُها، وليس هذا عندَه لأنَّهما مُختلِطان، ولكنْ جُمِعا ثم أخبر عن أحدهما كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص:٧٣] وكما تقول: لو رأيتَ الحسنَ والحجَّاجَ لرأيتَ خيراً وشَرّاً. وكما تقول: لو رأيتَ الأصمعيَّ وسيبويه لملأتَ يدك لغةً ونَحْواً. فقد عرف معنى هذا، وهو كلامٌ فصيحٌ كثير، فكذا: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فاجتمعا في الأوَّلِ وانفردَ المِلْحُ بالثاني.

الثالثة: وفي قوله: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ دليل على أنَّ لباسَ كلِّ شيءٍ بحَسَبِه؛ فالخاتمُ يُجعل في الإصبع، والسِّوارُ في الذِّراع، والقِلَادةُ في العنق، والخَلْخالُ في الرِّجْل.

---

(١) القراءات الشاذة ص٣٣٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٣ عن عيسى. وقرأ عيسى أيضاً: «سَيْغ» مخفَّفاً من المشدَّد، وكذا ضبطت في (ز)، وهي في المحتسب ٢/ ١٩٨، والبحر ٧/ ٣٠٥.

(٢) ١٢/ ٢٩٥.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٦، وقول أبي إسحاق الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٦٦.

(٤) في (ظ): منها، وليست في (د). والمثبت من باقي النسخ والنكت والعيون ٤/ ٤٦٧، والكلام منه.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٦، وما قبله منه.

وفي البخاريِّ والنسائيِّ عن ابن سِيرين قال: قلتُ لعَبِيدةَ: افتراشُ الحرير كَلُبْسِه؟ قال: نعم[١]. وفي الصِّحاح عن أنس: فقمتُ على حَصيرٍ لنا قد اسْوَدَّ من طولِ ما لُبِس. الحديث[٢].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ قال النحاس[٣]: أي: ماءِ الملحِ خاصةً، ولولا ذلك لقال: فيهما. وقد مَخَرت السفينةُ تَمْخُر: إذا شقَّت الماءَ. وقد مضى هذا في «النحل»[٤].

﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ قال مجاهد: التجارةُ في الفُلْكِ إلى البلدان البعيدةِ في مدَّةٍ قريبة[٥]، كما تقدَّم في «البقرة»[٦]. وقيل: ما يُستخرج من حِلْيتِهِ ويُصادُ من حِيتَانه. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على ما آتاكم من فَضْلِه. وقيل: على ما أَنْجاكم مِن هَوْله.

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ تقدَّم في «آل عمران»[٧] وغيرِها. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تقدَّم في «لقمان»

---

(١) ذكره البخاري تعليقاً في: باب افتراش الحرير، فقال: وقال عبيدة: هو كَلُبْسِه. ووصله الحارث بن أبي أسامة من طريق محمد بن سيرين بلفظ المصنف، كما في الفتح ١٠/ ٩٢، ولم يخرجه النسائي، ولكن أخرجه من طريقه ابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٦٥.

(٢) صحيح البخاري (٣٨٠)، وصحيح مسلم (٦٥٨)، وهو عند أحمد (١٢٣٤٠).

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٧.

(٤) ١٢/ ٣٠٢.

(٥) ذكره مختصراً الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٦٧.

(٦) ٢/ ٤٩٧.

(٧) ٥/ ٨٥ - ٨٧.

بيانُه[(١)]. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ أي: هذا الذي مِن صُنْعِه ما تَقرَّرَ هو الخالقُ المدبِّر، والقادرُ المقتدرُ، فهو الذي يُعْبَد. ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني: الأصنامَ ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ أي: لا يقدرون عليه ولا على خَلْقِه. والقِطْميرُ: القِشْرةُ الرقيقةُ البيضاءُ التي بين التمرة والنواة؛ قاله أكثر المفسِّرين[(٢)]. وقال ابن عباس: هو شَقُّ النَّواةِ[(٣)]، وهو اختيارُ المبرِّد، وقاله قتادةُ. وعن قتادةَ أيضاً: القِطْميرُ: القِمْعُ الذي على رأس النواة[(٤)]. الجوهَرِيُّ[(٥)]: ويقال: هي النكتةُ البيضاءُ التي في ظَهْرِ النواةِ، تَنْبُتُ منها النخلة.

قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ أي: إنْ تستغيثوا بهم في النَّوائب لا يسمعوا دعاءَكم؛ لأنَّها جماداتٌ لا تُبصِرُ ولا تسمع. ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ إذ ليس كلُّ سامعٍ ناطقاً. وقال قتادةُ: المعنى: لو سَمِعوا لم ينفعوكم[(٦)]. وقيل: أي: لو جَعَلْنا لهم عقولاً وحياةً فسمعوا دعاءَكم لكانوا أطوعَ للهِ منكم، ولَمَا استجابوا لكم على الكفر.

---

(١) عند تفسير الآية (٢٩) منها.

(٢) ذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء وعطية العوفي والحسن وقتادة وغيرهم.

(٣) لم نقف عليه، وقد روي هذا القول عن ابن عباس في تفسير الفتيل، كما في معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٤٨، والدر المنثور ٢/ ١٧١، وعزاه السيوطي لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر، وروي عنه في معنى القطمير أنه القشر ـ وفي لفظ: الجلد ـ الذي يكون على ظهر النواة. تفسير الطبري ١٩/ ٣٤٩، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٤٨، والدر المنثور ٢/ ١٧١ و ٥/ ٢٤٨.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٥٠ من طريق جويبر عن بعض أصحابه، وأخرج عن قتادة أنه قال: القطمير: القشرة التي على رأس النواة.

(٥) في الصحاح (قطمر).

(٦) أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٣٥١.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي: يجحدون أنَّكم عَبَدْتُموهم، ويَتبرَّؤون منكم. ثم يجوزُ أن يرجع هذا إلى المعبودينَ ممَّا يَعْقِلُ، كالملائكة والجنِّ والأنبياءِ والشَّياطين، أي: يجحدون أن يكون ما فعلتُموه حقًّا، وأنَّهم أمروكم بعبادتهم، كما أخبر عن عيسى بقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]. ويجوزُ أن يندرج فيه الأصنامُ أيضاً، أي: يحُييها الله حتى تُخْبِرَ أنَّها ليست أهلاً للعبادة. ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ هو اللهُ جلَّ وعزَّ، أي: لا أحدَ أخْبَرُ بخلقِ اللهِ من الله، فلا ينبِّئك مثلُه في عمله[1].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: المحتاجون إليه في بقائكم وكلِّ أحْوالِكم. الزَّمخشريُّ: فإنْ قلتَ: لِمَ عرَّف «الفقراء؟» قلتُ: قَصَدَ بذلك أن يُريَهم أنَّهم لشدَّةِ افتقارِهم إليه هم جنسُ الفقراء، وإن كانت الخلائقُ كلُّهم مفتقرين إليه؛ من الناس وغيرِهم؛ لأنَّ الفقر ممَّا يَتبعُ الضَّعْفَ، وكلَّما كان الفقيرُ أضْعَفَ كان أفقرَ[2]؛ وقد شَهِدَ اللهُ سبحانه على الإنسان بالضَّعْفِ في قوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ ولو نَكَّر لكان المعنى: أنتم بعضُ الفقراء.

فإن قلت: قد قُوبِلَ «الفقراء» بـ «الغنيّ» فما فائدةُ «الحميد»؟

قلتُ: لمَّا أثبتَ فَقْرَهم إليه وغِناهُ عنهم، وليس كلُّ غنيٍّ نافعاً بغناه إلاَّ إذا كان الغنيُّ جواداً مُنْعِماً، وإذا جاد وأنْعمَ حَمِدَه المنْعَمُ عليهم واستحقَّ عليهم الحمدَ، ذَكَر «الحميد» ليدلَّ به على أنَّه الغنيُّ النافِعُ بغناه خَلْقَه، الجوادُ المنعمُ عليهم، المستحِقُّ بإنعامه عليهم أن يَحْمَدوه[3].

---

(١) في (خ) و (ز): علمه.

(٢) في (خ): أحقر.

(٣) الكشاف ٣/ ٣٠٤ - ٣٠٥.

وتخفيفُ الهمزةِ الثانيةِ أَجْوَدُ الوجوهِ عند الخليلِ، ويجوزُ تخفيفُ الأولى وحدَها[١]، وتخفيفُهما وتحقيقُهما جميعاً. ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ تكون «هو» زائدةً، فلا يكون لها موضعٌ من الإعراب، وتكون مبتدأةً فيكون موضعُها رفعاً[٢].

قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ فيه حذفٌ، المعنى: إنْ يشأْ [أن] يُذْهِبَكم يُذْهِبْكم[٣]، أي: يفنيكم. ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: أَطْوعَ منكم وأزْكَى. ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: ممتنعٍ عَسيرٍ مُتعذِّر. وقد مضى هذا في «إبراهيم»[٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

تقدَّم الكلامُ فيه[٥]، وهو مقطوعٌ ممَّا قَبْلَه. والأصلُ: «تَوْزِر» حُذفت الواوُ اتباعاً لِيَزِر. ﴿وَازِرَةٌ﴾ نعتٌ لمحذوفٍ، أي: نفسٌ وازِرةٌ. وكذا ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ قال الفرَّاء[٦]: أي: نفسٌ مُثْقَلةٌ، أو دابَّة. قال: وهذا يقع للمذكَّر والمؤنَّث. قال الأخفش[٧]: أي: وإنْ تَدْعُ مُثْقَلةٌ إنساناً إلى حِمْلِها، وهو ذنوبها. والحِمْلُ: ما كان

---

(١) في (د): وحذفها، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٨، وسهَّل الثانية كالياء وأبدلها واواً مكسورة: نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس، وحققها الباقون وأما تخفيف الأولى؛ فهو لحمزة وهشام عند الوقف حسب أصولهما فيه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٧-٣٦٨.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٨، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) ١٢/ ١٢٥.

(٥) ٩/ ١٤٥.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٣٦٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٨.

(٧) في معاني القرآن له ٢/ ٦٦٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٨.

على الظَّهْر، والحَمْل: حَمْلُ المرأةِ، وحَمْلُ النخلة؛ حكاهما الكسائيُّ بالفتح لا غير. وحَكَى ابن السِّكِّيت أنَّ حمل النخلة يُفتح ويُكسر.

﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ التقدير على قول الأخفش: ولو كان الإنسانُ المدعوُّ ذا قُرْبَى. وأجاز الفرَّاء: ولو كان ذو قُرْبَى. وهذا جائزٌ عند سيبويه، ومثلُه: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] فتكون «كان» بمعنى: وقع، أو يكون الخبرُ محذوفاً، أي: وإن كان فيمَن تطالبون ذو عسرة. وحكى سيبويه: الناسُ مَجْزِيُّونَ بأعمالهم إنْ خيرٌ فخيرٌ؛ على هذا، وخيراً فخيراً[١]؛ على الأوّل.

وروي عن عكرمةَ أنه قال: بلغني أنَّ اليهوديَّ والنَّصرانيَّ يرى الرجلَ المسلمَ يومَ القيامةِ فيقولُ له: ألم أكن قد أَسْديتُ إليك يداً، ألم أكن قد أَحْسنتُ إليك؟ فيقول: بلى. فيقول: انفعني؛ فلا يزالُ المسلم يسأل الله تعالى حتى يُنْقِصَ من عذابه. وأنَّ الرجل ليَأتي إلى أبيه يومَ القيامةِ فيقول: ألم أَكُنْ بك بارّاً، وعليك مُشْفِقاً، وإليك مُحْسِناً؟ وأنت ترى ما أنا فيه، فهَبْ لي حسنةً من حسناتك، أو احْمِلْ عنّي سيئةً، فيقول: إنَّ الذي سَأَلْتني يسيرٌ، ولكنِّي أخافُ مثلَ ما تَخاف. وأنَّ الأبَ ليقول لابنه مثلَ ذلك، فَيرُدُّ عليه نحواً من هذا. وأنَّ الرجل ليقول لزوجته: ألم أَكُنْ حَسَنَ[٢] العِشرة لكِ؟ فاحْمِلي عنّي خطيئةً لَعَلّي أنْجو، فتقول: إنَّ ذلك ليسيرٌ ولكنِّي أخاف ممَّا تخاف منه. ثم تلا عكرمة: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾[٣].

---

(١) في (د) و (م): وخيراً فخيرٌ، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس، وكلا الوجهين صحيح، والتقدير: إن كان الذي عَمِلَ خيراً جُزي خيراً، أو: إن كان الذي عَمِلَ خيراً فالذي يُجزى به خيرٌ. وإذا رفع الاثنين فالتقدير: إن كان في عمله خير فالذي يجزى به خير. ينظر الكتاب ١/ ٢٥٨-٢٦٠. وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٦٨. وقول الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٦٦٥.

(٢) في (د) و (م): أحسن.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٩، وأخرجه بنحوه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٨.

وقال الفُضيل بنُ عِياض: هي المرأةُ تَلْقَى ولدَها فتقول: يا ولدي، ألم يكن بطني لك وعاءً؟ ألم يكن ثديي لك سِقَاءً؟ ألم يكن حِجْري لك وِطَاءً؟ فيقول: بلى يا أمَّاه! فتقول: يا بنيَّ، قد أثقلتني ذنوبي فاحمِلْ عنِّي منها ذنباً واحداً، فيقول: إليكِ عنِّي يا أمَّاه، فإنِّي بذَنْبي عنكِ مشغول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: إنَّما يقبلُ إنذارَك مَن يخشى عقابَ الله تعالى، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١].

قوله تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: مَن اهتدَى فإنَّما يَهتدي لنفسه. وقُرئ: «ومَنِ ازَّكَّى فإنَّما يَزَّكَّى لِنفسِه»(١). ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: إليه مَرْجِعُ جميعِ الخَلْق.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: الكافرُ والمؤمنُ، والجاهلُ والعالم. مثل: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١٠٠]. ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ قال الأخفشُ سعيد(٢): «لا» زائدةٌ؛ والمعنى: ولا الظلماتُ والنور، ولا الظلُّ والحَرُور.

قال الأخفش: والحَرُورُ لا يكون إلا مع شمسِ النهار، والسَّمُوم يكون بالليل(٣)،

(١) المحرر الوجيز ٤/٣٠٦، والبحر ٧/٣٠٨ عن طلحة، وهي قراءة شاذة.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٩.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/٤١٩، وفيه: ... والسموم يكون بالليل والنهار، ولم نقف على هذا القول في معاني القرآن للأخفش.

وقيل بالعكس[١]. وقال رُؤْبةُ بنُ العجاج: الحَرُورُ يكونُ بالليل[٢] خاصةً، والسَّمُومُ يكون بالنهار[٣] خاصةً، حكاه المهدوِيُّ[٤]. وقال الفرَّاء: السَّمومُ لا يكونُ إلا بالنهار، والحرورُ يكونُ فيهما[٥]. النحاس[٦]: وهذا أصحُّ؛ لأنَّ الحَرُور فَعُولٌ من الحرِّ، وفيه معنى التكثير، أي: الحرّ المؤذي.

قلت: وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرةَ عن رسول الله ﷺ قال: «قالت النار: ربِّ أكلَ بَعْضِي بعضاً، فأْذَنْ لي أتَنفَّسْ، فأَذِنَ لها بنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ في الشِّتاءِ، ونَفَسٍ في الصيف، فما وجدتُم من بَرْدٍ أو زَمْهرِيرٍ فمِنْ نَفَسِ جهنَّمَ، وما وجدتُم من حَرٍّ أو حَرُورٍ فمِنْ نَفَسِ جهنَّم»[٧].

ورُوي من حديث الزُّهريِّ، عن سعيدٍ، عن أبي هريرة: «فما تَجِدون من الحرِّ فَمِنْ سَمُومِها، وشدَّةُ ما تَجِدون من البرد فمِن زَمْهَريرِها»[٨] وهذا يجمعُ تلك الأقوالَ، وأنَّ السَّمومَ والحَرُورَ يكون بالليل والنهار، فتأمَّلْه.

وقيل: المرادُ بالظلِّ والحَرُورِ: الجنة والنار، فالجنةُ ذاتُ ظلٍّ دائمٍ، كما قال

---

(١) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٩ فقال: وقيل: الحرور لا يكون إلا بالليل، والسموم يكون بالنهار.

(٢) في (د) و (م): بالنهار.

(٣) في النسخ: بالليل، والمثبت عن مجاز القرآن ٢/ ١٥٤، وتفسير الطبري ١٩/ ٣٥٦، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٥١، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٥، وزاد المسير ٦/ ٤٨٣.

(٤) بعدها في (ظ): وقال السموم في الليل.

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٣٠٨، والنكت والعيون ٤/ ٤٦٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٦، وزاد المسير ٦/ ٤٨٣، ولم نقف عليه في معاني القرآن له.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٩-٣٧٠.

(٧) صحيح مسلم (٦١٧): (١٨٧)، وهو عند أحمد (٧٧٢٢)، والبخاري (٥٣٧) و(٣٢٦٠).

(٨) أخرجه بنحوه بهذا الإسناد مرفوعاً أحمد (٧٢٤٧)، والبخاري (٥٣٧). وأخرجه بلفظ المصنف ابن ماجه (٤٣١٩) وابن عبد البر في التمهيد ٥/ ١٦-١٧ عن طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ.

تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، والنارُ ذات حَرُورٍ؛ قال معناه السُّدِّيُّ[١]. وقال ابن عباس: أي ظلُّ الليل، وحَرُّ السَّموم بالنهار. قُطرب: الحَرُورُ: الحرُّ، والظلُّ: البرد[٢].

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ قال ابن قُتيبة[٣]: الأحياءُ: العُقَلاء، والأموات: الجهَّال. قال قتادة: هذه كلُّها أمثالٌ، أي: كما لا تستوي هذه الأشياءُ كذلك لا يستوي الكافرُ والمؤمن[٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يُسمعُ أولياءَه الذين خلقَهم لجنَّته، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أي: الكفارَ الذين أمات الكفرُ قلوبَهم، أي: كما لا تُسمع مَن مات، كذلك لا تُسمع من مات قلبُه.

وقرأ الحسنُ وعيسى الثَّقفيُّ وعمرو بن ميمون: «بمسمِعِ مَن في القبورِ» بحذفِ التنوينِ تخفيفاً، أي: هم بمنزلةِ [أهلِ] القبورِ في أنَّهم لا ينتفعون بما يسمعونه ولا يَقْبَلونه[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾

أي: رسولٌ منذِرٌ، فليس عليك إلا التبليغ، ليس لك من الهُدَى شيءٌ، إنَّما الهُدَى بيد الله تبارك وتعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيراً بالجنة أهلَ طاعَتِه،

---

(١) ذكره عنه الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٦٩، وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٩.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٦٩، ولم نقف على خبر ابن عباس.

(٣) في تفسير غريب القرآن ص٣٦١.

(٤) الوسيط ٣/ ٥٠٤، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ١٣٥.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٠، وما سلف بين حاصرتين منه، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٢٣ عن علي ﷺ.

ونذيراً بالنار أهلَ معصيته. ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: سَلَف فيها نبيٌّ. قال ابن جُريج: إلا العرب[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يعني: كفار قريشٍ ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءَهم، يُسلِّي رسولَه ﷺ. ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزاتِ الظَّاهِراتِ والشرائعِ الواضحات. ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ أي: الكتب المكتوبة ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ أي: الواضح. وكرَّر الزُّبرَ والكتابَ وهما واحدٌ لاختلافِ اللفظين. وقيل: تَرجعُ البيناتُ والزبرُ والكتابُ إلى معنىً واحدٍ، وهو ما أنزل على الأنبياء من الكتب.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: كيف كانت عقوبتي لهم. وأثبت وَرْشٌ عن نافعٍ وشيبة الياءَ في «نكيري» حيث وقعت في الوَصْلِ دون الوَقْف. وأثبتَها يعقوب في الحالَيْن، وحَذَفَها الباقون في الحالين[٢]. وقد مضى هذا كلُّه، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هذه الرؤيةُ رؤيةُ القَلْبِ والعلمِ، أي: أَلَمْ ينتهِ علمُكَ ورأيتَ بقلبك أنَّ الله أنزل، فـ«أنَّ» واسمُها وخبرُها سَدَّت مَسَدَّ مفعولَيْ الرؤية.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٧٠.

(٢) التيسير ص١٨٣، والنشر ٢/ ٣٥٢.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾ هو من بابِ تلوينِ الخطاب. ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ نُصِبتْ «مُختَلِفاً» نعتاً لـ«ثَمَرَاتٍ»، «أَلْوَانُهَا» رفع بـ«مختلف». وصلح أن يكون نعتاً لـ«ثَمَرَات» لـمَا عاد عليه مِن ذِكْرِه. ويجوزُ في غيرِ القرآنِ رَفْعُه، ومِثْلُه: رأيتُ رجلاً خارجاً أبوه[1].

﴿بِهِۦ﴾ أي: بالماء وهو واحدٌ، والثمراتُ مختلفةٌ. ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ الجُدَدُ: جمعُ جُدَّة، وهي الطرائقُ المختلفةُ الألوان، وإنْ كان الجميعُ حجراً أو تراباً. قال الأخفش[2]: ولو كان جمعَ جديدٍ لقال: جُدُد ـ بضمِّ الجيمِ والدال ـ نحو: سَرير وسُرُر. وقال زهير:

كـأنـه أَسـفـعُ الـخـدَّيـن ذو جُـدَدٍ طـاوٍ ويـرتـعُ بـعـد الـصـيـفِ عُـريـانـا[3]

وقيل: إنَّ الجُدَدَ: القِطَع، مأخوذٌ من جددتُ الشيء: إذا قطعتَه؛ حكاه ابن بحر[4].

قال الجوهريُّ[5]: والجُدَّة: الخُطَّة التي في ظهر الحمارِ تُخالفُ لونَه. والجُدَّة: الطَّريقة، والجمعُ جُدَد؛ قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ أي: طرائقُ تُخالفُ لونَ الجبل. ومنه قولُهم: رَكِبَ فلانٌ جُدَّةً من الأمر: إذا رأى فيه رأياً. وكساءٌ مجدَّد: فيه خطوطٌ مختلفة.

الزمخشريُّ[6]: وقرأ الزُّهريُّ: «جُدُد» بالضم جمع جَدِيدة، وهي الجُدَّة؛ يقال:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٠ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٥ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٧٠ ، ولم نقف عليه في ديوان زهير. قوله: أسفع الخدين، قال ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/ ٢٧٢ : السفعة في الخد: كل لون يخالف سائر لونه.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٧٠ .

(٥) في الصحاح (جدد).

(٦) في الكشاف ٣/ ٣٠٧ .

جديدة وجُدُد وجَدَائد، كسفينة وسُفُن وسَفَائن. وقد فسّر بها قول أبي ذُؤيب:

جَـوْنُ الـسَّـرَاةِ لـه جَـدَائـدُ أربـعُ[١]

ورُوي عنه «جَدَد» بفتحتين، وهو الطريقُ الواضح المُسْفِر، وَضَعَه موضعَ الطرائقِ والخطوطِ الواضحةِ المنفصِلِ بعضُها من بعضٍ[٢].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ﴾ وقُرِئ: «والدوابِ» مخفَّفاً، ونظيرُ هذا التخفيفِ قراءةُ مَن قرأ: «وَلا الضَّأْلِّين»؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما فرَّ من التقاءِ الساكنَيْنِ، فحرَّك ذاك أوَّلهما، وحَذفَ هذا آخِرَهما؛ قاله الزمخشريُّ[٣].

﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: فيهم الأحمرُ والأبيضُ والأسودُ وغيرُ ذلك، وكلُّ ذلك دليلٌ على صانعٍ مُختارٍ، وقال: «مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ» فذكَّر الضميرَ مُراعاةً لـ«من»؛ قاله المُؤرِّج. وقال أبو بكر بن عياش: إنَّما ذكَّر الكنايةَ لأَجْلِ أنَّها مردودةٌ إلى «ما» مُضْمَرةٍ، مَجازُه: ومِن الناس ومن الدوابِّ ومن الأنعام ما هو مختلفٌ ألوانه، أي: أبيضُ وأحمرُ وأسود.

﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ قال أبو عبيدة[٤]: الغِربيبُ: الشديدُ السَّوادِ، ففي الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، والمعنى: ومن الجبال سودٌ غرابيبُ. والعربُ تقول للشديد السَّوادِ الذي لونُه كَلَوْنِ الغُراب: أسودُ غِربيبٌ.

---

(١) ديوان الهذليين ص٤، والخزانة ١/ ٤٢٠، وصدره: والدهر لا يبقى على حِدْثانه قال البغدادي: الحدثان بمعنى الحادثة، والسَّراة: أعلى الظهر. والجَوْن: الأسود المائل إلى الحمرة، أراد الحمار الوحشي. اهـ. والجدائد: الأُتُنُ التي لا ألبانَ لها، واحدها جَدود، بفتح الجيم. أو أنها الخطوط التي على ظهر الحمار ـ وهو المراد هنا ـ كما نقل المصنف عن الزمخشري أعلاه.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٧، والقراءتان في المحتسب ٢/ ١٩٩-٢٠٠، وقراءة «جَدَد» بفتح الجيم ذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢٣-١٢٤.

(٣) في الكشاف ٣/ ٣٠٧، وقراءة: «والدوابِ» بالتخفيف في المحتسب ٢/ ٢٠٠ عن الزهري. وقراءة: «الضألين» بالهمز في القراءات الشاذة ص١، والمحتسب ١/ ٤٦ عن أيوب السختياني.

(٤) بنحوه في مجاز اللغة ٢/ ١٥٤.

قال الجوهري[(١)]: وتقول: هذا أسودُ غِربيبٌ، أي: شديدُ السَّواد. وإذا قلتَ: غرابيبُ سودٌ، تَجعلُ السودَ بدلاً من غرابيبَ؛ لأنَّ تواكيدَ الألوانِ لا تَتقدَّم.

وفي الحديث عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ الله يُبغِضُ الشيخَ الغِرْبيبَ» يعني الذي يَخْضِبُ بالسَّواد[(٢)]. قال امرؤ القيس:

العينُ طامحةٌ واليَدُ سابحةٌ والرِّجلُ لافحةٌ والوجهُ غِرْبيبُ[(٣)]

وقال آخرُ يَصِفُ كَرْماً:

ومن تَعاجيبِ خَلْقِ اللهِ غاطِيَةٌ يُعصَرُ منها مُلاَحِيٌّ وغِرْبيبُ[(٤)]

﴿كَذَٰلِكَ﴾ هنا تمامُ الكلامِ[(٥)]، أي: كذلك تختلفُ أحوالُ العبادِ في الخشية، ثم اسْتَأنفَ فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ يعني بالعلماء: الذين يخافون قدرته، فَمَن عَلِم أنه عزَّ وجلَّ قديرٌ، أيْقنَ بمعاقبته على المعصية، كما رَوَى عليّ بن أبي طلحةَ عن ابن عباس: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ قال: الذين عَلِموا أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير[(٦)].

وقال الربيع بنُ أنس: مَن لم يَخْشَ الله تعالى فليس بعالِمٍ[(٧)].

---

(١) في الصحاح (غرب).

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٧٠. والحديث أخرجه ابن عدي ٣/ ١٠١٦، وفي إسناده رشدين بن سعد، قال فيه الحافظ في التقريب: ضعيف.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٧١، ورواية الديوان ص٢٢٦:

والعينُ قادِحةٌ واليدُ سابِحةٌ والرجلُ طامحةٌ واللونُ غربيبُ

قال شارح الديوان: قادحة: غائرة، واليد سابحة: إذا مدَّت يديها فكأنها تسبح، يريد السرعة (والكلام عن فرسه)، وقوله: طامحة، أي: سريعة الدفع. وقوله: غربيب، يريد السواد، يعني أنها دهماء.

(٤) أدب الكاتب ص٣٧٨، وجمهرة اللغة ٢/ ١٩١، واللسان (غطي). قال ابن دريد: كل شجرة منبسطة على الأرض فهي غاطية، يعني الكرم، وعنب مُلاَحي: إذا كان أبيض.

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٩٤.

(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٦٤.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٤٧١.

وقال مجاهد: إنَّما العالِمُ مَن خَشِيَ اللهَ عزَّ وجلَّ. وعن ابن مسعود: كَفَى بخشية الله تعالى عِلماً، وبالاغترار [به] جَهْلاً[١].

وقيل لسعد بن إبراهيم: مَن أفْقهُ أهل المدينة؟ قال: أتقاهُم لربِّه عزَّ وجلَّ[٢]. وعن مجاهدٍ قال: إنَّما الفقيهُ مَن يَخافُ الله عزَّ وجلَّ[٣]. وعن عليٍّ ﷺ قال: إنَّ الفقيه حقَّ الفقيهِ مَن لم يُقنِّط الناسَ من رحمة الله، ولم يُرخِّص لهم في معاصي اللهِ تعالى، ولم يؤمِّنْهم من عذابِ الله، ولم يَدَعِ القرآنَ رغبةً عنه إلى غيره؛ إنَّه لا خيرَ في عبادةٍ لا علمَ فيها، ولا عِلْمٍ لا فِقْهَ فيه، ولا قراءةٍ لا تَدَبُّر فيها[٤].

وأسند الدارميُّ أبو محمد عن مكحولٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ فَضْلَ العالِمِ على العابِدِ كفَضْلي على أدْناكُم». ثم تلا هذه الآيةَ: «﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ إنَّ الله وملائكتَه وأهلَ سماواتِه وأهلَ أرَضِيه والنونَ في البحر يُصلُّون على الذين يعلِّمون الناس الخير» الخبرُ مرسَل[٥].

قال الدارميُّ[٦]: وحدَّثني أبو النعمان، حدَّثنا حمَّاد بن زيد، عن يزيد بن حازم قال: حدثني عمِّي جرير بنُ زيد[٧] أنه سمع تُبَيْعاً يحدِّث عن كعبٍ قال: إنِّي لأجِدُ نعتَ قومٍ يتعلَّمون لغيرِ العمل، ويَتفقَّهون لغيرِ العبادة، ويطلبون الدنيا بعملِ الآخرَةِ،

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧١، وما بين حاصرتين منه، وقول ابن مسعود ﷺ أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٦)، وابن أبي شيبة ١٣/ ٢٩١. وسيرد تخريج قول مجاهد.

(٢) أخرجه الدارمي (٢٩٥).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٦٧، والدارمي (٢٩٦).

(٤) أخرجه الدارمي (٢٩٧) و(٢٩٨)، وابن الضريس في فضائل القرآن (٦٩)، والخطيب في الفقيه والمتفقه ٢/ ١٦٠-١٦١.

(٥) سنن الدارمي (٢٨٩)، وأخرجه الترمذي (٢٦٨٥) مرفوعاً من حديث أبي أمامة الباهلي ﷺ، وقال: هذا حديث غريب.

(٦) في سننه (٢٩٩).

(٧) في النسخ: يزيد، والمثبت من سنن الدارمي، وهو الصواب. وترجمته في تهذيب الكمال ٤/ ٥٣٢.

ويَلْبَسون جلودَ الضَّأنِ، قلوبُهم أمَرُّ من الصَّبر؛ فبي يغترُّون، وإياي يُخادِعون، فبي حلفتُ لَأُتيحَنَّ لهم فتنةً تَذَرُ الحليمَ فيهم حَيْرانَ. خرَّجه الترمذيُّ مرفوعاً من حديث أبي الدرداء، وقد كتبناه في مقدِّمة الكتاب[١].

الزمخشريُّ[٢]: فإن قلتَ: فما وجهُ قراءةِ مَن قرأ: «إنَّما يَخْشَى اللهُ» بالرفع «مِن عِبادِهِ العُلَمَاءَ» بالنصب، وهو عمر بنُ عبد العزيز، وتُحكى عن أبي حنيفةَ.

قلتُ: الخشيةُ في هذه القراءةِ استعارةٌ، والمعنى: إنَّما يُجِلُّهم ويُعظِّمُهم ـ كما يُجَلُّ المَهِيبُ المَخشِيُّ من الرجال بين الناسِ ـ من بين جميعِ عبادِه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليلٌ لوجوبِ الخشيةِ، لدلالته على عقوبةِ العُصَاةِ وقَهْرِهم، وإثابةِ أهلِ الطاعةِ والعفوِ عنهم. والمعاقِبُ والمُثيبُ حقُّه أن يُخْشَى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ هذه آيةُ القُرَّاءِ العامِلين العالِمينَ الذين يُقيمون الصَّلاةَ الفرضَ والنفلَ، وكذا في الإنفاق. وقد مضى في مقدِّمة الكتابِ ما ينبغي أن يتخلَّق به قارئُ القرآن[٣].

﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ قال أحمد بن يحيى: خبرُ «إنَّ»: «يرجون»[٤].

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ قيل: الزيادةُ: الشفاعةُ في الآخرة. وهذا مِثلُ الآيةِ الأُخرى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾

---

(١) ١/ ٣٥، ولم يخرجه الترمذي، وينظر الكلام على الحديث ثمة.

(٢) في الكشاف ٣/ ٣٠٨.

(٣) ١/ ٤٨ وما بعدها.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧١.

[النور:٣٧]، وقوله في آخرِ «النساء»: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [الآية:١٧٣] وهناك بيَّنَّاه. ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ للذنوب. ﴿شَكُورٌ﴾ يَقْبلُ القليلَ من العمل الخالص، ويُثيب عليه الجزيلَ من الثواب.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني القرآنَ ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾

فيه أربعُ مسائلَ:

الأولى: هذه الآيةُ مُشْكِلةٌ؛ لأنَّه قال جلَّ وعزَّ: ﴿ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ ثم قال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وقد تكلَّم العلماءُ فيها مِن الصحابة والتابعين ومَن بعدَهم. قال النحاس[1]: فَمِن أصحِّ ما رُوي في ذلك ما رُوي عن ابن عباس ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ قال: الكافر؛ رواه ابنُ عُيَيْنَةَ، عن عمرو بن دينار[2]، عن ابن عباس. وعن

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٧١.

(٢) بعدها في النسخ: عن عطاء، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، وكذلك أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٥، والبيهقي في البعث والنشور (٧٤)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وليس فيه: عن عطاء.

ابن عباس أيضاً: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ قال: نَجَتْ فرقتان[١]، ويكون التقدير في العربية: «فمِنهم» أي: مِن عبادنا «ظالمٌ لنفسه» أي: كافر ـ وقال الحسن: أي: فاسق ـ ويكون الضميرُ الذي في «يَدْخُلُونَهَا» يعود على المقتصِدِ والسابقِ لا على الظالم.

وعن عكرمةَ وقتادةَ والضحَّاكِ والفرَّاءِ أنَّ المقتصدَ: المؤمنُ العاصي، والسابق: التَّقيُّ على الإطلاق. قالوا: وهذه الآيةُ نظيرُ قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ الآية [الواقعة:٧]. قالوا: وبَعيدٌ أن يكون ممَّن يُصطَفَى ظالم[٢]. ورواه مجاهدٌ عن ابن عباس[٣]. قال مجاهد: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾: أصحاب المَشْأمة، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾: أصحاب المَيْمنة، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾: السابقون من الناس كلِّهم[٤].

وقيل: الضميرُ في «يَدْخُلُونَهَا» يعود على الثلاثةِ الأصناف، على ألاَّ يكون الظالمُ هاهنا كافراً ولا فاسقاً. وممَّن روي عنه هذا القولُ عمرُ وعثمانُ وأبو الدَّرْداءِ، وابنُ مسعودٍ وعقبةُ بن عمرو وعائشةُ، والتقديرُ على هذا القولِ: أن يكون الظالمُ لنفسه: الذي عَمِلَ الصغائر. والمقتصِدُ، قال محمد بن يزيد: هو الذي يعطي الدنيا حقَّها والآخرةَ حقَّها، فيكون «جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدخُلُونَها» عائداً على الجميع على هذا الشرح والتَّبيين[٥]. وروي عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ[٦].

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٧١ بنحوه، والكلام من إعراب القرآن للنحاس.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٩، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٦٩-٣٧٠، وأخرجه عن عكرمة وقتادة الطبري ١٩/ ٣٧١، ٣٧٢.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٧١ عن طريق عطية العوفي عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٧٢.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٢، وأخرجه عن عمر وعثمان رضي الله عنهما سعيد بن منصور (٢٣٠٨)، والبيهقي في البعث والنشور (٦٦)، وإسناده غير قوي كما ذكر في البيهقي، وخبر عمر ﷺ سيرد مرفوعاً من حديثه، وسيأتي الخبر عن أبي الدرداء وابن مسعود وعائشة ﷺ.

(٦) أخرجه أحمد (١١٧٤٥)، والترمذي (٣٢٢٥) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وقال ابن كثير عند هذه الآية: وفي إسناده مَن لم يُسَمَّ.

وقال كعب الأحبار: استَوَتْ مَنَاكِبُهم وربِّ الكعبة، وتفاضَلوا بأعمالهم. وقال أبو إسحاق السَّبيعيُّ: أمَّا الذي سمعت منذ ستين سنةً: فكلُّهم ناجٍ[١].

وروى أسامةُ بن زيد: أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ هذه الآية وقال: «كلُّهم في الجنة»[٢].

وقرأ عمر بن الخطاب هذه الآيةَ ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «سابِقُنا سابِقٌ، ومُقْتَصِدُنا ناجٍ، وظالمنا مغفورٌ له»[٣]. فعلى هذا القولِ يقدَّر مفعولُ الاصطفاءِ من قوله: ﴿أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ مضافاً حُذف كما حُذف المضافُ في ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف:٨٢] أي: اصْطَفَيْنا دينَهم، فبقي: اصْطَفَيْناهم، فحذف العائدُ إلى الموصول كما حُذف في قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ [هود:٣١] أي: تَزْدَريهم، فالاصطفاءُ إذاً موجَّهٌ إلى دِينهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ [البقرة:١٣٢].

قال النحاس[٤]: وقولٌ ثالثٌ: يكون الظالمُ صاحبَ الكبائر، والمقتصدُ الذي لم يَستحِقَّ الجنةَ بزيادةِ حسناته على سيئاته، فيكون: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ للذين سَبَقوا بالخيرات لا غير. وهذا قولُ جماعةٍ من أهلِ النَّظَرِ؛ لأنَّ الضمير ـ في حقيقةِ النَّظَرِ ـ لِمَا يليه أَوْلَى.

قلت: القولُ الوَسَطُ أَوْلاها وأصحُّها إن شاء الله؛ لأنَّ الكافر والمنافقَ لم

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٩، وأخرجهما الطبري ١٩/ ٣٧٠.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٩، وأخرجه بنحوه الطبراني في الكبير (٤١٠). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٦: فيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وهو سيِّئ الحفظ.

(٣) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (٦٥) عن طريق ميمون بن سياه عن عمر به، وهو منقطع كما ذكر البيهقي، وأخرجه العقيلي في الضعفاء ٣/ ٤٤٣، والبغوي ٣/ ٥٧١ من وجه آخر من طريق ميمون من سياه عن أبي عثمان النهدي عن عمر به، وفيه الفضل بن عميرة وهو ضعيف. ينظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٣٩. وذكر البغوي عن أبي قلابة قوله: فحدثت به يحيى بن معين فجعل يتعجب منه.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٢.

يُصْطفَوْا بحمد الله، ولا اصْطُفيَ دينُهم، وهذا قولُ ستةٍ من الصحابة، وحَسْبُك. وسَنَزِيدُه بياناً وإيضاحاً في باقي الآية.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: أَعْطينا. والميراثُ عطاءٌ حقيقةً أو مَجازاً؛ فإنَّه يقال فيما صار للإنسان بعد موتِ آخَرَ. و«الكتابَ» هاهنا يريد به معانيَ الكتابِ وعِلْمَه وأحكامَه وعقائدَه، وكأنَّ الله تعالى لمَّا أعْطى أمةَ محمدٍ ﷺ القرآنَ، وهو قد تضمَّنَ، معانيَ الكتبِ المنزلة، فكأنه وَرَّثَ أمَّةَ محمدٍ عليه الصلاة والسلام الكتابَ الذي كان في الأمم قَبْلَها[1].

﴿ٱصْطَفَيْنَا﴾ أي: اخْتَرْنا. واشتقاقُه من الصَّفْو، وهو الخلوصُ من شوائب الكَدَر. وأصلُه: اصْتفَوْنا، فأُبْدِلَت التاءُ طاءً والواوُ ياءً.

﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ قيل: المرادُ أمةُ محمدٍ ﷺ؛ قاله ابنُ عباسٍ وغيرُه. وكأن اللَّفظَ يَحْتَمِلُ جميعَ المؤمنين من كلِّ أمةٍ، إلاَّ أنَّ عبارةَ توريثِ الكتابِ لم تكن إلاَّ لأمةِ محمدٍ ﷺ، والأُوَلُ لم يَرِثُوه[2].

وقيل: المصطفَوْن الأنبياء، تَوَارَثوا الكتابَ، بمعنى: أنَّه انتقل عن[3] بعضهم إلى آخر، قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل:١٦]، وقال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم:٦]. فإذا جاز أن تكون النبوَّةُ موروثةً فكذلك الكتابُ، ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ مَن وَقَعَ في صغيرةٍ. قال ابن عطية[4]: وهذا قولٌ مردودٌ من غير ما وَجْهٍ.

قال الضحاك: معنى ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي: من ذرِّيَّتهم ظالمٌ لنفسه، وهو المُشْرِكُ. الحسن: من أُمَمِهم، على ما تقدَّم ذِكْرُه من الخلاف في الظالم. والآيةُ في أمَّةِ محمدٍ ﷺ.

---

(١) في النسخ عدا (ظ): قبلنا، والمثبت من (ظ) والمحرر الوجيز ٤/٤٣٨ ، والكلام منه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٤٣٨ ، وخبر ابن عباس أخرجه الطبري ١٩/٣٦٨ ، والبيهقي في البعث والنشور (٧٣).

(٣) في (ظ): من.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/٤٣٩ .

وقد اختلفت عبارات أربابِ القلوبِ في الظالم والمُقْتَصِدِ والسَّابِق، فقال سهل ابن عبد الله: السابِقُ العالم، والمقتصِدُ المتعلِّم، والظالمُ الجاهل.

وقال: ذو النون المصريُّ: الظالم الذَّاكِرُ اللهَ بلسانه فقط، والمقتصدُ الذاكرُ بقلبه، والسابقُ الذي لا ينساه.

وقال الأنطاكيُّ: الظالمُ صاحبُ الأقوال، والمقتصدُ صاحبُ الأفعال، والسابقُ صاحبُ الأحوال[١].

وقال ابن عطاء: الظالمُ الذي يحبُّ اللهَ من أَجْلِ الدنيا، والمقتصدُ الذي يحبُّه من أجل العُقْبَى، والسابقُ الذي أسقط مُرادَه بمراد الحقِّ[٢].

وقيل: الظالم الذي يعبدُ اللهَ خوفاً من النار، والمقتصد الذي يعبدُ الله طمعاً في الجنة، والسابقُ الذي يعبدُ الله لوجهه لا لسبب.

وقيل: الظالم الزاهدُ في الدنيا؛ لأنَّه ظلم نَفْسَه فترك لها حظّاً وهي المعرفةُ والمحبة، والمقتصِدُ العارِفُ، والسابقُ المحِبُّ.

وقيل: الظالمُ الذي يَجزعُ عند البلاء، والمقتصدُ الصابرُ على البلاء، والسابقُ المتلذِّذُ بالبلاء.

وقيل: الظالم الذي يعبدُ الله على الغَفْلةِ والعادة، والمقتصدُ الذي يعبدُه على الرَّغْبةِ والرَّهْبة، والسابقُ الذي يعبدُه على الهَيْبة.

وقيل: الظالمُ الذي أُعْطِيَ فمَنَعَ، والمقتصدُ الذي أُعْطِيَ فبذَل، والسابقُ الذي مُنع فشَكَر وآثَرَ.

ويروَى أنَّ عابِدَين التقيا، فقال: كيف حالُ إخوانِكم بالبَصرة؟ قال: بخير، إنْ أُعْطُوا شَكروا، وإن مُنعوا صبروا. فقال: هذه حالةُ الكلابِ عندنا ببَلْخٍ! عُبَّادُنا إنْ

(١) ذكر هذه الأقوال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٩ .

(٢) في (ظ): بمراد الله.

مُنِعوا شَكروا، وإن أُعطوا آثَروا(١).

وقيل: الظالمُ مَن استغنَى بماله، والمقتصدُ من استغنَى بدينه، والسابقُ مَن استغنَى بربِّه.

وقيل: الظالمُ التالي للقرآن ولا يعملُ به، والمقتصِدُ التالي للقرآن ويعملُ به، والسابقُ القارئُ للقرآن العاملُ به والعالِم به.

وقيل: السابقُ الذي يدخل المسجدَ قبل تأذين المؤذِّن، والمقتصدُ الذي يدخل المسجدَ وقد أذَّن، والظالم الذي يدخل المسجدَ وقد أُقيمت الصلاة؛ لأنه ظَلَم نفسَه الأجرَ فلم يحصِّل لها ما حصَّله غيرُه(٢).

وقال بعضُ أهلِ العلمِ في هذا: بل السابقُ الذي يدركُ الوقتَ والجماعةَ فيُدْرِكُ الفضيلتين، والمقتصد الذي إنْ فاتَتْه الجماعةُ لم يُفرِّط في الوقت، والظالمُ الغافِلُ عن الصلاة حتى يفوتَ الوقتُ والجماعةُ، فهو أَوْلَى بالظُّلم.

وقيل: الظالمُ الذي يحبُّ نفسَه، والمقتصدُ الذي يحبُّ دِينَه، والسابقُ الذي يحبُّ ربَّه.

وقيل: الظالمُ الذي ينتصِفُ ولا يُنصِفُ، والمقتصدُ الذي يَنتصِفُ ويُنصِفُ، والسابقُ الذي يُنصِفُ ولا ينتصِفُ.

وقالت عائشةُ رضي الله عنها: السابقُ الذي أسْلَم قبلَ الهجرة، والمقتصدُ مَن أسْلَم بعدَ الهجرة، والظالمُ مَن لم يُسْلِم إلَّا بالسيف، وهم كلُّهم مغفورٌ لهم(٣).

---

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية ٨/ ٣٧ عن إبراهيم بن أدهم وشقيق البلخي.

(٢) في (ظ): فلم يحصل له ما حصل لغيره.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٩ وعزاه للثعلبي، إلا أنه قال في آخره: والظالم نحن، بدل: والظالم من لم يسلم...، وأخرجه بنحوه الطيالسي (١٤٨٩)، والحاكم ٢/ ٤٢٦ وصححه، وتعقبه الذهبي بأن فيه الصلت بن دينار، قال النسائي: ليس بثقة، وقال أحمد: ليس بالقوي. وقولها رضي الله عنها: والظالم نحن، (كما في رواية ابن عطية، وبنحوه عند الطيالسي والحاكم) هو من باب التواضع =

قلت: ذكر هذه الأقوالَ وزيادةً عليها الثعلبيُّ في «تفسيره». وبالجملة فَهُمْ طَرَفانِ وواسِطَةٌ، وهو المقتصدُ الملازِمُ للقَصْدِ، وهو تَرْكُ الميل، ومنه قولُ جابر بن حُنَيٍّ التَّغْلبيِّ:

نُعاطي الملوكَ السِّلْمَ ما قَصَدُوا لنا وليس علينا قَتْلُهم بمحَرَّمِ[١]

أي: نُعاطيهم[٢] الصُّلْحَ ما ركبوا بنا القَصْدَ، أي: ما لم يجوروا، وليس قَتْلُهم بمحرَّمٍ علينا إنْ جاروا، فلذلك[٣] كان المقتصِدُ منزلةً بين المنزلتين، فهو فوقَ الظالمِ لنفسِه ودون السابقِ بالخيرات.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ يعني إتيانَنا[٤] الكتابَ لهم. وقيل: ذلك الاصطفاءُ مع عِلْمِنا بعيوبهم هو الفضلُ الكبير. وقيل: وعْدُ الجنةِ لهؤلاء الثلاثةِ فضلٌ كبير.

الثالثة: وتكلَّم الناسُ في تقديم الظالمِ على المقتصِدِ والسابِقِ؛ فقيل: التقديمُ في الذِّكر لا يقتضي تشريفاً، كقوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾ [الحشر: ٢٠].

وقيل: قدَّم الظالمَ لكثرةِ الفاسقين منهم وغَلَبَتِهم، وأنَّ المقتصدين قليلٌ بالإضافة إليهم، والسابقون أقلُّ من القليل؛ ذَكَره الزَّمخشري[٥]، ولم يَذْكُرْه غيرُه.

وقيل: قدَّم الظالم لتأكيدِ الرجاءِ في حقِّه؛ إذ ليس له شيءٌ يتَّكِلُ عليه إلاَّ رحمةُ

= كما ذكر ابن كثير في تفسيره، وقال: وهي من أكبر السابقين بالخيرات؛ لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام.

(١) المفضليات ص٢١١ ، ومنتهى الطلب ٤/ ٤٩ .

(٢) في (ظ): نعطيهم.

(٣) في (ظ): فكذلك.

(٤) في (ظ): ايتاؤنا.

(٥) في الكشاف ٣/ ٣٠٩ .

ربِّه. واتَّكَلَ المقتصدُ على حُسْنِ ظنِّه، والسابقُ على طاعته.

وقيل: قدَّم الظالمَ لئلاً ييئسَ من رحمة الله، وأخَّر السابقَ لئلَّا يُعجب بعمله.

وقال جعفر بنُ محمد بن عليٍّ الصادقُ ﷺ: قدَّم الظالمَ ليُخْبِرَ أنه لا يُتَقرَّبُ إليه إلا بصِرْفِ رحمته وكرمه، وأنَّ الظلم لا يؤثِّر في الاصطفائيةِ إذا كانت ثَمَّ عنايةٌ، ثم ثنَّى بالمقتصدينَ لأنَّهم بين الخوفِ والرجاء، ثم خَتَم بالسابقين لئلَّا يَأمنَ أحدٌ مَكْرَ الله، وكلُّهم في الجنة بحُرْمَةِ كلمةِ الإخلاص: لا إلهَ إلَّا اللهُ محمدٌ رسولُ اللهِ[١].

وقال محمد بن عليٍّ الترمذيُّ: جَمَعَهم في الاصطفاءِ إزالةً للعللِ عن العطاء؛ لأنَّ الاصطفاءَ يوجبُ الإرْثَ، لا الإرث يوجبُ الاصطفاءَ، ولذلك قيل في الحكمة: صحِّح النِّسْبةَ ثم ادَّعِ في الميراث[٢].

وقيل: أخَّر السابقَ ليكون أقربَ إلى الجناتِ والثواب، كما قدَّم الصوامعَ والبيَعَ في سورة الحج على المساجد، لتكون الصوامعُ أقربَ إلى الهدمِ والخراب، وتكون المساجدُ أقربَ إلى ذكر الله.

وقيل: إنَّ الملوك إذا أرادوا الجمعَ بين الأشياءِ بالذِّكْر[٣] قدَّموا الأدْنى؛ كقوله تعالى: ﴿لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف:١٦٧]، وقوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى:٤٩]، وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ﴾ [الحشر:٢٠].

قلت: ولقد أحْسَنَ مَن قال:

وغايةُ هذا الجودِ أنتَ وإنَّما يُوَافَى إلى الغاياتِ في آخِرِ الأمْرِ

الرابعة: قولُه: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ جَمَعَهم في الدخول لأنَّه ميراثٌ، والعاقُّ

---

(١) ذكره بنحوه البغوي ٣/ ٥٧٢.

(٢) في (ظ): ثم ادعى للميراث، وفي (خ) و (د) و (ز): ثم ادعى في الميراث، والمثبت من (م).

(٣) في (ظ): في الذكر.

والبارُّ في الميراثِ سواءٌ إذا كانوا مُعترِفينَ بالنَّسَب، فالعاصي والمطيعُ مُقِرُّون بالرَّبِّ.

وقرئ: «جَنَّةُ عَدْنٍ» على الإفراد، كأنَّها جنةٌ مُختصَّةٌ بالسابقين لقلَّتهم، على ما تقدَّم(١).

و«جَنَّاتِ عَدْنٍ» بالنصب على إضمارِ فعلٍ يفسِّرُه الظاهِرُ، أي: يَدخُلون جناتِ عَدْنٍ يَدْخُلونها(٢). وهذا للجميع، وهو الصحيحُ إن شاء الله تعالى.

وقرأ أبو عمرو: ﴿يُدْخَلونها﴾ بضمِّ الياءِ وفتح الخاء(٣). قال: لقوله: «يُحَلَّوْن». وقد مضى في «الحجّ» الكلامُ في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ قال أبو ثابت: دخل رجلٌ المسجدَ فقال: اللهمَّ ارْحَمْ غُرْبتي، وآنِسْ وَحْدتي، ويَسِّرْ لي جليساً صالحاً. فقال أبو الدَّرْداءِ: لئن كنتَ صادقاً فلأنَا أسْعَدُ بذلك منكَ، سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ قال: فيجيءُ هذا السابِقُ فيدخل الجنةَ بغير حساب، وأمَّا المقتصدُ فيُحاسَبُ حساباً يسيراً، وأمَّا الظالمُ لنفسِه فيُحبَس في المقام ويُوَبَّخ ويقرَّعُ، ثم يدخل الجنة، فهم الذين قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾(٤).

وفي لَفْظٍ آخر: «وأمَّا الذين ظلموا أنفسَهم فأولئك يُحبَسون في طولِ المَحْشَرِ،

---

(١) في المسألة السابقة، والقراءة في الكشاف ٣/ ٣٠٩، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٠ لزر ابنِ حُبَيْش.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٩ . والقراءة في القراءات الشاذة ص١٢٣ عن الجحدري.

(٣) السبعة ص٥٣٤ ، والتيسير ص١٨٢ .

(٤) أخرجه بنحوه أحمد (٢١٦٩٧)، والطبري ١٩/ ٣٧٥ ، والبغوي ٣/ ٥٧١ ، من طريق الأعمش عن أبي ثابت. وأبو ثابت ـ أو ثابت كما وقع على الشك عند أحمد ـ غير منسوب، وفي إسناد الحديث اختلاف على الأعمش.

ثم هم الذين يَتلافاهم[١] الله برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾»[٢].

وقيل: هو الذي يُؤخَذُ منه في مُقامه، يعني يُكفَّر عنه بما يُصيبُه من الهمِّ والحزن، ومنه قولُه تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] يعني: في الدنيا. قال الثعلبيُّ: وهذا التأويلُ أشْبهُ بالظاهر؛ لأنه قال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾، ولقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، والكافرُ والمنافقُ لم يُصْطَفَوْا.

قلت: وهذا هو الصحيحُ، وقد قال ﷺ: «ومَثلُ المنافقِ الذي يقرأ القرآنَ مَثَلُ الرَّيحانة، رِيحُها طيِّبٌ وطَعْمُها مرٌّ»[٣]. فأخبر أنَّ المنافق يقرؤُه، وأخبر الحقُّ سبحانه وتعالى أنَّ المنافق في الدَّرْكِ الأسفلِ من النار، وكثيرٌ من الكفارِ اليهودِ[٤] والنصارى يقرؤونه في زماننا هذا. وقال مالكٌ: قد يَقْرأُ القرآن مَن لا خيرَ فيه[٥]. والنَّصَب: التعب. واللُّغوب: الإعياء.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ لمَّا ذَكَر أهلَ الجنةِ وأحوالَهم ومَقالتَهم، ذَكَر أهلَ النارِ وأحوالَهم ومقالتَهم، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ مثل: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]. ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ مثل: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم

---

(١) في (م): يتلقاهم.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٧٢٧)، وفي إسناده انقطاع.

(٣) قطعة من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أخرجه البخاري (٥٠٥٩) ومسلم (٧٩٧)، وسلف ١/ ١٣ .

(٤) في (م): وكثير من الكفار واليهود، وفي (ظ): وكثير من اليهود.

(٥) سلف ٢/ ١٦٦ .

بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي: كافرٍ باللهِ ورسوله.

وقرأ الحسن: «فيموتون» بالنون، ولا يكونُ للنفي حينئذٍ جوابٌ، ويكون «فيموتون» عطفاً على «يُقْضَى»، تقديرُه: لا يُقضَى عليهم ولا يموتون[١]، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] قال الكسائيُّ: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ بالنون في المصحف لأنَّه رأسُ آيةٍ، و﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ [بغير نون] لأنه ليس رأسَ آيةٍ. ويجوزُ في كلٍّ واحدٍ منهما ما جاز في صاحبه[٢].

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أي: يستغيثون في النار بالصوت العالي. والصُّراخُ: الصوتُ العالي، والصارخُ: المستغيثُ، والمُصْرِخُ: المُغِيثُ؛ قال:

كـنَّـا إذا مـا أتـانـا صـارخٌ فَـزِعٌ ... كـان الـصـراخُ لـه قـرعَ الـظَّـنـابـيـبِ[٣]

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ أي: يقولون: ربَّنا أخرِجنا من جهنَّم، ورُدَّنا إلى الدنيا. ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ قال ابن عباس: نَقُلْ: لا إله إلا الله[٤]. وهو معنى[٥] قولهم: ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: من الشرك، أي: نؤمنُ بَدَلَ الكفر، ونطيعُ بدلَ المعصية، ونمتثلُ أمرَ الرُّسل.

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ هذا جوابُ دعائِهم، أي: فيقالُ لهم، فالقولُ مضمَر. وترجم البخاريُّ: بابُ مَن بَلَغ ستِّين سنةً فقد أَعْذَرَ اللهُ إليه في العمر،

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٠٢، قال ابن جني: والمفعول محذوف، أي: لا يقضى عليهم الموت.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٧، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) البيت لسلامة بن جندل، وهو في ديوانه ص١٢٥، والصحاح (ظنب). قال الجوهري: الظُّنْبوب: العظم اليابس من قدم الساق، عنى به سرعة الإجابة، وجعل قرع السوط على ساق الخفِّ في زجر الفرس قرعاً للظُّنبوب. وقال الأصمعي في شرح الديوان: يقال: ضَرب لهذا الأمر ظنبوبه: إذا هو جَدَّ فيه.

(٤) الوسيط ٣/ ٥٠٦.

(٥) في (د) و (ظ): ومعنى، بدل: وهو معنى.

لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ يعني الشيب. حدَّثنا عبد السلام بن مُطَهَّر قال: حدَّثنا عمر بنُ علي قال: حدَّثنا مَعْن بنُ محمد الغِفاريُّ، عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُرِيِّ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «أعْذَرَ اللهُ إلى امرئٍ أَخَّرَ أجَلَه حتى بلَّغه ستِّين سنةً»[١].

قال الخَطَّابيّ[٢]: أعْذَرَ إليه، أي: بلَغ به أقْصَى العُذْرِ، ومنه قولُهم: قد أعْذَرَ مَن أنْذَر، أي: أقام عُذْرَ نَفْسِه في تقديم نِذارتِه. والمعنى: أنَّ مَن عمَّره الله ستِّين سنةً لم يَبْقَ له عذرٌ؛ لأنَّ الستِّين قريبٌ من مُعترَكِ المنايا، وهو سنُّ الإنابةِ والخشوعِ، وترقُّبِ المنيَّة ولقاءِ الله تعالى، ففيه إعذارٌ بعد إعذار[٣]، الأوّلُ بالنبيِّ ﷺ، والمُوْتان[٤] في الأربعين والستين[٥]. قال عليٌّ وابن عباس وأبو هريرةَ في تأويلِ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾: إنَّه سِتُّون سنة[٦]. وقد روي عن النبيِّ ﷺ أنه قال في موعظته: «ولقد أبْلَغَ في الإعذارِ مَن تقدَّم في الإنذار، وإنه لينادي مُنادٍ من قِبَلِ الله تعالى أبناءَ الستين: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾»[٧].

---

(١) صحيح البخاري (٦٤١٩)، وهو عند أحمد (٧٧١٣)، وقوله: يعني الشيب، هو في بعض روايات البخاري دون بعض كما ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ٢٣٩ .

(٢) بنحوه في غريب الحديث له ٢/ ٣٥٩ .

(٣) في (د): إنذار، وفي (ظ): إنذاره.

(٤) أي: الموت الكثير الوقوع. معجم متن اللغة (موت). ووقع في (ز) و(ظ): والمرتان، بدل: والموتان وينظر التعليق التالي.

(٥) سلف نحو هذا الكلام ٩/ ٣٢٢ ، وفيه: ففيه إعذار بعد إعذار، الأول بالنبي ﷺ، والثاني بالشيب، وذلك عند كمال الأربعين.

(٦) أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما عبد الرزاق ٢/ ١٣٨ ، والطبري ١٩/ ٣٨٥ . وأخرجه عن علي ﷺ الطبري ١٩/ ٣٨٦ .أما أبو هريرة ﷺ فقد سلف الحديث عنه مرفوعاً: «أعذر الله إلى امرئ...» وقد أخرجه بنحوه الرامهرمزي في الأمثال ص٩٨ وزاد بعده: يريد: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾.

(٧) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وروي نحوه عن ابن عباس على ما يأتي.

وذكر الترمذيُّ الحكيم من حديثِ عطاء بنِ أبي رَباح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يومُ القيامةِ نُوديَ أبناءُ الستِّين، وهو العمرُ الذي قال الله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾»[١].

وعن ابن عباس أيضاً: أنه أربعون سنةً. وعن الحسن البصريِّ ومسروقٍ مثلُه[٢]. ولهذا القولِ أيضاً وجهٌ، وهو صحيحٌ؛ والحجةُ له قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ الآية [الأحقاف: ١٥]. ففي الأربعين تَنَاهي العقلِ، وما قبلَ ذلك وما بعدَه مُنْتقِصٌ عنه، والله أعلم.

وقال مالك: أدركتُ أهلَ العلمِ ببلدنا وهم يطلبون الدنيا والعلمَ ويُخالِطون الناسَ، حتى يأتيَ لأحدهم أربعون سنةً، فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناسَ واشتغلوا بالقيامة حتى يأتيَهم الموتُ. وقد مضى هذا المعنى في سورة الأعراف[٣].

وخرَّج ابن ماجه عن أبي هريرةَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أعمارُ أمَّتي ما بين الستِّين إلى السبعين، وأَقلُّهم مَن يُجاوِزُ ذلك»[٤].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾، وقرئ: «وجاءتكم النُّذُرُ»[٥] واخْتُلفَ فيه؛ فقيل: القرآن. وقيل: الرسول؛ قاله زيد بنُ عليٍّ وابن زيد[٦]. وقال ابنُ عباس وعكرمةُ وسفيان ووكِيعٌ والحسين بن الفضل والفرَّاء والطبريُّ: هو الشيب[٧].

---

(١) نوادر الأصول ص١٧٧، وأخرجه الطبري ١٩/ ٣٨٥، والطبراني في الكبير (١١٤١٥)، وفي إسناده إبراهيم بن الفضل، قال الحافظ في التقريب: متروك.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٨٤ عن ابن عباس ومسروق. وذكره عن الحسن البغوي ٣/ ٥٧٣.

(٣) ٩/ ٣٢٢.

(٤) سنن ابن ماجه (٤٢٣٦)، وسلف ٥/ ٢١٨.

(٥) الكشاف ٣/ ٣١١.

(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٨٧ عن ابن زيد.

(٧) أخرجه عن ابن عباس البيهقي ٣/ ٣٧٠، وسلف ٩/ ٣٢٢، وذكره عن عكرمة وسفيان ووكيع البغويُّ =

وقيل: النذيرُ الحُمَّى. وقيل: موتُ الأهلِ والأقارب. وقيل: كمالُ العقلِ[١]. والنذير بمعنى الإنذار.

قلت: فالشيبُ والحُمَّى وموتُ الأهلِ كلُّه إنذارٌ بالموت؛ قال ﷺ: «الحُمَّى رائدُ الموت»[٢]. قال الأزهريُّ: معناه: أنَّ الحمَّى رسولُ الموت[٣]، أي: كأنَّها تُشعِرُ بقدومه وتُنْذرُ بمجيئه. والشيبُ نذيرٌ أيضاً؛ لأنه يأتي في سنِّ الاكتهال، وهو علامةٌ لمفارقةِ سنِّ الصِّبَا الذي هو سِنُّ اللَّهوِ واللَّعِب، قال:

رأيتُ الشيبَ من نُذُرِ المنايا ... لصاحبه وحَسْبُك مِن نذيرِ

وقال آخرُ:

فقلتُ لها المَشيبُ نذيرُ عمري ... ولستُ مُسَوِّداً وَجْهَ النَّذيرِ[٤]

وأمَّا موتُ الأهلِ والأقاربِ والأصحابِ والإخوانِ؛ فإنذارٌ بالرحيل في كلِّ وقتٍ وأوَان، وحينٍ وزمان، قال:

وأراكَ تحملُهم ولستَ تَرُدُّهم ... فكأنَّني بك قد حُمِلتَ فلم تُرَدّ

وقال آخرُ:

الموتُ في كلِّ حينٍ ينشُر الكَفَنَا ... ونحن في غفلةٍ عمَّا يُرادُ بنا[٥]

= ٣/ ٥٧٣ . وذكره عن الفراء والطبري الماورديُّ في النكت والعيون ٤/ ٤٧٦ ، وسلف في ترجمة عند البخاري قريباً.

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٧٦ .

(٢) قطعة من حديث أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة ٢/ ١٦٤ ، والطبراني كما في مجمع الزوائد ٥/ ٩٤-٩٥ من حديث عبد الرحمن بن المرقع ﷺ. قال الهيثمي: فيه المحبر بن هارون، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. اهـ. وأخرجه البيهقي في الشعب (٩٨٧٠) عن الحسن مرسلاً.

(٣) تهذيب اللغة ١٤/ ١٦٣ .

(٤) نسبه المبرِّد في الكامل ٢/ ٧٠٣ للعُتْبي، وهو بلا نسبة في عيون الأخبار ٤/ ٥١ ، والعقد الفريد ٣/ ٥١ .

(٥) البيت لمحمد بن عبد الله بن عيسى المعروف بابن أبي زمنين، كما في جذوة المقتبس ص٥٧ ، والصلة لابن بشكوال ص ٤٨٤ .

وأمَّا كمالُ العقلِ فبِهِ تُعرفُ حقائقُ الأمور، ويُفْصَلُ بين الحسناتِ والسيئات، فالعاقلُ يَعملُ لآخِرته ويَرغَبُ فيما عندَ ربِّه، فهو نذير.

وأمَّا محمدٌ ﷺ فبعثَه الله بشيراً ونذيراً إلى عباده قَطْعاً لحججهم؛ قال الله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥] وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ﴾ يريدُ عذابَ جهنَّم؛ لأنَّكم ما اعتبرتُم ولا اتَّعظْتُم[١].

﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي: مانعٍ من عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾

تقدَّم معناه في غير موضع. والمعنى: عَلِمَ أنه لو ردَّكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحاً، كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]. و﴿عَٰلِمُ﴾ إذا كان بغيرِ تنوينٍ صلح أن يكون للماضي والمستقبل [والحال]، وإذا كان منوَّناً لم يَجُزْ أن يكون للماضي[٢].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ قال قتادةُ: خَلَفاً بعد خَلَفٍ، وقَرْناً بعد قرن[٣]. والخَلَفُ هو التالي للمتقدِّم، ولذلك قيل لأبي بكر: يا خليفةَ الله، فقال: لستُ بخليفةِ الله، ولكنِّي خليفةُ رسولِ الله ﷺ، وأنا راضٍ بذلك[٤].

---

(١) في (ظ): ما آمنتم ولا أطعتم.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٥ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٧٧ ، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٧ ، والطبري ١٩/ ٣٨٨-٣٨٩ .

(٤) أخرجه أحمد (٥٩) من طريق ابن أبي مليكة قال: قيل: لأبي بكر...، وابن أبي مليكة لم يدرك أبا بكر ﷺ.

﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: جزاءُ كُفرِه، وهو العقابُ والعذاب. ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أي: بغضاً وغضباً. ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: هلاكاً وضلالاً.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ «شركاءَكم» منصوبٌ بالرؤية، ولا يجوزُ رَفْعُه، وقد يجوز الرفعُ عند سيبويه في قولهم: قد علمتُ زيداً أبو مَن هو؟ لأنَّ زيداً في المعنى مُسْتَفهَمٌ عنه. ولو قلتَ: أرأيتَ زيداً أبو مَن هو؟ لم يَجُزِ الرفعُ. والفرقُ بينهما أنَّ معنى هذا: أخْبِرني عنه، وكذا معنى هذا: أخْبِروني عن شركائكم الذين تَدْعون من دون الله، أعَبَدْتُموهم لأنَّ لهم شَرِكَةً في خَلْقِ السماوات، أم خَلَقوا من الأرض شيئاً؟! ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ أي: أم عندَهم كتابٌ أنزلناه إليهم بالشَّرِكَة. وكان في هذا رَدٌّ على مَن عَبَدَ غيرَ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّهم لا يجدون في كتابٍ من الكتب أنَّ الله عزَّ وجلَّ أَمر أن يُعْبَد غيرُه[1].

﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزةُ وحفصٌ عن عاصم: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾ بالتوحيد، وجَمَعَ الباقون[2]. والمَعْنَيان مُتقاربان إلَّا أنَّ قراءةَ الجمع أَوْلَى؛ لأنَّه لا يخلو مَن قرأه: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾ من أن يكون خالَفَ السوادَ الأعظمَ، أو يكون جاء به على لغةِ مَن قال: جاءني طلحت[3]، فوقف بالتاء، وهذه لغةٌ شاذَّةٌ قليلة؛

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٥-٣٧٦ .

(٢) السبعة ص٥٣٥، والتيسير ص١٨٢ .

(٣) في (د) و (ظ): طلحة. وهو موافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٦ والكلام منه.

قاله النحاس[١].

وقال أبو حاتم وأبو عبيد: الجمعُ أَوْلَى لموافقته الخطَّ، لأنَّها في مصحفِ عثمانَ: «بيِّناتٍ» بالألف والتاء.

﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: أباطيلَ تَغرُّ، وهو قولُ السادةِ للسِّفْلة: إنَّ هذه الآلهةَ تَنْفعُكم وتقرِّبكم. وقيل: إنَّ الشيطان يَعِدُ المشركين ذلك. وقيل: وَعَدَهم بأنَّهم يُنصَرون عليهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ لمَّا بيَّنَ أنَّ آلهتَهم لا تَقْدِرُ على خَلْقِ شيءٍ من السماوات والأرض بيَّن أنَّ خالقَهما ومُمْسِكَهما هو الله، فلا يوجد حادثٌ إلَّا بإيجاده، ولا يبقى إلَّا ببقائه. و«أنَّ» في موضعِ نصبٍ بمعنى: كراهةَ أنْ تَزولا، أو لئلَّا تزولا، أو يُحملُ على المعنى؛ لأنَّ المعنى: إنَّ الله يَمنعُ السماواتِ والأرضَ مِن[٢] أنْ تزولا، فلا حاجةَ على هذا إلى إضمارٍ، وهذا قولُ الزجَّاج[٣].

﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ قال الفرَّاء[٤]: أي: ولو زالتا ما أمسكهما مِن أحدٍ، و«إنْ» بمعنى ما. قال: وهو مثلُ قوله: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ [الروم: ٥١]. وقيل: المرادُ زوالُهما يومَ القيامة[٥].

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٦.

(٢) قوله: من، من (ظ)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧٣، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٦، والكلام منه.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٢٧٣.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٣٧٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٦.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧٣-٢٧٤.

وعن إبراهيمَ قال: دخل رجلٌ من أصحاب ابنِ مسعودٍ إلى كعب الأحبارِ يتعلَّم منه العلمَ، فلمَّا رجع قال له ابن مسعود: ما الذي أصبتَ من كعب؟ قال: سمعتُ كعباً يقول: إنَّ السماء تدورُ على قُطْبٍ مثلِ قُطْبِ الرَّحى، في عمودٍ على منكبِ مَلَكٍ، فقال له عبد الله: وددتُ أنك انقلبتَ براحلتك ورَحْلِها، كَذَبَ كعبٌ، ما ترك يهوديَّته! إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ إنَّ السماواتِ لا تدورُ، ولو كانت تدورُ لكانت قد زالت(١).

وعن ابن عباس نحوُه، وأنه قال لرجلٍ مُقْبِلٍ من الشام: مَن لَقِيتَ به؟ قال: كعباً. قال: وما سمعتَه يقول؟ قال: سمعتُه يقول: إنَّ السماوات على منكبِ مَلَكٍ. قال: كَذَبَ كعب، أمَا ترك يهوديَّته بعدُ! إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾(٢).

والسماواتُ سبعٌ والأرضونَ سبعٌ، ولكنْ لمَّا ذكَّرهما أجراهما مجرى شيئين، فعادت الكنايةُ إليهما، وهو كقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ثم ختم الآيةَ بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ لأنَّ المعنى فيما ذكره بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ الله يمسكُ السماواتِ والأرضَ أنْ تزولا مِن كُفْرِ الكافرين، وقولِهم: اتَّخذ الله ولداً. قال الكلبيُّ: لمَّا قالت اليهودُ: عزيرٌ ابنُ اللهِ، وقالت النصارى المسيحُ ابنُ الله، كادت السماواتُ والأرضُ أنْ تزولا عن أمكنتهما، فمنعهما الله، وأنزل هذه الآية فيه، وهو كقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا . تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾ الآية [مريم: ٨٩-٩٠].

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٣٩٢، وأخرجه أيضاً ١٩/ ٣٩١ من طريق أبي وائل عن ابن مسعود ﵁.

(٢) الكشاف ٣/ ٣١٢.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ هم قريشٌ؛ أقسموا قبل أنْ يبعث الله رسولَه محمداً ﷺ، حين بَلَغهم أنَّ أهلَ الكتابِ كذَّبوا رسلَهم، فلَعنوا مَن كذَّب نبيَّه منهم، وأقسموا بالله جلَّ اسمُه: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: نبيٌّ ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ يعني ممَّن كذَّب الرسلَ من أهلِ الكتاب[(١)].

وكانت العربُ تتمنَّى أن يكون منهم رسولٌ كما كانت الرسلُ من بني إسرائيلَ، فلمَّا جاءهم ما تَمنَّوْه ـ وهو النذيرُ من أنفسهم ـ نَفَروا عنه ولم يؤمنوا به.

﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ أي: عُتُوًّا عن الإيمان ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ أي: مَكْرَ العملِ السيِّئ، وهو الكفرُ وخَدْعُ الضعفاء، وصدُّهم عن الإيمان ليكثُر أتباعُهم. وأنَّث «مِن إحدى الأمم» لتأنيثِ أُمَّة؛ قاله الأخفش[(٢)].

وقرأ حمزةُ والأعمش: ﴿ومكرَ السيِّئْ ولا يَحيق المَكْرُ السيئُ﴾[(٣)] فحذف الإعرابَ من الأول وأثبته في الثاني. قال الزجَّاج: وهو لحن[(٤)]، وإنَّما صار لحناً لأنَّه حَذَفَ الإعراب منه. وزعم المبرِّدُ أنه لا يجوزُ في كلامٍ ولا في شعر؛ لأنَّ حركاتِ الإعرابِ لا يجوز حَذْفُها، لأنها دخلت للفرق بين المعاني. وقد أَعْظَم بعضُ النحويين أن يكون الأعمشُ على جلالته ومحلِّه يقرأ بهذا، وقال: إنَّما كان يقف عليه، فغلط

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٧٨ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٧ .

(٣) السبعة ص٥٣٥-٥٣٦، والتيسير ص١٨٢ ، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٧ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧٥ ، ونقله المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٧ ، وما سيأتي هو من كلام النحاس.

مَن أدّى[١] عنه، قال: والدليلُ على هذا أنه تمامُ الكلامِ، وأنَّ الثاني لمَّا لم يكن تمامَ الكلامِ أُعرِبَ باتِّفاق، والحركةُ في الثاني أَثْقَلُ منها في الأوّل لأنها ضمةٌ بين كسرتين. وقد احتجَّ بعض النحويين لحمزةَ في هذا بقولِ سيبويه، وأنه أنشد هو وغيرُه:

إذا اعْـوَجَـجْـنَ قـلـتُ صـاحِـبْ قَـوِّمِ[٢]

وقال الآخر:

فـالـيـومَ أشْـرَبْ غـيـرَ مُـسْـتَـحْـقِـبٍ إثْـمـاً مِـنَ الـلـهِ ولا واغِـلِ[٣]

وهذا لا حجةَ فيه؛ لأنَّ سيبويه لم يُجِزْه، وإنَّما حكاه عن بعض النحويين، والحديثُ إذا قيل فيه عن بعض العلماء لم يكن فيه حجةٌ، فكيف وإنَّما جاء به على الشُّذوذِ ولضرورةِ الشعر. وقد خُولفَ فيه، وزعم الزجَّاج أنَّ أبا العباس أنشده:

إذا اعْـوَجَـجْـنَ قـلـتُ صـاحِ قَـوِّمِ

وأنه أنشد:

فـالـيـومَ فـاشْـرَبْ[٤] غـيـرَ مُـسْـتَـحْـقِـبٍ

ذَكَر جميعَه النحاس[٥].

الزمخشريُّ: وقرأ حمزةُ: «ومكر السيِّءْ» بسكون الهمزة، وذلك لاستثقاله الحركات [مع الياء والهمزة]، ولعله اخْتَلَسَ فظُنَّ سكوناً، أو وَقَفَ وقفةً خفيفةً ثم

---

(١) في (د): ادعى.

(٢) الكتاب ٤/ ٢٠٣ ، وسلف ٢/ ١١٢ ، وعجزه: بالدَّوِّ أمثالَ السَّفينِ العُوَّمِ.

(٣) الكتاب ٤/ ٢٠٤ ، والبيت لامرئ القيس، وسلف ٢/ ١١٢ ، وجاء في رواية الأصمعي للديوان ص١٢٢ : فاليوم أسقى. وفي رواية الطوسي ص٢٥٨ : فاليوم فاشرب، وستأتي.

(٤) في النسخ: اشرب، والمثبت من معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧٥ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٨ والكلام منه، قال النحاس: فاليوم فاشرب بالفاء. اهـ. وهذا موافق لرواية الطوسي للديوان ص٢٥٨ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٧-٣٧٨ ، ووقع في (د) و (م) قبل قوله ذكر جميعه النحاس: بوصل الألف على الأمر.

ابتدأ: «ولا يحِيق». وقرأ ابن مسعود: «ومَكْراً سيئاً»[١].

وقال المهدويُّ: ومَن سكَّن الهمزةَ من قوله: «ومكر السيِّئ» فهو على تقدير الوقفِ عليه، ثم أجرى الوصلَ مُجرى الوقفِ، أو على أنه أَسكن الهمزةَ لتَوالي الكَسْراتِ[٢] والياءات، كما قال:

فـاليـومَ أشربْ غيـرَ مستحقـبٍ

قال القُشَيريُّ: وقرأ حمزة: «ومكر السيِّئْ» بسكون الهمزة، وخطَّأه أقوامٌ. وقال قومٌ: لعله وقف عليه لأنه تمامُ الكلام، فغَلِطَ الراوي ورَوَى ذلك عنه في الإدراج.

وقد سبق الكلامُ في أمثالِ هذا، وقلنا: ما ثبت بالاستفاضةِ أو التواتُرِ أنَّ النبيَّ ﷺ قرأه فلابدَّ من جوازِه، ولا يجوزُ أن يقال: إنه لحنٌ[٣]. ولعلَّ مُرادَ مَن صار إلى التخطئةِ أنَّ غيره أفصحُ منه، وإنْ كان هو فصيحاً.

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ أي: لا تَنْزلُ عاقبةُ الشركِ إلاَّ بمَن أَشْرَكَ. وقيل: هذا إشارةٌ إلى قتلهم ببدر.

وقال الشاعر:

وقد دفعوا المنيةَ فاستقلَّتْ ... ذراعاً بعد ما كانت تحيقُ[٤]

---

(١) الكشاف ٣/ ٣١٢ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وقراءة ابن مسعود في المحتسب ٢/ ٢٠٢ .

(٢) في (ظ): الحركات.

(٣) ينظر ص١٤٠ من هذا الجزء.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٧٩ ، والبيتُ للمفضَّل النُّكْري كما في الأصمعيات ص٢٠٠ ، والمعاني الكبير ٢/ ٩٤٥ ، ومنتهى الطلب ٨/ ٢٣٩ ، ونسبه الأخفش في الاختيارين ص٢٤٥ لعامر بن معشر. وذكر السيوطي في شرح شواهد المغني ١/ ١٧١ أن المفضل هو عارم بن معشر، وإنما سمي مفضلاً لهذه القصيدة. ووقع في المصادر: وهم، بدل: وقد. ودراكاً: بدل: ذراعاً. وفي بعضها: رفعوا، بدل: دفعوا. وكادت، بدل: كانت. قال الأخفش: المنية: الحرب، ويروى: رفعوا، بالراء، أي: رفعوا الراية، وتحتها الموت. دراكاً، أي: مُدارَكة.

أي: تنزل، وهذا قولُ قُطْرُب. وقال الكلبيُّ: «يَحيق» بمعنى يُحيط[1]. والحَوْق: الإحاطة، يقال: حاق به كذا، أي: أحاط به.

وعن ابن عباس أنَّ كعباً قال له: إنِّي أَجِدُ في التوراة: مَن حَفَر لأخيه حُفرةً وقع فيها. فقال ابن عباس: فإنِّي أوجِدُكَ في القرآن ذلك. قال: وأين؟ قال: فاقرأ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[2]. وفي أمثالِ العرب: مَن حفَر لأخيه جُبًّا وقَعَ فيه مُنْكَبًّا[3].

وروى الزُّهريُّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تَمْكُرْ ولا تُعِنْ ماكراً؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، ولا تَبْغِ ولا تُعِنْ باغياً؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣]»[4]. وقال بعضُ الحكماء:

يا أيها الظالمُ في فِعْلِهِ والظُّلْمُ مَردودٌ على مَن ظَلَمْ
إلى متى أنت وحتَّى متى تُحصي المُصيباتِ وتَنسى النِّعمْ[5]

وفي الحديث: «المكرُ والخديعةُ في النار»[6]. فقولُه: «في النار» يعني: في

(١) ذكر القولين الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٧٩ .

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣١٢ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٣ .

(٣) المستقصى ٢/ ٣٥٤ ، والكشاف ٣/ ٣١٢ .

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٧٢٥)، وفيه: ولا تَبْغِ ولا تُعِنْ باغياً؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾، ولا تنكُث ولا تُعِنْ ناكثاً؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾. وهو مرسل.

(٥) البيتان لمحمود الوراق كما في الشعب للبيهقي (٤٦٣٠)، والتدوين في أخبار قزوين ١/ ٥٠٠ ، ووقع في (م): المصائب، بدل: المصيبات. وفي المصادر: تشكو، بدل: تحصي.

(٦) أخرجه ابن حبان (٥٦٧) والطبراني في الكبير (١٠٢٣٤) من حديث ابن مسعود ﷺ. وأخرجه الحاكم ٤/ ٦٠٧ من حديث أنس ﷺ. وأخرجه ابن عدي ٤/ ٥٨٤ من حديث قيس بن سعد ﷺ. وأخرجه البزار (١٠٣ ـ كشف) وابن عدي ٤/ ١٦٣٤ من حديث أبي هريرة ﷺ وأخرجه أبو داود في المراسيل (١٦٥) عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً، وزاد: والخيانة.

الآخرة تُدخِلُ أصحابَها في النار؛ لأنَّها من أخلاق الكفَّار لا من أخلاقِ المؤمنين الأخيار؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في سياق هذا الحديث: «وليس من أخلاق المؤمنِ المكرُ والخديعةُ والخيانة»(١). وفي هذا أُبلغ تحذيرِ عن التخلُّقِ بهذه الأخلاقِ الذميمة، والخروجِ عن أخلاق الإيمان الكريمة.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: إنَّما ينتظرون العذابَ الذي نزل بالكفَّار الأوَّلين. ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي: أَجرَى الله العذابَ على الكفار، وجعل(٢) ذلك سُنةً فيهم، فهو يعذِّبُ بمثله مَن استحَقَّه، لا يقدر أحدٌ أن يبدِّلَ ذلك، ولا أنْ يحوِّل العذابَ عن نفسه إلى غيره.

والسُّنَّة: الطريقة، والجمعُ سُنَن. وقد مضى في «آل عمران»(٣). وأضافَها إلى الله عزَّ وجلَّ، وقال في موضعٍ آخَرَ: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ [الإسراء: ٧٧] فأضافَ إلى القوم؛ لتعلُّق الأمر بالجانبين، وهو كالأجَل، تارةً يضافُ إلى الله، وتارةً إلى القوم؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥] وقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ [النحل: ٦١].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾

بيَّن السُّنَّةَ التي ذَكَرها، أي: أوَلم يرَوْا إلى ما أنزلنا بعادٍ وثمودَ ومَدْين وأمثالِهم لمَّا كذَّبوا الرسلَ، فيتدبَّروا ذلك بنظرهم(٤) إلى مساكنهم ودُورِهم، وبما سمعوا على

(١) أخرجه بهذه الزيادة ابن وهب في الجامع ص٧٦ من طريق مجاهد عن النبي ﷺ مرسلاً، ولم ترد هذه الزيادة في الأحاديث التي ذكرناها في التعليق السابق.

(٢) في النسخ عدا (ظ): ويجعل، والمثبت من (ظ) وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٨، والكلام منه.

(٣) ٥/ ٣٣٢.

(٤) في (د): فتدبروا ذلك بنظركم، وفي (خ) و (م): فتدبروا ذلك بنظرهم.

التواتُر بما حلَّ بهم، أفليس فيه عبرةٌ وبيانٌ لهم، ليسوا خيراً من أولئك ولا أقوى، بل كان أولئك أقوى، دليلُه قولُه: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: إذا أراد إنزالَ عذابٍ بقومٍ لم يُعجِزْه ذلك. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ﴾ يعني من الذنوب ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ قال ابن مسعود: يريد جميعَ الحيوانِ ممَّا دَبَّ ودَرَج. قال قتادةُ: وقد فُعل ذلك زَمنَ نوحٍ عليه السلامُ. وقال الكلبيُّ: ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ يريد الجنَّ والإنسَ دونَ غيرِهما؛ لأنَّهما مُكَلَّفان بالعقل[١].

وقال ابن جُريج[٢] والأخفشُ والحسين بنُ الفضل: أراد بالدابَّة هنا الناسَ وحدَهم دونَ غيرِهم.

قلت: والأوّلُ أَظْهَرُ، لأنَّه عن صحابيٍّ كبير. قال ابن مسعود: كاد الجُعَلُ أن يُعذَّب في جُحره بذنبِ ابنِ آدم[٣]. وقال يحيى بنُ أبي كثير: أَمَر رجلٌ بالمعروف ونَهى عن المنكر، فقال له رجل: عليك بنفسك؛ فإنَّ الظالم لا يَضُرُّ إلا نَفْسَه. فقال أبو هريرة: كذبتَ؟ واللهِ الذي لا إلهَ إلاَّ هو، ثم قال: والذي نفسي بيده إنَّ الحُبَارَى

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٧٩، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٩/ ٣٩٧.

(٢) ذكره عن ابن جريج الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٧٩، ووقع في (م) بدلاً منه: ابن جرير، وهو تصحيف.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٠١، والحاكم ٢/ ٤٢٨ وصححه. والجُعَل: حيوان كالخنفساء يكثر في المواضع الندية. المعجم الوسيط (جعل).

لَتموتُ هَزْلاً في وَكْرِها بظلم الظالم[١].

وقال الثُّماليُّ ويحيى بنُ سلام في هذه الآية: يحبسُ الله المطرَ، فيهلك كلّ شيء[٢].

وقد مضى في «البقرة»[٣] نحوُ هذا عن عكرمةَ ومجاهدٍ في تفسير ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [الآية:١٥٩]: هم الحشراتُ والبهائم يصيبهم الجَدْبُ بذنوبِ علماءِ السوءِ الكاتمين فيلعنونهم. وذكرنا هناك حديثَ البَرَاء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ قال: «دوابُّ الأرضِ».

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال مقاتل: الأجلُ المسمَّى هو ما وَعَدَهم في اللَّوح المحفوظ. وقال يحيى: هو يومُ القيامة[٤]. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ أي: بمَن يستحقُّ العقابَ منهم ﴿بَصِيرًا﴾.

ولا يجوزُ أن يكون العاملُ في «إذا» «بصيراً» كما لا يجوز: اليومَ إنَّ زيداً خارجٌ. ولكن العامل فيها «جاء»؛ لشَبَهِها بحروفِ المُجازاة[٥]، والأسماءُ التي يُجازَى بها يَعملُ فيها ما بعدَها. وسيبويه لا يرى المجازاةَ بـ«إذا» إلّا في الشعر، كما قال:

إذا قَصُرتْ أسيافُنا كان وَصْلُها ... خُطانا إلى أعدائنا فنُضارِبِ[٦]

ختمت سورة «فاطر» والحمد لله

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري ١٤/ ٢٦٠ ، وابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٦٩). والحبارى: طائر طويل العنق رمادي اللون على شكل الإوزة، الذكر والأنثى والجمع فيه سواء. المعجم الوسيط (حبر).

(٢) ذكره بنحوه عن يحيى بن سلام الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٧٩ . والثُّمالي: هو أبو حمزة ثابت ابن أبي صفية، وسلف ذكره ٥/ ٤٨ .

(٣) ٢/ ٤٨٣ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٨٠ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٩ .

(٦) البيت لقيس بن الخطيم، وهو في ديوانه ص٨٨ ، والكتاب ٣/ ٦٠ ، وسلف ١/ ٣٠٥ .

سُورَةُ المَلائِكَةِ[1]

مَكِّيَّةٌ وآيُها خمسٌ وأربعونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: مُبدِعُهُما، من الفَطْرِ بمعنى الشَّقِّ، كأنَّه شَقَّ العَدَمَ بإخراجِهما منه، والإضافَةُ محضةٌ لأنَّه بمعنى الماضي.

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾: وسائطَ بينَ اللهِ وبينَ أنبيائِه والصَّالحينَ مِن عبادِه يبلِّغونَ إليهم رسالاتِه بالوَحْيِ والإلهامِ والرُّؤيا الصَّادقةِ، أو: بينَه وبين خلقِه يوصلونَ إليهم آثارَ صُنعِه.

﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾: ذَوِي أجنِحَةٍ مُتعدِّدَةٍ مُتفاوِتَةٍ بتفاوُتِ ما لهم مِن المراتبِ ينزلونَ بها ويَعْرُجونَ، أو يسرعونَ بها نحو ما وكَّلَهُم اللهُ عليه فيتصرَّفُون فيه على ما أمرَهُم به، ولعلَّه لم يُرِدْ به خُصوصيَّةَ الأعدادِ ونفيَ ما زادَ عليها؛ لِمَا رُوِيَ أنَّه عليه السَّلامُ رأى جبريلَ ليلةَ المعراجِ وله ستُّ مئةِ جَناحٍ[2].

---

(١) في نسخة التفتازاني: «سورة فاطر».

(٢) رواه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وليس فيه: (ليلة المعراج). ورواه ابن حبان في «صحيحه» (٦٤٢٨) بلفظ: (رأيت جبريل عند سدرة المنتهى، وعليه ست مائة جناح ينثر من ريشه تهاويل الدر والياقوت).

﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ استئنافٌ للدَّلالةِ على أنَّ تفاوُتَهُم في ذلك مُقتَضى مَشيئتِه ومُؤدَّى حكمتِه لا أمرٌ تَستدعيهِ ذَواتُهُم؛ لأنَّ اختلافَ الأصنافِ والأنواعِ بالخواصِّ والفُصولِ إن كانَ لذَواتِهم المشتركةِ لزِمَ تنافي لوازمِ الأمورِ المتَّفِقَةِ وهو محالٌ، والآيةُ مُتناوِلةٌ زياداتِ الصُّوَرِ والمعاني كمَلَاحةِ الوَجهِ وحُسنِ الصَّوتِ وحَصافةِ العَقلِ وسَماحةِ النَّفسِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وتخصيصُ بعضِ الأشياءِ بالتَّحصيلِ دونَ بَعضٍ إنَّما هو مِن جهَةِ الإرادةِ.

(٢) - ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾: ما يُطْلِق لَهُم ويُرسِلْ، وهو مِن تجوُّزِ السَّببِ للمُسبَّبِ.

﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ كنعمةٍ وأَمنٍ وصِحَّةٍ وعلمٍ ونبوَّةٍ ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ يحبِسُها ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ يُطْلقُه، واختلافُ الضَّميرينِ لأنَّ الموصولَ الأوَّلَ مُفسَّرٌ بالرَّحمةِ والثَّاني مُطلَقٌ يتناوُلها والغَضبَ، وفي ذلك إشعارٌ بأنَّ رحمتَهُ سَبقَتْ غَضبَه[1].

﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعدِ إمساكِه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: الغالبُ على ما يشاءُ ليسَ لأحَدٍ أنْ يُنازِعَهُ فيه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعلُ إلا بعِلْمٍ وإتقانٍ.

ثمَّ لَمَّا بيَّنَ أنَّه الموجِدُ للمُلكِ والمَلكوتِ والمُتصرِّفُ فيهما على الإطلاقِ أمرَ النَّاسَ بشُكرِ إنعامِه فقال:

(٣) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: احفَظوها بمَعرفةِ حقِّها والاعترافِ بها وطاعةِ مُوليهَا، ثمَّ أنكرَ أنْ يكونَ لغَيْرِه في ذلك مدخلٌ فيَستحقَّ أن يُشرِكَ به بقولِه:

---

(١) روى البخاري (٧٤٥٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «لما قضى الله الخلق، كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي».

﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ ولذلك عقَّبه[1]: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾: فمِن أيِّ وَجهٍ تُصرَفونَ عن التَّوحيدِ إلى إشراكِ غيرِه به؟

ورفعُ ﴿غَيْرُ﴾ للحَملِ على محلِّ ﴿مِنْ خَالِقٍ﴾ بأنَّه وصفٌ أو بدلٌ فإنَّ الاستفهامَ بمعنى النَّفيِ، أو لأنَّه فاعلُ ﴿خَالِقٍ﴾[2].

وجرَّهُ حمزَةُ والكِسائيُّ[3] حملًا على لفظِه، وقد نُصِبَ[4] على الاستثناءِ.

و﴿يَرْزُقُكُم﴾ صِفَةٌ لـ﴿خَالِقٍ﴾ أو استئنافٌ مُفسِّرٌ له، أو كلامٌ مُبتدأٌ، وعلى الأخيرِ يكونُ إطلاقُ ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ﴾ مانعًا مِن إطلاقِه على غيرِ اللهِ.

(٤) ـ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ أي: فتأسَّ بهم في الصَّبرِ على تكذيبِهم، فوضعَ ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ﴾ مَوضِعَه استغناءً بالسَّببِ عن المسبَّبِ، وتنكيرُ ﴿رُسُلٌ﴾ للتَّعظيمِ المُقتَضِي زيادةَ التَّسليَةِ والحثَّ على المُصابرةِ.

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ فيُجازيكَ وإيَّاهُم على الصَّبرِ والتَّكذيبِ.

(٥) ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالحشرِ والجزاءِ ﴿حَقٌّ﴾ لا خُلْفَ فيه ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فيذهلَكُم التمتُّعُ بها عن طلبِ الآخرةِ والسَّعيِ لها ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾: الشَّيطانُ؛ بأَنْ يُمَنِّيَكُم المغفرةَ مع الإصرارِ على المعصيَةِ، فإنَّها وإن أمكنَت لكنَّ الذَّنبَ بهذا التَّوقُّعِ كتناوُلِ السُّمِّ اعتمادًا على دفعِ الطَّبيعةِ.

---

(١) «ولذلك عقبه» من نسخة الفاروقي والطبلاوي.

(٢) قوله: «أو لأنه فاعل ﴿خَالِقٍ﴾» عطفٌ على «للحمل»؛ أي: رفعه على أنَّهُ فاعل لخالق، وهوَ حينئذٍ مبتدأ لا خبر له. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٤)، و«التيسير» (ص: ١٨٢).

(٤) نسبت القراءة بنصب الراء للفضل بن إبراهيم النحوي، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٤).

وقُرِئَ بالضَّمِّ[1] وهو مصدرٌ، أو جمعٌ كقعُودٍ.

(٦) ـ ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾ عداوةً عامَّةً قديمةً ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ في عقائدِكُم وأفعالِكُم، وكونوا على حذرٍ منه في مَجامعِ أحوالِكُم.

﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ تقريرٌ لعَداوَتِه، وبيانٌ لغرضِهِ في دَعوةِ شِيعَتِه إلى اتِّباعِ الهَوى والرُّكونِ إلى الدُّنيا.

(٧) ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ﴾ وعيدٌ لِمَن أجابَ دُعاءَه، ووعدٌ لِمَن خالفَهُ، وقطعٌ للأماني الفارغَةِ، وبناءٌ للأمرِ كلِّه على الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ، وقولُه:

(٨) ـ ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا﴾ تقريرٌ لَه؛ أي: فمَنْ زُيِّنَ له سوءُ عملِه بأَنْ غلبَ وَهْمُه وهَواهُ على عقلِهِ حتَّى انتكسَ رأيُهُ فرَأى الباطلَ حقًّا والقَبيحَ حَسناً كمَنْ لم يُزيَّنْ له بَلْ وُفِّقَ حتَّى عرفَ الحقَّ واستحسَنَ الأعمالَ واستَقْبَحَها على ما هي عليه، فحُذِفَ الجوابُ لدلالةِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾.

وقيل: تَقديرُهُ: أفمَنْ زُيِّنَ له سوءُ عَملِه ذهبَتْ نفسُكَ عليهِم حسرةً، فحُذِفَ الجَوابُ لدَلالةِ: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ عليهِ، ومعناهُ: فلا تُهْلِك نفسَكَ عليهِم للحسراتِ على غيِّهِم وإصرارِهِم على التَّكذيبِ.

والفاءاتُ الثَّلاثُ للسَّببيَّةِ، غيرَ أنَّ الأُولَيَيْنِ دَخلتَا على السَّببِ والثَّالثةَ دخلَتْ على المُسبَّبِ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٦٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٤٥)، و«تفسير الثعلبي» (٢٢/ ١٥٩)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٦١٨)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٢٩)، عن أبي السمال وأبي حيوة حيث وقع كما قال الهذلي.

وجمعُ الحَسَراتِ للدَّلالةِ على تَضاعُفِ اغتمامِه على أحوالِهم، أو كثرةِ مَساوِئِ أَفعالِهم المُقتَضِيَةِ للتَّأسُّفِ، و﴿عَلَيْهِمْ﴾ ليسَ صِلةً لها؛ لأنَّ صِلةَ المَصدرِ لا تتقدَّمُه، بل صِلَةُ ﴿تَذْهَبْ﴾ أو بيانٌ للمُتحسَّرِ عليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فيُجازيهِمْ عليه.

(٩) - ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وقرأ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكِسائيُّ: ﴿الرِّيحَ﴾[١].

﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ على حكايةِ الحالِ الماضيةِ؛ استحضارًا لتلكَ الصُّورةِ البَديعةِ الدَّالَّةِ على كمالِ الحكمَةِ، ولأنَّ المُرادَ بيانُ إحداثِها بهذه الخاصِّيَّةِ ولذلك أسندَهُ إليها، ويجوزُ أَنْ يكونَ اختلافُ الأفعال للدلالةِ على استمرارِ الأمرِ.

﴿فسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَيْتٍ﴾ وقرأ نافعٌ وحمزةُ والكِسائيُّ وحفصٌ بتَشديدِ الياءِ[٢].

﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾: بالمطرِ النَّازلِ منه، وذكرُ السَّحابِ كذكرِه، أو: بالسَّحابِ فإنَّه سببُ السَّببِ، أو الصَّائرُ[٣] مَطَرًا ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: بعدَ يبسِهَا.

والعُدولُ فيهما مِن الغَيبَةِ إلى ما هو أَدْخَلُ في الاختصاصِ؛ لِمَا فيهِمَا مِن مَزيدِ الصُّنعِ.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾؛ أي: مثلُ إحياءِ المَواتِ نشورُ الأمواتِ في صِحَّةِ المقدوريَّةِ؛ إذ ليسَ بينَهُما إلا احتمالُ اختلافِ المادَّةِ في المَقيسِ عليه[٤]، وذلك لا مدخلَ له فيها[٥].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ١٧٢)، و«التيسير» (ص: ٧٨).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٠٣)، و«التيسير» (ص: ٨٧).

(٣) بالرفع عطف على «سببُ السبب». انظر: «حاشية شيخ زاده» (٧/ ١١).

(٤) في نسخة التفتازاني: «في المقيس والمقيس عليه».

(٥) في نسخة الخيالي: «ولا مدخل لذلك فيها». وفي نسخة الطبلاوي: «وذلك لا مدخل فيها».

وقيل: في كيفيَّةِ الإحياءِ، فإنَّه تعالى يرسلُ ماءً مِن تحتِ العرشِ يُنبتُ منه أجسادَ الخَلْقِ.

(١٠) ـ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾: الشَّرَفَ والمَنَعةَ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾؛ أي: فليَطْلُبْها مِن عندِه فإنَّ له كلَّها[1]، فاستغْنَى بالدَّليلِ عن المدلولِ.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ بيانٌ لِمَا يُطلَبُ به العِزَّةُ، وهو التَّوحيدُ والعملُ الصَّالحُ، وصُعودُهُما إليه مَجازٌ عن قبولِه إيَّاهُما، أو صعودُ الكَتَبةِ بصَحيفَتِهما، والمستكنُّ في ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ للكَلِمِ، فإنَّ العملَ لا يُقبَلُ إلا بالتَّوحيدِ، ويؤيِّدُهُ أنَّه نُصِبَ (العَمل)[2]، أو للعَملِ فإنَّه يحقِّقُ الإيمانَ ويقوِّيه، أو للهِ وتخصيصُ العملِ بهذا الشَّرَفِ لِمَا فيه مِن الكلفةِ.

وقُرِئَ: (يُصعَدُ) على البناءين[3]، والمُصعِدُ هو اللهُ تعالى، أو المتكلِّمُ بهِ، أو الملكُ.

وقيل: الكَلِمُ الطَّيِّبُ يتناوَلُ الذِّكرَ والدُّعاءَ وقراءةَ القُرآنِ.

وعنه عليه السَّلامُ: «هو سبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إلهَ إلا اللهُ واللهُ أكبرُ، إذا قالها العَبدُ عَرَجَ به الملكُ إلى السَّماءِ فحَيَّا بها وجهَ الرَّحمنِ، فإذا لم يَكُن عملٌ صالحٌ لَمْ يُقبَلْ»[4].

---

(١) في نسخة الفاروقي: «فإن كلها له».

(٢) أي: ويؤيده قراءة: (والعملَ الصالحَ) بالنصب، نسبت لعيسى وابن أبي عبلة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٣).

(٣) أي: بالفتح على البناء للمفعول، والكسر على البناء للفاعل، الأولى قراءة الضحاك كما في «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٣١)، والثانية نسبت لعلي بن أبي طالب وابن مسعود رضي الله عنهما والسلمي وإبراهيم، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٤)، و«البحر» (١٨/ ٢٣).

(٤) رواه الحاكم في «المستدرك» (٦٥٨٩) وصححه، ورواه أيضاً الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٣٨)، =

﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: المَكَراتِ السَّيِّئاتِ، يعني: مَكَراتِ قريشٍ للنَّبيِّ عليهِ السَّلامُ في دارِ النَّدوَةِ، وتدارُؤَهُم[1] الرأيَ في إحدى ثلاثٍ: حبسِه وقَتلِه وإجلائِه.

﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ لا يؤبَهُ دونَه بما يمكرونَ به ﴿وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾: يَفسدُ ولا يَنفذُ؛ لأنَّ الأمورَ مقدَّرةٌ لا تتغيَّرُ به كمَا دلَّ عليهِ بقولِه:

(١١) ـ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ بخلقِ آدمَ منه ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ بخلقِ ذُرِّيَّته مِنْها ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾: ذُكرانًا وإناثًا.

﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾ إلا معلومةً له.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ﴾: وما يمدُّ في عمره مِن مَصيرِه إلى الكبرِ ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ﴾ مِن عمرِ المُعمَّرِ لغيرِه بأَن يُعطَى له عمرٌ ناقصٌ مِن عمرِه.

أو: لا ينقصُ مِن عمرِ المنقوصِ عمرُهُ بجعلِه ناقصًا، والضَّميرُ له وإن لم يُذكَر لدَلالةِ مُقابلِه عليه، أو للمُعمَّرِ على التَّسامُحِ فيه ثقةً بفَهمِ السَّامعِ كقولِهم: (لا يثيبُ اللهُ عبدًا ولا يعاقِبُه إلا بحقٍّ)[2].

= والطبراني في «المعجم الكبير» (٩١٤٤)، ومن طريق الحاكم البيهقيُّ في «الشعب» (٦٢٥)، عن ابن مسعود قال: إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله، إن العبد المسلم إذا قال: سبحان الله وبحمده، الحمد لله، لا إله إلا الله، والله أكبر، تبارك الله، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحيه ثم صعد بهن إلى السماء، فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يحيِّي بهن وجه الرحمن، ثم قرأ عبد الله: ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾.

(١) في نسخة الخيالي: «وتداورهم»، وعليها شرح الخفاجي والقونوي، قال الخفاجي: والتداور تفاعل بمعنى الإدارَة للرَّأيِ فيما بينهم والمحاورَة فيه. انظر: «حاشية الخفاجي»، و«حاشية القونوي» (١٦/ ٢٩)، والمثبت أيضًا صحيح؛ لأن التدارؤ هو التدافع والتخاصم، ويكون دفعُ كلٍّ منهم رأي الآخر والافهم في ذلك تدارؤًا.

(٢) قوله: «لا يثيب الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحقٍّ» ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٧/ ١٥٩)، وتعقبه =

وقيل: الزِّيادَةُ والنُّقصانُ في عمرٍ واحدٍ باعتبارِ أسبابٍ مُختَلِفَةٍ أثبتَتْ في اللوحِ، مثل أَنْ يكونَ فيه: إن حجَّ عمرٌو فعمرُه ستُّونَ سنةً وإلا فأربعونَ[1].

وقيل: المرادُ بالنُّقصانِ ما يمرُّ من عمرِه وينتقِصُ، فإنَّه يكتبُ في صحيفةِ عمرِه يومًا فيومًا.

وعَن يَعقوبَ: ﴿وَلَا يَنْقُصُ﴾ على بناءِ الفَاعِلِ[2].

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ هو عِلْمُ اللهِ، أو اللوحُ، أو الصَّحيفةُ.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إشارةٌ إلى الحفظِ أو الزِّيادَةِ والنَّقص.

(١٢) ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ ضَربُ مثلٍ للمُؤمنِ والكافرِ.

والفراتُ: الذي يَكسرُ العطشَ.

والسَّائغُ: الذي يَسْهُلُ انحدارُهُ.

= الطيبي في «فتوح الغيب» (١٢/ ٦٢١) قال: فيه اعتزالٌ خفيٌّ، وذلك أنَّ مذهبهم أن استحقاق العقاب بالكبيرة يحبط استحقاق الثواب بالطاعة، فعلى هذا لا يجتمع الثواب والعقاب في شخص واحد، وأما أهل السّنة فلا يبعد ذلك لأن أهل النار من العاصين لا يخلدون فيها.

قلت: ومعنى الآية على هذا الوجه بغض النظر عن دسيسة الزمخشري: ولا يُطوَّلُ عُمُرُ أحدٍ ولا يُنقَصُ من عُمرِ أحدٍ آخر. وأولُ من وقفتُ عليه في ذكر هذا المعنى في الآية هو الفراء، قال في «معاني القرآن» (٢/ ٣٦٨): قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ يقول: ما يُطَوَّل من عمرٍ ولا يُنْقَصُ من عمره، يريدُ آخَرَ غيرَ الأول، ثُمَّ كُني عنه بالهاء كأنه الأول، ومثله في الكلام: (عندي درهم ونصفه) يعني: ونصف آخر. فجازَ أن يكنى عنه بالهاء لأن لفظ الثاني قد يظهر كلفظ الأول، فكني عنه ككناية الأوّل.

(١) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «فالأربعون».

(٢) انظر: «المبسوط في القراءات» لابن مهران (ص: ٣٦٦).

والأُجَاجُ: الذي يحرقُ بمُلوحَتِه.

وقُرِئَ: (سَيِّغٌ) بالتَّشديدِ والتَّخفيفِ[1]، و: (مَلِحٌ) على فَعِلٍ[2].

﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ استطرادٌ في صفةِ البَحْرينِ وما فيهما مِن النِّعَمِ، أو تمامُ التَّمثيلِ، والمعنى: كما أنَّهُما وإن اشتركَا في بعضِ الفَوائدِ لا يَتساوَيانِ مِن حيثُ إنَّهُما لا يَتساوَيانِ فيمَا هو المَقصودُ بالذَّاتِ مِن الماءِ، فإنَّه خالطَ أحدَهُما ما أفسدَهُ وغيَّرَه عن كَمالِ فِطرَتِه، لا يَتساوى المؤمنُ والكافرُ وإن اتَّفق اشتِراكُهُما في بعضِ الصِّفَاتِ كالشَّجاعَةِ والسَّخاوَةِ؛ لاختلافِهِما فيما هو الخاصيَّةُ العُظمى وبقاءِ أحدِهِما على الفِطرةِ الأَصْليَّةِ دونَ الآخرِ.

أو تفضيلٌ[3] للأجاجِ على الكافرِ بما يشاركُ فيه العذبَ من المنافعِ.

والمرادُ بالحِليَةِ: اللآلئُ واليَواقيتُ.

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ﴾؛ أي: في كلٍّ ﴿مَوَاخِرَ﴾ تشقُّ الماءَ بجَرْيِهَا.

﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾: مِن فضلِ اللهِ بالنُّقْلةِ فيها، واللامُ مُتعلِّقَةٌ بـ﴿مَوَاخِرَ﴾، ويجوزُ أَنْ تَتعلَّقَ بما دلَّ عليه الأفعالُ المذكورةُ.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على ذلك، وحرفُ التَّرجِّي باعتبارِ ما يقتضيهِ ظاهرُ الحالِ.

(١٣) - ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هي مُدَّةُ دورِه، أو مُنتهاهُ، أو يومُ القيامَةِ.

---

(١) قراءة التشديد عن عيسى، كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٤)، و«المحتسب» (٢/ ١٩٩)، وقراءة التخفيف ذكرها في «المحتسب» (٢/ ١٩٨) عن عيسى أيضاً.

(٢) انظر: «المحتسب» (٢/ ١٩٩) عن طلحة بن مصرف.

(٣) عطف على «استطراد». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٢٨).

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ الإشارةُ إلى الفاعلِ لهذه الأشياءِ، وفيه إشعارٌ بأنَّ فاعِليّتَه لها موجبةٌ لثُبوتِ الأخبارِ المُترادِفَةِ.

ويحتملُ أن يكونَ ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ كلامًا مبتدأً في قِرانِ ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ للدلالةِ على تفرُّدِه بالألوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ، والقِطْميرُ: لفافةُ النَّواةِ.

(١٤) ـ ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ لأنَّهُم جمادٌ ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟﴾ على سبيلِ الفَرْضِ ﴿مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ لعدمِ قُدرَتِهم على الإنفاعِ، أو لتبرُّئِهم منكُمْ مما تَدَّعونَ لهم.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾: بإشراكِكُم لهم؛ يقرُّونَ ببُطلانِه، أو يقولون: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨].

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾: ولا يخبرُكَ بالأمرِ مُخبرٌ مثلُ خبيرٍ به أخبرك، وهو اللهُ سُبحانَهُ، فإنَّه الخبيرُ به على الحقيقةِ دونَ سائرِ المُخبِرينَ، والمرادُ: تَحقيقُ ما أخبرَ به مِن حالِ آلهتِهم، ونفيُ ما يدَّعونَ لَهُم.

(١٥) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في أنفُسِكُم وما يَعِنُّ لَكُم، وتعريفُ ﴿ٱلْفُقَرَآءُ﴾ للمُبالغَةِ في فَقرِهم، كأنَّهُم لشدَّةِ افتقارِهم وكثرةِ احتياجِهم هم الفُقَراءُ، وأنَّ افتقارَ سائرِ الخَلائقِ بالإضافَةِ إلى فقرِهم غيرُ معتدٍّ به، ولذلك قال: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾: المُستغني على الإطلاقِ، المنعِمُ على سائرِ الموجوداتِ حتى استحَقَّ عليه الحمد.

(١٦ ـ ١٧) ـ ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: بقوم آخرينَ[1] أطوعَ منكم، أو بعالَمٍ آخرَ غيرِ ما تعرفونه ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بمُتعذِّرٍ أو مُتعسِّرٍ.

(١٨) ـ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: ولا تحملُ نفسٌ آثمةٌ إثمَ نَفسٍ أُخرى، وأمَّا قولُه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] ففي الضَّالِّينَ المُضلِّينَ، فإنَّهُم يحملونَ أثقالَ إضلالِهم مع أثقالِ ضَلالِهم، وكلُّ ذلك أوزارُهم ليسَ فيها شيءٌ مِن أوزارِ غيرِهم.

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾: نفسٌ أثقلَها الأوزارُ ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ بحَمْلِ بعضِ أوزارِها ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾: لم تُجَبْ بحَملِ شَيءٍ منه. نَفَى أن يُحمَلَ عنها ذنبُها كما نَفَى أن يُحْمَلَ عليها ذنبُ غيرِها.

﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كانَ المدعوُّ ذا قرابَتِها، فأُضمرَ (المدعوُّ) لدلالةِ ﴿إِنْ تَدْعُ﴾ عليهِ.

وقُرِئَ: (ذو قُرْبى)[2] على حذفِ الخبرِ، وهو أَوْلَى مِن جعلِ (كانَ) التامَّةَ؛ فإنَّها لا تُلائِمُ نظمَ الكَلامِ.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾: غائبينَ عن عذابِه، أو عن النَّاسِ في خَلَواتِهم، أو غائبًا عَنهُم عذابُه.

﴿وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فإنَّهُم المنتفِعونَ بالإنذارِ لا غير، واختلافُ الفعلينِ لِمَا مرَّ.

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾: ومَن تطهَّرَ عن دنسِ المعاصي ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ إذ نفعُهُ لها، وقُرِئَ: (ومَن ازَّكى فإنَّما يزَّكَّى)[3].

---

(١) في نسخة الفاروقي: «آخر»!.

(٢) دون نسبة في «الكشاف» (٧/ ٢٠٢)، و«البحر» (١٨/ ٣٤)، وأجازها نحواً لا قراءة: الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٣٦٨).

(٣) نسبت لطلحة بن مصرف في «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٣٥)، و«البحر» (١٨/ ٣٥)، وفي «المختصر =

وهو اعتراضٌ مؤكِّدٌ لخشيَتِهِم وإقامَتِهِم الصَّلاةَ لأنَّهُما من جملةِ التَّزكِّي.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيُجاريهِم على تزكِّيهِم.

(١٩) ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾: الكافرُ والمؤمنُ، وقيل: هما مَثَلانِ للصَّنَمِ وللهِ عزَّ وجلَّ.

(٢٠) ـ ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾: ولا الباطلُ ولا الحقُّ[1].

(٢١) ـ ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾: ولا الثَّوابُ ولا العقابُ[2].

و(لا) لتأكيدِ نَفْيِ الاستواءِ، وتكريرُهَا على الشِّقَّيْنِ لمزيدِ التَّأكيدِ.

والحَرُورُ: فَعُولٌ مِن الحرِّ غلبَ على السَّمُومِ.

وقيل: السَّمُومُ ما يهبُّ نهارًا، والحَرُورُ ما يهبُّ لَيْلًا.

(٢٢) ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ تمثيلٌ آخرُ للمُؤمنينَ والكافرينَ أبلغُ مِن الأوَّلِ، ولذلك كرَّرَ الفعلَ، وقيل: للعُلماءِ والجُهلاءِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَهُ، فيوفِّقُه لفهمِ آياتِه والاتِّعاظِ بعظاتِه ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ ترشيحٌ لتَمثيلِ المصرِّينِ على الكفرِ بالأمواتِ، ومُبالغةٌ في إقناطِه عَنْهُم.

(٢٣) ـ ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ فما عليكَ إلَّا الإنذارُ، وأمَّا الإسماعُ فلا إليكَ، ولا حيلةَ لك إليه في المطبوعِ على قُلوبِهم.

(٢٤) ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾: مُحقِّينَ، أو: مُحِقًّا، أو: إرسالًا مصحوبًا بالحقِّ، ويجوزُ أنْ يكونَ صِلةً لقولِه: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾؛ أي: بشيرًا بالوعدِ الحقِّ ونذيرًا بالوعيدِ الحقِّ.

= في شواذ القراءات» (ص: ١٢٤) عن أبي عمرو في رواية: «ومن يزكى فإنما يزكى».

(١) في نسخة الفاروقي: «ولا الباطل والحق».

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «ولا الثواب والعقاب».

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾: أهلِ عَصرٍ ﴿إِلَّا خَلَا﴾: مَضى ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ مِن نبيٍّ أو عالمٍ ينذِرُ عنه، والاكتفاءُ بذكرِه[١] للعلمِ بأنَّ النِّذارةَ قرينةُ البِشارةِ، سيَّمَا وقد قُرِنَ به من قبلُ، ولأنَّ الإنذارَ هو المقصودُ الأهم مِن البعثةِ.

(٢٥) ـ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: بالمُعجزاتِ الشَّاهدَةِ على نبوَّتِهم ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾: كصُحُفِ إبراهيمَ ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ كالتَّوراةِ والإنجيلِ على إرادةِ التَّفصيلِ دونَ الجمعِ، ويجوزُ أنْ يرادَ بهما واحدٌ، والعطفُ لتغايُرِ الوَصْفَين.

(٢٦) ـ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؛ أي: إنكاري بالعُقوبَةِ.

(٢٧) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾: أجناسُها وأصنافُها على أنَّ كُلًّا مِنها ذو[٢] أصنافٍ مُختَلِفَةٍ، أو: هيئاتُها مِن الصُّفرَةِ والخُضرةِ ونحوِهما.

﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾؛ أي: ذو جُدَدٍ؛ أي: خُطَطٍ وطرائقَ، يقال: (جُدَّةُ الحمارِ) للخطَّةِ السَّوداءِ على ظهرِه.

وقُرِئَ: (جُدُدٌ) بالضمِّ[٣] جمعُ جَديدَةٍ[٤] بمعنى الجُدَد[٥]، و: (جَدَدٌ) بفتحتينِ[٦]، وهو الطَّريقُ الواضِحُ.

---

(١) أي: بذكر النذير وعدم اقترانه بالبشير.

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «لها».

(٣) وهي قراءة الزهري كما في «المحتسب» (٢/ ١٩٩).

(٤) في «المحتسب» (٢/ ٢٠٠): جمع جديد؛ أي: آثار جدد غير مخلقة، فهو أصح لها، وأوضح للونها.

(٥) قوله: «بمعنى الجُدَد»؛ أي: بضم ففتح، أشار به إلى أنها بمعنى الأولى، وتجمع على جدائد أيضاً. انظر: «حاشية الخفاجي». وفي نسخة الخيالي والفاروقي والطبلاوي: «بمعنى الجِدَّة».

(٦) وهي قراءة الزهري أيضاً فيما رواه سهل عن الوقاصي عنه كما في «المحتسب» (٢/ ١٩٩)، وقال أبو حاتم، وقطرب: لا قراءة فيه غير جُدَد.

﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ بالشدَّةِ والضَّعفِ ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ عطفٌ على ﴿بِيضٌ﴾ أو على ﴿جُدَدٌۢ﴾ كأنَّه قيل: ومِن الجبالِ ذو جددٍ مختلفةِ اللونِ ومنها غرابيبُ مُتَّحِدَةُ اللونِ، وهو تأكيدُ مُضمرٍ يُفَسِّرُهُ ما بعده، فإنَّ الغِرْبيبَ تَأكيدٌ للأَسْوَدِ ومِن حَقِّ التَّأكيدِ أن يَتْبعَ المؤكَّدَ، ونظيرُ ذلك في الصِّفَةِ قولُ النَّابِغَةِ:

والمـؤمِـنِ العـائـذاتِ الطَّيرَ........ ....[1]

وفي مثلِه مَزيدُ تَأكيدٍ؛ لِمَا فيه مِن التَّكريرِ باعتبارِ الإضمارِ والإظهارِ.

(٢٨) ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ كاختلافِ الثِّمارِ والجبالِ.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ إذ شرطُ الخشيةِ معرفةُ المَخْشِيِّ والعِلمُ بصِفَاتِه وأَفعالِه، فمَن كانَ أَعْلَمَ به كانَ أَخْشَى منه، ولذلك قال عليهِ السَّلامُ: «إني أَخشاكُمْ للهِ وأَتْقَاكُم له»[2]، ولهذا أتبعَه ذكرَ أَفعالِه الدَّالَّةِ على كمالِ قُدرَتِه.

وتقديمُ المَفعولِ لأنَّ المقصودَ حَصْرُ الفاعليَّةِ، ولو أُخِّرَ انعكسَ الأمرُ.

وقُرِئَ برفعِ اسمِ اللهِ ونصبِ ﴿ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[3] على أنَّ الخشيةَ مُستعارةٌ للتَّعظيمِ، فإنَّ المُعظَّمَ يكونُ مَهيبًا.

---

(١) انظر: «ديوان النابعة» (ص: ٣٦)، وتمامه:

.... تَمْسَحُهَا رُكْبَانُ مَكَّةَ بيـنَ الغَيْـلِ وَالسَّـعَدِ

(٢) رواه البخاري (٥٠٦٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: «أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له»، ورواه مسلم (١١٠٨) من حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما بلفظ: «أما والله إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له».

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ١٠٥)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٦٢٤). قال الثعلبي: والقراءة الصحيحة ما عليه العامة. =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليلٌ لوُجوبِ الخشيةِ لدلالتِه على أنَّه مُعاقِبٌ للمُصِرِّ على طُغيانِه غفورٌ للتَّائبِ عن عِصيانِه.

(٢٩ ـ ٣٠) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾: يُداوِمُونَ قراءتَهُ أو متابعةَ ما فيهِ حتَّى صارَت سِمَةً لَهُم وعنوانًا، والمرادُ بـ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ القرآنُ، أو: جنسُ كُتُبِ اللهِ، فيكونُ ثناءً على المصدِّقينَ مِن الأُمَمِ بعدَ اقتِصاصِ حالِ المكذِّبينَ.

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ كيفَ اتَّفَقَ مِن غيرِ قصدٍ إليهِمَا.

وقيل: السرُّ في المسنونَةِ، والعَلانيَةُ في المفروضَةِ.

﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً﴾: تحصيلَ ثَوابٍ بالطَّاعةِ ـ وهو خبرُ ﴿إِنَّ﴾ ـ ﴿لَّن تَبُورَ﴾: لن تكسدَ ولن تهلكَ بالخُسرانِ، صِفَةٌ للتِّجارَةِ، وقوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ عِلَّةٌ لمدلولِه؛ أي: يَنتَفِي عنها الكسادُ وتَنْفُقُ عندَ اللهِ ليوفيَهُم بنَفَاقِها أجورَ أعمالِهم، أو لمدلولِ ما عدَّ مِن أَفعالِهم نحو: فَعَلوا ذلك ليوفِّيَهُم، أو عاقبةٌ[1] لـ﴿يَرْجُونَ﴾.

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ على ما يقابلُ أعمالَهُم ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ لفَرَطاتِهم ﴿شَكُورٌ﴾ لطاعاتِهم؛ أي: مُجازيهِمْ عليها، وهو عِلَّةٌ للتَّوفِيَةِ والزِّيادَةِ، أو خبرُ ﴿إِنَّ﴾، و﴿يَرْجُونَ﴾ حالٌ مِن واوِ ﴿وَأَنفَقُوا۟﴾.

= وقد طعن ابن الجزري في هذه القراءة في «النشر» (١/ ١٦) فقال ما معناه: ومثال ما نقله غير ثقة كثير مما في كتب الشواذ مما غالب إسناده ضعيف، ومنه القراءة المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة التي جمعها أبو الفضل محمد بن جعفر الخزاعي ونقلها عنه أبو القاسم الهذلي، ومنها: (إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ) برفع الله ونصب العلماء، وقد راجَ ذلك على أكثر المفسرين ونسبها إليه وتكلَّف توجيهها، وإنَّ أبا حنيفةَ لبريءٌ منها، وقد كتب الدارقطني وجماعة بأن هذا الكتاب موضوع لا أصل له.

(١) قوله: «أو عاقبة» عطفٌ على «علة». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٣٤).

(٣١) ـ ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني: القرآن، و﴿مِنَ﴾ للتَّبيين، أو الجنسِ و﴿مِنَ﴾ للتَّبعيضِ، ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أَحُقُّهُ[١] مُصدِّقًا لِمَا تقدَّمَه مِن الكتبِ السَّماويَّةِ، حالٌ مُؤكِّدةٌ لأنَّ حقيَّتَهُ تستلزمُ مُوافقتَهُ إيَّاهُ في العَقائدِ وأُصولِ الأحكامِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ عالمٌ بالبواطنِ والظَّواهرِ، فلو كان في أحوالِكَ ما يُنافي النُّبوَّةَ لم يُوحِ إليك مثلَ هذا الكتابِ المعجِزِ الذي هو عِيَارٌ على سائرِ الكتبِ، وتقديمُ (الخبير) للدَّلالةِ على أنَّ العُمدةَ في ذلك الأمورُ الروحانيَّةُ.

(٣٢) ـ ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ﴾: حَكَمْنا بتوريثِه منك، أو: نورثُه، فعبَّرَ عنه بالماضي لتحقُّقِه، أو: ورَّثْناهُ مِن الأُمَمِ السَّالفَةِ، والعطفُ على ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ﴾، و﴿ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ اعتراضٌ لبيانِ كيفيَّةِ التَّوريثِ.

﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ يعني: علماءَ الأُمَّةِ مِن الصَّحابةِ ومَن بعدَهُم، أو الأمَّةَ بأسرِهِم فإنَّ اللهَ اصطفاهُم على سائرِ الأُمَمِ.

﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ بالتَّقصيرِ في العملِ به ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ يعمَلُ به في أغلبِ الأوقاتِ[٢] ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ بضمِّ[٣] التَّعليمِ والإرشادِ إلى العملِ.

وقيل: الظَّالمُ: الجاهِلُ، والمُقتَصِدُ: المُتعَلِّمُ، والسَّابِقُ: العالِمُ[٤].

---

(١) قوله: «أَحُقُّه»؛ أي: أُحقِّقه أو أجعله حقًّا، فالعامل فيه مقدر يفهم من مضمون الجملة. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «في أغلب الأمر».

(٣) في نسخة الفاروقي: «يضم».

(٤) رواه التستري في «تفسيره» (ص: ١٢٩) عن سهل.

وقيل: الظَّالِمُ: المُجْرِمُ، والمُقتَصِدُ: الذي خلطَ الصَّالحَ بالسَّيِّءِ، والسَّابقُ: الذي ترجَّحَتْ حَسناتُه بحيثُ صارَتْ سَيِّئاتُه مُكفَّرَةً[1]، وهو مَعنى قولِه عليهِ السَّلامُ: «أمَّا الذين سبقُوا فأولئكَ يَدخلونَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ، وأمَّا الذين اقتَصدُوا فأولئكَ يحاسَبونَ حِسابًا يسيرًا، وأمَّا الذينَ ظلمُوا أنفُسَهُم فأولئكَ يُحبسون في طولِ المحشرِ ثمَّ يَتلقَّاهُم اللهُ برَحمَتِه»[2].

وقيل: الظالمُ: الكافرُ، على أنَّ الضَّميرَ للعبادِ، وتقديمُهُ لكثرةِ الظَّالِمينَ، ولأنَّ الظُّلمَ بمعنى الجهلِ والرُّكونِ إلى الهوى مُقتضَى الجبلَّةِ، والاقتصادُ والسَّبقُ عارِضانِ.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ إشارةٌ إلى التَّوريثِ، أو الاصطفاءِ، أو السَّبقِ.

(٣٣ ـ ٣٤) ـ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ مبتدأٌ وخبرٌ، والضَّميرُ للثَّلاثةِ، أو لـ﴿الَّذينَ﴾، أو للمُقتصِدِ والسَّابقِ فإنَّ المرادَ بهما الجنسُ.

وقُرِئَ: (جَنَّةُ عَدْنٍ) و: (جَنَّاتِ) منصوبةً[3] بفعلٍ يُفسِّرُه الظَّاهرُ.

وقرأَ أبو عمرٍو: ﴿يُدْخَلُونَها﴾ على بناءِ المَفعولِ[4].

---

(١) ذكره التستري في «تفسيره» (ص: ١٢٩) عن الحسن البصري.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢١٧٢٧)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٧٥)، والطبراني كما في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٩٢)، وعنه البيهقي في «البعث والنشور» (٥٨) عن أبي الدرداء رضي الله عنه. قال الحاكم وعنه البيهقي: وقد اختلفت الروايات في إسناد هذا الحديث... وإذا كثرت الروايات في حديث ظهر أن للحديث أصلاً.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٤) الأولى عن الزهري والثانية عن الجحدري.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٤)، و«التيسير» (ص: ١٨٢).

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ خبرٌ ثانٍ أو حالٌ مُقدرةٌ. وقُرِئَ: (يَحْلَوْنَ)[1] مِن حَلِيَت المَرأةُ فهي حالٍ[2].

﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ الأولى للتَّبعيضِ والثَّانيةُ للتَّبيينِ.

﴿ولؤلؤٍ﴾ عطفٌ على ﴿ذَهَبٍ﴾؛ أي: مِن ذَهَبٍ مُرَصَّعٍ باللؤلؤِ، أو من ذهبٍ في صَفاءِ اللؤلؤِ، ونصبَهُ نافعٌ وعاصمٌ[3] عطفًا على محلِّ ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾.

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾: همَّهُم مِن خوفِ العاقبةِ، أو همَّهُم مِن أجلِ المعاشِ وآفاتِه، أو مِن وسوسةِ إبليسَ[4] وغيرِها.

وقُرِئَ: (الحُزْنَ)[5].

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للمُذنبينَ ﴿شَكُورٌ﴾ للمُطيعينَ.

(٣٥) ـ ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾: دارَ الإقامةِ ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾: من إنعامه وتَفضُّلِه؛ إذ لا واجبَ عليه ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾: تعبٌ، ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾: كَلالٌ؛ إذ لا تكليفَ فيها ولا كَدَّ، أَتْبَعَ نفيَ النَّصَبِ نفيَ ما يَتبعُهُ مُبالغَةً.

(٣٦) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾: لا يُحكَمُ عليهِم بموتٍ ثانٍ ﴿فَيَمُوتُوا۟﴾: فيستريحوا[6]، ونصبُه بإضمارِ (أنْ).

---

(١) ذكرها ابن جني في «المحتسب» (٢/ ٧٧) عن ابن عباس في الآية (٢٣) من سورة الحج.

(٢) كتب فوقها في نسخة الفاروقي: «كقاض».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٤ ـ ٥٣٥)، و«التيسير» (ص: ١٥٦).

(٤) في نسخة التفتازاني: «الشيطان».

(٥) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٤) عن جناح بن حبيش.

(٦) في نسخة الفاروقي: «ويستريحوا».

وقُـرِئَ: (فيَمُوتـونَ)[1] عطفًـا علـى ﴿يُقْضَىٰ﴾ كقولِـه: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦].

﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ بل كلَّما خَبَتْ زيدَ إسعارُها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك الجزاءِ ﴿نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ مُبالِغٍ في الكُفْرِ أو الكُفْرانِ.

وقـرأ أبو عمرٍو: ﴿يُجْـزَى﴾[2] على بناءِ المفعولِ وإسنادِه إلـى ﴿كُلَّ﴾، وقُرِئَ: (يُجَازَى)[3].

(٣٧) ـ ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾: يستغيثونَ، يَفْتَعِلُونَ مِن الصُّرَاخِ وهو الصِّيَاحُ، استعمِلَ في الاستغاثَةِ لجهدِ[4] المُستغيثِ صوتَه.

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ بإضمارِ القولِ وتقييدِ العملِ الصَّالحِ بالوصفِ المذكورِ للتَّحسُّرِ على ما عَمِلُوهُ مِن غيرِ الصَّالحِ، والاعترافِ به، والإشعارِ بأنَّ استخراجَهُم لتَلافيهِ، وأنَّهم كانوا يحسبونَ أنَّه صالحٌ والآنَ تحقَّقَ لَهُم خِلافُه.

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ جـوابٌ مِـن اللهِ وتَوبيخٌ لهـم، و﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ﴾ متنـاوِلٌ كلَّ عُمـرٍ تمكَّـنَ المكلَّـفِ فيـه مـن التَّفكُّـرِ والتَّذكُّرِ.

---

(١) انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٠١) عن الحسن.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٥)، و«التيسير» (ص: ١٨٢).

(٣) ذكرها دون نسبة الزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ٢٤٩)، وعليها وعلى التي قبلها (كلٌّ) بالرفع.

(٤) قوله: «يستعمل في الاستغاثة» فيقال: صريخ، للمستغيث لأنه يصيح غالباً، وقوله: «لجهد» بالدال المهملة لا بالراء كما في بعضها، أي: يجهد ويبالغ في مد صوته ويبذل جهده فيه. انظر: «حاشية الخفاجي». وفي نسخة الفاروقة: «لجهر»، وكتب فوقها كالمثبت نسخة.

وقيل: ما بين العشرينَ إلى السِّتِّينَ، وعنه عليه السَّلامُ: «العمرُ الذي أعذرَ اللهُ فيه إلى ابنِ آدمَ سِتُّونَ سَنةً»(١).

والعطفُ على مَعنى ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ فإنَّه للتَّقريرِ؛ كأنَّه قيل: عمَّرْناكُم وجاءَكُم النَّذيرُ وهو النَّبيُّ أو الكتابُ، وقيل: العقلُ أو الشَّيبُ أو موتُ الأقاربِ.

﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ يدفعُ العذابَ عنهُم.

(٣٨) - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا يَخفَى عليه خافيَةٌ فلا يخفَى عليهِ أحوالُهم.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليلٌ له، لأنَّه إذا علِمَ مُضمَراتِ الصُّدورِ وهي أخفَى ما يكونُ؛ كان أعلمَ بغَيْرِها.

(٣٩) - ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: مُلْقًى إليكُم مقاليدُ التَّصرُّفِ فيها، وقيل: خَلَفًا بعدَ خَلَفٍ، جمع خليفَةٍ، والخلفاءُ: جمعُ خَليفٍ.

﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾: جزاءُ كُفرِه ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ بيانٌ له، والتَّكريرُ(٢) للدَّلالةِ على أنَّ اقتضاءَ الكُفرِ لكلِّ واحدٍ مِن الأمرينِ مستقلٌّ باقتضاءِ قُبحِهِ ووُجوبِ التَّجنُّبِ عنه، والمرادُ بالمَقتِ وهو أشدُّ البُغْضِ: مقتُ اللهِ، وبالخسارِ: خَسارُ الآخرةِ.

(٤٠) - ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: آلهتَهُم، والإضافةُ إليهم لأنَّهُم جعَلُوهُم شركاءَ للهِ، أو لأنفُسِهم فيما يَملِكُونَه.

---

(١) رواه البزار في «مسنده» (٨٥٢١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأصله في البخاري (٦٤١٩) بلفظ: (أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغه ستين سنة).

(٢) قوله: «والتكرير»؛ أي: تكرير ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. انظر: «حاشية الخفاجي».

﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ بدلٌ مِن ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ بدلَ الاشتمالِ؛ لأنَّه بمعنى: أَخبِرُوني، كأنَّه قال: أخبِرُوني عن هؤلاءِ الشُّركاءِ، أَرُوني أيَّ جزءٍ مِن الأرضِ استَبَدُّوا بخَلْقِه ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾: أَمْ لهم شِرْكةٌ معَ اللهِ في خلقِ السَّماواتِ فاستحقُّوا بذلك شِركةً في الألوهيَّةِ ذاتيَّةً.

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾ ينطقُ على أنَّا اتَّخَذْناهم شُركاءَ ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾: على حُجَّةٍ من ذلك الكتابِ بأنَّ لَهُم شركةً جعليَّةً، ويجوزُ أَنْ يكونَ (هم) للمُشركينَ كقولِه: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ [الروم: ٣٥].

وقرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ ويعقوبُ وأبو بكرٍ والكِسائيُّ: ﴿على بيِّناتٍ﴾[1] فيكونُ إيماءً إلى أنَّ الشِّركَ خَطيرٌ لا بدَّ فيهِ مِن تَعاضُدِ الدَّلائلِ.

﴿بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ لَمَّا نفى أنواعَ الحُجَجِ في ذلك أضربَ عنه بذكرِ ما حملَهُم عليه، وهو تَغريرُ الأسلافِ الأخلافَ[2]، أو الرُّؤساءِ الأتباعَ، بأنَّهُم شُفَعاءُ عندَ اللهِ يَشفَعُونَ لَهُم بالتَّقرُّبِ إليهِم.

(٤١) ـ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ كراهَةَ أَنْ تَزُولَا، فإنَّ المُمْكِنَ حالَ بقائِه لا بُدَّ لَه مِن حافظٍ، أو: يمنعُهُما أن تَزُولَا لأنَّ الإمساكَ منعٌ.

﴿وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾: ما أمسكَهُما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾: مِن بَعدِ اللهِ، أو: مِن بَعدِ الزَّوالِ، والجملةُ سادَّةٌ مَسَدَّ الجَوابينِ و﴿مِنْ﴾ الأولى زائدةٌ والثَّانيةُ للابتداءِ.

﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ حيثُ أمسَكَهُما وكانتَا جَدِيرتينِ بأن تُهَدَّا هَدًّا كما قال: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ﴾ [مريم: ٩٠].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٥)، «المبسوط» لابن مهران (ص: ٣٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٢).

(٢) في نسخة الفاروقي: «الأخلاف» «الأجلاف» في كلمة واحدة وعليها (معا).

(٤٢) ـ ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ وذلك أنَّ قُرَيْشًا لَمَّا بَلَغَهُم أنَّ أهلَ الكتابِ كذَّبُوا رُسُلَهُم قالوا: لعنَ اللهُ اليَهودَ والنَّصارَى لو أتانا رَسولٌ لنكونَنَّ أهدى مِن إحدى الأُمَمِ؛ أي: مِن واحدةٍ مِن الأُمَم: اليهودِ والنَّصارى وغيرِهِم، أو: مِن الأُمَّةِ التي يقالُ فيهَا: (هي إحدى الأممِ) تَفضيلًا لها على غيرِها في الهُدَى والاستقامةِ.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ يعني: مُحمَّدًا عليه السَّلامُ ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾؛ أي: النَّذيرُ، أو: مجيئُه على التَّسبُّبِ ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾: تَباعُدًا عن الحقِّ.

(٤٣) ـ ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بدلٌ مِن ﴿نُفُورًا﴾ أو مفعولٌ له ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ أصلُه: وأنْ مَكَروا المكرَ السَّيِّئ، فحُذِفَ الموصوفُ استغناءً بوَصفِهِ، ثمَّ بدِّلَ (أنْ) مع الفعلِ بالمصدَرِ، ثمَّ أُضيفَ.

وقرأ حمزةُ وحدَهُ بسكونِ الهمزةِ في الوَصلِ[1].

﴿وَلَا يَحِيقُ﴾: ولا يحيطُ ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ وهو الماكرُ، وقد حاقَ بهم يومَ بَدرٍ.

وقُرِئَ: (وَلَا يُحِيقُ المَكْرَ السَّيِّئَ)[2] أي: وَلَا يُحيقُ اللهُ.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾: ينتظرونَ ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: سُنَّةَ اللهِ فيهِمْ بتَعذيبِ[3] مُكَذِّبِيهِم.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٥).

(٢) انظر: «الكشاف» (٧/ ٢٢٩)، و«البحر» (١٨/ ٦٨) دون نسبة.

(٣) في نسخة الفاروقي: «بتكذيب»، وفي الهامش: «في نسخة: بتعذيب».

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ إذ لا يبدِّلُها بجعلِه غيرَ التَّعذيبِ تَعذيبًا[1]، ولا يحوِّلُها بأن ينقلَهُ من المكذِّبينَ إلى غيرِهم، وقوله:

(٤٤) ـ ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ استشهادٌ عليه بما يُشاهِدُونه في مَسايرِهم إلى الشَّامِ واليمنِ والعراقِ مِن آثارِ الماضينَ.

﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ﴾ ليسبقَهُ ويَفوتَه ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا﴾ بالأشياءِ كُلِّها ﴿قَدِيرٗا﴾ عليها.

(٤٥) ـ ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ﴾ مِن المَعاصي ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا﴾: ظهرِ الأرضِ ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾: مِن نسمةٍ تَدِبُّ عليها بشؤمِ مَعاصيهم.

وقيل: المرادُ بالدَّابَّةِ الإنسُ وحدَه، لقولِه: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ هو يومُ القِيامَةِ ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾ فيُجازيهم على أعمالِهم.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأ سورةَ الملائكةِ دعَتْهُ ثمانيةُ أبوابِ الجنَّةِ: أنِ ادخُلْ مِن أيِّ بابٍ شِئتَ»[2].

***

---

(١) «تعذيباً» من نسخة الطبلاوي.

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ١٤٦) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. وانظر: «الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

سورة فاطر (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الآية، هذه السورة مكية بلا خلاف. ولما ذكر تعالى في آخر السورة التي قبلها هلاك المشركين، وأنزلهم منازل العذاب، تعيّن على المؤمنين حمده تعالى وشكره لنعمائه.

ومعنى ﴿ رُسُلًا ﴾ بالوحي وغيره من أوامره، ولا يريد جميع الملائكة، لأنهم ليسوا كلهم رسلاً، فمن الرسل جبريل عليه السلام وميكائيل وإسرافيل

---

(١) مكية وهي خمس وأربعون آية.

وعزرائيل، والملائكة المتعاقبون والملائكة المسدّدون حكام العدل وغيرهم، كالملك الذي أرسله الله تعالى إلى الأعمى والأبرص والأقرع.

و«أجنحة» جمع جناح.

وتقدّم الكلام على ﴿مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ في النساء[١].

[٤٦٢/أ] ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ تقرير لما يقع في النفوس من التعجب والاستغراب من خبر الملائكة أولي الأجنحة، أي: ليس هذا ببدع في قدرة الله تعالى، فإنه يزيد في خلقه ما يشاء.

«ما يفتح الله» الفتح والإرسال استعارة للإطلاق «فلا مرسل له» مكان: لا فاتح له، والمعنى: أي شيء يطلق الله من رحمته، أي: من نعمة رزق أو مطر أو غير ذلك من صنوف نعمائه التي لا يحاط بعددها. والعموم مفهوم من اسم الشرط، و«من رحمة» لبيان ذلك العام من أي صنف هو. وهو مما اجتزىء فيه بالنكرة المفردة عن الجمع المعرّف المطابق في العموم لاسم الشرط، وتقديره: من الرحمات. و«من» في موضع الحال أي: كائناً من الرحمات، ولا يكون في موضع الصفة لأن اسم الشرط لا يوصف. والظاهر أن قوله «وما يمسك» عام في الرحمة وفي غيرها، لأنه لم يذكر له تبيين، فهو باقٍ على العموم في كل ما يمسك.

فإن كان تفسيره: من رحمة، وحذفت لدلالة الأول عليه، فيكون تذكير الضمير في «فلا مرسل له من بعده» حملاً على لفظ «ما»، وأنّث في «فلا ممسك لها» حملاً على معنى «ما» لأن معناها الرحمة. وقرىء: فلا مرسل[٢]

(١) انظر تفسير الآية ٣ من النساء.

(٢) ق: ممسك.

لها، بتأنيث الضمير، وهو دليل على أن التفسير هو: من رحمة، وحذف لدلالة ما قبله عليه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب لقريش، وهو متجّه لكّل مؤمن وكافر. ثم استفهم على جهة التقرير﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: فلا إله إلا الخالق لا ما تعبدون أنتم من الأصنام. وقرىء: غيرِ، بالخفض نعتاً على اللفظ. وغيرُ، بالرفع نعتاً على الموضع و«مِن» زائدة، و«خالق» مبتدأ وخبره محذوف لدلالة المعنى، تقديره: لكم.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ تقدّم الكلام عليه[1].

﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ شامل لجميع ما وعد من ثواب وعقاب وغير ذلك.

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ تقدّم الكلام عليه في لقمان[2].

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ عداوته سبقت لأبينا آدم عليه السلام.

و﴿ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ اللام فيها للتعليل، فدعاؤه حزبه ليشتركوا معه في النار، ولتظهر ثمرة إغوائه.

ثم اتبع حزبه بما أعدّ لهم من العذاب، وذكر بعد ذلك ما أعد لأهل الإيمان، ليظهر التّباين بين الفريقين.

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ﴾ «مَن» مبتدأ موصول بمعنى الذي، وخبره محذوف تقديره: كمن لم يُزيَّن له سوء عمله.

(١) انظر تفسير الآية ٤٢ من الحج.

(٢) انظر تفسير الآية ٣٣ من لقمان.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ.

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ الحسرة همّ النفس على فوات أمر. وانتصب «حسرات» على أنه مفعول من أجله، أي: فلا تهلك نفسك للحسرات. و«عليهم» متعلق بـ«تذهب» كما تقول: هلك عليه حباً ومات عليه حزناً، وهو[1] بيان للتحسّر [٤٦٢/ب] عليه، ولا يتعلّق بـ«حسرات» لأنه مصدر فلا يتقدم معموله عليه.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ
وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ
هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ
أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ
ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ
أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ
فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ
وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ
ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن
قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ الآية، لمّا ذكر أشياء من الأمور السماوية وإرسال

---

(١) ق: أوهو.

الملائكة[١]، ذكر أشياء من الأمور الأرضية: الرياح وإرسالها - وفي هذا احتجاج على منكري البعث - ودلّهم على المثال الذي يعاينونه[٢]، وهو وإحياء الموتى سيّان.

وفي الحديث[٣] «أنه قيل لرسول الله ﷺ: كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه؟. فقال: هل مررت بوادي أَهْلِك محلاً ثم مررت به يهتزّ خَضِراً؟. فقالوا: نعم. فقال: كذلك يحيي الله الموتى وتلك آيته في خلقه».

و﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ التوحيد والتحميد وذكر الله ونحو ذلك. وصعود الكلم إليه تعالى مجاز في الفاعل وفي المنتهي إليه؛ لأنه تعالى ليس في جهة، ولأن الكلم ألفاظ لا توصف بالصعود، لأن الصعود من الأجرام يكون، وإنما ذلك كناية عن القبول ووَصْفِه بالكمال كما يقال: علا كعبه وارتفع شأنه، ومنه: ترافعوا إلى الحاكم، ورفع الأمر إليه، وليس هناك علوّ في الجهة. ومكر: لازم. و«السيئات» نعت لمصدر محذوف أي: المكرات السّيئات، أو لمضافٍ إلى المصدر أي: أصناف المكر السيئات، أو ضمَّنَ «يمكرون» معنى: يكتسبون فنصب «السيئات» مفعولاً به وإذا كانت «السيئات» نعتاً للمصدر أو لمضافٍ للمصدر، فالظاهر أنه عنى به مكرات قريش في دار الندوة، إذ تذاكروا إحدى ثلاث مكرات، وهي المذكورة في الأنفال[٤] إثباته أو قتله أو إخراجه.

«أولئك» إشارة إلى الذين مكروا تلك المكرات.

---

(١) ذكر أشياء من الأمور السماوية وإرسال الملائكة: مكررةفي ق.

(٢) ق: يعاينوه.

(٣) انظر النهاية ٤ : ٣٠٤.

(٤) في قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال].

﴿يَبُورُ﴾ أي: يفسد ويهلك ويكسد دون مكر الله تعالى بهم إذ أخرجهم من مكة، وقتلهم، وأثبتهم في قليب بدر، فجمع عليهم مكراتهم جميعاً، وحقق فيهم قوله ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال].

و«مِن» في ﴿مِن مُّعَمَّرٍ﴾ زائدة. وسمّاه بما يؤول إليه، وهو الطويل العمر.

والظاهر أن الضمير في «من عمره» عائد على «معمّر» لفظاً ومعنى.

قال الزمخشري[1]: ويجوز في حكم الإعراب إيقاع اسم «الله» صفة لاسم الإشارة، أو عطف بيان، و«ربكم» خبراً، لولا أن المعنى يأباه انتهى.

أما كونه صفة، فلا يجوز، لأن «الله» عَلَم والعلم لا يوصف به، وليس اسم جنس كرجل، فيُتَخَيَّل فيه الصفة. وأما قوله: لولا أن المعنى يأباه، فلا يأباه المعنى، لأنه يكون قد أخبر بأن المشار إليه بتلك الصفات والأفعال [المذكورة.

﴿رَبُّكُمْ﴾ مالككم ومصلحكم، وهذا معنى لائق سائغ].

والقطمير: تقدم شرحه[2]، والقطمير: هو القمع الذي في رأس الثمرة، وقال مجاهد: لفافة[3] النواة، وقيل غير ذلك.

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ الخبير هنا أراد به تعالى نفسه [٤٦٣/أ] فهو الخبير الصادق الخبر، نبأ بهذا فلا شك في وقوعه.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ

---

(١) الكشاف ٣: ٣٠٤.

(٢) لم ترد هذه اللفظة في القرآن في غير هذه الآية.

(٣) ق: ولفافة.

أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ
ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ
وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾
وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ
أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا
وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الآية، هذه آية موعظة وتذكير، وإن جميع الناس محتاجون إلى إحسان الله تعالى وإنعامه في جميع أحوالهم.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ تقدّم الكلام عليه(١).

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ تقدم الكلام عليه(٢).

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أي: نفس مثقلة [بحملها].

﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ أي: إلى حَمْل حِمْلها.

﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ أي: لا غياث يومئذ لمن استغاث ولا إعانة، حتى أنّ نفساً قد أثقلتها الأوزار، لو دعت أن يخفّف عنها بعض وزرها، لم تُجَبْ لذلك، وإن كان المدعوّ بعض قرابتها من أبٍ أو ولد أو أخ. فالآية قبلها في الدلالة على عدل الله تعالى في حكمه، وأنه لا يؤاخذ [نفساً] بغير ذنبها،

---

(١) انظر تفسير الآية ١٣٣ من النساء.

(٢) بل مرّ بالجملة في الأنعام ١٦٤، والإسراء ١٥ دون تفسير.

وهذه في نفي الإعانة.

والحمل ما كان على الظهر في الأجرام، فاستعير للمعاني كالذنوب ونحوها، فيجعل كل محمول متّصلاً بالظّهر كقوله تعالى ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام]، كما جعل كل اكتساب منسوباً إلى اليد. واسم «كان» ضمير يعود على المدعوّ المفهوم من قوله «وإن تَدْعُ».

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ الآية، قال أبو عبد الله الرازي[1]: وترتيب هذه المنفيّ عنها الاستواء في غاية الفصاحة: ذكر الأعمى والبصير مثلاً للمؤمن والكافر، ثم البصير ولو كان حديد النّظر لا يبصر[2] إلاّ في ضوء، فذكر ما هو فيه الكافر من ظلمة الكفر، وما هو فيه المؤمن من نور الإيمان، ثم ذكر مآلهما، وهو أن المؤمن بإيمانه في ظل وراحة، والكافر بكفره في حرّ وتعب.

ثم ذكر مثلاً آخر في حق المؤمن والكافر؛ وذلك أن حال المؤمن والكافر فوق حال الأعمى والبصير، إذ الأعمى قد يشارك البصير في إدراكٍ ما، والكافر غير مدرك إدراكاً نافعاً فهو كالميت، ولذلك أعاد الفعل فقال ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ كأنه جعله مقام سؤال. وكرّر «لا» فيما كرّر لتأكيد المنافاة؛ فالظلمات تنافي النور وتضادّه[3]، والظّل والحرور كذلك، والأعمى والبصير ليس كذلك، لأن الشخص الواحد قد يكون بصيراً، ثم يعرض له العمى، فلا منافاة إلا من حيث الوصف.

---

(١) تفسير الرازي ٢٦ : ١٦. وقد تصرف المصنّف بعبارة الرازي تصرّفاً عظيماً.

(٢) ق: ينظر.

(٣) ق: تضادده.

والمنافاة بين الظلّ والحرور دائمة[١]، لأن المراد من الظّل عدم الحرّ والبرد، فلمّا كانت [المنافاة] أتمّ أكّد بالتكرار.

وأما الأحياء والأموات من حيث إن الجسم الواحد يكون محلاً للحياة، فيصير محلاً للموت، فالمنافاة بينهما أتمّ من المنافاة[٢] بين الأعمى والبصير؛ لأنّ هذين قد يشتركان في إدراك أشياء[٣]، ولا كذلك الحيّ والميّت، فالميت يخالف الحيّ في الحقيقة لا في الوصف على ما تبيّن[٤] في الحكمة الإلهية.

وقدّم الأشرف في [٤٦٣/ب] مَثَلين وهو الظّل والحيّ، وأخّر في مثلين وهما البصير والنور، فلا يقال: لأجل السجع؛ لأن معجزة القرآن ليست في مجرّد اللفظ بل فيه وفي المعنى.

ثم لمّا ذكر المآل والمرجع قدّم ما يتعلّق بالرحمة على ما يتعلق بالغضب كما جاء «سبقت رحمتي غضبي»[٥] فقدّم الظّل على الحرور.

ثم إنّ الكافر المصرّ بعد البعثة صار أضلّ من الأعمى، وشابه الأموات في عدم إدراك الحق فقال «وما يستوي الأحياء» وهم الذين آمنوا بما[٦] أنزل الله «ولا الأموات» الذين تُليت عليهم الآيات البيّنات، ولم ينتفعوا بها، وهؤلاء كانوا بعد إيمان من آمن، فأخّرهم لوجود حياة المؤمنين قبل ممات الكافرين.

---

(١) في تفسير الرازي: ذاتية.

(٢) ق: من الفائدة.

(٣) ق: إدراكِ ما.

(٤) ق: بين.

(٥) أخرجه البخاري ٦: ٢٦٩٤، ومسلم ٤: ٢١٠٧ من حديث أبي هريرة.

(٦) ق: والذين آمنوا أي زائد بما.

وأفرد الأعمى والبصير لأنه قابل الجنس بالجنس؛ إذ قد يوجد في أفراد العميان ما يساوي به بعض أفراد البصراء، كأعمى عنده من الذكاء ما يساوي به البصير البليد، فالتفاوت بين الجنسين مقطوع به لا بين الأفراد.

وجُمعت الظلمات لأن طرق الكفر متعدّدة، وأفرد النور لأنّ التوحيد والحق واحد، والتفاوت بين كل فرد من تلك الأفراد وبين هذا الواحد، فقال: الظلمات كلها لا تجد فيها ما يساوي هذا النور.

وأما الأحياء والأموات فالتفاوت بينهما أكبر؛ إذ ما ميّتٌ يساوي في الإدراك حيّاً، فذكر أن الأحياء لا يساوون الأموات، سواء قابلت الجنس بالجنس، أم قابلت الفرد بالفرد انتهى.

ثم سلّى رسوله عليه السلام بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: إسماع هؤلاء منوط بمشيئتنا. وكنّى بالإسماع عن الذي تكون عنده الإجابة للإيمان.

ولمّا ذكر أنه ما يستوي الأحياء ولا الأموات قال ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أي: هؤلاء من عدم إصغائهم إلى سماع الحق بمنزلة من[1] قد ماتوا وأقاموا في قبورهم. فكما أنّ من مات لا يمكن أن يقبل منك قول الحق، فكذلك هؤلاء، لأنهم أموات القلوب.

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ المعنى أن الدعاء إلى الله تعالى لم ينقطع عن كلّ أمّة، إما بمباشرة من أنبيائهم، وإما بنقل إلى وقت بعثة محمد ﷺ.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ مسلاة للرسول عليه السلام وتقدّم الكلام عليه[2].

---

(١) ق: من هم.

(٢) انظر تفسير الآية ٤٢ من الحج.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ توعّد لقريش بما جرى لمكذّبي رسلهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ الآية، لمّا قرر تعالى وحدانيته بأدلّة قرّبها، وأمثال ضربها، أتبعها بأدلّة سماوية وأرضية فقال «ألم تر».

﴿جُدَدٌۢ﴾ جمع جُدَّة كدّرة ودرر، وهو الطريق الواضح المبين وضعه موضع الطرائق والخطوط الواضحة المنفصل بعضها من بعض.

وقال ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ لأن البياض والحمرة تتفاوت بالشدة والضّعف [٤٦٤/أ] فأبيض لا يشبه أبيض، وأحمر لا يشبه أحمر، وإن اشتركا في القدر المشترك لكنه مشكل(١).

والظاهر عطف «وغرابيب» على «حمر» عطف ذي لون على ذي لون.

والظاهر أنه لمّا ذكر الغربيب وهو الشديد السّواد لم يذكر فيه: مختلف ألوانه، لأنه من حيث جعله شديد السواد - وهو المبالغ في غاية السّواد - لم يكن له ألوان بل هذا لون واحد، بخلاف البيض والحمر فإنها تختلف.

والظاهر أنّ قوله «بيض وحمر» ليسا مجموعين في جُدّة واحدة بل المعنى: جدد بيض وجدد حمر وجدد غرابيب.

---

(١) ق: مشكك.

ويقال: أسود حلكوك وأسود غربيب. و«سود» توكيد «لغرابيب».

«ومن الناس والدواب» عموم بعد خصوص. «والأنعام» خصوص بعد عموم. «كذلك» أي: كاختلاف الثمرات والجبال، فهذا التشبيه من تمام الكلام قبله، والوقف عليه حسن.

وقال ابن عطية: ويحتمل أن يكون من الكلام الثاني يخرج مخرج السبب، كأنه قال: كما جاءت القدرة في هذا كله «إنما يخشى الله من عباده العلماء» أي: المخلصون لهذه العبر الناظرون فيها انتهى.

وهذا الاحتمال لا يصحّ، لأنّ ما بعد «إنما» لا يمكن أن يتعلّق به المجرور[(١)] قبلها؛ ولو خرّج مخرج السبب لكان التركيب: كذلك يخشى الله من عباده، أي: كذلك الاعتبار والنظر في مخلوقات الله تعالى واختلاف ألوانها يَخشى اللهَ. ولكن التركيب جاء «بإنما» وهي تقطع هذا المجرور ممّا بعدها.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾.

---

(١) ق: لأنّ ما بعد إنّ لا يمكن أن يتعلق بهذا المجرور.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ ﴾ ظاهره: يقرؤون كتاب الله، أي: يداومون تلاوته. ولما ذكر تعالى وَصْفهم بالخشية - وهي عمل القلب - ذكر أنهم يتلون كتاب الله - وهو عمل اللسان - ويقيمون الصلاة - وهو عمل الجوارح - وينفقون - وهو العمل المالي[(١)].

﴿ يَرۡجُونَ ﴾ خبر «إنّ». وهذا إشارة إلى الإخلاص أي: يفعلون تلك الأفعال، يقصدون بذلك وجه الله تعالى لا للرياء والسمعة.

﴿ لَّن تَبُورَ ﴾ لن تكسد، ولا يتعذّر الربح فيها، بل ينفق عند الله تعالى.

﴿ لِيُوَفِّيَهُمۡ ﴾ متعلق بـ«يرجون».

﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ﴾ و«ثمّ» للمهلة في الإخبار لا في الزمان. قال ابن عباس: هم هذه الأمة أورثت أمة محمد ﷺ كل كتاب أنزله الله تعالى.

﴿ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ ﴾ وهو العاصي المسرف. والمقتصد: متّقي الكبائر. والسابق: المتّقي على الإطلاق. والظاهر أن الإشارة بـ«ذلك» إلى إيراث الكتاب واصطفاء هذه الأمة.

و﴿ جَنَّٰتُ ﴾ على هذا مبتدأ، و﴿ يَدۡخُلُونَهَا ﴾ الخبر.

والظاهر أن الضمير المرفوع في «يدخلونها» عائد على الأصناف الثلاثة. وقرأ عمر رضي الله عنه هذه الآية ثم قال: قال رسول الله ﷺ[(٢)] «سابقنا سابق ومقتصدنا ناجٍ وظالمنا مغفور [٤٦٤/ب] له».

---

(١) ق: البالي.

(٢) لم أجده بلفظه، وأخرج الترمذي ٨: ٣٥٨ حديثاً في معناه عن أبي سعيد الخدري.

و«الحزن» جميع الأحزان من أحزان الدين والدنيا حتى هذا[١].

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ فيه إشارة إلى دخول الظالم لنفسه الجنة.

و﴿شَكُورٌ﴾ فيه إشارة إلى السابق، وأنه كثير الحسنات.

و«المُقَامة» هي الإقامة أي: الجنة، لأنها دار إقامة دائماً لا يُرحل عنها.

﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ من عطائه.

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب بدن[٢].

﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي: تعب نفس وهو لازم عن تعب البدن.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ
عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ
صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ
ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَمَن
كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ
كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ
مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُۚ بَلْ إِن يَعِدُ
ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن
تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

---

(١) أصل العبارة في البحر ٧: ٣١٤: وقد أكثروا حتى قال بعضهم: كراء الدّار، ومعناه أنه يعمّ كل حزن من أحزان الدين والدنيا حتى هذا.

(٢) ق: بدون.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ الآية، لمّا ذكر حال المؤمنين ومقرّهم ذكر حال الكافرين.

﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: لا يُجهز عليهم فيموتوا؛ لأنهم لو ماتوا، لبطلت حواسّهم، فاستراحوا. وهو في جواب النّفي، وهو على أحد معنيي النصب، فالمعنى: انتفى[١] القضاء عليهم، فانتفى مسبّبه أي: لا يقضى عليهم ولا يموتون.

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ ﴾ بنى من الصراخ: يفتعل وأبدلت من التاء[٢] طاء.

﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا ﴾ أي قائلين: ربّنا أخرجنا منها، أي: من النار، ورُدَّنا إلى الدنيا.

«نعمل صالحاً» قال ابن عباس: نَقُلْ: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

﴿ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ من الشّرك.

﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم ﴾ هو استفهام توبيخ وتوقيف وتقرير. و«ما» مصدرية ظرفية أي: مدّة تذكُّر.

و﴿ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ تقدم الكلام عليه[٣].

والمقت: أشد الاحتقار والبغض والغضب. والخسار: خسار العمر.

---

(١) ق: على أحد معنيي النصب فالمعنى انتفاء.

(٢) ق: الياء.

(٣) انظر تفسير الآية ١٦٥ من الأنعام.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ تقدم الكلام عليه(١). قال الزمخشري(٢): «أروني» بدل من «أرأيتم» لأنّ معنى «أرأيتم»: أخبروني، كأنه قال: أخبروني عن هؤلاء الشركاء وعمّا استحقّوا به الإلهيّة والشركة، أروني أي: جزء من أجزاء الأرض استبدّوا بخلقه دون الله، أم لهم مع الله شركة في خلق السماوات، أم معهم كتاب من عند الله، ينطق بأنهم شركاؤه، فهم على حجّة وبرهان من ذلك الكتاب. أو يكون الضمير في «آتيناهم» للمشركين كقوله ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ [الروم: ٣٥]، ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢١]. «بل إن يعد [الظالمون] بعضهم» وهم الرؤساء، «بعضاً» وهم الأتباع، «إلا غروراً» وهو قولهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] انتهى.

أما قوله أنّ «أروني» بدل من «أرأيتم» فلا يصحّ، لأنه إذا أبدل ممّا دخل عليه الاستفهام، فلا بدّ من دخول الأداة على البدل. وأيضاً فإبدال الجملة من الجملة لم يُعهد في لسانهم. ثم البدل على نيّة تكرار العامل، ولا يتأتّى ذلك هنا لأنه عامل في «أرأيتم» فيستحيل(٣) دخوله على «أروني».

والذي أذهب إليه هنا أن «أرأيتم» بمعنى أخبروني، وهي تطلب مفعولين، أحدهما منصوب، والآخر مشتمل على الاستفهام كقول العرب: أرأيت زيداً ما صنع؟. فالأول هنا «شركاءكم»، والثاني «ماذا خلقوا»، و«أروني» جملة اعتراضية فيها تأكيد للكلام وتسديد(٤). ويحتمل أن يكون ذلك من باب الإعمال [٤٦٥/أ] لأنه توارد على «ماذا خلقوا»: «أرأيتم» و«أروني»، لأن

(١) انظر تفسير الآية ٢٢ من الأنعام.

(٢) الكشاف ٣: ٣١١.

(٣) في البحر ٧: ٣١٧: فيتخيّل.

(٤) ق: وتشديد.

«أروني» قد تعلّق عن مفعولها [الثاني كما علّقت رأى التي لم تدخل عليها همزة النّقل، عن مفعولها] في قولهم: أما ترى: أي: ترى ها هنا[١]. ويكون قد أعمل الثاني على المختار عند[٢] البصريين.

ولمّا بيّن تعالى فساد أمر الأصنام، ووقف على الحجّة على بطلانها، عقب بذكر عظمته وقدرته، ليبين الشيء بضدّه، وتتأكّد حقارة الأصنام بذكر عظمة الله تعالى فقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾. والظاهر أنّ معناه: أن تنتقلا عن أماكنهما وتسقط السماوات عن علوّها.

وقال الزمخشري[٣]: «أمسكهما» جواب القسم في «ولئن زالتا» سدّ مسدّ الجوابين انتهى.

يعني أنه دلّ على الجواب المحذوف. وإن أُخذ كلامه على ظاهره لم يصحّ؛ لأنه لو سدّ مسدّهما، لكان له موضع من الإعراب باعتبار جواب الشرط، ولا موضع له من الإعراب باعتبار جواب القسم. والشيء الواحد لا يكون معمولاً غير معمول. و«مِن» في «من أحد» لتأكيد الاستغراق، وفي «من بعده» لابتداء الغاية أي: من بعد ترك إمساكه. و«إن» نافية في جواب القسم المحذوف.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا

(١) كذا في البحر ٧: ٣١٧. وفي ق: أما ترى يروها هنا. وفي المطبوع: أما ترى أي فرق ها هنا.

(٢) ق: وعند.

(٣) الكشاف ٣: ٣١٢.

وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى
ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا
تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ
أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ .

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ الآية، الضمير في «وأقسموا» لقريش. ولمّا بيّن إنكارهم للتوحيد بيّن تكذيبهم للرسل. قيل: وكانوا يلعنون اليهود والنصارى حيث كذّبوا رسلهم وقالوا: لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم. فلمّا بُعث رسول الله ﷺ كذّبوه.

﴿لَئِن جَآءَهُمْ﴾ حكاية[1] لمعنى كلامهم لا للفظهم؛ إذ لو كان اللفظ لكان التركيب: لئن جاءنا نذير من إحدى الأمم، أي: من واحدة مهتدية من الأمم، أو من الأمة التي يقال فيها إحدى الأمم تفضيلاً لها على غيرها، كما قالوا: هو أحد الأحدين، وهي إحدى الإحَد[2]، يريدون التفضيل في الدهاء والعقل بحيث لا نظير له.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ هو محمد ﷺ.

﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ أي: مجيئه.

﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ بعداً من الحق وهرباً منه. وإسناد الزيادة إليه مجاز، لأنه هو السبب في[3] أن زادوا أنفسهم نفوراً.

---

(١) ق: وحكاية.

(٢) إحدى الإحَد: الأمر المنكر الكبير، وانظر شاهده في اللسان «أحد».

(٣) ق: وفي.

والظاهر أن ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ مفعول من أجله، أي: سبب النفور هو الاستكبار. ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ معطوف على «استكباراً» فهو مفعول من أجله أيضاً. أي: الحامل لهم على الابتعاد من الحق هو الاستكبار.

والمكر السيّىء هو الخداع الذي يرمونه بالرسول عليه السلام والكيد له.

و«استكباراً» بدل من «نفوراً». و«مكر السيّىء» من إضافة الموصوف إلى صفته ولذلك[1] جاء على الأصل: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.

وقرأ حمزة: السيّىءْ، بإسكان الهمزة، أجرى الوصل مجرى الوقف.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ﴾ أي: ليفوته ويسبقه. «من شيء» أي: شيء، و«من» لاستغراق الأشياء.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ فبعلمه[2] يعلم جميع الأشياء فلا يغيب عن علمه شيء، وبقدرته لا يتعذّر عليه شيء.

ثم ذكر تعالى حلمه [٤٦٥/ب] عن عباده في تعجيل العقوبة فقال ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ أي: من الشرك وتكذيب الرّسل، وهو المعنى في الآية التي في النّحل وهو قوله «بظلمهم»[3]. وتقدم الكلام على نظير هذه الجملة في النّحل. وهناك «عليها» وهنا «على ظهرها»، والضمير عائد على الأرض. إلا أن هناك يُدلّ عليه بسياق[4] الكلام، وهنا يمكن أن

---

(١) ق: وكذلك.

(٢) ق: فيعلمه.

(٣) الآية ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴿٦١﴾﴾ [النحل]. وانظر تفسيرها ثَمّ.

(٤) ق: لسياق.

يعود على ملفوظ به وهو قوله ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر].

ولما كانت حاملة لمن عليها استعير لها الظّهر كالدّابة الحاملة للأثقال، ولأنه أيضاً هو الظاهر بخلاف باطنها.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ توعّد للمكذّبين، أي: فيجازيهم بأعمالهم.

مفردات سورة فاطر*

القِطْمير: المشهور أنَّه القشرةُ الرَّقيقة التي على نَوى التَّمرة، ويأتي ما قال المفسرون فيه.

الجُدَد: جمع جُدَّة، وهي الطَّريقة تكون من الأرض والجبَل. كالقطعة العظيمةِ المتَّصلة طُولاً. وقال الزمخشري: والجُدَد: الخُطَط والطَّرائق، قال لبيد:

أو مُــذْهَــبٌ جُــدَدٌ عــلــى أَلْــواحِــهِ[1]

ويقال: جُدَّة الحمار للخُطَّة السَّوداء على ظهره، وقد تكون للظَّبْي جُدَّتان مِسْكِيَّتان تفصِلان بين لَوْنَي ظهرِه وبطنه[2]. انتهى. وقال الشاعر:

كــأن سَــراتَــه وجُــدَّةُ ظَــهْــرِه كَـنـائـنُ[3] يـجـري بـيـنـهـن دَلـيـصُ

الجُدَّةُ: الخطُّ الذي في وَسَط ظهرِه، يصف حمارَ وَحْشٍ.

الغِرْبيب: الشَّديدُ السَّواد. لَغِب يَلْغَبُ لُغوباً: أعْيا.

---

* تفسير سورتي فاطر و﴿يسٓ﴾ من تحقيق عمار ريحاوي. وتفسير باقي الجزء من تحقيق محمد معتز كريم الدين.

(١) في المطبوع: الواحد، وهو تحريف، وتمام البيت: الناطق المبروز والمختوم، وهو في ديوانه ١١٩، يصف أطلال خولة؛ المذهب: اللوح عليه ذهب، شبهه بما عرف من الديار، والجدد: الطرائق التي فيه، والناطق: الكتاب، والمبروز: المكتوب المنشور، والمختوم: الذي لم ينشر.

(٢) الكشاف ٣/٣٠٧.

(٣) في المطبوع: كأن مبرات... كساءين. وانظر معاني القرآن للفراء ٢/٣٦٩، وللزجاج ٤/٢٦٩، وتفسير الطبري ١٩/٣٦٣، والمحرر الوجيز ٤/٤٣٧، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ٦١٦ (بشرح السكري)، الكنائن: جمع كنانة، وهي الجعاب، ودليص: ذهبٌ له بريق.

سورة فاطر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾.

التفسير

هذه السُّورة مكيَّة، ولمَّا ذكر تعالى في آخر السورة التي قبلها هَلاكَ المشركين أعداءَ المؤمنين، وأنزلهم منازلَ العذاب، تعيَّن على المؤمنين حَمْدُه تعالى وشكرُه لنعمائه[(١)]، ووصْفُه بعظيم آلائه، كما في قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

وقرأ الضحَّاك والزُّهري: «فَطَر» جعله[(٢)] فعلاً ماضياً، ونصب ما بعده.

قال أبو الفَضْل الرَّازي: فأما على إضمار الذي فيكون نعتاً لله عزَّ وجَلّ، وأما بتقدير قد فيما قبله فيكون بمعنى الحال[(٣)]. انتهى.

وحذفُ الموصول الاسمي لا يجوز عند البصريّين، وأما الحال فتكون حالاً مَحْكيَّة. والأحسنُ عندي أن يكون خبرَ مبتدأ محذوف، أي: هو فطر.

(١) في (ت): وشكر نعمائه.

(٢) في (ت): جعلاه، وفي (د٣): فجعله، وانظر القراءة في مختصر في الشواذ ١٢٣، والمحتسب ٢/ ١٩٨، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٤١.

(٣) نقله السمين في الدر ٩/ ٢٠٩، والآلوسي في روح المعاني ٢٢/ ١٥١.

وتقدَّم شرحُ: «فاطرِ السماوات والأرض» وأن المعنى: خالقها بعد أنْ لم تكن[١]. والسَّماوات والأرض عبارةٌ عن العالَم.

وقال أبو عبد الله الرازي: الحمدُ يكون في غالب الأمر على النِّعمة، ونِعَمُ الله عاجِلة، و«الحمد[٢] لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظُّلُمات والنور» إشارةٌ إلى النعمة العاجلة، ودليلُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ [الأنعام: ٢]، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١] إشارة إليها أيضاً وهي الإبْقاء؛ فإن البقاءَ[٣] والصَّلاح بالشَّرع والكتاب و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ في سورة سبأ [آية:١] إشارةٌ إلى نعمة الإيجاد والحَشر، ودليلُه: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ [سبأ: ٢-٣]، وهنا إشارةٌ إلى نعمة البقاء في الآخرة، ودليلُه: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. فـ «فاطر السماوات والأرض» شاقُّهما لنُزولِ الأرواحِ من السَّماء وخروج الأجساد من الأرض، ودليله «جاعلُ الملائكةِ رُسُلاً» أي: في ذلك اليوم، فأوَّل هذه السورة مُتَّصل بآخِر ما مضى لأن ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤] بيانٌ لانقطاع رَجاء مَنْ كان في شكٍّ مُريب. ولمَّا ذكر حالَهم ذكرَ حالَ المؤمن[٤]، وبشَّره بإرسالِ الملائكةِ إليهم مُبَشِّرين، وأنه يفتح لهم أبواب الرَّحمة.

وقرأ الحسن: «جاعلُ» بالرَّفع، أي: هو جاعل[٥]. وعبد الوارث عن أبي عمرو «جاعلُ» رفعاً بغير تنوين «الملائكةَ» نصباً، حُذف التنوين لالتقاء الساكنين[٦].

وقرأ ابن يَعْمَر وخُلَيد بن نَشيط: «جَعل» فعلاً ماضياً «الملائكةَ» نصباً[٧]، وذلك

(١) سلف (١٤) الأنعام، (١٠١) يوسف، (١٠) إبراهيم.
(٢) في (ت ز٢): فالحمد.
(٣) في النسخ والمطبوع خلا (د٣): الاتقاء فإن الاتقاء، والمثبت منها، وهو الصحيح إن شاء الله، يؤيده ما في تفسير الرازي ٢٦/ ٢: ونعم الله قسمان عاجلة وآجلة، والعاجلة وجود وبقاء. . .
(٤) في (د٣): الموقن، وانظر التفسير الكبير ٢٦/ ٢، وروح المعاني ٢٢/ ١٥١.
(٥) مختصر في الشواذ ١٢٣، والمحتسب ٢/ ١٩٨، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٤١.
(٦) مختصر في الشواذ ١٢٣، وقراءة أبي عمرو المشهورة عنه كقراءة الجمهور.
(٧) مختصر في الشواذ ١٢٣، والمحتسب ٢/ ١٩٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٨، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٤١.

بعد قراءته «فاطر» بالألف[١] والجرِّ كقراءة مَن قرأ: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦][٢].

وقرأ الحسن وحُمَيْد بن قيس: «رُسْلاً» بإسكان السين، وهي لغة تميم[٣].

وقال الزمخشري: وقُرِئ: «الذي فطر السماوات والأرض وجعل الملائكة»[٤].

فمَن قرأ: فَطر وجَعل؛ فينبغي أن تكون هذه الجُمل[٥] إخباراً من العبد عمَّا أسْداه إلينا من النِّعَم؛ كما تقول: الفضلُ لزيد أحسنَ إلينا بكذا، خَوَّلنا في كذا[٦]، يكون ذلك على جهةِ بيانٍ لفعله الجميل، كذلك يكون في قوله: «فَطَرَ، جَعَل»، لأن في ذلك نِعَماً لا تُحصى، ومَن قرأ: «فاطر» و«جاعل»، وأضاف «جاعل» فالأظهر أنَّهما اسما فاعل بمعنى المُضيّ، فيكونان صفةً لله.

ويجيء الخلافُ في نصب «رُسُلاً» فمذهب السِّيرافي أنه منصوبٌ باسم الفاعل وإن كان ماضياً، لما لم يمكن إضافته إلى اسمين نصب الثاني.

ومذهب أبي علي أنه منصوب بإضمارِ فعلٍ. والترجيح بين المذهبين مذكورٌ في النحو.

وأما مَن نصب «الملائكةَ» فيتخرَّج على مذهب الكسائي وهشام في جواز إعمال الماضي النَّصبَ، ويكون إذْ ذاك إعرابُهُ بدلاً، وقيل: هو مستقبل تقديره: يجعل الملائكةَ رُسُلاً، ويكون أيضاً إعرابه بدلاً[٧].

---

(١) في النسخ والمطبوع خلا (د٣ يه): بألف، والمثبت منهما، وهما بمعنى.
(٢) هي قراءة عاصم وحمزة والكسائي وهم الكوفيون، انظر السبعة ٢٦٣، والتيسير ١٠٥، وسلفت في تفسير الآية المذكورة من سورة الأنعام.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٨.
(٤) الكشاف ٣/ ٢٩٧.
(٥) في (ت د٣): الجملة.
(٦) في (ت): بكذا، وفي المطبوع: خولنا كذا.
(٧) انظر للمسألتين المقتصد في شرح الإيضاح ١/ ٥٠٥، ٥١٢، وشرح التسهيل ٣/ ٧٨، وشرح الكافية الشافية ١٠٢٨، ١٠٤٤، وارتشاف الضرب ٢٢٦٧، ٢٢٧١، ٢٢٧٢.

ومعنى «رُسُلاً» بالوَحْي وغيره من أوامره، ولا يُريد جميع الملائكة لأنهم ليسوا كلُّهم رُسُلاً، فمن الرُّسُل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، والملائكة المُتعاقبون، والملائكة المُسَدِّدون[1] حكامَ العَدْل، وغيرهم كالملَك الذي أرسله الله إلى الأعمى والأبْرَص والأقْرَع.

و«أجْنحة» جمع جَناح صيغة جمع القلَّة، وقياس جمع الكثرة فيه جُنُح، على وزن فُعُل، فإنْ كان لم يُسمع كان أجنحة مُستعملاً في القليل والكثير.

وتقدَّم الكلام على «مَثْنى وثُلاث ورُباع» في أول «النِّساء»[2] مُشْبعاً، ولكن المفسرون تعرَّضوا للكلام فيه هنا؛

فقال الزمخشري: مَثْنى وثُلاث ورُباع صفات لأجنحة، وإنما لم تنصرف لتكرُّر العَدْل فيها، وذلك أنها عُدلت عن ألفاظ الأعداد عن صِيغ إلى صيغ أُخَر، كما عُدل عُمر عن عامر وحَذام عن حاذمة، وعن تكرير إلى غير تكرير، وأما الوَصْفيّة فلا تفترق الحالُ فيها بين المَعْدولة والمَعْدول عنها، ألا تراك تقول: مررتُ بنسوةٍ أربع وبرجالٍ ثلاثة، فلا يُعرَّج عليها[3]. انتهى.

فجعل المانع للصَّرف هو تكرار العَدْل فيها، والمشهور أنها امتنعت الصَّرفَ للصِّفة والعَدْل.

وأما قوله: ألا تراك.... فإنه قاس الصفة في هذا المَعْدول على الصفة في أفْعل وفي ثلاثة، وليس بصحيح؛ لأن مُطلَقَ الصِّفة لم يَعدُّوه علَّة، بل اشترطوا فيه، فليس الشَّرط موجوداً في أربع لأن شرطه أنْ لا يقبل تاءَ التأنيث، وليس شرطه في ثلاثة موجوداً لأنه لم يُجعل علَّةً مع التأنيث، فقياسُ الزمخشري قياسٌ فاسدٌ إذ غَفَل عن شرط كونِ الصِّفة علَّةً.

وقال ابن عطية: عُدِلت في حال التَّنكير فتعرَّفت بالعَدْل، فهي لا تَنْصرفُ للعَدْل والتعريف، وقيل: للعَدْل والصِّفة[4]. انتهى.

---

(١) في (ت): الممدون، وفي (يه): المردون. وانظر المحرر الوجيز ٤/٤٢٨.
(٢) في تفسير الآية (٣) منها.
(٣) الكشاف ٣/٢٩٨.
(٤) المحرر الوجيز ٤/٤٢٨.

وهذا الثاني هو المشهور، والأول قولٌ لبعض الكوفيين.

والظاهر أن الملَك الواحد من صنفٍ له جناحان، وآخر ثلاثة، وآخر أربعة، وآخر له أكثر من ذلك؛ لما روي أن لجبريل ستّ مئة جناح، منها اثنان يبلغ بهما من المشرق إلى المغرب. قاله قتادة[١].

وأخذ الزمخشري يتكلّم على كيفية هذه الأجنحة، وعلى صورة هذه الثلاثة بما لا يُجدي قائلاً[٢] يُطالع ذلك في كتابه.

وقالت فرقة: المعنى: في كلِّ جانب من الملَك جناحان[٣]، ولبعضهم ثلاثة، ولبعضهم أربعة، وإلا فلو كانت ثلاثة لواحد لما اعتدلتْ في مُعتاد ما رأينا نحن من الأجنحة.

وقيل: بل هي ثلاثة لواحد، كما يوجد لبعض الحوت[٤].

والظّاهر أنّ المُراد من الأجنحة ما وُضعت له في اللغة.

وقال أبو عبد الله الرازي بذيل بحثه في قوله: «الحمد لله فاطر السماوات والأرض» وهو الذي حكينا عنه أن قوله: «جاعل الملائكة رُسلاً أولي أجنحةٍ مَثْنى وثُلاث رُباع»: أقلُّ ما يكون لذي الجناح؛ إشارةٌ إلى الجهة[٥]، وبيانه: أن الله ليس شيءٌ فوقه، وكلّ شيء تحت قُدرته ونعمته، والملائكة لهم وجهٌ إلى الله يأخذون منه نِعمه، ويُعطون مَن دونهم مما أخذوه بإذن الله؛ كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]، وقال تعالى

(١) أخرج الطبري ١٩/ ٣٢٦ عن قتادة قال: بعضهم له جناحان، وبعضهم ثلاثة، وبعضهم أربعة، وذكره كذلك الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٦١، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٩.
وأما قوله: لما روي أن لجبريل... فقد أخرج أحمد (٣٧٨٠)، والبخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) من حديث ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ رأى جبريل له ست مئة جناح.

(٢) في (د٣): فائدة، وانظر الكشاف ٣/ ٢٩٨.

(٣) في النسخ والمطبوع خلا (ت): والمعنى أن في... جناحان، والمثبت منها.

(٤) في المطبوع: الحيوانات. والكلام هذا والذي قبله في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٩.

(٥) في التفسير الكبير ٢٦/ ٣: أقل ما يكون لذي الجناح أن يكون له جناحان وما بعدهما زيادة، وقال قوم فيه: إن الجناح إشارة إلى الجهة.

في حقهم: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، فهما جناحان، وفيهم مَن يفعل ما يفعل من الخير بواسطة، وفيهم مَن يفعله لا بواسطة، فالفاعل بواسطة فيهم مَن له ثلاث جهات، ومنهم مَن له أربع جهات وأكثر. انتهى.

وبحثُه في هذا وفي «فاطر السماوات والأرض» بحثٌ عجيب، وليس على طريقة فَهْم العرب من مَدلولات الألفاظ التي حَمَّلها ما حَمَّل.

والظاهر أن «مَثْنى» وما بعده من صفات الأجنحة، وقيل: «أولي أجنحة» مُعترض، و«مَثنى» حال، والعامل فعلٌ محذوف يدلُّ عليه «رُسُلاً» أي: يُرْسَلُون مثنى وثُلاث ورُباع.

قيل: وإنما جعلهم أولي أجْنحة لأنه لما جعلهم رُسُلاً جعل لهم أجنحةً ليكونَ أسْرعَ لنَفاذِ الأمر وسرعة إنفاذِ القضاء؛ فإن المسافة التي بين السَّماء والأرض لا تُقطع بالأقدام إلا في سنين، فجُعلت لهم الأجنحةُ حتى يَنالوا المكانَ البعيدَ في الوقت القريب كالطَّير.

«يَزيد في الخلق ما يشاء» تقريرٌ لما يَقع في النفوس من التَّعَجُّب والاستغراب من خَبَر الملائكة أولي أجْنحة، أي: ليس هذا ببِدْعٍ في قدرة الله، فإنه يزيد في خلقه ما يشاء[١].

والظاهر عُموم الخَلْقِ، وقال الفرَّاء: هذا في الأجنحة التي للملائكة، أي: يزيد في خلق الملائكة في الأجنحة. وإليه ذهب الحسن.

وعن ابن عباس: يزيد في خلقِ الملائكةِ الأجنحةَ[٢].

وقالوا في هذه الزيادة: الخُلُق الحَسن، أو حُسْن الصَّوت، أو حُسْن الخطّ، أو المَلاحَة في العَينين أو الأنف، أو خِفَّة الرُّوح، أو الحُسْن، أو جُعودة الشَّعَر، أو العَقْل، أو العلم، أو الصَّنْعَة، أو العِفَّة في الفَقْر، أو الحَلاوة في الفم[٣].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩.

(٢) من قوله: وإليه ذهب الحسن... إلى هنا، ليس في المطبوع. وانظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٦.

(٣) انظر الأقوال في تفسير الثعلبي ٥/ ١٦٧، والماوردي ٤/ ٤٦٢، والقرطبي ١٧/ ٣٤٢-٣٤٣، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٣٦، والكشاف ٣/ ٢٩٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٩، وزاد المسير ٦/ ٤٧٣.

وهذه الأقوال على سبيل التَّمثيل لا الحَصْر، والآية مُطْلَقَةٌ تتناول كلَّ زيادةٍ في الخَلْق، وقد شَرحوا هذه الزيادةَ بالأشياء المُسْتَحْسَنة.

و«ما يشاء» عامٌّ لا يَخُصُّ مُسْتَحْسَناً دون غيره، وخَتْمُ الآية بالقُدْرة على كل شيءٍ يَدُلُّ على ذلك.

والفتحُ والإرْسالُ استعارةٌ للإطلاق، «فلا مُرْسِلَ له» مكان لا فاتحَ له، والمعنى: أيَّ شيءٍ يُطلقُ الله من رحمة، أي: مِن نِعمةِ رزقٍ، أو مطرٍ، أو صِحَّةٍ، أو أمنٍ، أو غير ذلك من صنوف نَعمائه التي لا يُحاط بعَدَدها.

وما رُوي عن المُفسِّرين المتقدِّمين من تفسير رحمة بشيءٍ مُعيَّن فليس على الحَصْر فيه إنما هو مِثال.

قال الزمخشري: وتنكيرُ الرَّحمة للإشاعة والإبْهام، كأنه قال: من أيَّةِ رحمةٍ كانت سَماويَّةٍ أو أرضيَّةٍ فلا أحدَ يقدرُ على إمساكها وحَبْسها، وأيَّ شيءٍ يُمسكُ الله فلا أحَدَ يَقْدر على إطلاقه[1]. انتهى.

والعمومُ مَفهومٌ من اسم الشَّرط، و«من رَحْمة» لبيان ذلك العامِّ من أيِّ صِنْفٍ هو، وهو مما اجتُزئ فيه بالنَّكرة المُفْرَدة عن الجمع المُعرَّفِ المُطابق في العُموم لاسم الشَّرط، وتقديرُه: من الرَّحَمات، و«من» في موضع الحال، أي: كائناً من الرَّحَمات، ولا يكون في موضع الصِّفة؛ لأن اسمَ الشَّرط لا يُوصَف.

والظَّاهر أن قوله: «وما يُمْسِك» عامٌّ في الرَّحْمة وفي غيرها لأنه لم يُذْكَر له تبيين، فهو باقٍ على العموم في كلِّ ما يُمْسَك. فإنْ كان تفسيرُه: من رحمة، وحُذفت لدلالة الأوَّل عليه؛ فيكون تذكيرُ الضَّمير في «فلا مُرْسِلَ له من بعده» حَمْلاً على لفظ «ما» وأُنِّث في «فلا مُمْسك لها» على معنى «ما» لأن معناها الرَّحمة. وقرئ: «فلا مُرْسِلَ لها» بتأنيث الضَّمير[2]. وهو دليلٌ على أن التفسير هو: من رحمة، وحُذف لدلالة ما قبله عليه.

وعن ابن عباس: «من رَحْمةٍ» من باب تَوْبةٍ «فلا مُمْسِكَ لها» أي: يتوبون إنْ

(١) الكشاف ٣/ ٢٩٨.
(٢) ذكرها الزمخشري ٣/ ٢٩٨.

شاؤوا وإنْ أبَوا «وما يُمسِك» من باب توبةٍ «فلا مُرْسِلَ له من بعده» فهم لا يتوبون. وعنه أيضاً: «من رحمةٍ» من هِداية[(١)].

قال الزمخشري: فإن قلت: فما تقول فيمَن فسَّر الرَّحمةَ بالتَّوبة وعزاه إلى ابن عباس؟ قلت: أراد بالتَّوبة الهدايةَ لها، والتوفيق فيها، وهو الذي أراده ابن عباس إنْ قاله فمقبول، وإنْ أراد أنه إنْ شاء أن يتوب العاصي تاب وإنْ لم يشأ لم يَتُبْ فمَرْدودٌ؛ لأن الله تعالى يشاء التوبةَ أبداً، ولا يجوز عليه أنْ لا يشاءَها[(٢)]. انتهى. وهو على طريقة الاعتزال.

«من بعده» هو على حذفِ مُضاف، أي: من بعد إمساكه، كقوله: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]، أي: من بعد إضلال الله إيّاه لأن قبله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]، كقوله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وقدَّره الزمخشري: من بعد هِدايةِ الله[(٣)]. وهو تقديرٌ فاسدٌ لا يُناسِب الآية، جرى فيه على طريقة الاعتزال.

«وهو العزيز» الغالبُ القادرُ على الإرسال والإمساك «الحَكيم» الذي يُرسل ويُمسك ما اقتضته حكمتُه[(٤)].

«يا أيُّها الناس» خطابٌ لقُريش، وهو مُتَّجِهٌ لكلِّ مؤمن وكافر، ولاسيَّما مَن عبد غيرَ الله، وذَكَّرهم بنِعَمه في إيجادهم.

«اذكروا» ليس أمْراً بذِكرِ اللِّسان، ولكنْ به وبالقلب، وبحِفْظِ النِّعمة من كُفرانها، وشُكرها، كقولك لمَن أنعمتَ عليه: اذكر أياديَّ عندك، تُريد: حِفظَها وشُكرَها، والجميع مَغْمورون في نعمةِ[(٥)] الله، فالخطاب عامُّ اللفظ وإنْ كان نزل ذلك بسبب قريش. ثم استَفْهَم على جهةِ التَّقرير «هل من خالقٍ غيرُ الله»؟! أي: فلا إله إلا الخالق، لا ما تعبدون أنتم من الأصنام.

---

(١) ذكرهما عن ابن عباس: الماوردي ٤/ ٤٦٢، والقرطبي ١٧/ ٣٤٤.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٩٩.
(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٩ وما قبله منه.
(٤) في (ت): الحكمة، والكلام من الكشاف.
(٥) في (ت): نعم.

وقرأ ابن وَثَّاب وشَقيق وأبو جعفر وزيد بن علي وحمزة والكسائي: «غيرِ» بالخَفْض نعتاً على اللَّفظ[١]، و«من خالقٍ» مبتدأ، و«يَرْزُقكم» جَوَّزوا أن يكون خبراً للمبتدأ، وأنْ يكون صفةً وأنْ يكون مُستأنفاً، والخبر على هذين الوجهين محذوف تقديرُه: لكم.

وقرأ شَيْبَة وعيسى والحسن وباقي السبعة: «غيرُ» بالرَّفع[٢].

وجوَّزوا أنْ يكون نَعْتاً على الموضع كما كان الجرُّ نَعْتاً على اللفظ، وهذا أظهرُ لتوافُقِ القراءتين، وأنْ يكون خبراً للمبتدأ، وأنْ يكون فاعلاً باسم الفاعل الذي هو خالق، لأنه قد اعتمَد على أداة الاستفهام فحَسُنَ إعمالُه، كقولك: أقائمٌ زيد، في أحد وجهَيه.

وفي هذا نظَرٌ، وهو أن اسم الفاعل أو ما جَرى مجراه إذا اعتمد على أداة الاستفهام وأجريَ مجرى الفعل فرفع ما بعده؛ هل يجوز أن تدخلَ عليه «من» التي للاستغراق فتقول: هل من قائم الزيدون، كما تقول: هل قائم الزيدون؟ والظَّاهر أنه لا يجوز، ألا ترى أنه إذا جَرى مجرى الفعل لا يكون فيه عموم، بخلافه إذا دخلت عليه «من»، ولا أحفظُ مثلَه في لسان العرب، وينبغي أنْ لا يُقْدَم على إجازة مثل هذا إلا بسماعٍ من كلامِ العرب.

وقرأ الفضل بن إبراهيم النحويّ: «غيرَ» بالنصب على الاستثناء[٣]، والخبر إمَّا «يرزقكم» وإمَّا محذوف، ويرزقكم مُستأنَف، وإذا كان «يرزقكم» مُستأنفاً كان أولى؛ لانتفاء صِدْقِ خالقٍ غير الله، بخلاف كونه صفةً، فإن الصِّفة تقيّد، فيكون ثَمَّ خالقٌ غير الله لكنه ليس برازق.

ومعنى «من السَّماء» بالمطر «والأرض» بالنَّبات «لا إله إلا هو» جملةٌ مُستَقلّة لا موضعَ لها من الإعراب «فأنَّى تُؤفَكون» أي: كيف تُصْرَفون عن التَّوحيد إلى الشِّرك؟

---

(١) السبعة ٥٣٤، والتيسير ١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥١ - وهي قراءة أبي جعفر، وخلف من العشرة - ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٦، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٠، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٦٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٩، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٤٥.

(٢) السبعة والتيسير والنشر وإعراب القرآن والمحرر الوجيز.

(٣) مختصر في الشواذ ١٢٣.

«وإن يكذبوك» إلى «الأمور» تقدَّم الكلامُ على ذلك[١].

«إنّ وعْدَ الله حقٌّ» شاملٌ لجميع ما وَعد من ثوابٍ وعِقاب وغير ذلك.

وقرأ الجمهور: «الغَرور» بفتح الغين، وفسَّره ابن عباس بالشَّيطان[٢].

وقرأ أبو حَيْوَة وأبو السَّمّال بضمِّها[٣]، جمع غار أو مصدر؛ كقوله: ﴿فَدَلَّـٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢]. وتقدّم الكلامُ على ذلك في آخر «لقمان»[٤].

«إن الشَّيطان لكم عَدوّ» عَداوتُه سبقت لأبينا آدم، وأيُّ عداوةٍ أعظمُ من أن يقول في بَنيه: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢] ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ [النساء: ١١٩].

«فاتّخِذوه عدوًّا» أي: بالمُقاطَعة والمُخالَفَة باتِّباع الشَّرع.

ثم بَيَّن أن مَقصودَه في دعاء حِزبه إنما هو تعذيبُهم في النار، ليَشْترِكَ هو وهم في العَذاب، فهو حريصٌ على ذلك أشدَّ الحِرْص، حتى يَبين صِدقُ قوله في فلأُغْوِيَنَّهم ولأُضِلَّنَّهم؛ لأن الاشتراكَ فيما يَسوء مما قد يُتَسَلَّى به بخلاف المُنْفَرِد بالعَذاب.

ثمَّ ذكر الفريقين وما أعدَّ لهما من العِقاب والثَّواب، وبدأ بالكُفَّار لمجاورته قولَه: «إنّما يدعو حِزْبَه» فأتبَع خبرَ الكافر بحاله في الآخرة.

قال ابن عطية: واللام في «ليكونوا» لامُ الصَّيرورة، لأنه لم يَدْعُهم إلى السَّعير، إنما اتَّفق أنْ صار أمرُهم عن دعائه إلى ذلك[٥]. انتهى.

ونقول: هو مما عُبِّر فيه عن السَّبب بما تسبَّب عنه دعاؤهم إلى الكفر، وتَسبَّب عنه العَذابُ.

---

(١) في تفسير الآية (١٨٤) من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه عنه الطبري ١٩/ ٣٣١.

(٣) تفسير الثعلبي ٥/ ١٦٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٩، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٤٧، ووقع في المحرر: سماك العبدي بدل أبي السمّال، وفي معاني القرآن ٥/ ٤٣٨، وإعراب القرآن ٣/ ٣٦١ كلاهما للنحاس: وروى شعبة عن سماك بن حرب: الغرور بضم الغين، والذي في الدر المصون ٩/ ٢١٣، وروح المعاني ٢٢/ ١٦٥ موافق لما في البحر.

(٤) في تفسير الآية (٣٣) منها.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٠.

و«الذين كفروا، والذين آمنوا» مبتدآن، وجوَّز بعضُهم في «الذين كفروا» أنْ يكون في موضع خَفْضٍ بدلاً من «أصحابِ السَّعير» أو صفةً، وفي موضع نصْبٍ بدلاً من «حزْبِه»، وفي موضع رَفْعٍ بدلاً من ضمير «ليكونوا»، وهذا كلُّه بمَعْزِلٍ عن فَصاحةِ التَّقسيم وجَزالة التركيب.

«أفمَن زُيِّن له سُوءُ عَملِه فرآه حَسَناً» أي: فرأى سُوءَ عملِه حَسناً، و«مَن» مبتدأ موصول وخبرُه محذوف، والذي يَقتضيه النَّظْمُ أنْ يكون التقدير: كمَن لم يُزَيَّن له، كقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ [محمد: ١٤] ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩]. ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ ثم قال: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال الكسائي: تقديرُه: تَذْهب نفسُك عليهم حَسَرات، لدلالة «فلا تَذْهَبْ نفسُك».

وقيل: التقدير: فرآه حَسَناً فأضلَّه الله كمَن هداه الله، فحُذف ذلك لدلالة «فإن الله يُضِلُّ مَن يشاء» وذكر هذين الوَجْهَين الزجَّاج[1].

وشرح الزمخشري هنا «يُضلُّ مَن يشاء» على طريقته في غير موضع من كتابه من أن الإضلال هو خذلانُه وتخليتُه وشأنَه، وأتى بألفاظ كثيرة في هذا المعنى[2].

وقرأ الجمهور: «أفمَن زُيِّن» مبنيًّا للمفعول «سوءُ» رفع[3].

وقرأ عُبيد بن عُمير: «زَيَّن له سوءَ» مبنيًّا للفاعل ونصب سوء، وعنه أيضاً: «أسوأَ» على وزن أفعل منصوباً[4]، وأسوأُ عملِه هو الشِّرك.

وقرأ طلحة: «أمَّن» بغير فاء[5]. قال صاحب «اللّوامح»: فالهمزة للاستخبار

(١) في معاني القرآن له ٤/ ٢٦٢، ونقلهما عنه الزمخشري ٣/ ٣٠١، وابن الجوزي ٦/ ٤٧٥، والقرطبي ١٧/ ٣٤٨، وانظر المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٠.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠١.

(٣) في (ت): بالرفع، وهما سواء.

(٤) ذكر قراءتي عبيد بن عمير: السمين في الدر ٩/ ٢١٤، والآلوسي في روح المعاني ٢٢/ ١٧٠.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٠.

بمعنى العامّة للتقرير، ويجوز أن تكون بمعنى حرف النّداء، فحُذف التَّمام كما حُذف من المشهور الجواب. انتهى. ويعني بالجواب: خبر المبتدأ، وبالتّمام ما نُودي لأجله، أي: تَفكَّر وارْجع إلى الله.

«فإن الله يُضِلُّ مَن يشاء ويَهدي مَن يشاء» تسليةٌ للرَّسول عن كُفر قومه، ووجوب التّسليم لله في إضْلالِ مَن يشاء وهِداية مَن يشاء.

وقرأ الجمهور: «فلا تَذْهَبْ نفسُك» مَبنيًّا للفاعل من ذهب، ونفسُك فاعل.

وقرأ أبو جعفر وقتادة وعيسى والأشهب وشَيْبة وأبو حَيْوة وحُميد والأعمش وابن مُحَيصن: «تُذْهِب» من أذْهَب مُسنداً لضمير المخاطب «نَفْسَك» نصبٌ، ورُويت عن نافع[١].

والحَسْرةُ: هَمُّ النَّفْسِ على فَواتِ أمر.

وانتصب «حَسَراتٍ» على أنه مفعول من أجله، أي: فلا تَهْلِك نفسُك للحَسَرات، و«عليهم» متعلّق بـ «تَذْهَب» كما تقول: هَلَك عليه حُبًّا ومات عليه حُزناً، أو هو بيانٌ للمُتَحَسَّر عليه، ولا يتعلّق بـ «حسَرَات» لأنه مصدر فلا يتقدَّم معمولُه عليه[٢].

وقال الزمخشري: ويجوز أنْ يكون حالاً كأن كلَّها[٣] صارت حَسَراتٍ لفَرْطِ التَّحَسُّر، كما قال جرير:

مَشَقَ الهَواجِرُ لَحْمَهُنَّ مع السُّرى   حتى ذَهَبْنَ كَلاكِلاً وصُدورا[٤]

---

(١) قراءة أبي جعفر ـ يزيد بن القعقاع وهو من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣٥١، وانظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٧، وتفسير الطبري ١٩/ ٣٣٥، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٣، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٦٨-١٦٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٠، وزاد المسير ٦/ ٤٧٦، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٤٩، ٣٥٠.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠١ من المطبوع.

(٣) في (ت): كأن النفس كلها. وهو سياق صحيح جيد، والمثبت من سائر النسخ والمطبوع، وهو موافق لما في الكشاف ٢/ورقة ٢٠٤، و٣/ ٣٠١ من المطبوع.

(٤) ديوان جرير ١/ ٢٢٧ (بشرح ابن حبيب)، والكتاب ١/ ١٦٢، والكشاف ٣/ ٣٠١، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٥١، وخزانة الأدب ٤/ ٩٨-٩٩. المَشْق: الترقيق والهزال، والهواجر: جمع =

يريد: رَجَعْنَ كَلاكِلاً وصدورا، أي: لم يَبْقَ إلا كَلاكِلُها وصُدورُها، ومنه قولُه:

فعلى إثْرِهم تَساقَطُ نفسي حَسَراتٍ وذِكْرُهم لي سَقامُ[1]

انتهى. وما ذكر[2] مِن أنّ كَلاكِلاً وصُدوراً حالٌ[3] هو مذهب سيبويه، وقال المبرِّد[4]: هو تمييزٌ منقولٌ من الفاعل، أي: حتى ذَهبت كلاكِلُها وصُدورُها.

ثمَّ تَوَعَّدهم بالعِقاب على سُوء صَنيعهم فقال: «إن الله عَليمٌ بما يَصْنَعون» أي: فيُجازيهم عليه.

* * *

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ
ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠ وَٱللَّهُ
خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا
يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١١ وَمَا يَسْتَوِى
ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا
وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢
يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ
مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن

= هاجرة، وهي نصف النهار وقت اشتداد الحر، والسُّرى: سير الليل، والكلاكل: جمع كَلْكَل كجعفر، وهو الصدر. وصف رواحلَ أنضاها دؤوب السير في الهواجر والليل حتى ذهب لحوم صدرها. قاله البغدادي.

(١) البيت لأبي دُواد الإيادي من قصيدة له في الأصمعيات ١٨٨، والشعر والشعراء ١/ ٢٣٩، والحماسة البصرية ٧٧٣.

(٢) في (ت د٣): ذكره. وهما سواء.

(٣) في المطبوع: حالان.

(٤) انظر الكتاب ١/ ١٦٢، والنكت في تفسير كتاب سيبويه للأعلم ١/ ٢٨١ فقد نقل كلام المبرد.

قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴿١٤﴾﴾.

لمَّا ذكر أشياءَ من الأمور السَّماوية وإرسالَ الملائكة؛ ذكر أشياءَ من الأمور الأرضيَّة الرياحَ وإرسالَها، وفي هذا احتجاجٌ على مُنْكِري البَعث، ودَلَّهم على المثالِ الذي يُعاينونه، وهو وإحياء الموتى سِيَّان.

وفي الحديث أنه قيل لرسول الله ﷺ: كيف يُحيي الله الموتى، وما آيةُ ذلك في خَلْقِه؟ فقال: «هل مَرَرْتَ بوادي أهلِك مَحْلاً، ثمَّ مَرَرْتَ به يَهتزُّ خَضِراً»؟ فقالوا[1]: نعم، فقال: «فكذلك يُحيي الله الموتى، وتلك آيتُه في خَلْقِه»[2].

قيل: «أرسل» في معنى يُرْسلُ؛ ولذلك عطف عليه «فتُثير».

وقيل: جيء بالمضارع حكايةَ حالٍ تقع فيها إثارةُ الرِّياح السَّحابَ، وتُسْتَحْضَر تلك الصورةُ البديعةُ الدَّالَّةُ على القُدرة الرَّبانية، ومنه: ﴿فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ﴾ [الحج: ٦٣].

وقال الزمخشري: وكذا يفعلون بكلِّ فعلٍ فيه نوعُ تمييزٍ وخصوصيَّةٍ بحالٍ تُستَغرب، أو تَهُمُّ المخاطَب، أو غير ذلك؛ كما قال تأبَّط شرًّا:

بأني قد لقيتُ الغُولَ تَهْوي ... بسَهْبٍ كالصَّحِيفَةِ صَحْصَحانِ
فأَضرِبُها بلا دَهَشٍ فخَرَّت ... صَريعاً لليَدَين وللجِرانِ[3]

لأنه قصدَ أن يُصوِّر لقومه الحالةَ التي تَشجَّع فيها بزَعْمه[4] على ضَرْب الغول

(١) كذا في النسخ والمطبوع، والذي في مصادر التخريج: فقال، والمقصود به أبو رزين العقيلي فهو الذي سأله ﷺ.
(٢) أخرجه الطيالسي (١٠٨٩)، وأحمد (١٦١٩٢)، والثعلبي في الكشف والبيان ٥/ ١٦٩، وذكره الزمخشري ٣/ ٣٠٢، والقرطبي ١٧/ ٣٥٣ من حديث أبي رزين العقيلي ﷺ، وإسناده ضعيف كما ذكر محققو المسند، وسلف في تفسير الآية (٥٧) من سورة الأعراف.
(٣) ديوان تأبط شراً ص٢٢٤-٢٢٥، السَّهب: الفلاة، وقصد بالصحيفة الانبساط والسهولة، والأرض الصَّحصحان: المستوية الواسعة العارية من النبت، والدهش: ذهاب العقل من الفزع، والجران: مقدَّم العنق.
(٤) في المطبوع: ابن عمه، وهو تحريف.

كأنه يُبَصِّرُهم إيّاها، ويُطْلعهُم على كُنْهِها مُشاهَدةً؛ للتَّعَجُّب من جُرْأته على كلِّ هَوْلٍ، وثَباتِه عند كلِّ شِدَّة، وكذلك سَوْقُ السَّحابِ إلى البَلدِ الميِّت، وإحياءُ الأرضِ بالمطر بعد موتها؛ لمّا كانا من الدَّلائل على القُدْرَةِ الباهرةِ قيل: فسُقْنا وأحْيَيْنا مَعْدولاً بهما عن لفظِ الغَيبةِ إلى ما هو أدخَلُ في الاختصاصِ وأدلُّ عليه[(١)]. انتهى.

وقال أبو عبد الله الرازي ما مُلَخَّصُه: أتى «أَرْسَلَ» بلفظ الماضي لمّا أُسْنِد إلى الله وما يفعلُه تعالى بقوله: كُن لا يُبقي زماناً ولا جُزءَ زمان، فلم يأتِ بلفظ المستقبل لوجوب وقوعِه وسُرعةِ كونه، ولأنه[(٢)] فَرغ من كلّ شيء، فهو قَدَّر الإرسالَ في الأوقات المعلومةِ وإلى المواضعِ المعيَّنة، ولما أسند الإثارة إلى الرِّيح وهي تؤلِّف في زمانٍ قال: «فتُثير» وأسند «أرْسل» إلى الغائب، وفي «فسُقْناه، فأحْيَيْنا» إلى المتكلّم لأنه في الأوّل عَرَّف نفسَه بفعل من الأفعال وهو الإرسال، ثمَّ لما عُرف قال: أنا الذي عَرَفْتَني سُقتُ السَّحابَ، فأحييتُ الأرضَ، ففي الأول تعريفٌ بالفعل العجيب، وفي الثاني تذكيرٌ بالبِعْثَةِ[(٣)]، و«فسُقْناه، فأحْيَينا» بصيغة الماضي يؤيِّد ما ذكرنا من الفَرْقِ بين «فتُثير وأرسل» انتهى.

وهذا الذي ذكَر من الفَرْق بين «أَرْسَل وفتُثير» لا يظهر؛ ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة الروم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الآية: ٤٨]، وفي سورة الأعراف: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الآية: ٥٧] كيف جاء في الإرسال بالمضارع؟ وإنما هذا من التَّفَنُّن في الكلام، والتصرُّف في البلاغة، وأمَّا الخروج من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلِّم المُعَظِّم نفسَه فهو من باب الالتفات، وكذلك ما في «الأعراف» ﴿سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الآية: ٥٧].

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٠١-٣٠٢، ونقله عنه القرطبي ١٧/ ٣٥٢-٣٥٣.

(٢) في التفسير الكبير ٢٦/ ٧: وكأنه، واختصار أبي حيان لكلام الرازي مخلّ، فانظر كلامه في تفسيره فسياقه أوضح مما هنا، ولولا خوف الإطالة لنقلته بتمامه.

(٣) في (أ ت ز٢) والمطبوع: بالبعث، والمثبت من (د٣ يه)، وفي التفسير الكبير ٢٦/ ٧ - وعنه روح المعاني ٢٢/ ١٧٣ : بالنعمة، وهي الصواب إن شاء الله، ويدل عليه ما بعده: فإن كمال نعمة الرياح والسحب بالسوق والإحياء.

وأمَّا قوله: وما يفعله تعالى. . . إلى آخره، فكلُّ فعلٍ وإنْ كان أُسند إلى غيره مجازاً فهو فعلُه حقيقةً، فلا فرْقَ بين ما يُسْنده إلى ذاته وبين ما يُسنده إلى غيره؛ لأن جميعَ ذلك هو بإيجاده وخلقِه.

و«النُّشور» مصدر نَشَر الميتُ: إذا حَيي، قال الأعشى:

حتى يقولَ الناسُ مما رأَوْا يا عَجباً للمَيِّت النَّاشِرِ[1]

و«النُّشور» مبتدأ، والجار والمجرور قبله في موضع الخبر، والتَّشبيه وقع بجهات؛ لمّا قبلت الأرضُ الميتةُ الحياةَ اللائقةَ بها؛ كذلك الأعضاء تقبلُ الحياةَ، أو كما أنّ الريحَ تجمعُ قِطَعَ السَّحاب كذلك تُجمع أجزاءُ الأعضاء وأبعاضُ الأشياء، أو كما يَسوق الرِّياحَ والسَّحابَ إلى البلد الميت يَسوقُ الرُّوحَ والحياةَ إلى البَدَن[2].

«مَن كان يُريد العِزَّة» أي: بمُغالَبةٍ. «فلله العِزَّة» أي: ليست لغيره، ولا تتمُّ إلا به، والمُغالِبُ مَغْلوب، ونحا إليه مجاهد وقال: مَن كان يُريد العِزَّة بعبادة الأوثان. وهذا تمثيلٌ لقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١].

وقال قتادة: مَن كان يُريد العِزَّةَ وطريقَها القَويم، ويُحِبُّ نَيْلَها على وَجْهِها «فللّه العِزَّةُ» أي: به وعن أمره، لا تُنالُ عِزَّتُه إلا بطاعته[3].

وقال الفرَّاء: مَن كان يُريد علمَ العِزَّةِ «فلله العِزَّةُ» أي: هو المُتَّصِفُ بها[4].

وقيل: مَن كان يُريد العِزَّةَ التي لا يَعْقُبها ذِلَّة فهي لله، لأن عزَّةً يَعْقُبها ذِلَّةٌ ذِلَّةٌ، ويُصار بها للذّلة.

وقال الزمخشري: كان الكافرون يَتَعَزَّزون بالأصنام كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١]، والذين آمنوا بألسنتهم

---

(١) ديوان الأعشى ١/ ٣٤٤ (طبعة قطر)، وسلف في تفسير الآية (٢٥٩) من سورة البقرة.

(٢) نقله عن أبي حيان الآلوسي ٢٢/ ١٧٤.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣١، وأخرجه عنهما الطبري ١٩/ ٣٣٧.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٧، ونقله عنه النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٣٩، وإعراب القرآن ٣/ ٣٦٤، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٤٧٧، والقرطبي في تفسيره ١٧/ ٣٥٣.

من غير مواطأة قلوبهم كانوا يتعزَّزون بالمشركين، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩] فبيَّن أنْ لا عِزَّةَ إلا لله ولأوليائه، وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨][١]. انتهى.

ولا تنافيَ بين قوله: «فإنَّ العِزَّة لله جميعاً» وإنْ كان الظَّاهر أنها له لا لغيره؛ وبين قوله: «ولله العِزَّةُ ولرسوله وللمؤمنين» وإنْ كان يَقتضي الاشتراكَ، لأن العزةَ في الحقيقة لله بالذَّات، وللرَّسول بواسطة قُرْبِه من الله، وللمؤمنين بواسطة الرَّسول، فالمحكوم عليه أوَّلاً غير المحكوم عليه ثانياً.

و«مَن» اسم شرط، وجملة الجواب لا بدَّ أنْ يكون فيها ضميرٌ يعودُ على اسم الشَّرط إذا لم يكن ظَرْفاً، والجواب محذوف تقديرُه على حسب تلك الأقوال السابقة، فعلى قول مجاهد فهو مَغْلوب، وعلى قول قتادة فلْيَطْلُبْها من الله، وعلى قول الفراء فلْيَنْسُبْ ذلك إلى الله، وعلى القول الرابع فهو لا يَنالُها، وحُذف الجوابُ استغناءً عنه بقوله: «فلله العِزَّة جميعاً» لدلالته عليه.

والظَّاهر من هذه الأقوال قولُ قتادة؛ أي: فلْيَطْلُبْها ممَّن العزَّةُ له يتصرَّف فيها كما يريد، كما قال تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وانتصب «جميعاً» على الحال[٢]، والمُراد عِزَّةُ الدُّنيا وعِزَّة الآخرة.

و«الكَلِمُ الطَّيِّبُ»: التَّوحيدُ والتَّحميدُ وذِكرُ الله ونحو ذلك.

وقال ابن عباس: شهادةُ أنْ لا إله إلا الله. وقيل: ثَناءٌ بالخير على صالحي المؤمنين.

وقال كعب: إنّ لسُبحانَ الله والحمدُ لله ولا إله إلا الله والله أكبر لدَويًّا حولَ العَرْش كدَويِّ النَّحل بذِكْرِ صاحبها[٣].

(١) الكشاف ٣/ ٣٠٢.
(٢) في المطبوع و(أ): المراد (؟!).
(٣) تفسير الطبري ١٩/ ٣٣٩، والثعلبي ٥/ ١٧٠، والماوردي ٤/ ٤٦٤، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٤٠، والكشاف ٣/ ٣٠٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣١.

وقرأ الجمهور: «يَصْعَد» مبنيًّا للفاعل، من صَعِد «الكَلِمُ الطَّيِّب» مرفوعان، فالكَلِمُ جمعُ كَلِمة.

وقرأ عليّ وابن مسعود والسُّلمي وإبراهيم: «يُصْعِد» من أصْعَد «الكلامَ الطَّيِّبَ» منصوبان[١].

وقال ابن عطية: وقرأ الضحّاك: «إليه يُصعد» بضمِّ الياء[٢]. ولم يذكر مبنيًّا للفاعل ولا مبنيًّا للمفعول، ولا إعرابَ ما بعده.

وقال الزمخشري: وقرئ: «إليه يُصْعَد الكَلِمُ الطَّيِّبُ» على البناء للمفعول[٣]. انتهى.

وقرأ زيد بن عليّ: «يَصعَدُ» من صَعِد «الكلامُ» رفعاً[٤].

وصُعودُ الكَلِم إليه تعالى مَجازٌ في الفاعل وفي المنتهى[٥] إليه؛ لأنه تعالى ليس في جهة، ولأن الكَلِم ألفاظٌ لا توصف بالصُّعود لأن الصُّعودَ من الأجرام يكون، وإنما ذلك كنايةٌ عن القَبول ووصفه بالكَمال، كما يُقال: علا كَعْبُه وارتفع شأنُه، ومنه: ترافعوا إلى الحاكم، ورفع الأمر إليه، وليس هناك علوٌّ في الجهة.

وقرأ الجمهور: «والعملُ الصَّالحُ» برَفْعهما، فالعملُ مبتدأ، ويرفعه الخبر، وفاعل يرفعه ضميرٌ يعود على العَمل الصَّالح، وضميرُ النصب يعودُ على الكَلِم، أي: يَرفعُ الكلمَ الطيِّبَ. قاله ابن عباس والحسن وابن جُبير ومجاهد والضحّاك.

وقال الحسن: يُعرَضُ القولُ على الفعل، فإنْ وافق القولَ الفعلُ قُبِل، وإنْ خالف رُدّ.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٧، ومختصر في شواذ القراءات ١٢٣، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٤، والكشاف ٣/ ٣٠٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣١، وزاد المسير ٦/ ٤٧٧، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٥٦.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣١، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٥٦.

(٣) الكشاف ٣/ ٣٠٢. ومن قوله: منصوبان... إلى هنا، ليس في المطبوع.

(٤) في المطبوع: رقى، وهو تحريف. وذكر القراءة الآلوسي في روح المعاني ٢٢/ ١٨٠.

(٥) في (أ ت ز٢) والمطبوع: والمسمى.

وعن ابن عباس نحوه قال: إذا ذكر الله العبدُ، وقال كلاماً طيِّباً، وأدَّى فرائضَه، ارتفع قولُه مع عَمَلِه، وإذا قال ولم يُؤدِّ فرائضَه رُدَّ قولُه على عمله وقيل: عملُه أولى به.

قال ابن عطية: وهذا قولٌ يَرُدُّه مُعْتَقَدُ أهلِ السنَّة، ولا يصحُّ عن ابن عباس، والحقُّ أن العاصي التاركَ لفرائضه إذا ذكر الله وقال كلاماً طيباً فإنه مكتوبٌ له مُتَقَبَّل، وله حسناتُه وعليه سيِّئاتُه، والله يتقبَّل من كلِّ مَن اتَّقى الشِّرك.

وقال أبو صالح وشَهْرُ بن حَوْشَب عكسَ هذا القول؛ ضميرُ الفاعل يعود على الكَلِم، وضميرُ النَّصب للعمل الصَّالح، أي: يرفعُه الكلمُ الطيِّب.

وقال قتادة: إن الفاعل هو ضميرٌ يعود على الله، والهاء للعمل الصَّالح، أي: يرفعه الله إليه، أي: يقبلُه. وقال ابن عطية: هذا أرجحُ الأقوال[(١)].

وعن ابن عباس: والعملُ الصّالح يرفعُ عاملَه ويُشَرِّفُه[(٢)]. فجعلَه على حذف مضاف.

ويجوز عندي أن يكون «والعمل» معطوفاً على «الكَلِمُ الطيِّب» أي: يَصْعَدان إلى الله «ويَرفعُه» استئنافُ إخبار، أي: يرفعُهما الله، ووَحَّد الضميرَ لاشتراكهما في الصُّعود، والضّمير قد يجري مجرى اسمِ الإشارة، فيكون لفظُه مُفرَداً، والمُرادُ به التَّثنية، فكأنه قيل: ليس صُعودُهما من ذاتِهما، بل ذلك برفْعِ اللهِ إياهما.

وقرأ عيسى وابن أبي عَبْلَة: «والعملَ الصَّالحَ» بنصبهما[(٣)] على الاشتغال، فالفاعل ضميرُ «الكَلِم» أو ضمير الله.

---

(١) قول ابن عطية هذا والذي قبله في المحرر الوجيز ٤/ ٤٣١، ونقل أولهما عن ابن عطية: القرطبي في تفسيره ١٧/ ٣٥٦-٣٥٧، ثم نقل عن ابن العربي كلاماً مؤداه الردّ على ابن عطية، فانظره إن أحببت.

(٢) انظر الأقوال السالفة في تفسير الطبري ١٩/ ٣٣٩-٣٤٠، والثعلبي ٥/ ١٧٠-١٧١، والماوردي ٤/ ٤٦٤، والقرطبي ١٧/ ٣٥٦-٣٥٨، ومعاني القرآن ٥/ ٤٤٠-٤٤٢، وإعراب القرآن كلاهما للنحاس ٣/ ٣٦٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣١، وزاد المسير ٦/ ٤٧٨.

(٣) مختصر في الشواذ ١٢٣، وذكر النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٤٢ ـ ونقله عنه القرطبي ١٧/ ٤٤٢ ـ أن عيسى بن عمر قال: قرأه ناس: «والعملَ الصالحَ يرفعه».

«ومَكْرُ» لازم، و«السَّيِّئات» نعتٌ لمصدر محذوف، أي: المَكْرات السيّئات، أو لمضاف إلى المصدر، أي: أصْناف المَكْر السيّئات، أو ضَمَّن «يَمكرون» معنى يَكْسِبون، فنصب «السّيئات» مفعولاً به.

وإذا كانت «السيّئات» نعتاً لمصدر أو لمضاف للمصدر فالظاهر أنه عَنى به مَكَرات قريش في دار النَّدْوة إذ تذاكروا إحدى ثلاث مَكْرات، وهي المذكورة في «الأنفال»[1] إثباتُه أو قتلُه أو إخراجُه. و«أولئك» إشارةٌ إلى الذين مكروا تلك المَكَرات.

«يَبور» أي: يَفْسُد ويكْسَدُ ويَهْلِك دون مَكْر الله بهم؛ إذ أخرجهم من مكة، وقتلَهم، وأثْبتَهم في قَليب بدر، فجمع عليهم مَكَراتهم جميعاً، وحقَّق فيهم قولَه: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣][2].

و«هو» مبتدأ، و«يَبور» خبرُه، والجملة خبرٌ عن قوله: «ومَكْرُ أولئك».

وأجاز الحَوْفي وأبو البقاء أن يكون «هو» فاصلة و«يبور» خبرُ «ومَكْرُ أولئك»[3].

والفاصلةُ لا يكون ما بعدها فعلاً، ولم يذهب إلى ذلك أحدٌ فيما علمناه إلا عبد القاهر الجرجاني في «شرح الإيضاح» له فإنه أجاز في: كان زيد هو يقوم؛ أن يكون هو فصْلاً، ورُدَّ ذلك عليه[4].

«والله خلقكم من تُراب» من حيث خَلْقُ أبينا آدم «ثمَّ من نُطْفة» أي: بالتَّناسل «ثمَّ جعلكم أزواجاً» أي: أصنافاً ذُكراناً وإناثاً، كما قال: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ [الشورى: ٥٠].

---

(١) في الآية (٣٠).

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٣.

(٣) في (يه): ويبور خبره، والجملة خبر عن قوله: ومكر أولئك. وهذا تكرار للسطر قبله لانتقال النظر. وانظر إملاء ما منّ به الرحمن ٢/ ١٩٩.

(٤) انظر المقتصد في شرح الإيضاح ١٨/ ٤٥١ للجرجاني، وروح المعاني ٢٢/ ١٨٤.

وقال قتادة: قَدَّر بينكم الزَّوجيَّة، وزوَّج بعضكم بعضاً[١].

ومن في «من مُعَمَّر» زائدة، وسمَّاه بما يؤولُ إليه وهو الطويل العُمر.

والظاهر أن الضَّمير في «من عُمُره» عائدٌ على «مُعَمَّر» لفظاً ومعنًى.

وقال ابن عباس وغيره: يعود على «مُعَمَّر» الذي هو اسم جِنس، والمراد غير الذي يُعَمَّر، فالقول تضمَّن شخصَين يُعَمَّر أحدُهما مئةَ سنة، ويُنْقَص من الآخر.

وقال ابن عباس أيضاً وابن جُبير وأبو مالك: المراد شخصٌ واحدٌ، أي: يُحصى ما مضى منه إذا مرَّ حَوْلٌ كُتب ذلك، ثم حَوْل، فهذا هو النَّقْص. وقال الشاعر:

حَياتُك أنفاسٌ تُعَدُّ فكلَّما مضى نَفَسٌ منك انتُقِصْتَ به جُزْءا[٢]

وقال كعب الأحبار: معنى «ولا يُنْقَصُ من عُمُره»: لا يُخْتَرم بسبب قُدرة الله، ولو شاء لأخَّر ذلك السبب.

وروي عنه أنه قال لما طُعن عمر ﷺ: لو دعا الله لزادَ في أجَله، فأنكر عليه المسلمون ذلك وقالوا: إن الله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] فاحتَجَّ بهذه الآية.

قال ابن عطية: وهو قولٌ ضعيفٌ مَرْدود يقتضي القولَ بالأجَلَين، وبنحوه تمسَّك المعتزلة[٣].

وقرأ الجمهور «ولا يُنْقَص» مبنيًّا للمفعول.

وقرأ يعقوب وسلام وعبد الوارث وهارون كلاهما عن أبي عمرو: «ولا يَنْقُص» مبنيًّا للفاعل[٤].

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٤٢.

(٢) نسبه ابن عبد البر في بهجة المجالس ٢/ ٣٣٩ لمحمود الورّاق.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٢، وعنه نقل الأقوال السالفة جميعها، وانظرها في تفسير الطبري ١٩/ ٣٤٤، ٣٤٥، والثعلبي ٥/ ١٧١، والماوردي ٤/ ٤٦٥، والقرطبي ١٧/ ٣٦٠-٣٦٢، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٤٣-٤٤٥، والكشاف ٣/ ٣٠٣، وزاد المسير ٦/ ٤٨٠.

(٤) النشر ٢/ ٣٥٢، ومختصر في الشواذ ١٢٣، وإعراب القراءات السبع وعللها ٢/ ٢٢٧،

وقرأ الحسن: «من عُمْره»[١].

«إلا في كتاب» قال ابن عباس: هو اللّوح المحفوظ. وقال الزمخشري: يجوز أنْ يُراد بكتاب الله علمَ الله أو صَحيفةَ الإنسان[٢]. انتهى.

«وما يَسْتوي البَحْران» هذه آيةٌ أخرى يُستدلُّ بها على كلِّ عاقلٍ أنه ممّا لا مَدْخَلَ لصنمٍ فيه.

وتقدَّم شرح «هذا عَذْبٌ فُرات» وشرْحُ «وهذا مِلْحٌ أُجاج» في سورة الفُرقان[٣]. وهنا بين القِسمَين صفةٌ للعَذْب، وهي قوله[٤]: «سائغٌ شرابُه».

وقرأ الجمهور: «سائغ» اسم فاعل من ساغ.

وقرأ عيسى: «سَيِّغ» على وزن فيعل كمَيِّت، وجاء كذلك عن أبي عمرو وعاصم[٥].

وقرأ عيسى أيضاً «سَيْغ» مُخَفّفاً من المُشَدَّد كمَيْت، مُخَفَّف مَيِّت[٦].

= وتفسير الثعلبي ٥/ ١٧١، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٢، وزاد المسير ٦/ ٤٨٠، وتفسير القرطبي ٣٦٢/١٧، ونسبوها إلى الحسن وابن سيرين وعيسى وقتادة.

والذي ذكره المصنف عن أبي عمرو، لم أقف على من ذكره عنه في هذا الحرف، وإنما ذكر ابن مجاهد في السبعة ٥٣٤، وابن خالويه في مختصره ١٢٣، وفي إعراب القراءات السبع ٢٢٦/٢، أنهم رووا عن أبي عمرو قراءته لقوله تعالى: «من عُمْره» بإسكان ميم عمره. والله أعلم.

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٢، ونسبها الثعلبي ٥/ ١٧١، والقرطبي ١٧/ ٣٦٢ إلى الأعرج والزهري، وانظر التعليق السابق.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٣.

(٣) في تفسير الآية (٥٣) منها.

(٤) في (أ ت ز٢) والمطبوع: وبين قوله.

(٥) مختصر في الشواذ ١٢٣، والمحتسب ٢/ ١٩٩، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٧١، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٣، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٦٣ وزاد نسبتها إلى ابن أبي إسحاق. وقراءة أبي عمرو وعاصم المشهورة عنهما كقراءة الجمهور، ولم أقف على من ذكر عنهما هذه القراءة هنا.

(٦) المحتسب ٢/ ١٩٨.

وقرأ الجمهور: «مِلْح»، وأبو نَهيك وطلحة بفتح الميم وكسر اللام[(١)]. قال أبو الفضل الرازي: وهي لغةٌ شاذّة، ويجوز أن يكون مقصوراً من مالح بحذف[(٢)] الألف تخفيفاً، وقد يقال: ماء مالح[(٣)] في الشُّذوذ، وفي المستعمل: مَمْلوح[(٤)].

وقال الزمخشري: ضرب البحرَين العذبَ والمِلْحَ مَثَلَين للمؤمن والكافر، ثم قال على صِفة الاستطراد في صفة البحرين وما عَلَّق بهما من نعمته وعطائه «ومن كُلٍّ»، ثم شرَح الزمخشري ألفاظاً من الآية تكرَّرت في سورة النَّحل[(٥)]، ثم قال: ويحتمل غيرَ طريقة الاستطراد؛ وهو أن يُشَبِّه الجنسَين بالبحرَين، ثم يُفضِّل البحرَ الأُجاجَ على الكافر بأنه قد شارك العَذْبَ في مَنافِعَ من السَّمَكِ واللؤلؤ وجَرْيِ الفُلْكِ فيه، والكافرُ خِلْوٌ من النَّفْع، فهو في طريقة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٧٤]، وذكر الآية. انتهى[(٦)].

«لِتَبْتَغوا من فضله» يريد التّجارات والحجَّ والغزوَ وكلَّ سَفَرٍ له وَجْهٌ شَرْعيٌّ.

«يولج الليلَ في النَّهار» تقدَّم شَرْحُ هذه الجُمل[(٧)].

ولما ذَكر أشياءَ كثيرةً تدلُّ على قُدرته الباهرة؛ من إرسالِ الرِّياح، والإيجادِ من تُراب وما عَطف عليه، وإيلاجِ الليل في النهار، وتسخيرِ الشَّمس والقمر: أشار إلى أن المُتَّصِفَ بهذه الأفعال الغريبة هو الله فقال: «ذلكم الله ربُّكم له الملك» وهي أخبارٌ مُترادِفة، والمبتدأ «ذلكم»، أو «اللهُ ربُّكم» خبران، وله «المُلْك» جملة مبتدأةٌ في قِران قوله: «والذين تَدْعون من دونه ما يَملكون من قِطْمير».

(١) قراءة طلحة في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٦، والمحتسب ٢/ ١٩٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٣، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٦٢.
(٢) في (أ ت ز٢) والمطبوع: فحذف، والمثبت من (د٣ يه).
(٣) في (أ ت ز٢) والمطبوع: ملح، وهو تحريف، والمثبت من (د٣ يه).
(٤) انظر إصلاح المنطق ٢٨٨، وأدب الكاتب ١٦٥، ٤٠٤، والصحاح (ملح)، وإسفار الفصيح للهروي ٨٨٨-٨٨٩. وذكر قول أبي الفضل الرازي: الآلوسي في روح المعاني ٢٢/ ١٩١.
(٥) في الآية (١٤) منها.
(٦) الكشاف ٢/ ورقة ٢٠٥، و٣/ ٣٠٣-٣٠٤ من المطبوع، وفيه تحريف.
(٧) انظر تفسير الآية (٢٧) من سورة آل عمران.

قال الزمخشري: ويجوز في حُكم الإعراب إيقاعُ اسم الله صفةً لاسم الإشارة أو عطفَ بَيان، و«ربُّكم» خبراً؛ لولا أن المعنى يأباه[١]. انتهى.

أمّا كونُه صفةً فلا يجوز؛ لأن الله عَلَم، والعَلَم لا يوصف به، وليس اسمَ جنس كالرَّجُل فتُتَخَيَّل فيه الصِّفة.

وأمّا قولُه: لولا أن المعنى يأباه؛ فلا يَظهر أن المعنى يأباه لأنه يكون قد أخبر بأن المُشار إليه بتلك الصفات والأفعال المذكورة «ربُّكم» أي: مالكُكم أو مُصلِحُكم، وهذا معنى لائقٌ سائغ[٢].

«والذين تَدْعون من دونه» هي الأوثان.

وقرأ الجمهور: «تدعون» بتاء الخطاب. وعيسى وسلام ويعقوب بياء الغَيْبة[٣].

وقال صاحب «الكامل» أبو القاسم بن جُبارة: «يدعون» بالياء اللؤلؤي عن أبي عمرو، وسلام والنهاوندي عن قتيبة، وابن الجلاء عن نصير، وابن حبيب وابن يونس عن الكسائي، وأبو عمارة عن حفص.

و«القِطْمير» تقدَّم شرْحُه[٤].

وقال جُويبر عن رجاله والضحّاك: هو القِمْعُ الذي في رأس التَّمرة.

وقال مجاهد: لُفافة النَّواة. وقيل: الذي بين قِمْع التَّمرة والنَّواة. وقيل: هو قشر الثُّوم[٥].

وأيًّا ما كان فهو تمثيلٌ للقليل، وقال الشاعر:

وأبوك يَخْصِفُ نَعْلَه مُتَوَرِّكاً ... ما يَملِكُ المسكينُ من قِطْميرِ[٦]

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٠٤ وما قبله منه.

(٢) انظر رَدّ الطيبي وغيره كلام الزمخشري فيما نقل عنهم الآلوسي ٢٢/ ١٩٦-١٩٧.

(٣) مختصر في الشواذ ١٢٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٤، والنشر ٢/ ٣٥٢ وهي قراءة الحسن البصري.

(٤) في شرح مفردات السورة.

(٥) انظر تفسير الطبري ١٩/ ٣٤٩-٣٥٠، والقرطبي ١٧/ ٣٦٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٤.

(٦) ذكره السمين في الدر ٩/ ٢٢١، والآلوسي في روح المعاني ٢٢/ ١٩٨ دون نسبة.

«لا يَسْمعوا دُعاءكم» لأنهم جَمادٌ «ولو سَمِعوا» هذا على سبيل الفَرْض «ما استجابوا لكم» لأنهم لا يَدَّعون ما تَدَّعون لهم من الإلهيَّة ويتبرَّؤون منها. وقيل: ما نَفَعوكم[١].

وأضاف المَصْدر في «بشِرْككم» أي: بإشراككم لهم مع الله في عبادتكم إيّاهم، كقوله: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] فهي إضافة إلى الفاعل.

وقوله: «يكفرون» يحتمل أنْ يكون بكلامٍ يُقْدِر الله الأصنامَ عليه، ويخلق لها إدراكاً يقتضي ذلك.

ويحتمل أن يكون بما يَظهر هنالك من جُمودها وبُطولها عند حركة كلِّ ناطقٍ، ومُدافعة كلِّ مُحْتَجّ، فيجيء هذا على طريق التجوُّز، كقول ذي الرمة:

وقفتُ على رَبْعٍ لمَيَّةَ ناطقٍ تُخاطِبُني آثارُه وأُخاطِبُهْ
وأَسقيه حتّى كاد مما أَبُثُّه تُكَلِّمُني أحجارُه ومَلاعِبُهْ[٢]

«ولا يُنَبِّئُكَ مثلُ خَبير» قال قتادة وغيرُه من المفسِّرين: الخبير هنا أراد به تعالى نفسَه، فهو الخَبير الصَّادقُ الخَبرِ نَبَّأ بهذا، فلا شكَّ في وقوعه[٣].

قال ابن عطية: ويحتمل أن يكون قوله: «ولا يُنَبِّئُك مثلُ خَبير» من تمام ذكر الأصنام، كأنه قال: ولا يُخْبِرُك مثلُ مَن يُخبرُك عن نفسه، أي لا أصْدَقُ في تَبَرُّئها من شِرْككم منها، فيُريد بالخَبير على هذا المثل لها؛ كأنه قال: ولا يُنَبِّئُك مثلُ خَبيرٍ عن نفسه، وهي قد أخبرت عن نفسها بالكُفْر بهؤلاء[٤].

وقال الزمخشري: ولا يُخبرك بالأمر مُخبرٌ هو مثلُ خَبيرٍ عالمٍ به، يُريد أنَّ الخَبير بالأمر هو الذي يُخبرك بالحقيقة دون سائر المُخْبِرين به، والمعنى: أن هذا الذي أخبرتُكم به من حال الأوثان هو الحقّ؛ لأني خَبيرٌ بما أخبرتُ به[٥].

(١) الكشاف ٣/ ٣٠٤.
(٢) ديوان ذي الرمة ٢/ ٨٢١، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٤ والكلام السالف منه.
(٣) تفسير الطبري ١٩/ ٣٥٢، وإعراب القرآن ٣/ ٣٦٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٤.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٤، قال الآلوسي ٢٢/ ٢٠٠: وفيه من البعد ما فيه.
(٥) الكشاف ٣/ ٣٠٤.

وقال في «التحرير»[١] يحتمل وجهين: أن يكون ذلك خطاباً للرسول لمّا أخبر بأن الخَشَب والحَجَر يوم القيامة يَنْطِقُ ويُكَذِّبُ عابدَه، وهو أمرٌ لا يُعْلَم بالعقل المجرَّد لولا إخبارُ الله عنه، قال تعالى أنهم يكفرون بهم يوم القيامة. وهذا القولُ مع كون المُخبر عنه أمراً عجيباً هو كما قال؛ لأن المُخْبِر عنه خَبير.

والثاني: أن يكون خطاباً ليس مُختصًّا بأحدٍ، أي: هذا الذي ذُكر هو كما ذُكر، لا يُنَبِّئك أيُّها السَّامع كائناً مَن كنتَ مثلُ خَبير.

* * *

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

هذه آيةُ موعظةٍ وتذكير، وأن جميعَ الناس مُحتاجون إلى إحسانِ الله تعالى وإنعامه في جميع أحوالهم، لا يستغني أحدٌ عنه طَرْفَةَ عَين، وهو الغنيُّ عن العالَم على الإطلاق، وعَرَّف الفُقراء ليُريهم شِدَّة[٢] افتقارهم إليه؛ إذْ هم جنسُ الفقراء، وإنْ كان العالَم بأسْره مفتقراً إليه، فلضَعْفهم جُعلوا كأنهم جميعُ هذا الجِنس، ولو نَكَّر لكان المعنى: أنتم بعضُ الفُقراء، وقوبلَ الفقراء بالغِنى، ووُصف بالحَميد دِلالةً على أنه جَوادٌ مُنعِم، فهو محمودٌ على ما يُسْدِي من النِّعَم، مُستحقٌّ للحَمْد.

ولمّا ذكر أنه الغَنيُّ على الإطلاق ذَكر ما يدلُّ على استغنائه عن العالَم، وأنه

(١) في المطبوع و(أ): التجريد، وهو تحريف، والتحرير لابن النقيب ذكره المصنف في مقدمته.
(٢) في المطبوع: شديد.

ليس بمُحتاج إليهم فقال: «إنْ يشأ يُذْهِبْكم» أي: إنْ يشأ إذْهابَكم يُذْهِبْكم، وفي هذا وعيدٌ بإهلاكِهم.

«وما ذلك» أي: إذْهابُكم والإتيانُ بخَلْقٍ جديد، «بعَزيز» أي: بمُمْتَنع عليه إذْ هو المتَّصِف بالقُدْرة التَّامة، فلا يمتنع عليه شيءٌ مما يُريده.

ومعنى «بخَلْقٍ جَديد» بَدَلَكم، كقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

وعن ابن عباس: يخلق بعدَكم مَن يعبدُه لا يُشرك به شيئاً[1].

وقد جاء هذا المعنى من ذكر الإذهاب بعدَ وَصْفه تعالى بالغنى في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وجاء أيضاً تعليقُ الإذْهاب مختوماً آخر الآية بذكر القُدْرة الدالّة على ذلك في قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

رُوي أن الوليدَ بن المُغيرة قال لقومٍ من المؤمنين: اكفُروا بمحمَّد وعليَّ وِزْرُكم، فنزلت. وأخبر تعالى لا يَحْمِلُه أحَدٌ عن أحد[2].

قال ابن عباس ومُجاهد وقتادة: هذه الآية في الذُّنوب والجَرائم[3].

ويقال: وَزَرَ الشيءَ: حَمَلَه. و«وازِرَةٌ» صفةٌ لمحذوف، أي: نفسٌ وازِرَةٌ، أي: حاملةٌ، وذَكر الصِّفةَ ولم يذكر الموصوف مقتصراً عليه لأن المعنى: أن كلَّ نفس لا تُرى إلا حاملةً وِزْرَها لا وِزْرَ غيرها، فلا تُؤخذ نفسٌ[4] بذَنْب نفسٍ؛ كما يأخذُ جَبابرةُ الدُّنيا الجارَ بالجار، والصَّديقَ بالصديق، والقريبَ بالقريب.

وقال ابن عطية: ومَن تَطَرَّق من الحُكَّام إلى أخْذِ قريبٍ بقريبه في جريمة ـ كفعلِ

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٠٥.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٥ (والكلام منه): فحكم الله تعالى بأنه لا يحملها أحد عن أ حد.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٥، وانظر تفسير الطبري ١٩/ ٣٥٣-٣٥٤، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٤٩، والنكت والعيون ٤/ ٤٦٨.

(٤) في المطبوع: يأخذ نفساً. والكلام في الكشاف ٣/ ٣٠٥.

زياد[١] ونحوه ـ فإنَّما ذلك لأن المأخوذَ ربَّما أعان المُجرمَ بمؤازَرةٍ ومواصَلَة، أو اطِّلاعٍ على حاله وتقريرٍ لها، فهو قد أخذ من الجُرْمِ بنصيب[٢]. انتهى.

وكأنّ ابن عطية تأوَّلَ أفعالَ زياد على ما ذكر، وكأنه ما اطَّلع على سيرة زياد وما فعل في الإسلام، وكانت سيرتُه قريبةً[٣] من سيرة الحجَّاج.

ولا مُنافاةَ بين هذه الآية والتي في «العنكبوت»[٤] لأن تلك في الضَّالّين المُضِلّين؛ يَحْملون أثقالَ إضلالِ الناس مع أثقالِ ضَلالهم، فكلُّ ذلك أثقالُهم، ما فيها من ثِقْلِ غيرهم شيء، ألا ترى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ﴾ [العنكبوت: ١٢].

«وإنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ» أي: نفسٌ مُثْقَلَةٌ بحِمْلها «إلى حِمْلِها» أي: إلى حَمْلِ حِمْلها «لا يُحْمَل منه شيءٌ» أي: لا غياثَ يومئذٍ لمن استغاث ولا إعانة، حتى إنَّ نفساً قد أثقلتْها الأوزارُ لو دَعت إلى أن يُخَفَّف بعضُ وِزْرِها لم تُجَبْ؛ وإنْ كان المَدْعوُّ بعضَ قرابتها من أبٍ أو ولدٍ أو أخٍ. فالآية قبلَها في الدَّلالة على عَدْلِ الله في حُكمه، وأنه لا يؤاخذُ نفساً بغير ذَنْبها، وهذه في نَفْي الإعانة[٥].

والحِمْلُ: ما كان على الظَّهْر في الأجْرام، فاستُعير للمعاني كالذُّنوب ونحوها، فيُجْعَلُ كلُّ مَحمولٍ مُتَّصلاً بالظهر، كقوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١]، كما جُعل كلُّ اكتسابٍ منسوباً إلى اليَد[٦].

وقرأ الجمهور: «لا يُحْمَل» بالياء مبنيًّا للمفعول. وأبو السمَّال عن طلحة وإبراهيم بن زاذان عن الكسائي بفتح التاء من فوق وكسر الميم[٧]. وتقتضي هذه القراءةُ نصبَ شيءٍ، كما اقتضت قراءةُ الجمهور رفعَه.

(١) في (د٣ يه): كزياد، وهما بمعنى.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٥.
(٣) في (يه): قريب.
(٤) وهي قوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [١٣].
(٥) الكشاف ٣/ ٣٠٥.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٥.
(٧) ذكرها السمين ٩/ ٢٢٢، والآلوسي ٢٢/ ٢٠٥.

والفاعل بـ «يُحْمَل» ضميرٌ عائد على مفعول «تَدْعُ» المحذوف، أي: وإنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ نفساً أُخرى إلى حملها لم تَحمل منه شيئاً.

واسم «كان» ضميرٌ يعود على المَدْعوّ المفهوم من قوله: «وإنْ تَدْعُ»، هذا معنى قولِ الزمخشري، قال: وتَرَكَ ذِكرَ المَدْعوّ لِيَعُمَّ ويَشْملَ كلَّ مَدْعوّ، قال: فإنْ قلت: فكيف استقام إضْمار العام ولا يصحُّ أنْ يكون العام ذا قُربى للمُثْقَلَة[1]؟ قلت: هو من العُموم الكائنِ على طريقِ البَدَل[2]. انتهى.

وقال ابن عطية: واسم «كان» مُضْمَرٌ تقديرُه: ولو كان الدَّاعي[3]. انتهى. أي: ولو كان الدَّاعي ذا قُربى من المَدْعوّ، فإنّ المَدْعوَّ لا يَحمِل منه شيئاً.

وذَكَّر الضَّمير حَملاً على المعنى؛ لأن قولَه: «مُثْقَلَةٌ» لا يُريد به مؤنَّث المعنى فقط بل كلَّ شخصٍ، فكأنه قيل: وإنْ تَدْعُ شخصٌ مُثْقَلٌ[4].

وقُرئ: «ولو كان ذو قُربى» على أن كان تامّة، أي: ولو حَضَر إذْ ذاك ذو قُربى وَدَعَتْه لم يَحمل منه شيئاً، وقالت العرب: قد كان لَبَنٌ، أي: حَضَر وحَدَث.

وقال الزمخشري: نَظْمُ الكلام أحسنُ مُلاءمةً للنَّاقصة؛ لأن المعنى على أنَّ المُثْقَلَةَ إنْ دَعَت أحداً إلى حَمْلِها لا يُحْمَل منه؛ وإنْ كان مَدْعُوُّها ذا قُربى، وهو معنى صَحيحٌ مُلتَئم، ولو قلت: ولو وُجِد ذو قُربى لتفكَّك وخرج من اتِّساقه والتئامه[5]. انتهى.

وهو مُتَّسِقٌ مُلتئم على التقدير الذي ذكرناه. وتفسيرُه «كان» وهو مبنيٌّ للفاعل بوُجِد المبنيّ للمفعول تفسيرُ معنًى وليس مُرادِفاً، ومُرادفُه: حَدَث أو حَضَر أو وَقَع، هكذا فسَّره النُّحاة.

---

(١) في المطبوع: فكيف استفهام إضمار ولا يصح... للمثقل(؟!).
(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٥.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٥.
(٤) في المطبوع: شخصاً مثقلاً (؟!). ونقل الآلوسي ٢٢/ ٢٠٥ كلام أبي حيان، ثم قال: ولا يخفى ما فيه.
(٥) الكشاف ٣/ ٣٠٥، والقراءة السالفة فيه.

ولمّا سبق ما تضمَّن الوعيدَ وبعضَ أهوال القيامة كان ذلك إنذاراً، فذكر أن الإنذار إنما يُجدي ويَنْفَع مَن يَخشى الله.

و«بالغيب» حالٌ من الفاعل أو المفعول، أي: يَخْشَون ربَّهم غائبين عن عَذابه. أو يَخشون عَذابَه غائباً عنهم.

وقيل: بالغيب؛ في السِّرّ، وقيل: بالغيب؛ أي: وهو بحالِ غَيْبه عنهم إنما هي رسالة(١).

وقرأ الجمهور: «ومَن تزكّى» فعلاً ماضياً «فإنما يتزكّى» فعلاً، مضارع تزكّى، أي: ومَن تَطهَّر بفعل الطّاعات وترْكِ المعاصي فإنما ثمرةُ ذلك عائدةٌ عليه، وهو إنما زكاتُه لنفسه لا لغيره، والتَّزكِّي شاملٌ للخَشْية وإقامةِ الصَّلاة.

وقرأ العباس عن أبي عمرو: «ومَن يَزَّكّى فإنّما يزَّكّى»(٢) بالياء من تحت وشدِّ الزاي فيهما، وهما مضارعان أصلهما: ومَن يتَزَكّى فإنما يتَزَكّى، أُدغمت التاء في الزاي كما أُدغمت في الذّال في قوله: ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٦].

وقرأ ابن مسعود وطلحة: «ومَن ازَّكّى» بإدغام التاء في الزاي واجتلاب همزة الوصل في الابتداء. وطلحة أيضاً «فإنّما يَزَّكّى» بإدغام التاء في الزّاي(٣).

«وإلى الله المصير» وَعْدٌ لمَن تَزَكّى بالثّواب.

«وما يستوي الأعمى والبَصير» الآية، هي طَعْنٌ على الكَفَرة وتمثيلٌ، فالأعمى الكافر، والبصير المؤمن. أو الأعمى الصَّنَم، والبصير الله عزَّ وجلّ وعَلا، أي: لا يستوي مَعْبودهم ومَعبودُ المؤمنين، و«الظُّلمات والنُّور، والظِّلُّ والحَرور» تمثيلٌ للحقّ والباطل، وما يؤدّيان إليه من الثَّواب والعِقاب، و«الأحياء والأموات» تمثيلٌ لمَن دخل في الإسلام ومَن لم يدخل فيه.

و«الحرَور» شِدَّة حَرِّ الشَّمْس، وقال الزمخشري: والحَرور: السَّموم إلا أن

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٥، والكشاف ٣/ ٣٠٥.
(٢) مختصر في الشواذ ١٢٣.
(٣) مختصر في الشواذ ١٢٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٥.

السَّموم تكون بالنَّهار، والحَرور بالليل والنهار، وقيل: بالليل[١]. انتهى.

وقال ابن عطية: قال رؤبة: الحَرور بالليل، والسَّموم بالنَّهار. وليس كما قال، وإنما الأمرُ كما حكى الفرَّاء وغيرُه أن السَّموم يختصُّ بالنهار. ويقال: الحَرور في حَرِّ الليل، وفي حَرِّ النَّهار[٢]. انتهى.

ولا يُرَدُّ على رؤبة لأنه منه تُؤخذ اللغة، فأخبر عن لُغة قومه.

وقال قوم: الظِّلُّ هنا الجَنَّة، والحَرور جَهَنَّم[٣].

و«يستوي» من الأفعال التي لا تكتفي بفاعلٍ واحدٍ، فدخول «لا» في النَّفْي لتأكيد معناه، كقوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ [فصلت: ٣٤].

وقال ابن عطية: دخول «لا» إنما هو على نيَّة[٤] التّكرار، كأنه قال: ولا الظُّلمات والنُّور، ولا النُّور والظُّلمات، فاستغنى بذكر الأوائل عن الثَّواني، ودلَّ مَذْكور الكلام على مَتروكه[٥]. انتهى.

وما ذكر غيرُ مُحتاجٍ إلى تقديره؛ لأنه إذا نُفي استواءُ الظُّلمات والنُّور فأيُّ فائدةٍ في تقدير نَفْي استوائهما ثانياً وادِّعاءِ[٦] مَحذوفات[٧]، وأنت تقول: ما قام زيدٌ ولا عَمرو، فتؤكِّد بلا معنى النَّفْي، فكذلك هذا.

---

(١) الكشاف ٣/٣٠٦.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٤٣٥-٤٣٦، ونقله عن رؤبة: أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/١٤٥، والطبري ١٩/٣٥٦، والنحاس في معاني القرآن ٥/٤٥١، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/٤٨٣.
وقول الفراء في الأيام والليالي والشهور له ص٤٢، ونقله عنه الطبري ١٩/٣٥٧، والنحاس، وابن الجوزي، والماوردي في النكت والعيون ٤/٤٦٩.

(٣) المحرر الوجيز ٤/٤٣٦، وهو تفسير الفراء في معاني القرآن ٢/٣٦٩، ونقله الماوردي عن السدي، وابن الجوزي عن مجاهد.

(٤) في المطبوع: هيئة.

(٥) المحرر الوجيز ٤/٤٣٥.

(٦) في (د٣): وادعى.

(٧) في المطبوع: محذوفين.

وقرأ زاذان عن الكسائي: «وما تَستوي الأحياء» بتاء التأنيث[١]، والجمهور بالياء.

وترتيبُ هذه المَنْفيّ عنها الاستواء في غاية الفَصاحة؛ ذكر الأعمى والبَصير مَثَلاً للمؤمن والكافر، ثم البَصيرُ ولو كان حَديدَ النَّظَر لا يُبْصرُ إلَّا في ضوء، فذكر ما هو فيه الكافر من ظُلمة الكُفر، وما هو فيه المؤمن من نور الإيمان، ثم ذكر مآلَهما وهو الظّلُّ، وهو أن المؤمن بإيمانه في ظلٍّ وراحة، والكافر بكُفْره في حرٍّ وتَعب.

ثم ذكر مَثَلاً آخر في حَقِّ المؤمن والكافر؛ وذلك أن حالَ المؤمن والكافر فوق حال الأعمى والبصير؛ إذ الأعمى قد يُشارِكُ البصيرَ في إدراكٍ ما، والكافر غيرُ مُدْرِكٍ إدراكاً نافعاً فهو كالميّت؛ ولذلك أعاد الفعل فقال: «وما يَستوي الأحياء ولا الأموات» كأنه جعله مقامَ سؤال.

وكَرَّر «لا» فيما كرَّر[٢] لتأكيد المُنافاة، فالظُّلمات تُنافي النُّورَ وتُضادُّه، والظّلُّ والحَرور كذلك، والأعمى والبَصير ليس كذلك؛ لأن الشَّخصَ الواحدَ قد يكون بَصيراً، ثم يَعْرِضُ له العَمى، فلا مُنافاةَ إلا من حيث الوَصْفُ.

والمُنافاةُ بين الظّلِّ والحَرور دائمة، لأن المُرادَ من الظلِّ عدمُ الحرِّ والبَرْد، فلما كانت المُنافاةُ أتمّ أكَّد بالتَّكرار، وأما الأحياء والأموات ـ من حيث إن الجسمَ الواحد يكون مَحلًّا للحياة فيصير مَحَلًّا للموت ـ فالمُنافاةُ بينهما أتمُّ من المنافاة بين الأعمى والبَصير؛ لأن هذين قد يَشتركان في إدراكٍ ما، ولا كذلك الحيّ والميّت، فالميت يُخالف الحيَّ في الحقيقة لا في الوَصْف على ما بَيِّن في الحكمة الإلهية.

وقدَّم الأشرفَ في مثلين وهو الظلّ والحيّ[٣]، وأخَّر في مثلين وهما البصير والنّور، ولا يُقال لأجل السَّجْع؛ لأن مُعجزةَ القرآن ليست في مُجرَّد اللفظ، بل فيه وفي المعنى، والشَّاعر قد يُقدِّمُ ويؤخِّر لأجلِ السَّجع، والقرآن المعنى صَحيح[٤] واللَّفظ فَصيح.

---

(١) مختصر في الشواذ ١٢٣.

(٢) في المطبوع: ذكر.

(٣) في المطبوع: والحر.

(٤) في التفسير الكبير ٢٦/١٧ وعنه ينقل: وأما القرآن فحكمة بالغة والمعنى فيه صحيح.

وكانوا قبل المَبْعَث في ضَلالة فكانوا كالعُمْي وطريقُهم الظُّلمة، فلما جاء الرسول واهتدى به قومٌ صاروا بصيرين وطريقُهم النور، وقدّم ما كان مُتقدِّماً من المتَّصِفِ بالكُفر وطريقته على ما كان مُتأخِّراً من المُتَّصف بالإيمان وطريقته.

ثمّ لمّا ذكر المآلَ والمَرْجِعَ قدَّم ما يتعلَّق بالرَّحمة على ما يتعلَّق بالغَضَب، كما جاء: «سَبقت رَحمتي غَضبي»[١] فقدَّم الظّلَّ على الحَرور.

ثم إن الكافرَ المُصِرَّ بعد البِعْثةِ صار أضلَّ من الأعمى، وشابَه الأمواتَ في عَدمِ إدراكِ الحقِّ فقال: «وما يستوي الأحياءُ» الذين آمنوا بما أنزل الله «ولا الأموات» الذين تُليت عليهم الآياتُ البيِّناتُ ولم يَنتفعوا بها، وهؤلاء كانوا بعد إيمانِ مَن آمن فأخَّرهم لوجود حياة المؤمنين قبل مَماتِ الكافرين.

وأفرد الأعمى والبَصير لأنه قابل الجنس بالجنس؛ إذْ قد يوجد في أفرادِ العُميان ما يُساوي به بعضَ أفراد البُصَراء، كأعمى عنده من الذَّكاء ما يُساوي به البَصير البَليد، فالتَّفاوتُ بين الجنسَين مَقطوعٌ به لا بين الأفراد.

وجُمعت الظُّلمات لأن طُرُقَ الكُفْر مُتَعدِّدة، وأفرد النُّور لأن التَّوحيدَ والحقَّ واحد، والتّفاوتُ بين كلِّ فَرْدٍ من تلك الأفراد وبين هذا الواحد فقال: الظُّلماتُ كلُّها لا تَجد فيها ما يُساوي هذا النُّور.

وأمّا الأحياء والأموات فالتَّفاوتُ بينهما أكثر؛ إذْ ما من مَيِّتٍ يُساوي في الإدراك حيًّا، فذكر أن الأحياءَ لا يُساوون الأموات؛ سواءٌ قابلتَ الجنسَ بالجنس، أم قابلتَ الفردَ بالفرد. انتهى من كلام أبي عبد الله الرازي، وفيه بعضُ تلخيص[٢].

ثمّ سَلّى رسولَه بقوله: «إن الله يُسْمِع مَن يشاء» أي: إسماعُ هؤلاء مَنوطٌ بمَشِيئتنا، وكَنَى بالإسماع عن الذي تكون عنه الإجابةُ للإيمان.

ولما ذَكر أنه «ما يستوي الأحياءُ ولا الأموات» قال: «وما أنت بمُسْمِعٍ مَن في القبور» أي: هؤلاء من عدم إصغائهم إلى سَماعِ الحقّ بمنزلة مَن هم قد ماتوا

---

(١) أخرجه أحمد (٧٢٩٩)، البخاري (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١) (١٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) التفسير الكبير ٢٦/١٦-١٧.

وأقاموا في قبورهم، فكما أن مَن مات لا يمكن أن يَقبلَ منك قولَ الحقّ فكذلك هؤلاء لأنهم أمواتُ القلوب.

وقرأ الأشهب والحسن: «بمُسْمِعِ مَن» على الإضافة[١]، والجمهور بالتنوين.

«إنْ أنت إلا نذير» أي: ما عليك إلا أنْ تُبَلِّغَ وتُنْذر، فإن كان المُنْذَر ممَّن أراد الله هدايتَه سَمِع واهتدى، وإن كان ممَّن أراد الله ضلاله فما عليك[٢]، لأنه تعالى هو الذي يَهدي ويُضلّ.

و«بالحقّ» حالٌ من الفاعل، أي: مُحِقِّين، أو من المفعول، أي: مُحَقًّا، أو صفة لمصدر محذوف، أي: إرسالاً بالحق، أي: مَصْحوباً به. قال الزمخشري: أو صِلَة[٣] لبشير ونَذير، على بشيراً بالوَعْد الحقّ، ونذيراً بالوعيد الحق[٤]. انتهى.

ولا يمكن أن يتعلَّق «بالحقّ» هذا ببشير ونذير معاً، بل ينبغي أن يُتأوَّل كلامُه على أنه أراد أنّ ثَمَّ محذوفاً، والتقدير: بالوَعْد الحقِّ بشيراً، وبالوَعيد الحقِّ نذيراً[٥]، فحذف المُقابلَ لدلالة مُقابله عليه.

«وإنْ من أُمَّة إلا خلا فيها نذير» الأُمَّة: الجماعةُ الكثيرة، والمعنى: أن الدعاء إلى الله لم ينقطع عن كلِّ أُمَّة، إمَّا بمُباشَرةٍ من أنبيائهم، وإمَّا بنَقْلٍ إلى وقتِ بِعثة محمد ﷺ. والآيات التي تدلُّ على أن قُريشاً ما جاءهم نذير معناه: لم يُباشرهم ولا آباؤهم القريبين. وأمّا أن النِّذارة انقطعت فلا، ولمّا شَرعت آثارُ النِّذارة تَنْدرس بعث الله محمداً ﷺ، وما ذكره أهلُ علم الكَلام من حال أهل الفَترات فإن ذلك

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٣٧٠، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٧٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٦، وزاد المسير ٦/ ٤٨٤، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٧١، ونسبها ابن خالويه ١٢٣ إلى علي، وزاد ابن الجوزي نسبتها إلى أبي عبد الرحمن السلمي والجحدري، والقرطبي إلى عيسى الثقفي وعمرو بن ميمون.

(٢) في (د٣ يه): فلا عليك، وهما بمعنى.

(٣) في (د٣ يه): أو صفة، وهو تحريف.

(٤) الكشاف ٣/ ٣٠٦.

(٥) تعقبه السمين في الدر المصون ٩/ ٢٢٦ بقوله: وقد صرّح الرجل بهذا.

على حَسَب الفَرْض لا أنه واقعٌ، ولا توجد أمةٌ على وجه الأرض إلا وقد عَلِمت الدعوةَ إلى الله وعبادته[١].

واكتفى بذكر «نَذير» عن بشير لأنها مَشْفوعةٌ بها في قوله: «بشيراً ونذيراً» فدلَّ ذلك على أنه مُرادٌ وحُذف للدَّلالة عليه.

«وإن يُكذِّبوك» مَسْلاةٌ للرسول ﷺ. وتقدَّم الكلامُ على نَظير هذه الجمل في أواخر «آل عمران»[٢].

وقوله: «فكيف كان نكير» تَوعُّدٌ لقريش بما جَرى لمُكذِّبي رُسُلِهم.

* * *

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ
بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ
أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً
لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾
وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ
﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ
وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ
أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا
فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

لمَّا قرَّر تعالى وحدانيَّته بأدلَّةٍ قرَّبها، وأمثالٍ ضَربها أتبعها بأدلّةٍ سماويّة وأرضية فقال: «ألم ترَ» وهذا استفهام تقرير، ولا يكون إلا في الشيء الظاهر جدًّا، والخطاب للسَّامع.

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٦.
(٢) في تفسير الآية (١٨٤) منها.

و«تَرَ» من رؤية القلب؛ لأن إسنادَ إنْزاله تعالى لا يُستدَلُّ عليه إلا بالعقل الموافق للنَّقْل، وإنْ كان إنزالُ المطَر مُشاهَداً بالعين؛ لكن رؤيةُ القلب قد تكون مُستندةً لرؤية البصر ولغيرها.

وخرج من ضمير الغَيبة إلى ضمير المتكلّم في قوله: «فأخْرَجْنا» لما في ذلك من الفَخامة؛ إذْ هو مُسْنَد للمُعَظَّم المُتَكَلِّم؛ ولأن نعمةَ الإخْراجِ أتمُّ من نعمة الإنزال، لأن الإنزال لفائدة الإخراج، فأسند الأتَمَّ إلى ذاته بضمير المتكلِّم، وما دونه بضمير الغائب.

والظاهر أن الألوان أُريد[1] بها ما يَتبادرُ إليه الذِّهنُ من الحُمْرةِ والصُّفْرة والخُضْرة والسَّواد وغير ذلك، كما يُشاهَد في الثَّمرات.

وقيل: الألوان الأنواع، كالتين والعِنَب والرُّمان والتفاح وغير ذلك[2].

والألوان بهذا المعنى أوسَعُ وأكثرُ من الألوان بمعنى الأصْباغ.

وقرأ الجمهور: «مُخْتلفاً ألوانُها» على حَدِّ اختلف ألوانُها.

وقرأ زيد بن عليّ: «مُخْتَلفةً ألوانُها» على حَدِّ اختلفت ألوانُها[3]. وجمع التكسير يجوز فيه أنْ تلحق التاء وأن لا تلحق.

وقرأ الجمهور: «جُدَدٌ» بضمِّ الجيم وفتح الدَّال جمع جُدَّة. قال ابن بَحْر: قِطَع، من قولك: جَدَدْتُ الشيءَ: قَطَعْتُه[4].

وقرأ الزُّهري كقراءة الجمهور. قال صاحب «اللَّوامح»: جمع جُدَّة، وهي ما تَخالَف من الطرائق في الجبال لونُ ما يليها.

وعنه أيضاً بضم الجيم والدَّال[5] جمع جَديدة، يقال: جَديدة وجُدُد وجَدائد، كما يُقال في الاسم: سَفينة وسُفُن وسَفائن، قال أبو ذُؤيب:

---

(١) في المطبوع: الألوان إن أريد (؟!).

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٧. ومن قوله: كما يشاهد... إلى هنا، ليس في المطبوع.

(٣) ذكرها السمين في الدر المصون ٩/ ٢٢٦.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٧٠، وعنه القرطبي ١٧/ ٣٧٣.

(٥) المحتسب ٢/ ١٩٩، والكشاف ٣/ ٣٠٧، وعنه القرطبي ١٧/ ٣٧٣-٣٧٤.

جَـوْنُ الـسَّـراةِ لـه جَـدائـدُ أرْبَـعُ[(١)]

وعنه أيضاً: «جَدَد» بفتح الجيم والدَّال[(٢)]، ولم يُجِزْه أبو حاتم في المعنى، ولا صَحَّحه أثَراً.

وقال غيره: هو الطَّريق الواضحُ المُبين، وَضَعه مَوْضعَ الطَّرائقِ والخطوطِ الواضحةِ المُنْفَصِلِ بعضها من بعض[(٣)].

وقال أبو عبيدة: يقال جدد في جمع جَديد، ولا مَدْخَلَ لمعنى الجَديد في هذه الآية[(٤)].

وقال صاحب «اللوامح»: جدد جمع جَديد بمعنى: آثار جَديدة واضحة الألوان[(٥)]. انتهى.

وقال: «مُخْتلفٌ ألوانُها» لأن البياضَ والحُمْرَة تتفاوتُ بالشّدَّة والضَّعْف، فأبيضُ لا يُشبه أبيض، وأحمر لا يشبه أحمر، وإن اشتركا في القَدْر المُشْتَرَك لكنه مُشَكك[(٦)].

والظاهر عطف «وغَرابيب» على «حُمر» عطفَ ذي لون على ذي لون. وقال الزمخشري: معطوف على «بيض» أو على «جُدَد» كأنه قيل: ومن الجبال مُخَطَّط ذو جُدَد، ومنها ما هو على لون واحد، وقال بعد ذلك: ولا بُدَّ من تقدير حذفِ

(١) صدره: والدهر لا يبقى على حَدثانه، وهو في شرح أشعار الهذليين ١/ ١١، والكشاف ٣/ ٣٠٧.

(٢) مختصر في الشواذ ١٢٤، والمحتسب ٢/ ١٩٩، والكشاف ٣/ ٣٠٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٧، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٧٦.

(٣) الكشاف ٣/ ٣٠٧.

(٤) نقله ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٧ عن أبي عبيدة، لكنه وضعه في تفسير: جُدَد، بضم الجيم وفتح الدال، وذكره الآلوسي ٢٢/ ٢١٤ عقب قراءة الزهري جُدُد بضمتين.

(٥) نقله عنه السمين ٩/ ٢٢٧، والآلوسي ٢٢/ ٢١٤ لكنهما ذكراه عقب قراءة الزهري جدد بضمتين.

(٦) في المطبوع: مشكل، ومثله في مطبوع الدر المصون ٩/ ٢٢٨، والمثبت من النسخ، ويوافقه ما في روح المعاني ٢٢/ ٢١٥.

المضاف في قوله: «ومن الجبال جُدَد» بمعنى: ومن الجبال ذو جُدَد بيضٌ وحُمرٌ وسُودٌ، حتى تؤولَ إلى قولك: ومن الجبال مُختلفٌ ألوانُه كما قال: «ثَمراتٍ مختلفاً ألوانُها»، «ومن الناس والدَّوابِّ والأنعام مختلفٌ ألوانُه» يعني: ومنهم بعضٌ مختلفٌ ألوانُه. وقرأ ابن السَّميفع: «ألوانُها»(١). انتهى.

والظّاهر أنه لمّا ذَكر الغرابيب ـ وهو الشّديد السَّواد ـ لم يذكر فيه «مُختلفٌ ألوانُه» لأنه من حيث جعلَه شديدَ السَّواد ـ وهو المُبالغ في غاية السَّواد ـ لم يكن له ألوان، بل هذا لونٌ واحد بخلاف البِيض والحُمْر؛ فإنها تختلف.

والظاهر أن قوله: «بِيضٌ وحُمْرٌ» ليسا مجموعين لجُدَّةٍ واحدة، بل المعنى: جُدَد بيض، وجُدَد حُمر، وجُدَد غَرابيب، ويقال: أسْوَد حَلَكُوك، وأسود غِرْبيب.

ومن حق التابع الموضّح الغاية في ذلك اللون أن يكون تابعاً، فقال ابن عطية: قُدِّم الوصفُ الأبلغ وكان حَقُّه أن يتأخَّر، وكذلك هو في المعنى، لكن كلامُ العرب الفَصيح يأتي كثيراً على هذا النحو(٢).

وقال الزمخشري: الغِرْبيب تأكيدٌ للأسود، ومن حقِّ التَّوكيد أن يَتْبعَ المؤكّد كقولك: أصفرُ فاقِعٌ، وأبيضُ يَقَقٌ، وما أشبه ذلك، ووجهُه أن يُضْمَر(٣) المؤكَّد قبله، فيكون الذي بعده تفسيراً لما أُضمر؛ كقول النابغة:

والمؤمنِ العائذاتِ الطَّيرِ(٤)

وإنما يُفعَل لزيادة التوكيد؛ حيث يُدَلُّ على المعنى الواحد من طريقَي الإظْهار والإضمار جميعاً(٥). انتهى.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٠٧ ولم يسمّ صاحب القراءة وإنما قال: وقرئ: ألوانُها.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٧.

(٣) في المطبوع: يظهر، وهو تحريف.

(٤) تمامه: يمسحها ركبان مكة بين الغيل والسَّند

وهو في ديوانه ٢٠ (بشرح ابن السكيت)، وسلف في تفسير الآية (٢) من سورة إبراهيم.

(٥) الكشاف ٣/ ٣٠٧.

وهذا لا يصحُّ إلا على مَذْهب مَن يُجيز حذفَ المؤكّد، ومن النحاة مَن منع ذلك، وهو اختيارُ ابن مالك[١].

وقيل: هو على التقديم والتأخير، أي: سودٌ غَرابيب[٢].

وقيل: سودٌ بدلٌ من غَرابيب. وهذا أحسن، ويُحَسِّنه كونُ غربيب لم يلزم فيه أنْ يُستعمل تأكيداً، ومنه ما جاء في الحديث: «إن الله يُبْغِضُ الشيخَ الغِربيب»[٣] يعني: الذي يَخْضِب بالسَّواد.

وقال الشاعر:

العينُ طامحةٌ واليدُ سابحةٌ   والرجلُ لائحةٌ والوَجْهُ غِرْبِيْبُ[٤]

وقال آخر:

ومن تعاجيبِ[٥] خَلْقِ الله غاليةٌ   البعضُ منها مُلاحيٌّ وغِربيبُ[٦]

---

(١) في شرح التسهيل ٣/ ٢٩٥، ٢٩٨-٢٩٩، وشرح الكافية الشافية ٣/ ١١٨٠، وانظر ارتشاف الضرب ١٩٥٣.
وتعقب السمين في الدر المصون ٩/ ٢٢٩ المصنف فقال: ليس هذا هو التوكيد المختلف في حذف مؤكده، لأن هذا من باب الصفة والموصوف، ومعنى تسمية الزمخشري لها تأكيداً من حيث إنها لا تفيد معنى زائداً... وانظر تتمته.

(٢) نسب الثعلبي ٥/ ١٧٤، وابن الجوزي ٦/ ٤٨٥ هذا القول إلى الفراء، وليس في معاني القرآن له.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ١٠١٦ من حديث أبي هريرة ﷺ، وفيه رشدين بن سعد، قال ابن معين: ليس بشيء، وقال أبو زرعة: ضعيف، وقال النسائي: متروك. انظر ميزان الاعتدال (٢٦٥٨).

(٤) البيت لامرئ القيس أو لإبراهيم بن بشير الأنصاري، انظر زيادات الطوسي على ديوان امرئ القيس ٦٦٨، وروايته:

والعين قادحة واليد سابحة   والرجل طامحة واللون غربيب

وهو في النكت والعيون ٤/ ٤٧١، وتفسير الطبري ١٧/ ٣٧٥.

(٥) في (ز٢): عجائب.

(٦) نسبه ابن دريد في الجمهرة ٩١٩ لرجل من أهل السراة جاهلي، وهو بلا نسبة في الجمهرة ٥٦٩، ١٠٧٩، ١٢٦٣، وأدب الكاتب ٣٧٨، وشرحه للبطليوسي ٣٨٤، وللجواليقي ٢٨٧، وديوان الأدب ١/ ٤٥٢، والصحاح (عجب، ملح)، واللسان (غطي، ملح)، والكشف =

وقرأ الجمهور: «والدَّوابِّ» مشدَّد الباء، والزُّهري بتخفيفها[١] كراهيةَ التضعيف؛ إذ فيه التقاءُ الساكنين، كما همز بعضهم: «ولا الضَّأَلِّين»[٢] فراراً من التقاء الساكنين، فحذف هنا آخرَ المُضَعَّفين، وحَرَّك هناك أولَ السّاكنَين.

و«مُختلفٌ» صفةٌ لمحذوف، أي: خَلْقٌ مُختلفٌ ألوانُه «كذلك» أي: كاختلاف الثَّمَرات والجبال، فهذا التشبيه من تمام الكلام قبله، والوقف عليه حسن[٣].

قال ابن عطية: ويحتمل أن يكون من الكلام الثاني يخرج مَخرج السَّبب، كأنه قال: كما جاءت القُدرة في هذا كله «إنما يخشى الله من عباده العلماء» أي: المخلصون لهذه العِبَر، النَّاظرون فيها[٤]. انتهى.

وهذا الاحتمال لا يصحّ لأن ما بعد إن[٥] لا يمكن أن يتعلّق بهذا المجرور قبلها، ولو خرج مَخرج السَّبب لكان التركيب: كذلك يخشى الله من عباده، أي: لذلك الاعتبار والنَّظرِ في مخلوقات الله واختلافِ ألوانها يَخشى الله، ولكن التركيب جاء بإنما، وهي تقطع هذا المجرور ممَّا بعدها.

والعلماء هم الذين عَلموه بصفاته وتوحيده، وما يجوز عليه، وما يجب له، وما يستحيل عليه، فعظَّموه وقَدَروه حقَّ قدره، وخَشَوه حقَّ خشيته، ومَن ازداد به علماً ازداد منه خوفاً، ومَن كان علمُه به أقلّ كان آمَن[٦]، وقد وردت أحاديثُ وآثار في الخَشْية[٧].

= والبيان للثعلبي ٥/ ١٧٤، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٧٥. وروايته عندهم: غاطية، بدل: غالية. والغاطية فيما ذكر ابن دريد: كل شجرة منبسطة على الأرض، وأراد بها هنا الكرمة، والملاحي: العنب الأبيض.

(١) المحتسب ٢/ ٢٠٠.

(٢) هو أيوب السختياني كما في مختصر في الشواذ ص١، والمحتسب ١/ ٤٦.

(٣) انظر إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٤٨٩، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٧٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٧.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٧.

(٥) في المطبوع: إنما.

(٦) الكشاف ٣/ ٣٠٧.

(٧) انظرها في تفسير الطبري ١٩/ ٣٦٤، ومعاني القرآن ٥/ ٤٥٤، وإعراب القرآن ٣/ ٣٧١ =

وقيل: نزلت في أبي بكر الصدّيق وقد ظهرت عليه الخشيةُ حتى عُرفت فيه[١].

ومَن ادعى أن «إنما» للحَصْر قال: المعنى: ما يَخشى اللهَ إلا العلماء، فغيرُهم لا يخشاه، وهو قول الزمخشري[٢].

وقال ابن عطية: وإنما في هذه الآية تخصيصُ العلماء لا الحَصْر، وهي لفظةٌ تَصلُح للحَصْر، وتأتي أيضاً دونَه، وإنما يُعْلَم ذلك بحسب المعنى الذي جاءت فيه[٣]. انتهى.

وجاءت هذه الجملةُ بعد قوله: «ألم تَرَ» إذْ ظاهرُه خطابٌ للرّسول[٤]؛ حيث عدَّد آياته، وأعلامَ قُدرته، وآثارَ صَنْعته، وما خلق من الفِطَر المُختلفة الأجناس، وما يُستدلُّ به عليه وعلى صفاته، فكأنه قال: إنما يَخْشاه مثلُك ومَن على صفتك ممَّن عَرَفه حقَّ معرفته[٥].

وقرأ الجمهور بنَصْب الجلالة ورفع العلماء. ورُوي عن عمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة عكسُ ذلك[٦].

وتُؤوِّلت هذه القراءةُ على أن الخشيةَ استعارةٌ للتّعظيم؛ لأن مَن خَشي وهاب أجلَّ وعَظَّم مَن خشيه وهابه.

ولعلّ ذلك لا يَصحُّ عنهما، وقد رأينا كُتباً في الشَّواذ ولم يذكروا هذه القراءة، وإنما ذكرها الزمخشري عنهما، وذكرها عن أبي حَيْوة أبو القاسم يوسف بن جُبارة في كتابه «الكامل»[٧].

= للنحاس، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٧٥، والماوردي ٤/ ٤٧١، والكشاف ٣/ ٣٠٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٧، وزاد المسير ٦/ ٤٨٦، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٧٥-٣٧٧.

(١) أخرجه الثعلبي ٥/ ١٧٥ من حديث عطاء الخراساني، رفعه. وهو ضعيف لانقطاعه.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٧.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٧.

(٤) في (د٣ يه): الرسول، وهما سواء.

(٥) الكشاف ٣/ ٣٠٧-٣٠٨.

(٦) الكشف والبيان ٥/ ١٧٥ للثعلبي، والكشاف ٣/ ٣٠٨، وعنه القرطبي ١٧/ ٣٧٧. وطعن ابن الجزري في هذه القراءة في النشر ١/ ١٦.

(٧) انظر الدر المصون ٩/ ٢٣١، وروح المعاني ٢٢/ ٢٢٠.

«إن الله عزيزٌ غفور» تعليلٌ للخَشْية؛ إذ العزَّةُ تدلُّ على عُقوبةِ العُصاة وقَهْرِهم، والمغفرةُ على إثابةِ الطَّائعين والعفوِ عنهم.

«إن الذين يَتْلُون» ظاهرُه يقرؤون «كتابَ الله» أي: يُدَاومون تلاوتَه.

وقال مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير: هذه آية القُرَّاء[1].

أو يَتْبعون كتابَ الله فيَعْملون بما فيه. وعن الكلبي: يأخذون بما فيه.

وقال السدّي: هم أصحاب الرسول ﷺ ورضي عنهم. وقال عطاء: هم المؤمنون[2].

ولمّا ذكر تعالى وَصْفَهم بالخَشْية وهي عملُ القلب؛ ذكر أنهم يَتْلون كتابَ الله وهو عملُ اللسان، ويقيمون الصَّلاة وهو عمل الجَوارح، ويُنفقون وهو العمل المالي.

«يَرْجون» خبر «إنّ». وهذا إشارة إلى الإخلاص، أي: يفعلون تلك الأفعال من التلاوة، وإقامةِ[3] الصَّلاة، والإنفاق؛ يقصدون بذلك وجهَ الله، لا للرّياء والسُّمعة.

«تجارةً لن تَبور» لن تَكْسَد ولا يَتعذَّر الرِّبْحُ فيها، بل يَنْفَقُ عند الله.

«ليُوَفِّيهم» مُتعلّق بـ «يَرْجون» أو بـ «لن تبور»، أو بمُضْمَر تقديرُه: فعلوا ذلك. أقوال[4].

قال الزمخشري: وإنْ شئتَ جعلتَ[5] «يرجون» في موضع الحال على: وأنفقوا راجين ليُوَفِّيهم، أي: فعلوا جميعَ ذلك لهذا الغَرَض، وخبر «إن» قولُه «إنه غَفور شكور» على معنى: غفورٌ لهم، شكورٌ لأعمالهم. والشُّكرُ مجازٌ عن الإثابة. انتهى[6].

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/٣٦٦.
(٢) الكشاف ٣/٣٠٨.
(٣) من قوله: يرجون... إلى هنا، ليس في المطبوع.
(٤) المحرر الوجيز ٤/٤٣٨.
(٥) في المطبوع: فقلت.
(٦) الكشاف ٣/٣٠٨.

و«أجورَهم» هي التي رَتّب تعالى على أعمالهم، وزيادتُه من فضله؛ قال أبو وائل: بتَشْفيعهم فيمَن أحْسنَ إليهم. وقال الضحاك: بتَفْسيح القلوب[١]. وفي الحديث: بتَضْعيف حسناتهم. وقيل: بالنَّظر إلى وجهه[٢].

و«الكتاب» هو القرآن. و«من» للتبيين، أو الجنس، أو التبعيض، تخريجات للزمخشري[٣]. و«مُصَدِّقاً» حالٌ مؤكِّدة «لما بين يديه» من الكُتب الإلهية: التوراة والإنجيل والزَّبور وغيره. وفيه إشارة إلى كونه وَحْياً؛ لأنه عليه السلام لم يكن قارئاً كاتباً، وأتى ببيان ما في كُتب الله، ولا يكون ذلك إلا من الله تعالى.

«إن الله بعباده لخَبير بَصير» لَخَبير: عالم بدقائق الأشياء وبَواطِنها، بصير: بما ظَهر منها، وحيث أهَّلك لوحيه، واختَصَّك[٤] برسالته وكتابه، الله أعلمُ حيث يجعل رسالاته.

«ثم أورَثْنا الكتابَ» و«ثمَّ» قيل: بمعنى الواو، وقيل: للمُهْلة إمّا في الزّمان وإمّا في الإخبار على ما يأتي بيانُه.

و«الكتابَ» فيه قولان: أحدهما أن المعنى: أنزلنا الكُتب الإلهيَّة، فالكتاب على هذا اسمُ جنس، والمصطَفَون: الأنبياء[٥] وأتْباعُهم، قاله الحسن. وقال ابن عباس: هم هذه الأمة، أُورثت أمةُ محمد ﷺ كلَّ كتابٍ أنزله الله. وقال ابن جرير: أورثَهم الإيمانَ، فالكتب تأمرُ باتِّباع القرآن، فهم مؤمنون بها عاملون بمُقْتضاها، يدلُّ عليه: «والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحقُّ» ثم أتبعه بقوله: «ثمَّ أورثْنا الكتابَ» فعلمنا أنهم أُمَّةُ محمد ﷺ إذْ كان معنى الميراث: انتقالَ شيءٍ من قوم إلى قوم، ولم تكن أمةٌ انتقل إليها كتابٌ من قوم كانوا قبلَهم غيرَ أُمَّته، فإذا قُلْنا: هم الأنبياء وأتباعُهم كان المعنى: أوْرَثْنا كلَّ كتابٍ أُنزل على نبيٍّ ذلك النبيَّ وأتباعَه.

---

(١) في النكت والعيون ٤/ ٤٧٢ (والأقوال فيه): يفسح لهم في قبورهم، وفي روح المعاني ٢٢/ ٢٢٢ مثل الذي عندنا (وهو كثير النقل عن أبي حيان).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٨، وانظر النكت والعيون.

(٣) الكشاف ٣/ ٣٠٨.

(٤) في المطبوع: واختارك.

(٥) في المطبوع: والمصطفون على ما يأتي بيانه أن المعنى الأنبياء، وهو تكرار لما قبله.

والقولُ الثاني: أن الكتابَ هو القرآن، والمصطَفَون: أمةُ الرسول، ومعنى أورَثْنا؛ قال مجاهد: أعطَيْنا؛ لأن الميراثَ عطاء[(١)].

ثم قسمَ الوارثين إلى هذه الأقسام الثلاثة، فقال مكّي: فقيل: هم المذكورون في «الواقعة» فالسَّابق بالخيرات هو المُقَرَّب، والمُقْتَصِد أصحابُ المَيْمنة، والظَّالم لنفسه أصحابُ المَشْأَمَة[(٢)]، وهو قولٌ يُروى معناه عن عكرمة والحسن وقتادة، قالوا: الضمير في «منهم» عائدٌ على العِباد، فالظَّالم لنفسه: الكافر والمُنافق، والمُقْتَصِد: المؤمن العاصي، والسَّابق: التقيُّ على الإطلاق، وقالوا: هي[(٣)] نَظيرُ ما في «الواقعة»[(٤)].

والأكثرون على أن هؤلاء الثلاثة هم في أُمَّةِ الرسول، ومَن كان من أصحاب المَشْأمة مُكذِّباً ضالًّا لم يُورث الكتاب ولا اصطفاه الله، وإنما الذي في «الواقعة» أصنافُ الخَلْق من الأوَّلين والآخِرين.

قال عثمان بن عفّان: سابقُنا أهلُ جهادنا، ومُقتصدُنا أهلُ حَضَرنا، وظالمُنا أهلُ بَدْونا؛ لا يَشْهدون جماعةً ولا جُمعةً.

وقال معاذ: الظَّالم لنفسه: الذي مات على كبيرة لم يَتُب منها، والمُقْتَصِد: مَن مات على صغيرة، ولم يُصِب كبيرة لم يَتُب منها، والسَّابق: مَن مات تائباً من كبيرةٍ أو صغيرة، أو لم يُصِب ذلك.

وقيل: الظَّالم لنفسه العاصي المُسْرِف، والمُقْتَصِد مُتَّقي الكبائر، والسَّابق المُتَّقي على الإطلاق.

وقال الحسن: الظَّالم مَن خَفَّت حَسَناتُه، والمُقْتَصِد مَن استوت، والسَّابق مَن رَجَحَت[(٥)].

---

(١) نقل المصنف القولين وتفصيلهما من زاد المسير ٦/ ٤٨٧-٤٨٨، وانظر تفسير الطبري ١٩/ ٣٦٨، ٣٧٣-٣٧٤.

(٢) الهداية لمكي ٩/ ٥٩٧٥، وآية الواقعة هي الآية (١٢) منها.

(٣) في المطبوع و(أ ت ز٢): هو، والمثبت من (د٣ يه)، وكلاهما صحيح.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٩، وأخرج الأقوال الطبري ١٩/ ٣٧١-٣٧٣.

(٥) انظر الأقوال في: معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٥٨، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٧٧-١٧٩؛

وقال الزمخشري: قَسَمهم إلى ظالم مُجْرم، وهو المُرْجأ لأمر الله، ومُقْتَصد وهو الذي خلطَ عملاً صالحاً وآخر سيّئاً، وسابق من السّابقين[1]. انتهى.

وذكر في «التحرير»[2] ثلاثةً وأربعين قولاً في هؤلاء الأصناف الثّلاثة[3].

وقرأ أبو عمران الجَوْنيّ، وعمر بن أبي شُجاع، ويعقوب في رواية، والقَزَّاز[4] عن أبي عمرو: «سَبَّاق»[5]، والجمهور: «سابق».

قيل: وقَدَّم الظّالم لأنه لا يَتَّكِل إلا على رحمة الله[6].

وقال الزمخشري: للإيْذانِ بكَثرةِ الفاسقين منهم وغَلَبَتِهم، وأنّ المُقتصِد قليلٌ بالإضافة إليهم، والسَّابقون أقلُّ من القليل[7]. انتهى.

«بإذْن الله» بتيسيره وتمكينه، أي: أن سَبْقَه ليس من جهة ذاته، بل ذلك منه تعالى.

والظاهر أن الإشارة بـ «ذلك» إلى إيْراثِ الكتاب، واصطفاء هذه الأمة.

= والماوردي ٤/ ٤٧٣-٤٧٤، والقرطبي ١٧/ ٣٨٢-٣٨٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٩، وزاد المسير ٦/ ٤٨٩-٤٩٠.

(١) الكشاف ٣/ ٣٠٩.

(٢) في المطبوع: التجريد، وهو تحريف.

(٣) ذكر الثعلبي ثلاثة وثلاثين قولاً، قال الآلوسي ٢٢/ ٢٣١: ومن تتبع التفاسير وجدها أكثر من ذلك، لكن لا يجد في أكثرها كثير تفاوت.

(٤) في المطبوع: الحوفي... والقراءة، وهو تحريف.

(٥) قراءة أبي عمران الجوني في مختصر في الشواذ ١٢٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٩ وتحرف فيه إلى أبي عمرو، وأبو عمران هو عبد الملك بن حبيب، من تابعي البصريين وثقاتهم، له ترجمة في طبقات ابن سعد ٩/ ٢٣٧، وتهذيب الكمال ١٨/ ٢٩٧، والمختار من مناقب الأبرار لابن الأثير ٣/ ٥١٥.

وقراءة أبي عمرو ـ من رواية القزاز ـ في الكامل للهذلي ورقة ٢٣١ كما ذكر محقق الدر المصون ٩/ ٢٣٢.

وزاد ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٤٩٠ نسبتها إلى أبي المتوكل والجحدري وابن السّميفع.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٩.

(٧) الكشاف ٣/ ٣٠٩.

«وجَنّاتُ» على هذا مبتدأ، و«يدخلونها» الخبر. وجَنّات قراءة الجمهور جَمْعاً بالرَّفع، ويكون ذلك إخباراً بمقدار أولئك المُصْطَفين.

وقال الزمخشري وابن عطية: «جَنّاتُ» بدلٌ من «الفَضْلُ»[١]، قال الزمخشري: فإن قلت: فكيف جُعِلَت «جَنَّاتُ عَدْنٍ» بدلاً من «الفَضْلُ الكبير» الذي هو السَّبْقُ بالخيرات المشارُ إليه بذلك؟ قلت: لمّا كان السَّببَ في نَيْل الثَّواب نُزِّل مَنْزِلةَ المُسَبِّب كأنه هو الثَّواب، فأُبدِلت عنه جَنَّاتُ عَدْن. انتهى.

ويدلُّ على أنه مبتدأ قراءةُ الجَحْدريّ وهارون عن عاصم: «جَنّاتِ»[٢] منصوباً على الاشتغال، أي: يَدْخلون جناتِ عَدْنٍ يَدْخلونها.

وقرأ زِرُّ بن حُبَيْش[٣] والزُّهري: «جَنَّةُ» على الإفراد بالرَّفع[٤].

وقرأ أبو عمرو: «يُدْخَلونها» مبنيًّا للمفعول، ورُويت عن ابن كثير[٥]. والجمهور مبنيًّا للفاعل.

والظاهر أن الضّميرَ المرفوعَ في «يَدْخلونها» عائدٌ على الأصناف الثلاثة، وهو قول عبد الله بن مسعود وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وأبي الدَّرداء وعُقبة بن عامر وأبي سعيد وعائشة ومحمد ابن الحنفيَّة وجعفر الصادق وأبي إسحاق السَّبيعي وكعب الأحبار[٦].

وقرأ عمر هذه الآية ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «سابقُنا سابق، ومُقتَصدُنا ناجٍ، وظالمُنا مغفورٌ له»[٧].

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٠٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٤٠.

(٢) قراءة الجحدري في مختصر في الشواذ ١٢٣، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٤٠، وذكرها الزمخشري ٣/ ٣٠٩، والقرطبي ١٧/ ٣٨٦ دون نسبة.

(٣) في المطبوع: رزين وحبيش، وهو تحريف.

(٤) مختصر في الشواذ ١٢٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٤٠، وذكرها الزمخشري والقرطبي دون نسبة.

(٥) السبعة ٥٣٤، والتيسير ١٨٢، والنشر ٢/ ٢٥٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٤٠.

(٦) سلف تخريج آثارهم وأقوالهم قريباً، وزد على تخريجها: تفسير الطبري ١٩/ ٣٧٠ فما بعدها.

(٧) أخرجه العقيلي في الضعفاء ٣/ ٤٤٣، والثعلبي في الكشف والبيان ٥/ ١٨٠، والواحدي في الوسيط ٣/ ٥٠٥، والبغوي في تفسيره ٣/ ٥٧١ من طريق الفضل بن عُميرة، عن ميمون بن =

ومَن جعل الثلاثةَ الأصناف هي التي في الواقعة كان الضَّمير في «يدخلونها» عائداً عنده على المُقْتَصِد والسَّابق[١].

وقال الزمخشري: هو عائد على السَّابق فقط، ولذلك جعل «ذلك» إشارةً إلى السَّبق المفهوم من قوله: «سابق»[٢].

قال الزمخشري: وفي اختصاص السَّابقين[٣] بعد التقسيم بذِكْر ثوابِهم، والسّكوت عن الآخرين ما فيه من وجوب الحَذَر، فلْيَحْذَرِ المُقْتَصِد، ولْيَمْلِك[٤] الظَّالم لنفسه حَذَراً، وعليهما بالتوبة النَّصوح المُخَلِّصة من عذاب الله، ولا يغترَّ بما رواه عُمر ﷺ عن رسول الله ﷺ: «سابقُنا سابِق، ومُقتصِدُنا ناجٍ، وظالِمُنا مَغْفورٌ له»[٥]. فإنَّ شرطَ ذلك صِحَّةُ التَّوبة لقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢]، وقوله: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦] ولقد نطق القرآن بذلك في مواضع من استقرأها اطَّلع على حقيقة الأمر ولم يُعلِّل نفسه بالخداع. انتهى. وهو على طريق المُعتزلة.

وقرأ الجمهور: «يُحَلَّون» بضم الياء وفتح الحاء وشدِّ اللام مبنيًّا للمفعول.

وقرئ بفتح الياء وسكون الحاء وخفّ[٦] اللام، من حَلِيَت المرأة فهي حالٍ إذا لَبِست الحُلِيّ، ويُقال: جِيدٌ حالٍ إذا كان فيه الحُليّ.

= سياه، عن أبي عثمان النهدي، عن عمر ﷺ، به. والفضل بن عميرة ضعيف، وقال العقيلي: لا يتابع عليه.
وأخرجه البيهقي في البعث والنشور (٦٥) من طريق ميمون بن سياه، عن عمر ﷺ، به.
وهذا منقطع، قال البيهقي: فيه إرسال بين ميمون بن سياه وعمر ﷺ.
وأخرجه سعيد بن منصور (٢٣٠٨) عن عمر موقوفاً، وانظر تخريج ابن حجر لأحاديث الكشاف ١٣٩.

(١) انظر تفسير القرطبي ١٧/ ٣٨١.
(٢) هذا معنى كلام الزمخشري الذي نقله قريباً قبل قراءة الجحدري.
(٣) من قوله: السبق المفهوم... إلى هنا، ليس في المطبوع.
(٤) في النسخ والمطبوع: وليهلك، وهو تحريف، والمثبت من الكشاف ٢/ ورقة ٢٠٨، و٣/ ٣٠٩ من المطبوع.
(٥) سلف تخريجه قريباً.
(٦) في المطبوع: وتخفيف، وهما بمعنى، والقراءة في الكشاف ٣/ ٣١٠.

وتقدّم في سورة الحجّ الكلامُ على ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الآية: ٢٣].

وقرأ الجمهور: «الحَزَن» بفتحتين، وقرئ بضمِّ الحاء وسكون الزَّاي، ذكره جَناح بن حُبَيْش[١].

والحُزن يَعمُّ جميعَ الأحزان، وقد خصَّ المفسِّرون هنا وأكثروا، وينبغي أن يُحمَل ذلك على التَّمثيل لا على التعيين، فقال أبو الدَّرداء: حُزن أهوالِ يوم القيامة، وما يُصيب هنالك مَن ظلَم نفسَه من الغَمِّ والحُزْن.

وقال ابن عباس: حُزْنُ جَهنَّم. وقال عطيَّة والضحاك: حُزنُ الموت، يقولونها إذا ذُبحَ الموت[٢].

وقال شِمْر: حُزْن مَعيشةِ[٣] الدُّنيا الخبز ونحوه.

وقال قتادة: حُزن الدنيا في الخوف أن لا يتقبَّل أعمالَهم.

وقال مُقاتل: حُزن الانتقال، يقولونها إذا استقرُّوا فيها. وقال الكلبي: خَوْف السُّلطان[٤].

وقال ابن زيد: حُزن تظالُمِ الآخرة، والوقوفِ عن قَبولِ الطاعات ورَدِّها، وطُولِ المُكْثِ على الصِّراط.

وقال القاسم بن محمد: حُزن زَوالِ النِّعَم[٥]، وتَقَلُّب القلب، وخوفِ العاقبة.

(١) مختصر في الشواذ ١٢٤.
(٢) من قوله: وقال ابن عباس... إلى هنا، ليس في المطبوع.
(٣) في (أ ز٢) والمطبوع: وقال سمرة بن جندب معيشة، ومثله في روح المعاني ٢٢/ ٢٣٨، وفي (د٣ يه): وقال سمرة: حزن معيشة، وكل ذلك تحريف، والمثبت من المصادر، وشمر هو ابن عطية، أخرج قوله هذا الحسين المروزي في زياداته على الزهد (١٥٧٠) لابن المبارك، والطبري في تفسيره ١٩/ ٣٧٨، والثعلبي في الكشف والبيان ٥/ ١٨١، وذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٣، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٠ (وتحرف في مطبوعه إلى شهر)، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٤٩٢.
(٤) في النسخ والمطبوع خلا (د٣): الشيطان، والمثبت منها، وهو موافق لما في المصادر.
(٥) في النسخ والمطبوع خلا (د٣ يه): الغم، وهو تحريف، والمثبت منهما.

وقد أكثروا حتى قال بعضهم: كِراء الدَّار، ومعناه أنه يَعُمُّ كُلَّ حُزْنٍ من أحزان الدّين والدُّنيا حتى هذا[١].

«إن ربَّنا لَغَفور شَكور» لَغَفور؛ فيه إشارةٌ إلى دخول الظَّالم لنفسِه الجنَّة، وشَكور؛ فيه إشارة إلى السَّابق وأنه كثيرُ الحَسَنات.

و«المُقامَة» هي الإقامة، أي: الجنَّة؛ لأنها دارُ إقامةٍ دائماً لا يُرْحَل عنها «من فَضْله» من عَطائه «لا يَمَسُّنا فيها نَصَبٌ» أي: تَعَبُ بَدَنٍ «ولا يَمَسُّنا فيها لُغوب» أي: تَعَبُ نَفْس، وهو لازمٌ عن تَعَبِ البَدَن. وقال قتادة: اللُّغوب: الوَجَع[٢].

وقال الزمخشري: النَّصَب: التَّعَب والمَشَقَّة التي تُصيب المُنتَصِبَ للأمر المُزاوِل له، وأما اللُّغوب فما يَلْحَقُه من الفُتور بسبب النَّصَب، فالنَّصَبُ نفْسُ المَشَقَّة والكُلْفَة، واللُّغوب نتيجتُه وما يَحدثُ منه من الكَلال والفَترة. انتهى[٣].

فإن قلت: إذا انْتَفى السَّبب انتَفى مُسَبَّبه، فما حِكمةُ نَفْي السَّبب ثم انتفاء مُسَبَّبه[٤] وأنت تقول: ما شَبعتُ ولا أكلْتُ، ولا يَحْسن: ما أكلتُ ولا شَبِعتُ؛ لأنه يَلْزم من انْتِفاءِ الأكل انتفاءُ الشِّبَع، ولا ينعكس، فلو جاء على هذا الأسلوب لكان التّركيب: لا يَمَسُّنا فيها إعياءٌ ولا مَشَقَّة؟ فالجواب: أنه تعالى بَيَّن مُخالفَةَ الجنَّة لدار الدُّنيا؛ فإن أماكنَها على قسمين: مَوضع تَمسُّ فيه المشاقُّ والمَتاعب كالبَراري والصَّحارى، وموضع تَمَسُّ فيه الإعياء كالبيوت والمنازل التي فيها الأسفار[٥]، فقال: «لا يَمَسُّنا فيها نَصَبٌ» لأنها ليست مَظانَّ المتاعِب كدار الدّنيا «ولا يَمَسُّنا

---

(١) انظر الأقوال في تفسير الطبري ١٩/ ٣٧٧-٣٧٩، والثعلبي ٥/ ١٨٠-١٨١، والماوردي ٥/ ٤٧٥، وإعراب القرآن ٣/ ٣٧٣، والكشاف ٣/ ٣١٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٤٠، وزاد المسير ٦/ ٤٩١-٤٩٢.

(٢) في (أ ت ز٢) والمطبوع: الوضع، وهو تحريف، والمثبت من (د٣ يه)، وقول قتادة في تفسير الطبري ١٩/ ٣٨١، والماوردي ٤/ ٤٧٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٤٠.

(٣) الكشاف ٣/ ٣١٠.

(٤) في المطبوع: فما حكمه إذا نفى السبب وانتفى مسببه، وفي (ت): فما حكمه... مع انتفاء مسببه، والمثبت من سائر النسخ.

(٥) في المطبوع: الصغار، وهو تحريف.

فيها لُغوب» أي: ولا نَخْرج منها إلى مواضع تَعَبٍ[١] ونَرجع إليها فيَمَسُّنا فيها الإعياء[٢].

وقرأ الجمهور: «لُغوب» بضمّ اللام، وعليٌّ بن أبي طالب والسُّلَمي بفتحها[٣].

قال الفراء: هو ما يُلْغَب به، كالفَطور والسَّحور[٤].

وجاز أن يكون صفةً للمَصْدر المحذوف كأنه: لُغوبٌ لَغوب؛ كقولهم: مَوتٌ مائت.

وقال صاحبُ «اللّوامح»: يجوز أن يكون مصدراً كالقَبول، وإنْ شئتَ جعلتَه صفةً لمُضْمَر، أي: أمرٌ لَغوب[٥].

واللَّغوب أيضاً في غير هذا الأحمق، قال أعرابي: إن فُلاناً لَغوب، جاءتْه كتابي فاحْتَقَرها ـ أي: أحمق ـ فقيل له: لمَ أنَّثْتَه؟ فقال: أليس صَحيفة[٦].

❁ ❁ ❁

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ
كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي
كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ
مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾
هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ

(١) في المطبوع: موضع نصب.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٢٦/ ٢٨. قال السمين في الدر المصون ٩/ ٢٣٤: وهذا الجواب ليس بذاك...

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٧٠، وإعراب القرآن ٣/ ٣٧٤، ومختصر في الشواذ ١٢٤، والمحتسب ٢/ ٢٠٠، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٨١، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٤٠.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٧٠.

(٥) نقله الآلوسي ٢٢/ ٢٤٠.

(٦) انظر جمهرة اللغة ٣٧٠، والصحاح (لغب)، والخصائص ١/ ٢٤٩ و٢/ ٤١٦، وسر صناعة الإعراب ١/ ١٢، ومجمل اللغة ٨١٠، ومقاييس اللغة ٥/ ٢٥٦، والإنصاف لابن الأنباري ص٦١٧.

إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

لمَّا ذَكر حالَ المؤمنين ومَقَرَّهم ذَكر حالَ الكافرين، وهذا يدلُّ على أن أولئك الثلاثة هم في الجنة. أو الذين كفروا هم مُقابلوهم.

«لا يُقضى عليهم» أي: لا يُجْهَز عليهم فيموتوا؛ لأنهم لو ماتوا لبَطَلت حَواسُّهم فاستراحوا.

وقرأ الجمهور: «فيموتوا» بحذف النون منصوباً في جواب النفي، وهو على أحد مَعْنَيَي النَّصب، فالمعنى: انتفى القضاءُ عليهم فانتفى مُسَبَّبه، أي: لا يُقضى عليهم ولا يموتون، كقولك: ما تأتينا فتُحَدِّثَنا، أي: ما يكون منك إتيانٌ فكيف يكون حديثٌ، انتفى الإتيانُ فانتفى الحديث، ولا يصحُّ أن يكون على المعنى الثاني من مَعْنَيَي النَّصب لأن المعنى: ما تأتينا مُحَدِّثاً إنما تأتي ولا تُحدِّث، وليس المعنى هنا: لا يُقضى عليهم مَيّتين، إنما يُقضى عليهم ولا يموتون.

وقرأ عيسى والحسن: «فيموتون» بالنون[(١)]. وَجْهُها أن تكون مَعطوفة على «لا يُقْضى». قال ابن عطية: وهي قراءة ضعيفة. انتهى.

وقال أبو عثمان المازني: هو عطف، أي: فلا يموتون؛ كقوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] أي: فلا يعتذرون ولا يُخَفَّف عنهم من عذابها، ولا يُعارض هذا قوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] لأن المعنى: لا يُخَفَّف عنهم نوعُ عذابهم، والنَّوعُ في نفسه يَدْخُله أنْ يَخْبو أو يُسْعَر. قاله ابن عطية[(٢)].

وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: «ولا يُخَفَّفْ» بإسكان الفاء[(٣)]، شبَّه المُنْفَصل بالمُتَّصل، كقوله:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٣٧٤، ومعاني القرآن ٥/ ٤٦٠ كلاهما للنحاس، والمحتسب ٢/ ٢٠١، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٨٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٤٠، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٨٨.

(٢) القولان في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٠-٤٤١. ومن قوله: من عذابها... إلى هنا، ليس في المطبوع.

(٣) مختصر في الشواذ ١٢٤.

فـالـيـومَ أشْـرَبْ غـيـرَ مُـسْـتَـحْـقِـبٍ(١)

وقرأ الجمهور: «نَجْزي كلَّ» مبنيًّا للفاعل ونَصْب كلّ، وأبو عمرو وأبو حاتم عن نافع بالياء مبنيًّا للمفعول «كلُّ» بالرفع(٢).

«وهم يَصْطَرِخون» بُني من الصُّراخ يفتعل، وأُبدلت من التاء طاءً، وأصلُه: يصترخون، والصُّراخ شِدَّة الصِّياح، قال الشاعر:

كـصَـرْخَـةِ(٣) حُـبْـلـى أسْـلَـمَـتْـهـا قَـبـيـلُـهـا(٤)

واستُعمل في الاستغاثة لجُهْدِ(٥) المُسْتغيث صوتَه، وقال الشاعر:

وطُولُ اصطِراخِ المَرْءِ في بُعْدِ قَعْرِها   وجُهدُ شَقيٍّ طالَ في النَّار ما عَوى

«ربَّنا أخْرِجْنا» أي: قائلين رَبَّنا أخرجنا «منها» أي: من النّار، ورُدَّنا إلى الدُّنيا «نَعْملْ صالحاً» قال ابن عباس: نَقُلْ: لا إله إلا الله(٦) «غيرَ الذي كنَّا نَعملْ» أي: من الشِّرك، ونَمْتَثل أمرَ الرُّسُل، فنؤمن بدلَ الكفر، ونُطيع بدلَ المعصية.

وقال الزمخشري: فإن قلت: هلَّا اكتفى بـ «صالحاً» كما اكتفى به في قوله: ﴿فَأَرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢]، وما فائدة زيادة «غير الذي كنا نعمل» على أنه يُوهم أنهم يَعملون صالحاً آخر غير الصَّالح الذي عملوه؟ قلت: فائدتُه زيادةُ التَّحَسُّر على ما عملوه من غير الصَّالح مع الاعتراف به، وأما الوَهْم فزائلٌ بظهور حالهم في الكُفر، وركوب المعاصي، ولأنهم كانوا يَحْسبون أنهم على سيرة صالحة

---

(١) تمامه: إثماً من الله ولا واغل، وهو لامرئ القيس، انظر ديوانه ٥٢٣ (بشرح السكري)، وسلف في تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٢) السبعة ٥٣٥، والتيسير ١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٤١.

(٣) في المطبوع: صرخت، وهو تحريف.

(٤) صدره: أصالحكم حتى تبوؤوا بمثلها، وهو للأعشى، انظر ديوانه ٢/ ١٧ (طبعة قطر)، وإصلاح المنطق ١٤٢، والكشاف ٣/ ٣١٠، ورواية الديوان: يسّرتها قبولها، بدل: أسلمتها قبيلها، وهو في معاتبة بني مرثد وبني جحدر، والقبيل والقبول جمع قابلة.

(٥) في المطبوع: لجهة.

(٦) تفسير القرطبي ١٧/ ٣٨٨، وما بعده منه.

كما قال الله: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[١] [الكهف: ١٠٤]، فقالوا: «أخْرِجنا نَعملْ صالحاً غيرَ الذي كنّا» نَحْسبه صالحاً فنَعْمَله. انتهى[٢].

رُوي أنهم يُجابَون بعد مقدار الدُّنيا «أوَلم نُعَمِّرْكم»؟ وهو استفهامُ توبيخ وتوقيف وتقرير، و«ما» مصدرية ظرفية، أي: مُدَّة تَذَكُّر.

وقرأ الجمهور: «ما يَتَذَكَّر فيه مَن تَذَكَّر». وقرأ الأعمش: «ما يَذَّكَّر فيه مَن اذَّكَّر» بالإدغام واجتلاب همزة الوَصْل مَلْفوظاً بها في الدَّرْج[٣].

وهذه المدَّة قال الحسن: البلوغ، يُريد أنه أوَّلُ حال التَّذَكُّر، وقيل: سبع عشرة سنة.

وقال قتادة: ثمان عشرة سنة. وقال عمر بن عبد العزيز: عشرون.

وقال ابن عباس: أربعون، وقيل: خمسون. وقال عليّ: ستون، ورُوي ذلك عن ابن عباس[٤].

«وجاءكم» معطوف على «أولم نُعَمِّرْكم» لأن معناه: قد عَمَّرناكم، كقوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨] وقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]، ثم قال: ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا﴾ وقال: ﴿وَوَضَعْنَا﴾ لأن المعنى: قد رَبَّيناك وشَرَحْنا.

و«النَّذير» جِنْسٌ وهم الأنبياء، كلُّ نبيٍّ نذيرُ أُمَّتِه، وقُرئ: «النُّذُر» جمعاً[٥].

وقيل: النَّذير: الشَّيب، قاله ابن عباس وعكرمة وسفيان ووكيع والحُسين بن الفَضْل والفَرَّاء والطَّبري[٦].

---

(١) من قوله: يحسبون... إلى هنا، ليس في المطبوع.

(٢) الكشاف ٣/ ٣١٠.

(٣) مختصر في الشواذ ١٢٤ (وفيه تصحيف)، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٤١.

(٤) انظر الأقوال في تفسير الطبري ١٩/ ٣٨٤-٣٨٦، وإعراب القرآن ٣/ ٣٧٥، ومعاني القرآن ٥/ ٤٦٠ للنحاس، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٨٣، والماوردي ٤/ ٤٧٦، والقرطبي ١٧/ ٣٨٨-٣٩٠، والكشاف ٣/ ٣١١، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١١، وزاد المسير ٦/ ٤٩٤.

(٥) في الكشاف ٣/ ٣١١، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٩٠: وقرئ: وجاءتكم النذر.

(٦) ذكر هذا القول الفراء ٢/ ٣٧٠، والطبري ١٩/ ٣٨٧ أحد قولين، ولم يجزما به، وذكر الماوردي ـ وعنه القرطبي ـ أنه اختيارهما، انظر التعليق التالي.

وقيل: موتُ الأهل والأقارب. وقيل: كمالُ العَقْل[(١)].

«فذوقوا» أي: عَذابَ جَهنّم.

وقرأ جَناحُ بن حُبَيْش: «عالمٌ» مُنَوَّناً «غَيْبَ» نَصْباً[(٢)]، والجمهور على الإضافة.

ومَجيْءُ هذه الجملة عَقيب ما قبلها هو أنه تعالى ذكر أن الكافرَ يُعَذَّب دائماً، ومُدَّة كُفره كانت مُدَّةً يسيرة مُنْقَطعة، فأخبر تعالى أنه عالـمُ غيبِ السَّماوات والأرض، فلا يَخفى عليه ما تَنْطوي عليه الصُّدور من المُضْمَرات، وكان يَعلم من الكافر أنه تمكّن الكُفر في قلبه بحيث لو دام إلى الأبد ما آمن بالله ولا عَبَده.

و«خَلائف» جمع خَليفة، وخُلَفاء جمع خَليف، ويقال للمُسْتَخْلَف: خَليفة وخَليف، وفي هذا تنبيه على أنه تعالى استخلفَهم بدلَ مَن كان قبلَهم، فلم يَتَّعِظوا بحالِ مَن تقدَّمهم من مُكَذّبي الرُّسُل وما حلَّ بهم من الهلاك، ولا اعتَبروا.

«فمن[(٣)] كفر» ولم يَتَّعِظ[(٤)] بمَن تقدَّم «فعليه كُفره» أي: عقابُ كفرِه، والظَّاهر أنّه خطابٌ عام، وقيل: لأهل مكة.

والمَقْتُ: أشَدُّ الاحتقار والبُغضِ والغَضب. والخَسار: خَسارُ العُمر. كان العمرُ رأسَ مال، فإذا انْقَضى في غير طاعةِ الله فقد خَسِره واستعاض به بدلَ الرِّبح بما يَفْعل من الطَّاعات سَخَطَ الله وغَضَبَه، بحيث صاروا إلى النَّار.

«قل أرأيتُم شُركاءكم» قال الحَوْفي: ألفُ الاستفهام دخلت[(٥)] للتَّقرير.

وفي «التحرير»: «أرأيتم» المُراد منه: أخبروني؛ لأن الاستفهامَ يَسْتدعي ذلك، يقول القائل: أرأيتَ ماذا فعل زيد؟ فيقول السامع: باع أو اشترى، ولولا تضمُّنُه معنى أخْبِروني لكان الجواب: نعم أوْ لا.

---

(١) في المطبوع: السفل (تحريف)، وانظر الأقوال في تفسير الثعلبي ٥/ ١٨٤، والماوردي ٤/ ٤٧٦، والقرطبي ١٧/ ٣٩٠-٣٩١، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٦١-٤٦٢، وزاد المسير ٦/ ٤٩٤-٤٩٥.

(٢) مختصر في الشواذ ١٢٤.

(٣) في (أ ز٢) والمطبوع: بمن، والمثبت من (ت د٣ يه).

(٤) في المطبوع: يتعظوا.

(٥) في النسخ والمطبوع خلا (يه): ذلك، والمثبت منها.

وقال ابن عطية: «أرأيتُم» يَتَنَزَّل عند سيبويه منزلةَ أخْبِروني؛ ولذلك لا يحتاج إلى مفعولين[١].

وقال الزمخشري: «أروني» بدلٌ من «أرأيتم» لأن معنى أرأيتُم: أخبروني، كأنه قال: أخبروني عن هؤلاء الشُّركاء وعمَّا استحقُّوا به الإلهيّة والشِّرْكة، أروني أيَّ جُزءٍ من أجزاء الأرض استبدُّوا بخلقه دون الله، أم لهم مع الله شِرْكةٌ في خلق السَّماوات، أم معهم كتابٌ من عند الله يَنْطقُ بأنهم شُركاؤه؛ فهم على حُجَّةٍ وبُرْهانٍ من ذلك الكتاب؟

أو يكون الضَّمير في «آتيناهم» للمشركين كقوله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ [الروم: ٣٥] ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢١] «بلْ إنْ يَعِدُ الظّالمون بعضُهم» وهم الرؤساء «بعضاً» وهم الأتباع «إلا غُرورا» وهو قولهم: هؤلاء شُفعاؤنا عند الله[٢]. انتهى.

أمَّا قوله: «أروني» بدل من «أرأيتم» فلا يصحُّ؛ لأنه إذا أُبدِل مما دخل عليه الاستفهام فلا بُدَّ من دخول الأداة على البدَل، وأيضاً فإبْدالُ الجملة من الجملة لم يُعْهَد في لسانهم، ثم البدَلُ على نيَّة تكرار العامل، ولا يتأتَّى ذلك هنا؛ لأنه لا عامل في «أرأيتم» فيُتَخَيَّل[٣] دخولُه على «أروني»، وقد تكلَّمنا في «الأنعام» [الآية: ٤٠] على «أرأيتم» كلاماً شافياً.

والذي أذهبُ إليه هنا أن «أرأيتم» بمعنى أخبروني، وهي تطلب مفعولَين؛ أحدهما منصوب، والآخر مُشتَمل على استفهام، كقول العرب: أرأيتَ زيداً ما صَنع؟ فالأول هنا هو «شُركاءكم» والثاني «ماذا خلقوا»، و«أروني» جملةٌ اعتراضية فيها تأكيدٌ للكلام وتَشديد، ويحتمل أن يكون ذلك أيضاً من باب الإعمال؛ لأنه توارَدَ على «ماذا خلقوا»: «أرأيتم، وأروني» لأن «أروني» قد تُعلَّق عن مفعولها الثاني؛ كما عُلّقت رأى التي لم تدخل عليها همزة النّقل عن مفعولها[٤]

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٢، وانظر الكتاب ١/ ٢٣٩-٢٤٠.
(٢) الكشاف ٣/ ٣١١-٣١٢.
(٣) في (د٣ يه): فيتحمل.
(٤) من قوله: الثاني. . . إلى هنا، ليس في المطبوع.

في قولهم: أما تَرى أيُّ بَرْقٍ هاهنا؟ ويكون قد أعمل الثاني على المختار عند البصريين[١].

وقيل: يحتمل أن تكون «أرأيتم» استفهاماً حقيقياً، و«أروني» أمرُ تَعْجيزٍ للتَّبيين، أي: أعلمتم هذه التي تدعونها كما هي وعلى ما هي عليه من العَجْز، أو تتوَهَّمون فيها قُدرة؟ فإن كنتم تعلمونها عاجزةً فكيف تعبدونها؟! أو توهَّمتم لها قُدرة فأروني قُدرتَها في أي شيءٍ هي؟ أهي في الأرض؛ كما قال بعضهم: إن الله إله في السماء، وهؤلاء آلهةٌ في الأرض، قالوا: وفيها من الكواكب والأصنام صُوَرُها؟ أم هي في السماوات؛ كما قال بعضهم: إن السماء خُلقت باستعانة الملائكة، فالملائكةُ شركاء في خلقها، وهذه الأصنام صُورُها؟ أم قُدرتُها في الشفاعة لكم؛ كما قال بعضهم: إن الملائكة ما خَلقوا شيئاً ولكنهم مُقَرَّبون عند الله فنعبدها لتشفعَ لنا، فهل معهم من الله كتابٌ فيه إذْنُه لهم بالشَّفاعة؟ انتهى[٢].

وأضاف الشُّركاء إليهم من حيث هم جعلوهم شُركاء لله، أي: ليس للأصنام شِرْكةٌ بوجهٍ إلا بقولهم وجَعْلهم.

قيل: ويحتمل شُركاءكم في النار؛ لقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

والظاهر أن الضمير في «آتيناهم» عائد على الشّركاء لتناسُب الضَّمائر، أي: هل مع ما جُعل شريكاً لله كتابٌ من الله فيه أن له شَفاعةً عنده؟ فإنه لا يُشفَع عنده إلا بإذنه.

وقيل: عائد على المُشركين، ويكون التفاتاً خرج من ضمير الخِطاب إلى ضمير الغَيْبة إعراضاً عنهم، وتنزيلاً لهم منزلةَ الغائب الذي لا يَصْلُح[٣] للخطاب، ومعناه أن عبادةَ هؤلاء إمَّا بالعَقل، ولا عقلَ لمَن يعبد ما لا يَخلُق من الأرض جزءاً من

(١) ردّ هذا الكلام السمين في الدر المصون ٩/ ٢٣٨، والآلوسي في روح المعاني ٢٢/ ٢٤٨ قال: وما ذكره احتمال في الآية الكريمة، وما قاله في رده ليس بشيء، أما الأول... وانظر تتمته.

(٢) ملخصاً من تفسير الرازي ٢٦/ ٣٢، وما بعده منه أيضاً.

(٣) في النسخ والمطبوع: يحصل، والمثبت من هامش (ز٢).

الأجزاء، ولا له شِرك في السَّماء، وإمَّا بالنَّقْل، ولم نؤتِ المشركين كتاباً فيه أمرٌ بعبادة هؤلاء، فهذه عبادةٌ لا عقليَّةٌ ولا نَقْليّة. انتهى.

وقرأ ابن وَثَّاب والأعمش وحمزة وأبو عمرو وابن كثير وحفص وأبان عن عاصم: «على بيِّنة» بالإفراد، وباقي السَّبعة بالجمع[١].

ولمّا بَيَّن تعالى فَسادَ أمرِ الأصنام، ووَقَف على الحُجَّةِ على بُطلانها عَقَّب بذِكْر عَظمته وقُدرته؛ ليَتَبيَّن الشيءُ بضدِّه، وتتأكَّد حَقارةُ الأصنام بذكرِ عَظَمة الله فقال: «إن الله يُمسك السَّماوات والأرضَ أنْ تَزولا» والظّاهر أن معناه: أنْ تنتقلا عن أماكِنهما، وتَسقُطَ السَّماوات عن عُلوِّها.

وقيل: معناه: أن تزولا عن الدَّوران[٢]. انتهى.

ولا يَصحُّ لأن الأرضَ لا تدور، ويَظْهر من قول ابن مسعود أن السماءَ لا تدور؛ وإنما تجري فيها الكواكب، وقال: كفى بها زَوالاً أنْ تدور، ولو دارت لكانت قد زالت[٣].

و«أنْ تزولا» في موضع المفعول له، وقُدِّر: لئلّا تزولا، وكراهةَ أنْ تزولا.

وقال الزجاج: «يُمْسِك» يَمنع من أنْ تزولا[٤]. فيكون مفعولاً ثانياً على إسقاط حرف الجر.

ويجوز أنْ يكون بدلاً، أي: يمنع زوالَ السَّماوات والأرض؛ بدلَ اشتمال.

«ولئنْ زالتا» إنْ تَدخل غالباً على المُمْكن، فإن قَدَّرْنا دخولَها هنا على الممكن فيكون ذلك باعتبار يوم القيامة عند طَيِّ السماء ونَسْف الجبال؛ فإن ذلك مُمكن ثم واقعٌ بالخَبَر الصِّدْق، أي: ولئن جاءت وقتُ زوالِهما.

---

(١) السبعة ٥٣٥، والتيسير ١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥٢، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٦، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٨٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٤٢، وزاد المسير ٦/ ٤٩٦، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٩٣.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٢.

(٣) سيرد تخريج قول ابن مسعود قريباً، وفي هذا الكلام نظر، سبقت الإشارة إليه.

(٤) معاني القرآن ٤/ ٢٧٣.

ويجوز أن يكون ذلك على سبيل الفَرْض، أي: ولئنْ فَرَضْنا زوالَهما، فيكون مثل لو في المعنى، وقد قرأ ابن أبي عَبْلة: «ولو زالتا»[١].

و«إنْ» نافية، و«أمْسَكَهُما» في معنى المضارع جوابٌ للقَسم المُقدَّر قبل لام التَّوطئة في «لئن»، وإنما هو في معنى المضارع لدخول إنْ الشَّرطية؛ كقوله: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥] أي: ما يَتَّبعون، وكقوله: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ [الروم: ٥١]. أي: ليَظَلُّن، فيُقدَّر هذا كلُّه مُضارعاً لأجل إنْ الشَّرطية.

وجواب «إنْ» في هذه المواضع وما أشْبَهَها محذوفٌ لدلالة جواب القَسَم عليه؛ ولذلك جاء فعلُ الشَّرط بصيغة الماضي.

وقال الزمخشري: و«إنْ أمسَكَهما» جوابُ القسم في «ولئنْ زالتا» سدَّ مَسدَّ الجوابَيْن[٢]. انتهى.

يعني أنه دلَّ على الجواب المحذوف، وإنْ أُخذ كلامُه على ظاهره لم يصحَّ؛ لأنه لو سدَّ مَسَدَّهما لكان له موضعٌ من الإعراب باعتبار جوابِ الشَّرط، ولا مَوْضعَ له من الإعراب باعتبارِ جَواب القَسَم، والشيء الواحدُ لا يكون معمولاً غيرَ معمول.

و«من» في «من أحدٍ» لتأكيد الاستغراق، و«من» في «من بعده» لابتداء الغاية، أي: من بعد ترك إمْساكِه.

وسأل ابنُ عباس رجلاً أقبلَ من الشام: مَن لقيتَ؟ قال: كعباً، قال: وما سمعتَه يقول؟ قال: سمعتُه يقول: إن السَّماوات على مَنْكِب مَلَك، قال: كذبَ كعب، أما ترك يهوديَّته بعد؟ ثم قرأ هذه الآية[٣].

وقال ابن مسعود لجُندب البَجَلي وكان رَحَل إلى كعب الأحْبار في كلامٍ آخره:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٣ وما قبله منه.
(٢) الكشاف ٣/ ٣١٢.
(٣) ذكره الزمخشري ٣/ ٣١٢، والقرطبي ١٧/ ٣٩٥. قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ١٣٩: لم أجده.

ما تمَكَّنَت اليهوديَّةُ في قلبٍ فكادت أنْ تُفارقَه[١].

وقالت فرقةٌ: اتِّصافُه بالحِلْم والغُفران في هذه الآية إنما هو إشارةٌ إلى أن السماء كادت تزول والأرضُ كذلك لإشراك الكَفَرة، فيُمسِكُهما حِلْماً منه عن المشركين وتربُّصاً ليَغْفِرَ لمَن آمن منهم، كما قال في آيةٍ أُخرى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ الآية[٢] [مريم: ٩٠].

وقال الزمخشري: «حليماً غفوراً» غيرَ مُعاجِلٍ بالعقوبة حيثُ يُمسكهما، وكانتا جديرتَيْن بأنْ تُهَدَّا هَدًّا لعِظَمِ كلمةِ الشِّرك، كما قال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ الآية[٣] [مريم: ٩٠].

* * *

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

الضّمير في «وأقْسَموا» لقُريش، ولمّا بَيَّن إنكارَهم للتَّوحيد بَيَّن تكذيبَهم للرُّسُل.

قيل: وكانوا يَلْعنون اليهودَ والنَّصارى حيث كَذَّبوا رُسلَهم، وقالوا: لئن أتانا رسولٌ لنَكونَنَّ أهدى من إحدى الأُمم، فلما بُعث رسول الله ﷺ كَذَّبوه[٤].

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٩١، ٣٩٢، وذكره الثعلبي ٥/ ١٨٤، وابن عطية ٤/ ٤٤٢، والقرطبي ١٧/ ٣٩٥.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٣.
(٣) الكشاف ٣/ ٣١٢.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧٤، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٨٤، والماوردي ٤/ ٤٧٨، والقرطبي ١٧/ ٣٩٦، والكشاف ٣/ ٣١٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٤٣، وزاد المسير ٦/ ٤٩٧.

«لئنْ جاءهم» حكايةٌ لمعنى كلامهم لا للفظِهم، إذْ لو كان للَّفظ لكان التركيب: لئن جاءنا نذيرٌ.

«من إحدى الأُمم» أي: من واحدةٍ مُهتَدية من الأُمم. أو من الأمة التي يقال فيها: إحدى الأُمَم تفضيلاً لها على غيرها[(١)]؛ كما قالوا: هو أَحَد الأحَدَيْن، وهي[(٢)] إحدى الإحَد، يريدون التَّفضيلَ في الدَّهاء والعَقْل بحيث لا نَظيرَ له، وقال الشاعر:

حتى اسْتَثاروا بيَ إحدى الإحَدِ   لَيْثاً هِزَبْراً ذا سِلاحٍ مُعْتَدِ[(٣)]

«فلمّا جاءهم نَذيرٌ» وهو محمد ﷺ. قاله ابن عباس، وهو الظاهر. وقال مقاتل: هو انشِقاقُ القمر[(٤)].

«ما زادَهم» أي: ما زادهم هو، أو مَجيئه. «إلا نُفورا» بُعداً من الحقِّ وهَرَباً منه. وإسناد الزيادة إليه مَجازٌ؛ لأنه هو السَّبب في أن زادوا أنفُسَهم نُفوراً؛ كقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥][(٥)] وصاروا أضلَّ مما كانوا.

وجواب «لمّا»: «ما زادهم» وفيه دليلٌ واضحٌ[(٦)] على حَرْفيَّة لمّا لا ظَرْفيَّتها؛ إذْ لو كانت ظَرْفاً لم يَجُزْ أنْ يتقدَّم على عاملها المنفيِّ بما، وقد ذكرنا ذلك في قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ﴾ [سبأ: ١٤]، وفي قوله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم﴾ [يوسف: ٦٨].

---

(١) الكشاف ٣/ ٣١٢.

(٢) في النسخ والمطبوع خلا (د٣ يه): وهو، والمثبت منهما وهو الصحيح، انظر خزانة الأدب ٧/ ٣٤٨، وروح المعاني ٢٢/ ٢٥٢.

(٣) في المطبوع:

حتى استشاروا في إحد الإحد   شاهد يرادا سلاح معد

وهذا تحريف، والرجز للمرّار بن سعيد كما في الأغاني ١٠/ ٣١٧، وخزانة الأدب ٧/ ٣٥١-٣٥٢، وبلا نسبة في شرح التسهيل ٢/ ٤٠٥ (طبعة هجر).

واستثاروا: هيّجوا، وليثاً هزبراً: تفسير وعطف بيان لإحدى الإحد، وذا سلاح معتد: صفة لليث. قاله البغدادي.

(٤) ذكرهما الآلوسي ٢٢/ ٢٥٣.

(٥) الكشاف ٣/ ٣١٢.

(٦) في (ز٢): زادوهم... ظاهر.

والظاهر أن «استكباراً» مفعولٌ من أجله، أي: سَبَبُ النُّفور وهو الاستكبار «ومَكْرَ السَّيِّئ» معطوف على «استكباراً» فهو مفعول من أجله أيضاً، أي: الحاملُ لهم على الابتعاد من الحقّ هو الاستكبارُ والمكرُ السَّيِّئ، وهو الخِداعُ الذي يَرومونه برسول الله ﷺ والكَيْدُ له. وقال قتادة: المكرُ السَّيِّئ: هو الشِّرْك[1].

وقيل: «استكباراً» بدلٌ من «نفورا» وقاله الأخفش[2].

وقيل: حال، يعني: مُسْتَكْبِرين وماكرين برسول الله ﷺ والمؤمنين، و«مَكْرَ السَّيِّء» من إضافة الموصوف إلى صفته؛ ولذلك جاء على الأصل «ولا يَحيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ».

وقيل: يجوز أن يكون «ومكرَ السَّيِّئ» معطوفاً على «نُفورا»[3].

وقرأ الجمهور: «ومَكْرَ السَّيِّئِ» بكسر الهمزة. والأعمش وحمزة بإسكانها[4]؛ فإمَّا إجراءً للوَصْل مَجرى الوَقْف، وإمَّا إسكاناً لتوالي الحركات، وإجراءً للمُنْفَصل مجرى المتَّصل، كقوله: لنا إبْلان.

وزعم الزجَّاج[5] أن هذه القراءة لحن. قال أبو جعفر[6]: وإنما صار لَحْناً لأنه حَذفَ الإعرابَ منه.

وزعم محمد بن يزيد[7] أن هذا لا يجوز في كلامٍ ولا شِعر؛ لأن حركات الإعراب دخلتْ للفرق بين المعاني.

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٩٣.
(٢) ونقله عنه الثعلبي في الكشف والبيان ٥/ ١٨، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٤٩٧.
(٣) الكشاف ٣/ ٣١٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٤٣.
(٤) السبعة ٥٣٥-٥٣٦، والتيسير ١٨٢-١٨٣، والنشر ٢/ ٣٥٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٤٣، وذكرها المفسرون جميعاً.
(٥) في معاني القرآن له ٤/ ٢٧٥، ونقله عنه المفسرون.
(٦) النحاس، وكلامه الآتي في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٧، ونقله عنه ابن الجوزي ٦/ ٤٩٨، والقرطبي ١٧/ ٣٩٦.
(٧) هو المبرد، ونقل كلامه النحاس.

وقد أعظَمَ بعضُ النحويّين أن يكون الأعمش يقرأ[١] بهذا، وقال: إنما كان يقف عليه، فغَلِطَ مَن أدَّى عنه[٢]، والدَّليل على هذا أنه تمامُ الكلام، وأن الثاني لما لم يكن تمامَ الكلام أعرَبَه، والحركةُ في الثاني أثقلُ منها في الأوَّل؛ لأنها ضمَّةٌ بين كسرتَيْن.

وقال الزجاج أيضاً[٣]: قراءةُ حمزة: «ومَكْرَ السَّيِّءْ» موقوفاً عند الحُذَّاقِ بالنّحو[٤] لَحْنٌ لا يجوز، وإنما يجوز في الشّعر للاضطرار.

وأكثر أبو علي في «الحُجَّة»[٥] من الاستشهاد والاحتجاج للإسكان من أجل توالي الحركات والاضطرار، والوَصْل بنيَّةِ الوقف، قال: فإذا ساغَ ما ذكرناه في هذه القراءة من التَّأويل لم يَسُغ أن يُقال لَحْن[٦].

وقال ابن القُشيري: ما ثَبت بالاستفاضة أو التواتر أنه قُرئ به فلا بدَّ من جوازه، ولا يجوز أن يُقال: لَحْن[٧].

وقال الزمخشري: لعلَّه اختَلَس فظُنَّ سُكوناً، أو وقف وقفةً خفيفةً ثم ابتدأ: «ولا يَحيقُ»[٨].

ورُوي عن ابن كثير: «ومَكْرَ السَّأْي»[٩] بهمزة ساكنة بعد السّين وياء بعدها مكسورة، وهو مقلوب السَّيْءِ المُخفَّف من السَّيِّئ، كما قال الشاعر:

---

(١) في (ت): قرأ، وهما سواء.
(٢) في المطبوع: إنما كان يقف على من أدى عنه(؟!).
(٣) هذا هو قول الزجاج نفسه، وليس له في ذلك قولان، وإنما نقل المصنف معناه عن النحاس، ونقل هنا لفظه وحروفه عن ابن الجوزي (والله أعلم)، وهو في معاني القرآن له ٤/ ٢٧٥.
(٤) في المطبوع: بياءين (؟!).
(٥) ٦/ ٣١-٣٣.
(٦) الحجة ٦/ ٣٣.
(٧) نقله القرطبي ١٧/ ٣٩٨ عن ابن القشيري.
(٨) الكشاف ٣/ ٣١٢.
(٩) مختصر في الشواذ ١٢٤.

ولا يَجْزُون من حَسَنٍ بسَيْءٍ ولا يَجْزون من غِلَظٍ بلِيْنِ[١]

وقرأ ابن مسعود: «ومَكْراً سَيِّئاً» عطف نكرةٍ على نكرة[٢].

«ولا يَحيق» أي: يُحيط ويَحِلُّ، ولا يستعمل إلا في المكروه.

وقرئ: «يُحيقُ» بضمِّ الياء «المَكْرَ السَّيِّئ» بالنَّصْب[٣] أي: ولا يُحيق الله إلا بأهله، إمّا في الدنيا، وإمّا في الآخرة، فإنْ حاق بغير أهله في الدُّنيا[٤] فعاقِبةُ ذلك على أهله.

وقال أبو عبد الله الرازي: فإن قلت: كثيراً نَرى الماكر يُفيده مَكرُه، ويَغلبُ خَصْمَه بالمَكْر، والآيةُ تدلُّ على عدم ذلك؟! فالجواب من وجوه؛

أحدها: أن المَكْرَ في الآية هو المكرُ بالرسول؛ من العَزْم على القتل والإخراج، ولم يَحِقْ إلا بهم حيث قُتلوا ببَدْر.

وثانيها: أنه عام وهو الأصحّ، فإنه عليه السَّلام نهى عن المَكْر وقال: «لا تَمْكُروا ولا تُعينوا ماكراً فإنه تعالى يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾»[٥]، فعلى هذا يكون ذلك المَمْكورُ به أهلاً، فلا يرد نقضاً.

وثالثها: أن الأمور بعَواقبها، ومَن مَكَر به غيره، ونَفَذ فيه المكرُ عاجلاً في الظَّاهر، ففي الحقيقة هو الفائز، والماكر هو الهالك. انتهى[٦].

وقال كعب لابن عباس: في التوراة: مَن حَفَر حُفرةً لأخيه وَقعَ فيها. فقال له

(١) البيت لأبي الغول الطهوي، وهو في الحماسة ١/ ٤٠ (بشرح المرزوقي)، وأمالي القالي ١/ ٢٦٠، وخزانة الأدب ٨/ ٣١٤.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٧١، وتفسير الطبري ١٩/ ٣٩٣، والمحتسب ٢/ ٢٠٢، والكشاف ٣/ ٣١٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٤٣، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٩٨.

(٣) الكشاف ٣/ ٣١٢.

(٤) من قوله: وإما في الآخرة... إلى هنا، ليس في المطبوع.

(٥) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٧٢٥) ـ ومن طريقه الثعلبي ٥/ ١٨٥ ـ عن يونس بن يزيد، عن الزهري قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال:.... وهذا مرسل. وذكره الزمخشري ٣/ ٣١٢، والقرطبي ١٧/ ٣٩٩.

(٦) التفسير الكبير ٢٦/ ٣٤-٣٥.

ابن عباس: أنا أُوجدك[1] هذا في كتاب الله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾[2]. انتهى.

وفي أمثال العرب: مَن حَفَر لأخيه جُبًّا وَقَع فيه مُنْكَبًّا[3].

و«سُنَّةُ الأوَّلين»: إنزالُ العذاب على الذين كفروا برُسُلهم من الأُمم قبلهم، وجعل استقبالَهم لذلك انتظاراً له منه.

و«سُنَّةُ الأوَّلين» أضاف فيه المَصْدر إلى المفعول، وفي «لسُنَّة الله» إضافة إلى الفاعل، فأُضيفت أوَّلاً إليهم لأنها سُنَّت بهم، وثانياً إليه لأنه هو الذي سَنَّها.

وبَيَّن تعالى أن الانتقامَ من مُكَذِّبي الرُّسُل عادةٌ لا يُبَدِّلُها بغيرها، ولا يُحَوِّلها إلى غير أهلها، وأن ذلك كائنٌ لا مَحالَة، واستشهد عليهم بمَا كانوا يُشاهدونه في مَسايِرِهم ومَتاجرهم في رِحْلتهم إلى الشأم والعراق واليمن من آثار الماضين، وعَلامات هَلاكهم ودَبارهم، كديار ثَمود ونحوها.

وتقدّم الكلامُ على نَظير هذه الجملة في سورة الرُّوم[4]. وهناك: «كانوا أَشَدَّ منهم قُوَّة» استئنافُ إخبارٍ عمَّا كانوا عليه، وهنا: «وكانوا» أي: وقد كانوا، فالجملةُ حال، فهما مَقْصَدان.

«وما كان الله لِيُعْجِزَه» أي: ليَفُوتَه ويَسْبِقَه «من شيء» أي: شيءٌ، و«من» لاستغراق الأشياء.

«إنه كان عليماً قديراً» فبعِلْمه يعلمُ جميعَ الأشياء فلا يغيبُ عن علمه شيء، وبقُدرته لا يتعذَّر عليه شيء.

ثم ذكر حِلْمَه تعالى عن عباده في تعجيل العُقوبة فقال: «ولو يؤاخِذُ الله الناسَ

(١) في (ت) والمطبوع: إنا وجدنا.
(٢) تفسير الثعلبي ٥/ ١٨٥، والكشاف ٣/ ٣١٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٤٣-٤٤٤، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٩٩.
(٣) المستقصى ٢/ ٣٥٤، والكشاف ٣/ ٣١٢، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٩٩.
(٤) في الآية (٩) منها.

بما كَسَبوا» أي: من الشِّرْك وتكذيب الرُّسُل، وهو المعنيُّ في الآية التي في «النحل» وهو قوله: «بظُلْمِهم».

وتقدَّم الكلام على نظير هذه الآية في «النَّحْل»[١]، وهناك: «عليها» وهنا «على ظَهْرِها» والضَّمير عائدٌ على الأرض؛ إلا أنَّ هناك يدلُّ عليه سِياقُ الكلام، وهنا يمكن أن يَعودَ على مَلْفوظٍ به وهو قولُه: «في السماوات ولا في الأرض».

ولمَّا كانت حاملةً لمَن عليها استُعير لها الظَّهْرُ؛ كالدابَّة الحاملةِ للأثقال، ولأنه أيضاً هو الظَّاهر بخلافِ باطِنها.

«فإن الله كان بعباده بَصيراً»[٢] توعُّدٌ للمُكَذِّبين، أي: فيُجازيهم بأعمالهم.

---

(١) انظر تفسير الآية (٦١) من سورة النحل.

(٢) في المطبوع: فإنه كان بعباده بصيراً (؟!).

(٣٥) سُورَةُ فَاطِرٍ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها أي بدأتها، وقال ابن عباس: ﴿فاطر السموات والأرض﴾: أي بديع السماوات والأرض، وقال الضحاك: كل شيء في القرآن فاطر السماوات والأرض: فهو خالق السماوات والأرض، وقوله تعالى: ﴿جاعل الملائكة رسلاً﴾ أي بينه وبين أنبيائه، ﴿أولي أجنحة﴾ أي يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعاً ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ أي منهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام (ليلة الإسراء) وله ستمائة جناح بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب، ولهذا قال جلَّ وعلا: ﴿يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾ قال السدي: يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء، وقال الزهري: ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ يعني حسن الصوت[1]

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)﴾

يخبر تعالى أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، روي أن رسول الله ﷺ، كان يقول إذا انصرف من الصلاة «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»[2]، وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: «سمع الله لمن

---

(١) رواه البخاري في الأدب، وقرىء في الشاذ (يزيد في الحلق) بالحاء المهملة.

(٢) أخرجاه في الصحيحين عن المغيرة بن شعبة.

حمده، اللهم ربنا لك الحمد ملء السماء والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، اللهم أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد». وهذه الآية كقوله تبارك وتعالى: ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله﴾ ولها نظائر كثيرة.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده، في إفراد العبادة له، كما أنه المستقل بالخلق والرزق، فكذلك فليفرد بالعبادة ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان، ولهذا قال تعالى: ﴿لا إله إلا هو فأنّى تؤفكون﴾ أي فكيف تؤفكون بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان؟ والله أعلم.

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾

يقول تبارك وتعالى: وإن يكذبوك يا محمد – هؤلاء المشركون بالله – ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة، فإنهم كذلك جاءوا قومهم بالبينات، وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم، ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي وسنجزيهم على ذلك أوفر الجزاء، ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق﴾ أي المعاد كائن لا محالة، ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ أي العيشة الدنيئة، بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم، فلا تتلهوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية، ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ وهو الشيطان، أي لا يفتننكم الشيطان ويصرفكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته، فإنه غرار كذاب أفاك. وهذه كالآية التي في آخر لقمان: ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾، وقال زيد بن أسلم: هو الشيطان، كما قال المؤمنون للمنافقين يوم القيامة ﴿وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور﴾ ثم بيّن تعالى عداوة إبليس لابن آدم، فقال: ﴿إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدواً﴾ أي هو مبارز لكم بالعداوة. فعادوه أنتم أشد العداوة وخالفوه، وكذبوه فيما يغركم به، ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ أي إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير، فهذا هو العدو المبين، وهذه كقوله تعالى: ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو؟ بئس للظالمين بدلا﴾.

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ

سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى السعير، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن، وأن الذين آمنوا بالله ورسله ﴿وعملوا الصالحات لهم مغفرة﴾ أي لما كان منهم من ذنب ﴿وأجر كبير﴾ على ما عملوه من خير. ثم قال تعالى: ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾ يعني كالكفار والفجار، يعملون أعمالاً سيئة وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، أي فمن كان هكذا قد أضله الله، ألك فيه حيلة؟ ﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ أي بقدره كان ذلك، ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ أي لا تأسف على ذلك، فإن الله حكيم في قدره، ولهذا قال تعالى: ﴿إن الله عليم بما يصنعون﴾[1]، روى ابن أبي حاتم عند هذه الآية عن عبد الله بن الديلمي قال: أتيت عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وهو في حائط بالطائف يقال له الوهط، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى، ومن أخطأه منه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على ما علم الله عزَّ وجلَّ».

وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

كثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها، ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها، ﴿اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾، كذلك الأجساد إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها أنزل من تحت العرش مطراً يعم الأرض جميعاً، ونبتت الأجساد في قبورها كما تنبت الحبة في الأرض، ولهذا جاء في الصحيح: «كل ابن آدم يبلى إلا عَجْبَ الذنب، منه خلق ومنه يركب»، ولهذا قال تعالى: ﴿كذلك النشور﴾. وتقدم في الحج حديث أبي رزين، قلت: يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال ﷺ: «يا أبا رزين أما مررت بوادي

---

(١) في اللباب: أخرج جويبر: نزلت ﴿أفمن زين﴾ حين قال النبي ﷺ اللهم أعز دينك بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل فهدى الله عمر وأضل أبا جهل.

قومك ممحلاً ثم مررت به يهتز خضراً » قلت: بلى، قال ﷺ: « فكذلك يحيي الله الموتى »، وقوله تعالى: ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً﴾ أي من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة فليلزم طاعة الله تعالى فإنه يحصل له مقصوده، لأن الله تعالى مالك الدنيا والآخرة، وله العزة جميعاً، كما قال تعالى: ﴿أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً﴾، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ قال مجاهد: ﴿من كان يريد العزة﴾ بعبادة الأوثان ﴿فإن العزة لله جميعاً﴾، وقال قتادة: ﴿من كان يريد العزة فإن العزة لله جميعاً﴾ أي فليتعزز بطاعة الله عزَّ وجلَّ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ يعني الذكر والتلاوة والدعاء؛ روى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله تعالى، إن العبد المسلم إذا قال: سبحان الله وبحمده والحمد لله ولا إلَه إلا الله والله أكبر تبارك الله، أخذهن ملَك فجعلهن تحت جناحه، ثم صعد بهن إلى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن، حتى يجيء بهن وجه الله عزَّ وجلَّ، ثم قرأ عبد الله رضي الله عنه: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾. وقال كعب الأحبار: إن لسبحان الله، والحمد لله، ولا إلَه إلا الله، والله أكبر، لدوياً حول العرش كدوي النحل، يذكرن لصاحبهن، والعمل الصالح في الخزائن .

وقوله تعالى: ﴿والعمل الصالح يرفعه﴾ قال ابن عباس: الكلم الطيب ذكر الله تعالى يصعد به إلى الله عزَّ وجل، والعمل الصالح أداء الفريضة، فمن ذكر الله تعالى في أداء فرائضه حمل عمله ذكر الله تعالى يصعد به إلى الله عزَّ وجلَّ، ومن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله فكان أولى به، وكذا قال مجاهد: العمل الصالح يرفع الكلام الطيب، وقال إياس بن معاوية: لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام، وقال الحسن وقتادة: لا يقبل قول إلا بعمل، وقوله تعالى: ﴿والذين يمكرون السيئات﴾ قال مجاهد: هم المراؤون بأعمالهم، يعني يمكرون بالناس، يوهمون أنهم في طاعة الله تعالى وهم بغضاء إلى الله عزَّ وجلَّ يراؤون بأعمالهم ﴿ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾، وقال ابن أسلم: هم المشركون، والصحيح أنها عامة، والمشركون داخلون بطريق الأولى، ولهذا قال تعالى: ﴿لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور﴾ أي يفسد ويبطل، ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنُّهَى، فإنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى رداءها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فالمرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على غبي، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم بل ينكشف لهم عن قريب، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية، وقوله تبارك وتعالى: ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة﴾ أي ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ﴿ثم جعلكم أزواجاً﴾ أي ذكراً وأنثى لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجاً من جنسكم لتسكنوا إليها، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾ أي هو عالم بذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء بل ﴿ما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾، وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار﴾ وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ أي ما يعطى بعض النطف من العمر

(١) رواه ابن جرير، وإسناده صحيح إلى كعب الأحبار .

الطويل يعلمه وهو عنده في الكتاب الأول ﴿وما ينقص من عمره﴾ الضمير عائد على الجنس، لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله تعالى لا ينقص من عمره، وإنما عاد الضمير على الجنس. قال ابن جرير: وهذا كقولهم عندي ثوب ونصفه، أي ونصف ثوب آخر .

وروي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره﴾ الآية، يقول: ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر، وقد قضيت ذلك له، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزاد عليه، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر، والحياة ببالغ العمر، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له، فذلك قوله تعالى: ﴿ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾ يقول: كل ذلك في كتاب عنده، وقال زيد بن أسلم ﴿ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ قال: ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام. وقال عبد الرحمن في تفسيرها: ألا ترى الناس يعيش الإنسان مائة سنة وآخر يموت حين يولد فهذا هذا. وقال قتادة: والذي ينقص من عمره فالذي يموت قبل ستين سنة. وقال مجاهد ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ أي في بطن أمه يكتب له ذلك لم يخلق الخلق على عمر واحد، بل لهذا عمر، ولهذا عمر، فكل ذلك مكتوب لصاحبه بالغ ما بلغ، وقال بعضهم: بل معناه ﴿وما يعمر من معمر﴾ أي ما يكتب من الأجل ﴿ولا ينقص من عمره﴾ وهو ذهابه قليلاً قليلاً الجميع معلوم عند الله تعالى سنة بعد سنة وشهراً بعد شهر، وجمعة بعد جمعة، وساعة بعد ساعة الجميع مكتوب عند الله تعالى في كتابه، نقله ابن جرير عن أبي مالك، واختار ابن جرير الأول، ويؤيده عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»(١)، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال: «إن الله تعالى لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم في قبره فذلك زيادة العمر»، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ أي سهل عليه يسير لديه، فإن علمه شامل للجميع لا يخفى عليه شيء منها .

۞ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة، خلق البحرين العذب الزلال، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصغار، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك ﴿وهذا ملح أجاج﴾ أي مر وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار، وإنما تكون مالحة زُعاقاً مرة، ولهذا قال: ﴿وهذا ملح أجاج﴾ أي مر، ثم قال تعالى: ﴿ومن كل تأكلون لحماً طرياً﴾ يعني السمك ﴿وتستخرجون حلية تلبسونها﴾، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾، وقوله جلَّ وعلا: ﴿وترى الفلك فيه مواخر﴾ أي تمخره وتشقه بحيزومها وهو مقدمها المسنم الذي يشبه جؤجؤ الطير وهو صدره، وقال

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي واللفظ له .

مجاهد: تمخر الريح السفن ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام، وقوله جلَّ وعلا: ﴿لتبتغوا من فضله﴾ أي بأسفاركم بالتجارة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم، ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم وهو البحر، تتصرفون فيه كيف شئتم وتذهبون أين أردتم، ولا يمتنع عليكم شيء منه، الجميع من فضله ورحمته

يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم، في تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه، ويأخذ من طول هذا فيزيده في قصر هذا فيعتدلان، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفاً وشتاء ﴿وسخر الشمس والقمر﴾ أي والنجوم السيارات، الجميع يسيرون بمقدار مبين، وعلى منهاج مقنن محرر، تقديراً من عزيز عليم، ﴿كل يجري لأجل مسمى﴾ أي إلى يوم القيامة، ﴿ذلكم الله ربكم﴾ أي الذي فعل هذا هو الرب العظيم الذي لا إله غيره، ﴿والذين تدعون من دونه﴾ أي من الأصنام والأنداد التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين، ﴿ما يملكون من قطمير﴾ قال ابن عباس: القطمير هو اللفافة التي تكون على نواة التمرة، أي لا يملكون من السماوات والأرض شيئاً ولا بمقدار هذا القطمير، ثم قال تعالى: ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم﴾ يعني الآلهة التي تدعونها من دون الله لا تسمع دعاءكم لأنها جماد لا أرواح فيها، ﴿ولو سمعوا ما استجابوا لكم﴾ أي لا يقدرون على شيء مما تطلبون منها، ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ أي يتبرأون منكم، كما قال تعالى: ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾، وقال تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾، وقوله تعالى: ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾ أي ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه، مثل خبير بها، قال قتادة: يعني نفسه تبارك وتعالى فإنه أخبر بالواقع لا محالة.

* يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

يخبر تعالى بغنائه عما سواه وبافتقار المخلوقات كلها إليه، وتذللها بين يديه، فقال تعالى: ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله﴾ أي هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو تعالى الغني عنهم بالذات، ولهذا

قال عزَّ وجلَّ: ﴿والله هو الغني الحميد﴾ أي هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشرعه، وقوله تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ أي لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع، ولهذا قال تعالى: ﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾، وقوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أي يوم القيامة، ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها﴾ أي وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ﴿لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ أي وإن كان قريباً إليها حتى ولو كان أباها أو ابنها، كل مشغول بنفسه وحاله، قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها﴾ الآية، قال: هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة، فيقول: يا رب سل هذا لم كان يغلق بابه دوني، وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة فيقول له: يا مؤمن إن لي عندك يداً قد عرفت كيف كنت لك في الدنيا، وقد احتجت إليك اليوم، فلا يزال المؤمن يشفع له عند ربه، حتى يرده إلى منزل دون منزله، وهو في النار، وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة فيقول يا بني أي والد كنت لك فيثني خيراً، فيقول له يا بني إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى، فيقول له ولده: يا أبت ما أيسر ما طلبت، ولكني أتخوف مثل ما تتخوف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً، ثم يتعلق بزوجته فيقول: يا فلانة أو يا هذه، أي زوج كنت لك فتثني خيراً، فيقول لها: إني أطلب إليك حسنة واحدة تهبين لي لعلي أنجو بها مما ترين، قال، فتقول: ما أيسر ما طلبت، ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئاً إني أتخوف مثل الذي تتخوف، يقول الله تعالى: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها﴾ الآية. ويقول تبارك وتعالى: ﴿لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً﴾، ويقول تعالى: ﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة﴾ أي إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهى، الخائفون من ربهم الفاعلون ما أمرهم به، ﴿ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه﴾ أي ومن عمل صالحاً فإنما يعود على نفسه، ﴿وإلى الله المصير﴾ أي وإليه المرجع والمآب وهو سريع الحساب، وسيجزي كل عامل بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى: كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة كالأعمى والبصير، لا يستويان بل بينهما فرق وبون كثير، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات، وهذا

مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين وهم الأحياء، وللكافرين وهم الأموات، كقوله تعالى: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي بة في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً﴾؟ فالمؤمن بصير سميع في نور يمشي على صراط مستقيم، في الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى وأصم في ظلمات يمشي لا خروج له منها، بل هو يتيه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة، حتى يفضي به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم ﴿وظل من يحموم لا بارد ولا كريم﴾، وقوله تعالى: ﴿إن الله يسمع من يشاء﴾ أي يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ﴿وما أنت بمسمع من في القبور﴾ أي كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم وهم كفار بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم، ولا تستطيع هدايتهم ﴿إن أنت إلا نذير﴾، أي إنما عليك البلاغ والإنذار والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً﴾ أي بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ أي وما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر وأزاح عنهم العلل، كما قال تعالى: ﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾، وكما قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ الآية، والآيات في هذا كثيرة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ وهي المعجزات الباهرات والأدلة القاطعات، ﴿وبالزبر﴾ وهي الكتب، ﴿وبالكتاب المنير﴾ أي الواضح البين، ﴿ثم أخذت الذين كفروا﴾، أي ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاءوهم به فأخذتهم أي بالعقاب والنكال، ﴿فكيف كان نكير﴾ أي فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيماً شديداً بليغاً؟ والله أعلم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى منبهاً على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد، وهو الماء الذي ينزله من السماء، يخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض، إلى غير ذلك من ألوان الثمار، كما هو الشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها﴾ أي وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان كما هو المشاهد أيضاً من بيض وحمر، وفي بعضها طرائق وهي الجدد جمع جدة مختلفة الألوان أيضاً، قال ابن عباس: الجدد الطرائق، ومنها غرابيب سود، قال عكرمة: الغرابيب الجبال الطوال السود، وقال ابن جرير: والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد، قالوا: أسود غربيب، ولهذا قال بعض المفسرين في هذه الآية: هذا من المقدم والمؤخر في قوله تعالى: ﴿وغرابيب سود﴾ أي سود غرابيب، وفيما قاله نظر. وقوله تعالى: ﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك﴾ أي كذلك

الحيوانات من الأناسي (والدواب) وهو كل ما دب على القوائم (والأنعام) من باب عطف الخاص على العام كذلك هي مختلفة أيضاً، فالناس منهم بربر وحبوش في غاية السواد، وصقالبة وروم في غاية البياض، والعرب بين ذلك، والهنود دون ذلك، وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان، حتى في الجنس الواحد بل النوع الواحد، بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون، وهذا اللون، فتبارك الله أحسن الخالقين، وقد روى الحافظ البزار في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أيصبغ ربك؟ قال ﷺ: «نعم صبغاً لا ينفض أحمر وأصفر وأبيض»[1]، ولهذا قال تعالى بعد هذا ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر.

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير، وعنه قال: العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك به شيئاً، وأحل حلاله وحرم حرامه، وحفظ وصيته، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله، وقال سعيد بن جبير: الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله عزَّ وجلَّ، وقال الحسن البصري: العالم من خشي الرحمن بالغيب ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه، ثم تلا الحسن: ﴿إنما يخشى من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾ وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ليس العلم عن كثرة الحديث ولكن العلم عن كثرة الخشية، وقال مالك: إن العلم ليس بكثرة الرواية وإنما العلم نور يجعله الله في القلب، وقال سفيان الثوري: كان يقال: العلماء ثلاثة، عالم بالله عالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله، فالعالم بالله وبأمر الله الذي يخشى الله تعالى ويعلم الحدود والفرائض، والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود والفرائض، والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله الذي يعلم الحدود والفرائض ولا يخشى الله عزَّ وجلَّ.

* إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين، الذين يتلون كتابه ويؤمنون به، ويعملون بما فيه من إقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله تعالى سراً وعلانية بأنهم ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾ أي يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله، ولهذا قال تعالى: ﴿ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ أي ليوفيهم ثواب ما عملوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم، ﴿إنه غفور﴾ أي لذنوبهم، ﴿شكور﴾ للقليل من أعمالهم، قال قتادة: كان مطرف رحمه الله إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آية القرآء.

وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾

---

(١) قال ابن كثير: روي مرسلاً وموقوفاً والله أعلم.

يقول تعالى: ﴿ والذي أوحينا إليك﴾ يا محمد من الكتاب وهو القرآن ﴿ هو الحق مصدقاً لما بين يديه﴾ أي من الكتب المتقدمة يصدقها، كما شهدت هي له بالتنويه وأنه منزل من رب العالمين ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير﴾ أي هو خبير بهم بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه، ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر، وفضل النبيين بعضهم على بعض ورفع بعضهم درجات، وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِالْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم، المصدق لما بين يديه من الكتب ﴿ الذين اصطفينا من عبادنا﴾ وهم هذه الأمة ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع فقال تعالى: ﴿ فمنهم ظالم لنفسه﴾ وهو المفرط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات، ﴿ومنهم مقتصد﴾ وهو المؤدي للواجبات التارك للمحرمات وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات، ﴿ ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات، قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ قال: هم أمة محمد ﷺ ورثهم الله تعالى كل كتاب أنزله، فظالمهم يغفر له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب، روى الطبراني عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» قال ابن عباس: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ، وكذا روي عن غير واحد من السلف: أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين على ما فيه من عوج وتقصير. وقال آخرون: بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ولا من المصطفين الوارثين للكتاب. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فمنهم ظالم لنفسه﴾ قال: هو الكافر، وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ فمنهم ظالم لنفسه﴾ قال: هم أصحاب المشأمة، وقال الحسن وقتادة: هو المنافق، ثم قد قال ابن عباس والحسن وقتادة: وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام المذكورة في أول سورة الواقعة وآخرها. والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة، وهذا اختيار ابن جرير، كما هو ظاهر الآية، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طرق يشد بعضها بعضاً، ونحن إن شاء الله تعالى نورد منها ما تيسر

الحديث الأول: قال الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: في هذه الآية ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾ قال: «هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم في الجنة»[1]، ومعنى قوله بمنزلة واحدة: أي في أنهم من هذه الأمة وأنهم من أهل الجنة، وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة. **الحديث الثاني**: قال الإمام أحمد عن أبي

(١) الحديث غريب من هذا الوجه وفي إسناده من لم يسم، ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير من طريق أخرى يتقوى بها هذا الحديث.

الدرداء رضي الله عنه قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « قال الله تعالى: ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حساباً يسيراً، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ ». **الحديث الثالث** : قال الحافظ الطبراني عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما: ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ الآية، قال، قال رسول الله ﷺ: « كلهم من هذه الأمة »، **الحديث الرابع** : قال ابن أبي حاتم عن عوف بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: « أمتي ثلاثة أثلاث، فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة، وثلث يمحصون ويكشفون، ثم تأتي الملائكة فيقولون: وجدناهم يقولون لا إله إلا الله وحده، يقول الله تعالى: صدقوا، لا إله إلا أنا أدخلوهم الجنة، بقولهم لا إله إلا الله وحده واحملوا خطاياهم على أهل النار، وهي التي قال الله تعالى: ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾(١)

(أثر عن ابن مسعود رضي الله عنه)

قال ابن جرير عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة، ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول الله عزّ وجلّ ما هؤلاء؟ وهو أعلم تبارك وتعالى، فتقول الملائكة: هؤلاء جاءوا بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا بك شيئاً، فيقول الرب عزّ وجلّ: أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي، وتلا عبدالله رضي الله عنه هذه الآية: ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ الآية. **أثر آخر** : قال أبو داود الطيالسي، عن عقبة بن صهبان الهنائي قال: سألت عائشة رضي الله عنها عن قول الله تعالى ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ﴾ الآية، فقالت لي: « يا بني، هؤلاء في الجنة، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ، شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق، وأما المقتصد فمن اتبع أثراً من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم »، قال: فجعلت نفسها رضي الله عنها معنا »، وهذا منها رضي الله عنها من باب الهضم والتواضع، وإلا فهي من أكبر السابقين بالخيرات لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. وقال عوف الأعرابي، عن كعب الأحبار رحمه الله قال: إن الظالم لنفسه من هذه الأمة، والمقتصد، والسابق بالخيرات كلهم في الجنة، ألم تر أن الله تعالى قال: ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير * جنات عدن يدخلونها - إلى قوله عزّ وجلّ - والذين كفروا لهم نار جهنم ﴾ قال: فهؤلاء أهل النار(٢)، وعن محمد بن الحنفية رضي الله عنه قال: إنها أمة مرحومة، الظالم مغفور له،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وهو غريب جداً كما قال ابن كثير.

(٢) رواه ابن جرير من طرق عن عوف عن كعب الأحبار.

والمقتصد في الجنان عند الله، والسابق بالخيرات في الدرجات عند الله . فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام، وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة في هذه الأمة، والعلماء أغبط الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه الرحمة، فإنهم كما روى الإمام أحمد رحمه الله عن قيس بن كثير قال: قدم رجل من أهل المدينة إلى أبي الدرداء رضي الله عنه وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك أي أخي؟ قال: حديث بلغني أنك تحدث بـه عن رسول الله ﷺ، قال: أما قدمت لتجارة؟ قال: لا، قال: أما قدمت لحاجة؟ قال: لا. قال: أما قدمت الا في طلب هذا الحديث؟ قال: نعم، قال رضي الله عنه، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من سلك طريقاً يطلب فيها علماً سلك الله تعالى بـه طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإنه ليستغفر للعالم من في السماوات والأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، فمن أخـذ بـه أخذ بحظ وافر »[1]. وقد تقدم في أول (سورة طه) حديث ثعلبة بن الحكم عن رسول الله ﷺ قال: « يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء إني لم أضع علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريـد أن أغفر لكم على ما كـان منكم ولا أبالي » .

جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾

يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة، مأواهم جنات عدن، أي جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على الله عزّ وجلّ ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ﴾ كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » ﴿ ولباسهم فيهـا حرير ﴾ ، ولهـذا كان محظوراً عليهم في الدنيا فأباحه الله تعالى لهم في الآخرة، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » . وقال: « هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة ». وقال ابن أبي حاتم، عن أبي أمامة رضي الله عنه حدّث أن رسول الله ﷺ ذكر حلي أهل الجنة فقال: « مسورون بالذهب والفضة، مكللة بالدر، وعليهم أكاليل من در وياقوت متواصلة، وعليهم تاج كتاج الملوك، شباب جرد مرد مكحولون » . ﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ وهو الخوف من المحذور أزاحه عنا وأراحنا مما كنا نتخوفه ونحذره من هموم الدنيا والآخرة، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا نشورهم، وكأني بأهل (لا إله إلا الله) ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن »[2] . وروى الطبراني، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت ولا في

(١) أخرجه الإمام أحمد ورواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه . (٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عمر مرفوعاً .

القبور ولا في النشور، وكأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور»، قال ابن عباس: غفر لهم الكثير من السيئات، وشكر لهم اليسير من الحسنات ﴿الذي أحلنا دار المقامة من فضله﴾ يقولون: الذي أعطانا هذه المنزلة، وهذا المقام من فضله ومنّه ورحمته، لم تكن أعمالنا تساوي ذلك، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لن يدخل أحداً منكم عملُه الجنةَ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمة منه وفضل» ﴿لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾ أي لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء، والنصَب واللغوب كل منهما يستعمل في التعب، وكأن المراد بنفي هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم والله أعلم، فمن ذلك أنهم كانوا يدئبون أنفسهم في العبادة في الدنيا، فسقط عنهم التكليف بدخولها، وصاروا في راحة دائمة مستمرة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾

لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء شرع في بيان ما للأشقياء، فقال: ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا﴾، كما قال تعالى: ﴿لا يموت فيها ولا يحيى﴾، وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون»، وقال عزّ وجلّ: ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون﴾ فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك، قال الله تعالى: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾، كما قال عزّ وجلّ: ﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون * لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون﴾، وقال جلّ وعلا: ﴿كلما خبت زدناهم سعيراً﴾، ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾، ثم قال تعالى: ﴿كذلك نجزي كل كفور﴾ أي هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب الحق، وقوله جلت عظمته: ﴿وهم يصطرخون فيها﴾ أي ينادون فيها يجأرون إلى الله عزّ وجلّ بأصواتهم: ﴿ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾ أي يسألون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم الأول، وقد علم الرب جل جلاله أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا ﴿لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم، ولذا قال ههنا: ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير﴾؟ أي أو ما عشتم في الدنيا أعماراً، لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم؟ وقد اختلف المفسرون في مقدار العمر المراد ههنا، فروي أنه مقدار سبع عشرة سنة[١]، وقال قتادة: اعلموا أن طول العمر حجة فنعوذ بالله أن نعير بطول العمر، قد نزلت هذه الآية: ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ وإن فيهم لابن ثماني عشرة سنة، وقال وهب بن منبه ﴿أو لم

(١) هذا قول علي بن الحسين زين العابدين رضي الله عنهما.

نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ قال: عشرين سنة، وقال الحسن: أربعين سنة، وقال مسروق: إذا بلغ أحدكم أربعين سنة فليأخذ حذره من الله عزّ وجلّ[1] . وروى ابن جرير عن مجاهد قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: العمر الذي أعذر الله تعالى لابن آدم ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ أربعون سنة، وهذا هو اختيار ابن جرير، ثم روي عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في قوله: ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ ستون سنة، فهذه الرواية أصح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهي الصحيحة في نفس الأمر أيضاً، لما ثبت في ذلك من الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لقد أعذر الله تعالى إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين سنة، لقد أعذر الله تعالى إليه، لقد أعذر الله تعالى إليه»[2] . وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «أعذر الله عزّ وجلّ إلى امرئ أخر عمره حتى بلغ ستين سنة»، وفي رواية: «من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله عزّ وجلّ إليه في العمر»[3] . وذكر بعضهم أن العمر الطبيعي عند الأطباء مائة وعشرون سنة، فالإنسان لا يزال في ازدياد إلى كمال الستين، ثم يشرع بعد هذا في النقص والهرم، كما قال الشاعر:

إذا بلغ الفتى ستين عاماً فقد ذهب المسرة والفتاء

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله تعالى إلى عباده به، ويزيح به عنهم العلل، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة، كما ورد بذلك الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك»[4] . وقوله تعالى: ﴿وجاءكم النذير﴾ روي عن ابن عباس وعكرمة وقتادة أنهم قالوا: يعني الشيب، وقال السدي وعبدالرحمن بن زيد: يعني به رسول الله ﷺ، وقرأ ابن زيد: ﴿هذا نذير من النذر الأولى﴾ وهذا هو الصحيح عن قتادة أنه قال: احتج عليهم بالعمر والرسل، وهذا اختيار ابن جرير وهو الأظهر، لقوله تعالى ﴿لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون﴾ أي لقد بينا لكم الحق على ألسنة الرسل فأبيتم وخالفتم، وقال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير * فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾، وقوله تعالى: ﴿فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ أي فذوقوا عذاب النار، جزاء على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعمالكم، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه، من العذاب والنكال والأغلال».

* إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي

(١) وهذه رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الإمام أحمد وفي لفظ للنسائي «من عمّره الله تعالى ستين سنة فقد أعذر إليه في العمر».

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم والإمام أحمد.

(٤) أخرجه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾

يخبر تعالى بعلمه غيب السماوات والأرض، وأنه يعلم ما تكنه السرائر ، وما تنطوي عليه الضمائر ، وسيجازي كل عامل بعمله ، ثم قال عزّ وجلّ ﴿ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ﴾ أي يخلف قوم لآخرين وجيل لجيل قبلهم، ﴿ فمن كفر فعليه كفره ﴾ أي فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره ﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ﴾ أي كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة بخلاف المؤمنين، فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله، ارتفعت درجته ومنزلته في الجنة وزاد أجره، وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ * إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ﴾ أي من الأصنام والأنداد، ﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ﴾ أي ليس لهم شيء من ذلك، ما يملكون من قطمير ، وقوله: ﴿ أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه ﴾ أي أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولونه من الشرك والكفر ، ليس الأمر كذلك ﴿ بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً ﴾ أي بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وأمانيهم التي تمنوها لأنفسهم، وهي غرور وباطل وزور ، ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة، التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما فقال: ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ أي أن تضطربا عن أماكنهما كما قال عزّ وجلّ ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾، وقال تعالى: ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾، ﴿ ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ﴾ أي لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو ، وهو مع ذلك حليم غفور ، أي يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه، وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يعجل ، ويستر آخرين ويغفر ، ولهذا قال تعالى: ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ

فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله ﴿ جهد أيمانهم ﴾ قبل إرسال الرسول إليهم ﴿ لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ﴾ أي من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل، كقوله تعالى: ﴿ أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ﴾ ، وكقوله تعالى: ﴿ وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين . فكفروا به فسوف يعلمون ﴾، قال الله تعالى: ﴿ فلما جاءهم نذير ﴾ وهو محمد ﷺ بما أنزل معه من الكتاب العظيم وهو القرآن المبين ﴿ ما زادهم إلا نفوراً ﴾ أي ما ازدادوا إلا كفراً إلى كفرهم، ثم بيَّن ذلك بقوله: ﴿ استكباراً في الأرض ﴾ أي استكبروا عن اتباع آيات الله، ﴿ ومكر السيء ﴾ أي ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله، ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ أي وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم، قال محمد بن كعب القرظي: ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزل به، من مكر، أو بغي، أو نكث، وتصديقها في كتاب الله تعالى: ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾، ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾، ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ﴾ يعني عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره، ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ أي لا تغير ولا تبدل بل هي جارية كذلك في كل مكذب ﴿ ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾ أي ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ﴾ ولا يكشف ذلك عنهم ولا يتوهم عنهم أحد، والله أعلم.

۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين، بما جئتهم به من الرسالة، سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل، كيف دمر الله عليهم فخلت منهم منازلهم، وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم، بعد كمال القوة وكثرة العدد والعدد، وكثرة الأموال والأولاد، فما أغنى ذلك شيئاً ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء، لأنه تعالى لا يعجزه شيء في السماوات والأرض، ﴿ إنه كان عليماً قديراً ﴾ أي عليم بجميع الكائنات، قدير على مجموعها، ثم قال تعالى: ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ أي لو آخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك جميع أهل السماوات والأرض، وما يملكونه من دواب وأرزاق، قال سعيد بن جبير والسدي في قوله تعالى: ﴿ ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ أي لما سقاهم المطر فماتت جميع الدواب ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ أي ولكن ينظرهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذ، ويوفي كل عامل بعمله، فيجازي بالثواب أهل الطاعة، وبالعقاب أهل المعصية، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ فإذا جاء أجلهم، فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾ .

[آخر تفسير سورة فاطر ، ولله الحمد والمنة]

تفسير سورة فاطر

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾ .

قال سفيان الثورى ، عن إبراهيم بن مهاجر ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : كنت لا أدرى ما فاطر السموات والأرض ، حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما [لصاحبه] (١): أنا فطرتها ، أنا بدأتها . فقال ابن عباس أيضاً : ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ : بديع السموات والأرض (٢) .

وقال الضحاك : كل شىء فى القرآن فاطر السموات والأرض فهو: خالق السموات والأرض .

وقوله :﴿ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً ﴾ أى : بينه وبين أنبيائه ، ﴿ أُوْلِي أَجْنِحَةٍ ﴾ أى : يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعاً ﴿ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ﴾ أى : منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة (٣)، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك ، كما جاء فى الحديث : أن رسول الله ﷺ رأى جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح ، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ؛ ولهذا قال : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾. قال السدى: يزيد فى الأجنحة وخلقهم ما يشاء .

وقال الزهرى ، وابن جُرَيْج (٤) فى قوله : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ يعنى: حسن الصوت . رواه عن الزهرى البخارى فى الأدب ، وابن أبى حاتم فى تفسيره .

وقرئ فى الشاذ : « يَزِيد فى الحلق » ، بالحاء المهملة ، والله أعلم .

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾ .

يخبر تعالى أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع .

قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا على بن عاصم ، حدثنا مغيرة ، أخبرنا عامر ، عن ورّاد ـ مولى المغيرة بن شعبة ـ قال : كتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة : اكتب إلى بما سمعتَ من رسول الله ﷺ. فدعانى المغيرة فكتبت إليه : إنى سمعت (٦) رسول الله ﷺ إذا انصرف من الصلاة قال : « لا

---

(١) زيادة من ت ، س ، أ .

(٢) رواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (١٦٨٢) من طريق يحيي بن سعيد عن سفيان به .

(٣) فى ت : « ثلاثة أجنحة » . (٤) فى ت : « جرير » . (٥) فى ت : « وروى » .

(٦) فى أ : « سمعت من » .

إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ » ، وسمعته ينهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال ، وعن وأد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومَنْع وهَات .

وأخرجاه من طرق عن ورّاد ، به [(١)] .

وثبت فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : « سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ، ملْء السماء [(٢)] والأرض[(٣)] ، وملء ما شئت من شيء بعد . اللهم ، أهلَ الثناء والمجد . أحقّ ما قال العبد ، وكلنا لك عبد . اللهمّ لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ » [(٤)] .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس : ١٠٧] . ولهذا [(٥)] نظائر كثيرة .

وقال الإمام مالك : كان أبو هريرة إذا مُطِروا يقول : مُطرنا بنَوْء الفتح ، ثم يقرأ هذه الآية :﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. ورواه ابن أبى حاتم ، عن يونس ، عن ابن وهب ، عنه [(٦)] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) ﴾ .

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده فى إفراد العبادة له ، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فَليفرد بالعبادة [(٧)] ، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ؛ ولهذا قال :﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُون [(٨)] ﴾ ، أي : فكيف تؤفكون [(٩)] بعد هذا البيان ، ووضوح هذا البرهان ، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان ؟

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) ﴾ .

يقول : وإن يكذبوك ـ يامحمد ـ هؤلاء المشركون بالله ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد ، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة ؛ فإنهم كذلك جاؤوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد

---

(١) المسند (٤/ ٢٥٤) وصحيح البخارى برقم (٨٤٤) وصحيح مسلم برقم (٥٩٣) .
(٢) فى ت ، س ، أ : « السموات » .
(٣) فى ت ، س ، أ : « وملء الأرض » .
(٤) صحيح مسلم برقم (٤٧٧) .
(٥) فى ت : « ولهما » ، وفى س : « ولها » .
(٦) الموطأ (١/ ١٩٢) .
(٧) فى أ : « بالعبادة وحده » .
(٨، ٩) فى س ، أ : « يؤفكون » .

فكذبوهم وخالفوهم ، ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ أى : وسنجزيهم على ذلك أوفر الجزاء .

ثم قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌ ﴾ أى : المعاد كائن لا محالة ، ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى : العيشة الدنيئة (١) بالنسبة إلى ما أعد (٢) اللّه لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم فلا تَتَلَهّوا (٣) عن ذلك (٤) الباقى بهذه الزهرة الفانية ، ﴿ وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ وهو الشيطان . قاله ابن عباس . أى : لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل اللّه وتصديق كلماته فإنه غرَّار كذاب أفاك . وهذه الآية كالآية التى فى آخر لقمان: ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [لقمان:٣٣] .

قال مالك ، عن زيد بن أسلم : هو الشيطان . كما قال : يقول المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حين يضرب ﴿ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٣، ١٤] .

ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا (٥) ﴾ أى : هو مبارز لكم بالعداوة ، فعادوه أنتم أشد العداوة ، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به ، ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أى : إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير ، فهذا هو العدو المبين . فنسأل اللّه القوى العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان (٦) ، وأن يرزقنا اتباع كتابه ، والاقتفاء بطريق رسوله ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير . وهذه كقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [الكهف : ٥٠] .

[وقال بعض العلماء : وتحت هذا الخطاب نوع لطيف من العتاب كأنه يقول : إنما عاديت إبليس من أجل أبيكم ومن أجلكم ، فكيف يحسن بكم أن توالوه ؟ بل اللائق بكم أن تعادوه وتخالفوه ولا تطاوعوه] (٧) .

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) ﴾ .

لما ذكر [اللّه] (٨) تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى [عذاب] (٩) السعير ، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد (١٠) ؛ لأنهم أطاعوا الشيطان وعصَوا الرحمن ، وأن الذين آمنوا باللّه

---

(١) فى أ : « المعيشة الدنية » . (٢) فى ت : « ما وعد » . (٣) فى أ : « فلا يلتهوا » .
(٤) فى س : « ذاك » . (٥) فى س بعدها : « إنما يدعو حزبه » .
(٦) فى ت : « للشياطين » (٧) زيادة من ت ، أ . (٨) زيادة من ت .
(٩) زيادة من ت ، أ . (١٠) فى ت : « للذين كفروا عذابا شديدا » .

ورسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: لما كان منهم من ذنب، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على ما عملوه من خير .

ثم قال : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ يعني : كالكفار والفجار ، يعملون أعمالا سيئة ، وهم في ذلك يعتقدون ويحسون (١) أنهم يحسنون صنعاً ، أي : أفمن كان هكذا قد أضله الله ، ألك فيه حيلة ؟ لا حيلة لك فيه ، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أي : بقدره كان ذلك، ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ أي : لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم في قدره ، إنما يضل من يضل(٢) ويهدي من يهدي (٣) ، لما له في ذلك من الحجة البالغة ، والعلم التام ؛ ولهذا قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ .

وقال (٤) ابن أبي حاتم عند هذه الآية : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن عوف الحِمْصي ، حدثنا محمد بن كثير ، عن الأوزاعي ، عن يحيى بن أبي عمرو السَّيباني ـ أو : ربيعة ـ عن عبد الله بن الديلمي قال : أتيت عبد الله بن عمرو ، وهو في حائط بالطائف يقال له: الوهط ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله خلق خلقه في ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى ، ومن أخطأه منه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على ما علم الله عز وجل» (٥) .

ثم قال : حدثنا يحيى بن عبدك القزويني ، حدثنا حسان بن حسان البصري ، حدثنا إبراهيم بن بشر (٦) ، حدثنا يحيى بن معين (٧) ، حدثنا إبراهيم القرشي ، عن سعد بن شرحبيل (٨) ، عن زيد ابن أبي أوفى قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « الحمد لله الذي يهدي من (٩) الضلالة، ويلبس الضلالة على من أحب » (١٠) .

وهذا أيضا حديث غريب جداً .

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

(١) في ت ، س ، أ : « يحسبون » . (٢، ٣) في أ : « يشاء » .
(٤) في ت : « وروى » .
(٥) ورواه ابن حبان في صحيحه برقم (١٨١٢) « موارد » والحاكم في المستدرك (١/ ٣٠) من طريق الأوزاعي عن ربيعة بن يزيد، عن عبد الله الديلمي بنحوه ، ورواه الترمذي في السنن برقم (٢٦٤٢) من طريق إسماعيل بن عياش عن يحيى بن أبي عمرو السيباني عن عبد الله الديلمي بنحوه ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن » .
(٦) في هـ ، ت ، س ، أ : « بشير » ، والصواب ما أثبتناه . (٧) في هـ ، ت ، س ، أ : « معن » ،والصواب ما أثبتناه .
(٨) في ت : « ثم روى بسنده » . (٩) في ت ، أ : « يهدي من يشاء من » .
(١٠) ورواه البخاري في التاريخ الأوسط (١/ ٢٥٠) : حدثنا حسان بن حسان عن إبراهيم بن بشر عن يحيى بن معين المدني عن إبراهيم القرشي عن سعيد بن شرحبيل عن زيد بن أبي أوفى ، ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٥/ ٢٢٠) من طريق عبد المؤمن بن عباد عن يزيد بن معن عن عبد الله بن شرحبيل عن رجل من قريش عن زيد بن أبي أوفى بأطول منه ، ورواه ابن الأثير في أسد الغابة (٢/ ١٢٦) من طريق شعيب بن يونس عن موسى بن صهيب عن يحيى بن زكريا عن عبد الله بن شرحبيل عن رجل من قريش عن زيد بن أبي أوفى ، وقال البخاري بعدما أورده : « وهذا إسناد مجهول لا يتابع عليه ، ولا يعرف سماع بعضهم من بعض ، رواه بعضهم عن إسماعيل بن خالد عن عبد الله بن أبي أوفى ، عن النبي ﷺ ولا أصل له » .

كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ .

كثيرا ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ـ كما فى [أول] (١) سورة الحج ـ ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك ، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها ، فإذا أرسل إليها(٢) السحاب تحمل الماء وأنزله عليها ، ﴿ **اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾ [الحج : ٥] ، كذلك الأجساد (٣) ، إذا أراد الله سبحانه بعثها ونشورها ، أنزل من تحت العرش مطرا يعم (٤) الأرض جميعاً فتنبت الأجساد فى قبورها كما ينبت (٥) الحب فى الأرض ؛ ولهذا جاء فى الصحيح : « كل ابن آدم يبلى إلا عَجْبُ الذنب ، منه خلق ومنه يركب » ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **كَذَلِكَ النُّشُورُ** ﴾.

وتقدم فى « الحج » (٦) حديث أبى رَزين : قلت : يا رسول الله ، كيف يحيى الله الموتى ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال : « يا أبا رزين ، أما مررت بوادى قومك محْلا (٧) ثم مررت به يهتز خَضرا ؟ » قلت : بلى . قال : « فكذلك يحيى الله الموتى » .

وقوله : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا** ﴾ أى : من كان يحب أن يكون عزيزاً فى الدنيا والآخرة ، فليلزم طاعة الله ، فإنه يحصل له مقصوده ؛ لأن الله مالك الدنيا والآخرة ، وله العزة جميعها ، كما قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾ [النساء : ١٣٩] .

وقال تعالى ﴿ **وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾ [يونس : ٦٥] ، وقال : ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [المنافقون : ٨] .

قال مجاهد : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ** ﴾ بعبادة الأوثان ، ﴿ **فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾.

وقال قتادة : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا** ﴾ أى : فليتعزز بطاعة الله عز وجل .

وقيل : من كان يريد علْم العزة ، لمن هى، ﴿ **فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾ ، حكاه ابن جرير .

وقوله : ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ** ﴾ يعنى: الذكر والتلاوة والدعاء . قاله غير واحد من السلف.

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن إسماعيل الأحْمَسىّ ، أخبرنى جعفر بن عَوْن ، عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودى ، عن عبد الله بن المخارق ، عن أبيه المخارق بن سليم (٨) قال :

---

(١) زيادة من ت ، س ، أ . (٢) فى ت : « عليها » . (٣) فى ت ، س : « الأجسام » .
(٤) فى أ : « فعم » . (٥) فى ت : « كما تنبت » .
(٦) عند الآيات : ١٢ ـ ١٦ .
(٧) فى ت ، س ، أ : « ممحلاً » . (٨) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده عن عبد الله بن أبى المخارق بن سليم » .

قال لنا عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ إذا حدثناكم حديثا أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله : إن العبد المسلم إذا قال : « سبحان الله وبحمده ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، تبارك الله » ، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ، ثم صَعد بهن إلى السماء فلا يمُرّ بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن ، حتى يجيء بهن وجه الرحمن عز وجل ، ثم قرأ عبد الله : ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ .

وحدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَيَّةَ ، أخبرنا سعيد الجُرَيْرى [(١)] ، عن عبد الله بن شقيق قال[(٢)] : قال كعب الأحبار : إن لـ « سبحان الله، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » لدويا حول العرش كدويّ النحل ، يُذَكِّرْن بصاحبهن ، والعمل الصالح فى الخزائن [(٣)] .

وهذا إسناد صحيح إلى كعب الأحبار ، رحمه الله ، وقد روى مرفوعاً .

قال الإمام أحمد : حدثنا ابن نُمَيْر ، حدثنا موسى ـ يعنى : ابن مسلم الطحان ـ عن عون بن عبد الله ، عن أبيه ـ أو : عن أخيه [(٤)] ـ عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : « الذين يذكرون من جلال الله ، من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله ، يتعاطفن حول العرش ، لهن دوى كدوى النحل ، يذكرون بصحابهن ألا يحب أحدكم ألا يزال له عند الله شيء يذكر به؟ » [(٥)] .

وهكذا رواه ابن ماجه عن أبى بشر بكر بن خلف ، عن يحيى بن سعيد [(٦)] القطان ، عن موسى ابن أبى [عيسى] [(٧)] الطحان ، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ،عن أبيه ـ أو : عن أخيه ـ عن النعمان بن بشير ، به [(٨)] .

وقوله :﴿ **وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : الكلم الطيب : ذكر الله ، يصعد به إلى الله، عز وجل ، والعمل الصالح : أداء فرائضه . ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه ، رد كلامه على عمله ، فكان أولى به .

وكذا قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب . وكذا قال أبو العالية ، وعكرمة ، وإبراهيم النَّخَعى ، والضحاك ، والسُّدِّىَ ، والربيع بن أنس ، وشَهْر بن حَوْشَب ، وغير واحد [من السلف] [(٩)] .

وقال إياس بن معاوية القاضى : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام .

وقال الحسن ، وقتادة : لا يقبل قولٌ إلا بعمل .

وقوله : ﴿ **وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ : قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وشهر بن حوشب : هم المراؤون بأعمالهم ، يعنى : يمكرون بالناس ، يوهمون أنهم فى طاعة الله ، وهم بُغَضاء إلى الله

(١) فى أ : « سعيد بن الجريرى » . (٢) فى ت : « وروى بإسناده » .
(٣) تفسير الطبرى (٢٢/ ٨٠) .
(٤) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .
(٥) المسند (٤/٢٦٨) .
(٦) فى أ : « عيسى » .
(٧) زيادة من ت ، س ، وابن ماجه .
(٨) سنن ابن ماجة برقم (٣٨٠٩) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ١٩٣) : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » .
(٩) زيادة من ت .

عز وجل ، يراؤون بأعمالهم ، ﴿ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلا ﴾ [النساء : ١٤٢] .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المشركون .

والصحيح أنها عامة ، والمشركون داخلون بطريق الأولى ؛ ولهذا قال : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ ، أى : يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولى البصائر والنهى ، فإنه ما أسر عبد (١) سريرة إلا أبداها اللّه على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وما أسر أحد سريرة إلا كساه اللّه رداءها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . فالمرائى لا يروج أمره ويستمر إلا على غبى ، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم، بل يُكشَف (٢) لهم عن قريب ، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية.

وقوله :﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أى : ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أى : ذكرا وأنثى ، لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجا من جنسكم ، لتسكنوا إليها .

وقوله · ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ أى : هو عالم بذلك ، لا يخفى عليه من ذلك شىء ، بل﴿مَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام : ٥٩] . وقد تقدم الكلام على قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ [وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ. عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ] (٣) الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد:٨، ٩].

وقوله :﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ أى : ما يعطى بعض النطف من العمر الطويل يعلمه ، وهو عنده فى الكتاب الأول ، ﴿ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ الضمير عائد على الجنس ، لا على العين؛ لأن العين الطويل للعمر فى الكتاب وفى علم اللّه لا ينقص من عمره ، وإنما عاد الضمير على الجنس .

قال ابن جرير : وهذا كقولهم : « عندى ثوب ونصفه » أى : ونصف آخر .

ورُوى من طريق العَوْفَى ، عن ابن عباس فى قوله :﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ، يقول : ليس أحد قضيت له طول عُمُر(٤) وحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له ، فإنما ينتهى إلى الكتاب الذى قدرت لا يزاد عليه ، وليس أحد قَضَيتُ له أنه قصير العمر والحياة ببالغ للعمر ، ولكن ينتهى إلى الكتاب الذى كتبت له ، فذلك قوله : ﴿و لا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ، يقول : كل ذلك فى كتاب عنده.

وهكذا قال الضحاك بن مزاحم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه:﴿وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ قال: ما لَفَظت الأرحام من الأولاد من غير تمام .

---

(١) فى أ : « أحد » .

(٢) فى ت ، س ، أ : « ينكشف » .

(٣) زيادة من ت ، س ، أ ، وفى هـ : « إلى قوله ».

(٤) فى ت ، س : « العمر » .

وقال عبد الرحمن فى تفسيرها : ألا ترى الناس ، يعيش الإنسان مائة سنة ، وآخر يموت حين يولد فهذا هذا .

وقال قتادة : والذى ينقص من عمره : فالذى يموت قبل ستين سنة .

وقال مجاهد : ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ أى : فى بطن أمه يكتب له ذلك ، لم يخلق الخلق على عمر واحد ، بل لهذا عمر ، ولهذا عمر هو أنقص من عمره ، وكل ذلك مكتوب لصاحبه ، بالغ ما بلغ .

وقال بعضهم : بل معناه : ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أى : ما يكتب من الأجل ﴿وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾، وهو ذهابه قليلا قليلا ، الجميع معلوم عند الله سنة بعد سنة ، وشهراً بعد شهر ، وجمعة بعد جمعة ، ويوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، الجميع مكتوب عند الله فى كتاب .

نقله [١] ابن جرير عن أبى مالك . وإليه ذهب السدى ، وعطاء الخراسانى . واختار ابن جرير [القول] [٢] الأول ، وهو كما قال .

وقال النسائى عند تفسير هذه الآية الكريمة : حدثنا أحمد بن يحيى بن أبى زيد بن سليمان ، سمعت ابن وهب يقول : حدثنى يونس ، عن ابن شهاب ، عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سره أن يُبْسَط له فى رزقه، ويُنْسَأ له فى أجله [٣] فلْيَصِلْ رَحِمه » .

وقد رواه البخارى ومسلم وأبو داود ، من حديث يونس بن يزيد الأَيْلى ، به [٤] .

وقال [٥] ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا الوليد بن عبد الملك بن عبيد الله أبو مسرح ، حدثنا عثمان بن عطاء ، عن مسلمة [٦] بن عبد الله ، عن عمه أبى مَشْجَعَة بن ربعى ، عن أبى الدرداء ، رضى الله عنه ، قال : ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال : « إن الله لا يأخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد ، فيدعون له من بعده ، فيلحقه دعاؤهم فى قبره ، فذلك زيادة العمر » .

وقوله : ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أى : سهل عليه ، يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله فى جميع مخلوقاته ، فإن علمه شامل لجميع ذلك لا يخفى منه عليه شىء .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ﴾ .

يقول تعالى منبها على قدرته العظيمة فى خلقه الأشياء المختلفة : وخلق البحرين العذب الزلال،

---

(١) فى أ : « رواه » . (٢) زيادة من ت ، أ . (٣) فى ت ، س ، أ : « أثره » .

(٤) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٢٩) وصحيح البخارى برقم (٢٠٦٧) وصحيح مسلم برقم (٢٥٥٧) وسنن أبى داود برقم(١٦٩٣) .

(٥) فى ت « وروى » . (٦) فى أ : « سلمة » .

وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس ، من كبار وصغار ، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، والعمران والبرارى والقفار ، وهى عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك ، ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ ، وهو البحر الساكن الذى تسير فيه السفن الكبار ، وإنما تكون مالحة زُعَاقاً مُرَّة ، ولهذا قال : ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، أى : مر .

ثم قال :﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعنى : السمك ، ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ ، كما قال تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[الرحمن : ٢٢، ٢٣] .

وقوله :﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ (١)﴾ أى : تمخره وتشقه بحيزومها ، وهو مقدمها المُسَنَّم الذى يشبه جؤجؤ الطير ـ وهو : صدره .

وقال مجاهد : تمخر الريح السفن ، ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام .

وقوله ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أى : بأسفاركم بالتجارة ، من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم ، وهو البحر ، تتصرفون فيه كيف شئتم ، وتذهبون أين أردتم ، ولا يمتنع عليكم شيء منه ، بل بقدرته قد سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ، الجميع من فضله ومن رحمته .

﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ﴾ .

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم ، فى تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه ، ويأخذ من طول هذا فيزيده على قصر هذا (٢) فيعتدلان . ثم يأخذ من هذا فى هذا ، فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفاً وشتاء ،﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أى : والنجوم السيارات ، والثوابت الثاقبات بأضوائهن أجرام السموات ، الجميع يسيرون بمقدار معين ، وعلى منهاج مقنن محرر ، تقديراً من عزيز عليم .

﴿ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى (٣)﴾ أى : إلى يوم القيامة .

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أى : الذى فعل هذا هو الرب العظيم ، الذى لا إله غيره ،﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أى : من الأنداد والأصنام التى هى على صورة من تزعمون (٤) من الملائكة المقربين ، ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

(١) فى ت ، س : « وترى الفلك مواخر فيه » ولعلهما أرادا الآية : ١٤ من سورة النحل .
(٢) فى ت ، أ : « فيزيد فى قصر هذا » .
(٣) فى ت ، س : « إلى أجل مسمى » .
(٤) فى س : « يزعمون » .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعطاء وعطية العوفى ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم: القطمير : هو اللفافة التى تكون على نواة التمرة ، أى : لا يملكون من السموات والأرض شيئاً ، ولا بمقدار هذا القطمير .

ثم قال :﴿ **إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم**﴾ يعني : الآلهة التى تدعونها من دون الله لا يسمعون(١) دعاءكم (٢) ؛ لأنها جماد لا أرواح فيها ﴿**ولو سمعوا ما استجابوا لكم**﴾ أى : لا يقدرون(٣) على ما تطلبون منها ، ﴿**ويوم القيامة يكفرون بشرككم**﴾ ،أى: يتبرؤون منكم ، كما قال تعالى:﴿**ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون. وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾ [الاحقاف : ٥، ٦] ، وقال : ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا**﴾ [مريم :٨١ ، ٨٢] .

وقوله : ﴿**ولا ينبئك مثل خبير**﴾ أى : ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه ، مثلُ خبير بها .

قال قتادة : يعنى نفسه تبارك وتعالى ، فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد (١٥) إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد (١٦) وما ذلك على الله بعزيز (١٧) ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير (١٨)**﴾.

يخبر تعالى بغنائه عما سواه ، وبافتقار المخلوقات كلها إليه ، وتذللها بين يديه ، فقال :﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله**﴾ أى : هم محتاجون إليه فى جميع الحركات والسكنات ، وهو الغنى عنهم بالذات ؛ ولهذا قال :﴿ **والله هو الغني الحميد**﴾ أى : هو المنفرد (٤) بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد فى جميع ما يفعله ويقوله ، ويقدره ويشرعه .

وقوله :﴿**إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد**﴾ أى : لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع ؛ ولهذا قال : ﴿ **وما ذلك على الله بعزيز**﴾.

وقوله : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾ أى : يوم القيامة ،﴿**وإن تدع مثقلة إلى حملها**﴾ ، أى : وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تُساعَد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ، ﴿ **لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى**﴾ ، أى : ولو كان قريبا إليها ، حتى ولو كان أباها أو ابنها ، كل مشغول بنفسه وحاله ، [كما قال تعالى : ﴿ **يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه**﴾] (٥) [عبس : ٣٤ ـ ٣٧] .

قال (٦) عكرمة فى قوله : ﴿**وإن تدع مثقلة إلى حملها**﴾ الآية ، قال : هو الجار يتعلق بجاره يوم

---

(١) فى ت ، أ : « يسمعوا » . (٢) فى أ : «دعاءهم» . (٣) فى ت:« يقيمون » .
(٤) فى ت ، س: «المتفرد » . (٥) زيادة من ت . (٦) فى ت : « كما قال » .

القيامة ، فيقول : يا رب ، سل هذا : لم كان يغلق بابه دونى . وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة، فيقول له : يا مؤمن ، إن لى عندك يداً ، قد عرفت كيف كنت لك فى الدنيا ؟ وقد احتجت إليك اليوم . فلا يزال المؤمن يشفع له إلى ربه حتى يرده إلى [منزل دون] (١) منزله (٢) ، وهو فى النار . وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة ،فيقول: يا بنى ، أىّ والد كنتُ لك ؟ فيثنى خيرا، فيقول له : يا بنى إنى قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى .فيقول له ولده : يا أبت، ما أيسر ما طلبت ، ولكنى أتخوف مثل ما تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئا ، ثم يتعلق بزوجته فيقول : يا فلانة ـ أو : يا هذه ـ أى زوج كنت لك ؟ فتثنى خيرا ، فيقول لها : إنى أطلب إليك حسنة واحدة تَهَبينَها لى ،لعلى أنجو بها مما ترين. قال :فتقول: ما أيسر ما طلبت. ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئا ، إنى أتخوف مثل الذى تتخوف ، يقول اللّه : ﴿**وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ** [**إِلَىٰ حِمْلِهَا**] (٣)﴾ الآية، ويقول اللّه : ﴿**لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا**﴾ [لقمان : ٣٣] ، ويقول تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ**﴾.

رواه ابن أبى حاتم ، رحمه اللّه ، عن أبى عبد اللّه الطهرانى (٤) ، عن حفص بن عمر ، عن الحكم بن أبان ، عن عكْرمة ، به .

ثم قال :﴿ **إِنَّمَا تُنذِرُ** (٥) **الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ**﴾ أى : إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهى ، الخائفون من ربهم ، الفاعلون ما أمرهم به ، ﴿**وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ**﴾ أى : ومن عمل صالحا فإنما يعود نفعه على نفسه ،﴿**وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ**﴾ أى : وإليه المرجع والمآب ، وهو سريع الحساب ، وسيجزى كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦)**﴾ .

يقول تعالى : كما لا تستوى هذه الأشياء المتباينة المختلفة ، كالأعمى والبصير لا يستويان ، بل بينهما فرق وبون كثير ، وكما لا تستوى الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، كذلك لا تستوى الأحياء ولا الأموات. وهذا مثل ضربه اللّه للمؤمنين وهم الأحياء ، وللكافرين وهم الأموات ، كقوله تعالى :﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ**

(١) زيادة من ت ، أ . (٢) فى ت : « فى منزلة دون منزلته » . (٣) زيادة من ت ، س ، أ .
(٤) فى أ : « الطبرانى » . (٥) فى س : « ينذر » .

مِّنْهَا﴾ [الأنعام : ١٢٢] ،وقال تعالى: ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ [هود : ٢٤] فالمؤمن سميع بصير فى نور يمشى ، على صراط مستقيم فى الدنيا والآخرة ، حتى يستقر به الحال فى الجنات ذات الظلال والعيون ، والكافر أعمى أصم ، فى ظلمات يمشى ، لا خروج له منها ، بل هو يتيه فى غيه وضلاله فى الدنيا والآخرة ، حتى يفضى به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم ، ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ. لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة : ٤٣، ٤٤] .

وقوله :﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾ أى : يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أى : كما لا [يسمع و] [١] ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها ، كذلك هؤلاء المشركون الذين كُتب عليهم الشقاوة لا حيلةَ لك فيهم ، ولا تستطيع هدايتهم .

﴿ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾ أى : إنما عليك البلاغ والإنذار ، والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أى : بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين ، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أى : وما من أمة خلت من بنى آدم إلا وقد بعث الله إليهم النّذر ، وأزاح عنهم العلل ، كما قال تعالى :﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد : ٧] ، وكما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ﴾ الآية [النحل : ١٣٦]، والآيات فى هذا كثيرة .

وقوله تبارك وتعالى :﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وهى : المعجزات الباهرات ، والأدلة القاطعات ، ﴿ وَبِالزُّبُرِ﴾ وهى الكتب ، ﴿ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أى : الواضح البين . ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى : ومع هذا كله كَذّب أولئك رسلَهم فيما جاؤوهم به، فأخذتهم ، أى : بالعقاب والنكال ،﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أى : فكيف رأيت[٢] إنكارى عليهم عظيما شديدا بليغا ؟

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) ﴾ .

يقول تعالى منبها على كمال قدرته فى خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشىء الواحد ، وهو الماء الذى ينزله من السماء ، يخرج به ثمرات مختلفا ألوانها ، من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض ، إلى غير ذلك من ألوان الثمار ، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها ، كما قال تعالى فى الآية الآخرى : ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ [٣] بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد : ٤] .

---

(١) زيادة من ت ، أ . (٢) فى ت : « رأيت كان » . (٣) فى ت ، س : « تسقى » .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا** ﴾ أى : وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان ، كما هو المشاهد أيضا من بيض وحمر ، وفى بعضها طرائق ـ وهى : الجُدَد ، جمع جُدّة ـ مختلفة الألوان أيضا .

قال ابن عباس ، رضى الله عنهما : الجُدَد : الطرائق . وكذا قال أبو مالك ، والحسن ، وقتادة، والسدى (١) .

ومنها ﴿ **غَرَابِيبُ سُودٌ** ﴾ ، قال عكرمة : الغرابيب : الجبال الطوال السود . وكذا قال أبو مالك، وعطاء الخراسانى وقتادة .

وقال ابن جرير : والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد ، قالوا : أسود غربيب .

ولهذا قال بعض المفسرين فى هذه الآية : هذا من المقدم والمؤخر فى قوله تعالى : ﴿ **وَغَرَابِيبُ سُودٌ** ﴾ أى : سود غرابيب .

وفيما قاله نظر .

وقوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ** ﴾ أى : [و] (٢) كذلك الحيوانات من الأناسى والدواب ـ وهو : كل ما دب على قوائم ـ والأنعام ، من باب عطف الخاص على العام . كذلك هى مختلفة أيضا ، فالناس منهم بربر وحُبُوش وطُمَاطم فى غاية السواد ، وصقالبة وروم فى غاية البياض ، والعرب بين ذلك ، والهنود دون ذلك ؛ولهذا قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ **وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ** ﴾ [الروم : ٢٢] . وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان ، حتى فى الجنس الواحد ، بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان ، بل الحيوان الواحد يكون أبلق ، فيه من هذا اللون وهذا اللون ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وقد قال (٣) الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا الفضل بن سهل ، حدثنا عبد الله بن عمر ابن أبان بن صالح ، حدثنا زياد بن عبد الله ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال :جاء رجل إلي النبى ﷺ فقال : أيصبغ ربك ؟ فقال : « نعم صبغا لا يُنفَض ، أحمر وأصفر وأبيض » (٤) . ورُوى مرسلا وموقوفا ، والله أعلم .

ولهذا قال تعالى بعد هذا : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ أى : إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العَلِيم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى ـ كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم وأكثر .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ قال: الذين يعلمون أن الله على كل شىء قدير .

وقال ابن لَهِيعَة ،عن ابن أبى عمرة ، عن عِكْرِمة ،عن ابن عباس (٥) قال : العالم بالرحمن(٦) من لم يشرك به شيئا ،وأحل حلاله،وحرم حرامه،وحفظ وصيته،وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله .

---

(١) فى ت : « وكذلك قال غيره » . (٢) زيادة من ت ، س ، أ . (٣) فى ت : « وقد روى » .
(٤) مسند البزار برقم (٢٩٤٤) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (١٢٨/٥) : « وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط » .
(٥) فى ت : « وعنه » . (٦) فى أ : « بالرحمن من عباده » .

وقال سعيد بن جبير : الخشية هى التى تحول بينك وبين معصية الله عز وجل .

وقال الحسن البصرى : الإيمان مَنْ خشى الرحمن بالغيب ، ورغب فيما رغب الله فيه ، وزهد فيما سَخط الله فيه ، ثم تلا الحسن : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ .

وعن ابن مسعود ، رضى الله عنه ، أنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن (١) كثرة الخشية .

وقال أحمد بن صالح المصرى ، عن ابن وهب ، عن مالك قال : إن العلم ليس بكثرة الرواية ، وإنما العلم نور يجعله الله فى القلب .

قال أحمد بن صالح المصرى (٢) : معناه : أن الخشية لا تدرك بكثرة الرواية ، وأما العلم الذى فرض (٣) الله ، عز وجل ، أن يتبع فإنما هو الكتاب والسنة ، وما جاء عن الصحابة ، رضى الله عنهم ، ومن بعدهم من أئمة المسلمين ، فهذا لا يدرك إلا بالرواية ويكون تأويل قوله : « نور » يريد به فهم العلم، ومعرفة معانيه .

وقال سفيان الثورى ، عن أبى حيان [التميمى] (٤) ، عن رجل قال : كان يقال : العلماء ثلاثة: عالم بالله عالم بأمر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله. فالعالم بالله وبأمر الله : الذى يخشى الله ويعلم الحدود والفرائض . والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله : الذى يخشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض . والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله : الذى يعلم الحدود والفرائض ، ولا يخشى الله عز وجل .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) ﴾ .

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه ، من إقام الصلاة ، والإنفاق مما رزقهم الله فى الأوقات المشروعة ليلا ونهارا ، سرا وعلانية ، ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾، أى : يرجون ثوابا عند الله لا بد من حصوله . كما قدمنا فى أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه : « إن كل تاجر من وراء تجارته ، وإنك اليوم من وراء كل تجارة » ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أى : ليوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ، ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ أى : لذنوبهم ، ﴿شَكُورٌ﴾ للقليل من أعمالهم.

قال قتادة : كان مُطَرِّف ، رحمه الله ، إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه آية القراء .

---

(١) فى ت ، س : « من » .

(٢) فى ت : « المرى » .

(٣) فى ت ، س : « فرضه » .

(٤) زيادة من ت ، س ، أ .

قال (١) الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيوة ، حدثنا سالم بن غيلان أنه سمع درّاجا أبا السمح يحدث عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخُدْرىّ ، رضى الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى (٢) إذا رضى عن العبد أثنى عليه سَبْعةَ (٣) أصناف من الخير لم يعمله، وإذا سخط على العبد أثنى عليه سَبْعةَ (٤) أصناف من الشر لم يعمله (٥) ». غريب جدا .

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يا محمد من الكتاب ، وهو القرآن﴿ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى : من الكتب المتقدمة يصدقها، كما شهدت (٦) له بالتنويه(٧)، وأنه منزل من رب العالمين .

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ أى : هو خبير بهم ، بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه. ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر ، وفضل النبيين بعضهم على بعض ، ورفع بعضهم درجات ، وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم ، صلوات الله عليهم أجمعين .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) ﴾ .

يقول تعالى : ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم ، المصدق لما بين يديه من الكتب ، الذين اصطفينا من عبادنا ، وهم هذه الأمة ، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع (٨) ، فقال : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾، وهو : المفرط فى فعل بعض الواجبات ، المرتكب لبعض المحرمات. ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ وهو: المؤدى للواجبات ، التارك للمحرمات ، وقد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات. ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وهو : الفاعل للواجبات والمستحبات ، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا [مِنْ عِبَادِنَا](٩) ﴾ ، قال : هم أمة محمد ﷺ ، ورثّهم الله كل كتاب (١٠) أنزله ، فظالمهم يُغفَر له ، ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح ، وعبد الرحمن بن معاوية العُتْبىّ قالا : حدثنا أبو الطاهر بن السرح ، حدثنا موسى بن عبد الرحمن الصنعانى ، حدثنى ابن جُرَيْج ، عن عطاء ، عن (١١) ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم : « شفاعتى لأهل الكبائر من

---

(١) فى ت : « وروى » . (٢) فى أ : « عز وجل » . (٣، ٤) فى ت ، س ، أ : « بسبعة » .
(٥) المسند (٣/٣٨) ودراج له مناكير وروايته عن أبى الهيثم ضعيفة .
(٦) فى ت ، س ، أ : « شهدت هى » .
(٧) فى ت ، أ : « بالنبوة » . (٨) فى ت : « أقسام » . (٩) زيادة من ت ، س .
(١٠) فى ت : « ورثهم الله كتابا » . (١١) فى ت : « وروى القاسم الطبرانى بسنده إلى » .

أمتى » . قال ابن عباس : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ (١) .

وهكذا (٢) رُوى عن غير واحد من السلف : أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين ، على ما فيه من عوج وتقصير .

وقال آخرون : بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ، ولا من المصطفين الوارثين الكتاب .

قال ابن أبى حاتم ، حدثنا أبى ، حدثنا على بن هاشم بن مرزوق ، حدثنا ابن عيينة ، عن عمرو(٣) ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما (٤) : ﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ** ﴾ قال : هو الكافر . وكذا رَوَى عنه عكرمة ، وبه قال عكرمة أيضا فيما رواه ابن جرير .

وقال ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ** ﴾ قال : هم أصحاب المشأمة.

وقال مالك عن زيد بن أسلم ، والحسن ، وقتادة : هو المنافق .

ثم قد قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة : وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة فى أول سورة « الواقعة » وآخرها .

والصحيح : أن الظالم لنفسه من هذه الأمة . وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية ، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ ، من طرق يشد بعضها بعضا ، ونحن نورد منها ما تيسر :

الحديث الأول : قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن الوليد بن العيزار ؛ أنه سمع رجلا من ثقيف يُحَدِّث عن رجل من كنانة ، عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال فى هذه الآية: ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾، قال: «هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة، وكلهم فى الجنة » .

هذا (٦) حديث غريب من هذا الوجه ، وفى إسناده من لم يسمّ . وقد رواه ابن جرير وابن أبى حاتم ، من حديث شعبة ، به نحوه (٧) .

ومعنى قوله : « بمنزلة واحدة » أى : فى أنهم من هذه الأمة ، وأنهم من أهل الجنة ، وإن كان بينهم فرق فى المنازل فى الجنة .

الحديث الثانى : قال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا أنس بن عياض الليثى أبو ضَمْرة ، عن موسى بن عقبة ، عن [على] (٨) بن عبد الله الأزدى ، عن أبى الدرداء (٩) ، رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ ، فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك (١٠) يحاسبون حسابا يسيرا ، وأما

---

(١) المعجم الكبير (١١/ ١٨٩) وابن جرير مدلس وقد عنعن .

(٢) فى ت ، س : « وكذا » . (٣) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بسنده » . (٤) فى ت ، س : « عنه » .

(٥) فى ت : « رواه » . (٦) فى ت : « وهذا » .

(٧) المسند (٣/ ٧٨) وتفسير الطبرى (٢٢/ ٩٠) .

(٨) زيادة من س ، أ .

(٩) فى ت : « رواه الإمام أحمد بسنده عن أبى الدرداء » . (١٠) فى أ : « فأولئك الذين» .

الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون فى طول المحشر ، ثم هم الذين تلافاهم (١) برحمته ، فهم الذين يقولون : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ » (٢).

طريق أخرى (٣) : قال ابن أبى حاتم : حدثنا أسيد بن عاصم ، حدثنا الحسين بن حفص ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن رجل ، عن أبي ثابت ، عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ قال : « فأما الظالم لنفسه فيحبس حتى يصيبه الهم والحزن ، ثم يدخل الجنة » .

ورواه ابن جرير من حديث سفيان الثورى ، عن الأعمش قال : ذكر أبو ثابت أنه دخل المسجد، فجلس إلى جنب أبى الدرداء ، فقال : اللهم ، آنس وحشتى ، وارحم غربتى ، ويسر لى جليسا صالحا . قال أبو الدرداء : لئن كنت صادقا لأنا أسعد بك منك ، سأحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لم أحدث به منذ سمعته منه ، ذكر هذه الآية :﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ ، « فأما السابق بالخيرات فيدخلها بغير حساب وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا ، وأما الظالم لنفسه فيصيبه فى ذلك المكان من الغم والحزن ، وذلك قوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ » (٤) .

الحديث الثالث : قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس ، حدثنا ابن مسعود ، أخبرنا سهل بن عبد ربه (٥) الرازى ، حدثنا عمرو بن أبى قيس ، عن ابن أبى ليلى ، عن أخيه ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى (٦) ، عن أسامة بن زيد : ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ الآية ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كلهم من هذه الأمة » (٧) .

الحديث الرابع : قال (٨) ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عزيز ، حدثنا سلامة ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، عن عوف (٩) بن مالك ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أمتى ثلاثة أثلاث : فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنة ، وثلث يمحصون ويكشفون ، ثم تأتى الملائكة فيقولون : وجدناهم يقولون : « لا إله إلا الله وحده » . يقول الله عز وجل : صدقوا ، لا إله إلا أنا (١٠) ، أدخلوهم الجنة بقولهم: « لا إله إلا الله وحده» واحملوا خطاياهم على أهل النار ، وهى التى قال الله تعالى : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ (١١) أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت : ١٣] ، وتصديقها فى التى فيها ذكر الملائكة ، قال الله تعالى : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ ،فجعلهم ثلاثة أنواع (١٢) ، وهم أصناف كلهم ، فمنهم ظالم

---

(١) فى ت ، س ، أ : « تلافاهم الله » .
(٢) المسند (٥/١٩٨) .
(٣) فى ت : « وروى من طريق أخرى » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٠) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/٤٢٦) ومن طريقه البيهقى فى البعث برقم(٦٢)من طريق الأعمش،به .
(٥) فى أ : « عبد الله » .
(٦) فى ت : « رواه الحافظ أبو القاسم الطبرانى بإسناده » .
(٧) المعجم الكبير (١/١٦٧) وقد وقع فى إسناده سقط ، ورواه البيهقى فى البعث برقم (٦٤) من طريق محمد بن سعيد ، عن عمرو ابن أبى قيس، عن ابن أبى ليلى، عن أخيه عيسى، عن أبيه، عن أسامة بن زيد ،به . ورواه أيضا برقم (٦٣) من طريق حصين بن نمير عن ابن أبى ليلى ،عن أخيه ،عن أبيه ،عن أسامة بن زيد ، بنحوه .
(٨) فى ت : « رواه » .
(٩) فى أ : « أنس » .
(١٠) فى س : « إلا الله ».
(١١) فى س : «ولتحملن » .
(١٢) فى ت ، س : « أفواج » .

لنفسه، فهذا الذى يكشف ويمحص » . غريب جدا (١) .

أثر عن ابن مسعود : قال ابن جرير : حدثنى ابن حميد ، حدثنا الحكيم بن بشير ، عن عمرو ابن قيس ، عن عبد الله بن عيسى ، عن يزيد بن الحارث ، عن شَقيق أبى وائل ، عن عبد الله بن مسعود ؛ أنه قال : هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة : ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول : ما هؤلاء ؟ ـ وهو أعلم تبارك وتعالى ـ فتقول الملائكة : هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام ، إلا أنهم لم يشركوا بك فيقول الرب عز وجل : أدخلوا هؤلاء فى سعة رحمتى : وتلا عبد الله هذه الآية : ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا [فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ]** (٢)﴾ الآية .

أثر آخر : قال أبو داود الطيالسى ، عن الصلت بن دينار أبو شُعيب (٣) ، عن عقبة بن صُهْبان الهُنَائى قال : سألت عائشة ، رضى الله عنها ، عن قول الله : ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ**﴾ الآية ، فقالت لى : يا بنى ، هؤلاء فى الجنة ، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ ، شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق ، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلكم. قال : فجعلت نفسها معنا (٤) .

وهذا منها ، رضى الله عنها ، من باب الهَضْم والتواضع ، وإلا فهى من أكبر السابقين بالخيرات؛ لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

وقال عبد الله بن المبارك ، رحمه الله : قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضى الله عنه : فى قوله تعالى :﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ**﴾ قال : هى لأهل بدونا ، ومقتصدنا أهل حضرنا ، وسابقنا أهل الجهاد . رواه ابن أبى حاتم .

وقال عَوْف الأعرابى : حدثنا عبد الله بن الحارث بن نوفل قال : حدثنا كعب الأحبار قال : إن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، والمقتصد والسابق بالخيرات كلهم فى الجنة ، ألم تر أن الله تعالى قال : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ .جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ**﴾ قال: فهؤلاء أهل النار .

[و] (٥) رواه ابن جرير من طرق ، عن عوف ، به . ثم قال :

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَيَّةَ ، أخبرنا حميد ، عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث ، عن أبيه أن ابن عباس سأل كعبا (٦) عن قوله : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**﴾ إلى قوله : ﴿**بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ قال : تماسَّت مناكبهم ورَب كعب (٧)،ثم أعطوا الفضل بأعمالهم.

---

(١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٨/ ٨٠) من طريق محمد بن عزيز ، به. وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٦) : « فيه سلامة بن روح وثقه ابن حبان ، وضعفه جماعة ، وبقية رجاله ثقات » .

(٢) زيادة من أ .

(٣) فى هـ ، س : « دينار بن الأشعث » ، وفى أ : « عن الأشعث » ، والمثبت من مسند الطيالسى .

(٤) مسند الطيالسى برقم (١٤٨٩) .

(٥) زيادة من ت .

(٦) فى ت : « ثم روى عن ابن عباس أنه سأل كعبا » .

(٧) فى أ : « الكعبة » .

ثم قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا الحكم بن بشير ، حدثنا عمرو بن قيس ، عن أبى إسحاق السَّبِيعى فى هذه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الآية ، قال أبو إسحاق: أما ما سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج.

ثم قال : حدثنا ابن حميد ، حدثنا الحكم ، حدثنا عمرو ، عن (١) محمد بن الحنفية قال : إنها أمة مرحومة ، الظالم مغفور له ، والمقتصد فى الجنان عند الله ، والسابق بالخيرات فى الدرجات عند الله .

ورواه الثورى ، عن إسماعيل بن سَمِيع ، عن رجل ، عن محمد بن الحنفية ، بنحوه .

وقال أبو الجارود : سألت محمد بن على ـ يعنى : الباقر ـ عن قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ فقال : هو الذى خلط عملا صالحا وآخر سيئا .

فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام . وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة فى جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة ، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة ، وأولى الناس بهذه الرحمة، فإنهم كما قال الإمام أحمد ، رحمه الله :

حدثنا محمد بن يزيد ، حدثنا عاصم بن رجاء بن حَيْوَة (٢) ، عن قيس بن كثير قال : قدم رجل من المدينة إلى أبى الدرداء ـ وهو بدمشق ـ فقال : ما أقدمك أىْ أخى ؟ قال : حديث بلغنى أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ . قال أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا . قال : أما قدمت لحاجة ؟ قال : لا ؟ قال : أما قدمت إلا فى طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم . قال : فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقا يطلب فيه (٣) علماً ، سلك الله به طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم (٤) ، وإنه ليستغفر للعالم من فى السموات والأرض حتى الحيتان فى الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب . إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر » .

وأخرجه (٥) أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، من حديث كثير بن قيس ـ ومنهم من يقول: قيس بن كثير ـ عن أبى الدرداء (٦) . وقد ذكرنا طرقه واختلاف الرواة فيه فى شرح « كتاب العلم » من « صحيح البخارى » ، ولله الحمد والمنة .

وقد تقدم فى أول « سورة طه » حديث ثعلبة بن الحكم ، عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء : إنى لم أضع علمى وحكمى فيكم إلا وأنا أريد [أن] (٧) أغفر لكم ، على ما كان منكم ، ولا أبالى » (٨) .

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣)

(١) فى ت : « وعن » .
(٢) فى ت : « كما روى الإمام أحمد رحمه الله بإسناده » . (٣) فى س : « فيها » .
(٤) فى أ : « العلم رضا بما يصنع » . (٥) فى ت : « رواه » .
(٦) المسند (٥/١٩٦) وسنن أبى داود برقم (٣٦٤١) وسنن الترمذى برقم (٢٦٨٢) وسنن ابن ماجة برقم (٢٢٣) .
(٧) زيادة من ت ، س ، أ .
(٨) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية (٢) من سورة طه .

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) ﴾ .

يخبر تعالى أن مأوى هؤلاء المصطفين من عباده ، الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة ﴿ **جَنَّاتُ عَدْنٍ** ﴾ أى : جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على ربهم،عز وجل ، ﴿ **يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا** ﴾ ، كما ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تبلغ الحلية [١] من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » [٢] .

﴿ **وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ** ﴾ ، ولهذا كان محظوراً عليهم فى الدنيا ، فأباحه الله لهم فى الدار الآخرة، وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « من لبس الحرير فى الدنيا، لم يلبسه فى الآخرة ». وقال : « [لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة][٣]هى لهم فى الدنيا ولكم [٤] فى الآخرة» .

وقال [٥] ابن أبى حاتم : حدثنا عمرو بن سواد السَّرْحىّ ، أخبرنا ابن وهب ، عن ابن لَهيعة ، عن عقيل بن خالد ، عن الحسن ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ؛ أن أبا أمامة حدث: أن رسول الله ﷺ حدثهم ، وذكر حلى أهل الجنة فقال : « مسورون بالذهب والفضة ، مُكَلَّلة بالدر ، وعليهم أكاليل من دُرّ وياقوت متواصلة ، وعليهم تاج كتاج الملوك ، شباب جُرْدٌ مُردٌ مكحَّلون » [٦] .

﴿ **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ** ﴾ وهو الخوف من المحذور ، أزاحه عنا ، وأراحنا مما كنا نتخوفه ، ونحذره من هموم الدنيا والآخرة .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «ليس على أهل « لا إله إلا الله » وحشة فى قبورهم ولا فى منشرهم ، وكأنى بأهل « لا إله إلا الله» ينفضون التراب عن رؤوسهم ، ويقولون : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ** ﴾ ». رواه ابن أبى حاتم من حديثه [٧] .

وقال [٨] الطبرانى : حدثنا جعفر بن محمد الفريابى ، حدثنا يحيى بن موسى [٩] المروزى ، حدثنا سليمان بن عبد الله بن وهب الكوفى ، عن عبد العزيز بن حكيم ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس على أهل « لا إله إلا الله » وحشة فى الموت ولا فى قبورهم ولا فى النشور [١٠] . وكأنى أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب ، يقولون : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ** ﴾ » [١١] .

---

(١) فى ت : « الحليلة » ،وفى أ : « الحلة » .
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٤٦) .
(٣) زيادة من ت ، أ . (٤) فى س : « ولنا » . (٥) فى ت : « وروى » .
(٦) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٢٦٧) من طريق على بن الحسن عن عمرو بن سواد، به. والحسن البصرى لم يسمع من أبى هريرة.
(٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٥٣١) « مجمع البحرين » وابن عدى فى الكامل (٤/ ٢٧١) من طريق يحيى الحمانى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، به . وقال ابن عدى فى ترجمة عبد الرحمن بن زيد : « أحاديثه غير محفوظة » .وقال المنذرى فى الترغيب (٢/ ٤١٦) : « فى متنه نكارة » .
(٨) فى ت : « وروى » .
(٩) فى هـ ، ت ، س ، أ : « موسى بن يحيى » والصواب ما أثبتناه من الإكمال وتخريج الكشاف للزيلعى .
(١٠) فى س : « منشرهم » .
(١١) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٣٣) : « رواه الطبرانى وفيه جماعة لم أعرفهم » . ورواه ابن عدى فى الكامل (٢/ ٦٥) والبيهقى فى البعث برقم (٨٨) من طريق الحسن عن بهلول بن عبيد عن سلمة بن كهيل عن ابن عمر بنحوه، وقال البيهقى : «هذا مرسل عن سلمة بن كهيل وابن عمر ، وبهلول تفرد به وليس بالقوى » .

قال ابن عباس ، وغيره : غَفَر لهم الكثير (١) من السيئات ، وشكر لهم اليسير من الحسنات .

﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ ﴾ : يقولون : الذى أعطانا هذه المنزلة ، وهذا المقام من فضله ومَنّه (٢) ورحمته ، لم تكن أعمالنا تساوى ذلك . كما ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يَتَغَمَّدَنى الله برحمة منه وفضل »(٣).

﴿ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ أى : لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء .

والنصَب واللغوب : كل منهما يستعمل فى التعب . وكأن المراد ينفى هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم (٤) ، والله أعلم . فمن ذلك أنهم كانوا يُدْئِبُون أنفسهم فى العبادة فى الدنيا ، فسقط عنهم التكليف بدخولها ، وصاروا فى راحة دائمة مستمرة ، قال الله تعالى: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٤] .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) ﴾ .

لما ذكر تعالى حال السعداء ، شرع فى بيان مآل الأشقياء ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴾ [طه : ٧٤] . وثبت فى صحيح مسلم : أن رسول الله ﷺ قال : « أما أهل النار الذين هم أهلها ، فلا يموتون فيها ولا يحيون» (٥) . قال [الله] (٦) تعالى : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧] . فهم فى حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ، ولكن لا سبيل إلى ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٤ ، ٧٥] ، وقال : ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩٧] ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ [النبأ : ٣٠] .

ثم قال : ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ أى : هذا جزاء كل من كفر بربه ، وكذب بالحق .

وقوله : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ أى : ينادون فيها ، يجأرون إلى الله، عز وجل، بأصواتهم : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أى : يسألون الرجعة إلى الدنيا ، ليعملوا غير عملهم

(١) فى أ : « الكبير » . (٢) فى س : « ومنته » .
(٣) صحيح البخارى برقم (٥٦٧٣) وصحيح مسلم برقم (٢٨١٦) .
(٤) فى ت ، أ : « ولا على أرواحهم » .
(٥) صحيح مسلم برقم (١٨٥) .
(٦) زيادة من ت ، س .

الأول ، وقد علم الرب، جل جلاله ،أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا ، لعادوا لما نهوا عنه ، **وإنهم** لكاذبون. فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم ، كما قال تعالى مخبرا عنهم فى قولهم: ﴿**فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ**(١) **مِّن سَبِيلٍ. ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا**﴾ [غافر : ١١، ١٢] ، أى : لا يجيبكم إلى ذلك ، لأنكم كنتم كذلك ، ولو رددتم لعدتّم إلى ما نهيتم عنه ؛ ولهذا قال هاهنا :﴿**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**﴾ أى : أو ما عشتم فى الدنيا أعمارا لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به فى مدة عمركم ؟

وقد اختلف المفسرون فى مقدار العمر المراد هاهنا ، فروى عن على بن الحسين زين العابدين أنه قال : مقدار سبع عشرة سنة .

وقال قتادة : اعلموا أن طول العمر حجة ، فنعوذ بالله أن نُعَيَّر (٢) بطول العمر ، **قد نزلت هذه** الآية : ﴿**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**﴾ ، وإن فيهم لابن ثمانى عشرة سنة . وكذا قال أبو غالب الشيبانى .

وقال عبد الله بن المبارك ، عن مَعْمَر ، عن رجل ، عن وهب بن مُنَبِّه فى قوله :﴿**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**﴾ ، قال : عشرين (٣) سنة .

وقال هُشَيْم ، عن منصور ، عن زاذان ، عن الحسن فى قوله : ﴿**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**﴾ قال : أربعين سنة .

وقال هشيم [أيضا] (٤) ، عن مجاهد ، عن الشعبى ، عن مسروق أنه كان يقول : إذا بلغ أحدكم أربعين سنة ، فليأخذ حذره من الله عز وجل .

وهذا رواية عن ابن عباس فيما قال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم ، عن مجاهد قال : سمعت ابن عباس يقول : العمر الذى أعذر الله إلى ابن آدم : ﴿**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**﴾ أربعون سنة .

هكذا رواه من هذا الوجه ، عن ابن عباس . وهذا القول هو اختيار ابن جرير . ثم رواه من طريق الثورى وعبد الله بن إدريس ، كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خثيم (٥) ، عن مجاهد(٦)، عن ابن عباس قال : العمر الذى أعذر الله فيه لابن آدم فى قوله : ﴿**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**﴾ ستون سنة .

فهذه الرواية أصح عن ابن عباس ، وهى الصحيحة فى نفس الأمر أيضاً ، لما ثبت فى ذلك من الحديث ـ كما سنورده ـ لا كما زعمه ابن جرير ، من أن الحديث لم يصح ؛ لأن فى إسناده من يجب التثبت فى أمره .

وقد روى (٧) أصبغ بن نُباتة ، عن على ، رضى الله عنه ، أنه قال : العمر الذى عيّرهم الله به فى قوله تعالى : ﴿**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**﴾ ستون سنة .

---

(١) فى ت ، س : « مرد » وهو خطأ . (٢) فى أ : « نغتر » . (٣) فى ت ، س ، أ : « عشرون » .
(٤) زيادة من س . (٥) فى أ : « خيثم » . (٦) فى ت: « وفى رواية أخرى » .
(٧) فى ت : « فروى » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى : حدثنا دُحَيْم ، حدثنا ابن أبى فُدَيْك ، حدثنى إبراهيم بن الفضل المخزومى ، عن ابن أبى حُسَيْن المكى ؛ أنه حدثه عن عَطاء ـ هو ابن أبى رباح ـ عن (١) ابن عباس ، رضى اللّه عنهما (٢) ، أن النبى ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة قيل : أين أبناء الستين ؟ وهو العمر الذى قال اللّه فيه : ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ » .

وكذا رواه ابن جرير ، عن على بن شعيب ، عن محمد بن إسماعيل (٣) بن أبى فُدَيك ، به . وكذا رواه الطبرانى من طريق ابن أبى فُدَيك ، به (٤) . وهذا الحديث فيه نظر ؛ لحال إبراهيم بن الفضل ، واللّه أعلم .

حديث آخر : قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن رَجُل من بنى غفَار، عن سعيد المَقْبُرِىّ ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « لقد أعذر اللّه إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين سنة ، لقد أعذر اللّه إليه، لقد أعذر الله إليه » (٦) .

وهكذا رواه الإمام البخارى فى « كتاب الرقاق » من صحيحه : حدثنا عبد السلام بن مُطَهَّر ، عن عُمَر بن علىّ ، عن مَعْن بن محمد الغفَارى ، عن سعيد المَقْبُرى ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه،قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أعذر اللّه عز وجل إلى امرئ أخَّر عمره حتى بَلَّغَه ستين سنة » .

ثم قال البخارى : تابعه أبو حازم وابن عَجْلان ، عن سعيد المَقْبُرى (٧) .

فأما أبو حازم فقال ابن جرير : حدثنا أبو صالح الفَزَارىّ ، حدثنا محمد بن سَوَّار ، أخبرنا يعقوب بن عبد الرحمن بن عبد القارىّ الإسكندرىّ ، حدثنا أبو حازم ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ « [من عَمَّره] (٨) اللّه ستين سنة ، فقد أعذر إليه فى العمر » .

وقد رواه الإمام أحمد والنسائى فى الرقاق جميعا عن قتيبة،عن يعقوب بن عبد الرحمن، به(٩) .

ورواه البزار قال : حدثنا هشام بن يونس ، حدثنا عبد العزيز بن أبى حازم ، عن أبيه ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « العمر الذى أعذر اللّه فيه إلى ابن آدم ستون سنة » .يعنى : ﴿ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾(١٠) .

وأما متابعة « ابن عجلان » فقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو السفر يحيى بن محمد بن عبد الملك ابن قرعة بسامراء ، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرى ، حدثنا سعيد بن أبى أيوب ، حدثنى محمد بن

---

(١) فى ت : « فقال ابن أبى حاتم بإسناده إلى » . (٢) فى ت ، س : « عنه » .
(٣) فى جميع النسخ : « عن إسماعيل ، والمثبت من الطبرى » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٣) والمعجم الكبير للطبرانى (١١/ ١٧٧) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٧):«وفيه إبراهيم بن الفضل المخزومى وهو ضعيف » .
(٥) فى ت : « وروى » .
(٦) المسند (٢/ ٢٧٥) .
(٧) صحيح البخارى برقم (٦٤١٩) .
(٨) زيادة من ت ، والطبرى .
(٩) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٣) والمسند (٢/ ٤١٧) والنسائى فى السنن الكبرى كما فى تحفة الأشراف للمزى (٩/ ٤٧٢) .
(١٠) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (٣/ ١٥٥) من طريق سليمان بن حرب ، عن أبى حازم،عن سهل بن سعد ، وربما لم يقل : عن سهل ، فذكر نحوه دون الآية ، والمحفوظ عن أبى هريرة ،رضى اللّه عنه .

عجلان ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله، عز وجل، إليه فى العمر » . وكذا رواه الإمام أحمد عن أبى عبد الرحمن هو المقرئ [(١)] ، به [(٢)] . ورواه أحمد أيضا عن خلف عن أبى مَعْشَر ،عن سعيد المَقْبُرِىّ.

طريق أخرى عن أبى هريرة : قال ابن جرير : حدثنى أحمد بن الفرج أبو عُتْبَة [(٣)] الحمْصى، حدثنا بَقِيَّة بن الوليد ، حدثنا المطرف بن مازن الكنانى ، حدثنى مَعْمَر بن راشد قال : سمعت محمد ابن عبد الرحمن الغفارى يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ:«لقد أعذر الله عز وجل، إلى صاحب الستين سنة والسبعين » [(٤)] .

فقد صح هذا الحديث من هذه الطرق ، فلو لم يكن [(٥)] إلا الطريق التى ارتضاها أبو عبد الله البخارى شيخ هذه الصناعة لكفت . وقول ابن جرير : (إن فى رجاله بعض من يجب التثبت فى أمره) ، لا يلتفت إليه مع تصحيح البخارى ، والله أعلم .

وذكر بعضهم أن العمر الطبيعى عند الأطباء مائة وعشرون سنة ، فالإنسان لايزال فى ازدياد إلى كمال الستين ، ثم يشرع بعد هذا فى النقص والهرم ، كما قال الشاعر :

إذَا بَلَغَ الفتى ستين عَاما   فقد ذَهَبَ المَسَرّةُ والفَتَاءُ [(٦)]

ولما كان هذا هو العمر الذى يعذر الله إلى عباده به ، ويزيح به عنهم العلل ، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة ، كما ورد بذلك الحديث ، قال الحسن بن عرفة ، رحمه الله :

حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى ، حدثنا محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين،وأقلهم مَن يجوز ذلك».

وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه جميعا فى كتاب الزهد ، عن الحسن بن عرفة ، به . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه [(٧)] .

وهذا عَجَب من الترمذى ، فإنه قد رواه أبو بكر بن أبى الدنيا من وجه أخر وطريق أخرى ، عن أبى هريرة ، حيث قال :

حدثنا سليمان [(٨)] بن عمر ، عن محمد بن ربيعة ،عن كامل أبى العلاء،عن أبى صالح،عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:«أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين،وأقلهم من يجوز ذلك » .

وقد رواه الترمذى فى « كتاب الزهد » أيضا ، عن إبراهيم بن سعيد الجوهرى ، عن محمد بن ربيعة ، به [(٩)] . ثم قال : هذا حديث حسن غريب ، من حديث أبى صالح عن أبى هريرة ، وقد

---

(١) فى أ : « المقبرى » .
(٢) المسند (٢/ ٣٢٠) .
(٣) فى أ : « أبو عيينة » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٣) .
(٥) فى س : « لم تكن » .
(٦) البيت نسبه أبو عبيدة للربيع بن ضبع الفزارى مستفاداً من حاشية طبعة الشعب .
(٧) سنن الترمذى برقم (٣٥٥٠) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٣٦) .
(٨) فى أ : « سليم » .
(٩) سنن الترمذى برقم (٢٣٣١) .

روى من غير وجه عنه . هذا نصه بحروفه فى الموضعين ، والله أعلم .

وقال (١) الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو موسى الأنصارى ، حدثنا ابن أبى فُدَيك ، حدثنى إبراهيم ابن الفضل ـ مولى بنى مخزوم ـ عن المقبُرى ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مُعْتَرك المنايا ما بين الستين إلى السبعين » .

وبه قال : قال رسول الله ﷺ : « أقل أمتى أبناء سبعين » . إسناده ضعيف (٢) .

حديث آخر فى معنى ذلك : قال (٣) الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده :

حدثنا إبراهيم بن هانئ ، حدثنا إبراهيم بن مهدى ، حدثنا عثمان بن مطر ، عن أبى مالك ، عن رِبْعِى عن حذيفة أنه قال : يا رسول الله ، أنبئنا بأعمار أمتك . قال : « ما بين الخمسين إلى الستين » . قالوا : يارسول الله ، فأبناء السبعين ؟ قال : « قل من يبلغها من أمتى ، رحم الله أبناء السبعين ، ورحم الله أبناء الثمانين » .

ثم قال البزار : لا يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد ، وعثمان بن مطر من أهل البصرة ليس بقوى (٤) .

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثة وستين سنة . وقيل : ستين . وقيل : خمسا وستين سنة . والمشهور الأول ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ** ﴾ : روى عن ابن عباس ، وعِكْرِمة ، وأبى جعفر الباقر ، وقتادة ، وسفيان بن عُيَينة أنهم قالوا : يعنى: الشيب .

وقال السُّدِّى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى به الرسول ﷺ وقرأ ابن زيد : ﴿ **هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى** ﴾ [النجم : ٥٦] . وهذا هو الصحيح عن قتادة ، فيما رواه شيبان ، عنه أنه قال: احتج عليهم بالعمر والرسل .

وهذا اختيار ابن جرير ، وهو الأظهر ؛ لقوله تعالى : ﴿ **وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ . لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** ﴾ [الزخرف : ٧٧ ، ٧٨]، أى: لقد بينا لكم الحق على ألسنة الرسل، فأبيتم وخالفتم، وقال تعالى: ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾ [الإسراء: ١٥] ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ **كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ** ﴾ [الملك : ٨ ، ٩] .

وقوله : ﴿ **فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ** ﴾ أى : فذوقوا عذابَ النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء فى مدة أعمالكم ، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال .

﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ**

---

(١) فى ت : « وروى » .

(٢) مسند أبى يعلى (١١/٤٢٢ ، ٤٢٣) وفيه إبراهيم بن الفضل وهو متروك .

(٣) فى ت : « وروى » .

(٤) مسند البزار برقم (٣٥٨٦) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٠٦) : « وفيه عثمان بن مطر وهو ضعيف » .

خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩)﴾ .

يخبر تعالى بعلمه غيب السموات والأرض ، وأنه يعلم ما تكنه السرائر وتنطوى عليه الضمائر ، وسيجازى كل عامل بعمله .

ثم قال : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ** ﴾ أى : يخلف قوم لآخرين قبلهم ، وجيل لجيل قبلهم ، كما قال : ﴿ **وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ** ﴾ [النمل : ٦٢] ﴿ **فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ** ﴾ ، أى : فإنما يعود وبال ذلك (١) على نفسه (٢) دون غيره ، ﴿ **وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا** ﴾ ، أى : كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله ، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحَسُن عمله ، ارتفعت درجته ومنزلته فى الجنة ، وزاد أجره ، وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين ، [فسبحان المقدر المدبر رب العالمين] (٣) .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١)﴾ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ **أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ أى : من الأصنام والأنداد ، ﴿ **أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ** ﴾ أى : ليس لهم شىء من ذلك ، ما يملكون من قطمير .

وقوله : ﴿ **أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ** ﴾ أى : أم أنزلنا عليهم كتابا بما يقولون من الشرك والكفر ؟ ليس الأمر كذلك ، ﴿ **بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا** ﴾ أى : بل إنما اتبعوا فى ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التى تمنوها لأنفسهم ، وهى غرور وباطل وزور .

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التى بها تقوم السماء والأرض عن أمره ، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما ، فقال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا** ﴾ أى : أن تضطربا عن أماكنهما ، كما قال : ﴿ **وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ** ﴾ [الحج : ٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ** ﴾ [الروم : ٢٥] ﴿ **وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ** ﴾ ، أى : لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو ، وهو مع ذلك حليم غفور ، أى : يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه ، وهو يحلم (٤) فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يَعجَل ، ويستر آخرين ويغفر ؛ ولهذا قال : ﴿ **إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا** ﴾ .

---

(١) فى ت ، س ، أ : « وبال كفره ذلك » .
(٢) فى ت : « وعليه » .
(٣) زيادة من أ .
(٤) فى ت ، أ : « يحلم عنهم » .

وقد أورد ابن أبى حاتم هاهنا حديثا غريبا بل منكراً ، فقال : حدثنا على بن الحسين بن الجنيد ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنى هشام بن يوسف ، عن أمية بن شبل ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن (١) أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يحكى عن موسى ، عليه السلام (٢) ، على المنبر قال : « وقع فى نفس موسى ، عليه السلام : هل ينام الله ،عز وجل ، فأرسل الله إليه ملكا ، فأرقه ثلاثا (٣) ، وأعطاه قارورتين ، فى كل يد قارورة،وأمره أن (٤) يحتفظ بهما. قال: فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان،ثم يستيقظ فيحبس إحداهما (٥) عن الأخرى،حتى نام نومه، فاصطفقت يداه فتكسَّرَت القارورتان. قال: ضرب الله له مثلا: إن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض » (٦) .

والظاهر أن هذا الحديث ليس بمرفوع ، بل من الإسرائيليات المنكرة ؛ فإن موسى ، عليه السلام، أجلّ من أن يُجوِّز على الله ،سبحانه وتعالى،النوم،وقد أخبر الله تعالى فى كتابه العزيز بأنه: ﴿ **الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** ﴾ [البقرة : ٢٥٥]. وثبت فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسْط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل،حجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » (٧) .

وقد قال أبو جعفر بن جرير (٨) : حدثنا ابن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبى وائل قال : جاء رجل إلى عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ فقال : من أين جئت ؟ قال : من الشام . قال : من لقيت ؟ قال : لقيت كعبا . قال: ما حدثك كعب ؟ قال : حدثنى أن السموات تدور على منْكَب مَلَك . قال : أفصدقته أو كذبته ؟ قال : ما صدقته ولا كذبته . قال : لوددت أنك افتديت من رحلتك إليه براحلتك ورَحْلها ، كَذَب كعب . إن الله تعالى يقول : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ** ﴾ (٩) .

وهذا إسناد صحيح إلى كعب وإلى ابن مسعود . ثم رواه ابن جرير عن ابن حميد ، عن جرير، عن مغيرة ، عن إبراهيم قال : ذهب جُنْدَب البَجَلى إلى كعب بالشام ، فذكر نحوه (١٠) . وقد رأيت فى مصنف الفقيه (١١) يحيى بن إبراهيم بن مُزَين الطليطلى ، سماه « سير الفقهاء » ، أورد هذا الأثر عن محمد بن عيسى بن الطَّبَّاع ، عن وكيع ، عن الأعمش ، به . ثم قال : وأخبرنا زونان ـ يعنى : عبد الملك بن الحسن ـ عن ابن وهب ، عن مالك أنه قال : السماء لا تدور . واحتج بهذه الآية ، وبحديث : « إن بالمغرب بابا للتوبة لا يزال مفتوحا حتى تطلع الشمس منه » .

(١) فى ت : « بسنده إلى أبى هريرة» . (٢) فى ت : « ﷺ» . (٣) فى ت : « ثلثا » .
(٤) فى ت : « بأن » . (٥) فى س : « أحدهما » .
(٦) ورواه أبو يعلى فى مسنده (١٢/ ٢١) من طريق إسحاق بن إبراهيم ، به ، وسبق أيضا تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية : ٢٥٥ من سورة البقرة .
(٧) صحيح مسلم برقم (١٧٩) وليس فى صحيح البخارى ، فإن الحافظ ذكره عند تفسير الآية : ٢٥٥ من سورة البقرة فقال : « وفى الصحيح هكذا بالإفراد » .
(٨) فى ت : « وروى ابن جرير » .
(٩) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٤) .
(١٠) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٥) .
(١١) فى س ، أ : « للفقيه » .

قلت : وهذا الحديث فى الصحيح (١) ، والله أعلم .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) ﴾ .

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم ، قبل إرسال الرسول إليهم : ﴿لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ أى : من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل . قاله الضحاك وغيره ، كقوله تعالى :﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا (٢) لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام : ١٥٦، ١٥٧] ، وكقوله تعالى : ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ. لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ . لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ. فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الصافات:١٦٧ــ ١٧٠] .

قال الله تعالى :﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ ــ وهو : محمد ﷺ ــ بما أنزل معه من الكتاب العظيم ، وهو القرآن المبين ،﴿ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ أى : ما ازدادوا (٣) إلا كفراً إلى كفرهم ، ثم بين ذلك بقوله: ﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أى : استكبروا عن اتباع آيات الله ، ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أى : ومكروا بالناس فى صدّهم إياهم عن سبيل الله ،﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ، [أى : وما يعود وبال ذلك إلا عليهم (٤) أنفسهم دون غيرهم .

قال (٥) ابن أبى حاتم : ذكر على بن الحسين ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن أبى زكريا الكوفى عن رجل حدثه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إياك ومكر السيئ ، فإنه لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله] (٦) ، ولهم من الله طالب » (٧) ، وقد قال محمد بن كعب القُرَظى : ثلاث من فعلهن لم ينجُ حتى ينزل به من مكر أو بغى أو نكث ، وتصديقها فى كتاب الله : ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ، ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ [يونس : ٢٣]، ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [الفتح : ١٠].

وقوله :﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ يعنى : عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره (٨) ،﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أى(٩): لا تغير ولا تبدل ، بل هى جارية كذلك فى كل

---

(١) لم أعثر على الحديث فى الصحيحين ، وهو فى سنن الترمذى برقم (٣٥٣٦) وصحيح ابن خزيمة برقم (١٩٣) والمسند للإمام أحمد (٤/ ٢٤٠) ما يوافق ذلك من حديث صفوان بن عسال، رضى الله عنه ، ولفظه عند ابن خزيمة : « إن بالمغرب باباً مفتوحاً للتوبة مسيرته سبعون سنة لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها » نحوه .

(٢) فى ت : « أو يقولوا » . (٣) فى ت : « ما زادوهم » . (٤) فى ت : « على » .

(٥) فى ت : « روى » . (٦) زيادة من ت ، س ، أ .

(٧) وهذا مرسل ولم أجد من أخرجه غير ابن أبى حاتم ، وقد روى ابن المبارك فى الزهد برقم (٧٢٥) عن الزهرى مرسلاً نحوه .

(٨) فى ت : « على تكذيبهم أمره ومخالفتهم رسله » . (٩) فى ت : « يعنى » .

مكذب ، ﴿ ولَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ أى : ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ ﴾ [الرعد : ١١]، ولا يكشف ذلك عنهم ، ويحوله عنهم أحد .

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة : سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل ؟ كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، فَخُلِّيَتْ منهم منازلهم ، وسلبوا ما كانوا فيه من النِّعَم بعد كمال القوة ، وكثرة العدد والعُدَد ، وكثرة الأموال والأولاد ، فما أغنى ذلك شيئا ، ولا دفع (١) عنهم من عذاب الله من شيء ، لما جاء أمر ربك لأنه تعالى لا يعجزه شيء ، إذا أراد كونه فى السموات والأرض ؟ ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ أى : عليم بجميع الكائنات ، قدير على مجموعها .

ثم قال تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ أى : لو آخذهم (٢) بجميع ذنوبهم ، لأهلك جميع أهل الأرض ، وما يملكونه من دواب وأرزاق .

قال (٣) ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله قال : كاد الجُعَلُ أن يعذب فى جُحْره بذنب ابن آدم ، ثم قرأ : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾.

وقال سعيد بن جبير ، والسُّدىّ فى قوله : ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ أى : لما سقاهم المطر، فماتت جميع الدواب .

﴿وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى : ولكن يُنْظِرهُم إلى يوم القيامة ، فيحاسبهم يومئذ ، ويوفى كل عامل بعمله ، فيجازى بالثواب أهلَ الطاعة ، وبالعقاب أهل المعصية ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ .

آخر تفسير سورة « فاطر » ولله الحمد والمنة

(١) فى ت ، س : « ولا يدفع » .
(٢) فى ت ، أ : « يؤاخذهم ».
(٣) فى ت : « روى » .

تفسير سورة فاطر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾

قال سفيان الثوري، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أنا بدأتها. فقال ابن عباس أيضًا: ﴿**فاطر السموات والأرض**﴾، بديع السموات والأرض(١).

وقال الضحاك: كل شيء في القرآن: فاطر السموات والأرض؛ فهو خالق السموات والأرض(٢).

وقوله: ﴿**جاعل الملائكة رسلًا**﴾، أي: بينه وبين أنبيائه، ﴿**أولي أجنحة**﴾، أي: يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعًا ﴿**مثنى وثلاث ورباع**﴾، أي: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، كما جاء في الحديث: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب(٣). ولهذا قال: ﴿**يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير**﴾.

قال السدي: يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء. وقال الزهري، وابن جريج في قوله: ﴿**يزيد في الخلق ما يشاء**﴾، يعني: حسن الصوت. رواه عن الزهري[١] البخاري في الأدب، وابن أبي حاتم في تفسيره(٤).

(١) - رواه أبو عبيد في فضائله ص (٣٤٥)، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (١٦٨٢) من طريق يحيى بن سعيد، عن سفيان، به. وأورده السيوطي في الدر (٥/٤٥٨) وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) - أخرجه ابن أبي حاتم كما عزاه إليه السيوطي في الدر (٥/٤٥٨).

(٣) - تقدم في سورة الإسراء.

(٤) - وأورده السيوطي (٥/٤٥٨) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي في الشعب.

[١] - في خ، ز: «السدي».

وقُرِئَ في الشاذ: (يزيد في الحلق)، بالحاء المهملة، والله أعلم.

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

يخبر تعالى أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع.

قال الإمام أحمد(٥): حدثنا علي بن عاصم، حدثنا مغيرة، أخبرنا عامر، عن وَرَّاد[١] - مولى المغيرة بن شعبة - قال: كتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة: اكتب إليَّ بما سمعتَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فدعاني المغيرة فكتبت إليه: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من الصلاة قال: «**لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجدّ**». وسمعته ينهى عن: «**قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال، وعن وأد البنات، وعقوق الأمهات، ومَنْع وَهَات**».

وأخرجاه من طرق عن وَرَّاد[٢] به.

وثبت في صحيح مسلم(٦) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: «**سمع الله لمن حمده، اللهم ربنا لك الحمد، [ملء السموات وملء الأرض][٣]، وملء ما شئت من شيء بعد. اللهم، أهلَ الثناء والمجد. أحقّ ما قال العبد -وكلنا لك عبد- اللهمّ لا مانع لما أعطيت، ولامعطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ**».

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿**وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وإن يردك بخير فلا راد لفضله**﴾. ولهذا نظائر كثيرة.

وقال الإمام مالك(٧): كان أبو هريرة إذا مُطروا يقول: مُطرنا بنَوء الفتح، ثم يقرأ هذه

(٥) - رواه أحمد ١٨٢٨٥ - (٢٥٤/٤)، ١٨١٩١ - (٢٤٥/٤)، والبخاري في الأذان برقم (٨٤٤)، وأطرافه (٦٣٣٠، ٦٤٧٣، ٦٦٥١، ٧٢٩٢)، ومسلم في المساجد، ومواضع الصلاة برقم (٥٩٣).
(٦) - مسلم في الصلاة برقم (٤٧٧).
(٧) - الموطأ (١٩٢/١).

[١] - في ز: «وارِد». [٢] - في ز: «وارِد».
[٣] - ما بين المعكوفتين في ت: «ملء السماء والأرض».

الآية: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم﴾. ورواه ابن أبي حاتم، عن يونس، عن ابن وهب، عنه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣)﴾

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فليفرد بالعبادة، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان. ولهذا قال: ﴿لا إله إلا هو فأنى تؤفكون﴾، أي: فكيف تؤفكون بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان؟.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦)﴾

يقول: وإن يكذبوك - يا محمد - هؤلاء المشركون بالله ويخالفوك[١] فيما جئتهم به من التوحيد، فلك فيمن[٢] سلف قبلك من الرسل أسوة؛ فإنهم كذلك جاءوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم، ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾، [أي: وسنجزيهم][٣] على ذلك أوفر الجزاء.

ثم قال: ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق﴾، أي: المعاد كائن لا محالة، ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾، أي: العيشة الدنيئة[٤] بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم فلا تتلَهوا[٥] عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية، ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾، وهو الشيطان، قاله ابن عباس. أي: لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته، فإنه غرّار كذاب أفاك. وهذه الآية كالآية التي في آخر لقمان: ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾.

---

[١] - في ز: «ويخالفونك». [٢] - في ز: «ممن».
[٣] - ما بين المعكوفتين في ز: «وستجزيهم». [٤] - في ز: «الدنية».
[٥] - في ز: «تلتهوا».

قال مالك، عن زيد بن أسلم: هو الشيطان. كما قال: يقول المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حين يضرب ﴿**بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور**﴾.

ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال: ﴿**إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًا**﴾، أي: هو مبارز لكم بالعداوة، فعادوه أنتم أشد العداوة، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به، ﴿**إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير**﴾، أي: إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير، فهذا هو العدو المبين. فنسأل الله القوى العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان، وأن يرزقنا اتباع كتابه، والاقتفاء بطريق رسوله، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير. وهذه كقوله: ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلًا**﴾.

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى السعير، ذكر بعد ذلك أن [الذين كفروا لهم][١] عذاب شديد، لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن، وأن الذين آمنوا بالله ورسله ﴿**وعملوا الصالحات لهم مغفرة**﴾، أي: لما كان منهم من ذنب، ﴿**وأجر كبير**﴾ على ما عملوه من خير.

ثم قال: ﴿**أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنًا**﴾، يعني كالكفار والفجار، يعملون أعمالًا سيئة، وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا، أي: أفمن[٢] كان هكذا قد أضله الله، ألك فيه حيلة؟ لا حيلة لك فيه، ﴿**فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء**﴾، أي: بقدره كان ذلك، ﴿**فلا تذهب نفسك عليهم حسرات**﴾، أي: لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم[٣] في قدره إنما يضل من يضل ويهدي من يهدي، لما له في ذلك من الحجة

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ز: « للذين كفروا ». [٢] - في ز: « فمن ».

[٣] - في ز: « حليم ».

البالغة، والعلم التام، ولهذا قال: ﴿**إن الله عليم بما يصنعون**﴾.

وقال ابن أبي حاتم عند هذه الآية: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عوف الحمصي، حدثنا محمد بن كثير، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي[١] عمرو السيباني[٢] [أو: ربيعة]، عن عبد الله بن الديلمي[٣] قال: أتيت[٤] عبد الله بن عمرو، وهو في حائط بالطائف يقال له: الوهط، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذٍ فقد اهتدىٰ، ومن أخطأه منه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على ما علم الله عز وجل**»(٨).

ثم قال: حدثنا يحيى بن عبدك القزويني، حدثنا حسان بن حسان البصري، حدثنا إبراهيم ابن بشر[٥]، حدثنا يحيى بن مَعنٍ، حدثنا إبراهيم القرشي، عن سعيد[٦] بن شرحبيل، عن زيد ابن أبي أوفى قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «**الحمد لله الذي يهدي من الضلالة، ويلبس الضلالة على من أحب**»(٩).

---

(٨) - رواه الطيالسي ٥٧ - (٣١/١) من طريق ابن المبارك، وأحمد (١٧٦/٢)، والحاكم (٣٠/١ - ٣١) من طريق أبي إسحاق الفزاري، والحاكم (٣٠/١ - ٣١) من طريق الوليد بن مزيد، ومحمد بن كثير المصيصي. ورواه ابن حبان في صحيحه (١٨١٢) «موارد»، من طريق ابن المبارك، جميعهم عن الأوزاعي، عن ربيعة بن يزيد، عن عبد الله الديلمي، بنحوه.

ورواه الترمذي في السنن برقم (٢٦٤٤) من طريق إسماعيل بن عياش، عن يحيى بن أبي عمرو السيباني، عن عبد الله الديلمي، بنحوه، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن».

ورواه أحمد (١٩٧/٢) من طريق أبي المغيرة، ثنا محمد بن مهاجر، أخبرنا عروة بن رويم، عن عبد الله الديلمي، به نحوه.

(٩) - إبراهيم بن بشر، قال أبو حاتم (٩٠/٢): هو مجهول، ويحيى مجهول. وهذا الحديث هو جزء من حديث طويل في المؤاخاة بين الصحابة، رواه البخاري في التاريخ الصغير (٢٥٠/١) فقال: حدثنا حسان بن حسان، عن إبراهيم بن بشر، عن يحيى بن [معنٍ] المدني، عن إبراهيم القرشي، عن سعيد بن شرحبيل، عن زيد بن أبي أوفى فذكره، ثم قال بعدما أورده: «وهذا إسناد مجهول لا يتابع عليه، ولا يعرف سماع بعضهم من بعض». ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢٠/٥) من طريق عبد المؤمن بن عباد، عن يزيد ابن معن، عن عبد الله بن شرحبيل، عن رجل من قريش، عن زيد بن أبي أوفى بطوله، ورواه ابن الأثير في أسد الغابة (٢٧٨/٢) من طريق شعيب بن يونس، عن موسى بن صهيب، عن يحيى بن زكريا، عن عبدالله بن شرحبيل، عن رجل من قريش، عن زيد بن أبي أوفى. وقال ابن السكن: روي حديثه من ثلاث طرق، ليس فيها ما يصح. وقال ابن عبد البر في الاستيعاب (٤١/٤) في ترجمة زيد: روىٰ حديثَ المؤاخاة بتمامه؛ إلا أنَّ في إسناده ضعفًا.

---

[١] - سقط من: خ، ز.
[٢] - في ز: «الشيباني».
[٣] - في خ، ز: «الديلي».
[٤] - سقط من: ز.
[٥] - في ت، والجرح والتعديل: «بشير».
[٦] - في ت: «سعد».

وهذا أيضًا حديث غريب جدًا.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ (٩) مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١)﴾

كثيرًا ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها - كما في سورة الحج ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها، ﴿**اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج**﴾، كذلك الأجساد[١]، إذا أراد الله سبحانه بعثها ونشورها، أنزل من تحت العرش مطرًا يعم[٢] الأرض جميعًا فتنبت الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض ولهذا جاء في الصحيح: «**كل ابن آدم يبلى[٣] إلا عَجْبُ[٤] الذنب، منه خلق ومنه[٥] يركب**». ولهذا قال تعالى: ﴿**كذلك النشور**﴾.

وتقدم في «**الحج**» حديث أبي رَزِين قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟. قال: «**يا أبا رزين، أما مررت بوادي قومك محلًا[٦] ثم مررت به يهتز خضرًا؟**» قلت: بلى. قال: «**فكذلك يحيى الله الموتى**».

وقوله: ﴿**من كان يريد العزة فلله العزة جميعًا**﴾، أي: من كان يحب أن يكون عزيزًا في الدنيا والآخرة، فليلزم[٧] طاعة الله فإنه يحصل له مقصوده، لأن الله مالك الدنيا والآخرة، وله العزة جميعها [كما قال تعالى: ﴿**الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعًا**﴾][٨].

---

[١] - في خ، ز: «الأجسام».
[٢] - في ز: «فعم».
[٣] - سقط من: خ.
[٤] - في ز: «عجم».
[٥] - في ز: «وفيه».
[٦] - في ز: «ممحلًا».
[٧] - في ز: «فليزم».
[٨] - ما بين المعكوفتين سقط من: خ، ز.

وقال تعالى: ﴿**ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعًا**﴾، وقال: ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون**[١]﴾.

قال مجاهد: ﴿**من كان يريد العزة**﴾ بعبادة الأوثان، ﴿**فإن العزة لله جميعًا**﴾.

وقال قتادة: ﴿**من كان يريد العزة فإن العزة لله جميعًا**﴾، أي: فليتعزز بطاعة الله عز وجل.

وقيل: من كان يريد علم العزة، لمن هي؟ ﴿**فإن العزة لله جميعًا**﴾، حكاه ابن جرير.

وقوله: ﴿**إليه يصعد الكلم الطيب**﴾، يعني: الذكر والتلاوة والدعاء. قاله غير واحد من السلف.

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن إسماعيل الأحمسي، أخبرني جعفر بن عون، عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي، عن عبد الله بن المخارق، عن أبيه المخارق بن سليم قال: قال لنا عبد الله - هو ابن مسعود - إذا حدثناكم حديثًا أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله: إن العبد المسلم إذا قال: «سبحان الله وبحمده، والحمد لله، و[٢] لا إله إلا الله، و[٣] الله أكبر، تبارك الله[٤]»، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه، ثم صَعد بهن إلى السماء فلا يمرّ بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن، حتى يجيء بهن وجه الرحمن عز وجل، ثم قرأ عبد الله: ﴿**إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه**﴾.

وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلية، أخبرنا سعيد[٥] الجُرَيْري، عن عبد الله بن شقيق قال: قال كعب الأحبار: إن لـ «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» لدويًّا حول العرش كدويّ النحل، يُذَكِّرن بصاحبهن، والعمل الصالح في الخزائن(١٠).

وهذا إسناد صحيح إلى كعب الأحبار رحمه الله، وقد روي مرفوعًا.

قال الإمام أحمد(١١): حدثنا ابن نمير، حدثنا موسى - يعني بن مسلم الطحان - عن عون ابن عبد الله، عن أبيه - أو: عن أخيه - عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله

(١٠) - تفسير ابن جرير (١٢٠/٢٢).

(١١) - المسند ١٨٤١٥ - (٢٦٨/٤) ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٨٩/١٠). والدَّوِيُّ: صوت ليس بالعالي. نهاية [١٤٣/٢].

[١] - في ز: «يفقهون».

[٢] - سقط من: ز.

[٣] - سقط من: ز.

[٤] - سقط من: خ.

[٥] - بعده في ز «بن».

عليه وسلم: «**الذين يذكرون الله من جلال الله ، من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله، يتعاطفن حول العرش، لهن دوي كدوي النحل، يذكرون بصاحبهن ؛ ألا يحب[١] أحدكم أن لا يزال[٢] له عند الله شيء يذكر به**».

وهكذا رواه ابن ماجة(١٢) عن أبي بشر[٣] بكر بن خلف، عن يحيى بن سعيد القطان، عن موسى بن أبي عيسى[٤] الطحان، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن أبيه - أو: عن أخيه - عن النعمان بن بشير، به[٥].

وقوله: ﴿**والعمل الصالح يرفعه**﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الكلم الطيب: ذكر الله ، يصعد به إلى الله عز وجل، [والعمل الصالح أداء فرائضه][٦] ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه، رد كلامه على عمله، فكان أولى به.

وكذا قال مجاهد: العمل الصالح[٧] يرفع الكلام الطيب. وكذا قال أبو العالية، وعكرمة، وإبراهيم النخعي، والضحاك، والسدي، والربيع بن أنس، وشهر بن حوشب، وغير واحد. وقال إياس بن معاوية القاضي: لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام. وقال الحسن، وقتادة: لا يقبل قول إلا بعمل.

وقوله: ﴿**والذين يمكرون السيئات**﴾، قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وشهر بن حوشب: هم المراءون بأعمالهم، يعني يمكرون بالناس، يوهمون أنهم في طاعة الله ، وهم بُغَضاء إلى الله عز وجل، يراءون بأعمالهم، ﴿**ولا يذكرون الله إلا قليلا**﴾. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المشركون.

والصحيح أنها عامة، والمشركون داخلون بطريق الأولى. ولهذا قال: ﴿**لهم عذاب شديد، ومكر أولئك هو يبور**﴾،أي: يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنهى، فإنه ما أسرَّ عبد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. فالمرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على غبي، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم، بل يُكشَفُ لهم عن قريب، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية.

(١٢) - أخرجه ابن ماجة في كتاب الأدب، باب: فضل التسبيح، حديث (٣٨٠٩)، (٢/١٢٥٢)، وقال البوصيري في الزوائد (٣/١٩٣): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

[١] - في ز: «يحبن» والمثبت موافق للمسند.

[٢] - في خ، ز: «يكون» والمثبت موافق للمسند. [٣] - بعده في ز: «بن».

[٤] - سقط من: خ، ز. [٥] - سقط من: خ، ز.

[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من: خ، ز. [٧] - سقط من: ز.

وقوله: ﴿**والله خلقكم من تراب، ثم من نطفة**﴾، أي: ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ﴿**ثم جعلكم أزواجًا**﴾، أي: ذكرًا وأنثى، لطفًا منه ورحمة أن جعل لكم أزواجًا من جنسكم، لتسكنوا إليها.

وقوله: ﴿**وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه**﴾، أي: هو عالم بذلك، لا يخفى عليه من ذلك شيء، بل ﴿**ما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب ولا يابس، إلا في كتاب مبين**﴾.

وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿**الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام**﴾، إلى قوله: ﴿**المتعال**﴾.

وقوله: ﴿**وما يعمر من معمر، ولا ينقص من عمره إلا في كتاب**﴾، أي: ما يعطى بعض النطف من العمر الطويل يعلمه، وهو عنده في الكتاب الأول، ﴿**وما ينقص من عمره**﴾ [الضمير عائد][١] على الجنس، لا على العين، لأن العين الطويل العمر في الكتاب وفي[٢] علم الله لا ينقص من عمره، وإنما عاد الضمير على الجنس.

قال ابن جرير: وهذا كقولهم: «**عندي ثوب ونصفه**»، أي: ونصف آخر.

وروى من طريق العَوْفي، عن ابن عباس(١٣) في قوله: ﴿**وما يعمر من معمَّر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك [على الله يسير**﴾، يقول: ليس أحد قضيت له طول عُمُر وحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك][٣] له، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزاد عليه، وليس أحد قَضَيتُ له أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له، فذلك قوله: ﴿**ولا ينقص من عمره إلا في كتاب، إن ذلك على الله يسير**﴾، يقول: كل ذلك في كتاب عنده. وهكذا قال الضحاك بن مزاحم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: ﴿**ولا ينقص من عمره إلا في كتاب**﴾، قال: ما لَفَظت الأرحام من الأولاد من غير تمام. وقال عبد الرحمن في تفسيرها: ألا ترى الناس، يعيش الإنسان مائة سنة، وآخر يموت حين يولد، فهذا هذا. وقال قتادة: والذي ينقص من عمره: فالذي يموت قبل ستين سنة. وقال مجاهد: ﴿**وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب**﴾، أي: في بطن أمه يكتب له ذلك، لم يخلق الخلق على عمر واحد، بل[٤] لهذا عمر، ولهذا عمر هو أنقص من عمره، وكل ذلك مكتوب لصاحبه، بالغ ما بلغ.

(١٣) - تفسير الطبري (٢٢/١٢٢).

[١] - ما بين المعكوفتين في ز: «عائد الضمير». [٢] - في ز: «أن».

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من: ز.

[٤] - سقط من: ز.

وقال بعضهم: بل معناه: ﴿وما يعمر من معمر﴾، أي: ما يكتب من الأجل ﴿ولا[١] ينقص من عمره﴾، وهو ذهابه قليلًا قليلًا، الجميع معلوم عند الله سنة بعد سنة، وشهرًا بعد شهر، وجمعة بعد جمعة، ويومًا بعد يوم، وساعة بعد ساعة، الجميع مكتوب عند الله في كتاب.

نقله ابن جرير عن أبي مالك (١٤). وإليه ذهب السدي، وعطاء الخراساني. واختار ابن جرير الأول، وهو كما قال.

وقال النسائي عند تفسير هذه الآية الكريمة: حدثنا أحمد بن يحيى بن أبي زيد بن سليمان، سمعت ابن وهب، يقول: حدثني يونس، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **«من سره أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أجله فليصل رحمه»**.

وقد رواه البخاري ومسلم وأبو داود، من حديث يونس بن يزيد الأيلي به(١٥).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين[٢]، حدثنا الوليد بن عبد الملك بن عبيد الله أبو مسرح، حدثنا [عثمان بن عطاء][٣]، عن مسلمة[٤] بن عبد الله، عن عمه أبي مَشْجَعَةَ ابن ربعي، عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: ذكرنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: **«إن الله لا يؤخر نفسًا إذا جاء أجلها، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد، فيدعون له من بعده، فيلحقه دعاؤهم في قبره، فذلك زيادة العمر»**(١٦).

وقوله: ﴿إن ذلك على الله يسير﴾، أي: سهل عليه يسير، لديه علمه بذلك وبتفصيله

(١٤) - تفسير الطبري (٢٢/١٢٣).

(١٥) - رواه النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٤٢٩)، والبخاري في البيوع برقم (٢٠٦٧)، ومسلم في البر والصلة والآداب برقم (٢٥٥٧)، وأبو داود برقم (١٦٩٣).

(١٦) - رواه العقيلي في الضعفاء (٢/١٣٤) في ترجمة سليمان بن عطاء، وقال: لا يتابع عليه بهذا اللفظ، وقد رُوي بمتن هذا الإسناد بلفظ: **«الولد الصالح يتركه الرجل فيدعو له فيلحقه دعاؤه»** من طريق صالح الإسناد، والكلام الأول في الحديث ليس بمحفوظ. ورواه كذلك ابن عدي (٣/١١٣٣) وقال: ولسليمان ابن عطاء عن مسلمة، عن عمه أبي مشجعة، عن أبي الدرداء وغيره، غير ما ذكرت من الحديث، وفي بعض أحاديثه وليس بالكثير مقدار ما يرويه بعض الإنكار كما ذكره البخاري. وقال البخاري: سليمان بن عطاء في حديثه بعض مناكير.

[١] - في ز: «ما». [٢] - بعده في خ، ز: «بن الوليد».

[٣] - عند ابن عدي، والعقيلي: سليمان بن عطاء. [٤] - في ز: «سلمة».

جميع مخلوقاته، فإن علمه شامل لجميع ذلك لا يخفى [عليه منه] شيء.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى منبها على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة: و[١]خلق البحرين العذب الزلال، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس، من كبار وصغار، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، والعمران والبراري والقفار، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك، ﴿**وهذا ملح أجاج**﴾، وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار، وإنما تكون مالحة زعاقًا مُرَّة، ولهذا قال: ﴿**وهذا ملح أجاج**﴾، أي: مر.

ثم قال: ﴿**ومن كلٍّ تأكلون لحمًا طريًّا**﴾، يعنى السمك، ﴿**وتستخرجون حلية تلبسونها**﴾، كما قال تعالى: ﴿**يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان * فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾.

وقوله: ﴿**وترى الفلك [فيه مواخر]**[٢]﴾، أي: تمخره وتشقه بحيزومها، وهو مقدمها المُسنَّم الذي يشبه جؤجؤ الطير - وهو: صدره.

وقال مجاهد: تمخر الريح السفن، ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام.

وقوله: ﴿**لتبتغوا من فضله**﴾، أي: بأسفاركم بالتجارة، من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم ﴿**ولعلكم تشكرون**﴾، أي: تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم، وهو البحر، تتصرفون فيه كيف شئتم، وتذهبون أين أردتم، و[٣]لا يمتنع عليكم شيء منه، بل بقدرته قد سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض، الجميع من فضله ومن رحمته.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا

[١] - سقط من: ز.

[٢] - ما بين المعكوفتين في ز: «مواخر فيه». [٣] - سقط من: ز.

﴿دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ١٤﴾

وهذا أيضًا من قدرته التامة وسلطانه العظيم، في تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه، ويأخذ من طول هذا فيزيده على قصر هذا فيعتدلان. ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفًا وشتاء، ﴿**وسخر الشمس والقمر**﴾، أي: والنجوم السيارات[١]، والثوابت الثاقبات[٢] بأضوائهن أجرام السماوات، الجميع يسيرون بمقدار معين، وعلى منهاج مقنن محرر، تقديرًا من عزيز عليم.

﴿**[كل يجري لأجل][٣] مسمى**﴾، أي: إلى يوم القيامة.

﴿**ذلكم الله ربكم**﴾ أي: الذي فعل هذا هو الرب العظيم، الذي لا إله غيره، ﴿**والذين تدعون من دونه**﴾، أي: من الأنداد والأصنام التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين، ﴿**ما يملكون من قطمير**﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، وعطية[٤] العوفي، والحسن، وقتادة، وغيرهم: القطمير: هو اللفافة التي تكون على نواة التمرة. أي: لا يملكون من السماوات والأرض شيئًا، ولا بمقدار هذا القطمير.

ثم قال: ﴿**إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم**﴾، يعني: الآلهة التي تدعونها من دون الله لا يسمعون دعاءكم، لأنها جماد لا أرواح فيها. ﴿**ولو سمعوا ما استجابوا لكم**﴾، أي: لا يقدرون على ما تطلبون منها، ﴿**ويوم القيامة يكفرون بشرككم**﴾، أي: يتبرءون منكم، كما قال تعالى: ﴿**ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾، وقال: ﴿**واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزًا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًا**﴾.

وقوله: ﴿**ولا ينبئك مثل خبير**﴾، أي: ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه؛ مثلُ خبير بها. قال قتادة: يعني نفسه تبارك وتعالى، فإنه أخبر بالواقع لا محالة.

---

[١] - في ز: «السائرات».
[٢] - في ز: «الباقيات».
[٣] - ما بين المعكوفتين في ز: «إلى أجل».
[٤] - سقط من: خ، ز.

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

يخبر تعالى بغنائه عما سواه، وبافتقار المخلوقات كلها إليه، وتذللها بين يديه، فقال: ﴿**يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله**﴾، أي: هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو الغني عنهم بالذات، ولهذا قال: ﴿**والله**[١] **هو الغني الحميد**﴾، أي: هو المتفرد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله، ويقدره ويشرعه.

وقوله: ﴿**إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد**﴾، أي: لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع؛ ولهذا قال: ﴿**وما ذلك على الله بعزيز**﴾.

وقوله: ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾، أي: يوم القيامة، ﴿**وإن تدع مثقلة إلى حملها**﴾، أي: وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تُساعَدَ على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه، ﴿**لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى**﴾، أي: ولو كان قريبًا إليها، حتى ولو كان أباها أو ابنها، كل مشغول بنفسه وحاله.

قال عكرمة في قوله: ﴿**وإن تدع مثقلة إلى حملها**﴾ الآية، قال: هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة، فيقول: يارب، سل هذا: لم كان يغلق بابه دوني؟ وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة، فيقول له: يا مؤمن، إن لي عندك يدًا، قد عرفت كيف كنت لك في الدنيا، وقد احتجت إليك اليوم. فلا يزال المؤمن يشفع له إلى ربه - عز وجل - حتى يرده إلى [منزل دون][٢] منزله، وهو في النار. وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة، فيقول: يا بني، أيّ والد كنتُ لك؟ فيثني خيرًا، فيقول له: يا بني؛ إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى. فيقول له ولده: يا أبت، ما أيسر ما طلبت! ولكنني أتخوف مثل ما تتخوف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئًا. ثم يتعلق بزوجته فيقول: يا فلانة - أو: يا هذه - أي زوج كنت لك؟ فتثني خيرًا، فيقول لها: إني أطلب إليك حسنة واحدة تَهَبينَها[٣] لي، لعلي أنجو بها مما

---

[١] - سقط من: ز.
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من: ز.
[٣] - في ز: «تهبيها».

ترين. قال: فتقول: ما أيسر ما طلبت! ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئًا، إني أتخوف مثل الذي تتخوف، يقول اللَّه : ﴿**وإن تدع مثقلة**﴾ الآية، ويقول اللَّه : ﴿**لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا**﴾، ويقول تعالى: ﴿**يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه**﴾.

رواه ابن أبي حاتم رحمه اللَّه ، عن أبي عبد اللَّه الطهراني، عن حفص بن عمر، عن الحكم ابن أبان، عن عكرمة به.

ثم قال: ﴿**إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة**﴾، أي: إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهى، الخائفون من ربهم، الفاعلون ما أمرهم به، ﴿**ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه**﴾، أي: ومن عمل صالحًا فإنما يعود نفعه[١] على نفسه، ﴿**وإلى اللَّه المصير**﴾، أي: وإليه المرجع والمآب، وهو سريع الحساب، وسيجزي كل عامل بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى: كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة، كالأعمى والبصير لا يستويان، بل بينهما فرق وبون كثير، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات. وهذا مثل ضربه اللَّه للمؤمنين وهم الأحياء، وللكافرين[٢] وهم الأموات، كقوله تعالى: ﴿**أو من كان ميتًا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها**﴾، وقال تعالى: ﴿**مثل الفريقين كالأعمى والأصم و[البصير والسميع][٣] هل يستويان مثلاً**﴾ فالمؤمن سميع بصير في نور يمشي، على صراط

---

[١] - في ز: «بنفسه». [٢] - في ز: «الكافرين».

[٣] - ما بين المعكوفتين في ز: «السميع والبصير».

مستقيم في الدنيا والآخرة، حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى أصم، في ظلمات يمشي، لا خروج له منها، بل هو يتيه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة، حتى يفضي به ذلك إلى الحَرور والسموم والحميم، ﴿**وظل من يحموم. لا بارد ولا كريم**﴾.

وقوله: ﴿**إن الله يسمع من يشاء**﴾، أي: يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها، ﴿**وما أنت بمسمع من في القبور**﴾، أي: كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون الذين كُتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم، ولا تستطيع هدايتهم.

﴿**إن أنت إلا نذير**﴾، أي: إنما عليك البلاغ والإنذار، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

﴿**إنا أرسلناك بالحق بشيرًا ونذيرًا**﴾ أي: بشيرًا للمؤمنين، ونذيرًا للكافرين، ﴿**وإن من أمة إلا خلا فيها نذير**﴾، أي: وما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله إليهم النذر، وأزاح عنهم العلل، كما قال تعالى: ﴿**إنما أنت منذر ولكل قوم هاد**﴾، وكما قال تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة**﴾ الآية، والآيات في هذا كثيرة.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿**وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم، جاءتهم رسلهم بالبينات**﴾، وهي: المعجزات الباهرات، والأدلة القاطعات، ﴿**وبالزبر**﴾، وهي الكتب، ﴿**وبالكتاب المنير**﴾، أي: الواضح البين. ﴿**ثم أخذت الذين كفروا**﴾، أي: ومع هذا كله كذَّب أولئك رسلهم فيما جاءوهم به، فأَخذتهم، أي بالعقاب والنكال، ﴿**فكيف كان نكير**﴾؟ أي: فكيف رأيت [ ][١] إنكاري عليهم [يعني عظيمًا شديدًا بليغًا].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى منبهًا على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد، وهو الماء الذي ينزله من السماء ويخرج به ثمرات مختلفًا ألوانها، من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض،

[١] - ما بين المعكوفتين في ز: «كان».

إلى غير ذلك من ألوان الثمار، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها، كما قال تعالى في الآية الأخرى: **﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع[١] ونخيل صنوان وغير صنوان يُسقَى[٢] بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾**.

وقوله تبارك وتعالى: **﴿ومن الجبال جُدَد بيض وحمر مختلف ألوانها﴾**، أي: وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان، كما هو المشاهد أيضًا من بيض وحمر، وفي بعضها طرائق - وهي: الجُدَد، جمع جُدّة - مختلفة الألوان أيضًا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الجُدَد: الطرائق. وكذا قال أبو مالك، والحسن، وقتادة، والسدي. ومنها **﴿غرابيب سود﴾**، قال عكرمة: الغرابيب: الجبال الطوال السود. وكذا قال أبو مالك، وعطاء الخراساني، وقتادة. وقال ابن جرير: والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد، قالوا[٣]: أسود غربيب. ولهذا قال بعض المفسرين في هذه الآية: هذا من المقدم والمؤخر في قوله تعالى: **﴿وغرابيب سود﴾**، أي: سود غرابيب. وفيما قاله نظر.

وقوله تعالى: **﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك﴾**، أي: وكذلك الحيوانات من الأناسي والدواب - وهو: كل ما دب على قوائم - والأنعام: من باب عطف الخاص على العام. كذلك هي مختلفة أيضًا، فالناس منهم بربر وحُبُوش وطُمَاطم في غاية السواد، وصقالبة وروم في غاية البياض، والعرب بين ذلك، والهنود دون ذلك؛ ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: **﴿واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين﴾**. وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان، حتى في الجنس الواحد، [بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان، بل الحيوان الواحد][٤] يكون أبلق، فيه من هذا اللون وهذا اللون، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده(١٧): حدثنا الفضل بن سهل، حدثنا عبد الله بن عمر بن أبان بن صالح، حدثنا زياد بن عبد الله، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس؛ قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أيصبغ ربك؟ فقال: **«نعم صبغًا لا يُنفَض، أحمر وأصفر وأبيض»**. ورُوي مرسلًا وموقوفًا، والله أعلم.

ولهذا قال تعالى بعد هذا: **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾**، أي: إنما يخشاه حق

(١٧) - مختصر زوائد البزار برقم (١١٨٤) و« كشف الأستار » (٢٩٤٤) وقال البزار: لا نعلم أحدًا أسنده عن ابن عباس؛ إلا زياد، وقال غيره عن عطاء، عن سعيد بن جبير مرسلاً. وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ١٢٨): « وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط ».

[١] - في ز: « زروع ».
[٢] - في ز: « تُسقَى ».
[٣] - في ز: « قال ».
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من: خ، ز.

خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم [القدير العليم][١] الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى - كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**إنما يخشى اللّه من عباده العلماء**﴾، قال: الذين يعلمون أن اللّه على كل شيء قدير.

وقال ابن لَهِيعَة، عن ابن[٢] أبي عمرة، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ قال: العالم بالرحمن من لم يشرك به شيئًا، وأحل حلاله، وحرم حرامه، وحفظ وصيته، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسبه بعمله. وقال سعيد بن جبير: الخشية هي[٣] التي تحول بينك وبين معصية اللّه عز وجل. وقال الحسن البصري: الإيمان مَنْ خشي الرحمن بالغيب، ورغب فيما رغب اللّه فيه، وزهد فيما سَخط اللّه فيه، ثم تلا الحسن: ﴿**إنما يخشى اللّه من عباده العلماء إن اللّه عزيز غفور**﴾. وعن ابن مسعود رضي اللّه عنه أنه قال: ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية. وقال أحمد بن صالح المصري، عن ابن وهب، عن مالك؛ قال: إن [العلم ليس][٤] بكثرة الرواية، و[٥]إنما العلم نور يجعله اللّه في القلب.

قال أحمد بن صالح المصري: معناه أن الخشية لا تدرك بكثرة الرواية، وأما العلم الذي فرض[٦] اللّه عز وجل أن يتبع فإنما هو الكتاب والسنة، وما جاء عن الصحابة -رضي اللّه عنهم- ومن بعدهم من أئمة المسلمين- فهذا لا يدرك إلا بالرواية ويكون تأويل قوله: (نور) يريد به فهم العلم، ومعرفة معانيه.

وقال سفيان الثوري، عن أبي حيان، عن رجل؛ قال: كان يقال: العلماء ثلاثة: عالم باللّه، عالم بأمر اللّه. وعالم باللّه، ليس بعالم بأمر اللّه. وعالم بأمر اللّه، ليس بعالم[٧] باللّه. فالعالم باللّه وبأمر اللّه : الذي يخشى اللّه ويعلم الحدود والفرائض. والعالم باللّه ليس بعالم[٨] بأمر اللّه : الذي يخشى اللّه ولا يعلم الحدود ولا الفرائض. والعالم بأمر اللّه ليس بعالم باللّه : الذي يعلم الحدود والفرائض، ولا يخشى اللّه عز وجل.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا

---

[١] - في ز: «العليم القدير».
[٢] - سقط من: ز.
[٣] - سقط من: ز.
[٤] - ما بين المعكوفتين في ز: «ليس العلم».
[٥] - سقط من: ز.
[٦] - في ز: «فرضه».
[٧] - في ز: «عالم».
[٨] - في ز: «عالم».

﴿وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه، من إقام[١] الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله في الأوقات المشروعة ليلًا ونهارًا، سرًّا وعلانية، ﴿**يرجون تجارة لن تبور**﴾، أي: يرجون ثوابًا عند الله لابد من حصوله. كما قدمنا في أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه: «**إن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة**». ولهذا قال تعالى: ﴿**ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله**﴾، أي: ليوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم، ﴿**إنه غفور**﴾، أي: لذنوبهم، ﴿**شكور**﴾ للقليل من أعمالهم.

قال قتادة: كان مُطَرِّف رحمه الله إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آية القراء.

قال الإمام أحمد(١٨) : حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حيوة، حدثنا سالم بن غيلان؛ أنه سمع دَرَّاجًا أبا السمح يحدث عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخُدْري - رضي الله عنه- أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ يقول: «**إن الله تعالى إذا رضي عن العبد أثنى عليه سَبْعَةَ أصناف من الخير لم يعمله، وإذا سخط على العبد أثنى عليه سَبْعَةَ**[٢] **أصناف من الشر لم يعمله**». غريب جدًّا.

﴿وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَٰبِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِۗ إِنَّ اللَّهَ﴾

(١٨) - **إسناده ضعيف لضعف رواية دراج أبي السمح عن أبي الهيثم**

وهو في المسند ١١٣٥٤ - (٣٨/٣) وأخرجه ابن الجوزى في «العلل المتناهية» (١٣٨٢) (٨٢٦/٢) من طريق عبد الله بن أحمد به. وأخرجه عبد بن حميد في «المنتخب» (٩٢٨). وأبو يعلى في مسنده (١٣٣١)، وابن حبان في صحيحه (٣٦٨) (٨٩/٢ - ٩٠)، وفي الموارد (٢٥١٥) (١٩٧/٨ -١٩٨)، وأبو نعيم في الحلية (٣٧٠/١). من طرق عن عبد الله بن يزيد أبي عبد الرحمن المقرئ به. إلا أن عند أبي يعلى وابن حبان «تسعة» بدلًا من «سبعة». وأخرجه البيهقي في «الزهد الكبير» (٨١٦)، وأبو نعيم في «أخبار أصفهان» (١٩٦/٢)، ورواه أحمد (١١٣٧٩) (٤٠/٣). من طريق أبي عاصم عن حيوة به. و(١١٧٤٥) (٧٦/٣) من طريق حسن بن موسى، ثنا ابن لهيعة، عن دراج به. وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح، قال أحمد: أحاديث دراج مناكير. وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٧٥ - ٢٧٦) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى إلا أنه قال: تسعة أصناف - تصحفت إلى أضعاف - ورجاله وثقوا على ضعف في بعضهم.

[١] - في ز: «إيقامهم». [٢] - في ز: «بسبعة».

بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾

يقول تعالى: ﴿**والذي أوحينا إليك**﴾، يا محمد من الكتاب، وهو القرآن ﴿**هو الحق مصدقًا لما بين يديه**﴾، أي من الكتب المتقدمة يصدقها، كما شهدت له بالنبوة[١]، وأنه منزل من رب العالمين.

﴿**إن الله بعباده لخبير بصير**﴾، أي: هو خبير بهم، بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه، ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر، وفضل النبيين بعضهم على بعض، ورفع بعضهم درجات، وجعل منزلة محمد صلى الله عليه وسلم فوق جميعهم، صلوات الله عليهم أجمعين.

ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم، المصدق لما بين يديه من الكتب، الذين اصطفينا من عبادنا، وهم هذه الأمة، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع، فقال: ﴿**فمنهم ظالم لنفسه**﴾، وهو: المفرط[٢] في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات. ﴿**ومنهم مقتصد**﴾، وهو: المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات. ﴿**ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله**﴾، وهو: الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿**ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا**﴾، قال: هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ورثهم الله كل كتاب أنزله، فظالمهم يُغفَر له، ومقتصدهم يحاسب حسابًا يسيرًا، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب.

وقال أبو القاسم الطبراني(١٩) : حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح، وعبد الرحمن بن معاوية العُتْبي قالا: حدثنا أبو الطاهر بن السرح، حدثنا موسى بن عبد الرحمن الصنعاني، حدثني ابن

(١٩) - المعجم الكبير (١١/١٨٩) وأورده الهيثمي (١٠/٣٧٨) وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط باختصار عنه وفيه موسى بن عبد الرحمن الصنعاني وهو وضّاع.

[١] - في م: «بالتنويه». [٢] - في ز: «مفرط».

جريج، عن عطاء، عن ابن عباس، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ أنه قال ذات يوم: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**». قال ابن عباس: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم.

وهكذا رُوي عن غير واحد من السلف: أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين، على ما فيه من عوج وتقصير. وقال آخرون: بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة، ولا من المصطفين الوارثين الكتاب.

قال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق، حدثنا ابن عيينة، عن عمرو، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿**فمنهم ظالم لنفسه**﴾، قال: هو الكافر. وكذا رَوَى عنه عكرمة، وبه قال عكرمة أيضًا فيما رواه ابن جرير.

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: ﴿**فمنهم ظالم لنفسه**﴾، قال: هم أصحاب المشأمة. وقال مالك عن زيد بن أسلم، والحسن، وقتادة: هو المنافق. ثم قد قال ابن عباس، والحسن،وقتادة: وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام[١] الثلاثة المذكورة في أول «**سورة الواقعة**» وآخرها.

والصحيح أن الظالم لنفسه من[٢] هذه الأمة. وهذا[٣] اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، من طرق يشد بعضها بعضًا، ونحن نورد منها ما تيسر:

(الحديث الأول): قال الإمام أحمد(٢٠): حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الوليد ابن العيزار أنه سمع رجلًا من ثقيف يُحَدِّث عن رجل من كنانة، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: في هذه الآية: «﴿**ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله**﴾، قال: هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة، وكلهم في الجنة».

(٢٠) - المسند ١١٧٦١ - (٧٨/٣)، وأخرجه الطيالسي في «مسنده» (٢٢٣٦) حدثنا شعبة به. ومن طريقه البيهقي في «البعث» (٥٧). وأخرجه الترمذي، في تفسير القرآن، باب: «ومن سورة الملائكة» (٣٢٢٣). وابن جرير في «تفسيره» (١٣٧/٢٢). من طريقين عن محمد بن جعفر به. وقال الترمذي: حديث غريب حسن، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

[١] - في ز: «في الأقسام».
[٢] - في ز: «في».
[٣] - في ز: «هو».

هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي إسناده من لم يسم. وقد رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث شعبة، به نحوه.

ومعنى قوله بمنزلة واحدة أي: في أنهم من هذه الأمة، وأنهم من أهل الجنة، وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة.

(الحديث الثاني) قال الإمام أحمد(٢١) : حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا أنس بن عياض الليثي أبو ضمرة، عن موسى بن عقبة، عن علي[١] بن عبد الله الأزدي، عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال[٢]: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ يقول: قال الله : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله** ﴾، فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حسابًا يسيرًا، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون[٣] في طول المحشر، ثم هم الذين تلافاهم برحمته[٤]، فهم الذين يقولون: ﴿ **الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب** ﴾.

(طريق أخرى) قال ابن أبي حاتم: حدثنا أسيد بن عاصم، حدثنا الحسين بن حفص، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن رجل، عن أبي ثابت، عن أبي الدرداء، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ يقول: ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه** ﴾، قال: فأما الظالم لنفسه فيحبس حتى يصيبه الهم والحزن، ثم يدخل الجنة».

ورواه ابن جرير(٢٢) من حديث سفيان الثوري، عن الأعمش؛ قال: ذكر أبو ثابت أنه دخل المسجد، فجلس إلى جنب أبي الدرداء، فقال: اللهم، آنس[٥] وحشتي، وارحم غربتي، ويسر لي جليسًا صالحًا. قال أبو الدرداء: لئن كنت صادقًا لأنا أسعد بك[٦] منك، سأحدثك حديثًا

---

(٢١) - المسند ٢١٨١٨ - (١٩٨/٥). وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ٩٥) وقال: «رواه أحمد بأسانيد، رجال أحدها رجال الصحيح، وهذا إن كان على بن عبد الله الأزدى سمع من أبى الدرداء فإنه تابعى».

(٢٢) - تفسير الطبري (١٣٧/٢٢)، ورواه أحمد (٢١٧٨٧) (١٩٤/٥) فقال: ثنا وكيع، ثنا سفيان، عن الأعمش، عن ثابت - أو عن أبي ثابت - أن رجلاً دخل مسجد دمشق فقال: اللّهم آنس وحشتي، وارحم غربتي، وارزقني جليسًا صالحًا؛ فسمعه أبو الدرداء ..... » ورواه الحاكم في المستدرك (٤٢٦/٢) =

---

[١] - سقط من: م.
[٢] - سقط من: ز.
[٣] - في خ، ز: «يحاسبون».
[٤] - في ز: «رحمته».
[٥] - في ز: «أنّس».
[٦] - في خ، ز: «به».

سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أحدث به منذ سمعته منه، ذكر هذه الآية: **﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات﴾**: «**فأما السابق بالخيرات فيدخلها بغير حساب، وأما المقتصد فيحاسب حسابًا يسيرًا. وأما الظالم لنفسه فيصيبه في ذلك المكان من الغم والحزن، وذلك قوله: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾**».

(**الحديث الثالث**): قال الحافظ أبو القاسم الطبراني(٢٣): حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس، حدثنا [ابن][١] مسعود، أخبرنا سهل بن عبد ربه الرازي، حدثنا عمرو[٢] بن أبي قيس، عن ابن أبي ليلى، عن أخيه، [عن][٣] عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أسامة بن زيد: **﴿فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات﴾**... الآية، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**كلهم من هذه الأمة**».

(**الحديث الرابع**): قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عَزيز[٤]، حدثنا سلامة، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن عوف بن مالك، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ أنه قال: «**أمتي ثلاثة أثلاث: فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وثلث يحاسبون حسابًا يسيرًا ثم يدخلون الجنة، وثلث يُمَحَّصون ويكشفون، ثم تأتي الملائكة فيقولون: وجدناهم يقولون: لا إله إلا الله وحده. يقول الله عز وجل: صدقوا لا إله إلا أنا، أدخلوهم الجنة بقولهم: لا إله إلا الله وحده واحملوا خطاياهم على أهل النار**»، وهي التي قال الله تعالى: **﴿وليحملن أثقالهم وأثقالًا مع أثقالهم﴾**، وتصديقها في التي فيها ذكر الملائكة، قال الله تعالى: **﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾**، فجعلهم ثلاثة أنواع، وهم أصناف كلهم، فمنهم ظالم لنفسه، فهذا الذي يكشف ويمحص. غريب جدًّا(٢٤).

= ومن طريقه البيهقي في البعث برقم (٦٢) من طريق الأعمش، به. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ٩٥، ٩٦) وقال: «رواه الطبراني وأحمد باختصار إلا أنه قال: عن الأعمش، عن ثابت أو أبي ثابت: أن رجلًا دخل المسجد مسجد دمشق .... فذكر الحديث باختصار، وثابت بن عبيد ومن قبله من رجال الصحيح، وفي إسناد الطبراني رجل غير مسمى».

(٢٣) - المعجم الكبير (١/١٦٧)، ورواه البيهقي في البعث (٦٠) من طريق محمد بن سعيد، عن عمرو بن قيس، عن ابن أبي ليلى، عن أخيه عيسى، عن أبيه، عن أسامة بن زيد، به. ورواه أيضًا برقم (٥٩) من طريق حصين بن نمير، عن ابن أبي ليلى، عن أخيه، عن أبيه، عن أسامة بن زيد، بنحوه. وأورده الهيثمي (٧/٩٦) وقال: رواه الطبراني وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وهو سيئ الحفظ. ورواه الخطيب في تاريخه (١٢/٣٧١)، وعزاه صاحب الكنز (٢/٤٨٦) إلى سعيد بن منصور.

(٢٤) - رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٨/٨٠) من طريق محمد بن عزيز، به. وقال الهيثمي في المجمع =

[١] - في الطبراني: أبو.
[٢] - سقط من الطبراني.
[٣] - في خ: «عمر».
[٤] - في ز: «عزير».

(**أثر عن ابن مسعود**) : قال ابن جرير : حدثني ابن حميد ، حدثنا الحكم بن بشير ، عن عمرو بن قيس ، عن عبد اللَّه بن عيسي ، عن يزيد بن الحارث ، عن شقيق[١] أبي وائل ، عن عبد اللَّه بن مسعود ؛ أنه قال : هذه [الأمة][٢] ثلاثة أثلاث يوم القيامة ، ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حسابًا يسيرًا ، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول : ما هؤلاء - وهو أعلم تبارك وتعالى - فتقول الملائكة : هؤلاء جاءوا بذنوب عظام ، إلا أنهم لم يشركوا بك . فيقول الرب عز وجل : أدخلوا هؤلاء في سعة[٣] رحمتي . وتلا عبد اللَّه هذه الآية : **﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾** ... الآية (٢٥) .

(**أثر آخر**) : قال أبو داود الطيالسي (٢٦) ، عن الصلت بن دينار [أبو شُعيب][٤] ، عن عقبة بن صهبان الهنائي ؛ قال : سألت عائشة رضي اللَّه عنها عن قول اللَّه : **﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه﴾** ... الآية، فقالت لي: يا بني، هؤلاء في الجنة ، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، شهد له رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بالحياة والرزق . وأما المقتصد فمن اتبع[٥] أثره من أصحابه حتى لحق به . وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم . قال : فجعلت نفسها معنا .

وهذا منها رضي اللَّه عنها ، من باب الهَضْم والتواضع ، وإلا فهي من أكبر السابقين بالخيرات ؛ لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

وقال عبد اللَّه بن المبارك رحمه اللَّه : قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضي اللَّه عنه ، في قوله تعالى : **﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾** ، قال : هي لأهل بدونا ، ومقتصدنا أهل حضرنا ، وسابقنا أهل الجهاد . رواه ابن أبي حاتم .

= (٩٦/٧) : « فيه سلامة بن روح وثقه ابن حبان ، وضعفه جماعة ، وبقية رجاله ثقات » .

(٢٥) - تفسير الطبري (١٣٤/٢٢) .

(٢٦) - **ضعيف جدًا** ، رواه الطيالسي برقم (١٤٨٩) ، ورواه الطبراني في الأوسط ٦٠٩٤ - (١٦٧/٦) ، والحاكم (٤٢٦/٢ - ٤٢٧) وجاء عنده الصلت بن عبد الرحمن ، وقال الطبراني : لم يرو هذا الحديث عن عقبة بن صهبان إلا أبو شعيب الصلت بن دينار ، تفرد به معتمر ، وقال الحاكم : صحيح ، وتعقبه الذهبي بقوله : قلت : فيه الصلت بن عبد الرحمن قال النسائي : ليس بثقة ، وقال أحمد : ليس بالقوي . وزاد نسبته السيوطي في الدر إلى عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه . وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٦/٧ - ٩٧) وقال : رواه الطبراني ، وفيه الصلت بن دينار وهو متروك .

---

[١] - بعده في ز : « عن » وهو خطأ .

[٢] - ما بين المعكوفتين في ز : « الآية » . [٣] - في ز : « جنة » .

[٤] - ما بين المعكوفتين في خ : « بن الأشعث » . [٥] - في ز : « تبع » .

وقال عوف الأعرابي: حدثنا عبد الله بن الحارث بن نوفل، قال: حدثنا كعب الأحبار؛ قال: إن الظالم لنفسه من هذه الأمة، والمقتصد والسابق بالخيرات كلهم في الجنة، ألم تر أن الله تعالى قال[١]: ﴿**ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله، ذلك هو الفضل الكبير. جنات عدن يدخلونها**﴾... إلى قوله: ﴿**والذين كفروا لهم نار جهنم**﴾، قال: فهؤلاء أهل النار.

رواه ابن جرير من طرق، عن عوف به(٢٧). ثم قال:

حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، أخبرنا حميد، عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث، عن أبيه أن ابن عباس سأل كعبًا عن قوله: ﴿**ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا**﴾، إلى قوله: ﴿**بإذن الله**﴾، فقال[٢]: تماسَّت مناكبهم ورَبِّ كعب، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم(٢٨).

ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا الحكم بن بشير، حدثنا عمرو[٣] بن قيس، عن أبي إسحاق السبيعي في هذه الآية: ﴿**ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا**﴾... الآية، قال أبو إسحاق: أما ما سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج(٢٩).

ثم قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا الحكم، حدثنا عمرو، عن[٤] محمد بن الحنفية؛ قال: إنها أمة مرحومة، الظالم مغفور له، والمقتصد في الجنان عند الله، والسابق بالخيرات في الدرجات عند الله(٣٠).

ورواه الثوري، عن إسماعيل بن سميع، عن رجل، عن محمد بن الحنفية بنحوه.

وقال أبو الجارود: سألت محمد بن علي - يعنى الباقر - عن قوله: ﴿**فمنهم ظالم لنفسه**﴾، فقال: هو الذي خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا.

فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام. وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه

---

(٢٧) - ابن جرير (٢٢/١٣٤).
(٢٨) - ابن جرير (٢٢/١٣٤).
(٢٩) - ابن جرير (٢٢/١٣٤).
(٣٠) - ابن جرير (٢٢/١٣٥).

---

[١] - سقط من: ز.
[٢] - في ت: «قال».
[٣] - في خ، ز: «عمر».
[٤] - في خ، ز: «بن».

الرحمة، فإنهم كما قال الإمام أحمد رحمه الله (٣١) :

حدثنا محمد بن يزيد، حدثنا عاصم بن رجاء بن حيوة، عن قيس بن كثير؛ قال: قدم رجل من المدينة إلى أبي الدرداء وهو بدمشق؛ فقال: ما أقدمك أيْ أخي؟ قال: حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال أما قدمت لتجارة؟ قال: لا. قال: أما قدمت لحاجة؟ قال: لا؟ قال: أما قدمت إلا في طلب هذا الحديث؟ قال: نعم. قال: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**من سلك طريقًا يطلب فيه[١] علمًا، سلك الله به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإنه ليستغفر للعالم من في السماوات والأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا [دينارًا ولا درهمًا][٢]، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر**».

وأخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجة، من حديث كثير بن قيس - ومنهم من يقول: قيس ابن كثير - عن أبي الدرداء.

وقد ذكرنا طرقه واختلاف الرواة فيه في [شرح «كتاب][٣] **العلم**» من «**صحيح البخاري**»، ولله الحمد والمنة.

وقد تقدم في أول «**سورة طه**» حديث ثعلبة بن الحكم، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قال: «**يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء[٤]: إني لم أضع علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم، على ما كان منكم، ولا أبالي**» (٣٢).

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ

(٣١) - كثير بن قيس: قال ابن حجر: وقيل: قيس بن كثير، ضعيف. ووهم ابن قانع فأورده في الصحابة. والحديث رواه أحمد ٢١٨٠٦ - (١٩٦/٥)، وأبو داود في كتاب العلم، باب: الحث على طلب العلم (٣ / ٣١٦ / رقم: ٣٦٤١). والترمذي في كتاب العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه في العبادة (٥ / ٤٨، ٤٩ / رقم: ٢٦٨٢). وابن ماجة في كتاب المقدمة، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم (١ / ٨١/ رقم: ٢٢٣). كلهم من طريق كثير بن قيس به.

(٣٢) - تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية (٢) من سورة طه.

[١] - سقط من: ز.

[٢] - ما بين المعكوفتين في ز: «درهمًا ولا دينارًا».

[٣] - ما بين المعكوفتين في ز: «كتاب شرح».

[٤] - سقط من: ز.

شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾

يخبر تعالى أن مأوى هؤلاء المصطفين من عباده، الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين مأواهم يوم القيامة ﴿**جنات عدن**﴾، أي: جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على ربهم عز وجل: ﴿**يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا**﴾، كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ أنه قال: «**تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء**»[٣٣].

﴿**ولباسهم فيها حرير**﴾، ولهذا كان محظورًا عليهم في الدنيا، فأباحه الله لهم في الدار الآخرة، وثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة**»[٣٤]. وقال: «**هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة**».

وقال ابن أبي حاتم[٣٥]: حدثنا عمرو بن سواد السرحي، أخبرنا ابن وهب، عن ابن لهيعة، عن عقيل بن خالد، عن الحسن، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن أبا أمامة حدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم، وذكر حلي [أهل الجنة][١] فقال: «**مسورون بالذهب والفضة، مكللة بالدر، وعليهم أكاليل من دُرٍّ وياقوت متواصلة، وعليهم تاج كتاج الملوك، شباب جُرْدٌ مُرْدٌ مكحّلون**».

﴿**وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن**﴾، وهو الخوف من المحذور، أزاحه عنا، وأراحنا مما كنا نتخوفه، ونحذره من هموم الدنيا والآخرة.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في منشرهم، وكأني بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رءوسهم ويقولون: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾**». رواه ابن أبي حاتم من حديثه[٣٦].

(٣٣) - صحيح مسلم برقم (٢٥٠).

(٣٤) - متفق عليه من حديث أنس، رواه البخاري في كتاب اللباس (٥٨٣٢)، ومسلم في اللباس والزينة (٢٠٧٣)، وورواه البخاري من حديث ابن الزبير وعمر (٥٨٣٣، ٥٨٣٤)، ومسلم منحديث ابي أمامة (٢٠٧٤).

(٣٥) - رواه أبو نعيم في صفة الجنة برقم (٢٦٧) من طريق على بن الحسن، عن عمرو بن سواد، به. والحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة.

(٣٦) - عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ضعفه ابن معين، وابن المديني، والنسائي، والحديث رواه =

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من: ز.

وقال الطبراني(٣٧) : حدثنا جعفر بن محمد الفريابي، حدثنا موسى بن يحيى المروزي، حدثنا سليمان بن عبد الله بن وهب الكوفي، عن عبد العزيز بن حكيم، عن ابن عمر؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت ولا في قبورهم ولا في النشور**. و[١] **كأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رءوسهم من التراب، يقولون: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾** ».

قال ابن عباس، وغيره: غَفَر لهم الكثير من السيئات، وشكر لهم اليسيرَ من الحسنات.

﴿**الذي أحلنا دار المقامة من فضله**﴾، يقولون: الذي أعطانا هذه المنزلة، وهذا المقام من فضله ومَنّه ورحمته، لم تكن أعمالنا تساوي ذلك. كما ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قال: « **لن يُدخلَ أحدًا منكم عمله الجنة** ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: « **ولا أنا، إلا أن يتغمّدني الله برحمة منه وفضل** »(٣٨).

﴿**لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب**﴾، أي: لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء.

والنصَب واللغوب: كل منهما يستعمل في التعب. وكأن المراد بنفي هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم، والله أعلم. فمن ذلك أنهم كانوا يُدْئِبُون أنفسهم في العبادة في الدنيا، فسقط عنهم التكليف بدخولها، وصاروا في راحة دائمة مستمرة. قال الله تعالى: ﴿**كلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيام الخالية**﴾.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا

= الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٤٥٣١) « مجمع البحرين »، وابن عدي في الكامل (١٥٨١/٤) من طريق يحيى الحماني، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، به. وقال المنذري في الترغيب (٤١٦/٢) : « في متنه نكارة ».

(٣٧) - وأورده الهيثمي في المجمع (٣٣٣/١٠) وقال: « رواه الطبراني، وفيه جماعة لم أعرفهم ». ورواه ابن عدي في الكامل (٤٩٨/٢) من حديث الحسن بن قزعة، عن بهلول بن عبيد الكندي، عن سلمة بن كهيل عن ابن عمر، والبيهقي في البعث برقم (٨٢) من طريق ابن عدي، وقال ابن عدي: ليس بذاك، ولبهلول هذا غير ما ذكرت من الحديث قليل، وأحاديثه عمن روى عنه فيه نظر، وحديثه عن أبي إسحاق أنكر منه عن غيره، وإنما ذكرته لأبين أن أحاديثه مما يتابعه عليها الثقات؛ إذ لم أر لمن تكلم في الرجال فيه كلامًا. وقال البيهقي: « هذا مرسل عن سلمة بن كهيل وابن عمر، وبهلول تفرد به، وليس بالقوي ».

(٣٨) - متفق عليه من حديث أبي هريرة، رواه البخاري في كتاب المرضى برقم (٥٦٧٣)، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم برقم (٢٨١٦).

[١] - سقط من: ز.

﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء، شرع في بيان مآل الأشقياء، فقال: **﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضي عليهم فيموتوا﴾**، كما قال تعالى: **﴿لا يموت فيها ولا يحيىٰ﴾**. وثبت في صحيح مسلم(٣٩) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «**أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولايحيون**». قال الله تعالى: **﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون﴾**. فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك - قال الله تعالى: **﴿لا يقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها﴾**، كما قال تعالى: **﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون * لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون﴾**، وقال: **﴿كلما خبت زدناهم سعيرًا﴾**، **﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابًا﴾**.

ثم قال: **﴿كذلك نجزي كل كفور﴾**، أي: هذا جزاء كل من كفر بربه، وكذّب بالحق.

وقوله: **﴿وهم يصطرخون فيها﴾**، أي: ينادون فيها، يجأرون إلى الله عز وجل بأصواتهم: **﴿ربنا، أخرجنا نعمل صالحًا غير الذي كنا نعمل﴾**، أي: يسألون الرجعة إلى الدنيا، ليعملوا غير عملهم الأول، وقد علم الرب جل جلاله أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا، لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون. فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم، كما قال تعالى مخبرًا عنهم في قولهم: **﴿فهل إلى خروج[١] من سبيل * ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا﴾**. أي: لا يجيبكم إلى ذلك؛ لأنكم كنتم[٢] كذلك، ولو رددتم لعدتم إلى ما نهيتم عنه. ولهذا قال هاهنا: **﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾**، أي: أو ما عشتم في الدنيا أعمارًا لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم؟.

وقد اختلف المفسرون في مقدار العمر المراد هاهنا، فرُوي عن علي بن الحسين زين العابدين؛ أنه قال[٣] : مقدار سبع عشرة سنة.

وقال قتادة: اعلموا أن طول العمر [حجة، فنعوذ بالله أن نُعَيَّر بطول العمر][٤] ، قد نزلت هذه الآية: **﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾**، وإن فيهم لابن ثماني عشرة سنة[٥] .

---

(٣٩) - مسلم في كتاب الإيمان برقم (١٨٥).

---

[١] - في ز: «مرد».

[٢] - سقط من: ز.

[٣] - سقط من: خ، ز.

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من: خ، ز.

[٥] - سقط من: خ، ز.

وكذا قال أبو غالب الشيباني.

وقال عبد اللَّه بن المبارك، عن معمر، عن رجل، عن وهب بن منبه في قوله: **﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾**، قال: عشرين سنة.

وقال هشيم، عن منصور، عن زاذان، عن الحسن في قوله: **﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾**، قال: أربعين سنة.

وقال هشيم، عن مجالد، عن الشعبي، عن مسروق أنه كان يقول: إذا بلغ أحدكم أربعين سنة؛ فليأخذ حذره من اللَّه عز وجل.

وهذا رواية عن ابن عباس فيما قال ابن جرير(٤٠): حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا عبد اللَّه بن عثمان بن خُثَيم، عن مجاهد؛ قال: سمعت ابن عباس، يقول: العمر الذي أعذر اللَّه إلى ابن آدم: **﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾** أربعون سنة.

هكذا رواه من هذا الوجه، عن ابن عباس. وهذا القول هو اختيار ابن جرير.

ثم رواه(٤١) من طريق الثوري وعبد اللَّه بن إدريس، كليهما[١] عن عبد اللَّه بن عثمان بن خثيم، عن مجاهد، عن ابن عباس؛ قال: العمر الذي أعذر اللَّه [ ][٢] فيه لابن آدم في قوله: **﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾**؛ ستون سنة.

فهذه الرواية أصح عن ابن عباس، وهي الصحيحة في نفس الأمر أيضًا، لما ثبت في ذلك من الحديث - كما سنورده - لا كما زعمه ابن جرير، من أن الحديث لم يصح؛ لأن «**في إسناده من يجب التثبت في أمره**»(٤٢).

وقد روى أصبغ بن نُباتة، عن عليّ رضي اللَّه عنه أنه قال: العمر الذي عَيَّرهم اللَّه به في قوله تعالى: **﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾**. ستون سنة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا دُحَيم، حدثنا ابن أبي فديك، حدثني إبراهيم بن الفضل المخزومي، عن ابن أبي حُسَين المكي؛ أنه حدثه عن عَطاء - هو ابن أبي رباح - عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما؛ أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم؛ قال: «**إذا كان يوم القيامة قيل: أين أبناء الستين؟ وهو العمر الذي قال اللَّه فيه: ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر**

(٤٠) - تفسير ابن جرير (١٤١/٢٢).

(٤١) - تفسير ابن جرير (١٤١/٢٢).

(٤٢) - تفسير ابن جرير (١٤٢/٢٢).

[١] - في ز: «كلاهما».

[٢] - ما بين المعكوفتين في ز: «إليه».

وجاءكم النذير﴾ .

وكذا رواه ابن جرير، عن على بن شعيب، [عن محمد بن إسماعيل بن أبي فُديك به. وكذا رواه][١] الطبراني من طريق ابن أبي فُديك به(٤٣) .

وهذا الحديث فيه نظر، لحال إبراهيم بن الفضل، والله أعلم.

(حديث آخر) قال الإمام أحمد(٤٤) : حدثنا عبد الرزّاق، حدثنا معْمَر، عن رجُلٍ من بني غِفَار، عن سعيد المَقْبِرِيّ، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه[٢] قال: « **لقد أعذر الله إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين سنة، لقد أعذر الله إليه [لقد أعذر الله إليه][٣]** » .

وهكذا رواه الإمام البخاري في « **كتاب الرقاق** » من صحيحه(٤٥) : حدثنا عبد السلام بن مُطَهَّر، عن عُمَر بن عليّ، عن مَعْن بن محمد الغفَاري، عن سعيد المَقْبُرِيّ، عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [« **أعذر الله عز وجل الى امرئ أَخَّر عمره حتى بَلَّغَه ستين سنة** » .

ثم قال البخاري: تابعه أبو حازم وابنُ عجلان، عن سعيد المَقْبُري][٤] .

فأما أبو حازم فقال ابن جرير: حدثنا أبو صالح الفَزَاريّ[٥]، حدثنا محمد بن سوار، أخبرنا يعقوب بن عبد الرحمن بن عبد القاري الإسكندريّ، حدثنا أبو حازم، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « **[من عَمَّره الله][٦] ستين سنة، فقد أعذر إليه في العمر** » .

وقد رواه الإمام أحمد والنسائي في الرقاق جميعًا عن قتيبة [عن يعقوب بن عبد الرحمن به(٤٦) .

---

(٤٣) - **إسناده ضعيف**، وهو في تفسير الطبري (١٤١/٢٢)، والمعجم الكبير للطبراني (١٧٧/١١)، وقال الهيثمي في المجمع (٩٧/٧) : « وفيه إبراهيم بن الفضل المخزومي وهو ضعيف » .

(٤٤) - المسند (٢٧٥/٢) .

(٤٥) - البخاري في الرقاق برقم (٦٤١٩) .

(٤٦) - تفسير الطبري (١٤٢/٢٢)، والمسند (٤١٧/٢)، والنسائي في السنن الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي (٤٧٢/٩) .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٢] - سقط من : ز .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٥] - في ز : « الصراري » .

[٦] - ما بين المعكوفتين في خ : « إذا أحب الله ابن آدم » ، وفي ز : « إذا أحيا الله ابن آدم » .

ورواه البزار(٤٧) قال: حدثنا هشام بن يونس، حدثنا عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه [١] عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال: «**العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة**». يعني: ﴿**أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر**﴾(٤٨).

وأما متابعة ابن عجلان فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو السفر يحيى بن محمد بن عبد الملك ابن قرعة بسامراء، حدثنا أبو عبد الرحمن المقبري، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثني محمد بن عجلان، عن سعيد المقبرى، عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله عز وجل إليه في العمر**».

وكذا رواه الإمام أحمد عن أبي عبد الرحمن هو المقرئ به(٤٩).

ورواه أحمد أيضًا، عن خلف عن أبي معشر، عن سعيد المقبُري(٥٠).

(طريق أخرى، عن أبي هريرة) قال ابن جرير: حدثني أحمد بن الفرج أبو عُتْبة الحمْصي، حدثنا بقية بن الوليد، حدثنا المطرف بن مازن الكناني، حدثني معمر بن راشد؛ قال: سمعت محمد بن عبد الرحمن الغفاري يقول: سمعت أبا هريرة؛ يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لقد أعذر الله عز وجل في العمر إلى صاحب الستين سنة والسبعين**»(٥١).

فقد صح هذا الحديث من هذه الطرق، فلو لم يكن إلا الطريق التي ارتضاها أبو عبد الله البخاري شيخ هذه الصناعة لكفت[٢]. وقول ابن جرير: «**إن في رجاله بعض من[٣] يجب التثبت في أمره**»، لا يلتفت إليه مع تصحيح البخاري، والله أعلم.

وذكر بعضهم أن العمر الطبيعي عند الأطباء مائة وعشرون سنة، فالإنسان لا يزال في ازدياد إلى كمال الستين، ثم يشرع بعد هذا في النقص والهرم، كما قال الشاعر:

---

(٤٧) - المسند (٢/٤٠٥).

(٤٨) - رواه ابن مردويه في تفسيره كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٣/١٥٥) من طريق سليمان بن حرب، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد، وربما لم يقل: عن سهل، فذكر نحوه دون الآية، والمحفوظ عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

(٤٩) - المسند (٢/٣٢٠).

(٥٠) - رواه أحمد (٢/٤٠٥).

(٥١) - تفسير الطبري (٢٢/١٤٢).

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من: خ، ز.

[٢] - سقط من: ز.

[٣] - سقط من: ز.

إذَا بَلَغَ الفتى ستين عَاما فقد ذَهَبَ المَسَرَّةُ والفَتَاءُ

و[١] لما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله إلى عباده به، ويزيح به عنهم العلل، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة، كما ورد بذلك الحديث، قال الحسن بن عرفة رحمه الله :

حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي[٢]، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم مَن يجوز ذلك**».

وهكذا رواه الترمذي وابن ماجة جميعًا في كتاب الزهد، عن الحسن بن عرفة به. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه(٥٢) .

وهذا عَجَب من الترمذي، فإنه قد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا[٣] من وجه آخر وطريق أخرى، عن أبي هريرة، حيث قال :

حدثنا سليمان بن عمر، عن محمد بن ربيعة، عن كامل أبي العلاء، عن أبي صالح، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك**».

وقد رواه الترمذي في «**كتاب الزهد**»(٥٣) أيضًا عن إبراهيم بن سعيد الجوهري، عن محمد ابن ربيعة به. ثم قال: هذا حديث حسن غريب، من حديث أبي صالح عن أبي هريرة، وقد روى من غير وجه عنه. هذا نصه بحروفه في الموضعين، والله أعلم.

و[٤]قال الحافظ أبو يعلى(٥٤) : حدثنا أبو موسى الأنصاري، حدثنا ابن أبي فُديك، حدثني إبراهيم بن الفضل مولى بني مخزوم، عن المقبُري[٥]، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مُعْتَرَك المنايا ما بين الستين إلى السبعين**».

---

(٥٢) - سنن الترمذي برقم (٣٥٥٠)، وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٣٦) .

(٥٣) - سنن الترمذي برقم (٢٣٣١) .

(٥٤) - مسند أبي يعلى حديث ٦٥٤٣ - (٤٢٢/١١ ، ٤٢٣) وفيه إبراهيم بن الفضل وهو متروك . وأخرجه الخطيب في التاريخ (٤٧٦/٥) والشهاب في مسنده ٢٥١ - (١٧٤/١) .

---

[١] - قبله في خ، ز: «قال حديث آخر» .

[٢] - في ز: «البخاري» .

[٣] - في ز: «الدرداء» .

[٤] - سقط من: ز .

[٥] - في ز: «المقري» .

وبه قال(٥٥) : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «**أقل أمتي أبناء سبعين**». إسناده ضعيف.

(حديث آخر في معنى ذلك) قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده(٥٦) :

حدثنا إبراهيم بن هانئ، حدثنا إبراهيم بن مهدي، حدثنا عثمان بن مطر، عن أبي مالك، عن ربعي، عن حذيفة، أنه قال: يا رسول اللّه ، أنبئنا بأعمار أمتك. قال: «**ما بين الخمسين إلى الستين**». قالوا: يا رسول اللّه ؛ فأبناء السبعين؟ قال: «**قَلَّ من يبلغها من أمتي، رحم اللّه [ ][١] أبناء السبعين ورحم اللّه أبناء الثمانين**».

ثم قال البزار: لا يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد، وعثمان بن مطر من أهل البصرة ليس بقوي.

وقد ثبت في الصحيح أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عاش ثلاثة وستين سنة، قيل: ستين. وقيل: خمسًا وستين سنة. والمشهور الأول، واللّه أعلم.

وقوله: ﴿**وجاءكم النذير**﴾، روي عن ابن عباس، وعكرمة، وأبي جعفر الباقر، وقتادة، وسفيان بن عُيَينة أنهم قالوا: يعني الشيب.

وقال السدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني به الرسول صلى اللّه عليه وسلم، وقرأ ابن زيد: ﴿**هذا نذير من النذر الأولى**﴾. وهذا هو الصحيح عن قتادة، فيما رواه شيبان، عنه أنه قال: احتج عليهم بالعمر[٢] والرسل.

وهذا اختيار ابن جرير، وهو الأظهر، لقوله[٣] تعالى: ﴿**ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون * لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون**﴾، أي: لقد بينا لكم الحق على ألسنة الرسل، فأبيتم وخالفتم، وقال تعالى: ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولًا**﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿**كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتُها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل اللّه من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير**﴾.

وقوله: ﴿**فذوقوا فما للظالمين من نصير**﴾، أي: فذوقوا عذاب النار جزاء على مخالفتكم

(٥٥) - مسند أبي يعلى حديث ٦٥٤٤ - (٤٢٣/١١)، وعزاه صاحب الكنز إلى الحكيم في نوادر الأصول بلفظ: « **أقل أمتي أبناء السبعين** ».

(٥٦) - مسند البزار برقم (٣٥٨٦) « كشف الأستار »، وقال الهيثمي في المجمع (٢٠٦/١٠): « وفيه عثمان ابن مطر وهو ضعيف ».

[١] - ما بين المعكوفتين في ز: « من ».
[٢] - سقط من: خ، ز.
[٣] - في ز: « كقوله ».

للأنبياء[١] في مدة أعماركم، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٣٨ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ٣٩﴾

يخبر تعالى بعلمه غيب السماوات والأرض، وأنه يعلم ما تكنه السرائر وتنطوي عليه الضمائر، وسيجازي كل عامل بعمله.

ثم قال: ﴿**هو الذي جعلكم خلائف في الأرض**﴾، أي: يخلف قوم الآخرين قبلهم، وجيل لجيل قبلهم، كما قال: ﴿**ويجعلكم خلفاء الأرض**﴾، ﴿**فمن كفر فعليه كفره**﴾، أي: فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره، ﴿**ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتًا**﴾، أي: كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحَسُن عمله؛ ارتفعت درجته ومنزلته في الجنة وزاد أجره، وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ٤٠ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾

يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين: ﴿**أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله**﴾، **أي: من الأصنام والأنداد**، ﴿**أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات**﴾؟ أي: ليس لهم شيء من ذلك، ما يملكون من قطمير.

وقوله[٢]: ﴿**أم آتيناهم كتابًا فهم على بينة منه**﴾، أي: أم أنزلنا عليهم كتابًا بما يقولونه من الشرك والكفر؟ ليس الأمر كذلك، ﴿**بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضًا إلا غرورًا**﴾، أي: بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التي تمنوها لأنفسهم، وهي غرور وباطل وزور.

---

[١] - في ز: «الأنبياء».
[٢] - سقط من: ز.

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما، فقال: ﴿ **إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا** ﴾، أي: أن تضطربا عن أماكنهما، كما قال: ﴿ **ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه** ﴾، وقال تعالى: ﴿ **ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره** ﴾.

﴿ **ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده** ﴾، أي: لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو، وهو مع ذلك حليم غفور أي: يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه، وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يَعجَل، ويستر آخرين ويغفر، ولهذا قال: ﴿ **إنه كان حليمًا غفورًا** ﴾.

وقد أورد ابن أبي حاتم(٥٧) هاهنا حديثًا غريبًا بل منكرًا، فقال: حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثني هشام بن يوسف، عن أمية بن شبل[١]، عن الحكم ابن أبان، عن عكرمة، عن أبي هريرة؛ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي عن موسى عليه السلام على المنبر؛ قال: «**وقع في نفس موسى عليه السلام هل ينام الله عز وجل؟ فأرسل الله إليه ملكا، فأرّقه ثلاثًا، وأعطاه قارورتين [في كل يد قارورة][٢] وأمره أن[٣] يحتفظ بهما، قال: فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان، ثم يستيقظ فيحبس[٤] إحداهما عن الأخرى، حتى نام نومة فاصطفقت يداه[٥] فتكسّرت القارورتان، و[٦] قال: ضرب الله له[٧] مثلًا: إن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض**».

و[٨]الظاهر أن هذا الحديث ليس بمرفوع، بل من الإسرائيليات المنكرة، فإن موسى عليه السلام أجَلُّ من[٩] أن يُجَوِّز على الله سبحانه وتعالى النوم، وقد أخبر الله تعالى في كتابه العزيز بأنه: ﴿ **الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض** ﴾. وثبت في الصحيحين(٥٨) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه**

(٥٧) - سبق تخريجه عند تفسير الآية: ٢٥٥ من سورة البقرة.

(٥٨) - مسلم في كتاب الإيمان برقم (١٧٩)، وليس في صحيح البخاري، وهو عند أحمد (٣٩٥/٤، ٤٠٠، ٤٠٥) وقد ذكره الحافظ عند تفسير الآية: ٢٥٥ من سورة البقرة فقال: «وفي الصحيح هكذا بالإفراد».

---

[١] - في خ، ز: «سنبل».

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من: خ، ز.

[٣] - سقط من: ز.

[٤] - في ز: «يجبس».

[٥] - سقط من: ز.

[٦] - سقط من: ز.

[٧] - سقط من: ز.

[٨] - سقط من: ز.

[٩] - في ز: «عن».

ما انتهى إليه بصره من خلقه ».

وقد قال أبو جعفر بن جرير(٥٩) : حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبي وائل؛ قال: جاء رجل إلى عبد الله هو ابن مسعود - فقال: من أين جئت؟ قال: من الشام. قال: من لقيت؟ قال: لقيت كعبًا. قال ما حدثك كعب؟ قال: حدثني أن السماوات تدور على منكب مَلَك. قال: أفصدقته أو كذبته؟ قال: ما صدقته ولا كذبته. قال: لوددت أنك افتديت من رحلتك إليه براحلتك ورَحْلها، كَذَبَ كعب. إن الله تعالى يقول: ﴿ **إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده** ﴾.

وهذا إسناد صحيح إلى كعب وإلى ابن مسعود.

ثم رواه ابن جرير عن ابن حميد، عن جرير، عن مغيرة، عن إبراهيم؛ قال: ذهب جُندَب البَجَلي إلى كعب بالشام، فذكر نحوه(٦٠) .

وقد رأيت في مصنف الفقيه يحيى بن إبراهيم بن مُزَين[١] الطليطلي، سماه « **سير الفقهاء** »، أورد هذا الأثر عن محمد بن عيسى بن الطَّبَّاع، عن وكيع، عن الأعمش، به. ثم قال: وأخبرنا زونان يعني عبد الملك بن الحسن، عن ابن وهب، عن مالك؛ أنه قال: السماء لا تدور. واحتج بهذه الآية، وبحديث: « **إن بالمغرب بابًا للتوبة لايزال مفتوحًا حتى تطلع الشمس منه** ».

قلت: وهذا الحديث في الصحيح(٦١) ، والله أعلم.

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

(٥٩) - تفسير الطبري (٢٢/١٤٤).

(٦٠) - تفسير الطبري (٢٢/١٤٤، ١٤٥).

(٦١) - لم أجد الحديث في الصحيحين، وهو عند الترمذي في الدعوات برقم (٣٥٣٠) في حديث طويل، وهو في المسند للإمام أحمد ١٨١٤٥ - (٤/٢٤٠)، وصحيح ابن خزيمة برقم (١٩٣) من حديث صفوان ابن عسال، رضي الله عنه.

[١] - في ز: « سرين ».

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم، قبل إرسال الرسول إليهم: ﴿**لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم**﴾، أي: من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل. قاله الضحاك وغيره، كقوله تعالى: ﴿**أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين* أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصَدَف عنها**﴾ وكقوله تعالى: ﴿**وإن كانوا ليقولون* لو أن عندنا ذكرًا من الأولين* لكنا عباد الله المخلصين* فكفروا به فسوف يعلمون**﴾.

قال الله تعالى: ﴿**فلما جاءهم نذير**﴾، وهو: محمد صلى الله عليه وسلم بما أنزل معه من الكتاب العظيم، وهو القرآن المبين، ﴿**ما زادهم إلا نفورا**﴾، أي: ما ازدادوا إلا كفرًا إلى كفرهم، ثم بين ذلك بقوله: ﴿**استكبارًا في الأرض**﴾، أي: استكبروا عن اتباع آيات الله، ﴿**ومكر السيئ**﴾، أي: ومكروا بالناس في صدِّهم إياهم عن سبيل الله، ﴿**ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله**﴾، [أي: وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم.

قال ابن أبي حاتم: ذكر علي بن الحسين، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن أبي زكريا الكوفي، عن رجل حدَّثه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إياك ومكر السيئ، فإنه لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله**][1]، **ولهم من الله طالب**»(٦٢).

وقد قال محمد بن كعب القرظي: ثلاث من فعلهن لم ينجُ حتى ينزل به من مكر أو بغي أو نكث، وتصديقها في كتاب الله: ﴿**ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله**﴾، [﴿**إنما بغيكم على أنفسكم**﴾، ﴿**فمن نكث فإنما ينكث على نفسه**﴾][2].

وقوله: ﴿**فهل ينظرون إلا سنة الأولين**﴾، يعني: عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره، ﴿**ولن تجد لسنة الله تبديلًا**﴾، أي: لا تغير ولا تبدل، بل هي جارية كذلك في كل مكذب، ﴿**ولن تجد لسنة الله تحويلا**﴾، أي: ﴿**وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له**﴾، ولا يكشف ذلك عنهم، ويحوله عنهم أحد.

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ

---

(٦٢) - في إسناده جهالة، وانقطاع، ولم أجد من أخرجه غير ابن أبي حاتم، وقد روى ابن المبارك في الزهد برقم (٧٢٥) عن الزهري مرسلًا نحوه.

---

[١] - ما بين المعكوفتين من: خ، ز.

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من: خ، ز.

عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة: سيروا في الأرض، فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل، كيف دمر اللَّه عليهم وللكافرين أمثالها، فَخُلِّيَتْ منهم منازلهم، وسلبوا ما كانوا فيه من النِّعَم بعد كمال القوة، وكثرة العدد والعُدَد، وكثرة الأموال والأولاد، فما أغنى ذلك شيئًا، ولا دفع عنهم من عذاب اللَّه من شيء، لما جاء أمر ربك؛ لأنه تعالى لا يعجزه شيء، إذا أراد كونه في السماوات والأرض، **﴿إنه كان عليمًا قديرًا﴾**. أي عليم بجميع الكائنات، قدير على مجموعها.

ثم قال تعالى: **﴿ولو يؤاخذ اللَّه الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾**، أي: لو آخذهم بجميع ذنوبهم؛ لأهلك جميع أهل الأرض، وما يملكونه من دواب وأرزاق.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد اللَّه؛ قال: كاد الجُعَل أن يعذب في جُحْره بذنب ابن آدم، ثم قرأ: **﴿ولو يؤاخذ اللَّه الناس بما كسبوا، ما ترك على ظهرها من دابة﴾**.

وقال سعيد بن جبير، والسُّدّي في قوله: **﴿ما ترك على ظهرها من دابة﴾**، أي: لما سقاهم المطر، فماتت جميع الدواب.

﴿ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾، أي: ولكن يُنْظِرُهم إلى يوم القيامة، فيحاسبهم يومئذ، ويوفي كل عامل بعمله، فيجازي بالثواب أهل الطاعة، وبالعقاب أهل المعصية؛ ولهذا قال تعالى: **﴿فإذا جاء أجلهم فإن اللَّه كان بعباده بصيرًا﴾**.

آخر تفسير سورة فاطر، ولله الحمد والمنة[١]

☆ ☆ ☆

---

[١] - في حاشية خ، ز: « وهو آخر الجزء الخامس، يتلوه إن شاء الله تعالى في أول السادس تفسير سورة يس. والحمد لله رب العالمين آمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا ورضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين ».

/ سورة الملائكة[1] [٣٧٦و]

مكيّة، وآيها[2] خمس وأربعون.[3]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ①﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مبدِعِهما مِن غير مِثال يَحتذيه، ولا قانونٍ يَنتحيه. مِن "الفَطْر"؛ وهو الشَّق. وقيل: الشَّقُّ طُولًا. كأنّه شَقَّ العدم بإخراجهما منه. وإضافته محضة؛ لأنّه بمعنى الماضي، فهو نعت للاسم الجليل، ومَن جعلها غيرَ محضة جعله بدلًا منه، وهو قليل في المشتَقّ.

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الكلام في إضافتِه وكونِه نعتًا أو بدلًا كما قبله. وقوله تعالى: ﴿رُسُلًا﴾ منصوب به على الوجه الثاني مِن الإضافة بالاتّفاق، وأمّا على الأوّل فكذلك عند الكسائي، وأمّا عند البصريّين فبمُضمَر يدلّ هو عليه؛ لأنّ اسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضي لا يعمل عندهم إلّا معرّفًا بـ"اللام". وقال أبو سعيد السيرافي: «اسم الفاعل المتعدّي إلى اثنين يعمل في الثاني؛ لأنّ بإضافته إلى الأوّل تعذّرت إضافته إلى الثاني، فتعيَّن نصبُه له».[4] وعلّل بعضُهم ذلك بأنّه بالإضافة أشبهَ المعرَّف بـ"اللام" فعمل عملَه.[5]

وقُرئ: "جَاعِلُ" بالرفع[6] على المدح. وقُرئ: "الَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الْمَلَائِكَةَ".[7]

---

[1] وتسمّى سورة فاطر. **الإتقان** للسيوطي، ١٩٤/١.

[2] ط س: وهي.

[3] ط س + آية.

[4] انظر: **شرح كتاب سيبويه** للسيرافي، ٤٣٦/١.

[5] انظر: **الدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٦١/٥.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٩٣.

[7] قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٥٩٥/٣؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ١٠/٩.

أي: جاعِلهم وسائطَ بينه تعالى وبين أنبيائه والصالحين مِن عباده، يبلّغون إليهم رسالاته بالوحي والإلهام والرؤيا الصادقة، أو بينَه تعالى وبين خلقه أيضًا حيث يوصّلون إليهم آثار قدرته وصنعه.

هذا على تقدير كون الجَعل تصييريًا، أمّا على تقدير كونه إبداعيًا فـ﴿رُسُلًا﴾ نصب على الحاليّة.

وقُرئ: "رُسْلًا" بسكون "السين".[١]

﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ﴾ صفةٌ لـ﴿رُسُلًا﴾، و"أُولُو"[٢] اسمُ جمع لِـ"ذُو"، كما أنّ "أُولاء" اسم جمع لِـ"ذا"، ونظيرهما في الأسماء المتمكّنة "المَخاض"[٣] و"الخَلِفَة".[٤]

وقوله تعالى: ﴿مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ صفات لـ﴿أَجۡنِحَةٖ﴾، أي: ذوي أجنحةٍ متعدِّدةٍ متفاوتةٍ في العدد حسب تفاوت ما لهم مِن المراتب، ينزلون بها ويعرجون، أو يسرعون بها. والمعنى: أنّ مِن الملائكة خَلقًا لكلّ واحد منهم جناحان، وخَلقًا أجنحةُ كلٍّ منهم ثلاثة، وخَلقًا آخرَ لكلّ منهم أربعةُ أجنحة.

ويُروى أنّ صِنفًا مِن الملائكة / لهم ستّة أجنحة، بجناحين منها يَلُفُّون أجسادَهم، وبآخرَين منها يطيرون فيما أُمِروا به مِن جهته تعالى، وجناحان منها مُرخَيان على وجوههم حياءً مِن الله عزّ وجلّ.[٥] [٣٧٦ظ]

وعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه رأى جبريل عليهما السلام ليلة المعراج وله ستّمائة جَناح.[٦]

ورُوي أنّه سأله عليهما السلام أن يتراءى له في صورته، فقال: «إنّك لن تطيق ذلك»، قال: «إنّي أحبّ أن تفعل»، فخرج عليه السلام في ليلة مُقمِرة، فأتاه جبريل صلوات الله عليهما[٧] في صورته، فغَشِي عليه عليه السلام،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وحميد بن قيس. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/١٠؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٤.

٢ م: وأولوا.

٣ وفي هامش م: اسم جمع.

٤ وفي هامش م: واحدتها.

٥ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٩٥.

٦ صحيح البخاري، ٤/١١٥ (٣٢٣٢)؛ صحيح مسلم، ١/١٥٧ (١٧٤)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

٧ س: عليهما السلام.

ثمّ أفاق وجبريل مُسنده، وإحدى يديه على صدره، والأخرى بين كتفيه، فقال: «سبحان الله، ما كنتُ أرى أنّ شيئًا مِن الخَلق هكذا»، فقال جبريل عليه السلام: «فكيف لو رأيتَ إسرافيل؟ له اثنا عشر جناحًا، جناح منها بالمشرق، وجناح منها بالمغرب، وإنّ العرش على كاهِله، وإنّه لَيتضاءلُ الأحايِينَ لعظَمة الله عزّ وجلّ حتّى يعود مثل الوَصَع»؛[١] وهو العصفور الصغير.

﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ استئناف مقرِّر لِما قبله مِن تفاوت أحوال الملائكة في عدد الأجنحة، ومؤذِنٌ بأنّ ذلك مِن أحكام مشيئته تعالى، لا لأمرٍ راجع إلى ذواتهم، ببيان حُكم كلّي ناطق بأنّه تعالى يزيد في أيّ خلقٍ كان كُلَّ ما يشاء أن يزيده بموجَب مشيئته ومقتضى حكمته مِن الأمور التي لا يحيط بها الوصف. وما رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن تخصيص بعض المعاني بالذِّكر مِن "الوجه الحسَن، والصوت الحسَن، والشَّعر الحسَن"[٢] فبيانٌ لبعض الموادّ المعهودة بطريق التمثيل، لا بطريق الحصر فيها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تعليل بطريق التحقيق للحُكم المذكور، فإنّ شمول قدرته تعالى لجميع الأشياء ممّا يوجب قدرته تعالى على أن يزيد كلَّ ما يشاؤه إيجابًا بيّنًا.

﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٣﴾

﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ﴾ عُبّر عن إرسالها بالفتح إيذانًا بأنّها أنفَس الخزائن التي يتنافس فيها المتنافسون، / وأعزُّها مَنالًا. وتنكيرها للإشاعة والإبهام، أي: أيّ شيء يفتح الله مِن خزائن رحمةٍ -أيّةَ رحمةٍ كانت- مِن نعمة [٣٧٧و]

---

١ الزهد لابن المبارك، ٧٤/١ (٢٢١)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٩٨/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٩٦/٣.

٢ ذكره الواحدي في التفسير البسيط، ٤٠٠/١٨؛ والزمخشري في الكشّاف، ٥٩٦/٣. وقال القرطبي: «ذكره القشيري». تفسير القرطبي، ٣٢٠/١٤.

وصحّة وأمْن وعِلم وحكمة إلى غير ذلك ممّا لا يُحاط به ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي: لا أحدَ يقدِر على إمساكها، ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ أي: أيَّ شيء يُمسك ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ أي: لا أحدَ يقدِر على إرساله. واختلاف الضميرين لِما أنّ مرجع الأوّل مفسَّر بالرحمة، ومرجعَ الثاني مطلَق يتناولُها وغيرَها، كائنًا ما كان. وفيه إشعار بأنّ رحمته سبقت غضبه. ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: مِن بعد إمساكه.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على كلّ ما يشاء مِن الأمور التي مِن جملتها الفتح والإمساك، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يفعَل كُلَّ ما يفعل حسبما يقتضيه[1] الحِكمة والمصلحة. والجملة تذييل مقرّر لِما قبلها ومُعرِب عن كون كلٍّ مِن الفتح والإمساك بموجَب الحكمة التي عليها يدور أمر التكوين.

وبعدما بيّن سبحانه أنّه الموجِد للمُلك والملكوت، والمتصرِّف فيهما بالقبض والبَسط مِن غير أن يكون لأحد في ذلك دخلٌ ما بوجه مِن الوجوه؛ أمرَ الناس قاطبةً أو أهل مكّة خاصّةً بشُكر نِعَمه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إنعامَه عليكم؛ إن جُعِلَت "النعمة" مصدرًا، أو كائنةً عليكم؛ إن جُعلَت اسمًا. أي: راعُوها واحفظوها بمعرفة حقّها، والاعترافِ بها، وتخصيصِ العبادة والطاعة بمُوليها.

ولمّا كانت نِعم الله تعالى مع تشعّب فُنونها منحصرةً في نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء نَفَى أن يكون في الوجود شيء غيرُه تعالى يصدر عنه إحدى النعمتين بطريق الاستفهام الإنكاري المنادي باستحالة أن يُجاب عنه بِـ"نَعَمْ"، فقال: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: هل خالقٌ مغايرٌ له تعالى موجود؟ على أنّ ﴿خَٰلِقٍ﴾ مبتدأ محذوف الخبر، زِيدت عليه كلمة ﴿مِنْ﴾ لتأكيد العموم، و﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ نعتٌ له باعتبار محلّه، كما أنّه نعتٌ له في قراءة الجرّ[2] باعتبار لفظه. وقُرئ بالنصب[3] على الاستثناء.

[1] س: تقتضيه.

[2] قرأ بجرّ "غير" حمزة والكسائي وخلف وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥١.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٤.

وقوله تعالى: / ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: بالمطر والنبات. كلام مبتدأ على التقادير، لا محلَّ له مِن الإعراب، داخلٌ في حيّز النفي والإنكار. ولا مساغَ لِما قيل[١] مِن أنّه صفة أخرى لـ﴿خَٰلِقٍ﴾ مرفوعةُ المحلّ، أو مجرورتُه؛ لأنّ معناه نفيُ وجود خالقٍ موصوف بوصفَي المغايَرة والرازقيّة معًا مِن غير تعرّض لنفي وجود ما اتّصف بالمغايَرة فقط، ولا لِما قيل[٢] مِن أنّه الخبرُ للمبتدأ، ولا لِما قيل[٣] مِن أنّه مفسِّر لمُضمَرٍ ارتفع به قوله تعالى: ﴿مِنْ خَٰلِقٍ﴾ على الفاعليّة، أي: هل يرزقكم مِن خالقٍ... إلخ، لِما أنّ معناهما نفي رازقيّة خالق مغايِر له تعالى مِن غير تعرّضٍ لنفي وجوده رأسًا مع أنّه المراد حتمًا، ألا يُرى إلى قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؟ فإنّه استئناف مَسوق لتقرير النفي المستفادِ منه قصدًا، وجارٍ مَجرى الجواب عمّا يوهمه الاستفهام صورةً، فحيث كان هذا ناطقًا بنفي الوجود تعيّن أن يكون ذلك أيضًا كذلك قطعًا. [٣٧٧ظ]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ لترتيب إنكار عدولهم عن التوحيد إلى الإشراك على ما قبلها، كأنّه قيل: وإذا تبيّن تفرّده تعالى بالألوهيّة والخالقيّة والرازقيّة فمِن أيّ وجه تُصرَفون عن التوحيد إلى الشرك؟

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ تلوين للخِطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بين خطابَي الناس مسارعةً إلى تسليته عليه السلام بعموم البليّة أوّلًا، والإشارةِ إلى الوعد والوعيد ثانيًا.

أي: وإن استمرّوا على أن يكذّبوك فيما بلّغت إليهم مِن الحقّ المبين بعد ما أقمتَ عليه الحجّةَ وألقمتَهم الحجَر فتأسَّ بأولئك الرسل في المصابَرة على ما أصابهم مِن قِبَل قومهم، فوُضع موضعَه ما ذُكر اكتفاءً بذِكر السبب عن ذكر المسبَّب.

---

١ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٥٩٧/٣؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٥٤/٤.

٢ قاله أبو حيّان في البحر المحيط، ١٣/٩.

٣ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٥٩٧/٣؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٥٤/٤.

وتنكير "الرسل" للتفخيم الموجِب لمزيد التسلية، والتوجّهِ إلى المصابَرة، [٣٧٨و] / أي: رسل أولو[١] شأن خطير، وذَوُو[٢] عددٍ كثير.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ لا إلى غيره، فيجازي كلًّا منك ومنهم بما أنتم عليه مِن الأحوال التي مِن جملتها صبرك وتكذيبهم. وفي الاقتصار على ذكر اختصاص المرجع بالله تعالى مع إبهام الجزاء ثوابًا وعقابًا مِن المبالغة في الوعد والوعيد ما لا يخفى.

وقُرئ: "تَرْجِعُ" بفتح "التاء"،[٣] مِن "الرجوع"، والأوّل أدخلُ في التهويل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ رجوع إلى خطابهم، وتكرير النداء لتأكيد العِظة والتذكير، ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ المشارَ إليه برَجعِ الأمور إليه تعالى[٤] مِن البعث والجزاء، ﴿حَقّٞ﴾ ثابت لا محالةَ مِن غير خُلف، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ بأن يُذهِلكم التمتُّع بمتاعها، ويلهيكم التلهّي بزخارفها عن تدارك ما يهمّكم يومَ حلول الميعاد. والمراد نهيُهم عن الاغترار بها وإن توجّه النهي صورةً إليها، كما في[٥] قوله تعالى: ﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ﴾ [هود، ٨٩/١١].[٦]

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾ وعفوه وكرمِه تعالى ﴿ٱلۡغَرُورُ﴾ أي: المبالِغ في الغُرور، وهو الشيطان، بأن يمنّيكم المغفرةَ مع الإصرار على المعاصي قائلًا: "اعملوا ما شئتم، إنّ الله غفور يغفر الذنوب جميعًا"، فإنّ ذلك وإن أمكَن لكن تعاطي الذنوب بهذا التوقّع مِن قَبيل تناول السمّ تعويلًا على دفع الطبيعة. وتكرير فعل النهي للمبالغة فيه، ولاختلاف الغُرورَين في الكيفيّة. وقُرئ: "الْغُرُورُ" بالضمّ[٧] على أنّه مصدر، أو جمع "غارّ"، كـ"قُعُود" جمع "قاعِد".

---

١ م: أولوا.

٢ م: وذووا.

٣ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٠٩/٢.

٤ في الآية السابقة.

٥ ط س + "لا أرينّك ههنا".

٦ ط س − قوله تعالى: ﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ﴾ [هود، ٨٩/١١].

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن سماك بن حرب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٤.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ عداوةً قديمةً لا تكاد تزول. وتقديم ﴿لَكُمْ﴾ للاهتمام به. ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بمخالفتكم له في عقائدكم وأفعالكم، وكونِكم على حذَرٍ منه في مَجامع أحوالكم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ تقرير لعداوته، وتحذير مِن طاعته بالتنبيه على أنّ غرضَه في دعوةِ شيعته إلى اتّباع الهوى والركونِ إلى ملاذّ الدنيا ليس تحصيلَ مطالبهم ومنافعهم الدنيويّة كما هو مقصِد المتحابّين في / الدنيا عند سعي بعضهم في حاجة بعضٍ؛ بل هو توريطُهم وإلقاؤُهم في العذاب المخلّد مِن حيث لا يحتسبون. [٣٧٨ظ]

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ﴾ بسبب كفرهم وإجابتهم لدعوة الشيطان واتّباعهم لخطواته ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يقادَر قدرُه، مديدٌ لا يُبلَغ مَداه.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم﴾ بسبب ما ذُكر مِن الإيمان والعمل الصالح الذي مِن جملته عداوة الشيطان ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ عظيمة ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لا غايةَ لهما.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ إمّا تقرير لِما سبق مِن التبايُن البَيّن بين عاقبتَي الفريقين ببيان تبايُن حالَيهما المؤدِّيين إلى تَينِك العاقبتَين، و"الفاء" لإنكار ترتّب ما بعدها على ما قبلها،[١] أي: أبَعدَ كون حالهما كما ذُكر يكون مَن زُيِّنَ له الكفر مِن جهة الشيطان فانهمك فيه كمَن استقبحه واجتنبه واختار الإيمان

---

[١] س - على ما قبلها.

والعمل الصالح حتّى لا يكون عاقبتاهما كما ذُكِر؟ فحُذف ما حُذف لدلالة ما سبق عليه. وقولُه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ﴾... إلخ تقريرٌ له، وتحقيقٌ للحقّ ببيان أنّ الكلّ بمشيئته تعالى، أي: فإنّه تعالى يضلّ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أن يضلّه لاستحسانِه واستحبابِه الضلالَ وصرفِ اختياره إليه، فيردّه أسفلَ سافلين، ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ أن يهديه لصَرفِ اختياره إلى الهدى، فيرفعه إلى أعلى عِلّيّين.

وإمّا تمهيد لِما يعقُبه مِن نهيه عليه السلام عن التحسّر والتحزّن عليهم لعدم إسلامهم ببيان أنّهم ليسوا بأهلٍ لذلك؛ بل لِأن يُضرَبَ عنهم صفحًا، ولا يُبالَى بهم قطعًا، أي: أبَعدَ كون حالهم كما ذُكر تتحسّر عليهم؟ فحُذف لِما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ دلالةً بيّنةً.

وإمّا تمهيد[1] لصَرفه عليه السلام عمّا كان عليه مِن الحرص الشديد على إسلامهم، والمبالغةِ في دعوتهم إليه ببيان استحالة تحوّلهم عن الكفر، لكونه في غاية الحسن عندهم، أي: أبَعدَ ما ذُكر مَن زُيّن له الكفر مِن قِبل الشيطان فرآه حسنًا فانهمك فيه يقبل الهداية حتّى تطمع في إسلامه، وتُتعب نفسك في دعوته؟ / فحُذف ما حُذف لدلالة ما مرّ مِن قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾... إلخ على أنّه مِمّن شاء الله تعالى أن يضلّه، فمَن يَهدي مَن أضلّ اللهُ، وما لهم مِن ناصرين. [٣٧٩و]

وقُرئ: "فَلَا تُذْهِبْ نَفْسَكَ".[2]

وقوله تعالى: ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ إمّا مفعول له، أي: فلا تَهلِك نفسُك للحسرات. والجمع للدلالة على تضاعف اغتمامه عليه السلام على أحوالهم، أو على كثرة قبائح أعمالهم الموجِبة للتأسّف والتحسّر. و﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ صلةُ ﴿تَذۡهَبۡ﴾، كما يقال: "هلكَ عليه حبًّا"، و"ماتَ عليه حزنًا"، أو هو بيان للمتحسَّر عليه. ولا يجوز أن يتعلّق بـ﴿حَسَرَٰتٍ﴾؛ لأنّ المصدر لا يتقدّم عليه صلته، وإمّا حال، كأنّ كلّها صارت حسرات.

---

[1] السياق: إمّا تقرير... وإمّا تمهيد... وإمّا تمهيد...

[2] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٥١/٢.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ أي: مِن القبائح، تعليل لِما قبله على الوجوه الثلاثة،[1] مع ما فيه مِن الوعيد.

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّها نزلت في أبي جهل ومشركي مكّة.[2]

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ مبتدأ وخبر. وقُرئ: "الرِّيحَ".[3] وصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ لحكاية الحال الماضية استحضارًا لتلك الصورة البديعة الدالّة على كمال القدرة والحكمة، ولأنّ المراد بيان إحداثها لتلك الخاصّيّة، ولذلك أُسند إليها، أو للدلالة على استمرار الإثارة.

﴿فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ وقُرئ بالتخفيف،[4] ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: بالمطر النازل منه المدلولِ عليه بالسحاب، فإنّ بينهما تلازمًا في الذهن كما في الخارج، أو بالسحاب فإنّه سبَب السبَب، ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ أي: يُبْسِها.

وإيراد الفعلين على صيغة الماضي للدلالة على التحقّق. وإسنادهما إلى "نون" العظَمة المنبئ عن اختصاصهما به تعالى لِما فيهما مِن مزيد الصنع، ولتكميل المماثلة بين إحياء الأرض وبين البعث الذي شبّه به بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ في كمال الاختصاص بالقدرة الربّانيّة. و"الكاف" في حيّز الرفع على الخبريّة، أي: مثلُ ذلك الإحياء الذي تشاهدونه إحياءُ الأموات في صحّة المقدوريّة وسهولةِ التأتّي مِن غير تفاوتٍ بينهما أصلًا، سوى الإلْف في الأوّل دون الثاني. وقيل: في كيفيّة الإحياء؛ يرسل الله تعالى / مِن تحت العرش ماءً فينبت منه أجساد الخلق.[5] [٣٧٩ظ]

---

١ وفي هامش م: فإنّ عِلمه تعالى بسوء صنيعهم موجِب لكلّ واحد ممّا ذُكر، مِن كونهم في العذاب الشديد، ونهيِه عليه السلام عن التحسّر، وصرفِه عليه السلام عن المبالغة في دعوتهم. «منه».

٢ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٠١/٣؛ اللباب لابن عادل، ١٠٥/١٦.

٣ قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٢٣/٢.

٤ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٢٤/٢.

٥ من حديث طويل في المعجم الكبير للطبراني، ٣٥٤/٩ (٩٧٦١)؛ والمستدرك للحاكم، ٥٤١/٤ (٨٥١٩). ولفظه فيه: «فيُرسل الله ماءً مِن تحت العرش كمَنيّ الرجال، فتنبت لُحمانهم وجُثمانهم مِن ذلك الماء كما ينبت الأرض مِن الثرى».

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠﴾

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ هم المشركون الذين كانوا يتعزَّزون بعبادة الأصنام، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم، ٨١/١٩]، والذين كانوا يتعزَّزون بهم مِن الذين آمنوا بألسنتهم، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ [النساء، ١٣٩/٤]. والجمع بين ﴿كَانَ﴾ و﴿يُرِيدُ﴾ للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: له تعالى وحدَه -لا لغيره- عِزّة الدنيا وعِزّة الآخرة، أي: فليطلبها منه، لا مِن غيره، فاستُغني عن ذِكره بذِكر دليله إيذانًا بأنّ اختصاص العزّة به تعالى موجِب لتخصيص طلبها به تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ بيان لِما يُطلب به العزّة، وهو التوحيد والعمل الصالح. وصعودهما إليه مجاز عن قَبوله تعالى إيّاهما، أو صعودِ الكَتَبة بصحيفتهما. وتقديم الجارّ والمجرور عبارة عن كمال الاعتداد به، كقوله تعالى: ﴿هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة، ١٠٤/٩].

أي: إليه يَصل الكَلِم الطيّب الذي به يُطلَب العزّة، لا إلى الملائكة الموكَّلين بأعمال العباد فقط، وهو يُعِزّ صاحِبَه، ويعطي طِلبَتَه بالذات. والمستكِنّ في ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ لـ﴿ٱلْكَلِمُ﴾، فإنّ مدار قبول العمل هو التوحيد، ويؤيّده القراءة بنصب ﴿ٱلْعَمَلُ﴾.[١] أو لـ﴿ٱلْعَمَلُ﴾، فإنّه يُحقِّق الإيمان ويقوّيه، ولا ينال الدرجات العالية إلّا به.

وقُرئ: "يُصْعِدُ"[٢] مِن "الإصعاد" على البناءَين، والمُصعِد هو الله سبحانه، أو المتكلِّم به، أو الملَك.

وقيل: ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ يتناول الذِّكرَ والدعاءَ والاستغفارَ وقراءةَ القرآن.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٥؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٩/٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وابن مسعود رضي الله عنهم والسلَمي وإبراهيم. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٨/٩.

وعنه عليه السلام «أنّه "سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر"، إذا قاله العبد عرَج به الملَك إلى السماء، فحيّا بها وجهَ الرحمن، فإذا لم يكن عمل صالح لم يُقبل».[1]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «ما مِن عبد مسلم يقول خمس كلمات: "سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر، وتبارك الله"، إلّا أخذَهنّ ملَك فجعلَهنّ[2] تحت جناحه، ثمّ صعِد بهنّ، فما يَمُرّ بهنّ على جمع مِن الملائكة إلّا استغفروا لِقائلهنّ، حتّى يحيّي بهنّ وجه ربّ[3] العالمين».[4] ومصداقه قوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾... إلخ.[5]

﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بيان لحال الكَلِم الخبيث والعمل السيّئ وأهلِهما بعد بيان حال الكَلِم الطيّب والعملِ الصالح. وانتصابُ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ على أنّها صفة للمصدر المحذوف، أي: يمكرون المَكرات السيّئات، وهي مَكرات قريش بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم / في دار الندوة، وتدارُؤُهم الرأي [٣٨٠و] في إحدى الثلاث التي هي الإثبات والقتل والإخراج. ﴿لَهُمۡ﴾ بسبب مَكراتهم ﴿عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ لا يُقادَر قدرُه، ولا يُؤبَهُ عنده لِما يمكرون.

﴿وَمَكۡرُ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ وضع اسم الإشارة موضع ضميرهم للإيذان بكمال تميّزهم بما هم فيه مِن الشرّ والفساد عن سائر المفسدين واشتهارِهم بذلك. وما فيه مِن معنى البُعد للتنبيه على ترامي أمرهم في الطغيان، وبُعد منزلتهم في العدوان، أي: ومكرُ أولئك المفسدين الذين أرادوا أن يمكروا به عليه السلام ﴿هُوَ يَبُورُ﴾ أي: هو يَهلِك ويَفسد خاصّةً، لا مَن مكروا به، ولقد أبارهم الله تعالى بعد إبارة مَكراتهم، حيث أخرجهم مِن مكّة، وقتّلهم وأثبتهم في قليب بدرٍ، فجمع عليهم مَكراتِهم الثلاثَ التي اكتفَوا في حقّه عليه السلام بواحدة منهنّ.

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ١٠١/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٠٢/٣.

[2] س: فجعله.

[3] س: الرحمن.

[4] س - العالمين. | وهو في جامع البيان للطبري، ٣٣٨/١٩؛ والمستدرك للحاكم، ٤٦١/٢ (٣٥٨٩)، بلفظ: «وجه الرحمن».

[5] جامع البيان للطبري، ٣٣٨/١٩؛ المستدرك للحاكم، ٤٦١/٢ (٣٥٨٩).

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١١﴾

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ دليل آخر على صحّة البعث والنشور، أي: خلقكم ابتداءً منه في ضِمن خَلق آدم عليه السلام خَلقًا إجماليًا، كما مرّ تحقيقه مِرارًا، ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ أي: ثمّ خلقكم منها خَلقًا تفصيليًا، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ أي: أصنافًا، أو ذُكرانًا وإناثًا. وعن قتادة: «جعل بعضكم زوجًا لبعض».[١]

﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾ أي ملتبسةً بعلمه، تابعةً لمشيئته، ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ﴾ أي: مِن أحدٍ، وإنّما سُمّي "مُعمَّرًا" باعتبار مصيره، أي: وما يُمَدُّ في عمُر أحدٍ، ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ﴾ أي: مِن عمُر أحدٍ، على طريقة قولهم: "لا يُثيب الله عبدًا ولا يعاقبه إلّا بحقّ"، لكن لا على معنى: لا يُنقَص عمُره بعد كونه زائدًا؛ بل على معنى: لا يُجعَلُ مِن الابتداء ناقصًا.

وقيل: الزيادة والنقص في عمُرٍ واحدٍ باعتبار أسباب مختلفة أُثبِتَت في اللوح، مثل أن يُكتَب فيه: "إن حجَّ فلان فعمره ستّون، وإلّا فأربعون"، وإليه أشار صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «الصدقة والصِّلة تَعمُران الديار، وتزيدان / في الأعمار».[٢] [٣٨٠ظ]

وقيل: المراد بالنقص ما يمرّ مِن عمره ويَنقص، فإنّه يُكتَب في الصحيفة: "عمُره كذا وكذا سنةً"، ثمّ يُكتب تحت ذلك: "ذهبَ يوم"، "ذهبَ يومان"، وهكذا حتّى يأتي على آخره.[٣]

وقُرئ: "وَلَا يَنقُصُ"[٤] على البناء للفاعل، و"مِنْ عُمْرِهِ" بسكون "الميم".[٥]

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه اللوح.[٦] وقيل: علم الله عزّ وجلّ. وقيل: صحيفة كلّ إنسان.

---

١ جامع البيان للطبري، ٣٤٢/١٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٠٣/٣.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٦٠٤/٣. وأخرجه أحمد في مسنده، ١٥٣/٤٢ (٢٥٢٥٩)، بلفظ: «وصِلة الرحم وحُسن الخُلق وحُسن الجوار يَعمران الديار، ويزيدان في الأعمار».

٣ قاله سعيد بن جبير. الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٢/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٠٢/٣.

٤ قرأ بها يعقوب بخُلف عن رُويس. النشر لابن الجزري، ٣٥٢/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٥.

٦ الكشّاف للزمخشري، ٦٠٤/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٠/٩.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الخَلق وما بعده مع كونه مَحارًا للعقول والأفهام ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائه عن الأسباب، فكذلك البعث.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ مَثَل ضُرِب للمؤمن والكافر. و"الفُرات": الذي يكسِر العطش. و"السائغ": الذي يَسهُل انحدارُه لعُذوبته. و"الأُجاج": الذي يَحرِق بمُلوحته. وقُرئ: "سَيِّغٌ"[1] كـ"سيّدٍ"، و"سَيْغٌ" بالتخفيف.[2] و"مَلِحٌ"[3] كـ"كَتِفٍ".

وقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ أي: مِن كلّ واحد منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ أي: مِن المالح خاصّةً ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ إمّا استطراد في صفة "البحرين" وما فيهما مِن النِّعم والمنافع، وإمّا تكملةٌ للتمثيل، والمعنى: كما أنّهما وإن اشتركا في بعض الفوائد لا يتساويان مِن حيث إنّهما متفاوتان فيما هو المقصود بالذات مِن الماء، لِما خالَط أحدَهما ما أفسده وغيَّره عن كمال فطرته؛ لا يساوي الكافرُ المؤمنَ وإن شاركه في بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة ونحوهما، لتباينهما فيما هو الخاصّيّة العظمى، لبقاء أحدهما على فطرته الأصليّة، وحِيازته لكماله اللائق دون الآخر.

أو تفضيلٌ للأُجاج على الكافر مِن حيث إنّه يشارِك العذبَ في منافعَ كثيرة، والكافرُ خِلو مِن المنافع بالكلّيّة، على طريقة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة، ٢/٧٤].

/ والمراد بـ"الحِلية" اللؤلؤ والمرجان. [٣٨١و]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى البصرة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٥.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى البصرة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٥.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٥.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ﴾ أي: في كلّ منهما. وإفراد ضمير الخطاب مع جمعه فيما سبق وما لحِق لأنّ الخطاب لكلّ أحد تَتأتّى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط. ﴿مَوَاخِرَ﴾ شواقُّ للماء بجَريها مُقبِلة ومُدبِرة بريح واحدة، ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ مِن فضل الله تعالى بالنَّقلة فيها. و"اللام" متعلّقة بـ﴿مَوَاخِرَ﴾، وقد جُوّز تعلّقها بما يدلّ عليه الأفعال المذكورة، أي: فعلَ ذلك لتبتغوا مِن فضله.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: ولتشكروا على ذلك. وحرف الترجّي للإيذان بكونه مَرضيًا عنده تعالى.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ بزيادة أحدهما ونقص الآخر، بإضافة بعض أجزاء كلّ منهما إلى الآخر. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ عطفٌ على ﴿يُولِجُ﴾. واختلافهما صيغةً لِما أنّ إيلاج أحد المَلَوين في الآخر متَجدّد حينًا فحينًا، وأمّا تسخير النيّرين فأمرٌ لا تعدّدَ فيه، وإنّما المتعدّد والمتجدّد آثارُه، وقد أشيرَ إليه بقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِى﴾ أي: بحسب حركته الخاصّة وحركته القَسريّة على المدارات اليوميّة المتعدّدة حسب تعدّد أيّام السَّنة جريانًا مستمرًّا ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قدّره الله تعالى لجريانهما، وهو يوم القيامة، كما روي عن الحسَن رحمه الله تعالى.[١]

وقيل: "جريانهما" عبارة عن حركتَيهما الخاصّتَين بهما في فلكَيهما، و"الأجَل المسمّى" عن مُنتهى دورتَيهما، ومدّةُ الجريان للشمس سنة، وللقمر شهر، وقد مرّ تفصيله في سورة لقمان.[٢]

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى فاعل الأفاعيل المذكورة. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بغاية العظَمة. وهو مبتدأ، وما بعده أخبار مترادفة، أي: ذلكم العظيم الشأنِ

---

١ س – تعالى. | الكشّاف للزمخشري، ٥٠٢/٣ (لقمان، ٢٩/٣١).

٢ لقمان، ٢٩/٣١.

الذي أبدَعَ هذه الصنائع البديعة ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾ وفيه مِن الدلالة على أنّ إبداعه تعالى لتلك البدائع ممّا يوجب ثبوت تلك الأخبار له ما لا يخفى. ويجوز أن يكون الأخيرُ كلامًا مبتدأً في مقابلة قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ للدلالة على تفرّده تعالى بالألوهيّة والربوبيّة.

وقُرئ: "يَدْعُونَ" بـ"الياء" التحتانيّة.[١] والقِطمير: لِفافة النواة، وهو مَثَل في القِلّة والحقارة.

﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾

﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ استئناف مقرِّر لمضمون ما قبله، كاشفٌ عن جليّة حال ما يدعونه بأنّه جماد ليس مِن شأنه السماع، ﴿وَلَوۡ سَمِعُواْ﴾ على الفرض والتقدير ﴿مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡ﴾ لعجزهم عن الأفعال بالمرّة، لا لِما قيل[٢] مِن أنّهم متبرّئون / منكم وممّا تدّعون لهم، فإنّ ذلك ممّا لا يتصوّر منهم في الدنيا. [٣٨١ظ]

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ﴾ أي: يجحدون بإشراككم لهم وعبادتِكم إيّاهم بقولهم: "ما كنتم إيّانا تعبدون".[٣]

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ أي: لا يخبرك بالأمر مخبِر مثلُ خبير أخبرَك به، وهو الحقّ سبحانه، فإنّه الخبير بكُنه الأمور دون سائر المخبِرين. والمراد تحقيق ما أخبر به مِن حال آلهتهم، ونفيِ ما يدّعون لهم مِن الإلَهيّة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في أنفسكم وفيما يعِنّ لكم مِن أمرٍ مُهمّ أو خَطب مُلِمّ. وتعريف ﴿ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ للمبالغة في فقرهم، كأنّهم لكثرة افتقارهم

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى وسلام ويعقوب. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢١/٩.

[٢] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٦٠٥/٣؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٥٦/٤.

[٣] قال تعالى: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾ [يونس، ٢٨/١٠].

وشدّةِ احتياجهم هم الفقراء فحسب، وأنّ افتقار سائر الخلائق بالنسبة إلى فقرهم بمنزلة العدم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء، ٢٨/٤].

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: المستغني على الإطلاق، المنعمُ على سائر الموجودات، المستوجبُ للحمد.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝١٧﴾

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ليسوا على صفتكم؛ بل مستمرّون على الطاعة، أو بعالَم آخر غيرَ ما تعرفونه.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الإذهاب بهم والإتيانِ بآخرين ﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بمتعذِّر ولا متعسِّر.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝١٨﴾

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ أي: لا تحمِل نفسٌ آثمة ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ إثمَ نفسٍ أخرى؛ بل إنّما تحمِل كلٌّ منهما وِزرَها. وأمّا ما في قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت، ١٣/٢٩] مِن حمل المضلّين أثقالًا غيرَ أثقالهم؛ فهو حملُ أثقالِ إضلالهم مع أثقالِ ضلالهم، وكلاهما أوزارُهم ليس فيها مِن أوزار غيرهم شيء.

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أي: نفسٌ أثقلَها الأوزار ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ لِيُحمَل بعضُ أوزارها، ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ لم تُجَبْ[1] بحمل شيء منه، ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ أي:[2] المدعوُّ المفهوم مِن الدعوة ﴿ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ ذا قرابة مِن الداعي. وقُرِئ: "ذُو قُرْبَى".[3] وهذا نفي للحمل اختيارًا، والأوّلُ نفي له إجبارًا.

---

١ ط س: يُجَبْ.
٢ س - أي.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني والضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٥.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ استئناف مَسوق / لبيان مَن يتّعظ بما ذُكر، أي: إنّما تُنذر بهذه [٣٨٢و]
الإنذارات ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: يخشونه تعالى غائبين عن عذابه، أو عن الناس في خلَواتهم، أو يخشون عذابه، وهو غائب عنهم، ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: راعَوها كما ينبغي، وجعلوها مَنارًا منصوبًا، وعلَمًا مرفوعًا، أي: إنّما ينفع إنذارك وتحذيرك هؤلاء مِن قومك دون مَن عداهم مِن أهل التمرّد والعناد.

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: تطهّر مِن أوضار الأوزار والمعاصي بالتأثّر مِن هذه الإنذارات ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ لاقتصار نفعه عليها، كما أنّ مَن تدنّس بها لا يتدنّس إلّا عليها. وقُرئ: "مَنِ ازَّكَّى فَإِنَّمَا يَزَّكَّى"،[١] وهو اعتراض مقرِّر لخَشيتهم وإقامتهم الصلاة؛ لأنّهما مِن معظم مبادي التزكّي.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ لا إلى أحد غيره استقلالًا أو اشتراكًا، فيجازيهم على تزكّيهم أحسنَ الجزاء.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: الكافر والمؤمن.

﴿وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ أي: ولا الباطلُ ولا الحقُّ. وجمع ﴿ٱلظُّلُمَـٰتُ﴾ مع إفراد ﴿ٱلنُّورُ﴾ لتعدّد فنون الباطل واتّحادِ الحقّ.

﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ أي: ولا الثوابُ ولا العقابُ. وإدخال ﴿لَا﴾ على المتقابلَين لتذكير نفي الاستواء، وتوسيطُها بينهما للتأكيد. و﴿ٱلْحَرُورُ﴾ "فَعُول" مِن الحَرّ، غلَب على "السَّموم". وقيل: "السَّموم" ما يهبّ نهارًا، و"الحَرور" ما يهبّ ليلًا.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أبلغُ مِن الأوّل، ولذلك كُرّر الفعل. وأوثرَ صيغةُ الجمع في الطرفين تحقيقًا للتباين بين أفراد الفريقين. وقيل: تمثيلٌ للعلماء والجهلة.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٢٥.

[٣٨٢ظ] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يُسمِعَه ويُوفِّقُه لفهم آياته / والاتّعاظِ بعِظاته. ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ ترشيح لتمثيل المُصرّين على الكفر بالأموات، وإشباعٌ في إقناطه عليه السلام مِن إيمانهم.

﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ٢٣ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤﴾

﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ما عليك إلّا الإنذار، وأمّا الإسماع البتّة فليس مِن وظائفك، ولا حيلةَ لك إليه في المطبوع على قلوبهم.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: محِقّين، أو محِقًّا أنت، أو إرسالًا مصحوبًا بالحقّ. ويجوز أن يتعلّق بقوله: ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ أي: بشيرًا بالوعد الحقّ، ونذيرًا بالوعيد الحقّ. ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ﴾ أي: ما مِن أمّة مِن الأمم الدارجة في الأزمنة الماضية ﴿إِلَّا خَلَا﴾ أي: مضى ﴿فِيهَا نَذِيرٞ﴾ مِن نبيّ أو عالمٍ يُنذرهم. والاكتفاء بذكره للعلم بأنّ النِّذارة قرينة البِشارة، لا سيّما وقد اقترَنا آنفًا، ولأنّ الإنذار هو الأنسب بالمقام.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ٢٥ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٢٦﴾

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ أي: تَمّوا على تكذيبك، فلا تبالِ بهم وبتكذيبهم، ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مِن الأمم العاتية، ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزاتِ الظاهرة الدلالةِ على نبوّتهم، ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ كصحف إبراهيم، ﴿وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ كالتوارة والإنجيل والزبور على إرادة التفصيل دون الجمع، ويجوز أن يُراد بهما واحد، والعطف لتغاير العنوانين.

﴿ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وضع الموصول موضع ضميرهم لذمّهم بما في حيّز الصلة، والإشعارِ بعلّةِ الأخذ، ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري بالعقوبة. وفيه مزيد تشديد وتهويل لها.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧﴾

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ استئناف مَسوق لتقرير ما قبله مِن اختلاف أحوال الناس ببيان

أنّ الاختلاف والتفاوت أمر مُطّرد في جميع المخلوقات مِن النبات والجماد والحيوان. والرؤية قلبيّة، أي: ألم تعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ﴾ بذلك الماء. والالتفات لإظهار كمال الاعتناء بالفعل، لِما فيه مِن الصنع البدِيع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة.

﴿ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ﴾ أي: أجناسُها، أو أصنافُها، على أنّ كلًّا منها ذو أصناف مختلفة، أو هيئاتُها وأشكالُها، أو ألوانُها مِن الصُّفرة والخُضرة والحُمرة وغيرها، وهو الأوفق لِما في قوله تعالى: / ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ﴾ أي: ذو جُدَد، أي: خُطَطٍ وطرائقَ، ويقال: "جُدّةُ الحِمار" للخُطّة السوداء على ظهره. وقُرئ: "جُدُدٌ" بالضمّ،[1] جمع "جَديدة" بمعنى "الجُدّة"، و"جَدَدٌ" بفتحتين،[2] وهو الطريق الواضح. ﴿بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا﴾ بالشدّة والضعف. [٣٨٣و]

﴿وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾ عطفٌ على ﴿بِيضٞ﴾، أو على ﴿جُدَدُۢ﴾، كأنّه قيل: ومِن الجبال مخطَّط ذو جُددٍ، ومنها ما هو على لون واحد غرابيبُ. وهو تأكيد لمُضمَر يفسّره ما بعده، فإنّ "الغِربيب" تأكيد للأسود، كالفاقع للأصفر، والقاني للأحمر، ومِن حقّ التأكيد أن يتبع المؤكَّد، ونظيره في الصفة قول النابغة:

والمؤمنِ العائذاتِ الطيرَ يمسحُها[3]

وفي مثله مزيدُ تأكيدٍ لِما فيه التكرار باعتبار الإضمار والإظهار.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ أي: ومنهم بعضٌ مختلف ألوانه، أو وبعضُهم مختلف ألوانه، على ما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة، ٨/٢].

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٦.

٣ وفي هامش م: تمامه:
رُكبانُ مكّةَ بين الغَيلِ والسنَدِ
ديوان النابغة، ص ٢٠.

وإيراد الجملتين اسميّتين مع مشاركتهما لِما قبلهما مِن الجملة الفعليّة في الاستشهاد بمضمونهما على تباين الناس في الأحوال الباطنة لِما أنّ اختلاف الجبال والناس والدوابّ والأنعام فيما ذُكر مِن الألوان أمر مستمرّ، فعُبِّر عنه بما يدلّ على الاستمرار، وأمّا إخراج الثمرات المختلفة فحيث كان أمرًا حادثًا عُبّر عنه بما يدلّ على الحدوث، ثمّ لمّا كان فيه نوع خفاء عُلّقِ به الرؤية بطريق الاستفهام التقريري المنبئِ عن الحمل عليها والترغيبِ فيها، بخلاف أحوال الجبال والناس وغيرهما، فإنّها مشاهَدةٌ غنيّة عن التأمّل، فلذلك جُرّدت عن التعليق بالرؤية، فتدبّر.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مصدر تشبيهي لقوله تعالى: ﴿مُخْتَلِفٌ﴾، أي: صفة لمصدره المؤكِّد، تقديره: مختلف اختلافًا كائنًا كذلك، أي: كاختلاف الثمار والجبال.

وقُرئ: "أَلْوَانُهَا".[1] وقُرئ: "وَالدَّوَابِ" بالتخفيف[2] مبالغةً في الهرب مِن التقاء الساكنين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ تكملة لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾[3] بتعيين مَن يخشاه عزّ وجلّ مِن الناس بعد بيان اختلاف طبقاتهم، وتباينِ مراتبهم، أمّا في الأوصاف المعنويّة فبطريق التمثيل، وأمّا في الأوصاف الصوريّة فبطريق التصريح، توفيةً لكلّ واحدة منهما حقَّها اللائقَ بها مِن البيان، أي: إنّما يخشاه تعالى بالغيب العالِمون به عزّ وجلّ وبما[4] يليق به مِن صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة، لِما أنّ مدارَ الخشية معرفةُ المَخشيّ والعلمُ بشئونه، فمَن كان أعلمَ به تعالى كان أخشى منه عزّ وجلّ، كما قال عليه السلام: «أنا أخشاكم لله، وأتقاكم له»[5] ولذلك عُقِّب بذكر أفعاله الدالّة على كمال قدرته. وحيث كان الكفرة بمَعزِل مِن هذه المعرفة امتنع إنذارهم بالكلّيّة.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٦.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٠/٩.

[3] فاطر، ١٨/٣٥.

[4] س: وما.

[5] صحيح البخاري، ٢/٧ (٥٠٦٣)؛ صحيح ابن حبّان، ٢١/٢ (٣١٧).

وتقديمُ المفعول لأنّ المقصود حصرُ الفاعليّة، ولو أُخِّر انعكس الأمر. وقُرئ برفع الاسم الجليل ونصبِ ﴿ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾،[١] على أنّ الخشية مستعارة للتعظيم، فإنّ المعظّم يكون مَهيبًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل لوجوب الخشية، لدلالته على أنّه معاقِب للمصرّ على طغيانه، غفورٌ للتائب عن عصيانه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي: يداوِمُون على قراءته أو متابعةِ ما فيه حتّى صارت سِمةً لهم وعنوانًا. والمراد بـ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ تعالى **القرآنُ**. / وقيل:[٢] [٣٨٣ظ] جنسُ كُتُب الله تعالى، فيكون ثناءً على المصدِّقين مِن الأمم بعد اقتصاص حال المكذّبين منهم، وليس بذاك، فإنّ صيغة المضارع منادية باستمرار مشروعيّة تلاوته والعمل بما فيه واستتباعِهما لِما سيأتي مِن توفية الأجور وزيادة الفضل. وحَملها على حكاية الحال الماضية مع كونه تعسّفًا ظاهرًا ممّا لا سبيل إليه، كيف لا والمقصود الترغيب في دين الإسلام والعملِ **بالقرآن** الناسخِ لِما بين يديه مِن الكتب؟ فالتعرّض لبيان حقّيّتها قبل انتساخها والإشباعُ في ذِكر استتباعها لِما ذُكر مِن الفوائد العظيمة ممّا يُورث الرغبة في تلاوتها، والإقبالَ على العمل بها.

وتخصيص التلاوة بما لم يُنسَخ منها باطل قطعًا، لِما أنّ الباقي مشروعًا ليس إلّا حكمَها، لكن لا مِن حيث إنّه حكمها؛ بل مِن حيث إنّه حكم **القرآن**، وأمّا تلاوتها فبمَعزِل مِن المشروعيّة واستتباعِ الأجر بالمرّة، فتدبّر.

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ كيفما اتّفق مِن غير قصدٍ إليهما. وقيل: "السرّ" في المسنونة، و"العلانية" في المفروضة. ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً﴾

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٩٦. قال أبو حيّان: «ولعلّ ذلك لا يصحّ عنهما، وقد رأينا كُتبًا في الشواذّ، ولم يذكروا هذه القراءة». **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣١/٩.

[٢] قاله البيضاوي في **أنوار التنزيل**، ٢٥٧/٤.

تحصيلَ ثوابٍ بالطاعة. وهو خبر ﴿إنَّ﴾. وقوله تعالى: ﴿لَن تَبُورَ﴾ أي: لن تكسَد ولن تهلِك بالخسران أصلًا، صفةٌ للتجارة، جيء بها للدلالة على أنّها ليست كسائر التجارات الدائرة بين الربح والخُسران؛ لأنّه اشتراءُ باقٍ بفانٍ. والإخبارُ برجائهم مِن أكرم الأكرمين عِدَةٌ قطعيّة بحصول مرجوّهم.

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ متعلّق بـ﴿لَن تَبُورَ﴾،[١] على معنى أنّه ينتفي عنها الكساد، وتَنفُق عند الله تعالى، لِيوفّيَهم أجورَ أعمالهم، ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ على ذلك مِن خزائن رحمته ما يشاء. وقيل: بمُضمَر دلّ عليه ما عُدَّ مِن أفعالهم المرضيّة، أي: فعلوا ذلك ليوفّيَهم... إلخ. وقيل: بـ﴿يَرْجُونَ﴾ على أنّ "اللام" للعاقبة.

﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ تعليل لِما قبله مِن التوفية والزيادة، أي: غفور لفرطاتهم، شكور لطاعاتهم، أي: مجازيهم عليها. وقيل: هو خبرُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾، و﴿يَرْجُونَ﴾ حال مِن "واو" ﴿أَنفَقُوا۟﴾.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ وهو القرآن، و﴿مِن﴾ للتبيين، أو الجنسُ، و﴿مِن﴾ للتبعيض. وقيل: اللوحُ، و﴿مِن﴾ للابتداء. ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: أحُقّه مصدِّقًا لِما تقدّمه مِن الكتب السماويّة. حال مؤكِّدة، لأنّ حقّيته تستلزم موافقته إيّاه في العقائد وأصول الأحكام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ محيطٌ ببواطن أمورهم وظواهرها، فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوّة لم يُوحِ إليك مثلَ هذا الحقّ المعجز الذي هو عِيارٌ على سائر الكتب. وتقديم "الخبير" للتنبيه على أنّ العمدة هي الأمور الروحانيّة.

---

[١] في الآية السابقة.

﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾

﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ﴾ / أي: قَضينا بتوريثه منك، أو نُورِثُه. والتعبير عنه بالماضي [٣٨٤و]
لتقرّره وتحقّقه. وقيل: أورثناه مِن الأمم السالفة، أي: أخّرناه عنهم، وأعطيناه ﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾ وهم علماء الأمّة مِن الصحابة ومَن بعدهم ممّن يسير سيرتهم، أو الأمّةُ بأسرهم، فإنّ الله تعالى اصطفاهم على سائر الأمم، وجعَلهم أمّةً وسطًا ليكونوا شهداء على الناس، واختصّهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسله عليهم الصلوات. وليس مِن ضرورة وِراثة الكتاب مراعاته حقَّ رعايته، لقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الآيةَ [الأعراف، ١٦٩/٧].

﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ بالتقصير في العمل به، وهو المُرْجِئُ لأمر الله، ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ يعمل به في أغلب الأوقات، ولا يخلو مِن خَلط السيّئ، ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ قيل: هم السابقون الأوّلون مِن المهاجرين والأنصار. وقيل: هم المداوِمون على إقامة مواجبه علمًا وعملًا وتعليمًا، وفي قوله تعالى: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ -أي: بتيسيره وتوفيقه- تنبيهٌ على عزّة مَنال هذه الرتبة، وصعوبةِ مأخذها.

وقيل: "الظالم" الجاهل، و"المقتصد" المتعلّم، و"السابق" العالم.

وقيل: "الظالم" المجرم، و"المقتصِد" الذي خلَط الصالح بالسيّئ، و"السابق" الذي ترجّحت حسناته، بحيث صارت سيّئاته مكفَّرة، وهو معنى قوله عليه السلام: «أمّا الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنّة يُرزَقون فيها بغير حساب، وأمّا المقتصِد فأولئك يحاسَبون حسابًا يسيرًا، وأمّا الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يُحبَسون في طول المحشر، ثم يتلقّاهم الله تعالى برحمته».[1] وقد رُوي أنّ عمر رضي الله عنه قال وهو على المنبر: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «سابِقُنا سابِق، ومقتصِدُنا ناجٍ، وظالمُنا مغفور له».[2]

---

[1] مسند أحمد، ٥٧/٣٦ (٢١٧٢٦)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٨/٨.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ١١١/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٠٥/٣.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى "السبق بالخيرات"، وما فيه مِن معنى البُعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلوّ رتبته، وبُعد منزلته في الشرف. ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ مِن الله عزّ وعلا،[١] لا يُنال إلّا بتوفيقه تعالى.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ٣٣﴾

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ إمّا بدل مِن ﴿ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[٢] بتنزيل السبَب منزلةَ المسبَّب، أو مبتدأ خبره: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾، وعلى الأوّل هو مستأنَف. وجمع الضمير / لأنّ [٣٨٤ظ] المراد بـ"السابق" الجنس.

وتخصيص حال السابقين ومآلِهم بالذكر والسكوتُ عن الفريقين الآخَرين وإن لم يدلّ على حِرمانهما مِن دخول الجنّة مطلقًا، لكنّ فيه تحذيرًا لهما مِن التقصير، وتحريضًا على السعي في إدراك شأوِ السابقين.

وقُرئ: "جَنَّاتِ عَدْنٍ"،[٣] و"جَنَّةَ عَدْنٍ"،[٤] على النصب بفعل يفسّره الظاهر. وقُرئ: "يُدْخَلُونَهَا" على البناء للمفعول.[٥]

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ خبر ثانٍ، أو حال مقدَّرة. وقُرئَ: "يَحْلَونَ"[٦] مِن "حَلِيَتِ المرأةُ، فهي حالية". ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ هي جمع "أَسْوِرة" جمع "سِوار" ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ الأولى تبعيضيّة، والثانية بيانيّة، أي: يُحلّون بعضَ أساوِر مِن ذهب، كأنّه أفضل مِن سائر أفرادها. ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنصب عطفًا على محلّ ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾. وقُرئ بالجرّ[٧] عطفًا على ﴿ذَهَبٍ﴾، أي: مِن ذهبٍ مرصَّع مِن لؤلؤ، أو مِن ذهبٍ في صفاء اللؤلؤ.

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وتغيير الأسلوب قد مرّ سِرّه في سورة الحجّ.[٨]

---

١ س: عزّ وجلّ.
٢ في الآية السابقة.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٦.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن زرّ بن حُبَيش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٦.
٥ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٢.
٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٣٤.
٧ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٦.
٨ الحج، ٢٢/٢٣.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤﴾

﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: يقولون، وصيغةُ الماضي للدلالة على التحقّق: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ وهو ما أهمّهم مِن خوف سوء العاقبة. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «حَزَنَ الأعراض والآفات».[1] وعنه: «حَزَنَ الموت».[2] وعن الضحّاك: «حَزَنَ وسوسة إبليس».[3] وقيل: هَمَّ المعاش. وقيل: حَزَنَ زوال النِّعم. والظاهر أنّه الجنس المنتظِم لجميع أحزان الدين والدنيا. وقُرِئ: "الْحُزْنَ".[4]

وعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ليس على أهل "لا إله إلّا الله" وَحشة في قبورهم ولا في مَحشَرهم، ولا في مَسيرهم، وكأنّي بأهل "لا إله إلّا الله" يخرجون مِن قبورهم، يَنفضون التراب عن وجوههم، ويقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾».[5] ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ أي: للمذنبين ﴿شَكُورٌ﴾ للمطيعين.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥﴾

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ أي: دارَ الإقامة التي لا انتقال عنها / أبدًا. ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ مِن إنعامه وتفضّله مِن غير أن يوجبه شيء مِن قِبَلنا، ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب، ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ كَلال. والفرق بينهما أنّ "النَّصَب" نفس المشقّة والكُلفة، و"اللُّغوب" ما يحدث منه مِن الفتور. والتصريح بنفي الثاني مع استلزام نفي الأوّل له وتكريرُ الفعل المنفيّ للمبالغة في بيان انتفاء كلّ منهما. [٣٨٥و]

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦﴾

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٦١٤/٣. وفي جامع البيان للطبري، ٣٧٧/١٩؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١١٢/٨، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «حَزَن النار».

٢ الكشّاف للزمخشري، ٦١٤/٣. وذكره البغوي في معالم التنزيل، ٤٢٣/٦، عن قتادة.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ١١٢/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٦١٤/٣.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن جناح بن حبيش. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٤/٩؛ اللباب لابن عادل، ١٤٣/١٦.

٥ المعجم الأوسط للطبراني، ١٨١/٩ (٩٤٧٨)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١١٢/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٠٦/٣.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ لا يُحكم عليهم بموتٍ ثانٍ ﴿فَيَمُوتُواْ﴾ ويستريحوا. ونصبه بإضمار "أن". وقُرئ: "فَيَمُوتُونَ"[1] عطفًا على ﴿يُقْضَىٰ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات، ٣٦/٧٧].

﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ بل كلّما خَبَتْ زِيد إسعارها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الجزاء الفظيع ﴿نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ مبالِغ في الكفر أو الكفران، لا جزاءً أخفَّ وأدنى منه. وقُرئ: "يُجْزَى"[2] على البناء للمفعول، وإسناده إلى "الكُلّ". وقُرئ: "نُجَازِي".[3]

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ[4] أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ يستغيثون. و"الاصطِراخ" "افتِعال" مِن "الصُّراخ"، استعمل في الاستغاثة لجهر المستغيث صوتَه.

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ بإضمار القول. وتقييدُ العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسّر على ما عملوه مِن غير الصالح والاعترافِ به، والإشعارِ بأنّ استخراجهم لتلافيه، وأنّهم كانوا يحسبونه صالحًا، والآن تبيّن خلافه.

وقوله تعالى:[4] ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ جواب مِن جهته تعالى، وتوبيخ لهم. و"الهمزة" للإنكار والنفي، و"الواو" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام. و﴿مَا﴾ نكرة موصوفة، أي: أَلَم نُمهِلكم، أو أَلَم نؤخِّركم ولم نُعمِّركم عُمْرًا يتذكّر فيه مَن تذكّر، أي: يتمكّن فيه المتذكِّر مِن التذكّر / والتفكّرِ. قيل: [٣٨٥ظ]
هو أربعون سنةً. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما:[5] «ستّون سنةً»،[6] ورُوي ذلك

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٧.

[2] قرأ بها أبو عمرو البصري. النشر لابن الجزري، ٣٥٢/٢.

[3] كذلك وقع ضبطها في الأصول الخطّيّة، ولم أجدها كذلك في المصادر، ولعلّ الصواب "يُجَازَى" بـ"الياء" وفتح "الزاي"؛ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٧.

[4] س – وقوله تعالى.

[5] م – رضي الله عنهما.

[6] جامع البيان للطبري، ٣٨٤/١٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١١٤/٨.

عن عليّ رضي الله تعالى عنهم،[١] وهو العمر الذي أعذَرَ الله فيه إلى ابن آدم، قال عليه السلام: «أعذَرَ الله إلى امرئ أخَّر أجَله حتّى بلغ ستّين سنةً».[٢]

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ عطفٌ على الجملة الاستفهاميّة؛ لأنّها في معنى: قد عمّرناكم، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۞ وَوَضَعْنَا﴾... إلخ [الشرح، ٩٤/١-٢]؛ لأنّه في معنى: قد شرَحْنا... إلخ، والمراد بـ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو ما معه مِن القرآن. وقيل: العقل. وقيل: الشيب. وقيل: موت الأقارب. والاقتصار على ذكر "النذير"؛ لأنّه الذي يقتضيه المقام.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما قبلها مِن التعمير ومجيءِ النذير.[٣] وفي قوله تعالى: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ للتعليل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۞﴾ ٣٨

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بالإضافة. وقُرئ بالتنوين ونصبِ "غَيبَ"[٤] على المفعوليّة، أي: لا يخفى عليه خافية فيهما، فلا يخفى عليه أحوالهم.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ قيل: إنّه تعليل لِما قبله؛ لأنّه إذا عَلِم مضمَرات الصدور وهي أخفى ما يكون كان أعلمَ بغيرها.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ۞﴾ ٣٩

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يقال للمستخلَف: "خليفة"، و"خَليف"، والأوّلُ يُجمع "خلائف"، والثاني "خُلفاء". والمعنى: أنّه تعالى جعلكم خلفاءَه في أرضه، وألقى إليكم مقاليد التصرّف فيها، وسلّطكم على ما فيها، وأباح لكم منافعها، أو جعلكم خلفاء ممّن قبلكم مِن الأمم، وأورثكم ما بأيديهم مِن متاع الدنيا لتشكروه بالتوحيد والطاعة.

---

١ س: عنه. | جامع البيان للطبري، ١٩/٣٨٦؛ واللباب لابن عادل، ١٦/١٤٨.

٢ مسند أحمد، ١٣/١٣٩ (٧٧١٣)؛ صحيح البخاري، ٨/٨٩ (٦٤١٩).

٣ س + النذير.

٤ أي: "عَالِمٌ غَيْبَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن جناح بن حبيش. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٣٧.

﴿فَمَن كَفَرَ﴾ منكم مثلَ هذه النعمة السنيّة وغمِطَها ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: وبالَ كُفرِه، لا يتعدّاه إلى غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ بيان لوَبال الكفر وغائلته، وهو مَقتُ الله تعالى إيّاهم، أي: بغضُه الشديد الذي ليس وراءَه خزي وصَغار، / وخَسارُ الآخرةِ الذي ما بعده [٣٨٦و] شرّ وخَسار. والتكرير لزيادة التقرير، والتنبيهِ على أنّ اقتضاء الكفر لكلّ واحد مِن الأمرَين الهائلَين القبيحَين بطريق الاستقلال والأصالة.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾

﴿قُلْ﴾ تبكيتًا لهم: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: آلهتَكم، والإضافة إليهم لأنّهم جعلوهم شركاءَ لله تعالى مِن غير أن يكون له أصل ما أصلًا. وقيل: جعلوهم شركاء لأنفسهم فيما يملكونه،[1] ويأباه سباق النظم الكريم وسياقه.

﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بدل اشتمال مِن ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، كأنّه قيل: أخبروني عن شركائكم، أرُوني أيَّ جزء خَلقوا مِن الأرض. ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: أم لهم شركة مع الله سبحانه في خَلق السماوات ليستحقّوا بذلك شركة في الألوهيّة ذاتيّة.

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ ينطق بأنّا اتّخذناهم شركاء، ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أي: حجّةٍ ظاهرةٍ مِن ذلك الكتاب بأنّ لهم شركةً جَعليّةً. ويجوز أن يكون ضمير ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ للمشركين، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾... إلخ [الروم، ٣٠/٣٥]. وقُرئ: "عَلَى بَيِّنَاتٍ"،[2] وفيه إيماء إلى أنّ الشرك أمرٌ خطير لا بدَّ في إثباته مِن تعاضد الدلائل.

---

[1] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٦١/٤.

[2] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر والكسائي ويعقوب وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٥٢/٢.

﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ لمّا نُفي أنواعُ الحجج في ذلك أُضربَ عنه بذِكر ما حملهم عليه، وهو تغريرُ الأسلاف للأخلاف، وإضلالُ الرؤساء للأتباع، بأنّهم شفعاء عند الله، يشفعون لهم بالتقرّب إليهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ استئناف مَسوق لبيان غاية قُبح الشرك وهَوْلِه، أي: يُمسكهما كراهةَ زوالهما، أو يمنعهما أن تزولا؛ / لأنّ الإمساك منع. ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ أي: ما أمسكهما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ مِن بعد إمساكه تعالى، أو مِن بعد الزوال. والجملة سادّة مسدَّ الجوابَين، و﴿مِنْ﴾ الأولى مَزيدة لتأكيد العموم، والثانية للابتداء. [٣٨٦ظ]

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ غيرَ معاجِل بالعقوبة التي تستوجبها جناياتهم حيث أمسكهما وكانتا جديرتَين بأن تُهَدَّا هدًّا حسبما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ [مريم، ١٩/٩٠]. وقُرئ: "وَلَوْ زَالَتَا".[١]

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ بلغ قريشًا قبلَ مَبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّ أهل الكتاب كذّبوا رسلهم، فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى أَتَتهم الرسل فكذّبوهم، فوالله لئن أتانا رسول لنكوننّ أهدى مِن إحدى الأمم اليهودِ والنصارى وغيرِهم، أو مِن الأمّة التي يقال لها: "إحدى الأمم"، تفضيلًا لها على غيرها في الهدى والاستقامة.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وأيُّ نذير؛ أشرفُ الرسل عليهم السلام ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ أي: النذير أو مجيئُه ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ تباعدًا عن الحقّ.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٧.

﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بدل مِن ﴿نُفُورًا﴾،[1] أي: مفعول له ﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕ﴾ أصلُه: "وأن مكَروا السَّيِّئَ"، أي: المكرَ السيِّئَ، ثمّ "ومكرًا السيِّئَ"، ثمّ ﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕ﴾. وقُرئ بسكون "الهمزة" في الوصل،[2] ولعلّه اختلاس ظُنَّ سكونًا، أو وقفةٌ خفيفة.[3] وقُرئ: "مَكْرًا سَيِّئًا".[4]

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: سنّة الله فيهم بتعذيب مكذّبيهم، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾
[٣٨٧و] بأن يضع موضعَ العذاب غيرَ العذاب، / ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ بأن ينقله مِن المكذّبين إلى غيرهم. و"الفاء" لتعليل ما يفيده الحكمُ بانتظارهم العذابَ مِن مجيئه. ونفي وجدان التبديل والتحويل عبارةٌ عن نفي وجودها بالطريق البرهاني. وتخصيصُ كلّ منهما بنفيٍ مستقلٍ لتأكيد انتفائهما.

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾﴾

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ استشهاد على ما قبله مِن جرَيان سنّته تعالى على تعذيب المكذّبين بما يشاهدونه في مسائرهم إلى الشام واليمن والعراق مِن آثار دمار الأمم الماضية العاتية. و"الهمزة" للإنكار والنفي. و"الواو" للعطف على مقدَّر يليق بالمقام، أي: أَقَعَدوا في مساكنهم ولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة مَن قبلهم؟

---

[1] في الآية السابقة.

[2] قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٣٥٢/٢.

[3] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٦١٩/٣، ونقل القرطبي عن القشيري قوله: «وقرأ حمزة: "وَمَكْرَ السَّيِّئْ" بسكون "الهمزة"، وخطّأه أقوام، وقال قوم: لعلّه وقف عليه لأنّه تمام الكلام، فغلط الراوي... وقلنا: ما ثبت بالاستفاضة أو التواتر أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قرأه فلا بدّ مِن جوازه، ولا يجوز أن يُقال: إنّه لَحن، ولعلّ مراد مَن صار إلى التخطئة أنّ غيره أفصح منه، وإن كان هو فصيحًا». تفسير القرطبي، ٣٥٩/١٤.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وعليّ رضي الله عنهما. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٧.

﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ وأطولَ أعمارًا، فما نفعهم طولُ المدَى، وما أغنى عنهم شدّة القوى. ومحلّ الجملة النصب على الحاليّة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ﴾ أي: ليسبقَه ويفوته ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ اعتراض مقرِّر لِما يُفهم ممّا قبله مِن استئصال الأمم السالفة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ أي: مبالِغًا في العلم والقدرة، ولذلك عَلِم بجميع أعمالهم السيّئة، فعاقبَهم بموجَبها؛ تعليلٌ لذلك.

﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ٤٥﴾

﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ جميعًا ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ مِن السيّئات كما فُعل بأولئك ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا﴾ أي: على ظهر الأرض ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ مِن نسَمة تدبّ عليها مِن بني آدم. وقيل: ومِن غيرهم أيضًا مِن شؤم معاصيهم. وهو المرويّ عن ابن مسعود وأنس رضي الله تعالى[1] عنهما.[2] ويعضد الأوّل قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ وهو يوم القيامة، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾ فيجازيهم عند ذلك بأعمالهم، إن خيرًا فخَير، وإن شرًّا فشرّ.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنّة؛ أنِ ادخل مِن أيّ باب شئت».[3]

---

١ س - تعالى.

٢ رُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: «كادَ الجُعل يُعذَّب في جُحره بذنب ابن آدم»، ثم قرأ هذه الآية. وروي عن أنس رضي الله عنه: «إنّ الضبّ ليموت هزلًا في جُحره بذَنب ابن آدم». **الكشف والبيان** للثعلبي، ١١٧/٨؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٦١٩/٣.

٣ ط س + تم. | **الكشف والبيان** للثعلبي، ٩٧/٨؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥٠٠/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٣٥

سورة فاطر

مكية، وهي خمس أو ست وأربعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ٢ ـ ﴿الحَمدُ لِلهِ﴾ ـ حَمِدَ الله ـ تعالى ـ نفسَه بذلك كما بُيِّن في أوّل سورة «سبأ» ـ ﴿فاطِرِ السَّماواتِ والأرضِ﴾: خالقِهما على غير مِثال سَبقَ، ﴿جاعِلِ المَلائكةِ رُسُلاً﴾ إلى الأنبياء ﴿أُولي أجنِحةٍ مَثنى وثُلاثَ ورُباعَ، يَزيدُ في الخَلقِ﴾ في الملائكة وغيرها ﴿ما يَشاءُ. إنَّ اللهَ علَى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، ما يَفتَحِ اللهُ لِلنّاسِ مِن رَحْمةٍ﴾ كرزق ومطر ﴿فلا مُمسِكَ لَها، وما يُمسِكْ﴾ من ذلك ﴿فلا مُرسِلَ لَهُ مِن بَعدِهِ﴾ أي: بعدِ إمساكه، ﴿وهُوَ العَزيزُ﴾: الغالب على أمره ﴿الحَكيمُ﴾ في فِعله.

٣ ـ ﴿يا أيُّها النّاسُ﴾ أي أهلَ مكّة، ....

سورة فاطر

قولُه: (إلى الأنبِيَاءِ) أو وسائِطَ بينَ اللهِ وبينَ أنبيائِهِ وأوليائِهِ بالوَحْيِ، والإلهامِ، والرُّؤيا الصَّادقةِ.

قولُه: (وغَيرِهَا) الأولى: وغيرِهم، والآيةُ متناوِلَةٌ زياداتِ الصُّوَرِ والمعاني؛ كمَلاحَةِ الوجْهِ، وحُسنِ الصَّوتِ، وحصافَةِ العقلِ، وسماحةِ النَّفسِ، وعن ابنِ مسعودٍ بالحاءِ المهملةِ[1].

قولُه: (ومَطَرٍ) ونعمَةٍ، وأمنٍ، وصِحَّةٍ، وعِلمٍ، وعَمَلٍ، ونبوَّةٍ، وولايَةٍ.

قولُه: (مِنْ ذلِكَ) الظَّاهرُ: منها ومن غيرِها؛ إذِ اختلافُ الضَّميرَينِ في المجرورَينِ؛ لأنَّ ﴿مَا﴾ الأوَّلَ: مفسَّرٌ بالرَّحمةِ، والثَّاني: مطلقٌ يتَناولُها والغضب، وفي ذلك إشعارٌ بأنَّ رحمتَهُ سبقَت غضبَهُ.

قولُه: (أيْ: أهْلَ مكَّةَ) تقييدٌ عنِ المرادِ بعيدٌ، فإنَّهم ـ وإن كانوا أهلَ زمَنِ النُّزولِ ـ لا يختَصُّ الحُكمُ بهم،

---

(١) أي: (يزيد في الحلق) انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٣٩٤).

﴿اذكُرُوا نِعْمةَ اللهِ علَيكُم﴾ بإسكانكم الحرمَ ومنع الغارات عنكم. ﴿هَل مِن خالِقٍ﴾ ـ من: زائدةٌ، وخالقٍ: مبتدأ ـ ﴿غَيرُ اللهِ﴾، بالرفع والجرّ: نعتٌ لـ «خالق» لفظًا ومحلًّا، وخبر المُبتدإ: ﴿يَرزُقُكُم مِنَ السَّماءِ﴾ المطرَ ﴿و﴾ من ﴿الأرضِ﴾ النباتَ؟ والاستفهام للتقرير، أي: لا خالقَ رازقٌ غيرُه. ﴿لا إلٰـهَ إلاّ هُوَ. فأنّى تُؤفَكُونَ﴾: من أين تُصرَفون عن توحيده مع إقراركم بأنه الخالق الرازق؟ ٤ ـ ﴿وإن يُكَذِّبُوكَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ في مجيئك بالتوحيد والبعث والحِساب والعِقاب ﴿فقَد كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبلِكَ﴾ في ذلك. فاصبر كما صبروا. ﴿وإلَى اللهِ تُرجَعُ الأُمُورُ﴾ في الآخرة، فيُجازي المُكذّبين، وينصر المُرسَلِينَ.

٥ ـ ﴿يا أيُّها النّاسُ، إنّ وَعدَ اللهِ﴾ بالبعث وغيره ﴿حَقٌّ. فلا تَغُرَّنَّكُمُ الحَياةُ الدُّنيا﴾ عن الإيمان بذلك، ﴿ولا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ﴾ في حِلمه وإمهاله ﴿الغَرُورُ﴾: الشيطانُ. ٦ ـ ﴿إنّ الشَّيطانَ لَكُم عَدُوٌّ. فاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بطاعة الله ولا تُطيعوه. ﴿إنّما يَدعُو حِزبَهُ﴾: أتباعه في الكُفر ﴿لِيَكُونُوا مِن أصحابِ السَّعِيرِ﴾: النار الشديدة. ٧ ـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُم عَذابٌ شَدِيدٌ، والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَهُم مَغفِرةٌ وأجرٌ كَبِيرٌ﴾. هذا بيانُ ما لمُوافِقِي الشيطان وما لمُخالِفِيه.

ونزل في أبي جهل وغيره: ٨ ـ ﴿أفمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ بالتمويه،..........

فإنَّ العبرَةَ بعمومِ اللَّفظِ وهم يدخُلونَ دخولاً أوَّلِيًّا، وأمَّا ما قيلَ: من أنَّ كلَّ ما كانَ في القرآنِ من قولِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فهُم أهلُ مكَّةَ، ومن قولِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا﴾ فهُم أهلُ المدينةِ، فليسَ مرادُهُ أنَّهُم المرادُ فقط، بل المرادُ أنَّ تلكَ الآيةَ مكِّيَّةٌ، والأخرى مدنيَّةٌ.

قولُه: (بِإِسْكَانِكُم) قالَ تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨].

قولُه: (والجَرِّ) حمزةُ والكسائيُّ[1].

قولُه: (لَفظاً ومَحَلًّا) نَشرٌ مُشوَّشٌ.

قولُه: (للتَّقريرِ) الظَّاهرُ: أنَّه للنَّفي.

قولُه: (ويَنصُرُ المُسلِمِينَ) الأَولى: ويثبِّتُ المصدِّقينَ.

قولُه: (عَنِ الإِيمَانِ) فيشغلُكُم بالتَّمتُّعِ بها والتَّنعُّمِ فيها عن طَلَبِ الآخرَةِ والسَّعي لها.

قولُه: (الشَّيطَانُ) بأن يمنِّيَكُمُ المغفرةَ مع الإصرارِ على المعصيةِ، أو بأن يقولَ: لا ثوابَ ولا عِقابَ.

قولُه: (هَذا بَيَان) وقطعٌ للأماني الفارغَةِ، وبناءٌ للأمرِ كُلِّهِ على الإيمانِ والعمَلِ الصَّالِحِ.

قولُه: (بالتَّمويهِ) بأن غلَبَ وهمُهُ وهواهُ على عقلِهِ حتَّى انتكَسَ رأيُهُ، فرأى الباطِلَ حَقًّا والقَبيحَ حُسْناً.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٣٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٩٢).

﴿فرآه حَسَنًا﴾ مَن: مبتدأ خبرُه: كمن هداه اللهُ؟ لا. دلّ عليه: ﴿فإنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشاءُ، ويَهدِي مَن يَشاءُ ـ فلا تَذهَبْ نَفسُكَ عليهِم﴾: على المُزيَّن لهم ﴿حَسَراتٍ﴾ باغتمامك أن لا يُؤمنون. ﴿إنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما يَصنَعُونَ﴾ فيُجازيهم عليه ـ ٩ ـ ﴿واللهُ الَّذِي أرسَلَ الرِّياحَ﴾ ـ وفي قراءة: «الرِّيحَ» ـ ﴿فتُثِيرُ سَحابًا﴾، المضارعُ لحكاية الحال الماضية، أي: تُزعِجه، ﴿فسُقْناهُ﴾ ـ فيه التفات عن الغَيبة ـ ﴿إلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾، بالتشديد والتخفيف: لا نباتَ بها، ﴿فأحيَينا بِهِ الأرضَ﴾ من البلد ﴿بَعدَ مَوتِها﴾: يُبسها، أي: أنبتْنا به الزرع والكلأ. ﴿كَذلِكَ النُّشُورُ﴾ أي: البعثُ والإحياء.

١٠ ـ ﴿مَن كانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فلِلّهِ العِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: في الدنيا والآخرة، فلا تُنال منه إلاّ بطاعته، فليُطِعْهُ. ﴿إلَيهِ يَصعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾: يعلمُه ـ وهو «لا إلـهَ إلاّ اللهُ»..........................

قولُه: (باغتِمَامِكَ) أي: لا تُهلِكْ نفسَكَ عليهم للحَسَراتِ على غَيِّهِم.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لمكِّيٍّ وحمزةَ والكسائيِّ[1].

قولُه: (المَاضِيَةِ) استِحضاراً لتلك الصُّورةِ البديعَةِ الدَّالَّةِ على كمالِ القُدرَةِ والحِكمَةِ.

قولُه: (بالتَّشدِيدِ) نافعٌ وكوفيٌّ غيرُ شعبةَ[2].

قولُـه تعالـى: (﴿فَأَحْيَيْنَـا بِـهِ﴾) أي: بالمَطَـرِ النَّـازلِ منـه، وذِكـرُ السَّـحابِ كذِكـرِهِ، أو: بالسَّـحابِ فإنَّه سـببُ السَّببِ.

قولُه: (والإِحْيَاءُ) أي: مِثلُ إحياءِ المواتِ نشورُ الأمواتِ في صحَّةِ المقدوريَّةِ.

قولُه: (فلا تَنَالُ إلَّا مِنْهُ بِطَاعَتِهِ) وفي نسخةٍ: «فلا تُنَالُ منهُ إلَّا بطاعتِهِ»[3] والأُولى هي الأَولى.

قولُه: (يعلمُهُ) يعني: الصُّعودُ إليه مجازٌ عن علمِهِ، والمشهورُ عن المفسِّرينَ أنَّه مجازٌ عن القَبولِ، وفي «المداركِ»: إلى محَلِّ القَبولِ[4].

قولُه: (وَهُو: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) اقتصَرَ عليه الجمهورُ من السَّلفِ[5]، وفي «المداركِ»: ﴿الْكَلِمُ الْطَّيِّبُ﴾:

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ١٧٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٩٢).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٠٣)، و«حجة القراءات» (ص: ١٥٩).

(٣) وهكذا هي في نسخ المتن.

(٤) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٧٩).

(٥) جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿كلمة طيبة﴾ [إبراهيم: ٢٤].

رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠٦٥٨)، والطبراني في «الدعاء» (١٥٩٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٠٦)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ونحوُها - ﴿والعَمَلُ الصَّالِحُ يَرفَعُهُ﴾: يقبله، ﴿والَّذِينَ يَمكُرُونَ﴾ المكَراتِ ﴿السَّيِّئاتِ﴾ بالنبيّ في دار الندوة من تقييده أو قتله أو إخراجه كما ذُكر في «الأنفال» ﴿لَهُم عَذابٌ شَدِيدٌ، ومَكرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾: يَهلِك.

١١ - ﴿واللهُ خَلَقَكُم مِن تُرابٍ﴾ بخلق أبيكم آدم منه، ﴿ثُمَّ مِن نُطفَةٍ﴾ أي: مَنِيٍّ بخلق ذُرّيّته منها، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُم أزواجًا﴾: ذُكورًا وإناثًا، ﴿وما تَحمِلُ مِن أُنثَى ولا تَضَعُ إلاّ بِعِلمِهِ﴾: حالٌ، أي: معلومةً له، ﴿وما يُعَمَّرُ مِن مُعَمَّرٍ﴾ أي: ما يُزاد في عُمرِ طويلِ العُمر، ﴿ولا يُنقَصُ مِن عُمُرِهِ﴾ أي: ذلك المُعمَّرِ أو مُعمَّرٍ آخَرَ، ﴿إلاّ في كِتابٍ﴾، هو اللوح المحفوظ. ﴿إنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾: هيِّنٌ.

كلماتُ التَّوحيدِ؛ أي: لا إلهَ إلَّا الله[١]، فأشارَ إلى أنَّ الجمعَ باعتبارِ الذَّواتِ، ويحتمِلُ أن يكونَ باختلافِ الأوقاتِ.

قولُه: (ونَحوُهَا) قالَ القاضي[٢]: وقيلَ: ﴿الكلم الطيب﴾ يتناولُ الذِّكرَ، والدُّعاءَ، وقراءةَ القرآنِ.

قولُه: (يَقبَلُهُ) فالمُستكَنُّ للهِ، وعن ابنِ عبَّاسٍ وأكثرِ المفسِّرينَ: أنَّهُ لـ﴿الكلم﴾[٣]، فإنَّ العملَ لا يُقبَلُ إلَّا بالتَّوحيدِ، وقيل: للعملِ فإنَّه يحقِّقُ الإيمانَ ويقوِّيه.

قولُه: (يَهلِكُ) أي: يفسُدُ ولا ينفُذُ؛ لأنَّ المقدَّرَ لا يتغيَّرُ.

قولُه: (ذُكُوراً) أو أصنافاً من عرَبٍ وعَجَمٍ.

قولُه: (طَوِيلِ العُمُرِ) أي: مِن مصيرِهِ إلى الكِبَرِ.

قولُه: (أي: ذَلِكَ المُعَمَّرِ) يعني: الزِّيادةُ والنُّقصَانُ في عمُرٍ واحدٍ بأسبابٍ مختلفةٍ أُثبِتَتْ في اللَّوحِ، مِثلَ أن يكونَ فيه: إن حَجَّ زيدٌ فعمرُهُ ستُّونَ، وإلَّا فأربعونَ.

وقيل: المرادُ بالنُّقصانِ: ما يمرُّ من عُمُرِه وينتقصُ، فإنَّه يُكتَبُ في صحيفَةِ عُمُرِه يوماً فيوماً، أو للمُعمَّرِ؛ أي: ذي عُمُرٍ، على التَّسامحِ فيه ثقةً بفهمِ السَّامعِ.

قولُه: (أو مُعَمَّرٍ آخَرَ) أي: مِن عُمُرِ المعمَّرِ لغيرِه، بأن يُعطى له عُمرٌ ناقصٌ من عمرِهِ، أو: لا يُنقَصُ من عُمُرِ المنقوصِ عمرُهُ بجعلِهِ ناقصاً، والضَّميرُ للمنقوصِ وإن لم يُذكَرْ؛ لدلالةِ مقابِلِه عليه.

قولُه: (هُوَ اللَّوحُ) أو الصَّحيفَةُ، أو عِلمُ اللهِ.

قولُه: (هَيِّنٌ) والإشارةُ إلى الحفظِ، أو الزِّيادةِ والنَّقصِ.

---

(١) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٧٩).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٥٥).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٤٥) عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة.

١٢ ـ ﴿وما يَستَوِي البَحرانِ، هذا عَذبٌ فُراتٌ﴾: شديد العُذوبة ﴿سائغٌ شَرابُهُ﴾: شُربه، ﴿وهذا مِلحٌ أُجاجٌ﴾: شديد المُلوحة، ﴿ومِن كُلٍّ﴾ منهما ﴿تأكُلُونَ لَحمًا طَرِيًّا﴾ هو السَّمك، ﴿وتَستَخرِجُونَ﴾ من المِلح، وقيل: منهما ﴿حِليَةً تَلبَسُونَها﴾ هي اللؤلؤ والمَرجان، ﴿وتَرَى﴾: تُبصِر ﴿الفُلكَ﴾: السُّفن ﴿فِيهِ﴾: في كُلّ منهما ﴿مَواخِرَ﴾: تمخر الماء، أي: تشقّه بجريها فيه مُقبِلة ومُدبرة بريح واحدة، ﴿لِتَبتَغُوا﴾: تطلبوا ﴿مِن فَضلِهِ﴾ ـ تعالى ـ بالتجارة، ﴿ولَعَلَّكُم تَشكُرُونَ﴾ اللهَ على ذلك.

١٣ ـ ﴿يُولِجُ﴾: يُدخِلُ اللهُ ﴿اللَّيلَ في النَّهارِ﴾ فيزيد، ﴿ويُولِجُ النَّهارَ﴾: يُدخِله ﴿في اللَّيلِ﴾ فيزيد، ﴿وسَخَّرَ الشَّمسَ والقَمَرَ، كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجرِي﴾ في فَلَكه ﴿لِأجَلٍ مُسَمًّى﴾: يومِ القيامة. ﴿ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُم لَهُ المُلكُ، والَّذِينَ تَدعُونَ﴾: تعبدون ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: غيرَه ـ وهم الأصنام ـ ﴿ما يَملِكُونَ مِن قِطمِيرٍ﴾: لِفافة النواة، ١٤ ـ ﴿إن تَدعُوهُم لا يَسمَعُوا دُعاءَكُم، ولَو سَمِعُوا﴾ ـ فَرْضًا ـ ﴿ما استَجابُوا لَكُم﴾: ما أجابوكم، ﴿ويَومَ القِيامةِ يَكفُرُونَ بِشِركِكُم﴾: بإشراككم إياهم مع الله، أي: يتبرؤون منكم ومن عِبادتكم إياهم. ﴿ولا يُنَبِّئُكَ﴾ بأحوال الدارين ﴿مِثلُ خَبِيرٍ﴾: عالم، وهو الله تعالى.

١٥ ـ ﴿يا أيُّها النّاسُ، أنتُمُ الفُقَراءُ إلَى اللهِ﴾ بكُلّ حال، ﴿واللهُ هُوَ الغَنِيُّ﴾ عن خلقه ﴿الحَمِيدُ﴾ المحمود في صُنعه بهم، ١٦ ـ ﴿إن يَشَأْ يُذهِبكُم ويأتِ بِخَلقٍ جَدِيدٍ﴾ بدلَكم، ١٧ ـ ﴿وما ذٰلِكَ علَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾: شديد.

قولُه: (شَدِيدُ العُذُوبَةِ) الَّذي يكسِرُ العطشَ.

قولُه: (شُرْبُهُ) أي: شُرْبُ شرابِهِ؛ إذِ السَّائغُ: الَّذي يسهُلُ انحدارُه.

قولُه: (شَدِيدُ المُلُوحَةِ) الَّذي يُحرِقُ لملوحتِهِ، مَثَلٌ للمؤمنِ والكافرِ.

قولُه: (مِنَ المِلْحِ) فيه إشارةٌ لطيفةٌ إلى أنَّ الحِليَةَ زينةُ الكفَّارِ غالباً.

قولُه: (وقِيلَ: مِنهُمَا) وهو الظَّاهرُ من ﴿كُلٍّ﴾.

قولُه: (بريْحٍ وَاحِدَةٍ) أو برياحٍ مختلِفَةٍ.

قولُه: (بالتِّجَارَةِ) والنُّقلَةِ فيها.

قولُه: (يَومِ القِيَامَةِ) أو مدَّةَ دورِ كُلٍّ، أو منتهاهُ.

قولُه: (مَا أَجَابُوكُم) لعَدَمِ قُدرَتِهم.

قولُه: (عَالِم) بها أخبرَكَ.

قولُه: (بَدَلَكُم) أي: بقومٍ آخرينَ أطوَعَ منكم، أو بعالَمٍ آخرَ غيرَ ما تعرفونَهُ.

قولُه: (شَدِيدٍ) أي: متعذِّرٍ أو متعسِّرٍ.

١٨ - ﴿ولا تَزِرُ﴾ نفسٌ ﴿وازِرةٌ﴾: آثمة، أي: لا تحمل ﴿وِزرَ﴾ نفسٍ ﴿أُخرَى، وإن تَدعُ﴾ نفسٌ ﴿مُثقلَةٌ﴾ بالوِزر ﴿إلَى حِملِها﴾ منه أحدًا ليحمل بعضَه ﴿لا يُحمَلْ مِنهُ شَيءٌ، ولَو كانَ﴾ المدعوُّ ﴿ذا قُربَى﴾: قرابةٍ كالأب والابن. وعدمُ الحمل في الشِّقّين حُكمٌ من الله. ﴿إنَّما تُنذِرُ الَّذِينَ يَخشَونَ رَبَّهُم بِالغَيبِ﴾ أي: يخافونه وما رأوه لأنهم المنتفعون بالإنذار، ﴿وأقامُوا الصَّلاةَ﴾: أداموها، ﴿ومَن تَزَكَّى﴾: تطهّرَ من الشِّرك وغيره ﴿فإنَّما يَتَزَكَّى لِنَفسِهِ﴾: فصلاحهُ مُختصّ به، ﴿وإلَى اللهِ المَصِيرُ﴾: المَرجِعُ فيَجزي بالعمل في الآخرة.

١٩ - ﴿وما يَستَوِي الأعمَى والبَصِيرُ﴾: الكافر والمؤمن، ٢٠ - ﴿ولا الظُّلُماتُ﴾: الكُفر ﴿ولا النُّورُ﴾: الإيمان، ٢١ - ﴿ولا الظِّلُّ ولا الحَرُورُ﴾: الجنّة والنار، ٢٢ - ﴿وما يَستَوِي الأحياءُ ولا الأمواتُ﴾: المؤمنون والكُفّار. وزيادة «لا» في الثلاثة تأكيد..........................

قولُه: (نَفْسٌ) أي: إِثْمَ نَفْسٍ[1].

قولُه: (مِنْهُ) أي: إلى أن تحمِلَ حِملَها.

قولُه: (المَدْعُوُّ) أو الدَّاعي، يدلُّ عليه: ﴿وإِنْ تَدْعُ﴾.

قولُه: (في الشِّقَّينِ) يعني: نَفى أن يحمِلَ عنها ذَنْبَها كما نفى أن يَحمِلَ عليها ذَنْبَ غيرِها.

قولُه: (ومَا رَأَوْهُ) أي: غائبينَ عن عذابِهِ، أو: غائِباً عنهم عذابُهُ.

وقيلَ: غائبينَ عن النَّاسِ في خَلَواتِهِم كما يخشَونَ في جَلَواتِهِم.

قولُه: (لأنَّهُم) تَعليلٌ للتَّخصيصِ المفهومِ من الحصْرِ.

قولُه: (فَصَلاحُهُ) أي: نفعُهُ.

قولُه: (الكَافِرُ) وقيلَ: مَثَلانِ للصَّنَمِ وله تَعالى.

قولُه: (الكُفْرُ) أو الباطِلُ.

قولُه: (الإِيمَانُ) أو الحقُّ.

قولُه: (الجَنَّةُ) أو الثَّوابُ والعِقابُ.

قولُه: (في الثَّلاثَةِ) يعني: المواضِعَ الثَّلاثةَ مكرَّرةً في الأوَّلينِ وغيرَ مكرَّرةٍ في الأخيرِ، فشملَ التَّأكيدَ والزِّيادةَ اللَّذينِ أشارَ إليهما البيضاويُّ بقولِهِ: و﴿لا﴾ لتأكيدِ نفيِ الاستواءِ وتكريرُها على الشِّقَّينِ لزيادةِ

(١) أي: ولا تحملُ نفسٌ آثمةٌ إثمَ نفسٍ أُخرى.

﴿إنَّ اللهَ يُسمِعُ مَن يَشاءُ﴾ هِدايتَه فيُجيبه بالإيمان، ﴿وما أنتَ بِمُسمِعٍ مَن في القُبُورِ﴾ أي: الكُفّارَ. شبَّههم بالموتى، فلا يجيبون. ٢٣ ـ ﴿إنْ﴾: ما ﴿أنتَ إلاّ نَذِيرٌ﴾: مُنذرٌ لهم.

٢٤ ـ ﴿إنّا أرسَلْناكَ بالحَقِّ﴾: الهُدى ﴿بَشِيرًا﴾ مَن أجاب إليه، ﴿ونَذِيرًا﴾ مَن لم يُجب إليه، ﴿وإنْ﴾: ما ﴿مِن أُمّةٍ إلاّ خَلا﴾: سلفَ ﴿فِيها نَذِيرٌ﴾: نبيٌّ يُنذرها، ٢٥ ـ ﴿وإن يُكَذِّبُوكَ﴾ أي: أهلُ مكّة ﴿فقَد كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم، جاءَتْهم رُسُلُهُم بالبَيِّناتِ﴾: المُعجزات ﴿وبالزُّبُرِ﴾ كصُحف إبراهيم ﴿وبالكِتابِ المُنِيرِ﴾ هو التوراة والإنجيل ـ فاصبر كما صبروا ـ ٢٦ ـ ﴿ثُمَّ أخَذتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتكذيبهم، ﴿فكَيفَ كانَ نَكِيرِ﴾: إنكاري عليهم بالعُقوبة والإهلاك؟ أي: هو واقعٌ موقعه.

٢٧ ـ ﴿ألَم تَرَ﴾: تعلمْ ﴿أنَّ اللهَ أنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً، فأخرَجْنا﴾ ـ فيه التفات عن الغَيبة ـ ﴿بِهِ ثَمَراتٍ مُختَلِفًا ألوانُها﴾ كأخضرَ وأحمرَ وأصفرَ وغيرِها، ﴿ومِنَ الجِبالِ جُدَدٌ﴾: جمع جُدّةٍ: طريقٍ في الجبل وغيرِه، ﴿بِيضٌ وحُمرٌ﴾ وصفر ﴿مُختَلِفٌ ألوانُها﴾ بالشِّدّة والضعف، ﴿وغَرابِيبُ سُودٌ﴾: عطف على «جدد» ....

التَّأكيدِ[1]؛ لأنَّ زيادةَ التَّأكيدِ تأكيدٌ.

قولُه: (بالهُدَى) أي: بالدِّينِ الحقِّ، فهو مفعولٌ به، أو: مُحِقِّينَ، أو: مُحِقًّا، أو: إرسالاً مصحوباً بالحقِّ.

قولُه: (سَلَفَ) ومَضَى.

قولُه: (نَبيٌّ يُنذِرُهَا) أو عالِمٌ ينذرُها نيابةً عنه، والاكتفاءُ بذكرِه[2]؛ للعِلمِ بالقرينَةِ، ولأنَّ الإنذارَ هو المقصودُ الأهمُّ من البعْثَةِ، أو هو المقدَّمُ بمنزلَةِ الاحتماءِ والتَّخليَةِ.

قولُه: (المُعجِزَاتِ) الشَّاهدَةِ على نُبوَّتِهم.

قولُه: (كصُحُفِ إبْرَاهِيمَ) وزَبورِ داودَ.

قولُه: (وغَيرِها) أو المرادُ بـ﴿ألوانُها﴾: أجناسُها، أو: أصنافُها على أنَّ كلًّا منها لها أصنافٌ.

قولُه: (جُدَّةٍ) بالضَّمِّ.

قولُه: (طَرِيقٍ) أي: خطٌّ.

قولُه: (وصُفرٌ) وخُضرٌ.

قولُه: (عَلَى ﴿جُدَدٌ﴾) والأقربُ: على ﴿بِيضٌ﴾.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٥٧).

(٢) أي: بذكر النذير وعدم اقترانه بالبشير.

أي: صخورٌ شديدة السواد ـ يقال كثيرًا: أسودُ غِربيبٌ، وقليلاً: غِربيبٌ أسودُ ـ ٢٨ ـ ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوابِّ وَالأنعامِ مُختَلِفٌ ألوانُهُ كَذلِكَ﴾: كاختلاف الثِّمار والجِبال؟ ﴿إِنَّما يَخشَى اللهَ مِن عِبادِهِ العُلَماءُ﴾ بخِلاف الجُهّال كَكُفّار مكّة. ﴿إِنَّ اللهَ عَزيزٌ﴾ في مُلكه ﴿غَفُورٌ﴾ لذُنوب عِباده المؤمنين.

٢٩ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتلُونَ﴾: يقرؤون ﴿كِتابَ اللهِ، وأقامُوا الصَّلاةَ﴾: أداموها ﴿وأنفَقُوا مِمّا رَزَقْناهُم سِرًّا وعَلانِيَةً﴾ زكاةً وغيرها، ﴿يَرجُونَ تِجارةً لَن تَبُورَ﴾: تَهلِك، ٣٠ ـ ﴿لِيُوَفِّيَهُم أُجُورَهُم﴾: ثواب أعمالهم المذكورة، ....

قولُه: (أي: صُخُورٌ) كأنَّه قيل: ومن الجبالِ ذُو جُدَدٍ ومختلفُ اللَّونِ، ومنها غرابيبُ متَّحِدَةُ اللَّونِ.

قولُه: (أَسوَدُ غِرْبِيبٌ) فإنَّ حَقَّ التَّأكيدِ أن يَتْبَعَ المؤكَّدَ.

قولُه: (وقَلِيلاً) في «القاموسِ»: ﴿سود﴾: بدلٌ؛ لأنَّ توكيدَ الألوانِ لا يتقدَّمُ[١]. ولعلَّ العُدولَ عن الكثيرِ مراعاةٌ للفاصلةِ.

قولُه: (بخِلافِ الجُهَّالِ) إذ شرطُ الخشيةِ معرِفَةُ المخشِيِّ، والعلمُ بصفاتِهِ وأفعالِهِ، فمَن كانَ أعلمَ به كانَ أخشى له، ولذا قالَ ﷺ: «إنِّي أعلَمُكم باللهِ وأخْشَاكُم لَهُ»[٢]، ولذا أتبَعَهُ ذِكرَ أفعالِهِ الدَّالَّةِ على كمالِ قدرتِهِ، وتقديمُ المفعولِ لأنَّ المقصودَ حَصرُ الفاعليَّةِ، ولو أُخِّرَ انعكسَ الأمرُ.

وقُرِئَ برفعِ اسمِ (اللهُ) ونصْبِ: (العلماءَ[٣] على أنَّ الخشيةَ مستعارَةٌ للتَّعظيمِ، فإنَّ المعظَّمَ يكونُ مَهيباً، ولذا قيل: الخشيةُ خوفٌ معَ تعظيمٍ، فحيثُ استُعمِلَ في أحدِهِما يكونُ تجريداً.

قولُه: (يَقرَؤُونَ) يداومونَ على قراءَتِهِ ـ أو متابَعَةِ ما فيهِ ـ حتَّى صارَ سَمْتاً لهم وعُنواناً.

قولُه: (زَكَاةً وغَيْرَهَا) أي: كيفَ اتَّفقَ مِن غيرِ قصدٍ إليهما.

وقيل: السِّرُّ في المسنونَةِ، والعلانيَةُ في المفروضَةِ.

قولُه: (تَهلِكَ) وتَكْسدَ، والمرادُ بالتِّجارةِ: تحصيلُ الثَّوابِ بالطَّاعةِ.

قولُه: (ثَوَابَ أعْمَالِهِم) عِلَّةٌ لمدلولِ ما عُدَّ من أفعالِهم نحوَ: فعَلوا ذلك، أو عاقبةٌ لـ﴿يرجُونَ﴾[٤].

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٢٠).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٢٤٩١٢) من حديث عائشة رضي الله عنها. ورواه البخاري (٢٠) من وجه آخر عنها، بلفظ: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا». ورواه مسلم (١١١٠) من وجه آخر أيضاً عنها بلفظ: «والله، إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي».

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٣٩٦) ونسبت لعمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة.

(٤) الكلام هنا عن قوله تعالى: ﴿ليوفيهم أجورهم﴾، فهو إما علة لمدلولِ ما عدَّ مِن أفعالِهم نحو: فَعَلوا ذلك ليوفِّيَهُم، أو عاقبةٌ =

﴿ويَزيدَهُم مِن فَضلِهِ. إنَّهُ غَفُورٌ﴾ لذُنوبهم ﴿شَكُورٌ﴾ لطاعتهم.

٣١ ـ ﴿والَّذِي أَوحَينا إلَيكَ مِنَ الكِتابِ﴾: القُرآنِ ﴿هُوَ الحَقُّ، مُصَدِّقًا لِما بَينَ يَدَيهِ﴾: تقدَّمَه من الكُتب ـ ﴿إنَّ اللهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾: عالم بالبواطن والظواهر ـ ٣٢ ـ ﴿ثُمَّ أَورَثْنا﴾: أعطينا ﴿الكِتابَ﴾: القُرآنَ ﴿الَّذِينَ اصطَفَينا مِن عِبادِنا﴾ وهم أُمّتك، ﴿فمِنهُم ظالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بالتقصير في العمل به، ﴿ومِنهُم مُقتَصِدٌ﴾ يعمل به في أغلب الأوقات، ﴿ومِنهُم سابِقٌ بِالخَيراتِ﴾ يضمّ إلى العمل به التعليمَ والإرشاد إلى العمل ﴿بِإذنِ اللهِ﴾: بإرادته. ....

قولُه: (لذُنُوبِهِم) أي: فَرَطاتِهِم.

قولُه: (لطَاعَتِهِم) أي: مجازيهِم عليها، وقالَ سهلٌ[1]: غفورٌ لذنوبٍ كثيرةٍ، شَكورٌ لأعمالٍ يسيرةٍ.

قولُه: (أَعْطَيْنَا) أي: عطاءً بلا كَدٍّ وتعَبٍ كالإرْثِ.

قولُه: (وَهُم أُمَّتُكَ) يعني: ﴿الَّذينَ اصطفيْنَا﴾، وعليه الجمهورُ، و﴿مِنْ﴾ للتَّبيينِ أو للتَّبعيضِ.

قولُه: (وَهُم أمَّتُكَ) يعني: أمَّةَ الإجابةِ، فإنَّ اللهَ اصطَفاهُم على سائرِ الأمَمِ، أو المرادُ: عُلَماءُ الأمَّةِ من الصَّحابَةِ ومن بعدَهُم.

قولُه: (يَضُمُّ) ظاهرُ التَّقسيمِ أن يقولَ: السَّابقُ: دائمُ العملِ، أو يقالَ: الظَّالمُ: الجاهلُ العاملُ، والمقتصدُ: العالِمُ العاملُ، والسَّابقُ: العالمُ العاملُ المعلِّمُ، وعن عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ: الظَّالمُ أنا والمقتصدُ أنا، والسَّابقُ أنا، فقيلَ له: كيفَ ذلك؟ قالَ: أنا الظَّالِمُ بمعصيَتي، ومقتصدٌ بتوبَتي، وسابقٌ بمحبَّتي[2].

فأشارَ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ إلى وجْهٍ لطيفٍ وشريفٍ، وهو أنَّهُ قد تختَلِفُ الصِّفاتُ باختلافِ الحالاتِ والمقاماتِ.

وقيل: الظَّالِمُ يجزَعُ عندَ البلاءِ، والمقتصِدُ يصبِرُ، والسَّابقُ يتلذَّذُ.

وقيل: الظَّالمُ: الزَّاهدُ، والمقتصدُ: العارفُ، والسَّابقُ: المحِبُّ.

= لـ﴿يرجون﴾. هكذا ذكره البيضاوي لكنه قدم عليه قوله: «﴿لن تبور﴾: لن تكسدَ ولن تهلكَ بالخُسرانِ، صِفَةٌ للتِّجارَةِ، وقوله: ﴿ليوفيهم أجورهم﴾ عِلَّةٌ لمدلولِه؛ أي: يَنتَفِي عنها الكسادُ وتَنْفُقُ عندَ اللهِ ليوفيَهُم بنَفَاقِها أجورَ أعمالِهم، أو لمدلولِ ما عدَّ مِن أفعالِهم...» إلى باقي ما ذُكر.

(١) انظر: «تفسير التستري» (ص: ١٢٩).

(٢) لم أقف عليه.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: إيراثهم الكِتابَ ﴿هُوَ الفَضلُ الكَبِيرُ﴾.

٣٣ـ٣٤ـ ﴿جَنَّاتُ عَدنٍ﴾ أي: إقامةٍ، ﴿يَدخُلُونَهَا﴾، أي: الثلاثةُ ـ بالبناء للفاعل وللمفعول:.....

وقيلَ: المرادُ بهم: الواعظُ بلسانِهِ وبعمَلِهِ[1] وبسرِّهِ، وقيلَ: الجاهلُ والمتعلِّمُ والعالِمُ، وقيلَ: صاحبُ الكبيرةِ والصَّغيرةِ والمجتَنِبُ عنهما.

وقيل: السَّابقُ: الَّذي اشتغلَ بمعادِهِ عن معاشِهِ، والمقتصدُ: الَّذي اشتغَلَ بمعاشِهِ ومعادِهِ، والظَّالمُ: الَّذي اشتغلَ بمعاشِهِ عن معادِهِ.

وقيل: الظَّالمُ: من أخذَ الدُّنيا حَلالاً كانَ أو حراماً، والمقتصدُ: من يجتهِدُ أن لا يأخُذَها إلَّا من حلالٍ، والسَّابقُ: من أعرَضَ عنها جملَةً.

وقيل: الظَّالِمُ: طالبُ الدُّنيا، والمقتَصِدُ: طالبُ العُقْبى، والسَّابقُ: طالبُ المولى.

وقالَ ابنُ عطاءٍ[2]: إنَّما قدَّمَ الظَّالِمَ لئلَّا ييأسَ من فضلِهِ، وقيل: لأنَّ أوَّلَ الأحوالِ معصيةٌ ثمَّ توبةٌ ثمَّ استقامةٌ، وقيل: للإيذانِ بكثرةِ الظَّالمينَ، وأنَّ المقتَصِدينَ قليلٌ بالإضافةِ إليهم، والسَّابقونَ أقلُّ من القَليلِ.

قولُه: (أي: إِيرَاثُهُم) أو الاصطفاءُ، أو السَّبقُ.

قولُه: (أي: الثَّلاثَةُ) في الحديثِ المرفوعِ: «سَابِقُنَا سابِقٌ، ومُقتَصِدُنَا ناجٍ، وظالِمُنا مغفُورٌ لَهُ»[3]، وفي «الكشفِ»[4]: عن التِّرمذيِّ عن أبي سعيدٍ عن رسولِ اللهِ ﷺ قالَ في هذهِ الآيةِ: «هَؤُلاءِ كُلُّهُم بمنزلَةٍ واحدةٍ، وكلُّهُم في الجنَّةِ»[5]، أقولُ: «وكلُّهُم» عطفٌ تفسيريٌّ، انتهى.

قولُه: (والمَفعُولِ) بصريٌّ[6].

---

(١) في (د): «وبعلمه».

(٢) وانظر: «حقائق التفسير» (ص: ١٦٣).

(٣) رواه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (٣/ ٤٤٣)، والثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٢/ ٢٠٤) (٢٣٦٠)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٦١)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٠٥) من حديث عمر رضي الله عنه.
وقال العقيلي: وهذا يروى من غير هذا الوجه بنحو هذا اللفظ بإسناد أصلح من هذا.
وقال البيهقي: فيه إرسال بين ميمون بن سياه وبين عمر رضي الله عنه. وروي من وجه آخر غير قوي، عن عمر موقوفاً عليه.
والموقوف رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٢٣٠٨)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٦٢).

(٤) هو «الكشف على الكشاف» للقزويني، وانظر: «فتوح الغيب» (١٢/ ٦٥٧).

(٥) رواه الترمذي (٣٢٢٥) وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٦) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٣٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٩٢).

خبرُ «جنّاتُ» المبتدأ ـ ﴿يُحلَّونَ﴾: خبرٌ ثانٍ ﴿فِيها مِن﴾: بعض ﴿أساوِرَ مِن ذَهَبٍ ولُؤلُؤٍ﴾ مُرصّع في الذهب، ﴿ولِباسُهُم فِيها حَرِيرٌ، وقالُوا: الحَمدُ لِلهِ الَّذِي أذهَبَ عَنّا الحَزَنَ﴾ جميعَه ـ ﴿إنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ﴾ للذُّنوب ﴿شَكُورٌ﴾ للطاعات ـ ٣٥ ـ ﴿الَّذِي أحَلَّنا دارَ المُقامةِ﴾ أي: الإقامة ﴿مِن فَضلِهِ، لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ﴾: تعب، ﴿ولا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ﴾: إعياءٌ من التعب لعدم التكليف فيها. وذُكر الثاني التابعُ للأوّل للتصريح بنفيه.

٣٦ ـ ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا لَهُم نارُ جَهَنَّمَ، لا يُقضَى علَيهِم﴾ بالموت ﴿فيَمُوتُوا﴾ يستريحوا، ﴿ولا يُخَفَّفُ عَنهُم مِن عَذابِها﴾ طَرْفةَ عين ـ ﴿كَذلِكَ﴾ كما جزيناهم ﴿يُجزَى كُلُّ كَفُورٍ﴾: كافر. بالياء، والنونِ المفتوحة مع كسر الزاي ونصب «كُلَّ» ـ.......................................

قولُه: (خَبرٌ ثانٍ) أو حالٌ مقدّرةٌ.

قولُه: (بَعضَ) و﴿مِنْ﴾ الثّانيةُ بيانٌ.

قولُه: (مُرَصَّعٍ) أي: اللُّؤلؤُ؛ يعني: ﴿لؤلؤٍ﴾ بالجرِّ عطفٌ على ﴿ذَهَبٍ﴾؛ أي: ذهبٍ مُرَصَّعٍ باللُّؤلؤِ، أو مِن ذَهَبٍ في صفاءِ اللُّؤلؤِ، ونصبَهُ نافعٌ وعاصمٌ[1] عطفاً على محلِّ: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾.

قولُه: (جَمِيعَهُ) الشّامِلَ لحَزَنِ الموتِ، وخوفِ العاقبةِ، وهَمِّ المعاشِ، ووسوسَةِ إبليسَ، وقيلَ: حَزَنِ القطيعةِ، وقيلَ: المحاسبة، وقد أكثَروا حتّى قالَ بعضُهم: كِرَى الدّارِ، وقيلَ: التّحويل، ومعناهُ: أنّه يعمُّ كلَّ حَزَنٍ من أحزانِ الدِّينِ والدُّنيا حتّى هذا.

قولُه: (إِعيَاءٌ) وكَلالٌ.

قولُه: (لعَدَمِ التّكلِيفِ) والكَدِّ.

قولُه: (للتّصْرِيحِ بنَفيِهِ) مبالغةً.

قولُه: (ليَسْتَرِيحُوا) الظّاهرُ: فيستَريحوا، ونَصْبُهُ بإضمارِ: أنْ.

قولُه: (طَرْفَةَ عَيْنٍ) بل كُلّما خَبَتْ زِيدَ إسعارُها.

قولُه: (كمَا جَزَيْنَاهُم) الصّوابُ: مثلَ ذلك الجزاءِ.

قولُه: (كَافِرٍ) فيه إشارةٌ إلى الرَّدِّ على القاضي حيثُ قالَ: مبالِغٍ في الكُفْرِ[2].

قولُه: (باليَاءِ) المضمومةِ وفتحِ الزّاي، ورفعِ (كُلُّ) بصريٌّ.

---

(١) انظر: «حجة القراءات» (ص: ٥٩٣)، و«غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٤٨٦).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٦٠).

٣٧ ـ ﴿وهُم يَصطَرِخُونَ فِيها﴾: يستغيثون بشِدّة وعويل، يقولون: ﴿رَبَّنا، أخرِجْنا﴾ منها، ﴿نَعمَلْ صالِحًا غَيرَ الَّذِي كُنّا نَعمَلُ﴾. فيقال لهم: ﴿أَوَلَم نُعَمِّرْكُم ما﴾: وقتًا ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ، وجاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ الرسول فما أجبتم؟ ﴿فذُوقُوا. فما لِلظّالِمِينَ﴾: الكافرين ﴿مِن نَصِيرٍ﴾: يدفع العذاب عنهم.

٣٨ ـ ﴿إنَّ اللهَ عالِمُ غَيبِ السَّماواتِ والأرضِ ـ إنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾: بما في القُلوب. فعلمه بغيره أولى بالنظر إلى حال الناس ـ ٣٩ ـ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُم خَلائفَ في الأرضِ﴾: جمع خليفة، أي: يخلف بعضكم بعضًا. ﴿فمَن كَفَرَ﴾ منكم ﴿فعَلَيهِ كُفرُهُ﴾ أي: وبال كُفره، ﴿ولا يَزِيدُ الكافِرِينَ كُفرُهُم عِندَ رَبِّهِم إلاّ مَقتًا﴾: غضبًا، ﴿ولا يَزِيدُ الكافِرِينَ كُفرُهُم إلاّ خَسارًا﴾ لِلآخرة.

٤٠ ـ ﴿قُلْ: أرَأَيتُم شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدعُونَ﴾: تعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه ـ وهم الأصنام الذين زعمتم أنهم شركاءُ الله تعالى ـ ﴿أرُونِي﴾: أخبِروني ﴿ماذا خَلَقُوا مِنَ الأرضِ؟ أم لَهُم شِركٌ﴾: شَرِكة مع الله ﴿في﴾ خلق ﴿السَّماواتِ؟ أم آتيناهُم كِتابًا فهُم علَى بَيِّنَةٍ﴾:.......................

قولُه: (عَوِيْلٍ) صِياحٍ.

قولُه: (وَقْتاً) فُسِّرَ في حديثٍ مرفوعٍ بالسِّتِّينَ[1]، وعنِ ابنِ عبَّاسٍ: أربعونَ[2]، كذا في «المبهماتِ»[3].

قولُه: (الرَّسُولُ) أو الكتابُ، وقيلَ: العقلُ، أو الشَّيبُ، أو موتُ الأقرانِ.

قولُه: (غَضَباً) أي: شديداً؛ لأنَّ المَقتَ أشدُّ البُغضِ، والتَّكريرُ للدَّلالةِ على أنَّ اقتضاءَ الكُفرِ لكلِّ واحدٍ مِنَ الأمرينِ مستقِلٌّ باقتضاءِ قُبْحِهِ ووجوبِ التَّجنُّبِ عنه، ويمكنُ أن يكونَ الأوَّلُ للمعانِدينَ والمنافقينَ، والثَّاني لغيرِهِم.

قولُه: (أَخبِرُوني) ظاهرُه أنَّه تأكيدٌ، وقالَ القاضي: بدلٌ من: ﴿أَرَأَيْتُم﴾ بدلَ الاشتمالِ؛ لأنَّه بمعنى: أخبروني، كأنَّه قالَ: أخبروني عن هؤلاءِ الشُّركاءِ، أروني أيَّ جُزْءٍ من الأرضِ استبدُّوا بخلقِهِ[4]؟!

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٧٩٢٥)، وفي «المعجم الكبير» (١١/ ١٧٧) (١١٤١٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٧): فيه إبراهيم بن الفضل المخزومي وهو ضعيف.

وروى البخاري (٦٤١٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «أعذر الله إلى امرئ أخَّر أجله، حتى بلَّغه ستِّين سنة».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٧٧).

(٣) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٨٩).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٦١).

حُجّة ﴿مِنهُ﴾ بأنّ لهم معي شركة؟ لا شيء من ذلك. ﴿بَل إنْ﴾: ما ﴿يَعِدُ الظّالِمُونَ﴾: الكافرون ﴿بَعضُهم بَعضًا إلاّ غُرُورًا﴾: باطلاً بقولهم: الأصنام تشفع لهم.

٤١ ـ ﴿إنّ اللهَ يُمسِكُ السّماواتِ والأرضَ أن تَزُولا﴾ أي: يمنعُهما من الزوال، ﴿ولَئِنْ﴾ ـ لامُ قسم ـ ﴿زالَتا إنْ﴾: ما ﴿أمسَكَهُما﴾: يُمسِكُهما ﴿مِن أحَدٍ مِن بَعدِهِ﴾ أي: سواه. ﴿إنّهُ كانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ في تأخير عِقاب الكُفّار.

٤٢ ـ ﴿وأقسَمُوا﴾ أي: كُفّارُ مكّة ﴿بِاللهِ جَهدَ أيمانِهِم﴾ أي: غايةَ اجتهادهم فيها ـ ﴿لَئِن جاءَهُم نَذِيرٌ﴾: رسول ـ ﴿لَيَكُونُنّ أهدَى مِن إحدَى الأُمَمِ﴾: اليهود والنصارى وغيرهما، أي: أيِّ واحدة منهما لِما رأَوا من تكذيب بعضهم بعضًا، إذ «قالَتِ اليَهُودُ: لَيسَتِ النَّصارَى علَى شَيءٍ. وقالَتِ النَّصارَى: لَيسَتِ اليَهُودُ علَى شَيءٍ»، ﴿فلَمّا جاءَهُم نَذِيرٌ﴾ مُحمّدٌ ﷺ ﴿ما زادَهُم﴾ مجيئُه ﴿إلاّ نُفُورًا﴾: تباعُدًا عن الهُدى،

قولُه: (حُجَّةٍ) نافعٌ والشّاميُّ وشعبةُ والكسائيُّ بالجمعِ[(١)]، والضّميرُ للمشركين؛ لقولِه: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ [الروم: ٣٥]، ويجوزُ أن يكون للآلهةِ.

قولُه: (لا شَيءَ مِنْ ذَلِكَ) إشارةٌ إلى أنَّ الاستفهامَ للإنكارِ.

قولُه: (الأَصنَامُ) أو: لا بعثَ.

قولُه: (يَمنَعُهُما) لأنَّ الإمساكَ مَنعٌ، أو: كراهةَ أن تزولا، أو: لئلّا تزولا.

قولُه: (لامُ قَسَمٍ) موطِّئةٌ، وقوله: ﴿زَالَتَا﴾ أي: أرادَتا الزَّوالَ، أو: ﴿زالَتَا﴾ حقيقةً، والإمساكُ بمعنى: الإقامةِ.

قولُه: (سِوَاهُ) أو من بعدِ الزَّوالِ، والجملةُ سادَّةٌ مَسدَّ الجوابَينِ، و﴿مِنْ﴾ الأُولى زائدةٌ، والثّانيةُ للابتِداءِ.

قولُه: (في تَأخِيرِ) متعلِّقٌ بـ﴿حَلِيمًا﴾ يعني: حيثُ أمسكَهُما وكانَتا جَديرَتَينِ بأنْ تُهَدَّا هَدًّا كما قالَ تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾ [مريم: ٩٠]، وأمَّا قولُهُ تعالى: ﴿غَفُوراً﴾ أي: للمؤمنينَ، أو: لمن تابَ من الكافرينَ.

قولُه: (أي: أيِّ وَاحِدَةٍ) إشارةٌ إلى عَدَمِ تَعيينِ الواحدةِ، بخلافِ عبارةِ البيضاويِّ: أي: من واحِدةٍ من الأُمَمِ[(٢)]. فإنَّها مُوهمَةٌ.

قولُه: (مَجِيئُهُ) على التَّسبُّبِ، أو: النَّذيرُ، وهو الأظهرُ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٣٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٩٤).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٦١).

٤٣ ـ ﴿اسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عن الإيمان: مفعولٌ له ﴿وَمَكۡرَ﴾ العملِ ﴿ٱلسَّيِّيِٕ﴾ من الشِّرك وغيره، ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾: يُحيط ﴿ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ﴾ وهو الماكرُ. ووصفُ المكر بالسيّئ أصل، وإضافته إليه قبلُ استعمالٌ آخَر قُدّر فيه مضافٌ حذرًا من الإضافة إلى الصفة.

﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ﴾: ينتظرون ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: سُنّة اللهِ فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم رسلَهم؟ ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ أي: لا يُبدَّل بالعذاب غيرُه، ولا يُحوَّل إلى غير مُستحِقّه. ٤٤ ـ ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ، فَيَنظُرُواْ: كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ، وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ فأهلكَهم الله بتكذيبهم رسلَهم؟ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ﴾: يَسبِقَه ويفوته ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا﴾ بالأشياء كُلّها ﴿قَدِيرٗا﴾ عليها.

٤٥ ـ ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ﴾ من المعاصي ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا﴾ أي: الأرضِ ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾: نَسَمة...

قولُه: (مَفعُولٌ لَهُ) أو بدلٌ من: ﴿نُفُورًا﴾.

قولُه: (حَذَرًا) على مذهَبِ البصريين.

قولُه: (أي: لا يُبَدَّلُ) مجهولٌ نائبُهُ (غَيرُهُ).

قولُه: (بالعَذَابِ غَيْرُهُ) فيه: أنَّ الحُكمَ بالعكسِ، وهو أنّه لا يبدَّلُ العذابُ بغيرِهِ، وكأنّه تَبعَ البيضاويَّ حيثُ قالَ: إذ لا يبدِّلُها بجعلِ غير التَّعذيبِ تعذيباً[١]. قالَ سعدي جلبي: فيه: أنَّ المعنى على العَكْسِ بأن يرحمَهُم مثلاً بَدَلَ التَّعذيبِ[٢].

قولُه: (ولا يُحَوَّلُ) بأن ينقلَهُ من المكذِّبينَ إلى غيرِهِم، قالَ صاحبُ «المدارِكِ»: أي: لا يبدلُها في ذاتِها ولا يحوِّلُها عن أوقاتِها[٣].

قولُه: (﴿دَآبَّةٖ﴾ نَسَمَة) النَّسمةُ: الرُّوحُ نفسُهُ والإنسان، كذا في «القاموسِ»[٤]، فـ«أنوار التنزيل»: الدَّابَّة:

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٦١). قال الشهاب في «حاشيته على تفسير البيضاوي» (٧/ ٢٣٠): قوله: «إذ لا يبدلها الخ» إشارة إلى عدم التكرار، فتبديلها بجعل غير التعذيب ـ وهو الرحمة ـ مكان التعذيب، هذا مراده، وهو على ما في بعض النسخ من سقوط قوله: «تعذيباً» ظاهر وعليها فـ«غير التعذيب» مفعول ثان، و«تعذيباً» مفعول أوّل؛ أي: بجعل التعذيب غيره؛ أي: رحمة، فسقط ما قيل: إنّ المعنى على العكس بأن يرحمهم بدل تعذيبه.

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٩٣).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١١٦٢).

تَدِبّ عليها، ﴿وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يومِ القيامة. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ فيُجازيهم على أعمالهم بإثابة المؤمنين وعِقاب الكافرين.

بنسمةٍ[1]. غيرُ ظاهرٍ.

قولُه: (عَلَيهَا) بشؤمِ مَعاصيهِم.

وقيل: المرادُ بالدَّابَّةِ: الإنسُ وحدَهُ؛ لِمَا بعدَهُ، واللهُ سبحانَه وتعالى أعلمُ.

* * *

(١) في (د): «فتفسير البيضاوي». وانظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٦٢).

سورة فاطر

وتسمَّى: سورة الملائكة، وهي مكِّيَّةٌ كما رُوي عن ابن عباس وقتادة وغيرهما. وفي «مجمع البيان»: قال الحسن: مكِّيَّةٌ إلَّا آيتين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ الآية [٢٩]، ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الآية [٣٢][١].

وآيُها ستٌّ وأربعون في المدنيّ الأخير والشامي، وخمس وأربعون في الباقين.

والمناسبة ـ على ما في «البحر» ـ أنَّه عزَّ وجل لمَّا ذكر في آخر السورة المتقدِّمة هلاك المشركين أعداءِ المؤمنين وإنزالَهم منازل العذاب، تعيَّن على المؤمنين حمدُه تعالى وشكره، كما في قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٢] [الأنعام: ٤٥].

وينضمُّ إلى ذلك تواخي السورتين في الافتتاح بالحمد، وتَقَارُبهما في المقدار وغير ذلك.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: موجِدهما من غير مثالٍ يحتذيه ولا قانونٍ ينتحيه، فالفَطْرُ: الإبداع. وقال الراغب: هو إيجادُه تعالى الشيءَ وإبداعُه على هيئةٍ مترشِّحةٍ لفعلٍ من الأفعال[٣].

---

(١) مجمع البيان ٢٢/ ٢٢٤.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٩٧.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن (فطر).

وأخرج عبد بن حميد، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» وغيرهما عن ابن عباس قال: كنتُ لا أدري ما «فاطر السماوات والأرض» حتى أتاني أعرابيَّان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتُها، يعني ابتدأتها[١].

وأصلُ الفَطْر: الشَّقُّ. وقال الراغب: الشَّقُّ طولاً[٢]. ثم تُجوِّزَ فيه عمَّا تقدَّم، وشاع فيه حتى صار حقيقةً أيضاً. ووجه المناسبة أنَّ السماوات والأرض - والمراد بهما العالم بأسرِه - لكونهما ممكنين، والأصل في الممكن العدمُ كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»[٣]، وصرَّح بذلك فلاسفةُ الإسلام، قال رئيسُهم[٤]: الممكنُ في نفسه ليس، وهو عن علَّته أيس = كأنَّ العدم كامنٌ فيهما، وبإيجادهما يُشَقَّان، ويخرجُ العدمُ منهما.

وقيل في ذلك: كأنَّه تعالى شقَّ العدم بإخراجهما منه.

وقيل: لا مانع من حمله على أصله هنا، ويكون إشارة إلى الأمطار والنبات، فكأنَّه قيل: الحمد لله فاطر السماوات بالأمطار، وفاطر الأرض بالنبات. وفيه نظرٌ ستأتي الإشارةُ إليه قريباً.

وقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ على القولين يحتملُ أنْ يكون معناه: جاعل الملائكة عليهم السلام وسائطَ بينه وبين أنبيائه والصالحين من عباده، يبلِّغون إليهم رسالته سبحانه بالوحي والإلهام والرؤيا الصادقة. أو: جاعلهم وسائط بينه وبين خلقه عزَّ وجلَّ؛ يوصلون إليهم آثارَ قدرته وصنعه، كالأمطار والرياح وغيرها[٥]،

---

(١) شعب الإيمان (١٦٨٢)، وأخرجه أيضاً أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٢٠٦، والطبري ٩/ ١٧٥.

(٢) المفردات (فطر).

(٣) قطعة من حديث أخرجه أبو داود في سننه (٥٠٧٥)، والنسائي في الكبرى (٩٧٥٦) عن بعض بنات النبيِّ ﷺ.

(٤) وهو الشيخ الرئيس ابن سينا، كما صرَّح بذلك المصنِّف عند تفسير الآية (٣) من سورة الحديد.

(٥) في (م): وغيرهما.

وهم الملائكة الموكلون بأمور العالم. وهذا أنسبُ بالقول الثاني، لكن يَرِدُ عليه أنَّه لا معنى لكون الأمطار شاقَّةً للسماوات.

وقال الإمام: إنَّ الحمد يكون على النعم، ونعمه تعالى عاجلةٌ وآجلةٌ، وهو في سورة «سبأ» إشارةٌ إلى نعمة الإيجاد والحشر، ودليله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ﴾ [سبأ: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ [سبأ: ٣]، والحمدُ في هذه السورة إشارةٌ إلى نعمة البقاء في الآخرة، ودليله: «جاعل الملائكة رسلا» أي: يجعلهم سبحانه رسلاً يتلقَّون عبادَ الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] فيجوز أنْ يكون المعنى: الحمد لله شاقِّ السماوات والأرض يومَ القيامة؛ لنزول الأرواح من السماء، وخروج الأجساد من الأرض، وجاعل الملائكة رسلاً في ذلك اليوم يتلقَّون عباده. وعليه فأوَّلُ هذه السورة متَّصلٌ بآخر ما مضى؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾ [سبأ: ٥٤] بيانٌ لانقطاع رجاءِ مَن كان في شكٍّ مُريب، ولما ذكر سبحانه حالَهم ذكر حال المؤمنين وبشَّرهم بإرسال الملائكة إليهم، وأنَّه تعالى يفتحُ أبواب الرحمة لهم(١). انتهى. وفيه من البعد ما فيه.

و«فاطر» صفةٌ لـ «الله»، وإضافته محضة؛ قال أبو البقاء: لأنَّه للماضي لا غير(٢).

وقال غيره: هو معرَّف بالإضافة، إذ لم يجر على الفعل، بل أُريدَ به الاستمرار والثبات، كما يقال: زيدٌ مالك العبيد جاء، أي: زيد الذي من شأنه أن يملك العبيد جاء.

ومَن جعل الإضافة غيرَ محضةٍ جعلَه بدلاً، وهو قليلٌ في المشتقَّات، وكذا الكلام في «جاعل»، و«رسلاً» - على القول بأنَّ إضافته غيرُ محضة - منصوبٌ به بالاتِّفاق، وأمَّا على القول الآخر فكذلك عند الكسائيّ.

وذهبَ أبو عليٍّ إلى أنَّه منصوبٌ بمضمرٍ يدلُّ هو عليه؛ لأنَّ اسمَ الفاعل إذا كان

---

(١) تفسير الرازي ٢٦/٢-٣.

(٢) إملاء ما من به الرحمن ٤/٢١٦.

بمعنى الماضي لا يعملُ عنده كسائر البصريين إلَّا معرَّفاً باللام.

وقال أبو سعيد السيرافيُّ: اسمُ الفاعل المتعدِّي إلى اثنين يعملُ بالثاني؛ لأنَّه بإضافته إلى الأوَّل تعذَّرت إضافتُه إلى الثاني، فتعيَّنَ نصبُه له.

وعلَّلَ بعضُهم ذلك بأنَّه بالإضافة أشبهُ بالمعرَّف باللام، فعملَ عملَه. هذا على تقدير كون الجعل تصييرياً، أمَّا على تقدير كونه إبداعيّاً فـ «رسلاً» حالٌ مقدرة.

وقرأ الضَّحَّاك والزهريُّ: «فَطَر» جعله[1] فعلاً ماضياً، ونصبَ ما بعده. قال أبو الفضل الرازي: يحتملُ أنْ يكون ذلك على إضمار «الذي» نعتاً لـ «الله» تعالى، أو على تقدير «قد» فتكون الجملة حالاً.

وأنت تعلم أنَّ حذف الموصول الاسميِّ لا يجوز عند جمهور البصريين، وذهب الكوفيون والأخفش إلى إجازته، وتبعَهم ابنُ مالك[2]، وشَرَطَ في بعض كتبه كونَه معطوفاً على موصولٍ آخر، ومن حُجَّتهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وقول حسان:

أمَن يهجو رسولَ الله منكم ويمدحُهُ وينصرُه سواءُ[3]

وقول آخر:

ما الذي دأبُه احتياطٌ وحزمٌ وهواهُ أطاعَ يستويانِ[4]

واختار أبو حيَّان كونَ الجملةِ خبرَ مبتدأ محذوف، أي: هو فطر[5].

وقرأ الحسن: «جاعلُ» بالرفع على المدح، وجرِّ «الملائكة»[6].

---

(١) في الأصل و(م): جعل، والمثبت من البحر المحيط ٧/ ٢٩٧، والكلام منه. والقراءة عن الضحاك في القراءات الشاذة ص ١٢٣، والمحتسب ٢/ ١٩٨.

(٢) انظر شرح التسهيل لابن مالك ١/ ٢٣٥.

(٣) ديوان حسان ص ٩، وفيه: فمن. بدل: أمن.

(٤) هو من شواهد المغني ص ٨١٦، ونسبه ابن مالك في شرح التسهيل ١/ ٢٣٥ لبعض الطائيين. وانظر شرح أبيات المغني للبغدادي ٧/ ٣٩.

(٥) البحر المحيط ٧/ ٢٩٧.

(٦) القراءات الشاذة ص ١٢٣، والمحتسب ٢/ ١٩٨، والبحر المحيط ٧/ ٢٩٧.

وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: «جاعلُ» بالرفع بلا تنوين، ونصب «الملائكة»[١]، وخُرِّجَ حذفُ التنوين على أنَّه لالتقاء الساكنين، ونصبُ «الملائكة» إذا كان «جاعل» للمضيّ على مذهب الكسائيِّ وهشام في جواز إعمال الوصف الماضي النصب.

وقرأ ابن يعمر وخليد: «جَعَلَ» فعلاً ماضياً «الملائكةَ» بالنصب، وذلك بعد قراءته: «فاطر» كالجمهور[٢]، كقراءة من قرأ: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾[٣] [الأنعام: ٩٦].

وفي «الكشاف»[٤]: قرئ: «فطر» و«جعل» كلاهما بلفظ الفعل الماضي.

وقرأ الحسن وحميد بن قيس: «رُسْلاً» بسكون السين[٥]، وهي لغة تميم.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ﴾ صفةٌ لـ «رسلاً»، وأولو اسم جمع لـ «ذو»، كما أنَّ أولاء اسم جمع لـ «ذا»، ونظيرُ ذلك من الأسماء المتمكنة: المخاض، قال الجوهريُّ: هي الحوامل من النوق، واحدتها: خَلِفَة[٦].

و«أجنحة» جمع: جناح، صيغة جمع القلَّة، ومقتضى المقام أنَّ المراد به الكثرة. وفي «البحر»: قياسُ جمع الكثرة فيه: جُنُح، فإن كان لم يُسمع كان أجنحة مستعملاً في القليل والكثير[٧].

والظاهر أنَّ الجناحَ بالمعنى المعروف عند العرب، بيد أنَّا لا نعرفُ حقيقته وكيفيته، ولا نقولُ إنَّه من ريشٍ كريش الطائر.

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٢٣. وقراءة أبي عمرو المتواترة عنه كقراءة الجمهور.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٩٧، وهي عن الأول في القراءات الشاذة ص ١٢٣، وعن الثاني في المحتسب ٢/ ١٩٨.
(٣) هي قراءة الكوفيين كما في التيسير ص ١٠٥، وانظر ما سلف عند تفسير الآية.
(٤) ٣/ ٢٩٧.
(٥) البحر المحيط ٧/ ٢٩٧، وهي عن الحسن في القراءات الشاذة ص ١٢٣.
(٦) الصحاح (مخض).
(٧) البحر المحيط ٧/ ٢٩٨.

نعم أخرج ابنُ المنذر عن ابن جريج أنَّ أجنحةَ الملائكة عليهم السلام زغبة[1].

ورأيتُ في بعض كتب الإماميَّة أنَّ الملائكةَ تزدحمُ في مجالس الأئمَّة، فيقع من ريشها ما يقع، وأنَّهم يلتقطونه ويجعلونَ منه ثياباً لأولادهم.

وهذا عندي حديثُ خرافة، والكشفيَّة منهم يؤوِّلونه بما لا يُخرجه عن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ الظاهرُ أنَّه صفةٌ لـ «أجنحة»، والمنعُ من الصرف على المشهور للصفة والعدل عن: اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة.

وقال الزمخشريُّ: إنَّما لم تنصرف هذه الألفاظُ لتكرار العدل فيها، وذلك أنَّها عُدِلت عن ألفاظ الأعداد من صيغٍ إلى صيغٍ أُخَرَ، كما عُدِل عمر عن عامر، وحَذَام عن حاذمة[2]، وعن تكريرٍ إلى غير تكرير، ففيها عدلان، وأمَّا الوصفيَّة فلا يفترقُ الحال فيها بين المعدولة والمعدول عنها، ألا تراك تقول: مررت بنسوةٍ أربعٍ، وبرجالٍ ثلاثةٍ، فلا يعرِّج عليها[3].

وتعقَّبه أبو حيان[4] بأنَّه قاسَ الصفة في هذا المعدول على الصفة في أربع وثلاثة، وليس بصحيح؛ لأنَّ مطلقَ الصفة لم يعدُّوه علَّة، بل اشترطوا أنْ تكون الوصفيَّةُ غيرَ عارضة، كما في أربع، وأن لا يقبل تاء التأنيث أو تكون[5] فيه، كثلاث وثلاثة.

وقال صاحب «الكشف»: فيه أنَّ العدولَ عن التكرر لا يعتبر فيه للصيغة، واعتبر في تحقُّق العدل ذلك، ثم العدولُ عن الصيغة الأصليَّة لإفادة التكرر، فلا عدولين بوجه، وبعد تسليم أنَّ المعتبرَ في الوصف مقارنتُه لوضع المعدول،

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٤٤.

(٢) في (م): وحزام عن حازمة.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٨.

(٤) في البحر ٧/ ٢٩٨.

(٥) في الأصل: وتكون.

فلا يضرُّ عروضه في المعدول عنه، لا اتجاه للمنع ولا معوَّل على السند، وهو قول سيبويه، على ما نقَلَهُ الجوهريُّ[١]، وهو المنصورُ على ما نبَّهت إليه. انتهى.

وتعقَّبه أيضاً صاحبُ «الفرائد» وصاحب «التقريب» بعروض الوصفيَّة في المعدول عنه، وعدمِه في المعدول، لكن قال الطيبيُّ: وجدتُ لبعض المغاربة كلاماً يصلحُ أن يكون جواباً عنه؛ وهو أنَّ «ثُلاث» مثلاً لا يخلو من أن يكون موضوعاً للصفة من غير اعتبار العدد، أو لا يكون، فإن كان الأول لم يكن فيه العدد والمقدَّرُ خلافه، وإن كان الثاني كان الوصف عارضاً لثلاث، كما كان عارضاً لثلاثة، فيمكن أن يقال: إنَّ هذه الأعداد غير منصرفةٍ للعدل المكرَّر كالجمع وألفي التأنيث. انتهى.

وفيه ما لا يخفى.

وقال ابنُ عطية: إنَّ هذه الألفاظ عُدِلَتْ في حال التنكير، فتعرَّفت بالعدل، فهي لا تنصرفُ للعدل والتعريف[٢]. وهذا قولٌ غريب، ذكر في «البحر»[٣] أنه[٤] لبعض الكوفيين.

وفي «الكشاف»[٥]: هي نكراتٌ يعرَّفنَ بلام التعريف، تقول: فلانٌ ينكح المثنى والثلاث والرباع.

وقيل: «مثنى» إلخ حالٌ من محذوف، والعامل فيه محذوفٌ يدلُّ عليه «رسلاً»، أي: يرسَلُون مثنى وثلاث ورباع. والمعوَّل عليه ما تقدَّم، والمراد: ذوي أجنحةٍ متعددةٍ متفاوتةٍ في العدد حسب تفاوت ما لهم من المراتب، ينزلون بها ويعرجون، أو يسرعون بها حين يؤمرون.

---

(١) في الصحاح (ثلث). وانظر كلام سيبويه في الكتاب ٣/ ٢٢٥.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٨.

(٣) ٧/ ٢٩٨.

(٤) لفظة: أنه. ليست في (م).

(٥) ١/ ٤٩٦.

ويجوزُ أن تكون كلّاً أو بعضاً لأمور أخر، كالزينة فيما بينهم، وكالإرخاء على الوجه حياءً من الله تعالى، إلى غير ذلك، والمعنى أنَّ من الملائكة خلقاً لكلٍّ واحدٍ منهم جناحان، وخلقاً لكلٍّ منهم ثلاثةُ أجنحة، وخلقاً لكلٍّ منهم أربعة أجنحة. ولا دلالة في الآية على نفي الزائد، بل قال بعض المحققين: إنَّ ما ذُكر من العدد للدلالة على التكثير والتفاوت، لا للتعيين ولا لنفي النقصان عن اثنين.

وقد أخرج الشيخان والترمذيُّ عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨]: رأى جبريل له ستُّ مئة جناح[١].

والترمذيُّ عن مسروق عن عائشة أنَّ رسول الله ﷺ لم يَرَ جبريل في صورته إلَّا مرتين؛ مرَّةً عند سدرة المنتهى، ومرَّةً في جيادٍ له ستُّ مئة جناح قد سدَّ الأفق[٢].

وقال الزمخشريّ: مرَّ بي في بعض الكتب أنَّ صنفاً من الملائكة عليهم السلام لهم ستَّةُ أجنحة، فجناحان يلفُّون بهما أجسادهم، وجناحان يطيرون بهما في أمرٍ من أمور الله تعالى، وجناحان مرخيَّان على وجوههم حياءً من الله عزَّ وجلَّ[٣].

والبحث عن كيفية وضع الأجنحة ـ شفعاً كانت أو وتراً ـ فيما أرى ممَّا لا طائلَ تحته، ولم يصحَّ عندي في ذلك شيءٌ. ولقياس الغائب على الشاهد، قال بعضهم: إنَّ المعنى: إنَّ في كلِّ جانبٍ لبعض الملائكة عليهم السلام جناحين، ولبعضهم ثلاثة، ولبعضهم أربعة، وإلَّا فلو كانت ثلاثةً لواحد لما اعتدلت. وهو كما ترى.

وقال قوم: إنَّ الجناحَ إشارةٌ إلى الجهة، وبيانه أنَّ الله تعالى ليس فوقه شيء، وكلُّ شيءٍ سواه فهو تحت قدرته سبحانه وتعالى، والملائكة عليهم السلام لهم وجه إلى الله تعالى، يأخذون منه نعمه، ويعطون مَنْ دونَهم ممَّا أخذوه بإذنه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]،

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٣٢)، وصحيح مسلم (١٧٤)، وسنن الترمذي (٣٢٧٧).
(٢) سنن الترمذي (٣٢٧٨).
(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٨.

وهما جناحان، وفيهم مَنْ يفعلُ ما يفعل من الخير بواسطة، وفيهم من يفعلُه لا بواسطة، فالفاعلُ بواسطةٍ: منهم مَنْ له ثلاثُ جهات، ومنهم من له أربع جهات وأكثر.

وهذا خلاف الظاهر جداً، ولا يحتاج إليه السُّنِّيُّ القائل بأنَّ الملائكةَ عليهم السلام أجسامٌ لطيفة نوريَّة، يقدرون على التشكُّل بالصور المختلفة وعلى الأفعال الشاقَّة، وإنَّما يحتاجُ إليه أو إلى نحوه الفلاسفةُ وأتباعهم؛ فإنَّ الملائكةَ عندهم هي العقول المجرَّدة، ويسميها أهل الإشراق بالأنوار الظاهرة، وبعض المتصوفة بالسرادقات النوريَّة، وقد ذكر بعضُ متأخِّريهم أنَّ لها ذواتٍ حقيقيَّةً، وذواتٍ إضافيَّةً مضافة إلى ما دونها إضافةَ النفس إلى البدن، فأمَّا ذواتُها الحقيقيَّة فإنَّما هي أمريَّةٌ قضائيَّةٌ قوليَّةٌ، وأمَّا ذواتُها الإضافية فإنَّما هي خلقيَّة قدريَّة تنشأ منها الملائكة اللوحيَّة، وأعظمهم إسرافيل عليه السلام، وتطلق الملائكة عندهم على غير العقول، كالمدبِّرات العلويَّة والسفليَّة من النفوس والطبائع، وأطالوا الكلام في ذلك، وظواهرُ الآيات والأخبار تكذِّبهم، والله تعالى الموفق للصواب.

﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لما قبله من تفاوت الملائكة عليهم السلام في عدد الأجنحة، ومُؤْذِنٌ بأنَّ ذلك من إحكام مشيئته تعالى، لا لأمرٍ راجعٍ إلى ذواتهم، ببيان حكم كُلِّيٍّ ناطقٍ بأنَّه عزَّ وجلَّ يزيدُ في أيِّ خلقٍ كان كلَّ ما يشاء أن يزيدَه بموجب مشيئته سبحانه، ومقتضى حكمته من الأمور التي لا يحيطُ بها الوصف. وقال الفراء والزجاج: هذا في الأجنحة التي للملائكة(١)، أي: يزيدُ في خلق الأجنحة للملائكة ما يشاء، فيجعلُ لكلٍّ ستَّةَ أجنحة أو أكثر، وروي ذلك عن الحسن، وكأنَّ الجملةَ لدفع توهُّم عدم الزيادة على الأربعة.

وعن ابن عباس: يزيدُ في خلق الملائكة والأجنحة ما يشاء.

وقيل: «الخلق» خلق الإنسان، و«ما يشاء» الخلق الحسن، أو الصوت الحسن، أو الحظُّ الحسن، أو الملَاحَةُ في العينين، أو في الأنف، أو في الوجه،

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٦، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٦١.

أو خفَّةُ الروح، أو جعودة الشعر وحسنه، أو العقل، أو العلم، أو الصنعة، أو العفَّة في الفقراء، أو حلاوة النطق. وذكروا في بعض ذلك أخباراً مرفوعةً، والحقُّ أنَّ ذلك من باب التمثيل لا الحصر، والآيةُ شاملةٌ لجميع ذلك، بل شاملةٌ لما يُستحسن ظاهراً، ولما لا يستحسن، وكلُّ شيء من الله عزَّ وجلَّ حسن.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ تعليلٌ بطريق التحقيق للحكم المذكور، فإنَّ شمولَ قدرته تعالى لجميع الأشياء ممَّا يوجبُ قدرتَه سبحانه على أن يزيدَ في كلِّ خلقٍ كلَّ ما يشاؤه تعالى إيجاباً بيِّناً.

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ أي: ما يطلقها ويرسلها، فالفتح مجازٌ عن الإرسال بعلاقة السببيَّة، فإنَّ فتحَ المغلق سببٌ لإطلاق ما فيه وإرساله، ولذا قوبل بالإمساك والإطلاق كنايةً عن الإعطاء، كما قيل: أطلق السلطانُ للجند أرزاقَهم، فهو كنايةٌ متفرِّعةٌ على المجاز.

وفي اختيار لفظ الفتح رمزٌ إلى أنَّ الرحمةَ من أَنْفَس الخزائن وأعزِّها منالاً، وتنكيرُها للإشاعة والإبهام، أي: أيَّ شيءٍ يفتح الله تعالى من خزائن رحمته، أيِّ رحمةٍ كانت، من نعمةٍ وصحَّةٍ، وأمنٍ وعلمٍ وحكمةٍ، إلى غير ذلك ممَّا لا يحاط به، حتى إنَّ عروة كان يقول ـ كما أخرج ابنُ المنذر عن محمد بن جعفر بن الزبير عنه في ركوب المَحْمِل[1] ـ: هي والله رحمةٌ فُتِحت للناس، ثمَّ يقول: (مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ) إلخ.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السُّدِّيِّ: الرحمة: المطر. وعن ابن عباس: التوبة[2]. والمراد التمثيل،

والجارُّ والمجرور في موضع الحال، لا في موضع الصفة؛ لأنَّ اسم الشرط لا يوصف.

﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي: فلا أحد يقدرُ على إمساكها ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ أي: أيَّ شيء يمسك ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ أي: فلا أحد يقدرُ على إرساله. واختلاف الضميرين لِمَا أنَّ

---

(١) المحمل: الهودج. المعجم الوسيط (حمل).

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٤٤.

مرجعَ الأول مبيَّنٌ بالرحمة، ومرجع الثاني مطلقٌ يتناولها وغيرها.

وفي ذلك ـ مع تقديم أمر فتح الرحمة ـ إشعارٌ بأنَّ رحمتَه تعالى سبقت غضبَه عزَّ وجلَّ، كما ورد في الحديث الصحيح[(١)].

وقيل: المراد: وما يمسك من رحمةٍ، إلَّا أنَّه حذف المبيّن لدلالة ما قبلُ عليه، والتذكيرُ باعتبار اللفظ، وعدمِ ما يقوِّي اعتبارَ المعنى في التلفُّظ.

وأُيِّد بأنَّه قُرئ: «فلا مرسل لها» بتأنيث الضمير[(٢)].

﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ أي: من بعد إمساكه ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب على كلٍّ ما يشاء من الأمور التي من جملتها الفتح والإمساك ﴿ٱلۡحَكِيمُ ۝٢﴾ الذي يفعلُ كلَّ ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

والجملةُ تذييلٌ مقرِّرٌ لما قبلَها، ومعرِبٌ عن كون كلٍّ من الفتح والإمساك بموجب الحكمة التي يدورُ عليها أمر التكوين[(٣)].

وما أدعَى هذه الآية إلى الانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عمَّا سواه عزَّ وجلَّ، وإراحةِ البال عن التخيلات الموجبة للتهويش وسهر الليال.

وقد أخرج ابنُ المنذر عن عامر بن عبد قيس قال: أربع آياتٍ من كتاب الله تعالى إذا قرأتُهنَّ فما أبالي ما أصبحُ عليه وأمسي: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾، ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ [يونس: ١٠٧] و﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٧]، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾[(٤)] [هود: ٦].

وبعد ما بيَّن سبحانه أنه الموجدُ للملك والملكوت، والمتصرِّف فيهما على

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١)، وانظر ما سلف عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنعام.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٩٩.

(٣) في الأصل: التمكين. والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٧/ ١٤٢، والكلام منه.

(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٤٤.

الإطلاق، أَمرَ الناس قاطبةً، أو أهل مكَّة ـ كما روي عن ابن عباس، واختاره الطيبيُّ ـ بشكر نعمه عزَّ وجلَّ، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إنعامه تبارك وتعالى عليكم، إنْ جُعلت النعمةُ مصدراً، أو: كائنةً عليكم، إن جُعلت اسماً، أي: راعوها واحفظوها بمعرفة حقِّها والاعتراف بها وتخصيص العبادة والطاعة بموليها، فليس المرادُ مجرَّدَ الذكر باللسان، بل هو كنايةٌ عما ذكر.

وعن ابن عباس ـ وقد جعل الخطاب لمن سمعت ـ: اذكروا نعمةَ الله عليكم، حيث أسكَنَكم حرمه، ومنعكم من جميع العالم، والناسُ يتخطَّفون من حولكم. وعنه أيضاً: نعمة الله تعالى: العافية. والأَوْلى عدم التخصيص.

ولمَّا كانت نِعَمُ الله تعالى مع تشعُّب فنونها منحصرةً في نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء، نَفَى سبحانَه أن يكون في الوجود شيءٌ غيره سبحانه يصدرُ عنه إحدى النعمتين بطريق الاستفهام الذي هو لإنكار التصديق وتكذيب الحكم، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾، و«هل» تأتي لذلك، كما في «المطوَّل» وحواشيه. وقولُ الرضيِّ: إنَّ «هل» لا تستعملُ للإنكار: أرادَ به الإنكارَ على مُدَّعي الوقوع، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الإسراء: ٤٠] ويلزمه النفي، والإنكارَ على من أوقعَ الشيء، كما في قولك: أتضربُ زيداً وهو أخوك[(١)].

أي: هل خالقٌ مغايرٌ له تعالى موجودٌ لكم أو للعالم؟! على أنَّ «خالق» مبتدأ محذوفُ الخبر، زيدت عليه «من» لتأكيد العموم، و«غير الله» صفةٌ له باعتبار محلِّه، وصحَّت الوصفيَّةُ به مع إضافته إلى أعرف المعارف؛ لتوغُّله في التنكير، فلا يكتسب تعريفاً في مثل هذا التركيب.

وجُوِّزَ أنْ يكون بدلاً من «خالق» بذلك الاعتبار، ويعتبر الإنكار في حكم النفي؛ ليكون «غير الله» هو الخالق المنفيّ، ولأنَّ المعنى على الاستثناء، أي:

---

(١) وثالث قسمي الإنكار المذكورين أن «هل» لإنكار وقوع الشيء. قال الخفاجي في حاشيته ٧/ ٢١٥: ويستعمل «هل» في الأخير دون الأولين.

لا خالقَ إلَّا الله تعالى، والبدليَّةُ في الاستثناء بـ «غير» إنَّما تكون في الكلام المنفيِّ، وبهذا الاعتبار زيدت «من» عند الجمهور، وصحَّ الابتداء بالنكرة.

وكذا جُوِّزَ أن يكون فاعلاً بـ «خالق» لاعتماده على أداة الاستفهام، نحو: أقائمٌ زيد، في أحد وجهيه، وهو حينئذٍ سادٌّ مسدَّ الخبر.

وتعقَّبهُ أبو حيَّان بقوله: فيه نظر، وهو أنَّ اسمَ الفاعل أو ما يجري مجراه، إذا اعتمدَ على أداة الاستفهام وأجريَ مجرى الفعل، فرفع ما بعدَه، هل يجوزُ أن تدخل عليه «من» التي للاستغراق، فيقال: هل من قائم الزيدون، كما تقول: هل قائم الزيدون؟ والظاهرُ أنَّه لا يجوزُ، ألا ترى أنَّه إذا أجريَ مجرى الفعل لا يكون فيه عموم، بخلافه إذا دخلت عليه «من»، ولا أحفظُ مثله في لسان العرب، وينبغي أن لا يُقْدَمَ على إجازة مثل هذا إلَّا بسماعٍ من كلامهم[١].

وفيه أنَّ شرط الزيادة والإعمال موجودٌ، ولم يُبدِ مانعاً يُعَوَّل عليه، فالتوقُّفُ تعنُّتٌ من غير توقُّف.

وفي «الكشف»: لا مانعَ من أن يكون «غير» خبراً، ومنعه الشهاب بأنَّ المعنى ليس عليه[٢].

وقرأ ابن وثَّاب وشقيق وأبو جعفر وزيد بن عليٍّ وحمزةُ والكسائيُّ: «غيرِ» بالخفض[٣] صفةً لـ «خالق» على اللفظ، وهذا متعيِّنٌ في هذه القراءة، ولأنَّ توافق القراءتين أولى من تخالفهما كان الأظهرُ في القراءة الأولى كونَه وصفاً لـ «خالق» أيضاً.

وقرأ أبو الفضل بن إبراهيم النحويُّ: «غيرَ» بالنصب على الاستثناء[٤].

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٠٠.

(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٢١٥.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٠٠، وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص ١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥١، وفي الأخير قراءة أبي جعفر، وقرأ بها أيضاً من العشرة خلف.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٢٣، والبحر المحيط ٧/ ٣٠٠.

وقوله تعالى: ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بالمطر والنبات، كلامٌ مبتدأ لا محلَّ له من الإعراب، لا صفة «خالق» باعتبار لفظه أو محلِّه.

قال في «الكشف»: لأنَّ المعنى على التقريع والتذكير بما هم معترفون به، فكأنَّه قيل: هل من خالقٍ لتلك النعم التي أمرتم بذكرها، أو مطلقاً ـ وهو أولى، وتدخل دخولاً أوَّليّاً ـ غير الله، ثم تمَّم ذلك بأنَّه يرزُقكم من السماء والأرض، وذلك أيضاً يقتضي اختصاصَه تعالى بالعبادة، كما أنَّ الخالقيَّة تقتضي ذلك. وفيه أنَّ الخالقَ لا يكونُ إلَّا رازقاً، ولو قيل: هل من خالقٍ رازقٍ من السماء والأرض غيرُ الله؟ يخرج الكلام عن سَنَنه المقصود.

وجوزَ أن يكون «خالق» فاعلاً لفعلٍ مضمرٍ يفسِّره المذكور، والأصل: هل يرزقكم خالقٌ، و«من» زائدة في الفاعل.

وتُعقِّبَ بأنَّ ما في النظم الجليل إن كان من باب: هل رجلٌ عرف؟ فقد صرَّح السكاكيُّ[1] بقبح هذا التركيب؛ لأن «هل» إنما تدخلُ على الجملة الخبرية، فلا بدَّ من صحتها قبل دخول «هل»، و: رجل عرف، لا يصحُّ بدون اعتبار التقديم والتأخير؛ لعدم مصحِّح الابتدائية سواه، وإذا اعتبر التقديم والتأخير كان الكلامُ مفيداً لحصول التصديق بنفس الفعل، فلا يصحُّ دخول «هل» عليه؛ لأنَّها لطلب التصديق، وما حُصِّلَ لا يُطْلَب؛ لئلَّا يلزمَ تحصيلُ الحاصل، ولاحتمال أنْ يكون رجل فاعلَ فعلٍ محذوف؛ قال بالقبح دون الامتناع.

وإن كان من باب: هل زيد عرف؟ فقد صرَّح العلَّامة الثاني السعدُ التفتازانيُّ بأنَّه قبيحٌ باتِّفاق النحاة، وأنَّ ما ذكره صاحب «المفصَّل» من أنَّ نحو: هل زيد خرج؟ على تقدير الفعل: تصحيحٌ للوجه القبيح البعيد، لا أنَّه شائعٌ حسنٌ، غايةُ ما في الباب أنَّ سببَ قبحه ليس ما ذكر في قبح: هل زيد عرف؟ عند السكاكيِّ؛ لعدم تأتِّيه فيه، بل السبب أنَّ «هل» بمعنى «قد» في الأصل، وأصله: أَهَلْ، كقوله:

---

(١) في مفتاح العلوم ص ٣٠٨-٣٠٩.

أهـل عـرفـتَ الـدار بـالـغـرتـيـن[1]

وترك الهمزة قبلها لكثرة وقوعها في الاستفهام، فأقيمت هي مقام الهمزة وتطفَّلت عليها في الاستفهام، و«قد» من لوازم الأفعال، فكذا ما هي بمعناها، ولم يقبح دخولها على الجملة الاسمية التي طرفاها اسمان؛ لأنَّها إذا لم تر الفعل في حيِّزها تتسلَّى عنه ذاهلةً، وهذا بخلاف ما إذا رأته، فإنَّها حينئذٍ تتذكر عهوداً بالحمى، وتحنُّ إلى الإلف المألوف، وتطلبُ معانقته، ولم ترضَ بافتراق الاسم بينهما، ويعلمُ من هذا أنَّه لا فرقَ عند النحاة بين: هل رجل عرف؟ و: هل زيد عرف؟ في القبح، لذلك.

وأجابَ بعضُهم بأنَّ مُجوِّزَ هذا الوجه الزمخشريُّ ومتابعوه، وهو لا يسلِّم ما ذكر؛ لأنَّ حرفَ الشرط كان مثلاً ألزمَ للفعل من «هل»؛ لأنَّه لا يجوزُ دخولُه على الجملة الاسميَّة التي طرفاها اسمان كما دخلت عليها «هل»، وقد جازَ بلا قبحٍ عملُ الفعل بعده على شريطة التفسير، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ [التوبة: ٦]، فيجوز في «هل» بالطريق الأَوْلَى.

وقيل: يجوز أن يكون «يرزقكم» إلخ مستأنفاً في جواب سؤالٍ مقدَّر، تقديره: أيُّ خالقٍ يسأل عنه؟ وأن يكون هو الخبر لـ «خالق».

ولا يخفى على متأمِّلٍ أنَّ ما نقل عن «الكشف» قاضٍ بمرجوحيَّة هذه الأوجه جميعها، فتأمَّل.

وفي الآية على ما هو الأَوْلَى في تفسيرها وإعرابها ردٌّ على المعتزلة في قولهم: العبدُ خالقٌ لأفعاله، ونصرةٌ لأهل السنة في قولهم: لا خالق إلا الله تعالى.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ للنفي المفهوم ممَّا تقدَّم قصداً، ولم يجوِّز

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وسيأتي ١٨/٢٥ بلفظ بالغَرِيَّيْن. وهو الصواب. والغريَّان: موضع بالكوفة نحو فرسخين منها، وهو مثنى الغَرِيّ، بفتح الغين المعجمة وكسر الراء المهملة وتشديد الياء. كذا قال عبد القادر البغدادي في الخزانة، وهو من قصيدة لخطام المجاشعي من البحر السريع. انظر الخزانة ١١/ ٢٦١-٢٦٩.

جارُ الله أنْ يجعل صفة لـ «خالق» كما جعل «يرزقكم» صفة له، حيث قال: ولو وصلت جملة «لا إله إلا هو» كما وصلت «يرزقكم» لم يساعد عليه المعنى؛ لأنَّ قولَك: هل من خالقٍ آخر سوى الله لا إله إلا ذلك الخالق، غيرُ مستقيم؛ لأنَّ قولَك: هل من خالق سوى الله، إثباتٌ لله تعالى، فلو ذهبت تقول ذلك كنتَ مناقضاً بالنفي بعد الإثبات(١). اهـ.

وبيَّن صاحبُ «الكشف» وجهَ المناقضة على تقدير أنْ يكون «غير الله» صفة، بأنَّ الكلامَ مسوقٌ لنفي المشاركة في الصفة المحقَّقة، أعني: الخَلْق، فقولك: هل من خالقٍ آخر سوى الله، إثباتٌ لله تعالى ونفي المشارك له فيها، ثم وصفُ الآخر بانحصار الإلهية فيه يكون لنفي خالقيته دون تفرُّدٍ بالإلهية، والتفرُّد بالإلهية مع مغايرته لله تعالى متناقضان؛ لأنَّ الأولَ ينفيه، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً، والثاني يثبتُه مع الغير، جلَّ عن كلِّ شريكٍ ونقص.

ثم قال: والتحقيقُ في هذا أنَّ «هل» لإنكار ما يليها، وما تلاهُ إنْ كان من تتمَّته ينسحبُ عليه حكم الإنكار بالتبعيَّة(٢)، وإلَّا كان مُبْقًى على حاله نفياً وإثباتاً، ولمَّا كان الكلامُ في الخالقية على ما مرَّ، لم يكن الوصفان ـ أعني تفرُّد الآخر بالإلهيَّة ومغايرَته للقيوم الحقِّ ـ مصبّاً له، وهما متناقضان في أنفسهما على ما بُيِّن، فيلزم ما ذكره جارُ الله لزوماً بيِّناً. اهـ.

وقد دَفَع بتقريره ذلك كثيراً من القال والقيل، بيد أنَّه لا يخلو عن بحث، ويمكنُ تقرير المناقضة على تقدير الوصفيَّة بوجهٍ أظهر، لعلَّه لا يخفى على المتأمِّل، ويجوزُ أنْ يكونَ المانعُ من الوصفيَّة النظمَ المعجز، وحاكمه الذوق السليم، والكلام في ذلك طويلٌ فتأمَّل.

والفاء في قوله سبحانه: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾ لترتيب إنكار عدولهم عن التوحيد إلى الإشراك على ما قبلها، كأنَّه قيل: وإذا تبيَّن تفرُّده تعالى بالألوهيَّة والخالقيَّة والرازقيَّة، فمن أيِّ وجهٍ تُصرَفون عن التوحيد إلى الشرك؟!

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٠٠.

(٢) في (م): بالبقية.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ إلخ تسليةٌ له عليه الصلاة والسلام بعموم البليَّة والوعدِ له ﷺ والوعيدِ لأعدائه، والمعنى: وإن استمرُّوا على أن يكذِّبوك فيما بلَّغتَ إليهم من الحقِّ المبين بعد ما أقمتَ عليهم الحجَّة وألقمتَهم الحَجَر، فتأسَّ بأولئك الرسل في الصبر، فقد كذَّبهم قومُهم وصبرُوا، فجملة: «قد كذبت رسل من قبلك» قائمةٌ مقام جواب الشرط، والجواب في الحقيقة: تأسَّ، وأقيمت تلك الجملةُ مقامَه اكتفاءً بذكر السبب عن ذكر المسبَّب، وجُوِّز أن تُجعَل هي الجواب من غير تقدير، ويكون المترتِّب على الشرط الإعلام والإخبار، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وتنكير «رسل» للتعظيم والتكثير الموجبَين لمزيد التسلية، والحثُّ على التأسِّي والصبر على ما أصابه عليه الصلاة والسلام من قومه، أي: رسلٌ أولو شأنٍ خطيرٍ وعددٍ كثير.

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾ لا إلى غيره عزَّ وجلَّ، فيجازي سبحانه كلاًّ منك ومنهم بما يليقُ به.

وفي الاقتصار على ذكر اختصاص المرجع به تعالى مع إبهام الجزاء ثواباً وعقاباً من المبالغة في الوعد والوعيد ما لا يخفى.

وقُرِئ: «تَرجع» بفتح التاء[1]، من الرجوع، والأوَّل أدخلُ في التهويل.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ المشار إليه بقوله سبحانه: «وإلى الله ترجع الأمور» من البعث والجزاء ﴿حَقٌّ﴾ ثابتٌ لا محالةَ من غير خُلْفٍ ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بأن يذهلكم التمتُّع بمتاعها ويلهيكم التلهِّي بزخارفها عن تداركِ ما ينفعكم يومَ حلول الميعاد. والمراد نهيهم عن الاغترار بها وإنْ توجَّه النهيُ صورةً إليها نظيرَ قوله تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ [هود: ٨٩]، وقولك: لا أرينك هنا.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ﴾ حيث إنَّه جلَّ شأنه عفوٌّ كريمٌ رؤوفٌ رحيمٌ ﴿الْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾

---

(١) هي قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب. انظر التيسير ص ٨٠، والنشر ٢/٢٠٨-٢٠٩.

أي: المبالغ في الغرور، وهو - على ما رويَ عن ابن عباس والحسن ومجاهد - الشيطانُ، فالتعريف للعهد، ويجوز التعميم، أي: لا يغرنّكم كلُّ من شأنُه المبالغةُ في الغرور، بأن يمنّيكم المغفرةَ مع الإصرار على المعصية قائلاً: إنَّ الله يغفرُ الذنوب جميعاً، فإنَّ ذلك وإن أمكن، لكن تعاطي الذنوب بهذا التوقُّع من قبيل تناول السمِّ تعويلاً على دفع الطبيعة.

وتكرير فعل النهي؛ للمبالغة فيه، ولاختلاف الغرورين في الكيفية.

وقرأ أبو حيوة وأبو السمَّال: «الغُرُور» بالضمِّ[1] على أنَّه مصدر غرَّه يغرُّه، وإن قلَّ في المتعدِّي، أو جمع غَارّ، كقُعود وسُجود مصدرين وجمعين، وعلى المصدريَّة الإسنادُ مجازيّ.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ عداوةً عامَّةً قديمةً لا تكاد تزول، ويُشعِرُ بذلك الجملةُ الاسميَّة و«لكم»، وتقديمُه للاهتمام ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بمخالفتكم إيَّاه في عقائدكم وأفعالكم، وكونوا على حذرٍ منه في مجامع أحوالكم.

﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ تقريرٌ لعداوته، وتحذيرٌ من طاعته، بالتنبيه على أنَّ غرضَه في دعوة شيعته إلى اتِّباع الهوى والركونِ إلى ملاذِّ الدنيا ليس إلَّا توريطَهم وإلقاءهم في العذاب المخلد من حيث لا يشعرون، فاللام ليست للعاقبة، وزعم ابن عطية أنَّها لها[2].

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بسبب كفرهم، وإجابتهم لدعوة الشيطان، واتِّباعهم لخطواته، ولعلَّ تنكير «عذاب» لتعظيمه بحسب المدَّة، فكأنَّه قيل: لهم عذاب دائم شديد.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ عظيمةٌ ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾ لا غاية لهما بسبب ما ذُكر من الإيمان والعمل الصالح.

و«الذين كفروا» مبتدأ، خبره: «لهم عذاب»، وكذا «الذين آمنوا» و«لهم

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٠٠، وانظر تفسير القرطبي ١٧/ ٣٤٦.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٠.

مغفرة» إلخ. وجَوَّزَ بعضُهم كون «الذين كفروا» في موضع خفض بدلاً من «أصحاب السعير»، أو صفةً له، أو في موضع نصب بدلاً من «حزبه»، أو صفة له، أو في موضع رفع بدلاً من ضمير «ليكونوا»، والكلُّ مفوِّتٌ لجزالة التركيب كما لا يخفى على الأريب.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي: حُسِّن له عمله السيِّئ ﴿فَرَءَاهُ﴾ فاعتقده بسبب التزيين ﴿حَسَنًا﴾ فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، و«من» موصولةٌ في موضع رفع على الابتداء، والجملةُ بعدها صلتُها، والخبر محذوف، والفاء للتفريع، والهمزة للإنكار، فإن كانت مقدَّمةً من تأخير ـ كما هو رأي سيبويه والجمهور في نظير ذلك ـ فالمراد تفريعُ إنكار ما بعدَها على ما قبلها من الحكمين السابقين، أي: إذا كانت عاقبةُ كلٍّ من الفريقين ما ذُكر، فليس الذي زُيِّن له الكفرُ من جهة عدوِّه الشيطان فاعتقدَه حسناً وانهمك فيه، كمن استقبحه واجتنبَه واختار الإيمان والعمل الصالح، وإن كانت في محلِّها الأصليِّ وكان العطفُ على مقدَّرٍ تكون هي داخلةً عليه[1] ـ كما ذهب إليه جمعٌ ـ فالمرادُ إنكارُ[2] ما في حيِّزها، ويكون التقدير: أهما ـ أي: الذين كفروا والذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ متساويان، فالذي زُيِّنَ له الكفرُ من جهة عدوِّه الشيطان، فاعتقدَه حسناً وانهمك فيه، كمن استقبحَه واجتنبَه واختارَ الإيمان والعمل الصالح؟ أي: ما هما متساويان، ليكون الذي زُيِّنَ له الكفر كمن استقبحه، وحذف هذا الخبر لدلالة الكلام عليه، واقتضاء النظم الجليل إيَّاه.

وقد صرَّح بالجزأين في نظير الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ [محمد: ١٤]، وقوله سبحانه: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وفي التعبير عن الكافر بمن زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حسناً إشارةٌ إلى غاية ضلاله،

(١) في (م): إليه.
(٢) لفظة: إنكار. ليست في (م).

حتى كأنَّه غلبَ على عقله، وسَلَبَ تمييزَه، فشأن المغلوب على عقله ذلك كما يشير إليه قول أبي نواس:

واسقني حتى تراني حسناً عندي القبيحُ[١]

وظاهرُ كلام الزجَّاج أنَّ «مَن» شرطية، حيث قال: الجوابُ على ضربين:

أحدهما: ما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾ إلخ، ويكون المعنى: أفمن زُيِّن له سوءُ عمله فأضلَّه اللهُ ذهبت نفسُك عليهم حسرة.

وثانيهما: ما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ إلخ، ويكون المعنى: أفمن زُيِّنَ له سوءُ عمله كمن هداهُ الله تعالى[٢]. وإلى ذلك ذهب ابنُ مالكٍ أيضاً[٣].

واعترض ابنُ هشام على التقدير الثاني بأنَّ الظرفَ لا يكون جواباً، وإن قلنا: إنَّه جملة[٤]. ووجهُه أنَّ الرضيّ صرَّح بأنَّه لا يكون مستقرّاً في غير الخبر والصفة والصلة والحال، ولم يَذكر الجواب، لا أنَّ ذلك لعدم الفاء، وتقديرُها[٥] داخلةً على مبتدأ يكون الظرف خبره، والجملةُ بتمامها جزاءً = غير جائز؛ لما فيه من التكلُّف، كما قيل.

وزعم بعضهم أنَّه يجوزُ أن يكون الزَّجَّاجُ قد ذهب إلى أن «من» موصولة، وأطلق على خبرها الجواب لشَبَهه به في المعنى، ألا تراهم يدخلون الفاء في خبر الموصول الذي صلته جملةٌ فعليَّةٌ، كما يدخلونها في جواب الشرط، فيقولون: الذي يأتيني فله درهم.

وفيه أنَّه خلاف الظاهر، ولا قرينة على إرادته سوى عدم صحة الجزائية.

---

(١) ديوان أبي نواس ص ١٦٩.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٦٤.
(٣) في شرح الألفية، كما صرح بذلك الشهاب في حاشيته ٧/ ٢١٧. وانظر شرح ابن الناظم على الألفية ص ٢٧٥.
(٤) مغني اللبيب ص ٧٥٦-٧٥٧.
(٥) أي: الفاء. انظر حاشية الشهاب ٧/ ٢١٧.

وضُعِّفَ التقديرُ الأول بالفصل بين ما فيه الحذف ودليلِ المحذوف، مع خفاء ربط الجملة بما قبلها عليه.

ولا ينبغي أنْ تكون «من» شرطيَّةً جوابها: فرآه؛ لما في ذلك من الركاكة الصناعية، فإنَّ الماضيَ في الجواب لا يقترنُ بالفاء بدون «قد»، مع خفاء أمر إنكار رؤية سوءِ العمل حسناً بعد التزيين، وتفريعِه على ما قبله من الحكمين.

وكونُ الإنكار لما أنَّ المزيِّنَ هو الشيطان العدوُّ، والتفريعُ على قوله تعالى: (إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ) = لا يخفى حالُه.

فالوجهُ المعوَّلُ عليه ما تقدَّم، وجُعل عليه قوله تعالى[1]: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ تعليلاً لسببيَّة التزيين لرؤية القبيح حسناً، وفيه دفعُ استبعاد أن يَرى الشخصُ القبيحَ حسناً بتزيين العدوِّ إيَّاه، ببيان أنَّ ذلك بمشيئة الله عزَّ وجلَّ التابعةِ للعلم المتعلِّق بالأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر، وإيذانٌ بأنَّ أولئك الكفرةَ الذين زُيِّنَ لهم سوءُ عملهم فرأوه حسناً ممَّن شاء الله تعالى ضَلالهم، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ تفريعٌ عليه، أي: إذا كان الأمر كذلك «فلا تذهب نفسك» إلخ.

وذكر المولى سعدي چلبي أنَّ الهمزةَ في «أفمن» على التقدير الأول من التقديرين اللذين نُقِلا عن الزَّجَّاج لإنكار ذهاب نفسه ﷺ عليهم حسرة، والفاء في قوله سبحانه: «فإن الله» إلخ تعليلٌ لما يُفهِمه النظمُ الجليل من أنَّه لا جدوى للتحسُّر.

وفي «الكشّاف» أنَّه تعالى لمَّا ذكرَ الفريقين؛ الذين كفروا والذين آمنوا، قال سبحانه لنبيِّه ﷺ: «أفمن زُيِّنَ له سوءُ عمله فرآه حسناً»، يعني: أفمن زُيِّنَ له سوءُ عملِه من هذين الفريقين كمن لم يزيَّن له، فكأنَّ رسولَ الله عليه الصلاة والسلام قال: لا، فقال تعالى: «فإنَّ الله يضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسُك عليهم حسرات»[2].

---

(١) في (م): ... ما تقدم جعل عليه، وقوله تعالى...
(٢) الكشاف ٣/ ٣٠١.

ويفهم من كلام الطيبيِّ أنَّ فاء «فلا تذهب» جزائية، وفاء «فإنَّ الله» للتعليل، وأن الجملة مقدَّمةٌ من تأخير، فقد قال: إنَّه ﷺ كان حريصاً على إيمان القوم، وأن يُسْلِكَ الضالِّين في زمرة المهتدي، فقيل له عليه الصلاة والسلام على سبيل الإنكار لذلك: «أفمن زُيِّنَ له سوءُ عمله» من هذين الفريقين كمن لم يزيَّن له، فلا بدَّ أن يُقِرَّ ﷺ بالنفي ويقول: لا، فحينئذٍ يقال له: فإذا كان كذلك «فلا تذهب نفسُك عليهم حسرات» «فإنَّ الله يضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء»، فقدَّم وأخَّر. انتهى. وفيه نظر.

وفي الآيات على ما يقتضيه ظاهر كلام الزمخشريِّ لفٌّ ونشرٌ، وبذلك صرَّحَ الطيبيُّ، ثم قال: الأحسنُ أن تجعل الآيات من الجمع والتقسيم والتفريق، فقوله تعالى: «يا أيها الناس إن وعد الله حق» جَمَعَ الفريقين معاً في حكم نداء الناس، وجَمَعَ ما لهما من الثواب والعقاب في حكم الوعد، وحذرهما معاً عن الغرور بالدنيا والشيطان، وأمَّا التقسيمُ فهو قوله تعالى: «الذين كفروا لهم عذابٌ شديدٌ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ»، وأمَّا التفريق فقوله تعالى: «أفمن زُيِّن له سوء عمله»؛ لأنَّه فرَّقَ فيه، وبيَّنَ التفاوتَ بين الفريقين، كما قال الزمخشريُّ: أفمن زُيِّنَ له سوءُ عمله من هذين الفريقين كمن لم يزيَّن له[1]. وفرَّعَ على ذلك ظهورُ أنَّ الفاء في «أفمن» للتعقيب، والهمزةُ الداخلةُ بين المعطوف والمعطوف عليه لإنكار المساواة، وتقريرِ البونِ بين الفريقين، وأنَّ المختارَ من أوجهٍ ذكرها السكاكيُّ في «المفتاح»[2] تقديرُ: كمن هداه الله تعالى، فحُذِفَ؛ لدلالة: «فإن الله يضلُّ من يشاء ويَهدي من يشاء».

ولهم في نظم الآيات الكريمة كلامٌ طويل غير ما ذكرناه، من أرادَه فليتتبَّع كتبَ التفاسير والعربية، ولعلَّ فيما ذكرناه مقنعاً لمن أوتي ذهناً سليماً وفهماً مستقيماً.

والحسرات جمعُ حسرة، وهي الغمُّ على ما فاته أو الندم[3] عليه، كأنَّه انحسَر عنه ما حملَه على ما ارتكبه، أو انحسر قواه من فرط غمٍّ، أو أدركه إعياءٌ عن

(١) الكشاف ٣/ ٣٠١.

(٢) ص ٢٧٩.

(٣) في (م): والندم.

تَدارك ما فَرَط منه. وانتصبت على أنَّها مفعولٌ من أجله، أي: فلا تُهلِك نفسَك للحسرات، والجمعُ ـ مع أنَّ الحسرة في الأصل مصدرٌ صادقٌ على القليل والكثير ـ للدلالة على تضاعف اغتمامه عليه الصلاة والسلام على أحوالهم، أو على كثرة قبائح أعمالهم الموجبة للتأسُّف والتحسُّر.

و«عليهم» صلةُ «تذهب»، كما يقال: هلك عليه حبّاً، و: مات عليه حزناً، أو هو بيانٌ للمتحسَّر عليه، فيكون ظرفاً مستقرّاً ومتعلَّقه مقدَّر، كأنَّه قيل: على من تذهب؟ فقيل: عليهم. وجُوِّزَ أن يتعلَّق بـ «حسرات» بناءً على أنَّه يُغتَفر تقديمُ معمول المصدر عليه إذا كان ظرفاً، وهو الذي أختارُه، والزمخشريُّ لا يجوِّزُ ذلك. وجَوَّزَ أنْ يكون «حسرات» حالاً من «نفسك» كأنَّ كلَّها صارت حسراتٍ لفرط التحسُّر، كما قال جرير:

مشقَ الهواجرُ لحمهنَّ مع السُّرَى   حتى ذَهَبْنَ كَلَاكِلاً وصُدورا[1]

يريد: رجعنَ كلاكلاً وصدوراً، أي: لم يبق إلَّا كلاكلها وصدورُها[2]. وهو الذي ذهب إليه سيبويه[3] في البيت، وقال المبرِّد: كلاكلاً وصدوراً: تمييزٌ محوَّلٌ عن الفاعل، أي: حتى ذهب كلاكلها وصدورها، ومن هذا قوله:

فعلى إِثْرِهم تَساقَطُ نفسي   حسراتٍ وذِكْرُهُم لي سَقامُ[4]

وفيه مبالغاتٌ ثلاث.

وقرأ عبيد بن عمير: «زَيَّنَ» مبنيّاً للفاعل، ونصب «سوءَ». وعنه أيضاً: «أسوأ» على وزن أفعل، وأريدَ بأسوأ عملِه الشركُ.

---

(١) ديوان جرير ١/ ٢٢٧، والكتاب ١/ ١٦٢. قوله: مشق، أي: أذهب لحومهنّ، والكلاكل: الصدور، كأنه أراد هنا أعلى الصدر، فلذلك ذكر معه الصدر، وَصَفَ رواحل أهزلها دُؤوب السير في الهواجر والليل. ينظر شرح الشواهد للشنتمري ص ١٣٣.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠١.

(٣) انظر الكتاب ١/ ١٦٢.

(٤) البيت لأبي دؤاد الإيادي كما في الشعر والشعراء ١/ ٢٣٩، والأصمعيات ص ١٨٨، والحماسة البصرية ١/ ٢٧٨، وخزانة الأدب ٩/ ٥٩١.

وقرأ طلحة: «أمن» بغير فاء[1]، قال صاحب «اللوامح»: فالهمزةُ للاستخبار والتقرير، ويجوز أن تكون للنداء، وحذف ما نودي لأجله، أي: تفكَّر وارجع إلى الله «فإنَّ الله» إلخ.

والظاهر أنها للإنكار، كما في قراءة الجمهور.

وقرأ أبو جعفر وقتادة وعيسى والأشهب وشيبة وأبو حيوة وحميد والأعمش وابن محيصن: «تُذْهِب» مِن أَذْهَبَ مسنداً إلى ضمير المخاطب «نفسَكَ» بالنصب على المفعولية، ورويت عن نافع[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ في موضع التعليل لما قبله، وفيه وعيد للكفرة، أي: إنَّه تعالى عليمٌ بما يصنعونه من القبائح، فيجازيهم عليه.

والآيات من قوله تعالى: (أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ) إلى هنا نزلت ـ على ما روي عن ابن عباس ـ في أبي جهل ومشركي مكة، وأخرج جويبر عن الضحاك[3] أنها نزلت في عمر رضي الله عنه وأبي جهل، حيث هدى الله تعالى عمر، وأضلَّ أبا جهل.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ مبتدأ وخبر، وقرأ حمزة والكسائيُّ وابن كثير: «الريحَ»[4]، وصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ لحكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالَّة على كمال القدرة والحكمة، وكثيراً ما يفعلون ذلك بفعلٍ فيه نوعُ تميُّزٍ وخصوصية بحالٍ تستغرب أو تهمُّ المخاطَبَ أو غير ذلك، ومنه قول تأبَّط شرّاً:

ألا مَنْ مبلغٌ فتيانَ فَهْمٍ ... بما لاقيتُ عند رَحَى بِطَانِ
بأنِّي قد رأيتُ الغُولَ تهوي ... بسَهْبٍ كالصَّحيفة صَحْصَحَانِ

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٠١.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٠١، وقراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٥١.
(٣) لباب النقول ص ١٨١، ووقع في مطبوع الدر المنثور ٥/ ٢٤٥: وأخرج الطبري من طريق جويبر عن الضحاك؟! والخبر ليس في تفسير الطبري.
(٤) التيسير ص ٧٨، والنشر ٢/ ٢٢٣. وهي قراءة خلف من العشرة.

فقلت لها كِلَانا نِضْوُ أرضٍ[1] أخو سفرٍ فخلِّي لي مكاني
فشدَّت شدَّةً نحوي فأهوَتْ لها كفِّي بمصقولٍ يماني
فأضربُها بلا دَهَشٍ فخرَّت صريعاً لليدين وللجِرانِ[2]

ولأنَّ الإثارة خاصِّيَّةٌ للرياح وأثرٌ لا ينفكُّ ـ في الغالب ـ عنها، فلا يوجدُ إلَّا بعد إيجادها، فيكون مستقبلاً بالنسبة إلى الإرسال، وعلى هذا يكون استعمالُ المضارع على ظاهره وحقيقته من غير تأويل؛ لأنَّ المعتبرَ زمانُ الحكم لا زمان التكلُّم، والفاء دالَّةٌ على عدم تراخي ذلك، وهو شيءٌ آخر.

وجُوِّزَ أن يكون الإتيانُ بما يدلُّ على الماضي ثمَّ بما يدلُّ على المستقبل إشارةً إلى استمرار الأمر وأنَّه لا يختصُّ بزمانٍ دون زمان، إذ لا يصحُّ المضيُّ والاستقبال في شيءٍ واحد إلَّا إذا قصد ذلك.

وقال الإمام[3]: اختلافُ الفعلين لأنَّه لمَّا أسندَ فعل الإرسال إلى الله تعالى، وما يفعلُ سبحانه يكون بقوله عزَّ وجلَّ: «كن»، فلا يُبقي في العدم زماناً ولا جزءَ زمان = جيء بلفظ الماضي دون المستقبل؛ لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنَّه كان، وكأنه[4] تعالى فرغَ من كلِّ شيء، فهو سبحانه قَدَّرَ الإرسال في الأوقات المعلومة، وإلى المواضع المعينة، والتقدير كالإرسال، ولمَّا أسندَ فعل الإثارة إلى الرياح، وهي تؤلَّف في زمان قال سبحانه: «تثير» بلفظ المستقبل. اهـ.

وأُورد عليه قوله تعالى: في سورة الروم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الآية: ٤٨]، وفي سورة الأعراف ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الآية: ٥٧] حيث جيء في الإرسال فيهما بالمضارع، فتأمَّل.

﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ قطعةٌ من الأرض لا نباتَ فيها.

---

(١) في الديوان: أين.

(٢) ديوان تأبط شرّاً ص ٢٢٢-٢٢٥، والأغاني ٢١/ ١٣٤. والجِران: مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره. والسهب: الفلاة. والصحصحان: ما استوى من الأرض. القاموس (جرن) و(سهب) و(صحح).

(٣) في تفسيره ٢٦/ ٧.

(٤) في الأصل و(م): ولأنه، والمثبت من تفسير الرازي.

وقرئ «ميت» بالتخفيف[1]، وهما بمعنًى واحد في المشهور.

وفي «كلّيّات» أبي البقاء الكفوي: الميْت بالتخفيف هو الذي مات، والميِّت بالتشديد والمائت هو الذي لم يمت بعدُ، وأنشد:

ومن يكُ ذا روحٍ فذلك ميِّتٌ وما الميْتُ إلّا من إلى القبرِ يُحمَلُ[2]

والمعوَّل عليه هو المشهور.

﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: بالمطر النازل منه المدلولِ عليه بالسحاب، فإنَّ بينهما تلازماً في الذهن كما في الخارج، أو بالسحاب، فإنَّه سببُ السبب، وإحياءُ الأرض إنباتُ الشجر والكلأ فيها ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ يبسها وخلوِّها عن ذلك.

وإيراد الفعلين بصيغة الماضي للدلالة على التحقيق، وإسنادُهما إلى نون العظمة المنبئ عن الاختصاص به تعالى؛ لما فيهما من مزيد الصنع، ولتكميل المماثلة بين إحياءِ الأرض وبين البعث الذي شُبِّه به بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾ في كمال الاختصاص بالقدرة الربَّانيَّة.

وقال الإمام عليه الرحمة: أسند «أَرْسَل» إلى الغائب، و«ساق» و«أحيى» إلى المتكلِّم؛ لأنَّه في الأول عَرَّفَ سبحانه نفسَه بفعلٍ من الأفعال، وهو الإرسال، ثمَّ لمَّا عُرِفَ قال تعالى: أنا الذي عَرَفْتني سُقْتُ السحابَ، وأحييتُ الأرضَ، ففي الأول كان تعريفاً بالفعل العجيب، وفي الثاني كان تذكيراً بالنعمة، فإنَّ كمالَ نعمتَيِ الرِّيَاحِ والسُّحُبِ بالسَّوق والإحياء[3]. وهو كما ترى.

وقال سبحانه: «فأحيينا به الأرض» دون: فأحييناه ـ أي: البلد الميت ـ به؛ تعليقاً للإحياء بالجنس المعلوم عند كلِّ أحدٍ، وهو الأرض، ولأنَّ ذلك أوفقُ بأمر

---

(١) هي قراءة شعبة وابن عامر وابن كثير وأبي عمرو وأبي جعفر ويعقوب. انظر التيسير ص٨٧، والنشر ٢/ ٢٢٤-٢٢٥.

(٢) الكليات ص ٨٥٨، وأورد البيت أيضاً صاحب تاج العروس (موت) وقال: قال الخليل: أنشدني أبو عمرو. وقبله:

أيا سائلي تفسير مَيْتٍ وميِّتٍ فدونك قد فسَّرتُ إن كنت تعقلُ

(٣) تفسير الرازي ٢٦/ ٧.

البعث. وقال تعالى: «بعد موتها» مع أنَّ الإحياء مؤذِنٌ بذلك؛ لما فيه من الإشارة إلى أنَّ الموتَ للأرض الذي[1] تعلَّق بها الإحياء معلومٌ لهم، وبذلك يَقْوَى أمرُ التشبيه، فليتأمَّل.

و«النشور» على ما في «البحر» مصدرُ نَشَرَ الميتُ: إذا حيي، قال الأعشى:

حتى يقولَ الناس مِمَّا رأوا ... يا عجباً للميِّت الناشرِ[2]

وفي «نهاية» ابن الأثير: يقال: نَشَر الميتُ يَنْشُر نشوراً، إذا عاش بعد الموت، وأنشره الله تعالى: أحياه[3].

وقال الراغب: قيل: نشرَ الله تعالى الميت وأنشرَه بمعنى، والحقيقة أن نَشَر الله تعالى الميتَ مستعارٌ من نَشْرِ الثوب، أي: بَسْطِه، كما قال الشاعر:

طَوَتْكَ خطوبُ دهرِكَ بعد نشرٍ ... كذاك خطوبُهُ طيّاً ونشرا[4]

والمراد بالنشور هنا إحياءُ الأموات في يوم الحساب، وهو مبتدأ، والجارُّ والمجرور قبلَه في موضع الخبر. وقيل: الكاف في حيِّز الرفع على الخبرية، أي: مِثْلُ ذلك الإحياءِ الذي تشاهدونَه إحياءُ الأموات يومَ القيامة، في صحَّة المقدوريَّة، وسهولة التأتِّي، من غير تفاوتٍ بينهما أصلاً، سوى الإلف في الأول دون الثاني.

وقال أبو حيان: وقع التشبيهُ بجهات؛ لمَّا قبلت الأرض الميتة الحياةَ اللائقة بها، كذلك الأعضاء تقبلُ الحياة، أو كما أنَّ الريحَ تجمعُ قِطَعَ السحاب، كذلك يجمعُ الله تعالى أجزاء الأعضاء وأبعاض الموتى، أو كما يسوق سبحانه السحابَ إلى البلد الميت يسوقُ عزَّ وجلَّ الروحَ والحياة إلى البدن[5].

وقال بعضهم: التشبيه باعتبار الكيفية. فقد أخرج ابنُ جرير وغيرُه عن

---

(١) كذا في الأصل و(م)، والصواب: التي.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٠٢، والبيت في ديوان الأعشى ص١٩١.

(٣) النهاية (نشر).

(٤) المفردات (نشر)، والبيت لأبي العتاهية، وهو في ديوانه ص ٤٤٢، وفيه: نشراً وطيًّا.

(٥) البحر المحيط ٧/ ٣٠٣.

عبد الله بن مسعود ﷺ قال: يقومُ مَلَك بالصور بين السماء والأرض، فينفخُ فيه، فلا يبقى خلقٌ لله في السماوات والأرض إلَّا مَن شاء الله تعالى إلَّا ماتَ، ثم يرسل الله تعالى من تحت العرش ماءً كمنيِّ الرجال، فتنبتُ أجسامهم من ذلك الماء، وقرأ الآية، ثم يقوم مَلَكٌ فينفخ فيه، فتنطلقُ كلُّ نفسٍ إلى جسدها[1].

وفي حديث مسلم مرفوعاً: «يُنزلُ الله تعالى مطراً كأنَّه الطَّلُّ، فينبتُ أجساد الناس»[2].

ونباتُ الأجساد من عَجْب الذنب، على ما ورد في الآثار، وقد جاء أنَّه لا يبلى، وهو العظم الذي في أسفل الصلب عند العجز[3].

وقال أبو زيد الوقواقي[4]: هو جوهرٌ فردٌ يبقى من هذه النشأة لا يتغيَّر. ولا حاجةَ إلى التزام أنَّه جوهرٌ فردٌ.

ووراء ذلك أقوالٌ عجيبة في هذا العجْب، فقيل: هو العقل الهيولانيّ، وقيل: بل الهيولى، وعن الغزالي: إنَّما هو النفس، وعليها تنشأ النشأة الآخرة. وعن الشيخ الأكبر[5] أنَّه العين الثابت من الإنسان، وعن بعض المتكلِّمين أنَّه الأجزاءُ الأصلية.

وقال الملَّا صدرا الشيرازي في «أسفاره»: هو عندنا القوَّة الخياليَّة؛ لأنَّها آخر الأكوان الحاصلة في الإنسان، من القوى الطبيعية والحيوانية والنباتية المتعاقبة في الحدوث للمادة الإنسانيَّة في هذا العالم، وهي أول الأكوان الحاصلة في النشأة الآخرة. ثم بيَّن ذلك بما بيَّن، وإنَّه لأضعف من بيت العنكبوت وأوهن، والمعوَّلُ عليه ما يوافقُ فهمَ أهل اللسان، وأيُّ حاجةٍ إلى التأويل بعد التصديق بقدرة الملك الديَّان جلَّ شأنُه وعَظُم سلطانه.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٤٥، وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم. وهو عند الطبري في تفسيره ١٩/ ٣٣٦.

(٢) صحيح مسلم (٢٩٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ، وفيه: «فتنبت منه أجساد الناس».

(٣) انظر ما سلف عند تفسير الآية (٩٩) من سورة الإسراء.

(٤) كما في الفتوحات المكية ١/ ٣١٢، وفيه: الرقراقي. ولم أعرفه.

(٥) ينظر الفتوحات المكية ١/ ٣١٢.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ الشرفَ والمَنَعَةَ من قولهم: أرضٌ عَزَاز، أي: صُلبة، وتعريفُها للجنس، والآية في الكافرين؛ كانوا يتعزَّزون بالأصنام، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١] والذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة قلوبِهم؛ كانوا يتعزَّزون بالمشركين، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ [النساء: ١٣٩].

و«من» اسم شرط، وما بعده فعل الشرط، والجمع بين «كان» و«يريد» للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها، وقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ دليل الجواب، ولا يصحُّ جعله جواباً من حيث الصناعة؛ لخلوِّه عن ضميرٍ يعود على «مَنْ»، وقد قالوا: لا بدَّ أن يكون في جملة الجواب ضميرٌ يعود على اسم الشرط إذا لم يكن ظرفاً، والتقدير: من كان يريد العزَّةَ فليطلبها من الله تعالى، فلله وحدَه لا لغيره العزَّةُ، فهو سبحانه يتصرَّفُ فيها كما يريد، فوضع السببَ موضع المسبَّب؛ لأنَّ الطلبَ ممن هي[1] له وفي ملكه جميعها مسبَّبٌ عنه.

وتعريفُ «العزَّة» للاستغراق بقرينة «جميعاً»، وانتصابُه على الحال، والمراد عزَّةُ الدنيا والآخرة، وتقديمُ الخبر على المبتدأ للاختصاص كما أشرنا إليه.

ولا ينافي ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] لأنَّ ما لله تعالى وحدَه العزَّةُ بالذات، وما للرسول ﷺ العزَّةُ بواسطة قُرْبِه من الله تعالى، وما للمؤمنين العزَّةُ بواسطة الرسول عليه الصلاة والسلام، وكأنَّه للإشارة إلى ذلك أعيد الجارُّ.

وقَدَّر بعضهم الجوابَ: فليطع الله تعالى، وأيَّدَ بما رواه أنس ـ كما في «مجمع البيان» ـ عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ ربكم يقول كل يوم: أنا العزيزُ، فمن أراد عزَّ الدارين فليطع العزيز»[2].

---

(١) في الأصل: هو. والمثبت من (م) وحاشية الخفاجي ٧/ ٢١٨.

(٢) مجمع البيان ٢٢/ ٢٣٠. والحديث أخرجه الخليلي في الإرشاد ٣/ ٩٢١، والخطيب في تاريخ بغداد ٦/ ٦٠، ٨/ ١٧١، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٢/ ٧، والقزويني في التدوين في أخبار قزوين ٢/ ٨٦.

=

ومن قَدَّر: فليطلبها من الله تعالى، قال: إنَّ الطلبَ منه تعالى إنَّما يكونُ بالطاعة والانقياد.

وعن الفرَّاء: المعنى: من كان يريدُ علم العزَّة ـ أي: القدرة على القهر ـ لمن هي؟ فلينسبها إلى الله تعالى، فهي له تعالى وحده[1].

وقيل: المعنى: من كان يريدُ العزَّةَ، أي: الغلبة، فهو مغلوبٌ؛ لأنَّ الغلبةَ لله تعالى وحدَه، ولا تتمُّ إلَّا به عزَّ وجلَّ، ونُسبَ هذا إلى مجاهد.

وقيل: تعريفُ «العزَّة» الأولى للاستغراق أيضاً أو للعهد، والمراد الفرد الكامل، والمعنى: من كان يريد العزَّةَ جميعها، أو الفردَ الكاملَ منها، وهي العزَّةُ التي لا يشوبُها ذلَّةٌ من وجهٍ، فهو لا ينالُها، فإنَّها لله تعالى وحده.

وهذا القول أحسنُ من القولين قبله، وأظهرُ الأقوال عندي الأول، وهو منسوبٌ إلى قتادة.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ إلى آخره، كالبيان لطريق تحصيلِ العزَّة وسلوك السبيل إلى نيلها، وهو الطاعةُ القوليَّةُ والفعليَّة. وقيل: بيانٌ لكون العزَّة كلِّها لله تعالى وبيده سبحانه؛ لأنَّها بالطاعة، وهي لا يعتدُّ بها ما لم تقبل. وقيل: استئناف كلام، وعلى الأول المعوَّل.

و «الكلم» اسم جنسٍ جمعيٌّ عند جمع، واحدُه: كلمة، والمراد بـ «الكلم الطيب» على ما في «الكشاف» و«البحر» عن ابن عباس: لا إله إلا الله[2]. ومعنى كونه طيِّباً ـ على ما قيل ـ أنَّ العقلَ السليمَ يستطيبُه ويستلذُّه؛ لما فيه من الدلالة على التوحيد الذي هو مدار النجاة، والوسيلة إلى النعيم المقيم، أو يستلذُّه الشرع، أو الملائكةُ عليهم السلام.

وقيل: إنَّه حسنٌ يقبله العقلُ ولا يردُّه.

= قال الخليلي: ولا يعرف له إسنادٌ غيره.

وأورده الحافظ ابن حجر في لسان الميزان ٤/ ٨٤ في ترجمة سعيد بن هبيرة، من غرائبه.

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٧.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٢، والبحر المحيط ٧/ ٣٠٣.

وإطلاقُ الكلم على ذلك إنْ كان واحدُه هنا[١] الكلمةَ بالمعنى الحقيقيِّ ظاهرٌ؛ لتضمُّنه عدَّةَ كلمات، لكن في وصفه بالطيِّب بالنظر إلى غير الاسم الجليل خفاءٌ، ولعلَّ ذلك باعتبار خصوصيَّة التركيب. وإن كان واحدُهُ هنا الكلمة بالمعنى المجازيِّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١١٥]، و: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠] وقوله عليه الصلاة والسلام: «أصدقُ كلمة قالها شاعر كلمةُ لبيد»[٢]، وقولهم: «لا إله إلا الله» كلمةُ التوحيد، إلى ما لا يُحصى كثرةً، فإطلاقُ الكلم على ذلك؛ لتعدُّده بتعدُّد القائل، وكأنَّ القرينةَ على إرادة المعنى المجازيِّ للكلمة الصادقِ على الكلام الوصفُ بالطيب، بناءً على أنَّ ما يستطيب ويستلذُّ هو الكلام دون الكلمة العريَّة عن إفادة حكمٍ تنبسطُ منه النفس أو تنقبض.

أو يقال: إنَّ كثرةَ إطلاق الكلمة على الكلام وشيوعه فيما بينهم، حتى قال بعضهم ـ كما نقل الحمصيُّ في «حواشي التصريح» عن بعض شرَّاح الآجرومية ـ: إنَّه حقيقةٌ لغويَّة = تغني عن القرينة.

وأخرجَ ابنُ جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات» عن الحبر أنَّه فسَّر «الكلم الطيب» بذكر الله تعالى[٣].

وقيل: هو: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر. وهو ظاهرُ أثرٍ أخرجه ابن مردويه والديلميُّ عن أبي هريرة[٤].

وقيل: هو: سبحان الله وبحمده، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وتبارك الله. وهو ظاهرُ أثرٍ أخرجه جماعةٌ عن ابن مسعود[٥].

---

(١) لفظة: هنا، ليست في (م).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦): (٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) تفسير الطبري ١٩/ ٣٣٩، والأسماء والصفات (٨٩٩).

(٤) هو في الدر المنثور ٥/ ٢٤٥-٢٤٦.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٣٣٨، والطبراني في الكبير (٩١٤٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٦٦٧)، والحاكم ٢/ ٤٢٥.

=

وأخرج ابن أبي حاتم عن شهر بن حوشب أنَّه القرآن[١].

وقيل: هو الثناءُ بالخير على صالحي المؤمنين.

وقيل: هو الدعاءُ الذي لا ظلمَ فيه.

وقال الإمام ـ وبه أقتدي ـ: المختارُ أنَّه كلُّ كلامٍ هو ذكرُ الله تعالى، أو هو لله سبحانه كالنصيحة والعلم[٢].

وأمَّا ما أفاده كلام الملَّا صدرا في «أسفاره» من أنَّه النفوسُ الطاهرة الزكيَّة، فإنَّه تطلقُ الكلمة على النفس إذا كانت كذلك، كما قال تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١] = فلا ينبغي أن يعدَّ في عداد أقوال المفسرين كما لا يخفى.

وصعود الكلم إليه تعالى مجازٌ مرسلٌ عن قَبوله بعلاقة اللزوم، أو استعارةٌ بتشبيه القَبول بالصعود. وجُوِّزَ أنْ يُجعَلَ الكلمُ مجازاً عما كُتب فيه بعلاقة الحلول، أو يقدَّرَ مضافٌ، أي: إليه يصعدُ صحيفةُ الكلم الطيب، أو يُشبَّهَ وجودُه الخارجيُّ هنا ثم الكتابيُّ في السماء بالصعود، ثمَّ يطلقَ المشبَّه به على المشبَّه، ويُشتَقَّ منه الفعلُ على ما هو المعروف في الاستعارة التبعيَّة.

وقيل: لا مانعَ من اعتبار حقيقة الصعود للكلم، فلله تعالى تجسيدُ المعاني، وكونِ الصعود إليه عزَّ وجلَّ من المتشابه، والكلامُ فيه شهير، والكلامُ بعد ذلك كنايةٌ عن قَبوله والاعتناء بشأن صاحبه، وتقديم الجارِّ والمجرور لإفادة الحصر.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه وابن مسعود رضي الله عنه والسلميُّ وإبراهيم: «يُصْعِدُ» من أَصعَد، «الكلامَ الطيِّبَ» بالنصب[٣].

= قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٩٠: رواه الطبراني، وفيه المسعودي وهو ثقة ولكنه اختلط، وبقية رجاله ثقات.

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٤٦.

(٢) تفسير الرازي ٢٦/ ٨.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢٣، والدر المصون ٩/ ٢١٧، وفيه: الكلم، بدل: الكلام.

وقال ابنُ عطية: وقرأ الضحاك: «يُصْعد» بضمِّ الياء[(١)]. ولم يَذْكُر مبنيًا للفاعل ولا مبنيًّا للمفعول، ولا إعرابَ ما بعده. وفي «الكشاف»: وقُرِئ: «إليه يُصْعَد الكلمُ الطيب» على البناء للمفعول، و«إليه يُصعِدُ الكلمَ الطيِّبَ» من أصعدَ، والمُصْعِدُ هو الرجل، أي: يُصْعِدُ إلى الله عزَّ وجلَّ الكلمَ الطيِّبَ[(٢)].

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «إليه يَصْعَدُ» من صَعِد «الكلامُ» بالرفع[(٣)].

﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ مبتدأ وخبرٌ على المشهور، واختلف في فاعل «يرفع» فقيل: ضميرٌ يعودُ على العمل الصالح، وضميرُ النصب يعودُ على «الكلم»، أي: والعمل الصالح يرفعُ الكلمَ الطيِّب، وروي ذلك عن ابن عباس والحسن وابن جبير ومجاهد والضحاك وشهر بن حوشب على ما أخرجه عنه[(٤)] سعيد بن منصور وغيره[(٥)].

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات» عن ابن عباس أنَّه فسَّر العملَ الصالح بأداء الفرائض، ثمَّ قال: فمن ذكرَ الله تعالى وأدَّى فرائضَه، حملَ عملُه ذكرَ الله تعالى فصعد به إلى الله تعالى، ومن ذكر الله تعالى ولم يؤدِّ فرائضَه رُدَّ كلامُه على عمله وكان عملُه أولَى به[(٦)].

وتَعقَّب ذلك ابنُ عطية فقال: هذا قولٌ يردُّه[(٧)] معتقد أهل السنة، ولا يصحُّ عن ابن عباس، والحقُّ أنَّ العاصيَ بترك فرائضه إذا ذكرَ الله تعالى وقال كلاماً طيباً،

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣١.
(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٢.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٠٣.
(٤) لفظة: عنه. ليست في الأصل.
(٥) الدر المنثور ٥/ ٢٤٦، وزاد نسبته إلى ابن جرير وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب.
وهو عند الطبري في تفسيره ١٩/ ٣٣٩، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٨٤٧).
(٦) تفسير الطبري ١٩/ ٣٣٩، والأسماء والصفات للبيهقي (٨٩٩)، وسلف بعضه قريباً.
(٧) في الأصل و(م): يرد. والتصويب من المحرر الوجيز ٤/ ٤٣١، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٥٦، والبحر المحيط ٧/ ٣٠٣.

كُتِبَ له ذلك، وتُقُبِّل منه، وعليه وزرُ ترك الفرائض، والله تعالى يتقبَّل من كلِّ من اتَّقى الشرك. انتهى.

ولعلَّ المرادَ برفع العملِ الصالح الكلمَ الطيِّبَ رفعُ قَدْرِه، وجَعْلُه بحيث يترتَّبُ عليه من الثواب ما لم يترتَّب عليه إذا كان بلا عمل. وحديث: «لا يقبلُ الله قولاً إلَّا بعمل، ولا يقبلُ قولاً وعملاً إلَّا بنيَّة، ولا يقبلُ قولاً وعملاً ونيَّةً إلَّا بإصابة السُّنَّة»[1] المذكورُ في «الكشاف» لا أظنُّ صحَّته. وقيل: إنَّه لو سُلِّم صحَّتُه، فالمراد نفيُ القَبولِ التامِّ.

ويجوز أن يكون المراد برفعه إيَّاه تحقيقَه وتقويته، وذلك باعتبار أنَّ الكلم[2] الطيب هو الإيمان، فإنَّه لا شكَّ أنَّ العملَ الصالحَ يُثَبِّتُ الإيمانَ ويحقِّقُه بإظهار آثاره، إذ به يعلم التصديقُ القلبيُّ.

وقيل: الفاعل ضميرٌ يعودُ على «الكلم الطيب»، وضمير النصب يعودُ على «العمل الصالح» أي: يرفع الكلمُ الطيِّب العملَ الصالحَ. ونسبَ أبو حيَّان[3] هذا القولَ إلى أبي صالح وشهر بن حوشب، وأُيِّدَ بقراءة عيسى وابن أبي عبلة: «والعملَ الصالحَ» بالنصب على الاشتغال[4]، وفيه بحثٌ لعدم تعيُّن ضمير «الكلم» للفاعليَّة عليها.

ومعنى رفع الكلمِ الطيِّب العملَ الصالحَ؛ قيل: أن يزيده بهجةً وحسناً.

ومن فسَّرَ الكلمَ الطيِّب بالتوحيد قال: معنى ذلك جعلُه مقبولاً، فإنَّ العملَ لا يقبل إلَّا بالتوحيد.

---

(١) أخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٦٩٢) من حديث أنس، وفيه أبان بن أبي عياش، وهو متروك. وانظر تتمة الكلام عنه في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٣٨.

(٢) في (م): الكلام.

(٣) في البحر ٧/ ٣٠٤.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٢٣، والبحر المحيط ٧/ ٣٠٤.

وقيل: الفاعلُ ضميرُه تعالى، وضمير النصب يعودُ على العمل، وأخرج ذلك ابنُ المبارك عن قتادة، أي: والعملُ الصالح يرفعُه الله تعالى ويقبله(١).

قال ابن عطية: هذا أرجحُ الأقوال عندي(٢).

وقيل: ضميرُ الفاعل يعود على العمل، وكذا الضمير المنصوب، والكلام على حذف مضاف، أي: والعمل الصالح يرفعُ عاملَه ويشرِّفه، ونَسَبَ ذلك أبو حيَّان إلى ابن عباس، ثم قال: ويجوزُ عندي أنْ يكون «العمل» معطوفاً على «الكلم»، و«يرفعه» استئنافُ إخبار، أي: يرفعهما الله تعالى، ووحَّدَ الضميرَ لاشتراكهما في الصعود، والضمير قد يجري مجرى اسم الإشارة، فيكون لفظه مفرداً والمراد به التثنية، فكأنَّه قيل: ليس صعودهما من ذاتهما، بل ذلك برفع الله تعالى إيَّاهما(٣). اهـ.

وهو خلاف الظاهر جدًّا، ومثلُه ما نسبَ(٤) إلى ابن عباس، وأنا لا أظنُّ صحَّة نسبته إليه، وعلى التسليم يحتملُ أنَّه ﷺ أرادَ بقوله: العملُ الصالحُ يرفعُ عاملَه ويشرِّفه = بيانَ ما تشير إليه الآيةُ في الجملة.

والذي يتبادرُ إلى ذهني من الآية ما روي عن قتادة، واختاره ابنُ عطية. وتخصيصُ العمل الصالح برفع الله تعالى إيَّاه على ذلك؛ قيل: لما فيه من الكُلْفة والمشقَّة؛ إذ هو الجهادُ الأكبر.

وظاهرُ هذا أنَّ العمل أشرفُ من الكلام، ولا كلام في ذلك إذا أريد بالعمل الصالح ما يشتملُ العملُ القلبيَّ كالتصديق، ولعلَّ الكلام عليه نظير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقوله سبحانه: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

وكلامُ الإمام صريحٌ في أنَّ «الكلم الطيب» المفسَّر بالذكر أشرفُ من العمل،

---

(١) الزهد لابن المبارك (٩١).
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣١.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٠٤.
(٤) في (م): نسبه.

حيث جَعَل صعودَ الكلم بنفسه دليلَ ترجيحه على العمل الذي يرفعُه غيره، وقال في وجه ذلك: الكلامُ شريف؛ فإنَّ امتياز الإنسان عن كلِّ حيوانٍ بالنطق، والعملُ حركةٌ وسكون، يشتركُ فيه الإنسان وغيره، والشريف إذا وصل إلى باب الملك لا يُمْنَع، ومَن دونَه لا يجدُ الطريقَ إلَّا عند الطلب، ويدلُّ على هذا أنَّ الكافرَ إذا تكلَّم بكلمة الشهادة أمنَ من عذاب الدارين إن كان ذلك عن صدق، وأمنَ في نفسه ودمه وحرمه في الدنيا إن كان ظاهراً، ولا كذلك العملُ بالجوارح، وأيضاً إنَّ القلبَ هو الأصلُ، وما فيه لا يظهر إلَّا باللسان، وما في اللسان لا يبين صدقه إلَّا بالفعل، فالقولُ أقربُ إلى القلب من الفعل، فيكون أشرفَ منه[1]. اهـ. وفي القلب منه شيءٌ، فتدبر.

﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: المكرات السيئات، أو أصناف المكرات السيئات، على أنَّ «السيئات» صفةٌ لمحذوف، وليس مفعولاً به لـ «يمكرون»؛ لأنَّ «مَكَرَ» لازمٌ، وجُوِّزَ أنْ يكونَ مفعولاً على تضمين يقصدون أو يكسبون، وعلى الأوَّل فيه مبالغةٌ للوعيد الشديد على قصد المكر، أو هو إشارةٌ إلى عدم تأثير مكرهم.

والموصول مبتدأ، وجملة قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ خبره، أي: لهم بسبب مكرهم عذابٌ شديد لا يقادَر قدره، ولا يُعبأ بالنسبة إليه بما يمكرون.

والآية ـ على ما روي عن أبي العالية ـ في الذين مَكَروا برسول الله ﷺ في دار الندوة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] والمضارعُ لحكاية الحال الماضية.

ووَضعُ اسم الإشارة موضعَ ضميرهم في قوله سبحانه: ﴿وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ للإيذان بكمال تميُّزهم بما هم عليه من الشرِّ والفساد عن سائر المفسدين واشتهارهم بذلك، وما فيه من معنى البعد للتنبيه على ترامي أمرهم في الطغيان، وبُعد منزلتهم في العدوان، أي: ومكرُ أولئك المفسدين المشهورين ﴿هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ أي: يَفْسُدُ، وأصلُ البوار: فرطُ الكساد أو الهلاك، فاستعير هنا للفساد وعدم التأثير؛ لأنَّ فرط الكساد يؤدِّي إلى الفساد، كما قيل: كسد حتى فسد، أو لأنَّ الكاسد يكسدُ في الغالب لفساده، ولأنَّ الهالك فاسدٌ لا أثر له.

---

(١) تفسير الرازي ٢٦/٨-٩.

و «مكر» مبتدأ، خبره جملة «هو يبور»، وتقديمُ الضمير للتقوّي أو الاختصاص، أي: مكرهم هو يَفسدُ خاصَّةً لا مكرنا بهم.

وأجاز الحوفيُّ وأبو البقاء[١] كون الخبر جملة «يبور»، و«هو» ضمير فصل.

وتعقَّبه في «البحر» بأنَّ ضميرَ الفصل لا يكون ما بعده فعلاً، ولم يذهب إلى ذلك أحدٌ فيما علمنا إلَّا عبد القاهر الجرجانيّ في «شرح الإيضاح» له، فإنَّه أجازَ في: كان زيد هو يقوم، أن يكون «هو» فصلاً، ورُدَّ ذلك عليه[٢].

وجوَّز أبو البقاء أيضاً كون «هو» تأكيداً للمبتدأ[٣]. والظاهر ما قدمناه.

وقد أبار الله تعالى أولئك الماكرين بعد إبارة مكرهم، حيث أخرجهم من مكَّة وقتلَهم وأثبتَهم في قَليب بدر، فجمعَ عليهم مكراتهم الثلاث التي اكتفوا في حقِّه عليه الصلاة والسلام بواحدةٍ منهنَّ، وحقَّق عزَّ وجلَّ فيهم قوله سبحانه: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

ووجه ارتباط الآية بما قبلَها ـ على ما ذكره شيخ الإسلام ـ أنَّها بيانٌ لحال الكلم الخبيث والعمل السَّيِّئ وأهلهما، بعد بيان حال الكلم الطيب والعمل الصالح[٤].

وقال في «الكشف»: كأنَّه لمَّا حصرَ سبحانه العزَّة وخصَّها به تعالى يعطيها من يشاء، وأرشد إلى نيل ما به يُنال ذلك المطلوب، ذكر على سبيل الاستطراد حالَ من أراد العزَّة من عند غيره عزَّ وجلَّ وأخذ في إهانة مَن أعزَّه الله تعالى فوق السماكين قَدْراً، وما رَجع إليهم من وبال ذلك كالاستشهاد لتلك الدعوى. وهو خلاصةُ ما ذكره الطيبيُّ في وجه الانتظام.

---

(١) في الإملاء ٤/٢١٨.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٠٤.
(٣) الإملاء ٤/٢١٨.
(٤) تفسير أبي السعود ٧/ ١٤٦.

وروي عن مجاهد وسعيد بن جبير وشهر بن حوشب أنَّ الآيةَ في أصحاب الرياء، وهي متَّصلةٌ بما عندها على ما روي عن شهر، حيث قال: «والذين يمكرون السيئات» أي: يراؤون «ومكر أولئك هو يبور» هم أصحاب الرياء، عملُهم لا يصعد.

وقال الطيبيُّ: إنَّ الجملة على هذه الرواية عطفٌ على جملة الشرط والجزاء، أعني قوله تعالى: «من كان يريد العزة» إلخ فيجب حينئذٍ مراعاةُ التطابق بين القرينتين والتقابل بين الفقرتين بحسب الإمكان، بأن يُقدَّرَ في كلٍّ منهما ما يحصلُ به التقابلُ بدلالة المذكور في الأولى على المتروك في الأخرى، وبالعكس. اهـ.

ولا يخفى بُعْدُه. وأيّاما كان فالمضارعُ للاستمرار التجدديِّ.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ دليلٌ آخر على صحَّة البعث والنشور، أي: خلقكم ابتداءً منه في ضمن خلق آدم عليه السلام خلقاً إجمالياً ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثمَّ خلقَكم منها خلقاً تفصيلياً ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: أصنافاً ذكراناً وإناثاً، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ [الشورى: ٥٠] وأخرجَه ابن أبي حاتم عن السُّدِّيِّ، وأخرج هو وغيره عن قتادة أنه قال: قدَّر بينكم الزوجيَّة، وزوَّج بعضَكم بعضاً(١).

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ حالٌ من الفاعل، و«من» زائدة، أي: إلَّا ملتبسةً بعلمه تعالى، ومعلومية الفاعل راجعةٌ إلى معلوميَّة أحواله مفصَّلةً، ومنها حالُ ما حملته الأنثى ووضعته، فجعلُه من ذلك أبلغُ معنًى وأحسنُ لفظاً مِنْ جعله من المفعول، أعني المحمول والموضوع؛ لأنَّ المفعولَ محذوفٌ متروك، كما صرَّح به الزمخشريُّ في «حم السجدة»(٢)، وجعلُه حالاً من الحمل والوضع أنفسهما خلافُ الظاهر.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٤٦، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٣٤٢.

(٢) ينظر كلامه عند تفسير الآية (٤٧) من سورة فصلت.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي: من أحدٍ، أي: وما يمدُّ في عُمر أحدٍ، وسمِّيَ معمَّراً باعتبار الأوّل، نحو: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف: ٣٦]، و: «مَن قَتَلَ قتيلاً»(١)، على ما ذكر غيرُ واحدٍ، وهذا لئلَّا يلزمَ تحصيلُ الحاصل. وجُوِّزَ أن يقال: لأنَّ «يُعمَّر» مضارعٌ، فيقتضي أنْ لا يكون معمَّراً بعدُ، ولا ضرورةَ للحمل على الماضي.

﴿وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ﴾ الضمير عائدٌ على مُعَمَّرٍ آخر، نظير ما قال ابنُ مالك في: عندي درهمٌ ونصفه، أي: نصفُ درهم آخر، ولا يضرُّ في ذلك احتمالُ أنْ يكونَ المراد: مثل نصفه، لأنَّه مثال، وهو استخدامٌ أو شبيهٌ به، وإلى ذلك ذهب الفرَّاء(٢) وبعض النحويين، ولعله الأظهر، وفسَّروا المعمَّر بالمُزادِ عمرُه، بدليل ما يقابله من قوله تعالى: «ولا يُنْقَص» إلخ، وهو الذي دعاهم إلى إرجاع الضمير إلى نظير المذكور دون عينه؛ ضرورةَ أنَّه لا يكونُ المزيدُ في عمره منقوصاً من عمره.

وقيل عليه: هب أنَّ مرجعَ الضمير معمَّرٌ آخر، أليس قد نسب النقصَ في العمر إلى معمَّر، وقد قلتم إنَّه المزادُ عمره.

أجيبَ بأنَّ الأصلَ: وما يعمَّر من أحدٍ، فسمِّيَ معمَّراً باعتبار ما يَؤول إليه، وعاد الضمير باعتبار الأصل المحوَّل عنه، فمآل ذلك: ولا ينقص من عمر أحدٍ، أي: ولا يُجعلُ من ابتداء الأمر ناقصاً، فهو نظير قولهم: ضيِّق فَمَ الرَّكِيَّة(٣).

وقال آخرون: الضميرُ عائدٌ على المعمَّر الأول بعينه، والمعمَّر هو الذي جَعل الله تعالى له عمراً طال أو قصر، ولا مانع أن يكون المعمَّر ومن ينقصُ من عمره شخصاً واحداً، والمراد بنقص عمره ما يمرُّ منه وينقضي، مثلاً يكتب عمره مئة سنة، ثمَّ يكتب تحتَه: مضى يومٌ، مضى يومان، وهكذا حتى يأتي إلى آخره،

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٢٦٠٧)، والبخاري (٣١٤٢)، ومسلم (١٧٥١) عن أبي قتادة ﷺ. ويذكر شاهداً على تنزيل المُقْبِلِ على الأمر المشارِفِ له منزلةَ الشارع فيه.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٣٦٨.

(٣) الركية: بئر تحفر. تهذيب اللغة ١٠/ ٣٥٠.

وروي هذا عن ابن عباس وابن جبير وأبي مالك وحسان بن عطية والسُّدِّيِّ، وقيل بمعناه:

حياتُك أنفاسٌ تُعَدُّ فكلَّما مضى نَفَسٌ منها انتقصت به جزءا[١]

وقيل: الزيادةُ والنقص في عمرٍ واحد باعتبار أسباب مختلفة أثبتت في اللوح، كما ورد في الخبر: «الصدقةُ تزيدُ في العمر»[٢]، فيجوزُ أنْ يكونَ أحدٌ معمَّراً، أي: مزاداً في عمره إذا عمل عملاً، وينقص من عمره إذا لم يعمله، وهذا لا يلزم منه تغيير التقدير؛ لأنَّه في تقديره تعالى معلَّق أيضاً، وإن كان ما في علمه تعالى الأزليِّ وقضائه المبرم لا يعتريه محوٌ على ما عُرِفَ عن السلف، ولذا جاز الدعاءُ بطول العمر.

وقال كعب: لو أنَّ عمر ﷺ دعا الله تعالى، أخّر أجله.

ويعلم من هذا أنَّ قولَ ابن عطية: هذا قولٌ ضعيفٌ مردودٌ يقتضي القولَ بالأجلين، كما ذهبت إليه المعتزلة[٣] = ليس بشيء.

ومن العجيب قولُ ابن كمال: النظرُ الدقيق يحكمُ بصحَّة أن المعمَّر ـ أي: الذي قُدِّرَ له عمرٌ طويلٌ ـ يجوز أنْ يبلغَ ذلك العمر، وأن لا يبلغَ، فيزيد عمره على الأول، وينقص على الثاني، ومع ذلك لا يلزم التغيير في التقدير؛ لأنَّ المقدَّر في كلِّ شخصٍ هو الأنفاس المعدودة لا الأيام المحدودة والأعوام الممدودة، ثم قال: فافهم هذا السرَّ العجيب، وكتب في الهامش: حتى ينكشفَ لك سرُّ اختيار حبس النفس، ويتَّضح وجهُ صحة قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ

---

(١) البيت في الديوان المنسوب لعليٍّ ﷺ ص ١١، ونسبه ابن عبد البر في بهجة المجالس ٣/ ٣٣٩ لمحمود الوراق، وكذا ذُكرَ في ديوانه ص ٢٤٠ في الأبيات المنسوبة له.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ١٧/ (٣١) من حديث عمرو بن عوف ﷺ، وفيه كثير بن عبد الله المزني، وهو ضعيف. وجاء في معنى هذا الحديث ما أخرجه البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس ﷺ: «مَن سرَّه أن يُبسَط له في رزقه، ويُنسَأ له في أثره، فليصل رحمه». وينظر تفسير القرطبي ٧/ ٣٦١.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٢.

الصدقةَ والصلةَ تعمران الديار، وتزيدان في الأعمار»[1]. اهـ. وتعقَّبه الشهابُ الخفاجيُّ[2] بأنَّه مما لا يعوّل عليه عاقلٌ، ولم يقل به أحدٌ غيرُ بعض جهلة الهنود، مع أنَّه مخالفٌ لما ورد في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم والنسائيُّ وابن أبي شيبة وأبو الشيخ عن عبد الله بن مسعود من قول النبيِّ ﷺ لأمِّ حبيبة، وقد قالت: اللهم أمتعني بزوجي النبيِّ ﷺ، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية: «سألتِ الله تعالى لآجالٍ مضروبة، وأيَّامٍ معدودة» الحديث[3]، وأطال الچلبيُّ في ردِّه، وهو غنيٌّ عنه. اهـ.

وقال بعضهم: يجوزُ أنْ لا يبلغ من قُدِّرَ له عمرٌ طويل ما قُدِّرَ له، بأن يغيَّر ما قُدِّرَ أوَّلاً بتقديرٍ آخر، ولا حَجْر على الله تعالى. ويشيرُ إلى ذلك قولُه عليه الصلاة والسلام في حديث التراويح: «خشيت أنْ تُفرضَ عليكم»[4]، وقوله ﷺ في دعاء القنوت: «وقني شرَّ ما قضيت»[5]، وخوفُه ـ عليه من الله تعالى آلافُ آلافِ صلاةٍ وسلام ـ من قيام الساعة إذا اشتدَّت الريح[6]، مع إخباره بأنَّ بين يديها خروجَ

---

(١) أخرج أحمد في مسنده (٢٥٢٥٩) من طريق القاسم عن عائشة ﵂، أن النبي ﷺ قال: «صلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار».

(٢) في حاشيته ٧/ ٢٢٠.

(٣) صحيح مسلم (٢٦٦٣)، وسنن النسائي الكبرى (١٠٠٢٢) و(١٠٠٢٣)، ومصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٣٧٣-٣٧٤.

(٤) سلف عند تفسير الآية (١٥) من سورة الأنعام.

(٥) قطعة من حديث الحسن بن علي ﵄ مرفوعاً، أخرجه أحمد (١٧١٨)، وأبو داود (١٤٢٥)، والترمذي (٤٦٤)، والنسائي ٣/ ٢٤٨، وابن ماجه (١١٨٧).

(٦) لم أقف على ذكر لخوف النبي ﷺ من قيام الساعة عند هبوب الريح.

وأخرج البخاري في صحيحه (١٠٣٤) من حديث أنس يقول: كانت الريح الشديدة إذا هبت عرف ذلك في وجه النبي ﷺ.

وأخرج مسلم في صحيحه (٨٩٩): (١٤) عن عائشة ﵂ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا كان يوم الريح والغيم، عرف ذلك في وجهه، وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سرَّ به، وذهب عنه ذلك. قالت عائشة: فسألته. فقال: «إني خشيت أن يكون عذاباً سلط على أمتي». ويقول إذا رأى المطر: «رحمة».

المهديِّ والدجَّال والدابَّة، وطلوعَ الشمس من مغربها، إلى غير ذلك ممَّا لم يَحدُث بَعْدُ، وغايةُ ما يلزم من ذلك تغيُّر المعلوم، ولا يلزمُ منه تغيُّر العلم، على ما بُيِّن في موضعه، وعلى هذا لا إشكال في خبر: «الصدقة تزيدُ في العمر»[١]، ويتَّضحُ أمرُ فائدة الدعاء، وما يحكى عن بعضهم من نفي القضاء المبرَم يرجعُ إليه.

وقد رأيتُ كُرَّاسةً لبعض الأفاضل أطال الكلام فيها لتشييد هذا القول وتثبيت أركانه، والحقُّ عندي أنَّ ما في العلم الأزليِّ المتعلِّقِ بالأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر لا يتغيَّر، ويجب أن يقعَ كما علم، وإلَّا يلزم الانقلاب، وما يتبادرُ منه خلافُ ذلك ـ إذا صحَّ ـ مؤولٌ، وخبرُ: «الصدقةُ تزيدُ في العمر»[٢] قيل: إنَّه خبرُ آحاد، فلا يعارضُ القطعيَّات.

وقيل: المراد أنَّ الصدقةَ وكذا غيرها من الطاعات، تزيدُ فيما هو المقصودُ الأهمُّ من العمر، وهو اكتساب الخير والكمال والبركة التي بها تُستَكْمَلُ النفوسُ الإنسانيَّة، فتفوز بالسعادة الأبديَّة، والدعاءُ حُكْمُه حُكْمُ سائر الأسباب من الأكل والشرب والتحفُّظ من شدَّة الحرِّ والبرد مثلاً، ففائدته كفائدتها.

وقيل: هو لمجرَّد إظهار الاحتياج والعبوديَّة، فليتدبر.

وقيل: الضمير للعمر، والنقص لغيره، أي: ولا ينقصُ من عمر المعمَّر لغيره، بأن يُعطَى له عمرُ ناقصٍ من عمره.

وقيل: الضميرُ للمنقوص من عمره، وهو ـ وإن لم يصرَّح به ـ في حُكم المذكور كما قيل:

وبضدِّها تتبيَّنُ الأشياء[٣]

فيكون عائداً على ما عُلِم من السياق، أي: ولا يُنقص من عمر المنقوص من عمره بجعله ناقصاً.

(١) سلف قريباً.

(٢) سلف قريباً.

(٣) عجز بيت للمتنبي، وهو في ديوانه ١/ ١٤٩، وسلف ٧/ ٣٧١.

وقرأ الحسن وابن سيرين وعيسى: «ولا يَنْقُص» بالبناء للفاعل(١)، وفاعله ضميرُ المعمَّر، أو: «عمره»، و«من» زائدة في الفاعل، وإن كان متعدياً جازَ كونُه ضمير الله تعالى.

وقرأ الأعرجُ: «من عُمْرِه» بسكون الميم(٢).

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ عن ابن عباس: هو اللوح المحفوظ. وجُوِّزَ أنْ يرادَ به صحيفةُ الإنسان، فقد أخرجَ ابنُ المنذر وابن أبي حاتم عن حذيفة بن أسيد الغفاريّ قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخلُ الملكُ على النطفةِ بعدما تستقرُّ في الرحم بأربعين أو بخمس وأربعين ليلةً، فيقول: يا ربّ، أشقيٌّ أم سعيد؟ أذكرٌ أم أنثى؟ فيقول الله تعالى، ويكتب، ثم يكتب عملَه ورزقَه وأجلَه وأثرَه ومصيبَته، ثم تُطوى الصحيفةُ، فلا يزاد فيها ولا ينقص منها(٣).

وجُوِّزَ أيضاً أنْ يُراد به علمُ الله عزَّ وجلَّ. وذكر في ربط الآيات أنَّ قولَه تعالى: «والله خلقكم من تراب» إلخ مُسَاقٌ للدلالة على القدرة الكاملة، وقوله سبحانه: «ما تحمل من أنثى» إلخ للعلم الشامل، وقوله عز وجل: «وما يعمَّر من معمَّر» إلخ لإثبات القضاء والقدر، والمعنى: «وما يعمَّر» منكم، خطاباً لأفراد النوع الإنساني، وأيِّد بذلك الوجهُ الأول من أوجه: «وما يعمر» إلخ.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر من الخَلْق وما بعده، مع كونه محاراً للعقول والأفهام ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ⑪﴾ لاستغنائه تعالى عن الأسباب، فكذلك البعث والنشور.

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٢٣ عن الحسن وابن سيرين ويعقوب، ونسبها في البحر المحيط ٧/ ٣٠٤ ليعقوب وسلام، وعبد الوارث وهارون كلاهما عن أبي عمرو.
وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٥٢ من رواية روح، وبخلف عن رويس.

(٢) أوردها القرطبي في تفسيره ١٧/ ٣٦٢ وزاد نسبتها للزهري. وهي في القراءات الشاذة ص١٢٣ عن أبي عمرو، وقراءة أبي عمرو المتواترة عنه كقراءة الجمهور.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٤٧، وأخرجه أيضاً مسلم (٢٦٤٤)، وأحمد (١٦١٤٢).

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ﴾ طيِّبٌ ﴿فُرَاتٌ﴾ كاسر العطش ومزيله. وقال الراغب: الفراتُ: الماء العذب، يقال للواحد والجمع[١]. ولعلَّ الوصف على هذا على طرز: أسودُ حَالِكٌ، وأصفرُ فاقِعٌ.

﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ سهلٌ انحداره لخلوِّه ممَّا تعافه النفس.

وقرأ عيسى: «سيِّغ» كميِّت بالتشديد، وجاء كذلك عن أبي عمرو وعاصم[٢]. وقرأ عيسى أيضاً: «سَيْغ» كَميْت بالتخفيف[٣].

﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ﴾ متغيِّرٌ طعمُه التغيُّر المعروف.

وقرأ أبو نهيك وطلحة: «مَلِح» بفتح الميم وكسر اللام[٤]. قال أبو الفضل[٥] الرازي: وهي لغةٌ شاذَّةٌ. وجُوِّزَ أن يكون مقصوراً من مالح للتخفيف، وهو مبنيٌّ على ورود مالح، والحقُّ ورودُه بقلَّةٍ، وليس بلغةٍ رديئةٍ كما قيل.

وفرَّقَ الإمام بين الملح والمالح بأنَّ الملحَ الماءُ الذي فيه الطعم المعروف من أصل الخلقة، كماء البحر، والمالحُ الماء الذي وُضِع فيه ملحٌ فتغيَّر طعمُه، ولا يقال فيه إلَّا مالح[٦]. ولم أره لغيره.

وقال بعضهم: لم يَرِدْ مالح أصلاً، وهو قولٌ ليس بالمليح.

﴿أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة والحرارة، من قولهم: أجيجُ النار وأَجَّتُها، ومن هنا قيل: هو الذي يحرقُ بملوحته، وهذا مثلٌ ضُرِبَ للمؤمن والكافر.

---

(١) المفردات (فرت).

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٠٥، والقراءة عن عيسى في القراءات الشاذة ص ١٢٣، وقراءة أبي عمرو وعاصم المتواترة عنهما كقراءة الجمهور.

(٣) المحتسب ٢/ ١٩٨، والبحر المحيط ٧/ ٣٠٥.

(٤) البحر المحيط ٧/ ٣٠٥، وهي في المحتسب ٢/ ١٩٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٣، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٦٢ عن طلحة فقط.

(٥) في الأصل و(م): أبو الفتح، وهو خطأ، والتصويب من البحر ٧/ ٣٠٥، والكلام منه.

(٦) تفسير الرازي ٢٦/ ١١.

وقوله تعالى[(١)]: ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ أي: من كلِّ واحدٍ منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ أي: غضّاً جديداً، وهو السمكُ، على ما رُويَ عن السُّدِّيِّ. وقيل: الطير والسمك. واختار كثيرٌ الأول.

والتعبيرُ عن السمك باللحم مع كونه حيواناً، قيل: للتلويح بانحصار الانتفاع به في الأكل، ووصفُه بالطراوة للإشعار بلطافته والتنبيهِ على المسارعة إلى أكله لئلَّا يتسارعَ إليه الفسادُ، كما ينبئ عنه جَعْلُ كلٍّ من البحرين مبدأَ أكلِه.

واستدلَّ مالكٌ والثوريُّ بالآية ـ حيث سَمَّى فيها السمكَ لحماً ـ على حِنْثِ من حَلَفَ: لا يأكلُ لحماً، فأكلَ سمكاً.

وقال غيرهما: لا يحنث؛ لأنَّ مبنى الأيمان على العرف، وهو فيه لا يسمَّى لحماً، ولذلك لا يحنَثُ من حلف لا يركبُ دابَّة فركب كافراً، مع أنَّ الله تعالى سمَّاه دابَّةً في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال: ٥٥].

ولا يبعدُ عندي أنْ يُراد بـ «لحماً» لحم السمك، ودعوى التلويح بانحصار الانتفاع بالسمك في الأكل لا أظنُّها تامَّةً.

﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ ظاهره: ومن كلٍّ تستخرجون ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ والحليةُ التي تُستخرَجُ من البحر الملحِ اللؤلؤُ والمرجان، ويلبس ذلك الرجالُ والنساء، وإن اختلفت كيفيَّة اللبس، أو يقال: عبَّر عن لبس نسائهم بلبسِهم؛ لكونهنَّ منهم، أو لكون لبسهنَّ لأجلهم.

ولا نعلم حليةً تستخرجُ من البحر العذب، ولا يظهر هنا اعتبارُ إسناد ما للبعض إلى الكلِّ، كما اعتُبِرَ ذلك في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وكون بعض الصخور التي في مجاري السيول قد تكسَّر فيوجد فيها ماس وهو حِلْيةٌ تلبسُ ـ إنْ صحَّ ـ لا ينفعُ اعتبارُه هنا، إذ ليس فيه استخراجُ الحِلْية من البحر العذب ظاهراً.

---

(١) جاء فوقها في الأصل: مبتدأ. اهـ. وسيأتي بيان خبره في الصفحة التالية.

وقيل: لا يَبعُدُ أنْ تكون الحلية المستخرجةُ من ذلك عظامَ السمك التي يصنعُ منها قبضاتٌ للسيوف والخناجر مثلاً، فتحملُ ويتحلَّى بها.

وفيه ما فيه، لا سيمَّا إذا كانت الحلية كالحليّ: ما يتزيَّن به من مصنوع المعدنيات أو الحجارة.

وقال الخفاجيُّ: لا مانع من أن يخرج اللؤلؤ من المياه العذبة، وإن لم نَرَهُ[١]. ولا يخفى ما فيه من البعد.

وذهب بعض الأجلَّة للخلاص من القيل والقال أنَّ المرادَ: وتستخرجونَ من البحرِ الملح خاصَّةً حليةً تلبسونها. ويشعرُ به كلامُ السُّدِّيِّ.

يحتملُ[٢] ثلاثة أوجه:

الأوَّلُ: أنَّه استطرادٌ في صفة البحرين، وما فيهما من النعم والمنافع.

والثاني: أنَّه تتميمٌ وتكميلٌ للتمثيل؛ لتفضيل المشبَّه به على المشبَّه، وليس من ترشيح الاستعارة ـ كما زعم الطيبيُّ ـ في شيء، بل إنَّما هو استدراكٌ لدعوى الاشتراك بين المشبَّه والمشبَّه به، يلزمُ منه أنْ يكونَ المشبَّهُ أقوى، وهذا الاستدراكُ مخصوصٌ بالملح، وإيضاحُه أنَّه شبَّه المؤمنَ والكافر بالبحرين، ثمَّ فضَّل الأُجَاج على الكافر بأنَّه قد شارك الفرات في منافع، والكافر خِلْوٌ من النفع، فهو على طريقة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ ثمَّ قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

والثالث: أنَّه من تتمَّة التمثيل، على معنى أنَّ البحرين وإن اشتركا في بعض الفوائد تفاوتا فيما هو المقصودُ بالذات؛ لأنَّ أحدَهما خالطَه ما لم يبقِه على صفاء فطرته، كذلك المؤمنُ والكافر، وإن اتَّفق اتِّفاقهما في بعض المكارم، كالشجاعة

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٢٢١.

(٢) فوقها في الأصل: خبر قوله تعالى. اهـ منه.

والسخاوة، متفاوتان فيما هو الأصلُ؛ لبقاء أحدهما على الفطرة الأصلية دون الآخر، فجملة «ومن كلٍّ» إلخ حالية.

وعندي خيرُ الأوجهُ الثلاثة أوسطُها، وعلى كلٍّ يحصلُ الجواب عمَّا قيل: كيف يناسب ذكرُ منافع البحر الملحِ، وقد شبَّه به الكافر؟

وقال أبو حيان: إنَّ قوله تعالى: «وما يستوي البحران» إلخ لبيان ما يستدلُّ به كلُّ عاقلٍ على أنَّه ممَّا لا مدخل لصنمٍ فيه[1].

وقال الإمام: الأظهرُ أنه دليل لكمال قدرة الله عزَّ وجلَّ[2].

وما ذكرنا أوَّلاً من أنَّه تمثيلٌ للمؤمن والكافر هو المشهور روايةً ودرايةً، وفيه من محاسن البلاغة ما فيه.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾ السفن ﴿فِيهِ﴾ أي: في كلٍّ منهما، وانظر هل يحسنُ رجوعُ الضمير للبحر الملح، لانسياق الذهن إليه من قوله سبحانه: «وتستخرجون حليةً تلبسونها» بناءً على أنَّ المعروفَ استخراجُها منه خاصَّة؟ وأمرُ الفُلك فيه أعظم من أمرها في البحر العذب، ولذا اقتصر على رؤية الفلك فيه على الحالة التي ذكرها[3] الله تعالى.

وأفردَ ضميرَ الخطاب مع جمعه فيما سبق وما لحق؛ لأنَّ الخطاب لكلِّ أحدٍ تتأتَّى منه الرؤية، دون المنتفعين بالبحرين فقط.

﴿مَوَاخِرَ﴾ شواقُّ للماء، يجريها مقبلةً ومدبرةً بريحٍ واحدة، فالمخرُ: الشقُّ.

قال الراغب: يقال: مَخَرَتِ السفينةُ مَخْراً ومُخُوراً: إذا شقَّت الماء بجؤجُئِها[4].

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٠٤. والعبارة فيه: يُستَدلُّ بها على كل عاقل أنه ممَّا...

(٢) تفسير الرازي ٢٦/ ١٠.

(٣) في (م): الحال التي ذكر.

(٤) المفردات (مخر)، وجؤجؤ الطائر والسفينة: صدرهما. مختار الصحاح (جأجأ).

وفي «الكشاف»(١): يقال: مخرتِ السفينةُ الماء، ويقال للسحاب: بناتُ مَخْرٍ؛ لأنَّها تمخرُ الهواء، والسُّفْنُ الذي اشتُقَّت منه السفينة قريبٌ من المخر؛ لأنَّها تسفِنُ الماء كأنها تقشره كما تمخره.

وقيل: المخر: صوتُ جري الفُلْك.

وجاء في سورة النحل: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ [الآية: ١٤] بتقديم «مواخر» وتأخير «فيه» وعَكَسَ هاهنا، فقيل في وجهه: لأنَّه علَّق «فيه» هنا بـ «ترى»، وثمت بـ «مواخر». ولا يحسم مادة السؤال.

والذي يظهر لي في ذلك أنَّ آية «النحل» سيقت لتعداد النعم، كما يؤذنُ بذاك سوابقُها ولواحقُها، وتعقيبُ الآيات بقوله سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، فكان الأهمُّ هناك تقديمَ ما هو نعمةٌ، وهو مخرُ الفلك للماء، بخلاف ما هنا، فإنَّه إنما سيق استطراداً أو تتمَّةً للتمثيل كما علمت آنفاً، فقدم فيه «فيه» إيذاناً بأنَّه ليس المقصود بالذات ذلك، وكأنَّ الاهتمامَ بما هناك اقتضَى أنْ يقال في تلك الآية: (وَلِتَبْتَغُواْ) بالواو، ومخالفة ما هنا لذلك اقتضت تركَ الواو في قوله سبحانه: ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: من فضل الله تعالى بالنقلة فيها. وهو سبحانه وإنْ لم يَجْرِ له ذكرٌ في الآية، فقد جرى له تعالى ذكرٌ فيما قبلها، ولو لم يَجْرِ لم يُشْكِلْ؛ لدلالة المعنى عليه عزَّ شأنُه.

واللام متعلِّقة بـ «مواخر»، وجُوِّزَ تعلُّقها بمحذوفٍ دلَّ عليه الأفعال المذكورة، كـ: سخَّر البحرين، وهيَّأهما، أو: فعل ذلك «لتبتغوا من فضله».

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢﴾ تعرفونَ حقوقَه تعالى، فتقومونَ بطاعته عزَّ وجلَّ وتوحيده سبحانه.

و«لعلَّ» للتعليل على ما عليه جمعٌ من الأجلَّة، وقد قدَّمنا ذلك.

وقال كثير: هي للترجِّي، ولمَّا كان محالاً عليه تعالى كان المرادُ اقتضاءَ ما ذُكر من النعم للشكر، حتَّى كأنَّ كلَّ أحدٍ يترجَّاه من المنعِم عليه بها، فهو تمثيلٌ يؤول إلى أمره تعالى بالشكر للمخاطَبين.

---

(١) ٣/ ٣٠٤.

﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ بزيادةِ أحدهما ونقص الآخر بإضافة بعض أجزاء كلٍّ منهما إلى الآخر.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ عطفٌ على «يولج» واختلافُهما صيغةً؛ لما أنَّ إيلاجَ أحد المَلَوين في الآخر متجدِّدٌ حيناً فحيناً، وأما تسخيرُ النيِّرَين فأمرٌ لا تعدُّد فيه، وإنَّما المتعدِّدُ والمتجدِّدُ آثارُه، وقد أشير إليه بقوله تعالى: ﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر ﴿يَجۡرِي﴾ أي: بحسب حركته على المدارات اليوميَّة المتعدِّدة حسبَ تعدُّدِ أيَّام السنة، أو بحسب حركتيه ـ الخاصة وهي من المغرب إلى المشرق، والقسريَّة التي هي من المشرق إلى المغرب ـ جرياناً مستمرّاً.

﴿لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ قدَّره الله تعالى لجريانهما، وهو يومُ القيامة، كما روي عن الحسن.

وقيل: جريانُهما عبارةٌ عن حركتيهما الخاصَّتين بهما، والأجلُ المسمَّى عبارةٌ عن مجموع مدَّةِ دورتيهما، أو منتهاها، وهي للشمس سنة، وللقمر شهر، وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك مفصَّلاً.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارةٌ إلى فاعل الأفاعيل المذكورة، وما فيه من معنى البعد للإيذان بغاية العظمة.

وهو مبتدأ، وما بعدَه أخبارٌ مترادِفةٌ، أي: ذلكم العظيم الشأنِ الذي أبدع هذه الصنائع البديعة ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾ وفيه من الدلالة على أنَّ إبداعَه تعالى لتلك البدائع ممَّا يوجِبُ ثبوتَ تلك الأخبار له تعالى.

وفي «الكشاف»(١): ويجوزُ في حكم الإعراب إيقاعُ اسم الله تعالى صفةً لاسم الإشارة، أو عطف بيان، و«ربكم» خبراً، لولا أنَّ المعنى يأباه. اهـ.

قال في «الكشف»: فيه نظر؛ لأنَّ الاسمَ الجليل جارٍ مجرى العَلَم، فلا يجوز أنْ يقعَ وصفاً لاسم الإشارة ألبتَّة، لا لفظاً ولا معنى، وكأنَّه فُرِض على تقدير عدم

---

(١) ٣/ ٣٠٤.

الغلبة، وأمَّا إباءُ المعنى على تقدير تجويز الوصف، فقد قيل: إنَّ المقصودَ أنَّه تعالى المنفردُ بالإلهية، لا أنَّ المنفرد بالإلهية هو ربُّكم؛ لأنَّ المشركين ما كانوا معترفين بالمنفرد على الإطلاق، وأمَّا عطفُ البيان، فقيل: لأنَّه يوهِمُ تخييل الشركة، ألا ترى أنَّك إذا قُلت: ذلك الرجل سيِّدُك عندي، ففيه نوع شركة؛ لأن «ذا» اسم مبهم، وكأنَّه أرادَ أنَّ البيانَ حيث يذهبُ الوهم إلى غيره ويحتملُ الشركة مناسبٌ لا في مثل هذا المقام. وأفاد الطيبيُّ أنَّ «ذلك» يشارُ به إلى ما سبق؛ للدلالة على جدارة ما بعدَه بسبب الأوصاف السابقة، ولو كان وصفاً أو بياناً لكان المشارُ إليه ما بعده. وهذا في الأول حسنٌ دونَ الثاني، اللهم إلَّا أنْ يكون قولُه: أو عطف بيان، إشارةً إلى المذهب الذي يجعلُ الجنس الجاري على المبهم غير وصف، فيكون حكمُه حكمَ الوصف إذ ذاك، وبعدَ أن تبيَّنَ أنَّ المقام للإشارة إلى السابق، فاسمُ الإشارة قد يُجاء به لأغراضٍ أخر. اهـ.

وأبو حيَّان منعَ صحَّة الوصفيَّة للعلمية، ثم قال: لا يظهرُ إباءُ المعنى ذلك[1].

ويجوز أنْ يكون قولُه تعالى: «له الملك» جملةً مبتدأةً واقعةً في مقابلة قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣﴾ ويكون ذلك مقرِّراً لما قبله من التفرُّد بالإلهية والربوبيَّة، واستدلالاً عليه، إذ حاصلُه: جميعُ الملك والتصرُّف في المبدأ والمنتهَى له تعالى، وليس لغيره سبحانه منه شيءٌ، ولذا قيل: إنَّ فيه قياساً منطقيّاً مطويّاً.

وجُوِّزَ أن يكون مقرِّراً لقوله تعالى: «والله خلقكم» إلخ، وقولِه تعالى: «يولج» إلخ، فجملة «الذين تدعون» إلخ عليه؛ إمَّا استئنافيةٌ أيضاً، وهي معطوفةٌ على جملة «له الملك»، وإمَّا حالٌ من الضميرِ المستقرِّ في الظرف، أعني: له.

وعلى الوجه الأوَّل هي معطوفةٌ على جملة «ذلكم الله» إلخ، أو حالٌ أيضاً.

والقِطْمِير على ما أخرج ابن جرير وغيره عن مجاهد: لفافةُ النواة[2]، وهي

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٠٥.
(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٣٥٠.

القشرُ الأبيضُ الرقيق الذي يكونُ بين التمر والنواة، وهو المعنى المشهور.

وأخرج ابنُ جرير وابنُ المنذر[١]: أنَّه القمعُ الذي هو على رأس التمرة.

وأخرجَ عبد بن حميد عن قتادة: أنَّه القشرةُ على رأس النواة[٢]، وهو ما بين القمع والنواة.

وقال الراغب: إنَّه الأثرُ على ظهر النواة[٣].

وقيل: هو قشرُ الثوم.

وأيًّاما كان، فهو مَثَلٌ للشيء الدنيء الطفيف، قال الشاعر:

وأبـوك يـخـصـفُ نـعـلَـه مـتـورِّكـاً ... ما يـملكُ الـمسكين من قـطميرِ[٤]

وقرأ عيسى وسلام ويعقوب: «يَدْعون» بالياء التحتانية[٥].

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لما قبله، كاشفٌ عن جليَّة حال ما يَدعونه بأنَّه جمادٌ ليس من شأنه السماع، هذا إذا كان الكلامُ مع عَبَدَةِ الأصنام، ويحتمل أنْ يكون مع عَبَدَتها وعَبَدَة الملائكة وعيسى وغيرهم من المقرَّبين، وعدمُ السماع حينئذٍ، إمَّا لأنَّ المعبودَ ليس من شأنه ذلك، كالأصنام، وإمَّا لأنَّه في شُغل شاغل، وبُعدٍ بعيد عن عابده، كعيسى عليه السلام، ورويَ هذا عن البلخيِّ، أو لأنَّ الله عزَّ وجلَّ حفظَ سمعَه من أن يصل إليه مثلُ هذا الدعاء؛ لغاية قبحه وثقله على سمع من هو في غاية العبوديَّة لله سبحانه، فلا يردُ أنَّ الملائكةَ عليهم السلام يسمعون وهم في السماء ـ كما ورد في بعض الآثار ـ دعاءَ المؤمنين ربَّهم سبحانه.

---

(١) عن الضحاك، كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٨.

(٢) وأخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٣٥٠.

(٣) المفردات (قطمر).

(٤) هو في البحر المحيط ٧/ ٣٠٥، والدر المصون ٩/ ٢٢١ دون نسبة.

(٥) القراءات الشاذة ص ١٢٣ و١٢٤، والبحر المحيط ٧/ ٣٠٥. وقراءة يعقوب هي من طريق المعدل عن روح كما في النشر ٢/ ٣٥٢، وهي خلاف المشهور عنه.

وفي نظم ذوي النفوس القدسيَّة في سلك الملائكة عليهم السلام من حيثيَّة السماع وهم في مقارِّ نعيمِهم = توقُّفٌ عندي، بل في سماع كلٍّ من الملائكة عليهم السلام وهم في السماء، وذوي النفوس القدسيَّة وهم في مقارِّ نعيمِهم، نداءَ من ناداهم غيرَ معتقدٍ فيهم الإلهية = توقُّفٌ عندي أيضاً، إذ لم أظفر بدليلٍ سمعيٍّ على ذلك، والعقلُ يجوِّزُه، ولكن لا يُكتفَى بمجرَّد تجويزه في القول به.

﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على سبيل الفرض والتقدير ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لأنَّهم لم يُرزَقوا قوَّة التكلُّم، والسماعُ لا يستلزمُ ذلك، فالمرادُ بالاستجابة الاستجابةُ بالقول، ويجوزُ أنْ يُرَاد بها الاستجابةُ بالفعل، أي: ولو سمعوا ما نفعوكم؛ لعجزهم عن الأفعال بالمرَّة، هذا إذا كان المدعوّون الأصنام، وأمَّا إذا كانوا الملائكة عليهم السلام أو نحوهم من المقرَّبين، فعدمُ الاستجابة القوليَّة لأنَّ دعاءهم من حيث زعم أنَّهم آلهةٌ، وهم بمعزلٍ عن الإلهية، فكيف يجيبون زاعم ذلك فيهم؟ وفيه من التهمة ما فيه. وعدم الاستجابة الفعليَّة يحتملُ أنْ يكونَ لهذا أيضاً، ويحتملُ أنْ يكون لأنَّ نفعَ من دَعاهم ليس من وظائفهم. وقيل: لأنَّهم يرونَ ذلك نقصاً في العبوديَّة والخضوعِ لله عزَّ وجلَّ. ويجوز أنْ يكون هذا تعليلاً للأول أيضاً، فتأمَّل.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ فضلاً عن أن يستجيبوا لكم إذا دعوتموهم، و«شرك» مصدرٌ مضافٌ إلى الفاعل، أي: ويومَ القيامة يجحدونَ إشراكَكم إيَّاهم وعبادتكم إيَّاهم، وذلك بأنْ يُقدرَ اللهُ تعالى الأصنامَ على الكلام، فيقولون لهم: ﴿مَا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] أو يظهرَ من حالها:

ظهورَ نارِ القِرى ليلاً على عَلَمِ(١)

ما يدلُّ على ذلك، ولسانُ الحال أفصحُ من لسان المقال، ومِنْ هذا القبيل قول ذي الرُّمَّة:

وقفتُ على ربعٍ لميَّةَ ناطقٍ ... يخاطبُني آثارُه وأخاطبُه

(١) سلف عند تفسير الآية (٢) من سورة الأعراف.

وأسـقـيـهِ حـتـى كـادَ مـمـا أبـثُّـه تـكـلِّـمـنـي أحـجـارُه ومـلاعـبُـه[١]

وإن كان المدعوون الملائكة ونحوهم، فأمرُ التكلُّم ظاهرٌ، وقد حكى الله تعالى قولَ الملائكة للمشركين في السورة السابقة بقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ أي: لا يخبرك بالأمر مخبرٌ مثل مخبرٍ خبير أخبرك به، يعني به تعالَى نفسَه، كما روي عن قتادة وغيره، فإنَّه سبحانه الخبيرُ بكُنْه الأمور، وهو خطابٌ للنبيِّ ﷺ، ويجوزُ أن يكونَ غيرَ مختصٍّ، أي: لا يخبركَ أيُّها السامعُ كائناً من كنتَ مخبرٌ هو مثلُ الخبير العالم الذي لا تَخفى عليه خافيةٌ في الأرض ولا في السماء، والمراد: تحقيقُ ما أخبر سبحانه به من حال آلهتهم، ونفيُ ما يَدَّعون لهم من الإلهيَّة.

وقال ابن عطية: يحتمل أن يكون ذلك من تمام ذكر الأصنام، كأنَّه قيل: ولا يخبرك مخبرٌ مثلُ مَن يخبرك عن نفسه، وهي قد أخبرت عن أنفسها بأنَّها ليست بآلهة[٢]. وفيه من البعد ما فيه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في أنفسكم، وفيما يعنُّ لكم من أمرٍ مهمٍّ أو خطبٍ ملمٍّ.

وتعريف «الفقراء» للجنس أو للاستغراق، إذ لا عهد، وعُرِّفَ كذلك للمبالغة في فقرهم، كأنَّهم لكثرة افتقارهم وشدَّة احتياجِهم هم الفقراء فحسب، وأنَّ افتقارَ سائر الخلائق بالنسبة إلى فقرهم بمنزلة العدم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

ولا يَرِدُ الجنُّ، إذ هم لا يحتاجون في المطعم والملبس وغيرهما كما يحتاجُ

---

(١) ديوان ذي الرمة ٢/ ٨٢١، وعجز البيت الأول فيه:

فـمـا زلـت أبـكـي عـنـده وأخـاطـبُـه

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٤.

الإنسان، وضعفُهم ليس كضعفه، فلا حاجةَ إلى إدخالهم في الناس تغليباً، على أنَّه قيل: لا يضرُّ ذلك، إذ الكلامُ مع من يُظهِرُ القوَّة والعناد من الناس.

والقول إنَّ القصر إضافيٌّ بالنسبة إليه تعالى، لا يخفى ما فيه.

وقال صاحب «الفرائد»: الوجهُ أن يقال ـ والله تعالى أعلم ـ: المرادُ الناس وغيرهم، وهو على طريقة تغليبِ الحاضر على الغائب، وأولي العلمِ على غيرهم. وهو بعيدٌ جدًّا.

وقال العلَّامة الطيبيُّ: الذي يقتضيه النظم الجليل أنْ يُحمَل التعريفُ في «الناس» على العهد، وفي الفقراء على الجنس؛ لأنَّ المخاطبين هم الذي خوطبوا في قوله تعالى: (ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ) الآية، أي: ذلكم المعبودُ هو الذي وُصِف بصفات الجلال، لا الذين تدعونَ من دونه، وأنتم أشدُّ الخلائق احتياجاً إليه عزَّ وجلَّ. ولا يخلو عن حسن.

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن كلِّ شيءٍ لا غيره ﴿ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ المنعمُ على جميع الموجودات، المستحقُّ بإنعامه سبحانَه للحمد، وأصله المحمود، وأريد به ذلك على طريق الكناية؛ ليناسب ذكرَه بعد فقرهم، إذ الغنيُّ لا ينفع الفقير إلَّا إذا كان جواداً منعِماً، ومثلُه مستحقٌّ للحمد، وهذا كالتكميل لما قبلَه، كما في قول كعب الغنويّ:

حليمٌ إذا ما الحلمُ زيَّن أهلَه ... مع الحلم في عين العدوِّ مهيبُ[1]

ويدخلُ في عموم المستغنى عنه المخاطبونَ وعبادتُهم، وفي كلام الطيبيِّ رائحةُ التخصيص، حيث قال ما سمعتَ نقلَه[2]: وهو سبحانه غنيٌّ عنكم وعن عبادتكم؛ لأنَّه تعالى حميدٌ، له عبادٌ يحمدونَه وإن لم تحمدوه أنتم. والأولى التعميم.

---

(١) أمالي القالي ٢/ ١٤٩، وخزانة الأدب ١٠/ ٤٣٥، ونسبه في الأصمعيات ص١٠٠ لغُرَيقة بن مسافع العبسي. وهو في البيان والتبيين ٣/ ٣٣٢ دون نسبة. قال عبد السلام هارون في تعليقه على البيان والتبيين: الأبيات من قصيدتين متشابهتين متداخلتين يخلط الرواة بين أبياتهما، إحداهما لكعب بن سعد الغنوي، والأخرى لعريقة (كذا) بن مسافع العبسي.

(٢) لعله يريد: إثر ما سمعت نقله.

وما روي في سبب النزول من أنَّه لمَّا كَثُرَ من النبيِّ ﷺ الدعاءُ، وكثُرَ الإصرارُ من الكفار قالوا: لعلَّ الله تعالى محتاجٌ لعبادتنا، فنزلت = لا يقتضي شيئاً من التخصيص في الآية كما لا يخفى.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي: إن يشأ سبحانه إذهابَكم أيُّها الناس والإتيان بخلقٍ جديدٍ يذهبكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ بعالَم غيرِ الناس لا تعرفونه، هذا إذا كان الخطابُ عامّاً، أو: إنْ يشأ يذهبكم أيُّها المشركون أو العرب ويأتِ بخلقٍ جديدٍ ليسوا على صفتكم، بل مستمرُّون على طاعته وتوحيده، وهذا إذا كان الخطابُ خاصًّا. وتفسيرُ الجديد بما سمعت مرويٌّ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأيّاً ما كان فالجملةُ تقريرٌ لاستغنائه عزَّ وجلَّ.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر من إذهابهم والإتيان بخلقٍ جديدٍ ﴿عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ أي: بصعبٍ، فإنَّ أمرَه تعالى إذا أراد شيئاً أنْ يقول له: كن، فيكون.

وإن كان في «الناس» تغليب الحاضر على الغائب، وأولي العلم على غيرهم، وكان الخطابُ هنا على ذلك الطرز، وقلنا: إنَّ الآية تشعرُ بأنَّ ما يأتي به سبحانه من العالم أبدعُ = أشكلَ بحسب الظاهر قول حجَّة الإسلام: ليس في الإمكان أبدعُ ممَّا كان[1].

وأُجيب بأنَّ ذلكَ على فرض وقوعِه داخلٌ في حيِّز ما كان، وهو مع هذا العالم كبعضِ أجزاء هذا العالم مع بعض، أو بأنَّ الأبدعيَّة المشعور بها بمعنًى، والأبدعيَّة في كلام حجَّة الإسلام بمعنى آخر، فتدبَّر.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ أي: لا تحملُ نفسٌ آثمةٌ ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: إثمَ نفسٍ أخرى، بل تحملُ كلُّ نفسٍ وزرَها.

ولا منافاة بين هذا، وقولِه تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [الآية: ١٣] فإنَّه في الضَّالين المضلِّين، وهم يَحملون إثمَ إضلالهم مع إثم ضلالِهم، وكلُّ ذلك آثامُهم، ليس فيها شيءٌ من آثام غيرهم، ولا ينافيه قوله

(١) انظر إحياء علوم الدين ٤/ ٢٥٨.

سبحانه: (مَعَ أَثْقَالِهِمْ) لأنَّ المرادَ بأثقالهم ما كان بمباشرتهم، وبما معها ما كان بسَوقِهم وتسبُّبهم، فهو للمضلِّين من وجهٍ، وللآخرين من آخر.

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أي: نفسٌ أثقلتْها الأوزارُ ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ الذي أثقلَها، ووزرِها الذي بَهَضَها[1]؛ ليُحمَل شيءٌ منه ويخفَّف عنها. وقيل: أي: إلى حَمْل حملها ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ لم تُجَب بحملِ شيءٍ منه.

والظاهر أنَّ «ولا تزر» إلخ نفيٌ للحمل الاختياريِّ تكرُّماً من نفس الحامل ردّاً لقول المضلِّين: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] ويؤيِّدُه سببُ النزول، فقد رويَ أنَّ الوليدَ بن المغيرة قال لقوم من المؤمنين: اكفروا بمحمدٍ (ﷺ) وعليَّ وزرُكم، فنزلت.

وهذا نفيٌ للحمل بعد الطلب من الوازرة أعمُّ من أن يكون اختياراً أو جبراً، وإذا لم يجبر أحدٌ على الحمل بعد الطلب والاستعانة، عُلِمَ عدمُ الجبر بدونه بالطريق الأولى، فيعمُّ النفيُ أقسامَ الحمل كلِّها، وكذا الحاملُ أعمُّ من أن يكون وازراً أم لا، وجاء العموم من عدم ذكر المدعوِّ ظاهراً، وقد يقال مع ذلك: إنَّ في الأولى نفيَ حمل جميع الوزر، بحيث يتعرَّى منه المحمول عنه، وفي الثاني نفيَ التخفيف، فلا اتِّحاد بين مضموني الجملتين كما لا يخفى.

وقيل في الفرق بينهما: إنَّ الأولَ نفيُ الحمل إجباراً، والثاني نفيٌ له اختياراً. وتعقِّبَ بأنَّ المناسب على هذا: ولا يوزر على وازرةٍ وزر أخرى، وإن تَدْعُ مثقلةٌ إلى حملها أحداً لا يحملْ منه شيئاً. وأيضاً حقُّ نفي الإجبار أنْ يُتَعرَّض له بعد نفي الاختيار. وقيل: إنَّ الجملة الأولى كما دلَّت على أنَّ المثقلَ بالذنوب لا يحملُ أحدٌ من ذنوبه شيئاً دلَّت على عدله تعالى الكامل، والجملةُ الثانية دلَّت على أنَّه لا مستغاثَ من هول ذلك اليوم أيضاً، وهما المقصودان من الآيتين، فالفرقُ باعتبار ذلك. ولعلَّ ما ذكرناه أوَّلاً أولى.

وذكر بعض الأفاضل في الجملة الأولى ثلاثةَ أسئلة، قال في الأخيرين منها: لم أرَ من تفطَّن لهما، وقد أجابَ عن كلٍّ:

---

(١) أي: شقَّ عليها وفدحها. انظر القاموس واللسان (بهض).

الأول: أنَّ عدمَ حمل الغير على الغير عامٌّ في النفس الآثمة وغيرِ الآثمة، فَلِمَ خصَّ بالآثمة مع أنَّ التصريح بالعموم أتمُّ في العدل، وأبلغُ في البشارة، وأخصرُ في اللفظ؟ وذلك بأنْ يقال: ولا تحمل نفسٌ حملَ أخرى.

وجوابه: أنَّ الكلامَ في أرباب الأوزار المعذَّبين لبيان أنَّ عذابَهم إنَّما هو بما اقترفوه من الأوزار، لا بما اقترفَه غيرهم.

الثاني: أنَّ معنى وَزَرَ: حَمل الوزرَ، لا مطلق الحمل، على ما في «النهاية» الأثيرية، حيث قال: يقال: وَزَرَ يَزِرُ فهو وَازِرٌ، إذا حَمل ما يُثْقِل ظهرَه من الأشياء المثقِلة ومن الذنوب[1]. فكيف صحَّ ذكر وزر مع يزر؟

وجوابه: أنه من باب التجريد.

الثالث: أن «وازرة» يفهمُ من «تَزِر»، كما يفهم ضارب من يضرب مثلاً، فأيُّ فائدةٍ في ذكره؟

وجوابه: أنَّه إذا قيل: ضربَ ضاربٌ زيداً، فالذي يُستفاد من ضرب إنَّما هو ذاتٌ قام بها ضربٌ حدث من تعلُّق هذا الفعل بتلك الذات، ولمَّا عبَّر عن شيءٍ بما فيه معنى الوصفيَّة، وعُلِّق به معنى مصدريٌّ في صيغة فَعَلَ أو غيرها، فُهِم منه في عرف اللغة أنَّ ذلك الشيءَ موصوفٌ بتلك الصفة حالَ تعلُّق ذلك المعنى به لا بسببه، كما حققه بعض أجلَّة شراح «الكشاف»، فيجبُ أنْ يكون معنى ضارب في المثال: متصفاً بضربٍ سابق على تعلُّق ضربَ به، وكذا يقال في «لا تزر وازرة»، وهذه فائدةٌ جليلةٌ، ويزيدها جلالةً استفادةُ العموم إذ[2] أوردَ اسم الفاعل نكرةً في حيِّز نفي، وبذلك يسقطُ قول العلَّامة التفتازانيّ: إنَّ ذكرَ فاعل الفعل بلفظ اسم فاعله نكرةً قليلُ الجدوى جدّاً. انتهى.

وأنت تعلم أنَّه من مجموع الجملتين يستفادُ ما ذَكره في السؤال الأوَّل من العموم، وفي خصوص هاتين الجملتين وذِكْرِهما معاً ما لا يخفى من الفائدة.

---

(١) النهاية (وزر).

(٢) في (م): إذا. وهي غير واضحة في الأصل. ولعلَّ المثبت هو الصواب.

وفي «القاموس»: وزَرَهُ ـ كوعده ـ وِزْرًا، بالكسر: حَمَلَهُ[١]. وفي «الكشاف»: وزرَ الشيءَ إذا حمله. ونحوه في «البحر»[٢]. وعلى ذلك لا حاجةَ إلى التجريدِ فلا تغفل.

وأصلُ الحِمْل ما كان على الظهر من ثقيلٍ، فاستعير للمعاني من الذنوب والآثام.

وقرأ أبو السمَّال عن طلحة وإبراهيم عن الكسائيّ: «لا تَحمِل» بفتح التاء المثناة من فوق وكسر الميم[٣]، وتقتضي هذه القراءةُ نصبَ «شيء» على أنَّه مفعولٌ به لـ «تحمل»، وفاعله ضمير عائدٌ على مفعول «تَدْعُ»[٤] المحذوف، أي: وإن تَدْعُ مثقلةٌ نفساً إلى حملها، لم تَحمل منه شيئاً.

﴿وَلَوْ كَانَ﴾ أي: المدعوُّ، المفهوم من الدعوة ﴿ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ ذا قرابةٍ من الدَّاعي. وقال ابن عطية[٥]: اسم «كان» ضمير الداعي، أي: ولو كان الداعي ذا قرابةٍ من المدعو. والأول أحسنُ؛ لأنَّ الداعيَ هو المثقلةُ بعينه، فيكونُ الظاهرُ عود الضمير عليه وتأنيثه.

وقول أبي حيَّان: ذَكَّرَ الضميرَ حملاً على المعنى؛ لأنَّ قوله تعالى: «مثقلة» لا يراد بها مؤنَّثُ المعنى فقط، بل كلُّ شخصٍ، فكأنَّه قيل: وإن يدعُ شخصٌ مثقلٌ[٦] = لا يخفى ما فيه.

وقرئ: «ولو كان ذو قربى» بالرفع[٧]. وخُرِّجَ على أنَّ «كان» ناقصةٌ أيضاً، و«ذو قربى» اسمها، والخبر محذوف، أي: ولو كان ذو قربى مدعوّاً.

---

(١) القاموس (وزر).
(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٥، والبحر المحيط ٧/ ٣٠٧.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٠٧، وقراءة الكسائي المتواترة عنه كقراءة الجمهور.
(٤) في الأصل و(م): تدعو. والمثبت من البحر المحيط ٧/ ٣٠٧ والكلام منه.
(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٥.
(٦) البحر المحيط ٧/ ٣٠٨.
(٧) البحر المحيط ٧/ ٣٠٨.

وجُوِّزَ أنْ تكون تامَّةً، وتُعقِّبَ بأنَّه لا يلتئم معها النظمُ الجليل؛ لأنَّ الجملة الشرطيَّة كالتتميم والمبالغة في أنْ لا غياثَ أصلاً، فيقتضي أن يكونَ المعنى أنَّ المثقلةَ إنْ دَعَتْ أحداً إلى حملها لا يجيبُها إلى ما دعته إليه ولو كان ذو القربى مدعوّاً، ولو قلنا: إنَّ المثقلةَ إنْ دعت أحداً إلى حملها لا يَحْمِلُ مدعوُّها شيئاً ولو حضر ذو قربى، لم يحسُن ذلك الحُسْنَ، وملاحظةُ كونِ ذي القربى مدعوّاً بقرينة السياق، أو تقدير: فدعته ـ كما فعل أبو حيَّان[1] ـ خلافُ الظاهر، فيخفى عليه أمرُ الانتظام.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ إلخ استئنافٌ مسوقٌ لبيان من يتَّعظ بما ذُكر، أي: إنَّما تنذرُ بهذه الإنذارات ونحوها ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: يخشونه تعالى غائبين عن عذابه سبحانه، أو عن الناس في خلواتهم، أو يخشون عذابَ ربِّهم غائباً عنهم، فالجارُّ والمجرور في موضع الحال من الفاعل، أو من المفعول.

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: راعوها كما ينبغي، وجعلوها مناراً منصوباً وعَلَماً مرفوعاً، أي: إنَّما ينفعُ إنذارك وتحذيرُك هؤلاء من قومك دونَ مَن عَدَاهم من أهل التمرُّد والعناد.

ونكتة اختلاف الفعلين تُعلَم ممَّا مرَّ في قوله تعالى: (وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا) فتذكَّر، ما في العهد من قدم.

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ تَطَهَّرَ من أدناس الأوزار والمعاصي بالتأثُّر من هذه الإنذارات ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ لاقتصار نفعه عليها، كما أنَّ من تدنَّس بها لا يتدنَّس إلَّا عليها، والتزكِّي شاملٌ للخشية وإقامة الصلاة، فهذا تقريرٌ وحثٌّ عليهما.

وقرأ العباس عن أبي عمرو: «ومن يزَّكَّى فإنَّما يزَّكَّى» بالياء من تحت، وشدِّ الزاي فيهما[2]، وهما مضارعان أصلهما: ومن يتزكَّى فإنما يتزكَّى، فأدغمت التاءُ في الزاي، كما أدغمت في «يذَّكَّرون».

---

(١) في البحر ٧/٣٠٨.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٢٣، والبحر المحيط ٧/٣٠٨.

وقرأ ابن مسعود وطلحة: «ومن ازَّكّى» بإدغام التاء في الزاي، واجتلاب همزة الوصل في الابتداء، وطلحة أيضاً: «فإنَّما يزَّكّى»[1] بإدغام التاء في الزاي.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ لا إلى أحدٍ غيره استقلالاً أو اشتراكاً، فيجازيهم على تَزَكِّيهم أحسنَ الجزاء.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾ عطفٌ على قوله تعالى: «وما يستوي البحران»، والأعمى والبصيرُ مَثَلان للكافر والمؤمن، كما قال قتادة والسُّدِّيُّ وغيرهما. وقيل: هما مَثَلان للصنم ولله عزَّ وجلَّ، فهو من تتمَّة قوله تعالى: «ذلكم الله ربكم له الملك» والمعنى: لا يستوي اللهُ تعالى مع ما عبدتم.

﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾﴾ أي: ولا[2] الباطل ولا الحق.

﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾ ولا الثواب ولا العقاب. وقيل: ولا الجنَّة ولا النار.

و«الحرور» فعولٌ من الحرِّ، وأطلق ـ كما حُكي عن الفرَّاء ـ على شدَّةِ الحرِّ ليلاً أو نهاراً. وقال أبو البقاء: هو شِدَّة حرِّ الشمس. وفي «الكشاف»: الحرور السموم، إلّا أنَّ السموم يكونُ بالنهار، والحرور بالليل والنهار. وقيل: بالليل[3].

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ تمثيلٌ آخر للمؤمنين الذين دخلوا في الدين بعدَ البعثة، والكافرين الذين أصرُّوا واستكبروا، فالتعريفُ ـ كما قال الطيبيُّ ـ للعهد.

وقيل: للعلماء والجهلاء. والثعالبيُّ جعلَ «الأعمى والبصير» مَثَلين لهما[4]، وليس بذاك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ أن[5] يسمعَه ويجعلَه مدركاً للأصوات. وقال

---

(١) في الأصل و(م): تزكى. والمثبت من البحر المحيط ٧/ ٣٠٨، والدر المصون ٩/ ٢٢٣.
(٢) لفظة: ولا. ليست في الأصل.
(٣) الكشاف ٣/ ٣٠٦.
(٤) أي: للجاهل والعالِم. تفسير أبي إسحاق الثعلبي ٨/ ١٠٤.
(٥) في (م): أي.

الخفاجيُّ[1] وغيره: ولعلَّ في الآية ما يقتضي أنَّ المرادَ: يسمعُ من يشاءُ سماعَ تدبُّرٍ وقَبولٍ لآياتِه تعالى.

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ٢٢﴾ ترشيحٌ لتمثيل المصرِّين على الكفر بالأموات، وإشباعٌ في إقناطه عليه الصلاة والسلام من إيمانهم. والباء مزيدةٌ للتأكيد، أي: وما أنت مسمعٌ، والمراد بالسماع هنا ما أريدَ به في سابقه، ولا يأبى إرادةَ السماعِ المعروف ما وردَ في حديث القَليب[2]؛ لأنَّ المرادَ نفيُ الإسماع بطريق العادة، وما في الحديث من باب: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، وإلى هذا ذهبَ البعض، وقد مرَّ الكلامُ في ذلك، فلا تغفل.

وما ألطفَ نظمَ هذه التمثيلات، فقد شبَّه المؤمنَ والكافرَ أوَّلاً بالبحرين، وفضَّل البحرَ الأُجَاج على الكافر؛ لخلوِّه من النفع، ثم بالأعمى والبصير مستتبعاً بالظلماتِ والنور والظلِّ والحرور، فلم يكتفِ بفقدان نورِ البصر، حتى ضمَّ إليه فقدان ما يمدُّه من النور الخارجيِّ، وقرنَ إليه نتيجةَ ذلك العمى والفقدان، فكان فيه ترقٍّ من التشبيه الأوَّل إليه، ثم بالأحياء والأموات تَرَقِّياً ثانياً، وأردفَ قوله سبحانه: «وما أنت بمسمع من في القبور».

وذكر الطيبيُّ أنَّ إخلاءَ الثاني من «لا» المؤكِّدة؛ لأنَّه كالتمهيد لقوله تعالى: «وما يستوي الأحياء ولا الأموات»، ولهذا كَرَّر: «وما يستوي»، وأمَّا ذكرُها في التمثيلين بعدَه، فلأنَّهما مقصودان في أنفسهما، إذ ما فيهما مَثَلان للحقِّ والباطل، وما يؤدِّيان إليه من الثواب والعقاب، دون المؤمن والكافر كما في غيرهما، وإنَّما حُمِلت على أنَّها زائدة للتأكيد، إذ ليس المرادُ أنَّ الظلمات في نفسها لا تستوي، بل تتفاوت، فمن ظلمة هي أشدُّ من أخرى مثلاً، وكذا يقال فيما بعد، بل المراد أنَّ الظلمات لا تساوي النور، والظلَّ لا يساوي الحرور، والأحياء لا تساوي الأموات.

وزعم ابن عطية أنَّ دخول «لا» على نيَّة التكرار، كأنه قيل: ولا الظلمات

---

(١) في حاشيته ٧/ ٢٢٣.
(٢) سلف ٢٠/ ٤٨٦.

والنور ولا النور والظلمات، وهكذا، فاستغنى بذكر الأوائل عن الثواني، ودلَّ مذكورُ الكلام على متروكه[١].

والقولُ بأنَّها مزيدةٌ لتأكيد النفي يغني عن اعتبار هذا الحذف الذي لا فائدةَ فيه.

وقال الإمام: كُرِّرت «لا» فيما كررت؛ لتأكيد المنافاة، فالظلمات تنافي النور وتضادُّه، والظلُّ والحرور كذلك؛ لأنَّ المرادَ من الظلِّ عدمُ الحرِّ والبرد، بخلاف الأعمى والبصير، فإنَّ الشخصَ الواحدَ قد يكونُ بصيراً، ثمَّ يَعْرِضُ له العمى، فلا منافاةَ إلَّا من حيث الوصف، وأمَّا الأحياء والأموات فيهما؛ وإنْ كانا كالأعمى والبصير من حيث إنَّ الجسمَ الواحد قد يكون حيّاً، ثم يعرضُ له الموت، لكنَّ المنافاةَ بين الحيِّ والميت أتمُّ من المنافاة بين الأعمى والبصير، فإنَّهما قد يشتركان في إدراك أشياء، ولا كذلك الحيُّ والميت، كيف والميتُ مخالفُ الحيِّ في الحقيقة على ما تبيَّن في الحكمة الإلهية[٢].

وقيل: لم تكرَّر قبلُ وكرِّرت بَعْدُ؛ لأنَّ المخاطبَ في أوَّل الكلام لا يقصر في فهم المراد.

وقيل: كُرِّرَت فيما عدا الأخير؛ لأنَّه لو قيل: وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور مثلاً، لتوهِّم نفي الاستواء بين مجموع الأعمى والبصير، ومجموع الظلمات والنور، وفي الأخير للاعتناء، وإدخال «لا» على المتقابلين؛ لتذكير نفي الاستواء.

وقَدَّمَ الأعمى على البصير مع أنَّ البصيرَ أشرف؛ لأنَّه إشارةٌ إلى الكافر، وهو موجودٌ قبل البعثة والدعوة إلى الإيمان، ولنحو هذا قَدَّمَ الظلمات على النور، فإنَّ الباطلَ كان موجوداً، فدمغَه الحقُّ ببعثته عليه الصلاة والسلام، ولم يقدِّم الحرور على الظلِّ؛ ليكون على طرز ما سبقَ من تقديم غير الأشرف، بل قدَّمَ الظلَّ رعايةً لمناسبتِه للعمى والظلمة من وجه، أو لسبق الرحمة، مع ما في ذلك من رعاية الفاصلة.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٥.

(٢) تفسير الرازي ٢٦/ ١٦.

وقدَّم الأحياءَ على الأموات، ولم يعكس الأمرَ؛ ليوافق الأوَّلين في تقديم غير الأشرف؛ لأنَّ الأحياء إشارةٌ إلى المؤمنين بعد الدعوة، والأمواتَ إشارةٌ إلى المُصِرِّين على الكفر بعدها، ولذا قيل بعد: «إنَّ الله يُسمعُ من يشاء» إلخ، ووجودُ المصرِّين بوصف الإصرار بعد وجود المؤمنين.

وقيل: قدَّم ما قدَّم فيما عدا الأخير؛ لأنَّه عدم وله مرتبة السبق، وفي الأخير؛ لأنَّ المرادَ بالأموات فاقدو الحياة بعد الاتِّصاف بها، كما يشعرُ به إرداف ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾، فيكون للحياة مع أنَّها وجوديَّةٌ رتبةُ السبق أيضاً.

وقيل: إنَّ تقديم غير الأشرف ـ مع انفهام أنَّه غير أشرف ـ على الأشرف؛ للإشارة إلى أنَّ التقديمَ صورةً لا يخلُّ بشرف الأشرف:

فالنارُ يعلوها الدخان وربَّما يعلو الغبارُ عمائمَ الفرسان[1]

وجمعُ الظلمات مع إفراد النور؛ لتعدُّد فنون الباطل واتِّحاد الحق. وقيل: لأنَّ الظلمةَ قد تتعدَّدُ فتكون في محالَّ قد تخلَّل بينها[2] نورٌ، والنور في هذا العالم ـ وإن تعدَّد ـ إلَّا أنَّه يتَّحد وراءَ محلِّ تعدُّده.

وجمعُ الأحياء والأموات على بابه؛ لتعدُّد المشبَّه بهما. ولم يجمع الأعمى والبصير لذلك؛ لأنَّ القصدَ إلى الجنس، والمفردُ أظهرُ فيه، مع أنَّ في: البصراء، تركَ رعاية الفاصلة، وهو على الذوق السليم دونَ: البصير، فتدبَّر جميعَ ذلك، والله تعالى أعلم بأسرار كتابه وهو العليم الخبير.

وقرأ الأشهب والحسن: «بمُسْمِعِ مَن» بالإضافة[3].

(١) سلف ١٦/ ١١٧.

(٢) في (م): بينهما.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٠٩، ونسبها ابن خالويه ص ١٢٣ لعليٍّ ﷺ، ونسبها النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٠، وتبعه القرطبي في تفسيره ١٧/ ٣٧١ للحسن وعيسى الثقفي وعمرو بن ميمون.

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝٢٣﴾ أي: ما عليك إلَّا أنْ تبلِّغ وتنذرَ، فإن كان المنذَر ممَّن أرادَ الله تعالى هدايته سمعَ واهتدى، وإنْ كان ممَّن أرادَ سبحانَه ضلالَهُ وطبعَ على قلبه فما عليك من تبعة.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: محقِّين، على أنَّه حالٌ من الفاعل، أو محقّاً، على أنَّه حالٌ من المفعول، أو إرسالاً مصحوباً بالحقِّ، على أنَّه صفةٌ لمصدرٍ محذوف.

وجَوَّزَ الزمخشريُّ تعلُّقه بقوله سبحانه: ﴿بَشِيرًا﴾، ومتعلّق قوله تعالى: ﴿وَنَذِيرًا﴾ محذوفٌ لدلالة المقابل على مقابله، أي: بشيراً بالوعد الحقِّ، ونذيراً بالوعيد الحقِّ[١].

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ أي: ما من جماعةٍ كثيرةٍ أهل عصر وأمةٍ من الأمم الدارجة في الأزمنة الماضية ﴿إِلَّا خَلَا﴾ مضى ﴿فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤﴾ من نبيٍّ أو عالم ينذرُها، والاكتفاء بذكره للعِلْم بأنَّ النذارة قرينةُ[٢] البشارة، لا سيَّما وقد اقترنا آنفاً، مع أنَّ الإنذارَ أنسبُ بالمقام.

وقيل: خُصَّ النذير بالذكر لأنَّ البشارةَ لا تكونُ إلَّا بالسمع، فهو من خصائص الأنبياء عليهم السلام، فالبشيرُ نبيٌّ أو ناقلٌ عنه، بخلاف النذارة، فإنَّها تكونُ سمعاً وعقلاً، فلذا وجّه النذير في كلِّ أمةٍ، وفيه بحث.

واستدلَّ بعضُ الناس بهذه الآية مع قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] على أنَّ في البهائم وسائر الحيوانات أنبياء أو علماء ينذرون.

والاستدلالُ بذلك باطلٌ لا يكاد يخفى بطلانُه على أحدٍ حتى على البهائم، ولم نسمع القولَ بنبوَّة فردٍ من البهائم ونحوها إلَّا عن الشيخ محيي الدين ومن تابعه قدَّس الله سرَّه، ورأيتُ في بعضِ الكتب أنَّ القولَ بذلك كفرٌ، والعياذُ بالله تعالى.

---

(١) الكشاف ٣/٣٠٦.

(٢) في (م): قريبة، وهو تصحيف.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم العاتية، فلا تحزن من تكذيب هؤلاء إيَّاك.

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ في موضع الحال على ما قال أبو البقاء[1]، إمَّا بدون تقدير «قد» أو بتقديرها، أي: كذَّب الذين من قبلهم وقد جاءتهم رسلهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات الظاهرة الدالَّة على صدقهم فيما يدَّعون ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ كصُحُف إبراهيم عليه السلام ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ كالتوراة والإنجيل على إرادة التفصيل، يعني أنَّ بعضَهم جاء بهذا، وبعضَهم جاء بهذا، لا على إرادةِ الجمع وأنَّ كلَّ رسولٍ جاء بجميع ما ذكر، حتى يلزم أنْ يكون لكلِّ رسولٍ كتاب، وعددُ الرسل أكثر بكثيرٍ من عدد الكتب كما هو معروف، ومآلُ هذا إلى منع الخلوِّ. ويجوز أن يراد بالزبر والكتاب واحدٌ، والعطفُ لتغاير العنوانين، لكن فيه بُعْدٌ.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وضع الظاهر موضع ضميرهم؛ لذمِّهم بما في حيِّز الصلة والإشعارِ بعلَّة الأخذ.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ أي: إنكاري عليهم بالعقوبة، وفيه مزيدُ تشديدٍ وتهويلٍ، وقد تقدَّم الكلامُ في نظير هذا في «سبأ» فتَذَكَّر.

وفي الآية من تسليته ﷺ ما فيها.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ إلخ استئنافٌ مسوقٌ على ما يخطر بالبال لتقرير ما أشعرَ به قوله تعالى: (ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) من عظيم قدرته عزَّ وجلَّ.

وقال شيخ الإسلام: هو لتقرير ما قبله من اختلاف الناس ببيان أنَّ الاختلافَ والتفاوت أمرٌ مطَّردٌ في جميع المخلوقات من النبات والجماد والحيوان[2].

---

(١) في الإملاء ٤/ ٢١٩.

(٢) تفسير أبي السعود ٧/ ١٥٠.

وقال أبو حيان: تقريرٌ لوحدانيَّته تعالى بأدلّةٍ سماويَّةٍ وأرضيَّةٍ، إثرَ تقريرها بأمثالٍ ضربها جلَّ شأنُه[١]. وهذا كما ترى.

والاستفهامُ للتقرير، والرؤية قلبيَّةٌ؛ لأنَّ إنزالَ المطر، وإن كان مدركًا بالبصر، لكنَّ إنزالَ الله تعالى إيَّاه ليس كذلك، والخطابُ عامٌّ، أي: ألم تعلم أنَّ الله تعالى أنزلَ من جهة العلوِّ ماء ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء، على أنَّه سببٌ عاديٌّ للإخراج، وقيل: أي: أخرجنا عنده.

والالتفاتُ لإظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة.

﴿ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ أي: أنواعُها، من التفَّاح والرمَّان والعنب والتين وغيرها ممَّا لا يحصر، وهذا كما يقال: فلانٌ أتى بألوانٍ من الأحاديث، و: قدَّم كذا لوناً من الطعام، واختلافُ كلِّ نوع بتعدُّد أصنافه كما في التفَّاح، فإنَّ له أصنافاً متغايرةً لذَّةً وهيئة، وكذا في سائر الثمرات، ولا يكاد يوجدُ نوعٌ منها إلَّا وهو ذو أصنافٍ متغايرة.

ويجوز أنْ يُرَاد اختلافُ كلِّ نوعٍ باختلاف أفراده.

وأخرجَ عبدُ بن حميد وابن جرير عن قتادة أنَّه حملَ الألوانَ على معناها المعروف، واختلافها بالصفرة والحمرة والخضرة وغيرها[٢]، وروي ذلك عن ابن عباس أيضاً، وهو الأوفقُ لما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ وهو إمَّا عطفٌ على ما قبله بحسب المعنى، أو حالٌ، وكونه استئنافاً مع ارتباطه بما قبله غيرُ ظاهر.

و«جدد» جمع: جُدَّةٍ بالضَّمِّ، وهي الطريقة، من جَدَّه: إذا قطعه.

وقال أبو الفضل: هي من الطرائق ما يخالف لونُه لونَ ما يليه، ومنه جُدَّة الحمار للخطِّ الذي في وسط ظهره يخالف لونه.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣١١.
(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٤٩، وأخرجه الطبريُّ في تفسيره ١٩/ ٣٦٣.

وسأل ابنُ الأزرق ابنَ عباس ﷺ عن الجُدَد، فقال: طرائق؛ طريقةٌ بيضاء، وطريقةٌ خضراء، وأنشدَ قول الشاعر:

قد غادرَ السبعُ في صفحاتها جُدَداً كأنَّها طُرقٌ لاحت على أكمِ[1]

والكلامُ على تقدير مضاف إن لم تُقصد المبالغة؛ لأنَّ الجبالَ ليست نفس الطرائق، أي: ذو جدد.

وقرأ الزهريُّ: «جُدُد» بضمَّتين[2]، جمع: جَدِيدة، كسفينة وسفن، وهي بمعنى جُدَّة.

وقال صاحب «اللوامح»: هو جمعُ جديد بمعنى: آثارٌ جديدةٌ واضحةُ الألوان.

وقال أبو عبيدة: لا مدخلَ لمعنى الجديد[3] في هذه الآية.

ولعلَّ من يقول بتجدُّد حدوث الجبال وتكونُّها من مياهٍ تنبعُ من الأرض وتتحجَّر أولاً فأولاً، ثم تنبعُ من موضعٍ قريبٍ ممَّا تحجَّر، فتتحجَّرُ أيضاً، وهكذا حتى يحصل جبل = لا يأبى حملَ الآية على هذه القراءة على ما ذكر.

والظاهر من الآيات والأخبار أنَّ الجبالَ أحدثَها اللهُ تعالى بُعَيْدَ خلق الأرض؛ لئلَّا تميدَ بسكَّانها، والفلاسفةُ يزعمون أنَّها كانت طيناً في بحار انحسرت ثمَّ تحجَّرت، وقد أطال الإمام الكلامَ على ذلك في كتابه «المباحث المشرقية»، واستدلَّ على ذلك بوجود أشياء بحرية كالصدف بينَ أجزائها. وهذا عند تدقيق النظر هباءٌ، وأكثرُ الأدلَّة مثله، ومن أراد الاطِّلاعَ على ما قالوا فليرجع إلى كتبهم.

وروي عنه أيضاً أنه قرأ: «جَدَد» بفتحتين[4]، ولم يُجز ذلك أبو حاتم، وقال: إنَّ هذه القراءة لا تصحُّ من حيث المعنى. وصحَّحها غيرُه وقال: الجَدَد: الطريقُ الواضح المبين، إلَّا أنَّه وضعَ المفرد موضعَ الجمع، ولذا وُصِف بالجمع.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٤٩، وعزاه للطستي.

(٢) المحتسب ٢/ ١٩٩، والكشاف ٣/ ٣٠٧، والبحر المحيط ٧/ ٣١١.

(٣) في الأصل و(م): الجديدة، والمثبت من البحر ٧/ ٣١١، وعنه نقل المصنف.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٢٣-١٢٤، والمحتسب ٢/ ١٩٩، والبحر المحيط ٧/ ٣١١.

وقيل: هو من باب: نطفةٌ أمشاج، وثوبٌ أخلاق؛ لاشتمال الطريق على قِطَعٍ. وتعقِّبَ بأنَّه غيرُ ظاهر ولا مناسبٍ لجمع الجبال.

﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أي: أصنافُها بالشدَّةِ والضعف؛ لأنَّها مقولةٌ بالتشكيك[١]، فـ «مختلف» صفة «بيضٌ وحمرٌ»، و«ألوانها» فاعلٌ له، وليس بمبتدأ و«مختلف» خبره؛ لوجوب مختلفة حينئذٍ، وجُوِّز أن يكون صفة «جدد».

﴿وَغَرَابِيبُ﴾ عطفٌ على «بيض»، فهو من تفاصيل الجدد والصفات القائمة بها، أي: ومن الجبال ذو جُدَدٍ بيض وحمر وغرابيب.

والغِرْبِيبُ هو الذي أَبْعَدَ في السواد وأَغْرَبَ فيه، ومنه الغراب، وكثر في كلامهم إتباعُه للأسود على أنَّه صفةٌ له أو تأكيدٌ لفظيّ، فقالوا: أسودُ غربيبٌ، كما قالوا: أبيضُ يَقَقٌ، وأصفرُ فاقعٌ، وأحمرُ قانٍ.

وظاهر كلام الزمخشري[٢] أنَّ «غرابيب» هنا تأكيدٌ لمحذوف، والأصل: وسودٌ غرابيب، أي: شديدة السواد.

وتُعقِّب بأنَّه لا يصحُّ إلَّا على مذهب من يُجوِّزُ حذفَ المؤكَّد، ومن النحاة من مَنع ذلك ـ وهو اختيارُ ابن مالك ـ لأنَّ التأكيدَ يقتضي الاعتناء والتقوية وقصدَ التطويل، والحذف يقتضي خلافَه. وردَّه الصفَّار كما في «شرح التسهيل» لأنَّ المحذوف لدليل كالمذكور فلا ينافي تأكيده، وفي بعض شروح «المفصَّل» أنه صفةٌ لذلك المحذوف أقيم مقامه بعد حذفه، وقوله تعالى: ﴿سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ بدلٌ منه أو عطفُ بيانٍ له، وهو مفسِّرٌ للمحذوف، ونظير ذلك قول النابغة:

والمؤمِنِ العائذاتِ الطيرَ يمسحُها ركبانُ مكَّةَ بين الغَيْلِ والسَّنَدِ[٣]

وفيه التفسيرُ بعد الإبهام، ومزيدُ الاعتناء بوصف السواد، حيث دلَّ عليه من طريق الإضمار والإظهار.

---

(١) اللفظ المقول بالتشكيك: هو لفظ يدل على أمر عامٍّ مشتركٍ بين أفرادٍ لا على السَّواء، بل على التفاوت. المعجم الوسيط (شكك).

(٢) في الكشاف ٣٠٧/٢.

(٣) ديوان النابغة ص ٣٥، وفيه: والسَّعَد، بدل: والسَّند.

ويجوز أن يكون العطفُ على «جدد» على معنى: ومن الجبال ذو جددٍ مختلف اللون، ومنها غرابيب متحدةُ اللون، كما يؤذنُ به المقابلةُ وإخراجُ التركيبِ على الأسلوب الذي سمعته، وكأنَّه لمَّا اعتنى بأمرِ السواد بإفادة أنَّه في غاية الشدَّة، لم يذكر بعدَه الاختلاف بالشدَّة والضعف.

وقال الفرَّاء: الكلامُ على التقديم والتأخير، أي: سودٌ غرابيب.

وقيل: ليس هناك مؤكَّدٌ ولا موصوفٌ محذوف، وإنَّما «غرابيب» معطوفٌ على «جُدَد» أو على «بيض» من أوَّل الأمر و«سود» بدلٌ منه. قال في «البحر»: وهذا حسنٌ، ويحسِّنُه كونُ غربيب لم يلزم فيه أن يستعملَ تأكيداً، ومنه ما جاء في الحديث: «إنَّ الله تعالى يبغضُ الشيخَ الغربيب»[1] وهو الذي يخضبُ بالسواد - وفسَّره ابنُ الأثير بالذي لا يشيب[2]، أي: لسفاهتِه أو لعدمِ اهتمامه بأمر آخرته، وحَكَى[3] ما في «البحر» بصيغة قيل - وقولُ الشاعر:

العينُ طامحةٌ واليدُ شامخةٌ والرجلُ لائحةٌ والوجهُ غربيبُ[4]

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: ومنهم بعضٌ مختلفٌ ألوانه، أو: وبعضُهم[5] مختلفٌ ألوانُه على ما ذَكروا في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٨]. والجملةُ عطفٌ على الجملة التي قبلَها، وحكمُها حكمها.

وفي «إرشاد العقل السليم» أنَّ إيرادَ الجملتين اسميتين، مع مشاركتهما لمَا قبلهما من الجملة الفعليَّة في الاستشهاد بمضمونها على تباين الناس في الأحوال الباطنة؛ لمَا أنَّ اختلافَ الجبال والناس والدوابِّ والأنعامِ فيما ذكر من الألوان أمرٌ

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ١٠١٦. قال محمد بن طاهر المقدسي في ذخيرة الحفاظ ٢/ ٦٠٣: وهذا لا يرويه غير رشدين، وهو ضعيف جداً.

(٢) النهاية (غرب).

(٣) أي: ابن الأثير.

(٤) البحر ٧/ ٣١٢، وفيه: واليد سابحة، والبيت في ديوان امرئ القيس برواية:

والعين قادحة واليدُ سابحةٌ والرجلُ طامحةٌ واللونُ غربيبُ

(٥) في الأصل و(م): أو بعضهم، والمثبت من تفسير أبي السعود ٧/ ١٥١، والكلام منه.

مستمرٌّ، فعبَّر عنه بما يدلُّ على الاستمرار، وأمَّا إخراجُ الثمرات المختلفة، فحيث كان أمراً حادثاً، عبَّرَ عنه بما يدلُّ على الحدوث، ثمَّ لمَّا كان فيه نوعُ خفاءٍ، علَّق به الرؤية بطريق الاستفهام التقريريِّ المنبئ عن الحمل عليها والترغيبِ فيها، بخلافِ أحوال الجبال والناس وغيرهما، فإنَّها مشاهَدةٌ غنيَّةٌ عن التأمُّل، فلذلك جُرِّدَت عن التعليق بالرؤية، فتدبَّر[١]. اهـ.

وما ذكرَه من أمر تعليقِ الرؤية مخالفٌ لما في «البحر»، حيث قال: وهذا استفهامُ تقريرٍ، ولا يكونُ إلَّا في الشيءِ الظاهرِ جدّاً[٢]. فتأمَّل.

وقرأ الزهريُّ: «والدوابِ» بتخفيف الباء[٣]، مبالغةً في الهرب من التقاء الساكنين، كما همز بعضهم: «ولا الضألِّين»[٤] لذلك.

وقرأ ابن السميفع: «ألوانُها»[٥].

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في محلِّ نصبِ صفةٍ لمصدرِ «مختلف» المؤكِّد، والتقدير: مختلفٌ اختلافاً كائناً كذلك، أي: كاختلاف الثمرات والجبال، فهو من تمام الكلام قبلَه، والوقف عليه حسن بإجماعِ أهل الأداء. وقولُه سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ تكملةٌ لقوله تعالى: «إنَّما تنذرُ الذين يخشون ربَّهم بالغيب» بتعيين من يخشاه عزَّ وجلَّ من الناس بعد الإيماء إلى بيان[٦] شرف الخشية، ورداءة ضدِّها، وتوعُّد المتَّصفين به، وتقرير قدرته عزَّ وجلَّ المستدعي للخشية، على ما نقول. أو بعد بيان اختلاف طبقات الناس، وتباين مراتبهم؛ أمَّا في الأوصاف المعنوية فبطريق التمثيل، وأمَّا في الأوصاف الصوريَّة فبطريق التصريح؛ توفيةً لكلٍّ واحدةٍ منهما حقَّها اللائقَ بها من البيان.

وقيل: «كذلك» في موضع رفعِ خبرِ مبتدأ محذوفٍ، أي: الأمر كذلك، أي:

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ١٥١.

(٢) البحر ٧/ ٣١١.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٠٠، والبحر المحيط ٧/ ٣١٢.

(٤) هي قراءة أيوب السختياني كما في القراءات الشاذة ص ١، والمحتسب ١/ ٤٦.

(٥) المحتسب ٢/ ٢٠٠، والبحر المحيط ٧/ ٣١٢.

(٦) لفظة: بيان. ليست في الأصل.

كما بُيِّن ولُخِّص، ثم قيل: «إنَّما يخشَى الله» إلخ، وسلك به مسلكَ الكناية من باب: العرب لا تخفر الذمم[١]؛ دلالةً على أنَّ العلم يقتضي الخشية ويناسبُها، وهو تخلُّصٌ إلى ذكر أوليائه تعالى، مع إفادةِ أنَّهم الذين نفعَ فيهم الإنذار، وأنَّ لك بهم غنيةً عن هؤلاء المصرِّين.

قال صاحب «الكشف»: والرفعُ أظهر ليكون من فصل الخطاب.

وقال ابن عطية[٢]: يحتملُ أن يكون «كذلك» متعلِّقاً بما بعده، خارجاً مخرجَ السبب، أي: كذلك الاعتبارِ والنظر في مخلوقات الله تعالى واختلاف ألوانها يخشَى اللهَ العلماءُ.

وردَّه السمينُ بأنَّ «إنَّما» لا يعملُ ما بعدَها فيما قبلها، وبأنَّ الوقفَ على «كذلك» عند أهل الأداء جميعاً[٣]. وارتضاه الخفاجيُّ وقال: وبه ظهر ضعفُ ما قيل: إنَّ المعنى: الأمرُ كذلك، أي: كما بُيِّنَ ولُخِّص، على أنه تخلُّصٌ لذكر أولياء الله تعالى[٤].

وفيه أنَّه ليس في هذا المعنى عملُ ما بعدَ «إنَّما» فيما قبلها، وإجماعُ أهلِ الأداء على الوقف على «كذلك» ـ إن سُلِّم ـ لا يظهرُ به ضعفُ ذلك، وفي بعض التفاسير المأثورة عن السلف ما يُشعرُ بتعلُّق «كذلك» بما بعده؛ أخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال في الآية: كما اختلفت هذه الأنعام تختلفُ الناس في خشية الله تعالى كذلك[٥].

وهذا عندي ضعيفٌ، والأظهر ما عليه الجمهور، وما قيلَ أدقُّ وألطف.

والمراد بالعلماء: العالمون بالله عزَّ وجلَّ وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الحميدة وسائر شؤونه الجميلة، لا العارفون بالنحو والصرف مثلاً، فمدار

(١) ينظر شرح ذلك في الكشاف ٣/ ٤٦٢-٤٦٣.
(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٧.
(٣) أي: وقف تامٌّ. الدر المصون ٩/ ٢٣١.
(٤) حاشية الشهاب ٧/ ٢٢٤-٢٢٥.
(٥) الدر المنثور ٥/ ٢٤٩.

الخشية ذلك العلم لا هذه المعرفة، فكلُّ من كان أعلم به تعالى كان أخشى.

روى الدارميُّ عن عطاء قال: قال موسى عليه السلام: يا ربّ، أيُّ عبادك أحكم؟ قال: الذي يحكمُ للناس كما يحكم لنفسه. قال: يا ربّ، أيُّ عبادِك أغنى؟ قال: أرضاهم بما قسمتُ له. قال: يا ربّ، أيُّ عبادك أخشى؟ قال: أعلمهم بي[1].

وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: «أنا أخشاكم لله وأتقاكم له»[2].

ولكونه المدار ذُكِرت الخشيةُ بعدَ ما يدلُّ على كمال القدرة، ولهذه المناسبة فسَّر ابن عباس ـ كما أخرج عنه ابن المنذر وابن جرير ـ «العلماء» في الآية بالذين يعلمون أنَّ الله تعالى على كلِّ شيءٍ قدير[3].

وتقديمُ المفعول؛ لأنَّ المقصودَ بيانُ الخاشين، والإخبارُ بأنَّهم العلماءُ خاصَّةً دون غيرهم، ولو أخَّرَ لكان المقصودُ بيانَ المخشيِّ، والإخبارَ بأنَّه الله تعالى دونَ غيره، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] والمقامُ لا يقتضيه، بل يقتضي الأوَّلَ؛ ليكونَ تعريضاً بالمنذَرين المصرِّين على الكفر والعناد، وأنهم جهلاءُ بالله تعالى وبصفاته، ولذلك لا يخشونَ الله تعالى ولا يخافون عقابَه.

وأنكر بعضهم إفادة «إنما» هنا للحصر. وليس بشيء.

ورُوي عن عمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة رضي الله عنهما أنَّهما قرأا: «إنما يخشى اللهُ» بالرفع «العلماءَ» بالنصب[4]، وطعنَ صاحب «النشر» في هذه القراءة[5]، وقال أبو حيان: لعلها لا تصحُّ عنهما، وقد رأينا كتباً في الشواذِّ، ولم يذكروا هذه

---

(١) سنن الدارمي (٣٦٢).

(٢) أورده بهذا اللفظ البغوي في تفسيره ٣/ ٤٠٧، وأبو السعود في تفسيره ٧/ ١٥١. وأخرج البخاري في صحيحه (٢٠) من حديث عائشة قوله ﷺ: «إنَّ أتقاكم وأعلمَكم بالله أنا». وبرقم (٦١٠١) و(٧٣٠١) عن عائشة أيضاً بلفظ: «فوالله إنِّي لأعلمُهم بالله وأشدُّهم له خشية».
وأخرج مسلم في صحيحه (١١١٠) من حديث عائشة أيضاً: «والله إنِّي لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلم بما أتَّقي».

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٥٠، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٣٦٤.

(٤) الكشاف ٣/ ٣٠٨، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٧٧، والبحر المحيط ٧/ ٣١٢.

(٥) النشر ١/ ١٦.

القراءة، وإنَّما ذكرها الزمخشريُّ، وذكرها عن أبي حيوة أبو القاسم يوسف بن علي بن جبارة[١] في كتابه «الكامل»[٢].

وخُرِّجت على أنَّ الخشيةَ مجازٌ عن التعظيم بعلاقة اللزوم، فإنَّ المعظَّم يكون مهيباً.

وقيل: الخشيةُ تَرِد بمعنى الاختيار، كقوله:

خشيت بني عمِّي فلم أرَ مثلهم[٣]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ تعليلٌ لوجوب الخشية؛ لأنَّ العزَّة دالَّةٌ على كمال القدرة على الانتقام، ولا يوصَفُ بالمغفرة والرحمة إلَّا القادرُ على العقوبة.

وقيل: ذكر «غفور» من باب التكميل نظير ما في بيت الغنوي المذكورِ آنفاً[٤].

والآية ـ على ما في بعض الآثار ـ نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد ظهرت عليه الخشيةُ حتى عُرِفت فيه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي: يداومون على قراءته، حتى صارت سمةً لهم وعنواناً، كما يُشعرُ به صيغةُ المضارع ووقوعُه صلةً واختلافُ الفعلين.

والمراد بـ «كتاب الله» القرآن، فقد قال مطرف بن عبد الله بن الشِّخير: هذه آية القُرَّاء. وأخرج عبد الغني بن سعيد الثقفي في «تفسيره» عن ابن عباس أنَّها نزلت في حصين بن الحارث بن عبد المطلب القرشيّ[٥].

ثم إنَّ العبرةَ بعموم اللفظ، فلذا قال السُّدّيُّ في التَّالِين: هم أصحابُ رسول الله ﷺ. وقال عطاء: هم المؤمنون. أي: عامَّة، وهو الأرجح، ويدخلُ الأصحابُ دخولاً أوَّلياً.

---

(١) في (م): جنادة. وهو خطأ. وهو الهذلي المتوفى سنة (٤٦٥ هـ). له ترجمة مطولة في غاية النهاية ٢/ ٣٩٧-٤٠١.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣١٢.

(٣) أورده الخفاجي في حاشيته ٧/ ٢٢٥ دون نسبة.

(٤) ص٢٠١ من هذا الجزء.

(٥) الدر المنثور ٥/ ٢٥١، ولباب النقول ص ١٨١. والصواب كما في الإصابة ٢/ ٢٥٥، والاستيعاب ٣/ ٣٤ (بهامش الإصابة): حصين بن الحارث بن المطلب. والله أعلم.

وقيل: معنى «يتلون كتاب الله»: يتَّبعونَه، فيعملونَ بما فيه. وكأنَّه جعلَ «يتلو» من تلاه إذا تبِعَه، أو حملَ التلاوةَ المعروفة على العمل؛ لأنَّها ليس فيها كثيرُ نفعٍ دونه، وقد ورد: ربَّ قارئٍ للقرآن والقرآنُ يلعنه[1].

ويشعرُ كلامُ بعضهم باختيار المعنى المتبادر، حيث قال: إنَّه تعالى لمَّا ذكرَ الخشية، وهي عمل القلب، ذكرَ بعدها عملَ اللسان والجوارح والعبادةَ الماليَّة.

وجُوِّزَ أنْ يُرَاد بكتاب الله تعالى جنسُ كتبه عزَّ وجلَّ الصادقُ على التوراة والإنجيل وغيرهما، فيكونُ ثناءً على المصدِّقين من الأمم بعد اقتصاص حال المكذِّبين بقوله تعالى: «وإن يكذبوك» إلخ، والمضارعُ لحكاية الحال الماضية، والمقصودُ من الثناء عليهم وبيانِ ما لهم حثُّ هذه الأمة على اتِّباعهم، وأنْ يفعلُوا نحوَ ما فعلوا.

والوجهُ الأوَّل أَوْجَهُ كما لا يخفى، وعليه الجمهور.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: مسرِّين ومعلنين، أو: في سرٍّ وعلانية، والمراد: ينفقون كيفما اتفق، من غير قصدٍ إليهما.

وقيل: السرُّ في الإنفاق المَسْنُون، والعلانيةُ في الإنفاق المفروض.

وفي كون الإنفاق ممَّا رُزقوا إشارةٌ إلى أنَّهم لم يسرفوا، ولم يبسطوا أيديَهم كلَّ البسط، ومقامُ التمدُّح مشعرٌ بأنَّهم تحرَّوا الحلالَ الطيِّبَ. وقيل: جيء بـ «من» لذلك.

والمعتزلة يخصُّون الرزقَ بالحلال، وهو أنسبُ بإسناد الفعلِ إلى ضمير العظمة، ومن لا يخصُّه بالحلال يقول: هو للتعظيم والحثِّ على الإنفاق.

﴿يَرْجُونَ﴾ بما أتوا من الطاعات ﴿تِجَٰرَةً﴾ أي: معاملةً مع الله تعالى لنيل ربح الثواب، على أنَّ التجارةَ مجازٌ عمَّا ذُكر والقرينة حاليَّةٌ، كما قال بعض الأجلَّة.

---

(١) أورده الغزالي في الإحياء ١/ ٢٧٤ من قول أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: لن تكسُد، وقيل: لن تهلِك بالخسران، صفةُ «تجارة»، وترشيحٌ للمجاز. وجملة «يرجون» إلخ ـ على ما قال الفراء وأبو البقاء ـ خبرُ «إنَّ»(١).

وفي إخباره تعالى عنهم بذلك إشارةٌ إلى أنَّهم لا يقطعون بنَفاق تجارتهم، بل يأتون ما أتوا من الطاعات وقلوبهم وجلةٌ أنْ لا يقبلَ منهم.

وجَعَل بعضُهم التجارة مجازاً عن تحصيل الثواب بالطاعة، وأمر الترشيح على حاله، وإليه ذهب أبو السعود، ثم قال: والإخبار برجائهم من أكرم الأكرمين عِدَةٌ قطعيَّةٌ بحصولِ مرجوِّهم(٢).

وظاهر ما رُوي عن قتادة من تفسيره التجارةَ بالجنَّة: أنَّها مجازٌ عن الربح، وفَسَّر «لن تبور» بـ: لن تبيد، وهو كما ترى.

وقوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ متعلِّقٌ عند بعضٍ بما دلَّ عليه «لن» تعلُّقَ «بنعمة ربك» في قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢] بما دلَّ عليه «ما»، لا بالحرف، إذ لا يتعلَّقُ الجارُّ به على المشهور، أي: ينتفي الكساد عنها، وتنفق عند الله تعالى؛ ليوفيهم أجورَ أعمالهم ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ على ذلك من خزائن رحمته ما يشاء، وعن أبي وائل: زيادتُه تعالى إيَّاهم بتشفيعهم فيمن أحسنَ إليهم. وقال الضحَّاك: بتفسيح القلوب. وفي الحديث: بتضعيفِ حسناتهم(٣)، وقيل: بالنظرِ إلى وجهه تعالى الكريم.

والظاهر أنَّ «من فضله» راجعٌ لما عنده، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ توفيته(٤) أجورَهم

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٩، وإملاء ما من به الرحمن ٢/ ٢٠١.

(٢) تفسير أبي السعود ٧/ ١٥٢.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣١٣، وكذا ذكر ذلك الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٧٢، وقال: وهو مأثور. ولعلَّه يريد بذلك ما أخرجه الترمذي(٢٩١٠)، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرف، بل ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٤) في (م): توفية.

كالواجب؛ لكونه جزاءً لهم بوعده سبحانه، ويجوزُ أنْ يكون راجعاً إليهما.

أو متعلِّقٌ بمقدَّرٍ يدلُّ عليه ما قبله، وهو ما عَدَّ من أفعالهم المرضيَّة، أي: فعلوا ذلك ليوفيهم أجورهم.. إلخ. وجُوِّزَ تعلُّقُه بما قبلَه على التنازع، وصنيعُ أبي البقاء[1] يشعرُ باختيار تعلُّقه بـ «يرجون»، وجَعَلَ اللام عليه لام الصيرورة.

وتُعُقِّبَ بأنَّه لا مانعَ من جعلها لام العلة، كما هو الشائع الكثير، ولا يظهرُ للعدول عنه وجه.

ووَجَّه ذلك الطيبيُّ بأنَّ غَرَضهُم فيما فعلوا لم يكن سوى تجارةٍ غيرِ كاسدة؛ لأنَّ صلة الموصول هنا علَّةٌ وإيذانٌ بتحقُّق الخبر، ولمَّا أدى ذلك إلى أنْ وفَّاهم الله تعالى أجورَهم أتى باللام، وإنَّما لم يذهب إليه بعضُ الأجلَّة، كالزمخشريِّ؛ لأنَّ هذه اللام لا توجدُ إلَّا فيما يترتَّب الثاني ـ الذي هو مدخولها ـ على الأول، ولا يكون مطلوباً، نحو قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ تعليلٌ لما قبلَه من التوفية والزيادة عند الكثير، أي: غفورٌ لفَرَطات المطيعين، شكورٌ لطاعاتهم، أي: مجازيهم عليها أكملَ الجزاء، فيوفِّي هؤلاءِ أجورَهم، ويزيدهم من فضله.

وجُوِّزَ أنْ يكون خبراً بعد خبر، والعائد محذوفٌ، أي: لهم.

وجُوِّزَ أن يكون هو الخبر بتقدير العائد، وجملة «يرجون» حالٌ من ضمير «أنفقوا» بناءً على أنَّ القيدَ المتعقِّب لأمورٍ متعددة يختصُّ بالأخير، كما هو مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه، أو على أنَّ رجاءَ التجارة النافقة أوفقُ بالإنفاق، أو من مقدَّرٍ، أي: فعلوا جميعَ ذلك راجين، واستظهره الطيبيُّ، والجملةُ عليه معترضةٌ، فلا يَرِدُ أنَّ فيه الفصلَ بين المبتدأ وخبره بأجنبيٍّ.

وجُوِّزَ أن يكون حالاً من ضمير «الذين» على سبيل التنازع، ولم يشتهر التنازعُ في الحال. وأنا لا أرى فيه بأساً.

---

(١) في الإملاء ٤/ ٢٢٠.

واستظهرَ بعض المعاصرين جعلَ الجملة المذكورة حالاً من ضمير «أنفقوا»؛ لقربه وشدَّة الملاءمة بين الإنفاق ورجاء تجارة لها نَفَاق، ولا يبعدُ أنْ يكون قد حذف فيما تقدَّم نظيرها لدلالتها عليه، وجَعَلَ «ليوفيهم» متنازعاً فيه للأفعال الثلاثة المتعاطفة، أو جعلَ الجملة حالاً من مقدَّرٍ كما سمعت آنفاً، و«ليوفيهم» متعلِّقاً بـ «يرجون»، وجملة «إنه غفور شكور» خبرُ المبتدأ، والرابطُ محذوف، وفي جملة «يرجون» إلخ احتمالُ الاستعارة التمثيلية، ولو على بُعْدٍ. ولم أرَ من أشارَ إليه، فتدبَّر.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهو القرآن، و«من» للتبيين، إذ القرآن أخصُّ من «الذي أوحينا» مفهوماً وإن اتحدَا ذاتاً. أو جنسُ الكتاب، و«من» للتبعيض، إذ المراد من «الذي أوحينا» هو القرآن، وهو بعض جنس الكتاب. وقيل: هو اللوح، و«من» للابتداء.

﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ إذا كان المراد الحصر، فهو من قَصْرِ المسندِ إليه على المسند لا العكس؛ لعدم استقامة المعنى إلا أنْ يقصد المبالغة، قاله الخفاجيُّ[1].

والمتبادر الشائع في أمثاله قصرُ المسند على المسند إليه، وهو هاهنا ـ إن لم تقصد المبالغة ـ قصرٌ إضافيٌّ بالنسبة إلى ما يفتريه أهلُ الكتاب وينسبونَه إلى الله تعالى.

﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾ أي: لِمَا تقدَّمه من الكتب السماويَّة، ونصب «مصدقاً» على الحالية، والعامل فيه مقدَّرٌ يُفهم من مضمون الجملة قبله، أي: أحقِّقُه مصدِّقاً، وهو حال مؤكِّدَةٌ؛ لأنَّ حقِّيَّته تستلزمُ موافقتَه للكتب الإلهيَّة المتقدِّمةِ عليه بالزمان في العقائد وأصول الأحكام، واللام للتقوية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١﴾ محيطٌ ببواطن أمورهم وظواهرها، فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوَّة لم يوحِ إليك مثلَ هذا الحقِّ المعجز الذي هو عيار[2]

---

(١) في حاشيته ٧/٢٢٦.

(٢) مصدر عايَرْتُ المكاييلَ والموازين: إذا قايَسْتَها بغيرها ليعلم صحتها، وهو مجاز مرسل يعلم =

على سائر الكتب. وتقديم «الخبير» للتنبيه على أنَّ العمدةَ هي الأمور الروحانيَّة، وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله: «إنَّ الله لا ينظرُ إلى أعمالكم، وإنَّما ينظرُ إلى قلوبكم»[1].

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن، كما عليه الجمهور، والعطف ـ قيل ـ على «الذي أوحينا»، وقيل: على «أوحينا» بإقامة الظاهر مقام الضمير العائد على الموصول، واستُظهِر ذلك بالقرب وتوافق الجملتين، أي: ثم أعطيناه من غير كدٍّ وتعبٍ في طلبه ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم ـ كما قال ابن عباس وغيره ـ أمَّةُ محمد ﷺ، فإنَّ الله تعالى اصطفاهم على سائر الأمم، وجعلهم أُمَّةً وسطاً؛ ليكونوا شهداءَ على الناس، وخصَّهم بالانتماء إلى أكرم رسله وأفضلهم عليهم الصلاة والسلام.

و«ثمَّ» للتراخي الرتبيّ، فإنَّ إيحاءَ الكتاب إليه ﷺ أشرفُ من الإيراث المذكور، فإنَّه[2] كالعلَّة له، وبه تحقَّقت نبوَّته عليه الصلاة والسلام التي هي منبعُ كلِّ خيرٍ، وليست للتراخي الزمانيّ، إذ زمانُ إيحائه إليه عليه الصلاة والسلام هو زمانُ إيراثه، وإعطاؤه أمَّتَه بمعنى تخصيصه بهم، وجعلِه كتابَهم الذي إليه يرجعون، وبالعمل بما فيه ينتفعون.

وإذا أُريد بإيراثه إيَّاهم إيراثُه منه ﷺ، وجعلُهم منتفعين به، فاهمين ما فيه بالذات كالعلماء، أو بالواسطة كغيرهم بعدَه عليه الصلاة والسلام؛ فهي للتراخي الزمانيّ، والتعبيرُ عن ذلك بالماضي لتحقُّقه.

= به صحة غيره منها، فما وافقه فهو صحيح من عند الله، وما خالفه فليس منه، بل هو محرَّف مبدل. حاشية الشهاب ٧/ ٢٢٦.

(١) لم أقف عليه بهذا السياق. والذي أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٦٤): (٣٣) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم».
وأخرجه مسلم أيضاً برقم (٢٥٦٤): (٣٤) بلفظ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

(٢) في (م): كأنه.

وجُوِّزَ أن يكون معنى «أَوْرَثْنا الكتاب»: حَكَمْنا بإيراثه وقدَّرناه، على أنَّه مجازٌ، من إطلاق السبب على المسبَّب، فتكون «ثمَّ» للتراخي الرُّتْبيِّ، وإلَّا فزمانُ الحكم سابقٌ على زمان الإيحاء، ووجه التعبير بالماضي عليه ظاهر.

وفي «شرح الرضي» أنَّ «ثمَّ» قد تجيء في عطف الجمل خاصَّةً؛ لاستبعاد مضمون ما بعدها عن مضمون ما قبلَها وعدم مناسبته له، كما في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣] فإنَّ بين توبة العباد وهي انقطاعُ العبد إليه تعالى بالكليَّة وبينَ طلب المغفرة بَوناً بعيداً، وهذا المعنى فرعُ التراخي ومجازه. اهـ.

وابن الشيخ جعل ما هنا كما في هذه الآية، وجَوَّزَ أنْ يكون «ثم أورثنا» إلخ متَّصلاً بما سبق من قوله تعالى: (إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) والمراد: ثمَّ أورثنا الكتاب من الأمم السالفة، وأعطيناه بعدهم الذين اصطفيناهم من الأمَّة المحمديَّة، و«الكتاب» القرآن، كما قيل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦].

وقيل: لا يحتاج إلى اعتبار ذلك، ويجعل المعنى: ثمَّ أخَّرنا القرآن عن الأمم السالفة، وأعطيناه هذه الأمَّة، ووجه النظم أنَّه تعالى قدَّم إرساله في كلِّ أمَّةٍ رسولاً، وعقَّبه بما ينبئ أنَّ تلك الأمم تفرَّقت حزبين، حزب كذَّبوا الرسل وما أُنزِلَ معهم، وهم المشارُ إليهم بقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥] وحِزْبٌ صدَّقوهم، وتَلَوا كتابَ الله تعالى، وعملوا بمقتضاه، وهم المشارُ إليهم بقوله سبحانه: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ) إلخ، وبعد أنْ أثنى سبحانه على التَّالِين لكتبه، العاملين بشرائعه من بين المكذِّبين بها من سائر الأمم، جاء بما يختصُّ برسوله ﷺ من قوله سبحانه: (وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ) إلخ استطراداً معترضاً، ثم أخبر سبحانه بإيراثه هذا الكتاب الكريم هذه الأمَّةَ بعد إعطاء تلك الأمم الزُّبُر والكتابَ المنير، وعلى هذا يكون المضيُّ[1] في «أورثنا» على ظاهره، و«ثمَّ» للتراخي في الإخبار، أو للتراخي

(١) في (م): المعنى. وهو تصحيف.

في الرتبة إيذاناً بفضل هذا الكتاب على سائر الكتب، وفضلِ هذه الأمة على سائر الأمم، وفي هذا الوجه حَمْلُ الكتاب في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ اللَّهِ﴾ على الجنس، وجَعْلُ الآية ثناءً على الأمم المصدِّقين بعد اقتصاص حال المكذِّبين منهم، فإنْ دُفِع ما فيه فهو من الحسن بمكان.

وجُوِّزَ أن يكون عطفاً على ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ اللَّهِ﴾، وإذا كان إيراثُ الكتاب سابقاً على تلاوته، فالمُضيُّ[1] على ظاهره، و«ثم» للتفاوت الرتبيّ، أو للتراخي في الإخبار، و«الذي أوحينا» إلخ اعتراضٌ لبيان كيفيَّة الإيراث؛ لأنَّه إذا صدَّقها بمطابقته لها في العقائد والأصول كان كأنَّه هي، وكأنَّه انتقل إليهم ممن سلف، وهو كما ترى.

وجُوِّز على هذا وما قبله أنْ يُراد بالكتاب الجنس، ولا يخفى أنَّ إرادةَ القرآن هو الظاهر.

وقيل: المراد بالمصطفين علماءُ الأمَّة من الصحابة ومَنْ بعدهم ممَّن يسيرُ بسيرتهم، وإيراثُهم القرآن جعلُهم فاهمين معناه، واقفين على حقائقه ودقائقه، أمناءَ على أسراره.

وروى الإماميَّةُ عن الصادق والباقر عليهما السلام أنَّهما قالا: هي لنا خاصَّةً، وإيَّانا عنى، أرادا أنَّ أهلَ البيت أو الأئمة منهم هم المصطفون الذين أورثوا الكتاب، واختار هذا الطبرسيُّ الإماميُّ، قال في تفسيره «مجمع البيان»: وهذا أقرب الأقوال؛ لأنَّهم أحقُّ الناس بوصف الاصطفاء والاجتباء، وإيراث علم الأنبياء عليهم السلام[2].

وربما يستأنسُ له بقوله عليه الصلاة والسلام: «إني تاركٌ فيكم الثقلين؛ كتابَ الله تعالى، وعترتي، لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»[3].

وحملُهم على علماء الأمة أولى من هذا التخصيص، ويدخلُ فيهم علماءُ أهل

---

(١) في (م): فالمعنى، وهو تصحيف.
(٢) مجمع البيان ٢٢/ ٢٤٣.
(٣) سلف ٧/ ٣٢١ و٢١/ ٣٠٥.

البيت دخولاً أوَّلياً، ففي بيتهم نزلَ الكتاب، ولن يفترقا حتى يردا الحوض يومَ الحساب. وإذا كانت الإضافة في «عبادنا» للتشريف، واختصَّ «العباد» بمؤمني هذه الأمَّة، وكانت «من» للتبعيض، كان حملُ المصطفين على العلماء كالمُتَعَيِّن.

وعن الجبَّائيِّ أنَّهم الأنبياءُ عليهم السلام، اختارهم الله تعالى وحَبَاهم برسالته وكتبه، وعليه يكونُ تعريفُ «الكتاب» للجنس، والعطف على قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ و«ثم» للتراخي في الإخبار؛ أخبرَ سبحانه أوَّلاً عمَّا أوتيَه نبيُّنا ﷺ، وهو متضمِّنٌ للإخبار بإيتائه عليه الصلاة والسلام الكتابَ على أكمل وجهٍ، ثمَّ أخبر سبحانه بتوريثِ إخوانه الأنبياء عليهم السلام وإيتائهم الكتب.

وممَّا يَرِدُ عليه أنَّ إيتاءَ الأنبياء عليهم السلام الكتبَ قد عُلِم قبلُ من قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كُذِّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾.

وعن أبي مسلم أنَّهم المصطفونَ المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] وهو دون ما قبله.

وأيّاً ما كان، فالموصول مفعولٌ أول لـ «أورثنا»، و«الكتاب» مفعولٌ ثانٍ له، قُدِّمَ لشرفه والاعتناء به وعدم اللبس، و«من» للبيان أو للتبعيض.

﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ الفاء للتفصيل، لا للتعليل كما قيل، وضمير الجمع على ما سمعتَ أوّلاً في تفسير الموصول للموصول. والظالم لنفسه من قَصَّر في العمل بالكتاب، وأسرفَ على نفسه، وهو صادقٌ على من ظَلَم غيرَه؛ لأنَّه بذلك ظالمٌ لنفسه، والمشهور مقابلته بالظالم لغيره، واللام للتقوية.

﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ يتردَّدُ بين العمل به ومخالفته، فيعمل تارةً، ويخالفُ أخرى، وأصلُ معنى الاقتصاد التوسُّط في الأمر.

﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ﴾ متقدِّمٌ إلى ثواب الله تعالى وجنَّته(١) ﴿بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي: بسبب الخيرات، أي: الأعمال الصالحة. وقيل: سابقٌ على الظالم لنفسه والمقتصدِ في الدرجات بسبب الخيرات. وقيل: أي: محرزٌ الفضلَ بسببها.

---

(١) قوله: وجنته. ليس في الأصل.

﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: بتيسيره تعالى وتوفيقه عزَّ وجلَّ، وفيه تنبيهٌ على عِزَّةِ منال هذه الرتبة وصعوبة مأخذها، وفُسِّر بمن غلبت طاعتُه معاصيَه، وكَثُر عملُه بكتاب الله تعالى.

وما ذُكر في تفسير الثلاثة ممَّا يشير إليه كلام الحسن، فقد رُوي عنه أنَّه قال: الظالمُ من خَفَّت حسناتُه، والمقتصدُ من استوت، والسابق من رجحت.

ووراء ذلك أقوالٌ كثيرةٌ، فقال معاذ: الظالمُ لنفسه الذي ماتَ على كبيرةٍ لم يَتُب منها، والمقتصدُ من مات على صغيرةٍ ولم يصب كبيرةً لم يتب منها، والسابق من مات تائباً من كبيرةٍ أو صغيرة، أو لم يصب ذلك.

وقيل: الظالمُ لنفسه العاصي المسرف، والمقتصدُ مُتَّقي الكبائر، والسابقُ المتَّقي على الإطلاق.

وقيل: الأوَّلُ المقصِّر في العمل، والثاني العاملُ بالكتاب في أغلب الأوقات، ولم يَخْلُ عن تخليط، والثالث السابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار.

وقيل: الأوَّلان كما ذكر، والثالث المداومُ على إقامة مواجب الكتاب علماً وعملاً وتعليماً.

وقيل: الأول مَن أسلم بعد الفتح، والثاني من أسلم قبله، والثالث من أسلم قبل الهجرة.

وقيل: هم من لا يبالي من أين ينال، ومَن قُوْتُه من الحلال، ومَن يكتفي من الدنيا بالبلاغ.

وقيل: من همُّه الدنيا، ومن همُّه العقبى، ومن همُّه المولى.

وقيل: طالبُ النجاة، وطالبُ الدرجات، وطالب المناجاة.

وقيل: تاركُ الزَّلَّة، وتارك الغفلَة، وتارك العلاقة.

وقيل: من شغلَه معاشُه عن معاده، ومن شُغْلُه بهما، ومن شغلَه معادُه عن معاشه.

وقيل: من يأتي بالفرائض خوفاً من النار، ومن يأتي بها خوفاً منها ورضًى واحتساباً، ومن يأتي بها رضًى واحتساباً فقط.

وقيل: الغافلُ عن الوقت والجماعة، والمحافظ على الوقت دون الجماعة، والمحافظ عليهما.

وقيل: من غلبت شهوتُه عقلَه، ومن تساويا، ومن غلبَ عقلُه شهوته.

وقيل: من لا ينهى عن المنكر ويأتيه، ومن ينهى عن المنكر ويأتيه، ومن يأمر بالمعروف ويأتيه.

وقيل: ذو الجور، وذو العدل، وذو الفضل.

وقيل: ساكنُ البادية، والحاضرة، والمجاهد.

وقيل: من كان ظاهره خيراً من باطنه، ومن استوى باطنه وظاهره، ومن باطنُه خيرٌ من ظاهره.

وقيل: التالي للقرآن غير العالم به ولا العامل بموجبه، والتالي العالمُ غيرُ العامل، والتالي العالم العامل.

وقيل: الجاهل، والمتعلِّم، والعالم.

وقيل: من خالفَ الأوامر وارتكبَ المناهي، ومن اجتهدَ في أداء التكاليف وإن لم يوفَّق لذلك، ومن لم يخالِف تكاليفَ الله تعالى.

ورَوى بعضُ الإماميَّة عن ميسر بن عبد العزيز عن جعفر الصادق ﵁: الظالمُ لنفسه منَّا مَنْ لا يعرفُ حقَّ الإمام، والمقتصدُ العارفُ بحقِّ الإمام، والسابق هو الإمام.

وعن زياد بن المنذر عن أبي جعفرٍ ﵁: الظالمُ لنفسه منَّا من عملَ صالحاً وآخرَ سيِّئاً، والمقتصدُ المتعبِّدُ المجتهدُ، والسابقُ بالخيرات عليٌّ والحسن والحسين ﵄، ومن قُتِل من آل محمد شهيداً.

وقيل: هم الموحِّدُ بلسانه الذي تخالفُه جوارحُه، والموحِّدُ الذي يمنعُ جوارحه بالتكليف، والموحِّدُ الذي ينسيه التوحيدُ غيرَ التوحيد.

وقيل: من يدخلُ الجنَّة بالشفاعة، ومن يدخلُها بفضل الله تعالى، ومن يدخلها بغير حساب.

وقيل: من أوتي كتابَه من وراء ظهره، ومن أوتيَ كتابه بشماله، ومن أوتي كتابه بيمينه.

وقيل: الكافر مطلقاً، والفاسقُ، والمؤمنُ التقيُّ. وفي معناه ما جاءَ في رواية عن ابن عباس وقتادة وعكرمة: الظالمُ لنفسه أصحابُ المشأمة، والمقتصدُ أصحاب الميمنة، والسابق بالخيرات السابقون المقربون.

والظاهر أن هؤلاء ومن قال نحوَ قولهم يجعلون ضمير «منهم» للعباد، لا للموصول، ولا شكَّ أنَّ منهم الكافر وغيره. وكون العباد المضاف إلى الله تعالى مخصوصاً بالمؤمنين ليس بمطَّرد، وإنَّما يكون كذلك إذا قصد بالإضافة التشريف. والقولُ برجوع الضمير للموصول، والتزامُ كون الاصطفاء بحسب الفطرة = تعسُّفٌ كما لا يخفى.

وقيل في تفسير الثلاثة غير ما ذكر، وذكرَ في «التحرير» ثلاثةً وأربعين قولاً في ذلك، ومن تتبَّع التفاسيرَ وجدها أكثرَ من ذلك، لكن لا يجدُ في أكثرها كثيرَ تفاوت، والذي يعضدُه معظمُ الروايات والآثار أنَّ الأصناف الثلاثة من أهل الجنة، فلا ينبغي أنْ يُلتفتَ إلى تفسير الظالم بالكافر إلَّا بتأويل كافرِ النعمة، وإرادة العاصي منه.

أخرج الإمام أحمد والطيالسيُّ وعبدُ بن حميد وابنُ جرير وابنُ المنذر وابن أبي حاتم وابنُ مردويه والبيهقيُّ والترمذيُّ وحسَّنه عن أبي سعيد الخدريِّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى ﴿بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾: «هؤلاء كلُّهم بمنزلةٍ واحدةٍ، وكلُّهم في الجنَّة»(١)، وقوله عليه الصلاة والسلام: «وكلهم» إلخ عطفٌ تفسيريٌّ.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٥١، وأحمد (١١٧٤٥)، والطيالسي (٢٣٥٠)، والطبري في تفسيره ١٩/ ٣٧٦، والبيهقي في البعث (٦١)، والترمذي في سننه (٣٢٢٥).

=

وأخرج الطبرانيُّ وابن مردويه[١] في «البعث» عن أسامة بن زيد أنَّه قال في الآية: قال رسول الله ﷺ: «كلُّهم من هذه الأمَّة، وكلُّهم في الجنة»[٢].

وأخرج ابنُ النجار عن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «سابقُنا سابق، ومقتصدنا ناجٍ، وظالمنا مغفورٌ له»[٣].

وأخرج العقيليُّ وابن مردويه والبيهقيُّ عن عمر بن الخطاب مرفوعاً نحوه[٤].

وأخرج الإمامُ أحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانيُّ والحاكم وابنُ مردويه والبيهقيُّ عن أبي الدرداء قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، فأمَّا الذين سبقوا فأولئك يدخلونَ الجنَّة بغير حساب، وأمَّا الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبونَ حساباً يسيراً، وأمَّا الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسونَ في طول المحشر، ثمَّ هم الذين يتلقَّاهم الله تعالى برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ

= قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. اهـ.
وفي إسناده مبهمان؛ رجلٌ من ثقيف عن رجل من كنانة، فهو ضعيف.

(١) كذا في الأصل و(م). والصواب ـ كما في الدر المنثور ٥/ ٢٥١، وعنه نقل المصنف ـ: البيهقي.

(٢) الطبراني في الكبير (٤١٠)، والبيهقي في البعث (٦٣) و(٦٤).

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٥٢.

(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٥٢، وهو عند العقيلي في الضعفاء ٣/ ٤٤٣، والواحدي في الوسيط ٣/ ٥٠٥، والبغوي في تفسيره ٣/ ٥٧١ من طريق الفضل بن عميرة عن ميمون بن سياه عن أبي عثمان النهدي عن عمر مرفوعاً. والفضل بن عميرة ضعيف. قال البغوي بعد ذكره: قال أبو قلابة: فحدثت به يحيى بن معين فجعل يتعجَّب منه. وأخرجه البيهقي في البعث (٦٥) من طريق ميمون بن سياه عن عمر ﷺ به. قال البيهقي: فيه إرسال بين ميمون بن سياه وبين عمر ﷺ. وأخرجه سعيد بن منصور (٢٣٠٨) عن عمر موقوفاً. وانظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٣٩.

إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾» الآية [فاطر: ٣٤]. قال البيهقيُّ: إذا كثرت الروايات في حديثٍ ظهر أنَّ للحديث أصلاً[١].

والأخبار في هذا الباب كثيرة، وفيما ذكر كفاية.

وقُدِّمَ الظالم لنفسه لكثرة الظالمين لأنفسهم، وعُقِّبَ بالمقتصد لقلَّة المقتصدين بالنسبة إليهم، وأُخِّر السابقُ؛ لأنَّ السابقين أقلُّ من القليل؛ قاله الزمخشريُّ[٢].

وحكى الطبرسيُّ أنَّ هذا الترتيبَ على مقامات الناس، فإنَّ أحوال العباد ثلاث: معصيةٌ، ثم توبةٌ، ثم قربةٌ، فإذا عصى العبد فهو ظالم، فإذا تاب فهو مقتصد، فإذا صحَّت توبتُه وكثرت مجاهدتُه فهو سابق[٣].

وقيل: قُدِّمَ الظالمُ لئلَّا ييأس من رحمة الله تعالى، وأُخِّر السابق لئلَّا يعجب بعمله، فتعيَّنَ توسيطُ المقتصد.

وقال قطب الدين: النكتةُ في تقديم الظالم أنَّه أقربُ الثلاثة إلى بداية حال العبد قبل اصطفائه بإيراث الكتاب، فإذا باشره الاصطفاء فمن العباد من يتأثَّر قليلاً وهو الظالم لنفسه، ومنهم من يتأثَّر وسطاً وهو المقتصد، ومنهم من يتأثَّر تأثُّراً تامًّا وهو السابق.

وقريبٌ منه ما قيل: إنَّ الاصطفاء مشكَّكٌ تتفاوت مراتبه، وأوَّلها ما يكون للمؤمن الظالم لنفسه، وفوقه ما يكونُ للمقتصد، وفوق الفوق ما يكون للسابق بالخيرات، فجاء الترتيبُ كالترقِّي في المراتب.

وقيل: أُخِّر السابقُ لتعدُّد ما يتعلَّق به، فلو قُدِّم أو وسِّطَ لبَعُد في الجملة ما بين الأقسام المتعاطفة، ولمَّا كان الاقتصادُ كالنسبة بين الظلم والسبق اقتضى ذلك تقديمَ الظالم وتأخير المقتصد؛ ليكون المقتصدُ بين الظالم والسابق لفظاً، كما هو بينهما معنى.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٥١، وأحمد (٢١٦٩٧) و(٢٧٥٠٥)، والطبري ١٩/ ٣٧٥، والحاكم ٢/ ٤٢٦، والبيهقي في البعث (٦٢). وهو ضعيف، وانظر تتمة الكلام عليه في مسند الإمام أحمد.

(٢) في الكشاف ٣/ ٣٠٩.

(٣) مجمع البيان ٢٢/ ٢٤٥.

وقد يقال: رتبت هذه الثلاثة هذا الترتيب ليوافق حالُهم في الذكر بالنسبة إلى ما وعدوا به من الجنات في قوله سبحانه: «جنات عدن» الآية حالَهم في الحشر عند تحقُّق الوعد، فأخّر السابق الداخل في الجنان أوّلاً ليتَّصل ذكره بذكر الجنات الموعودِ بها، وذكرَ قبلَه المقتصد، وجعل السابق فاصلاً بينه وبين الجنات؛ لأنَّه إنَّما يدخلُها بعدَه، فيكون فاصلاً بينه وبينها في الدخول، وذكرَ قبلهما الظالم لنفسه؛ لأنَّه إنما يدخلُها ويتَّصل بها بعدَ دخولهما، فتأخير السابق في المعنى تقديم، وتقديمُ الظالم في المعنى تأخير.

ويحتملُ ذلك أوجهاً أخرى تظهر بالتأمُّل، فتأمَّل.

وقرأ أبو عمران الجونيّ، وعمر بن أبي شجاع، ويعقوب في رواية، والقزَّاز عن أبي عمرو: «سبَّاق» بصيغة المبالغة[١].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما تقدَّم مِن الإيراث والاصطفاء ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ من الله عزَّ وجلَّ، لا دخل للكسب فيه.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ مبتدأ خبره قولُه تعالى: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ ويؤيِّده قراءة الجحدريِّ وهارون عن عاصم: «جناتِ» بالنصب على الاشتغال[٢]، أي: يدخلون جنات عدن يدخلونَها، واحتمال جرِّه بدلاً من الخيرات بعيدٌ، وفيه الفصل بين البدل والمبدل منه بأجنبيٍّ، فلا يلتفتُ إليه.

وضمير الجمع للذين اصطفينا، أو للثلاثة.

وقال الزمخشريُّ[٣]: «ذلك» إشارةٌ إلى السبق بالخيرات، و«جنات عدن» بدلٌ من «الفضل» الذي هو السبق، ولمَّا كان السبقُ بالخيرات سبباً لنيل الثواب جُعِلَ نفسَ الثواب؛ إقامةً للسبب مقام المسبَّب، ثمَّ أُبدِل منه. وضمير الجمع للسابق؛ لأنَّ القصدَ إلى الجنس.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣١٣، وهي في القراءات الشاذة ص ١٢٤ عن أبي عمران الجوني فقط.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٣١٤، وهي في القراءات الشاذة ص ١٢٣ عن الجحدري فقط.
(٣) في الكشاف ٣/ ٣٠٩.

فخَصَّ الوعدَ بالقِسْمِ الأخير؛ مراعاةً لمذهب الاعتزال، وهو على ما سمعت للأقسام الثلاثة، وذلك هو الأظهرُ في النظم الجليل؛ ليطابقه قوله تعالى بَعْدُ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾، وليناسبَ حديث التعظيم والاختصاص المُدْمَج في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾، وإلَّا فأيُّ تعظيمٍ في ذلك الذكر بعد أن لُزَّ أكثر المصطفين في قَرن الكافرين، وليناسبَ ذكرُ الغفور بعدُ حالَ الظالم والمقتصد، والشكور حالَ السابق، ولتعسُّف ما ذَكره من الإعراب وبعدِه عن الذوق، وكيف لا يكون الأظهرَ وقد فسَّره كذلك أفضلُ الرسل ومن أنزل عليه هذا الكتاب المبين، على ما مرَّ آنفاً، وإليه ذهبَ الكثيرُ من أصحابه الفخام ونجوم الهداية بين الأنام ﵃، وعَدَّ منهم في «البحر»: عمر وعثمان وابن مسعود وأبا الدرداء وأبا سعيد وعائشة ﵃[1].

وقد أخرج سعيد بن منصور، والبيهقيُّ في «البعث» عن البراء بن عازب أنَّه قال بعدَ أن قرأ الآية: أشهدُ على الله تعالى أنَّه يدخلهم الجنَّة جميعاً[2].

وأخرج غيرُ واحدٍ عن كعب أنَّه قرأ الآيةَ إلى «لغوب»، فقال: دخلوها وربِّ الكعبة، وفي لفظ: كلهم في الجنَّة، ألا ترى على أثره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾[3].

نعم إن أُريد بالظالم لنفسه الكافر يتعذَّرُ رجوعُ الضمير إلى ما ذُكر، ويتعيَّن رجوعه إلى السابق، أو[4] إليه وإلى المقتصد؛ لأنَّ المرادَ بهما الجنس، لكن لا ينبغي أنْ يُرادَ بعد هاتيك الأخبار.

وقرأ زرُّ بن حُبَيش والزهريُّ: «جنةُ عدن» بالإفراد والرفع[5].

---

(١) البحر ٧/ ٣١٤.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٥٢، وأخرجه البيهقي في البعث (٦٧).

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٥٢، ونسبه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي. وأخرجه البيهقي في البعث (٧٠).

(٤) في (م): و.

(٥) البحر المحيط ٧/ ٣١٤، والقراءة في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٠ عن زر بن حبيش فقط.

وقرأ أبو عمرو: «يُدْخَلونها» بالبناء للمفعول، ورويت عن ابن كثير[١].

وقوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ خبرٌ ثانٍ لـ «جنات»، أو حال مقدَّرة. وقيل: إنَّها لقرب الوقوع بعد الدخول تعدُّ مقارِنةً.

وقرئ: «يَحْلَون» بفتح الياء وسكون الحاء وتخفيف اللام[٢]، مِن حَلِيَت المرأةُ، فهي حالِيَة: إذا لبست الحَلْيَ، ويقال: جِيْدٌ حَالٍ، إذا كان عليه الحَلْيُ.

﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جمع: سوار، على ما في «الإرشاد»[٣]، وفي «القاموس»: السوار ككتاب وغراب: القُلْبُ، كالأُسوار بالضمِّ، جمعه: أَسْوِرةٌ وأساوِرُ وأساوِرةٌ وسورٌ وسُؤُور[٤]. اهـ. وإطلاقُ الجمع على جمع الجمع كثيرٌ، فلا مخالفة، وسوارُ المرأة معرَّب، كما قال الراغب[٥]، وأصله: دسْتِواره.

و«من» للتبعيض، أي: يحلَّون بعضَ أساور، كأنَّه بعضٌ له امتياز وتفوُّقٌ على سائر الأبعاض.

وجُوِّزَ أن تكون للبيان؛ لما أنَّ ذِكر التحلية مما ينبئ عن الحَلْي المبهم.

وقيل: زائدةٌ، بناءً على ما يرى الأخفش من جواز زيادتها في الإثبات.

وقيل: نعتٌ لمفعولٍ محذوف لـ «يُحَلَّون»، وإنه بمعنى: يلبسون.

و«من» في قوله تعالى: ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ بيانيَّةٌ.

﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ عطفٌ على محلِّ «من أساور»، أي: ويحلَّون فيها لؤلؤاً.

أخرجَ الترمذيُّ والحاكم وصححه، والبيهقيُّ في «البعث» عن أبي سعيد

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٠، والبحر المحيط ٧/ ٣١٤. وقراءة أبي عمرو في التيسير ص ١٨٢، والنشر ٢/ ٢٥٢. وقراءة ابن كثير المتواترة عنه كقراءة الجمهور.

(٢) الكشاف ٣/ ٣١٠، والبحر المحيط ٧/ ٣١٤.

(٣) تفسير أبي السعود ٧/ ١٥٣.

(٤) القاموس (سور).

(٥) في المفردات (سور).

الخدريِّ أنَّ النبيَّ ﷺ تلا الآية فقال: «إنَّ عليهم التيجان، إنَّ أدنى لؤلؤةٍ منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب»[(١)].

وقيل: عطف على المفعول المحذوف، أو منصوبٌ بفعلٍ مضمرٍ يدلُّ عليه «يُحلَّون» أي: ويؤتون لؤلؤاً.

وقرأ جمعٌ من السبعة: «ولؤلؤٍ» بالجرِّ عطفاً على «ذهبٍ»[(٢)]، أي: يُحَلَّون فيها بعضَ أساور من مجموع ذهبٍ ولؤلؤ، بأنْ تُنظَم حبَّاتُ ذهبٍ مع حبَّاتِ لؤلؤ، ويُتَّخَذَ من ذلك سوارٌ كما هو معهودٌ اليوم في بلادنا، أو بأن يرصَّعَ الذهبُ باللؤلؤ، كما يرصَّع ببعضِ الأحجار.

وقيل: أي: من ذهبٍ في صفاء اللؤلؤ. وفيه ما فيه من الكدر.

ولعلَّ من يقول بأنَّه لا اشتراكَ بين ذهب الدنيا ولؤلئها وذهب الآخرة ولؤلئها إلّا بالاسم لا يَلتزمُ النظمَ ولا الترصيع، كما لا يخفى.

وقُرِئ: «لولؤاً» بتخفيف الهمزة الأولى[(٣)].

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٣٣﴾ أي: إبريسمٌ محضٌ، كما في «مجمع البيان»[(٤)].
وقال الراغب: ما رَقَّ من الثياب[(٥)].

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٥٣، وسنن الترمذي (٢٥٦٢) - دون ذكر تلاوة الآية - من طريق رشدين بن سعد عن عمرو بن الحارث عن دراج أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري ﷺ، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين.
وأخرجه الحاكم ٢/ ٤٢٦-٤٢٧ من طريق عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث به، وأخرجه البيهقي في البعث (٣٣٠) من طريق الحاكم، وتعقب الذهبي الحاكم في تصحيحه بقوله: درَّاج صاحب عجائب.
وأخرجه الإمام أحمد (١١٧١٦) عن الحسن بن موسى الأشيب عن ابن لهيعة عن دراج به دون ذكر تلاوة الآية أيضاً. وضعف محققو المسند إسناده لضعف ابن لهيعة ودراج، وانظر تمام الكلام عليه ثمة.

(٢) هي قراءة ابن عامر وابن كثير وأبي عمرو وحمزة والكسائي من السبعة، وقرأ بها أيضاً يعقوب وخلف من العشرة. انظر التيسير ص ١٥٦، والنشر ٢/ ٣٢٦.

(٣) هي قراءة شعبة وأبي جعفر. انظر التيسير ص ١٥٦، والنشر ١/ ٣٩٠-٣٩١، ٣٩٤.

(٤) ٢٢/ ٢٤٥.

(٥) المفردات (حرر).

وتغيير الأسلوب، حيث لم يقل: ويلبسون فيها حريراً، قيل: للإيذان بأنَّ ثبوتَ اللباس لهم أمرٌ محقَّق غنيٌّ عن البيان، إذ لا يمكن عراؤهم عنه، وإنَّما المحتاج إلى البيان أنَّ لباسَهم ماذا، بخلاف الأساور واللؤلؤ، فإنَّها ليست من اللوازم الضروريَّة، ولذا لا يلزم العدلُ بين الزوجات فيها، فجعل بيان تحليتهم مقصوداً[1] بالذات، ولعلَّ هذا هو الباعث على تقديم التحلية على بيان حال اللباس.

وقيل: إنَّ ذلك للدلالة على أنَّ الحرير ثيابُهم المعتادةُ مع المحافظة على هيئة الفواصل. وليس بذاك.

﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: ويقولون، وصيغةُ الماضي للدلالة على التحقُّق: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ حزن تقلُّب القلب، وخوف العاقبة، على ما رويَ عن القاسم بن محمد.

وقال أبو الدرداء: حزن أهوالِ القيامة، وما يصيبُ من ظَلَم نفسَه هنالك.

وأخرج الحاكم وصحَّحه وابن أبي حاتم وغيرهما عن ابن عباس: حزن النار[2].

وقال الضحاك: حزنَ الموت، يقولونَ ذلك إذا ذُبح الموت.

وقال مقاتل: حزن الانتقال، يقولون ذلك إذا استقرُّوا فيها.

وقال قتادة: حزن أنْ لا تُتَقَبَّلَ أعمالهم.

وقال الكلبيُّ: خوف الشيطان.

وقال سمرة بن جندب: حزن معيشة الدنيا، الخبز ونحوه.

وعن ابن عباس: حزن الآفات والأعراض.

وقيل: حزن كراء الدار.

---

(١) في (م): مقصوراً.

(٢) المستدرك ٢/ ٤٢٧، وأخرجه أيضاً الطبري في تفسيره ١٩/ ٣٧٧.

والأولى أنْ يُرَاد جنسُ الحزن المنتظِم لجميع أحزان الدين والدنيا والآخرة، وكلُّ ما سمعتَ من باب التمثيل، وقد تقدَّم في الحديث: «إنَّ الذين ظلموا أنفسهم هم الذين يقولون» أي: بعد أن يتلقَّاهم الله تعالى برحمته: «الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن» إلخ[١]. فلا تغفل.

وقرئ: «الحُزْن» بضمِّ الحاء وسكون الزاي، ذكره جناح بن حبيش[٢].

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للمذنبين ﴿شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ للمطيعين.

وأخرج ابن المنذر وغيره عن ابن عباس أنه قال في ذلك: غَفَرَ لنا العظيمَ من ذنوبنا، وشكر لنا القليلَ من أعمالنا[٣].

وفي «الكشاف»: ذِكْرُ الشكور دليلٌ على أنَّ القومَ كثيرو الحسنات[٤]. وكان عليه أن يقول: وذِكْرُ الغفور دليلٌ على أنهم كثيرو الفرطَات، فينطبقُ على الفرق، ولا ينفكُّ النظم، ولكن مَنَعَهُ المذهبُ.

﴿الَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ أي: دار الإقامة التي لا انتقالَ عنها أبداً وهي الجنة ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ من إنعامه سبحانه وتفضُّله وكرمه، فإنَّ العملَ وإن كان سبباً لدخول الجنة في الجملة، لكن سببيَّته بفضل الله عزَّ وجلَّ أيضاً، إذ ليس هناك استحقاقٌ ذاتيٌّ، ومَن علم أنَّ العمل متناهٍ زائلٌ، وثوابَ الجنة دائمٌ لا يزول، لم يشكَّ في أنَّ الله تعالى ما أحلَّ من أحلَّ دارَ الإقامة إلَّا من محض فضله سبحانه.

وقال الزمخشريُّ: أي: من إعطائه[٥] تعالى وإفضاله، من قولهم: لفلانٍ فضولٌ على قومه وفواضل، وليس من الفضل الذي هو التفضُّلُ؛ لأنَّ الثوابَ بمنزلة الأجر المُستحَقِّ، والتفضُّل كالتبرع. وفيه من الاعتزال ما فيه.

---

(١) سلف ص٢٣٢-٢٣٣ من هذا الجزء.
(٢) القراءات الشاذة ص ١٢٤، والبحر المحيط ٧/ ٣١٤.
(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٥٣.
(٤) الكشاف ٣/ ٣١٠.
(٥) في الكشاف ٣/ ٣١٠: عطائه.

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: تعبٌ ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ٣٥﴾ كلالٌ وفتورٌ، وهو نتيجةُ النَّصَب، وضمُّه إليه وتكريرُ الفعل المنفيِّ للمبالغة في بيان انتفاء كلٍّ منهما، كذا قال جمعٌ من الأجلَّة.

وقال بعضهم: النَّصَبُ: التعبُ الجسمانيُّ، واللُّغوب: التعبُ النفسانيُّ.

وأخرج ابن جرير عن قتادة أنَّه فسَّر النَّصَبَ بالوجع[1]، والكلام من باب:

لا ترى الضبَّ بها ينجحر[2]

والجملةُ حالٌ من أحد مفعولي «أحلَّ».

وقرأ عليٌّ ـ كرَّم الله تعالى وجهه ـ والسلميُّ: «لَغُوب» بفتح اللام[3].

قال الفرَّاء: هو ما يُلْغَب[4] به، كالفَطور والسَّحور[5].

وجاز أن يكونَ صفةً لمصدرٍ محذوف، أي: لا يمسُّنا فيها لُغوبٌ لَغوبٌ، نحو: شعرٌ شاعرٌ، كأنَّه وصف اللُّغوب بأنه قد لَغِبَ، أي: أَعْيَى وتَعِبَ.

وقال صاحب «اللوامح»: يجوز أن يكون مصدراً كالقَبول، وإن شئتَ جعلتَه صفةً لمضمرٍ، أي: أمرٌ لَغوب.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا يُحكَم عليهم بموتٍ ثانٍ ﴿فَيَمُوتُوا﴾ ليستريحوا بذلك من عذابها بالكليَّة. وإنما فسِّر «لا يُقْضَى» بما ذُكر دون: لا يموتون؛ لئلَّا يلغو: «فيموتوا»، ويحتاجَ إلى تأويله بـ: يستريحوا.

ونصب «يموتوا» في جواب النفي بإضمار «أن»، والمراد انتفاءُ المسبَّب لانتفاء السبب، أي: ما يكون حكمٌ بالموت، فكيف يكون الموت؟!

---

(١) تفسير الطبري ١٩/ ٣٨١.
(٢) سلف ٤/ ٨٨.
(٣) القراءات الشاذة ص ١٢٤، والمحتسب ٢/ ٢٠٠، والبحر المحيط ٧/ ٣١٥. وزاد ابن خالويه نسبتها لسعيد بن جبير.
(٤) في (م): يغب.
(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٧٠.

وقرأ عيسى والحسن: «فيموتون» بالنون[(١)] عطفاً ـ كما قال أبو عثمان المازنيّ ـ على «يُقضى» كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] أي: لا يُقضَى عليهم ولا يموتون.

﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ المعهود لهم، بل كلَّما خَبَتْ زِيْدَ إسعارُها، والمراد دوامُ العذاب، فلا ينافي تعذيبَهم بالزمهرير ونحوه.

ونائب فاعل «يُخفَّف»: «عنهم»، و«من عذابها» في موضع نصب، ويجوز العكس. وجُوِّز أن تكون «من» زائدة، فيتعيَّن رفعُ مجرورها على أنَّه النائب عن الفاعل، على ما فال أبو البقاء[(٢)].

وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: «ولا يُخفَّفْ» بإسكان الفاء، شبَّه المنفصل بالمتصل[(٣)]، كقوله:

فـالـيـوم أشـربْ غـيـرَ مُـسـتَـحْـقِـبٍ[(٤)]

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثْلَ ذلك الجزاء الفظيع ﴿نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ مبالغٍ في الكفر أو الكفران، لا جزاء أخفّ وأدنى منه.

وقرأ أبو عمرو وأبو حاتم عن نافع: «يُجْزَى» بالياء مبنيّاً للمفعول، و«كلٌّ» بالرفع على النيابة عن الفاعل[(٥)].

وقرئ: «نُجازي» بنونٍ مضمومةٍ وألف بعد الجيم[(٦)].

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٠١، والبحر المحيط ٧/ ٣١٦.

(٢) في الإملاء ٢/ ٢٠٠.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢٤، والبحر المحيط ٧/ ٣١٦.

(٤) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٢٢، وسلف ١١/ ٤٢١.

(٥) البحر المحيط ٧/ ٣١٦، وقراءة أبي عمرو في التيسير ص ١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥٢.

(٦) لم أقف عليها. وذكر الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣١٠، والبيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٧/ ٢٢٨، وأبو السعود في تفسيره ٧/ ١٥٤ أنه قرئ: يجازى.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ افتعالٌ من الصراخ، وهو شدَّة الصياح، والأصل: يصترخون، فأبدلت التاءُ طاءً، ويستعملُ كثيراً في الاستغاثة؛ لأنَّ المستغيثَ يصيح غالباً، وبه فسَّره هنا قتادة، فقال: يستغيثون فيها.

واستغاثتهم بالله عزَّ وجلَّ، بدليل ما بعده. وقيل: ببعضهم لحيرتهم. وليس بذاك.

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ بإضمار القول، أي: ويقولون، بالعطف، أو: يقولون، بدونه على أنَّه تفسيرٌ لما قبله، أو: قائلين، على أنَّه حالٌ من ضميرهم.

وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسُّر على ما عملوه من غير الصالح، مع الاعتراف به، والإشعارِ بأنَّ استخراجهم لتلافيه، فهو وصفٌ مؤكِّد، ولأنَّهم كانوا يحسبون أنَّهم يحسنون صنعاً، فكأنَّهم قالوا: نعمل صالحاً غير الذي كنَّا نحسبُه صالحاً فنعمله، فالوصف مقيّد.

وذكر أبو البقاء أنَّ «صالحاً» و«غير الذي» يجوزُ أن يكونا صفتين لمصدرٍ محذوف، أو لمفعولٍ محذوف، وأن يكون «صالحاً» نعتاً لمصدر، و«غير الذي» مفعول «نعمل»(١).

وأيَّاما كان، فالمراد: أخرِجنا من النار، ورُدَّنا إلى الدنيا نعمل صالحاً، وكأنَّهم أرادوا بالعمل الصالح التوحيد، وامتثالَ أمر الرسول عليه الصلاة والسلام، والانقيادَ له.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: «نعمل صالحاً»: نقل: لا إله إلا الله.

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ جوابٌ من جهته تعالى وتوبيخٌ لهم في الآخرة حين يقولون: «ربنا» إلخ، فهو بتقدير: فنقول لهم، أو: فيقال لهم: «أوَ لم نُعمِّرْكم» إلخ. وفي بعض الآثار أنَّهم يجابون بذلك بعد مقدار الدنيا.

(١) إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٢٢١-٢٢٢.

والهمزةُ للإنكار، والواو للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقام، و«ما» موصولةٌ، أو موصوفةٌ، أي: ألم نمهلكم ونعمِّركم الذي ـ أي: العمرَ الذي ـ أو عمراً يتذكَّر فيه من تذكَّر، أي: يتمكَّنُ فيه من أراد التذكُّر وتحقَّقت منه تلك الإرادة من التذكُّر والتفكُّر.

وقال أبو حيان: «ما» مصدريَّةٌ ظرفيَّةٌ، أي: أَلَم نُعمِّرْكم في مدَّة تذكُّر[1].

وتُعقِّبَ بأنَّ ضمير «فيه» يأباه؛ لأنَّها لا يعود عليها ضميرٌ إلا على نظر الأخفش، فإنَّه يرى اسميَّتها، وهو ضعيف، ولعلَّه يجعلُ الضمير للعمر المفهوم من «نعمر»[2]. وفيه بعد.

وجَعلُ «ما» نافيةً لا يصحُّ ـ كما قال ابن الحاجب ـ لفظاً ومعنى[3].

وهذا العمر على ما رُوي عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه[4]، وأخرجه جماعةٌ ـ وصحَّحه الحاكم ـ عن ابن عباس[5] ستُّون سنةً.

وقد أخرج الإمام أحمد والبخاريُّ والنسائيُّ وغيرهم عن سهل بن سعد[6] قال: قال رسول الله ﷺ: «أعذرَ الله تعالى إلى امرئٍ أخّر عمره حتى بلغ ستِّين سنة».

وقيل: هو خمسون سنة.

وفي روايةٍ عن ابن عباس أنَّه ستٌّ وأربعونَ سنة.

---

(١) البحر ٧/٣١٦.

(٢) في الأصل: يعمر.

(٣) أمالي ابن الحاجب ١/٢٠٧.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/٣٨٦.

(٥) المستدرك ٢/٤٢٧، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٣٨٥.

(٦) كذا ذكر المصنف تبعاً للسيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٥٤، ولعله سبق قلم، فالحديث مرويٌّ عن أبي هريرة ﷺ، وهو عند أحمد (٧٧١٣)، والبخاري (٦٤١٩)، والنسائي في الكبرى (١١٨٢٢).
أما حديث سهل بن سعد فأورده السيوطي في الدر المنثور إثر الحديث السابق، وأخرجه الطبراني في الكبير (٥٩٣٣)، والحاكم في المستدرك ٢/٤٢٨، والقضاعي في مسند الشهاب (٤٢٣). وعند الحاكم: سبعين سنة. بدل: ستين.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن أنَّه أربعون سنة[١].

وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّه سنُّ البلوغ.

وقيل: سبع عشرة سنة.

وعن قتادة: ثمان عشرة سنة.

وعن عمر بن عبد العزيز: عشرون سنة.

وعن مجاهد: ما بين العشرين إلى الستين.

وقرأ الأعمش: «ما يذَّكَّر فيه من اذَّكَّر» بالإدغام واجتلاب همزة الوصل ملفوظاً بها في الدرج[٢].

﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ عطفٌ على معنى الجملة الاستفهامية، فكأنَّه قيل: عمَّرناكم وجاءكم النذير، فليس من عطف الخبر على الإنشاء، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ١-٢] وجُوِّزَ أن يكون عطفاً على «نعمِّركم»، ودخول الهمزة عليهما، فلا تغفل.

والمراد بـ: «النذير» ـ على ما روي عن السُّدِّيِّ وابن زيد ـ رسولُ الله ﷺ.

وقيل: ما معه من القرآن.

وقال أبو حيان: المراد جنسُ النذير، وهم الأنبياء عليهم السلام، فكلُّ نبيٍّ نذيرُ أمَّته، ويؤيِّده أنَّه قرئ: «النذُر» جمعاً[٣].

وعن ابن عباس وعكرمة وسفيان بن عيينة ووكيع والحسين بن الفضل والفرَّاء[٤] والطبريّ[٥]: هو الشيب.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٤٥.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٤١، والبحر المحيط ٧/ ٣١٦.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣١٦، والقراءة أيضاً في الكشاف ٣/ ٣١١، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٩٠.

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٣٧٠.

(٥) في تفسيره ١٩/ ٣٨٧.

وفي الأثر: ما من شعرةٍ تبيضُّ إلَّا قالت لأختها: استعدِّي فقد قرب الموت.

ومن هنا قيل:

رأيتُ الشيبَ من نُذُرِ المنايا لصاحبه وحسبُك من نذير[1]

وقائلةٍ تخضَّب يا حبيبي وسوِّد شعرَ شيبك بالعبير

فقلتُ لها المشيبُ نذيرُ عمري ولستُ مسوِّداً وجهَ النذير[2]

وقيل: الحمَّى. وقيل: موت الأهل والأقارب. وقيل: كمالُ العقل.

والاقتصارُ على النذير؛ لأنَّه الذي يقتضيه المقام.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما قبلَها من التعمير ومجيء النذير، وفي قوله سبحانه: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝٣٧﴾ للتعليل.

والمراد بالظلم هنا الكفر، قيل: كان الظاهر: فما لكم، لكن عَدَل إلى المُظْهَر لتقريعهم، والمراد استمرارُ نفي أن يكون لهم نصيرٌ يدفعُ عنهم العذاب.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: كل غيبٍ فيهما، أي: لا يخفى عليه سبحانه خافيةٌ فيهما، فلا تخفى عليه جلَّ شأنُه أحوالُهم التي اقتضت الحكمةُ أن يعاملوا بها هذه المعاملة، ولا يُخْرَجوا من النار.

وقرأ جناح بن حبيش: «عالمٌ» بالتنوين «غيبَ» بالنصب على المفعوليَّة لـ «عالم»[3].

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٣٨﴾ قيل: إنَّه تعليلٌ لما قبله؛ لأنَّه تعالى إذا علم مضمرات الصدور، وهي أخفى ما يكون، كان عزَّ وجلَّ أعلمَ بغيرها. وفيه نوع خفاء.

---

(١) أورده الدينوري في المجالسة ٤/ ٢١١، والقرطبي في تفسيره ١٧/ ٣٩١ دون نسبة.

(٢) ذكر هذين البيتين ابن قتيبة في عيون الأخبار ٤/ ٥١، والمبرد في الكامل ٢/ ٧٠٣، وابن عبد ربه في العقد الفريد ٣/ ٥١. ونسبه المبرد للعتبي. وفي رواية البيت الأول منهما اختلاف بين المصادر.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢٤، والبحر المحيط ٧/ ٣١٦.

وقال الإمام: إنَّ قوله تعالى: «إنَّ الله» إلخ تقريرٌ لدوامهم في العذاب مع أنَّهم ما كفروا إلَّا أيَّاماً معدودةً، فكأنَّ سائلاً يسأل عن وجه ذلك، فقيل: إنَّ الله تعالى لا يَخفى عليه غيبُ السماوات والأرض، فلا يخفى عليه ما في الصدور، فكان يعلمُ سبحانه من الكافر أنَّ الكفرَ قد تمكَّن في قلبه بحيثُ لو دام إلى الأبد لما أطاع الله تعالى ولا عَبَدَه[1]. انتهى.

وظاهره أنَّ الجملةَ الأولى تعليلٌ للثانية على عكس ما قيل.

ويمكن أن يقال: إنَّ قوله تعالى: (فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ) متضمِّنٌ نفيَ أنْ يكون لهم نصيرٌ على سبيل الاستمرار، ومستدعٍ خلودَهم في العذاب، فكان مظنَّةَ أن يقال: كيف ينفي ذلك على سبيل الاستمرار، والعادةُ في الشاهد قاضيةٌ بوجود نصيرٍ لمن تطولُ أيَّام عذابه؟ فأجيبَ بـ «إنَّ الله عالمُ غيب السماوات والأرض» على معنى أنَّه تعالى محيطٌ بالأشياء علماً، فلو كان لهم نصيرٌ في وقتٍ من الأوقات لعلِمَه، ولمَا نفى ذلك على سبيل الاستمرار. وكذا مظنَّة أن يُقَال: كيف يخلدون في العذاب وهم قد ظَلموا في أيام معدودة؟ فأجيبَ بـ «إنه عليمٌ بذات الصدور» على معنى أنَّه تعالى يعلمُ ما انطوت عليه ضمائرُهم، فيعلم أنَّهم صمَّموا على ما هم فيه من الضلال والكفر إلى الأبد، فكلٌّ من الجملتين مستأنفٌ استئنافاً بيانياً، فتأمل.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ملقًى إليكم مقاليدُ التصرُّف والانتفاع بما فيها، أو: جعلَكم خلفاء ممَّن قبلَكم من الأمم، وأورثَكم ما بأيديهم[2] من متاع الدنيا لتشكروه بالتوحيد والطاعة، أو: جعلكم بدلَ من كان قبلكم من الأمم الذين كذَّبوا الرسل فهلكوا، فلم تتَّعظوا بحالهم وما حلَّ بهم من الهلاك.

والخطاب ـ قيل ـ عامٌّ، واستظهره في «البحر»[3]. وقيل: لأهل مكَّة.

والخلائف جمع: خليفة، وقد اطَّرد جمع فعيلة على فعائل، وأما الخلفاء

---

(١) تفسير الرازي ٢٦/ ٣٠.

(٢) في (م): بأيديكم.

(٣) ٧/ ٣١٧.

فجمع خليف، ككريم وكرماء، وجَوَّزَ الواحديُّ كونه جمع خليفة أيضاً. وهو خلاف المشهور.

﴿فَمَن كَفَرَ﴾ منكم مثلَ هذه النعمة السنيَّة وغمطَها، أو: فمن استمرَّ على الكفر وتركِ الإيمان، بعد أن لُطِف به وجُعِل له ما ينبِّهه على ما يترتَّب على ذلك ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: وبالُ كفره وجزاؤه، لا على غيره.

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أشدّ الاحتقار والبغض والغضب. ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾ في الآخرة. وجملة «ولا يزيد» إلخ بيانٌ وتفسيرٌ لقوله تعالى: «فعليه كفره»، ولزيادة تفصيله نزِّلَ منزلةَ المغاير له، ولولا ذلك لفصل عنه، والتكرير لزيادة التقرير، والتنبيهِ على أنَّ اقتضاءَ الكفر لكلٍّ واحدٍ من الأمرين الأمرَّين المقتِ والخسارة مستقلٌّ باقتضاء قبحه ووجوبِ التجنُّب عنه، بمعنى أنَّه لو لم يكن الكفر مستوجباً لشيءٍ سوى مَقْتِ الله تعالى لكفى ذلك في قبحه، وكذا لو لم يستوجب شيئاً سوى الخسار لكفى.

﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: آلهتكم، والإضافةُ إليهم لأدنى ملابسة، حيث إنَّهم هم الذين جعلوهم شركاء لِلّه تعالى، واعتقدوهم كذلك، من غير أنْ يكون له أصلٌ ما أصلاً.

وقيل: الإضافةُ حقيقيَّةٌ من حيث إنَّهم جعلوهم شركاءَ لأنفسهم فيما يملكونه، أو جعلهم الله تعالى شركاء لهم في النار، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] والصفةُ عليهما مقيِّدةٌ لا مؤكِّدة، وسياقُ النظم الكريم وسباقه ظاهران فيما تقدَّم.

﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بدل اشتمال من «أرأيتم» لأنَّه بمعنى أخبروني، كأنَّه قيل: أخبروني عن شركائكم، أروني أيَّ جزءٍ خلقوا من الأرض حتى يستحقُّوا الإلهيَّة والشركة. وجُوِّزَ أنْ يكونَ بدلَ كلّ.

وقال أبو حيان: لا تجوز البدليَّة؛ لأنَّه إذا أُبدِل ممَّا دخلَ عليه الاستفهام، فلا بدَّ من دخول الأداة على البدل، وأيضاً إبدالُ الجملة لم يُعهَد في لسانهم، ثمَّ

البدلُ على نيَّة تكرار العامل، ولا يتأتَّى ذلك هاهنا؛ لأنَّه لا عامل لـ «أرأيتم». ثم قال: والذي أذهبُ إليه أنَّ «أرأيتم» بمعنى أخبروني، وهي تطلب مفعولين؛ أحدُهما منصوبٌ، والآخرُ مشتملٌ على الاستفهام، كقول العرب: أرأيتَ زيداً ما صنع، فالأول هنا «شركاءكم»، والثاني «ماذا خلقوا»، و«أروني» جملةٌ اعتراضيَّةٌ، فيها تأكيدٌ للكلام وتسديد، ويحتملُ أنْ يكون ذلك أيضاً من باب الإعمال؛ لأنَّه توارَدَ على «ماذا خلقوا»: «أرأيتم»، و«أروني»؛ لأن «أروني» قد تُعَلَّق عن مفعولها الثاني كما عُلِّقت رأى التي لم تدخل عليها همزة النقل عن مفعولها في قولهم: أمَا ترى أيُّ برقٍ هاهنا، ويكون قد أعمل الثاني على المختار عند البصريين[1]. انتهى.

وما ذكره احتمالٌ في الآية الكريمة، كما أنَّ ما ذُكر أوَّلاً احتمال، وما قاله في ردِّه ليس بشيءٍ؛ أمَّا الأوَّل فلأنَّ لزومَ دخول الأداة على البدل فيما إذا كان الاستفهامُ باقٍ على معناه، أمَّا إذا نُسخ عنه كما هنا فليس ذلك بلازم، وأمَّا الثاني فلأنَّ أهل العربية والمعاني نصُّوا على خلافه، وقد ورد في كلام العرب كقوله:

أقول له ارحل لا تقيمنَّ عندنا   وإلَّا فكن في السرِّ والجهرِ مسلما[2]

وأمَّا الثالث فلأنَّ كونَ البدل على نيَّة تكرار العامل إنَّما هو ـ كما نقل الخفاجيُّ عنهم[3] ـ في بدل المفردات.

وليس لك أن تقول: العامل هنا موجودٌ، وهو «قل»؛ لأنَّ العبرةَ بالمقول، ولا عامل فيه إذ يقال، وهو ظاهر.

وجُوِّز أنْ لا يكون «أرأيتم» بمعنى أخبروني، بل المراد حقيقةُ الاستفهام عن الرؤية، و«أروني» أمر تعجيزٍ للتبيين، أي: أَعَلِمْتُم هذه التي تَدْعونها ما هي، وعلى

(١) البحر المحيط ٧/ ٣١٧.
(٢) سلف الشطر الأول ١٠/ ٤٥٢.
(٣) في حاشيته ٧/ ٢٢٩.

ما هي عليه من العجز؟! أو تتوهمون فيها قدرةً؟! فإن كنتم تعلمونَها عاجزةً، فكيف تعبدونها؟ أو كنتم توهَّمتم فيها قدرةً، فأروني أثرَها؟! وما تقدَّم أظهر.

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: بل ألهم شركةٌ مع الله عزَّ وجلَّ في خلق السماوات حتى يستحقُّوا ما زعمتم فيهم.

وقال بعضهم: الأَوْلى أن لا يقدَّر مضافٌ، على أنَّ المعنى: أم لهم شركةٌ معه سبحانه في السماوات خلقاً وإبقاءً وتصرُّفاً؛ لأنَّ المقصودَ نفي آيات الإلهية عن الشركاء، وليست محصورةً في الخلق. والتقديرُ أوفقُ بما قبله.

والكلام ـ قيل ـ من باب التدرُّج من الاستقلال إلى الشركة، ثمَّ منها إلى حُجَّةٍ وبيِّنةٍ مكتوبةٍ بالشركة، كأنَّه قيل: أخبروني عن الذين تَدعون من دون الله، هل استبدُّوا بخلق شيءٍ من الأرض حتى يكونوا معبودين مثلَ الله تعالى، بل ألهم شركةٌ معه سبحانه في خلق السماوات ﴿أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ كِتَبًا﴾ أي: بل آآتيناهم[1] كتاباً ينطقُ بأنَّا اتخذناهم شركاء ﴿فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أي: حُجَّةٍ ظاهرةٍ من ذلك الكتاب بأنَّ لهم شركةً معنا.

وقال في «الكشف»: الظاهرُ أنَّ الكلام مبنيٌّ على الترقِّي في إثبات الشركة؛ لأنَّ الاستبدادَ بخلق جزءٍ من الأرض شركةٌ ما معه عزَّ وجلَّ، والاشتراكُ معه سبحانه في خلق السماوات أدلُّ على إثباتها، ثم إيتاءُ كتابٍ منه تعالى على أنَّهم شركاؤه أدلُّ وأدل.

وقيل: «هم» في «آتيناهم» للمشركين، وكذا في «فهم»، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَنًا﴾ [الروم: ٣٥] إلخ، ففي الكلام التفاتٌ من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة؛ إعراضاً عن المشركين، وتنزيلاً لهم منزلة الغُيَّب. والمعنى: إنَّ عبادة هؤلاء إمَّا بالعقل، ولا عقل يحكمُ بصحةِ عبادةِ مَن لا يخلق جزءاً ما من الأرض ولا له[2] شركٌ في السماء، وإمَّا بالنقل، ولم نؤتِ المشركينَ كتاباً فيه الأمرُ بعبادة هؤلاء. وفيه تفكيكٌ للضمائر.

---

(١) في (م): آتيناهم، والمثبت من الأصل، وهو الصواب.

(٢) في (م): دلالة. وهو تصحيف، وانظر البحر المحيط ٧/ ٣١٨.

وقال بعضهم: ضمير «آتيناهم» للشركاء كالضمائر السابقة، وضمير «فهم على بينة» للمشركين، و«أم» منقطعةٌ للإضراب عن الكلام السابق، وزُعِم أنْ لا التفاتَ حينئذٍ ولا تفكيك، فتأمل.

وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب وأبو بكر: «على بيِّناتٍ» بالجمع[١]، فيكون إيماءً إلى أنَّ الشركَ خطيرٌ لا بدَّ فيه من تعاضد الدلائل، وهو ضربٌ من التهكُّم.

﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ لمَّا نَفى سبحانه ما نَفى من الحُجج في ذلك، أضربَ عزَّ وجلَّ عنه بذكر ما حملَهم على الشرك، وهو تقريرُ الأسلاف للأخلاف، وإضلال الرؤساء للأتباع بأنَّهم شفعاءُ عند الله تعالى، يشفعون لهم بالتقرُّب إليهم.

والآية عند الكثير في عبدةِ الأصنام، وحكمها عامٌّ. وقيل: في عبدة غير الله عزَّ وجلَّ؛ صنماً كان أو مَلَكاً أو غيرهما.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لغاية قبح الشرك وهولِه، أي: إنَّ الله تعالى يحفظُ السماوات والأرضَ كراهة زوالهما، أو لئلَّا تزولا وتضمحلَّا، فإنَّ الممكن كما يحتاجُ إلى الواجب سبحانه حالَ إيجاده، يحتاج إليه حالَ بقائه.

وقال الزجاج: «يمسك» بمعنى: يمنع[٢]، و«أن تزولا» مفعولُه على الحذف والإيصال؛ لأنَّه يتعدَّى بـ «من»، أي: يمنعهما من أن تزولا. وفي «البحر»: يجوزُ أنْ يكون «أن تزولا» بدلَ اشتمال من «السماوات والأرض»، أي: يمنع سبحانه زوالَ السماوات والأرض[٣].

وفَسَّر بعضُهم الزوال بالانتقال عن المكان، أي: إنَّ الله تعالى يمنعُ السماوات من أن تنتقلَ عن مكانها فترتفع أو تنخفض، ويمنعُ الأرض أيضاً من أن تنتقلَ كذلك. وفي أثرٍ أخرجه عبد بن حميد وجماعةٌ عن ابن عباس ما يقتضيه[٤].

(١) وهي قراءة الكسائي وأبي جعفر أيضاً. انظر التيسير ص ١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥٢.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧٣.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٣١٨.
(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٥٥.

وقيل: زوالهُما دورانهُما، فهما ساكنتان، والدائرةُ بالنجوم أفلاكُها، وهي غير السماوات، فقد أخرج سعيدُ بن منصور وابن جرير وابن المنذر وعبد بن حميد عن شقيق قال: قيل لابن مسعود: إنَّ كعباً يقول: إنَّ السماءَ تدورُ في قطبة مثل قطبة الرَّحى في عمودٍ على منكب مَلَك، فقال: كذب كعب، إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾، وكفى بها زوالاً أنْ تدور[١].

والمنصورُ عند السلف أنَّ السماوات لا تدور، وأنَّها غيرُ الأفلاك، وكثيرٌ من الإسلاميين ذهبوا إلى أنَّها تدورُ، وأنَّها ليست غيرَ الأفلاك، وأمَّا الأرضُ فلا خلافَ بين المسلمين في سكونها، والفلاسفةُ مختلفون، والمعظم على السكون، ومنهم من ذهب إلى أنَّها متحرِّكةٌ، وأنَّ الطلوع والغروب بحركتِها، وردّ ذلك في موضعه.

والأولَى في تفسير الآية ما سمعتَ أوّلاً، وكذا كونها مسوقة لما ذكرنا.

وقيل: إنَّه تعالى لمَّا بيَّن فسادَ أمر الشركاء، ووقف على الحجَّة في بطلانها، عقَّب بذكر عظمته عزَّ وجلَّ وقدرتِه سبحانه؛ ليتبيَّن الشيءُ بضدِّه، وتتأكَّدَ حقارةُ الأصنام بذكر عظمة الله تعالى.

﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ أي: إن أشرفتَا على الزوال، على سبيل الفرض والتقدير، ويؤيِّده قراءةُ ابن أبي عبلة: «ولو زالتا»[٢].

وقيل: إنَّ ذلك إشارةٌ إلى ما يقعُ يومَ القيامة من طيِّ السماوات ونسف الجبال.

﴿إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا﴾ أي: ما أمسكهما ﴿مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ أي: من بعدِ إمساكِه تعالى، أو من بعدِ الزوال. والجملة جوابُ القَسَم المقدَّر قبل لام التوطئة في «لئن»، وجوابُ الشرط محذوفٌ لدلالة جواب القَسَم عليه، و«أمسك» بمعنى يمسك، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ﴾ [البقرة: ١٤٥] و«من» الأولى[٣] مزيدةٌ لتأكيد العموم، والثانية للابتداء.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٥٥. وأخرجه الطبري ١٩/ ٣٩١.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣١٨.

(٣) في (م): الأول.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ فلذا حَلُم على المشركين، وغَفَر لمن تاب منهم، مع عظم جرمهم المقتضي لتعجيل العقوبة وعدم إمساك السماوات والأرض وتخريب العالم الذي هم فيه، فلا يتوهم أنَّ المقام يقتضي ذكر القدرة لا الحلم والمغفرة.

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ الضمائر لقريش، وذلك أنَّهم بلغَهم قبلَ مبعثِ النبيِّ ﷺ أنَّ طائفةً من أهل الكتاب كذَّبوا رسلَهم، فقالوا: لعنَ الله تعالى اليهود والنصارى أتتهم الرسلُ فكذَّبُوهم، فواللهِ لئن جاءنا رسولٌ لنكوننَّ أهدى من إحدى الأمم، فكان منهم بعدُ ما كان، فأنزل الله تعالى هذه الآية[1].

و«ولئن جاءهم» جاء على المعنى، وإلَّا فهم قالوا: «جاءنا»، وكذا «ليكوننَّ».

و«إحدى» بمعنى: واحدة، والظاهر أنَّها عامَّةٌ وإن كانت نكرةً في الإثبات؛ لاقتضاء المقام العموم.

وتعريف «الأمم» للعهد، والمراد: الأمم الذين كذَّبوا رسلهم. أي: لئن جاءنا نذيرٌ لنكونَنَّ أهدى من كلِّ واحدةٍ من الأمم اليهود والنصارى وغيرهم، فنؤمن جميعاً، ولا يكذب أحدٌ منَّا. أو المعنى: لنكونَنَّ أهدى من أمَّةٍ يقال فيها: إحدى الأمم، تفضيلاً لها على غيرها من الأمم، كما يقال: هو واحدُ القوم، وواحدُ عصره، وكما قالوا: هو أحد الأحدين، وهي إحدى الإِحَد، يريدون التفضيلَ في الدهاء[2] والعقل، قال الشاعر:

حتى استثاروا[3] بيَ إحدى الإِحَدِ ... ليثاً هِزَبْراً ذا سلاحٍ معتدِ[4]

وقد نصَّ ابنُ مالك في «التسهيل» على أنَّه قد يُقال لمَا يستعظم ممَّا لا نظير له هو إحدى الإِحَد[5]. لكن قال الدمامينيُّ في «شرحه»: إنَّما ثبت استعمالُه في إحدى

---

(١) أورده السيوطي في لباب النقول ص ١٨١، وعزاه لابن أبي حاتم.
(٢) في (م): الدعاء.
(٣) في (م): استشاروا.
(٤) هو للمرَّار بن سعيد، كما في الأغاني ١٠/ ٣١٧، والخزانة ٧/ ٣٥٢.
(٥) التسهيل ص ١١٨.

ونحوه المضافِ إلى جمعٍ مأخوذٍ من لفظه، كإحدى الإِحَد، وأَحَد الأَحَدين، أو المضاف إلى وصفٍ، كأحد العلماء وإحدى الكبر، أمَّا في المضاف إلى أسماء الأجناس كالأمم، فيحتاج إلى نقل.

وبُحِثَ فيه بأنَّه قد ثبتَ استعمال إحدى في الاستعظام من دون إضافةٍ أصلاً، فإنهم يقولون للداهية العظيمة: هي إحدى من سبع، أي: إحدى ليالي عادٍ في الشدَّة، وشاع: واحدُ قومه، وأوحدهم، وواحد[1] أمّه، ولم يظهر فارقٌ بين المضاف إلى الجمع المأخوذِ من اللفظ والمضاف إلى الوصف وبين المضاف إلى أسماء الأجناس، ولا أظنُّ أنَّ مثل ذلك يحتاجُ إلى نقلٍ، فليتدبر.

وقال صاحب «الكشف»: إنَّ دلالة «إحدى الأمم» على التفضيل ليست بواضحة، بخلاف: واحد القوم ونحوه، ثمَّ وجهها أنَّه على أسلوب:

أو يرتبط بعض النفوس حمامُها[2]

يعني أنَّ البعضَ المبهمَ قد يُقصَدُ به التعظيم كالتنكير، فإحدى مثلُه.

وفيه أنَّه متى ثبتَ استعمالُه للاستعظام كانت دلالته على التفضيل في غاية الوضوح.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وأيُّ نذيرٍ، وهو أشرفُ الرسل محمدٌ ﷺ، كما روي عن ابن عباس وقتادة، وهو الظاهر.

وعن مقاتل: هو انشقاق القمر، وهو أخفى من السُّها[3]، والمقام عنه يأبى.

﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ أي: النذير، أو مجيئه ﴿إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ تباعُداً عن الحقِّ وهرباً منه. وإسنادُ الزيادة إلى ذلك مجازٌ؛ لأنَّه هو السببُ لها.

والجملةُ جوابُ «لمّا»، واستدلَّ بالآية على حرفيَّتها؛ لمكان النفي المانع عن عمل ما بعده فيها. وفيه بحث.

(١) في (م): وأوحد.
(٢) البيت للبيد، وهو في ديوانه ص٣١٣، وسلف ٧/ ٢٣٩.
(٣) السها: كوكبٌ خفيٌّ يمتحن الناس به أبصارهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بدلٌ من «نفوراً». وقال أبو حيان: الظاهر أنَّه مفعول من أجله، ونَقَلَ الأوَّلَ عن الأخفش[1].

وقيل: هو حال، أي: مستكبرين.

﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ هو الخداعُ الذي يرومونه برسول الله ﷺ والكيدُ له، وقال قتادة: هو الشرك. وروي ذلك عن ابن جريج. وهو عطف على «استكباراً»، وأصل التركيب: وأنْ مكروا السيِّئَ، على أن «السيِّئ» صفةٌ لموصوفٍ مقدَّرٍ، أي: المكر السيئ[2]، ثم أقيم المصدرُ مقام «أن» والفعل، وأضيف إلى ما كان صفةً.

وجُوِّزَ أنْ يكون عطفاً على «نفوراً».

وقرأ الأعمش وحمزة: «السيئْ» بإسكان الهمزة في الوصل[3]؛ إجراءً له مجرى الوقف، أو لتوالي الحركات وإجراء المنفصل مجرى المتصل.

وزعم الزجَّاج[4] أن هذه القراءة لحن؛ لما فيها من حذف الإعراب كما قال أبو جعفر[5].

وزعم محمد بن يزيد أنَّ هذا الحذفَ لا يجوز في نثرٍ ولا شعر؛ لأنَّ حركات الإعراب دخلت للفرق بين المعاني.

وقد أعظمَ بعض النحويين أنْ يكون الأعمشُ قرأ بها، وقال: إنَّما كان يقفُ على هذه الكلمة، فغلطَ من أدَّى عنه، والدليل على هذا أنَّها تمام الكلام، ولذا لم يقرأ في نظيرها كذلك مع أنَّ الحركة فيه أثقل؛ لأنَّها ضمَّةٌ بين كسرتين.

والحقُّ أنَّها ليست بلَحْن، وقد أكثر أبو عليٍّ في «الحجة»[6] من الاستشهاد

(١) البحر المحيط ٧/ ٣١٩.
(٢) في (م): المسيء.
(٣) تفسير القرطبي ١٧/ ٣٩٦، والبحر المحيط ٧/ ٣١٩، وقراءة حمزة في التيسير ص ١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥٢.
(٤) في معاني القرآن له ٤/ ٢٧٥.
(٥) النحاس في معاني القرآن له ٣/ ٣٧٧.
(٦) ٦/ ٣١-٣٢.

والاحتجاج للإسكان من أجل توالي الحركات والوصل بنيَّة الوقف.

وقال ابن القشيريّ: ما ثبتَ بالاستفاضة أو التواتر أنَّه قُرِئ به فلا بدَّ من جوازه، ولا يجوز أن يقال: لَحْن، ولعمري إنَّ الإسكان هاهنا أحسنُ من الإسكان في ﴿بارئْكم﴾ [البقرة: ٥٤] كما في قراءة أبي عمرو[(١)].

وروي عن ابن كثير: «ومكر السَّأْيِ» بهمزة ساكنة بعد السين، وياءٍ بعدها مكسورة[(٢)]، وهو مقلوبُ السَّيْءِ المخفَّفِ من السيِّئ، كما قال الشاعر:

ولا يَجْزونَ من حسنٍ بسَيْءٍ ... ولا يَجزونَ من غِلَظٍ بلينِ[(٣)]

وقرأ ابن مسعود: «ومكراً سيِّئاً»[(٤)] عَطَفَ نكرةً على نكرة.

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾ أي: لا يحيطُ ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ وقال الراغب: أي: لا يصيبُ ولا ينزل[(٥)]. وأيَّاما كان فهو إنَّما وردَ فيما يُكره.

وزعم بعضُهم أنَّ أصلَ حاق: حقَّ، فجيء بدل أحد المثلين بالألف نحو: ذمَّ وذام، وزلَّ وزال، وهذا من إرسال المَثَل، ومن أمثال العرب: مَن حفر لأخيه جبّاً وقع فيه منكبّاً.

وعن كعب أنَّه قال لابن عباس: قرأتُ في التوراة: مَن حفر مغواةً وقعَ فيها. قال: أنا وجدت ذلك في كتاب الله تعالى، فقرأ الآية.

وفي الخبر: «لا تمكروا ولا تعينوا ماكراً، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ

---

(١) التيسير ص ٧٣.
(٢) القراءات الشاذة ص ١٢٤، والبحر المحيط ٧/ ٣٢٠.
(٣) البيت لأبي الغول الطهوي، وهو في الحماسة ١/ ١٦ (شرح التبريزي)، وكتاب الحيوان ٣/ ١٠٦، والشعر والشعراء ١/ ٤٢٩، والأمالي ١/ ٢٦٤، والخزانة ٨/ ٣١٤.
ووقع في كتاب الحيوان وفي الشعر والشعراء: من خير بشر، بدل: من حسن بسيء.
(٤) المحتسب ٢/ ٢٠٢، والكشاف ٣/ ٣١٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٤٣، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٩٨، والبحر المحيط ٧/ ٣٢٠.
(٥) المفردات (حاق).

﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، ولا تبغوا ولا تعينوا باغياً، فإنَّ الله سبحانه يقول: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣]»[١].

وقد حاقَ مكرُ هؤلاء بهم يوم بدر. والآية عامَّة على الصحيح، والأمور بعواقبها، والله تعالى يُمهِلُ ولا يُهمِل، ووراءَ الدنيا الآخرة ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

وبالجملة مَنْ مَكَرَ به غيرُه، ونفذَ فيه المكرُ عاجلاً في الظاهر، ففي الحقيقة هو الفائز، والماكرُ هو الهالك، أسألُ الله تعالى بحرمةِ حبيبه الأعظم ﷺ أن يدفعَ ويرفعَ عنا مكرَ الماكرين، وأنْ يعاملَهم في الدارين بعَدْله، إنَّه سبحانه القويُّ المتين.

وقُرِئ: «ولا يُحيق» بضمِّ الياء «المكرَ السيئ» بالنصب[٢]، على أنَّ يُحِيقُ من أحاق المتعدِّي، وفاعلُه ضميرٌ راجعٌ إليه تعالى، و«المكر» مفعوله.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون، وهو مجازٌ بجعل ما يُستقبَلُ بمنزلة ما يُنتظر ويُتوقَّع ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: إلَّا سنَّةَ الله تعالى فيهم بتعذيب مكذِّبيهم.

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ بأنْ يضعَ سبحانه موضع العذاب غير العذاب[٣] ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ بأنْ ينقلَ عذابَه من المكذِّبين إلى غيرهم. والفاء لتعليل ما يفيدُه الحكم بانتظارهم العذابَ من مجيئه.

ونفيُ وجدانِ التبديل والتحويل عبارةٌ عن نفي وجودهما بالطريق البرهانيّ، وتخصيصُ كلٍّ منهما بنفيٍ مستقلٍّ؛ لتأكيد انتفائهما، والخطاب عامٌّ، أو خاصٌّ به عليه الصلاة والسلام.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ استشهادٌ على ما قبله من جريان سنَّة الله تعالى على تعذيب المكذِّبين بما يشاهدونه في مسايرهم ومتاجرهم في رحلتِهم إلى الشام واليمن والعراق من آثار الأمم الماضية، وعلامات هلاكهم.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٧٢٥) من طريق الزهري عن النبي ﷺ مرسلاً.

(٢) الكشاف ٣/ ٣١٢، والبحر المحيط ٧/ ٣٢٠.

(٣) قوله: غير العذاب. ساقط من (م).

والهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدَّرٍ يليقُ بالمقام ـ على رأي ـ أي: أَقَعَدوا ولم يسيروا.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ﴾ في موضع الحال بتقدير «قد»، أو بدونها.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ﴾ أي: ليس من شأنه عزَّ شأنه أن يسبقَه ويفوتَه ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ أي: شيءٌ، و«من» لاستغراق الأشياء ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ هو نظيرُ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً﴾ [الكهف: ٤٩] والواو حالية أو عاطفة.

وفي «الإرشاد»: الجملةُ اعتراضٌ مقرِّرٌ لمَا يُفهم ممَّا قبلَه من استئصال الأمم السالفة[١]. وظاهره أنَّ الواو اعتراضية.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ٤٤﴾ مبالغاً في العلم والقدرة، والجملةُ تعليلٌ لنفي الإعجاز.

﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ جميعاً ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ فعلوا من السيئات كما واخذ أولئك ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا﴾ أي: ظهر الأرض، وقد سبق ذكرها في قوله تعالى: (فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ) فليس من الإضمار قبل الذكر كما زعمه الرضيُّ.

وظهرُ الأرض مجاز عن ظاهرها، كما قال الراغب[٢] وغيره. وقيل: في الكلام استعارةٌ مكنيَّةٌ تخييليَّةٌ، والمراد: ما ترك عليها.

﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ أي: من حيوانٍ يدِبُّ على الأرض؛ لشؤم المعاصي، وقد قال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال: ٢٥] وهو المرويُّ عن ابن مسعود.

وقيل: المراد بالدابَّة الإنس وحدَهم، وأيِّد بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ﴾ وهو يوم القيامة، فإنَّ الضميرَ للناس؛ لأنَّه ضميرُ العقلاء، ويومُ القيامة الأجلُ المضروب لبقاء نوعهم.

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ١٥٧.

(٢) في المفردات (ظهر).

وقيل: هو لجميع من ذكر تغليباً، ويوم القيامة الأجلُ المضروب لبقاء جنس المخلوقات.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ فيجازي المكلَّفين منهم عندَ ذلك بأعمالهم، إنْ شرّاً فشرّ، وإن خيراً فخير. وجملة: «فإنَّ الله» إلخ موضوعةٌ موضعَ الجزاء، والجزاءُ في الحقيقة: يُجازي[1]، كما أشرنا إليه[2].

هذا والله تعالى هو الموفِّق للخير ولا اعتماد إلَّا عليه.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارةٌ إلى إيجاد عالَمي اللطافة والكثافة، وإلى أنَّ إيجادَ عالم اللطافة مقدَّمٌ على إيجاد عالم الكثافة، ويشيرُ إلى ذلك ما شاعَ: خَلَقَ الله تعالى الأرواحَ قبل الأبدان بأربعة آلاف سنة[3].

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ في إيصال أوامره إلى مَنْ يشاءُ من عباده، أو وسائطَ تَجْري إرادتُه سبحانه في مخلوقاته على أيديهم ﴿أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ إشارةٌ إلى اختلافهم في الاستعداد ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ عامٌّ في المَلَك وغيره، وفسِّرت الزيادة بهبة استعدادِ رؤيته عزَّ وجلَّ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة.

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ الزيادة المشار إليها وغيرها ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ رحمته سبحانه سبقت غضبه عزَّ وجلَّ.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسليةٌ لحبيبه ﷺ، وإرشادٌ لورثته إلى الصبر على إيذاء أعدائهم لهم، وتكذيبِهم إيَّاهم، وإنكارهم عليهم.

---

(١) في الأصل: مجازي. وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) يعني في قوله: فيجازي المكلفين...، فهو إشارة إلى أن قوله: «فإن الله» إلخ ليس هو الجزاء، بل وضع موضعه لأنه مجاز عن الجزاء. ينظر حاشية الشهاب ٧/ ٢٣١.

(٣) سلف ١٣/ ٤٦١. وفيه: بألفي سنة.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ جرت سنَّته تعالى في إحياء الأرض بهذه الكيفيَّة، كذلك إذا أرادَ سبحانه إحياءَ أرض القلب، فيرسلُ أوّلاً رياحَ الإرادة، فتثيرُ سحابَ المحبَّة، ثمَّ يأتي مطرُ الجود والعناية، فينبتُ في القلب رياحين الروح، وأزهار البسط، ونوّار الأنوار، ويطيبُ العيش.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ العزَّةَ الحقيقيَّةَ لا تحصلُ بدون الفناء، ولا تغفل عن حديث: «لا يزال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل»(١) إلخ.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وهو أبعدُ المخلوقاتِ من الحضرة وأسفلُها وأكثفُها ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وفيها نوعٌ ما من اللطافة ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ إشارةٌ إلى ما حصل لهم من ازدواج الروح اللطيف العلويِّ والقالب الكثيف السفليِّ، وهو مبدأُ استعدادِ الوقوف على عوالم الغيب والشهادة.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾ قيل: أي: بحرُ العلم الوهبيِّ، وبحرُ العلم الكسبيِّ ﴿هَٰذَا﴾ أي: بحرُ العلم الوهبيِّ ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ لخلوِّه عن عوارضِ الشكوك والأوهام ﴿وَهَٰذَا﴾ أي: بحرُ العلم الكسبيِّ ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ لما فيه من مشقَّة الفكر، ومرارةِ الكسب، وعروض الشكوك والتردُّد والاضطراب ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ إشاراتٍ لطيفةً تتغذَّون بها، وتتقوَّون على الأعمال ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وهي الأخلاقُ الفاضلةُ، والآدابُ الجميلة، والأحوال المستحسنة التي تُكسبُ صاحبَها زينةً ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾ سفن الشريعة والطريقة ﴿فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ جاريةً ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالوصول إلى حضرته عزَّ وجلَّ فعل ذلك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في سائر شؤونكم، ومراتبُ الفقر متفاوتةٌ، وكلَّما ازداد الإنسان قرباً منه عزَّ وجلَّ ازدادَ فقره إليه؛ لازدياد المحبَّة حينئذٍ، وكلَّما زاد العشقُ زاد فقرُ العاشق إلى المعشوق حتى يفنى ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فيه من البشارة ما فيه.

---

(١) سلف ١/ ١٣٢.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ أي: العلماء به تعالى وبشؤونه، فهم كلَّما ازدادوا علماً ازدادوا خشيةً؛ لما يظهر لهم من عظمته عزَّ وجلَّ، وأنَّهم بالنسبة إليه تعالى شأنُه لا شيء.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ قيل: الظالمُ لنفسه السالكُ، والمقتصد السالكُ المجذوبُ، والسابق المجذوبُ السالك. والسالك هو المتقرِّب، والمجذوب هو المقرَّبُ، والمجذوب السالك هو المستهلك في كمالات القرب، الفاني عن نفسه، الباقي بربِّه عزَّ وجلَّ.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ﴾ حَزَنَ تخيُّل الهَجْر، فلا حزن للعاشق أعظمُ من حزن تخيُّل هجر معشوقه له وجفوته إياه ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ فلا بِدعَ إذا أذهبَ عنَّا ذلك، وآمننا من القطيعة والهجران.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ هو نَصبُ الأبدان وتعبُها من أعمال الطاعة للتقرُّب إليه سبحانه ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ هو لغوبُ القلوب واضطرابُها من تخيُّل القطيعة والردِّ وهجر الحبيب.

وقيل: لا يمسُّنا فيها نصبُ السعي في تحصيل أيِّ أمرٍ أردناه، ولا يمسُّنا فيها لغوبُ تخيُّل ذهاب أيِّ مطلوبٍ حصَّلناه. وقد أشاروا إلى أنَّ كلَّ ذلك من فضلِ الله تعالى، والله عزَّ وجلَّ ذو الفضل العظيم.

هذا ونسألُ الله تعالى من فضلِه الحلو ما تنشقُّ منه مرارةُ الحسود، وينفطرُ به قلبُ كلِّ عدوٍّ، وينتعشُ فؤادُ كلِّ محبٍّ ودود.

(سورة الملائكة) فاطر

مكية وهي خمس وأربعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حمد ذاته تعليمًا وتعظيمًا ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مبتدئها ومبتدعها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كنت أدري معنى الفاطر حتى اختصم إليَّ أعرابيان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها. أي ابتدأتها ﴿وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ إلى عباده ﴿أُوْلِىٓ﴾ ذوي اسم جمع لذو وهو بدل من ﴿رُسُلًا﴾ أو نعت له ﴿أَجْنِحَةٍ﴾ جمع جناح ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ صفات لأجنحة، وإنما لم تنصرف لتكرر العدل فيها وذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد عن صيغ إلى صيغ أُخر كما عدل عمر عن عامر وعن تكرير إلى غير تكرير. وقيل: للعدل والوصف والتعويل عليه، والمعنى أن الملائكة طائفة أجنحتهم اثنان اثنان أي لكل واحد منهم جناحان، وطائفة أجنحتهم ثلاثة ثلاثة، ولعل الثالث يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدّهما بقوة، وطائفة أجنحتهم أربعة أربعة ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ أي يزيد في خلق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله: **(سورة الملائكة)** وتُسمى سورة فاطر.

الأجنحة وغيره ﴿مَا يَشَآءُ﴾ وقيل: هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن والخط الحسن والملاحة في العينين، والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق من طول قامة واعتدال صورة وتمام في الأعضاء وقوة في البطش و(**حصافة**) في العقل و(**جزالة**) في الرأي و(**ذلاقة**) في اللسان ومحبة في قلوب المؤمنين وما أشبه ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قادر.

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ نكرت الرحمة للإشاعة والإبهام كأنه قال من آية رحمة رزق أو مطر أو صحة أو غير ذلك ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ فلا أحد يقدر على إمساكها وحبسها، واستعير الفتح للإطلاق والإرسال ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ يمنع ويحبس ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ مطلق له ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد إمساكه. وأنت الضمير الراجع إلى الإسم المتضمن معنى الشرط على معنى الرحمة، ثم ذكره حملًا على اللفظ المرجع إليه إذ لا تأنيث فيه لأن الأول فسّر بالرحمة فحَسُن اتباع الضمير التفسير، ولم يفسّر الثاني فترك على أصل التذكير. (**وعن معاذ بن جبل**) مرفوعًا: «لا تزال يد الله مبسوطة على هذه الأمة ما لم يرفق خيارهم بشرارهم ويعظم برّهم فاجرهم تُعِنْ قراؤهم أمراءهم على معصية الله فإذا فعلوا ذلك نزع الله يده عنهم». ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على الإرسال والإمساك ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يرسل ويمسك ما تقتضي الحكمة إرساله وإمساكه.

قوله: (**حصافة**) بالحاء والصاد المهملتين والفاء في العقل أي استحكامه وقوته كما في القاموس. **قوله**: (**جَزالة**) أي جَوْدة. **قوله**: (**ذَلَاقة**) أي فصاحة.

قوله: (**عن معاذ بن جبل**) بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي وكان يكنّى أبا عبد الرحمٰن وهو أحد السبعين الذين شهدوا العقبة من الأنصار وشهد بدرًا وأُحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان عمره لما أسلم ثماني عشرة سنة وتُوفي في طاعون عمواس[1] سنة ثمان عشرة وكان عمره ثمان وثلاثين سنة.

---

(١) قوله: عمواس بالفتح بلدة في الشام بقرب المقدس وكانت قديمًا مدينة عظيمة وطاعون عمواس كان في أيام عمر رضي الله عنه كذا في المصباح.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٣﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ﴾ باللسان والقلب ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ وهي التي تقدَّمت من بسط الأرض كالمِهاد، ورفع السماء بلا عماد، وإرسال الرُّسُل لبيان السبيل دعوة إليه وزلفة لديه، والزيادة في الخلق وفتح أبواب الرزق. ثم نبَّه على رأس النِّعَم وهو اتحاد المُنعِم بقوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ برفع ﴿غَيۡرُ﴾ على الوصف لأن ﴿خَٰلِقٍ﴾ مبتدأ خبره محذوف أي لكم. (**وبالجر: عليّ وحمزة على الوصف لفظًا**) ﴿يَرۡزُقُكُم﴾ يجوز أن يكون مستأنفًا ويجوز أن يكون صفة لـ ﴿خَٰلِقٍ﴾ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بالمطر ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بأنواع النبات ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة مفصولة لا محل لها ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ فبأيِّ وجه تُصرَفون عن التوحيد إلى الشِّرك.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٤﴾

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ﴾ نعى به على قريش سوء تلقِّيهم لآيات الله وتكذيبهم بها، وسلى رسوله بأن له في الأنبياء قبلهُ أُسوة ولهذا نكر ﴿رُسُلٞ﴾ أي رسل ذوو عدد كبير وأولو آيات ونُذُر وأهل أعمال طِوال وأصحاب صبر وعزم لأنه أسلى له، وتقدير الكلام وإن يكذِّبوك فتأس بتكذيب الرُّسُل من قبلك لأن الجزاء يتعقب الشرط، ولو أجري على الظاهر يكون سابقًا عليه. ووضع ﴿فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ﴾ موضع «فتأس» استغناء بالسبب عن المسبّب أي بالتكذيب عن التأسّي ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ كلام يشتمل على الوعد والوعيد من رجوع الأمور إلى حكمه ومُجازاة المكذِّب والمكذَّب بما يستحقانه، (**﴿ترجع﴾ بفتح التاء: شامي وحمزة وعليّ ويعقوب وخلف وسهل**).

قوله: (**وبالجر: عليّ وحمزة على الوصف لفظًا**) أي قرأ علي الكسائي وحمزة بكسر الراء نعتًا لخالق على اللفظ و﴿مِنۡ خَٰلِقٍ﴾ [فاطر: الآية ٣] مبتدأ فزاد فيه من والباقون بالرفع.

قوله: (**﴿ترجع﴾ بفتح التاء: شاميّ وحمزة وعليّ ويعقوب وخلف وسهل**) أي قرأه ابن عامر الشامي وحمزة وعليّ الكسائي وهم من السبعة ويعقوب بن

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث والجزاء ﴿حَقّٞۖ﴾ كائن ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ فلا تخدعنكم الدنيا ولا يذهلنَّكم التمتّع بها والتلذّذ بمنافعها عن العمل للآخرة وطلب ما عند الله ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ (ٱلۡغَرُورُ)﴾ أي الشيطان فإنه يمنّيكم الأمانيّ الكاذبة ويقول: إن الله غنيٌّ عن عبادتك وعن تكذيبك ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾ ظاهر العداوة فعل بأبيكم ما فعل وأنتم تعاملونه معاملة مَن لا علم له بأحواله ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ في عقائدكم وأفعالكم ولا يوجَدَنَّ منكم إلا ما يدلّ على مُعاداته في سرّكم وجهركم. ثم لخّص سرّ أمره وخطأ مَن اتبعه بأن غرضه الذي يؤمّه في دعوة شيعته هو أن يوردهم مورد الهلاك بقوله: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ۝٧﴾

ثم كشف الغطاء فبنى الأمر كله على الإيمان وتركه فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾ أي فمَن أجابه حين دعاه فله عذاب شديد لأنه صار من حزبه أي أتباعه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولم يُجيبوه ولم يصيروا من حزبه بل عادوه ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ﴾ لكبر جهادهم. ولما ذكر الفريقين قال

إسحٰق وخلف بن هشام وسهل بن محمد وليسوا من السبعة في الإتحاف وقرأ ﴿تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ بضم التاء وفتح الجيم مبنيًا للمفعول نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر. اهـ.

وقوله: (وأبو جعفر) هو يزيد بن القعقاع المدنيّ وليس من السبعة.

قوله: (﴿ٱلۡغَرُورُ﴾) بالفتح صيغة للمبالغة كالصبور والشكور وقرىء[1] بالضم وهو مصدر كالجلوس أو جمع غار كقاعد وقعود.

---

(١) القارىء أبو السماك وأبو حيوة.

لنبيِّه عليه السلام:

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾ بتزيين الشيطان كمن لم يزين له فكأن رسول الله ﷺ قال: لا، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ﴾ وذكر **(الزجّاج)** أن المعنى: أفمن زُيِّنَ له سوء عمله ذهبت نفسك عليه حسرة، فحذف الجواب لدلالة ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾ عليه، أو أفمن زُيِّنَ له سوء علمه كمَن هداه الله فحذف لدلالة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۖ﴾ عليه. ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾: يريد أي لا تهلكها ﴿حَسَرَٰتٍۚ﴾ مفعول له يعني فلا تهلك نفسك للحسرات و﴿عَلَيْهِمْ﴾ صلة ﴿تَذْهَبْ﴾ كما تقول: هلك عليه حبًّا ومات عليه حزنًا. **(ولا يجوز أن يتعلق بـ ﴿حَسَرَٰتٍ﴾)** لأن المصدرَ لا تتقدم عليه صلته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ (**﴿ٱلرِّيحُ﴾ مكي وحمزة وعلي**) ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ (﴿مَّيِّتٍ﴾ **بالتشديد: مدني**) وحمزة وعلي وحفص، وبالتخفيف: غيرهم. ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ بالمطر لتقدم ذكره ضمنًا ﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ﴾ يبسها. وإنما قيل: ﴿فَتُثِيرُ﴾

قوله: **(الزجّاج)** هو أبو إسحٰق إبراهيم بن محمد. **قوله**: **(ولا يجوز أن يتعلّق بـ ﴿حَسَرَٰتٍ﴾...)** الخ وجمع الحسرات مع كونه مصدرًا يحتمل القليل والكثير للدلالة على كثرة أفراد نفس اغتمامه أو للدلالة على كثرة أفراد ما يكون سببًا لاغتمامه من أحوالهم القبيحة فعلى الأول تكون حسرات حقيقة، وعلى الثاني تكون مجازًا مرسلًا على طريق إطلاق اللازم وإرادة الملزوم.

قوله: (**﴿ٱلرِّيحُ﴾ مكيّ وحمزة وعليّ**) أي قرأ ابن كثير المكيّ وحمزة وعليّ الكسائي بالتوحيد والباقون بالجمع. **قوله**: (**﴿مَيِّتٌ﴾ بالتشديد**) أي بتشديد الياء.
قوله: **(مدنيّ)** أي نافع المدنيّ.

لتحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب وتستحضر تلك الصورة الدَّالَّة على القدرة الربَّانية، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب، وكذلك سَوْق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها. لمّا كان من الدليل على القدرة الباهرة قيل: فسُقنا وأحيينا **(معدولًا بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدلّ عليه)** ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ الكاف في محل الرفع أي مثل إحياء الموات نشور الأموات، قيل: يحيي الله الخلق بماء يرسله من تحت العرش كمَنِيِّ الرجال **(تنبت منه أجساد الخلق)**.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ أي العزّة كلها مختصّة، بالله عزّة الدنيا وعزّة الآخرة وكان الكافرون يتعزّزون بالأصنام كما قال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ [مريم: الآية ٨١]. والذين آمنوا بألسنتهم من غير مُواطأة قلوبهم كانوا يتعزّزون بالمشريكن كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: الآية ١٣٩]. فبيّن أن لا عزّة إلا بالله. والمعنى فليطلبها عند الله فوضع قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾موضعه استغناء عنه به لدلالته عليه لأن الشيء لا يُطلَب إلا عند صاحبه ومالكه ونظيره قولك: «مَن أراد النصيحة فهي عند الأبرار». تريد فليطلبها عندهم إلا أنك أقمت ما يدلّ عليه مقامه، وفي حديث «إن ربكم يقول كل يوم أنا العزيز فمَن أراد عزّ الدّارين فليُطِع العزيز». ثم عرّف أن ما يُطلَب به العزّة هو الإيمان والعمل الصالح بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ﴾ ومعنى قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى محل القبول والرّضا وكل ما اتصّف بالقبول وصف بالرّفعة والصعود، أو إلى حيث لا ينفذ فيه إلا حُكمه والكَلِم الطيب كلمات التوحيد أي لا إلـه إلّا الله. وكان

قوله: (معدولًا بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدلّ عليه)وجه دلالة ضمير المتكلم على قوة الاختصاص وكونه أدخل فيه كونه أعرف من الغائب إذ لا التباس فيه بخلاف الغائب فإنه لا يخلو عن شوب اللبس. **قوله: (تنبت منه)**أي بسببه **(أجساد الخلق)**من عجز الذنب على ما ورد في الآثار.

القِياس الطيبة ولكن كل جمع ليس بينه وبين واحده إلا التاء يُذَكَّر ويُؤَنَّث. والعمل الصالح العبادة الخالصة يعني والعمل الصالح يرفعه الكَلم الطيب فالرافِع الكَلم والمرفوع العمل لأنه لا يقبل عمل إلا مَن هو موحّد. وقيل: الرافع الله والمرفوع العمل، أي العمل الصالح يرفعه الله، وفيه إشارة إلى أن العمل يتوقف على الرفع والكَلم الطيب يصعد بنفسه. وقيل: العمل الصالح يرفع العامِل ويُشرِّفه، أي مَن أراد العزّة فليعمل عملًا صالحًا فإنه هو الذي يرفع العبد ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هي صفة لمصدر محذوف أي المكرات السيئات لأن مكر فعل غير متعدٍّ، لا يُقال مكر فلان عمله. والمراد مكر قريش به عليه السلام حين اجتمعوا **(في دار الندوة كما قال الله تعالى:** ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ﴾) [الأنفال: الآية ١٣٠] **(الآية)**، ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾ في الآخرة، ﴿وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿هُوَ﴾ فصل ﴿يَبُورُ﴾ خبر أي ومكر أولئك الذين مكروا هو خاصّة يبور أي يفسد ويبطل دون مكر الله بهم حين أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم **(في قليب بدر)** فجمع عليهم مكراتهم جمعاء حقّق بهم قوله تعالى: (﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾)

قوله: (في دار النَّدْوة) أي في الدار التي تقع فيها الندوة أي الاجتماع والتحدّث فالندوة مصدر ودار الندوة هي التي بناها قصيّ بمكة كانوا يجتمعون فيها للمشاورة لأن يتفقوا على رأي في شأن رسول الله ﷺ ويمكروا به فلما حجّ معاوية اشتراها من الزبير العبدري بمائة ألف درهم ثم صارت كلها بالمسجد الحرام وهي في جانبه الشمالي.

قوله: (كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ﴾[1] **الآية)** في تفسير الجلالين واذكر يا محمد (﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾) وقد اجتمعوا للمشاورة في شأنك بدار الندوة[2] (﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾) يوثقوك ويحبسوك (﴿أَوۡ يَقۡتُلُوكَ﴾) كلهم قتلة رجل واحد (﴿أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ﴾) من مكة (﴿وَيَمۡكُرُونَ﴾) بك (﴿وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ﴾) بهم بتدبير أمرك بأن أوحى إليك ما دبروه وأمرك بالخروج (﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾) أعلمهم به. اهـ. **قوله: (في قليب بدر)** القليب البئر قبل أن تطوى يذكر ويؤنّث

---

(١) الإثبات الحبس وقيل: جرح مُوهِن لا يقدر المجروح معه على الحركة.

(٢) رواه يعقوب بن إسحٰق الحضرمي البصري ثلاثة زيد ورَوْح ورُوَيْس.

[الأنفال: الآية ٣٠]، وقوله: ﴿(وَلَا يَحِيقُ) ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: الآية ٤٣].

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (١١)﴾

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم﴾ (أي أباكم) ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ﴾ أنشأكم ﴿مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أصنافًا أو ذكرانًا وإناثًا ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ هو في موضع الحال أي إلا معلومة له ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي وما يعمر من أحد. وإنما سمّاه معمرًا بما هو صائر إليه ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ يعني اللوح أو صحيفة الإنسان (ولا ينقص زيد). فإن قلت: الإنسان إما معمّر أو طويل العمر أو منقوص العمر أي قصيره، فأما أن يتعاقب عليه التعمير وخلافه فمُحال فكيف صحَّ قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾؟ قلت: هذا من الكلام المُتسامَح فيه ثقة في تأويله بأفهام السامعين واتّكالاً على تسديدهم معناه بعقولهم وأنه لا يلتبس عليهم إحالة الطول والقصر في عمر واحد وعليه كلام الناس يقولون: لا يُثيب الله عبدًا ولا يعاقبه إلا بحق. أو تأويل الآية أنه يُكتَب في الصحيفة عمره كذا كذا سنة ثم يُكتَب في أسفل ذلك ذهب يوم ذهب يومان حتى يأتي على آخره فذلك نقصان عمره. وعن (قتادة): المعمّر مَن يبلغ ستين سنة والمنقوص مَن عمره مَن يموت قبل ستين سنة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي إحصاءه أو زيادة العمر ونقصانه ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سهل.

والمراد بها بئر معينة ببدر وبدرٌ ماء بين مكة والمدينة. **قوله**: (﴿وَلَا يَحِيقُ﴾) يحيط وينزل.

قوله: (أي أباكم) فيكون المضاف مقدرًا. **قوله**: (ولا ينقص زيد) أي قرأه زيد بن أحمد بن إسحٰق بفتح الياء التحتية وضم القاف مبنيًا للفاعل وهو ضمير المعمر والباقون بضم الياء وفتح القاف مبنيًا للمفعول والنائب مستتر يعود على المعمر أيضًا. وفي تفسير النيسابوري ولا ينقص بفتح الياء وضم القاف روح وزيد الباقون بالعكس. اهـ. **وقوله**: رَوْح بن عبد المؤمن. **قوله**: (قتادة) بن دِعَامة بكسر الدال المهملة ابن قتادة بن عَزِيز البصري التابعي وُلد أعمى سمع أنس بن

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا﴾ أي أحدهما ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ شديد العذوبة. وقيل: (**هو**) الذي (**يكسر العطش** ﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ **مريء**) سهل (**الانحدار**) لعذوبته (**وبه ينتفع شرابه**) ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة. وقيل: (**هو الذي يحرق بملوحته**) ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ ومن كل واحد منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وهي اللؤلؤ والمرجان ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ﴾ في كل ﴿مَوَاخِرَ﴾ شواق للماء بجريها. يقال: مَخَرَت السفينة الماء أي شقته وهي جمع ماخرة

مالك وعبد الله بن سرجس وأبا الطفيل وابن المسيّب وأبا عثمان النهدي والحسن وابن سيرين وعكرمة وزرارة بن أوفى والشعبي وخلائق غيرهم من التابعين روى عنه جماعة من التابعين منهم سليمان التيمي وحميد الطويل والأعمش وأيوب وخلائق من تابعي التابعين منهم مطر الورّاق وجرير بن حازم وشعبة والأوزاعي وغيرهم، وأجمعوا على جلالته وتوثيقه وحفظه وإتقانه وفضله تُوفي قتادة سنة سبع عشرة وقيل: ثمان عشرة ومائة وهو ابن ست وخمسين سنة، وقيل: خمس وخمسين.

قوله: (**هو**) أي الفرات (**الذي يكسر العطش**) أي يزيله والكسر مستعار للإزالة لأنه كسر معنويّ كما أن إيمان المؤمن يكسر الأهواء الرديئة ويقمع الشهوات الشهية. **قوله**: (﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾) يقال: ساغ الشراب يسوغ سوغًا أي سهل دخوله في الحلق لعذوبته لا يتنفر منه شاربه بل يجذبه طبعه لملائمته له وسغته أنا يتعدى ولا يتعدى. **قوله**: (**مريء**) بفتح الميم وبالمد وبالهمزة هو المحمود العاقبة لا وباء فيه **في لسان العرب** يقال: مَرَاءَني الطعام وأمرأني إذا لم يثقل على المعدة وانحدر عنها طيبًا. اهـ. **قوله**: (**الانحدار**) الانهباط كذا في مختار الصحاح. **قوله**: (**وبه ينتفع شرابه**) لاعتماده على المبتدأ. **قوله**: (**هو**) أي الأجاج (**الذي يحرق**) أي يؤذي مَن يتناوله (**بملوحته**) كما أن الكفر يحرق الفؤاد ويقطع الأكباد ويفسد الفطرة السليمة ويوصل إلى الشقاوة المؤبدة فالإحراق هنا أيضًا مستعار للأذيّة.

﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ من فضل الله ولم يجر له ذكر في الآية ولكن فيما قبلها ولو لم يجرِ لم يشكُل لدلالة المعنى عليه ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على ما أتاكم من فضله. ضرب البحرين العذب والملح مثلين للمؤمن والكافر. ثم قال على سبيل الاستطراد في صفة البحرين وما علّق بهما من نعمته وعطائه، ويحتمل غير طريقة الاستطراد وهو أن يشبّه الجنسين بالبحرين ثم يفضّل البحر الأجاج على الكافر بأنه قد شارك العذب في منافع من السمك واللؤلؤ وجَرْي الفُلْك فيه. والكافر خلوّ من النفع فهو في طريقة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، ثم قال: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ﴾ [البقرة: الآية ٧٤].

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ يُدخِل من ساعات أحدهما في الآخر حتى يصير الزائد منهما خمس عشرة ساعة والناقص تسعًا ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي ذلّل أضواء صوره لاستواء سيره ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي يوم القيامة ينقطع جريهما ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ مبتدأ ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ أخبار مترادفة أو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ خبر إن و﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ جملة مبتدأة واقعة في قران قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأصنام التي تعبدونها من دون الله **(يدعون قتيبة)** ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ هي القشرة الرقيقة الملتفّة على **(النواة)**.

قوله: **(يدعون)** على الغيبة (قُتَيْبة[1]) بن مهران الأزراني. **قوله**: **(النَّواة)** عجمة[2] التمر.

---

(١) لعلي الكسائي ستة رواة أبو عبد الرحمٰن قتيبة بن مهران ونُصَير بن يوسف وأبو الحارث وأبو حمدون وحمدون بن ميمون وأبو عمر.

(٢) واحدة العجم بفتحتين.

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ أي الأصنام ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ لأنهم جماد ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟﴾ على سبيل الفرض ﴿مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ لأنهم لا يدّعون ما تدّعون لهم من الإلـٰهية ويتبرؤون منها ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ بإشراككم لهم وعبادتكم إياهم ويقولون ما كنتم إيّانا تعبدون ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ولا ينبئك أيها المَفتون بأسباب الغرور كما ينبئك الله الخبير (**بخبايا الأمور**) وتحقيقه ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير عالِم به يريد أن الخبير بالأمر وحده هو الذي يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به، والمعنى أن هذا الذي أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق لأني خبير بما أخبرت به.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قال (**ذو النون**): الخلق مُحتاجون إليه في كل نفس وخطرة ولحظة وكيف لا ووجودهم به وبقاؤهم به! ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن الأشياء أجمع ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المحمود بكل لسان، ولم يُسَمِّهم بالفقراء للتحقير بل للتعريض على الاستغناء ولهذا وصف نفسه بالغني الذي هو مطعم الأغنياء، وذكر الحميد ليدلّ به على أنه الغني النافع بغِناه خلقه والجَواد المُنعِم عليهم إذ ليس كل غني نافعًا بغِناه إلا إذا كان الغني جوادًا مُنعِمًا وإذا جاد وأنعَم حمده المُنعَم عليهم. قال (**سهل**): لمّا خلق الله الخَلْق حكم لنفسه بالغِنى ولهم بالفقر، فمَن ادّعى الغِنى حجب عن الله، ومَن أظهر فقره أوصله فقره إليه. فينبغي للعبد أن

قوله: (**بخبايا الأمور**) في **لسان العرب** الخبء كل شيء غائب مستور وخبأت الشيء خَبْأً إذا أَخْفَيْتُه والخَبْءُ والخَبِيء والخَبِيئَة الشيء المَخْبُوءُ. اهـ. وأيضًا فيه واحد الخبايا خَبِيئة مثل خطيئة وخطايا. اهـ.

قوله: (**ذو النون**) المصري اسمه ثوبان بن إبراهيم. وقيل: الفيض بن إبراهيم تُوفي سنة خمس وأربعين ومائتين كان أوحد وقته علمًا وورعًا وحالًا وأدبًا وهو معدود في جملة مَن روى الموطأ عن الإمام مالك رضي الله تعالى عنه، وكان رجلًا نحيفًا تعلوه حمرة ليس بأبيض اللحية. **قوله**: (**سهل**) بن عبد الله التستري

يكون مُفتَقِرًا بالسرّ إليه ومنقطعًا عن الغير إليه حتى تكون عبوديته مَحضَة، فالعبودية هي الذلّ والخضوع وعلامته أن لا يسأل من أحد. وقال (**الواسطي**): مَن استغنى بالله لا يفتقر ومَن تعزَّز بالله لا يذلّ. وقال (**الحسين**): على مقدار افتقار العبد إلى الله يكون غنيًّا بالله وكلما ازداد افتقارًا ازداد غِنًى. وقال (**يحيىٰ بن معاذ**): الفقر خير للعبد من الغني لأن المَذَلَّة في الفقر والكِبْر في الغنى، والرجوع إلى الله بالتواضع، والذلَّة خير من الرجوع إليه بتكثير الأعمال. وقيل: صفة الأولياء ثلاثة: الثقة بالله في كل شيء، والفقر إليه في كل شيء، والرجوع إليه من كل شيء. وقال (**الشبلي**): الفقر يجرّ (**البلاء**) وبلاؤه كله عزٌّ.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ كلكم إلى العدم فإن غِناه بذاته لا بكم في القِدَم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو بدون حمدكم حميد ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ الإنشاء والإفناء ﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بممتنع. وعن ابن عباس: يخلق بعدكم مَن يعبده لا يُشرِك به شيئًا.

أحد أئمة القوم لم يكن له في وقته نظير في المعاملات والورع وكان صاحب كرامات لقي ذا النون المصري بمكة سنة خروجه إلى الحج، تُوفي كما قيل سنة ثلاث وثمانين ومائتين وقيل: ثلاث وسبعين ومائتين. **قوله**: (**الواسطي**) هو أبو بكر محمد بن موسى خراساني الأصل من فرغانة صحب الجنيد والنوري عالم كبير الشأن، أقام بمرو ومات بها بعد العشرين وثلاثمائة.

قوله: (**الحسين**) بن علي بن يزدانيار من أرمينية له طريقة يختص بها في التصوّف وكان عالمًا ورعًا وكان ينكر على بعض العارفين في إطلاقات وألفاظ لهم. **قوله**: (**يحيىٰ بن معاذ**) الرازي الواعظ نسيج وحده في وقته خرج إلى بلخ وأقام بها مدة ورجع إلى نيسابور ومات بها سنة ثمان وخمسين ومائتين. **قوله**: (**الشبلي**) هو أبو بكر دلف بن جحدر بغدادي المولد والمنشأ وأصله من أسروشنة صحب الجُنيد ومن في عصره وكان نسيج وحده حالًا وظرفًا وعلمًا مالكيّ المذهب عاش سبعًا وثمانين سنة ومات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وقبره ببغداد. **قوله**: (**البلاء**) في الصحاح للجوهري البلاء الاختبار ويكون بالخير والشر. اهـ.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ **(ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى)**. والوِزْر والوقر أخوان، ووزَر الشيء إذا حمله، والوازرة صفة للنفس، والمعنى أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وِزرها الذي اقترفته لا تؤاخَذ نفس بذنب نفس كما تأخذ جبابرة الدنيا الوليّ بالوليّ والجار بالجار. وإنما قيل: ﴿وَازِرَةٌ﴾ ولم يقل ولا تزر نفس وِزْرَ أخرى، لأن المعنى أن النفوس الوازرات لا ترى منهنّ واحدة إلا حاملة وِزرها لا وِزْر غيرها. وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: الآية ١٣] وارِد في الضالّين المُضِلّين فإنهم يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم وذلك كله أوزارهم ما فيها شيء من وِزْر غيرهم، ألا ترى كيف كذّبهم الله تعالى في قولهم: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ بقوله: ﴿وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾ [العنكبوت: الآية ١٢]، ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أي نفس مُثقَلَة بالذنوب أحدًا ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ ثقلها أي ذنوبها ليتحمّل عنها بعض ذلك ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ﴾ أي المَدعو وهو مفهوم من قوله: ﴿وَإِن تَدْعُ﴾ ﴿ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ ذا قرابة قريبة كأب أو ولد أو أخ. والفرق بين معنى قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، ومعنى ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ أن الأول دالٌّ على عدل الله في حكمه وأن لا يؤاخذ نفسًا بغير ذنبها، والثاني في بيان أنه لا غِياث يومئذ لمن استغاث حتى إن نفسًا قد أثقلتها الأوزار لو دعت إلى أن يخفّف بعض وقرها لم تُجب ولم تُغث وإن كان المدعو بعض قرابتها ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ أي إنما ينتفع بإنذارك هؤلاء ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من الفاعل **(أو المفعول)** أي يخشون ربهم غائبين عن عذابه، أو يخشون عذابه غائبًا عنهم. وقيل: بالغيب في

قوله: **(ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى)** إشارة إلى أن وزرت الشيء وهي وازرة بمعنى حملته فهي حاملة وأن وازرة صفة محذوف للعلم به وإن الوزر بمعنى الحمل مستعار للإثم تشبيهًا له بالحمل في كونه مؤذيًا لصاحبه. **قوله:** **(أو المفعول)** المقدر لأن تقدير ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ يخشون عذاب ربهم فحذف المضاف.

السر حيث لا اطّلاع للغير عليه ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في مواقيتها ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ تطهّر بفِعْل الطاعات وترك المعاصي ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ وهو اعتراض مؤكد لخشيتهم وإقامتهم الصلاة لأنهما من جملة التزكّي ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع وهو وعد للمُتزكّي بالثواب.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾ مثل للكافر والمؤمن أو للجاهل والعالِم ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ مثل الكفر ﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾ للإيمان ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾ الحق والباطل أو الجنة والنار. والحرور الريح الحارّ كالسَّموم إلا أن السَّموم تكون بالنهار والحَرور بالليل والنهار. **(عن الفراء)** ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ مثل للذين دخلوا في الإسلام والذين لم يدخلوا فيه وزيادة. «لا» لتأكيد معنى النفي. والفرق بين هذه الواوات أن بعضها ضُمّت شفعًا إلى شفع وبعضها وترًا إلى وتر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ يعني أنه قد علم مَن يدخل في الإسلام ممَّن لا يدخل فيه فيهدي مَن يشاء هدايته، وأما أنت فخَفِي عليك أمرهم فلذلك تحرص على إسلام قوم مخذولين. شبّه الكُفّار بالموتى حيث لا ينتفعون بمَسموعهم.

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر فإن كان المنذر ممَّن يسمع الإنذار نفع وإن كان من المُصِرِّين فلا عليك.

قوله: (عن الفراء) هو أبو زكريا يحيىٰ بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسلمي الكوفيّ كان أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب وكان يميل إلى الاعتزال وتُوفي سنة سبع ومائتين في طريق مكة وعمره ثلاث وستون سنة، والفراء بفتح الفاء وتشديد الراء وبعدها ألف ممدودة وإنما قيل له: فرّاء ولم يكن يعمل الفراء ولا يبيعها لأنه كان يفري الكلام. ذكر ذلك الحافظ السمعاني في كتاب الأنساب وعزاه إلى كتاب الألقاب.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ **(حال من أحد الضميرين يعني محقًا أو محقّين)** أو صفة للمصدر أي إرسالًا مصحوبًا بالحق ﴿بَشِيرًا﴾ بالوعد ﴿وَنَذِيرًاۚ﴾ بالوعيد ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ وما من أُمة قبل أُمتك. والأُمة: الجماعة الكثيرة وجد عليه أُمة من الناس ولا يقال لأهل كل عصر أُمة، والمراد هنا أهل العصر وقد كانت آثار النذارة باقية فيما بين عيسى ومحمد عليهما السلام فلم تَخْلُ تلك الأُمم من نذير، وحين اندرست آثار نذارة عيسى عليه السلام ومحمد عليه السلام بعث محمد عليه السلام ﴿إِلَّا خَلَا﴾ مضى ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يخوِّفهم **(وخامة)** الطغيان وسوء عاقبة الكفران، واكتفى بالنذير عن البشير في آخر الآية بعدما ذكرهما لأن النذارة مشفوعة بالبشارة فدلَّ ذِكر النذارة على ذِكر البشارة.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ رُسُلهم ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ حال و«قد» مضمرة ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ وبالصُّحُف ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ أي التوراة والإنجيل والزَّبور. ولما كانت هذه الأشياء في جنسهم أسنَد المجيء بها إليهم إسنادًا مطلقًا وإن كان بعضها في جميعهم ـ وهي البيِّنات ـ وبعضها في بعضهم ـ وهي الزُّبُر والكتاب ـ وفيه **(مسلاة)** لرسول الله ﷺ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ﴾ عاقبت ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۖ﴾ بأنواع العقوبة ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إنكاري عليهم وتعذيبي لهم.

قوله: (**حال من أحد الضميرين يعني محقًا أو محقّين**) يعني أن قوله بالحق يجوز أن يكون حالًا من فاعل أرسلناك أي محقين أو من مفعوله أي محقًّا. قوله: (**وخامة**) أي ثقل.

قوله: (**مسلاة**) أي تسلية.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ بالماء ﴿ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ أجناسها من الرُّمّان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يُحصَر أو هيئاتها من الحُمرة والصُّفرة والخُضرة ونحوها ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ طرق مختلفة **(جمع جدة كمدة)** ومدد ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ جمع غربيب وهو تأكيد للأسود. يقال: أسود غربيب وهو الذي أبعد في السواد وأغرب فيه ومنه الغراب. وكان من حق التأكيد أن يتبع المؤكد كقولك: «أصفر فاقع» **(إلا أنه أضمر المؤكد قبله والذي بعده تفسير للمضمر)**، وإنما يفعل ذلك لزيادة التوكيد حيث يدلّ على المعنى الواحد من طريقي الإظهار والإضمار جميعًا، ولا بدَّ من تقدير حذف المضاف في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ أي ومن الجبال ذو جدد بيض وحمر وسود حتى يؤول إلى قولك: ومن الجبال مختلف ألوانه، كما قال: ﴿ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ يعني ومنهم بعضٌ مختلف ألوانه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ **(أي كاختلاف الثمرات والجبال)**. ولمّا قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وعدَّد آيات الله وأعلام قدرته وآثار صنعته وما خلق من الفِطَر المختلفة الأجناس وما يستدلّ به عليه وعلى صفاته، أتبع ذلك ﴿إِنَّمَا يَخْشَى

قوله: **(جمع جدة)** بالضم. **قوله**: **(كمدة)** في المصباح المدة البرهة من الزمان تقع على القليل والكثير والجمع مدد مثل غرفة وغرف. اهـ. **قوله**: **(إلّا أنه أضمر المؤكد قبله والذي بعده تفسير للمضمر)** والتقدير وسود غرابيب سود.

قوله: **(أي كاختلاف الثمرات والجبال)** إشارة إلى أن محل الكاف في كذلك النصب على أنه صفة لمصدر محذوف والمعنى ومن الناس والدّواب والأنعام بعض أو نوع أو صنف مختلف ألوانه اختلافًا كائنًا كاختلاف الثمرات والجبال على أن قوله تعالى: ﴿مُخْتَلِفٌ﴾ صفة لموصوف محذوف وهو مبتدأ والجار والمجرور قبله

﴿ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ أي العلماء به الذين عَلِموه بصفاته فعظَّموه، ومَن ازداد علمًا به ازداد منه خوفًا، ومَن كان علمه به أقل كان آمَن. وفي الحديث «أعلَمُكم بالله أشدُّكم له خشية» وتقديم اسم الله تعالى وتأخير العلماء يُؤذِن أن معناه أن الذين يخشون الله من عباده العلماء دون غيرهم ولو عكس لكان المعنى أنهم لا يخشون إلا الله كقوله: ﴿وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٩] وبينهما تغاير، ففي الأول بيان أن الخاشعين هم العلماء، وفي الثاني بيان أن المَخشي منه هو الله تعالى. (**وقرأ أبو حنيفة وابن عبد العزيز وابن سيرين**) رضي الله عنهم (﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾

وهو من الناس خبره ولذلك عل اسم الفاعل. **قوله: (وقرأ أبو حنيفة)** هو الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت رضي الله تعالى عنهما وُلد سنة ثمانين وقيل: إحدى وستين والأول أصح، وأجمعوا على أنه مات سنة خمسين ومائة **(وابن عبد العزيز)** هو عمر بن عبد العزيز بن مروان الخليفة الصالح أبو حفص وُلد بحُلُوان قرية بمصر وأبوه أمير عليها سنة إحدى وقيل: ثلاث وستين وأُمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب وتُوفي بدَيْر سِمْعَان بكسر السين من أعمال حمص لعشرٍ بقين وقيل: لخمس بقين من رجب سنة إحدى ومائة وله حينئذٍ تسع وثلاثون سنة وستة أشهر وكانت وفاته بالسم كانت بنو أمية قد تبرَّموا به فسمّوه السم **(وابن سيرين)** هو أبو بكر محمد بن سيرين البصري كانت له اليد الطولى في تعبير الرؤيا وكانت ولادته لسنتين بقيتا من خلافة عثمان رضي الله تعالى عنه، وتُوفي تاسع شوال يوم الجمعة سنة عشر ومائة بالبصرة بعد الحسن البصري بمائة يوم رضي الله تعالى عنهما (﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾) برفع الله ونصب العلماء وفي الكشّاف والقرطبي وهو أي مَن قرأ إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ عمر بن عبد العزيز وتحكى عن أبي حنيفة. اهـ. وفي التفسير الكبير وقراءة مَن قرأ بنصب العلماء ورفع الله معناها إنما يعظم ويبجّل. اهـ. وفي تفسير أبي السعود وقرىء برفع الاسم الجليل ونصب العلماء على أن الخشية مستعارة للتعظيم فإن المعظم يكون مهيبًا. اهـ. وفي إعراب السمين قوله: إنما يخشى الله العلماء على نصب الجلالة ورفع العلماء وهي واضحة. وقرأ عمر بن عبد العزيز وأبو حنيفة فيما نقل الزمخشري وأبو حيوة فيما نقل الهذلي في كامله بالعكس وأولت على معنى التعظيم

والخشية في هذه القراءة استعارة)، والمعنى إنما يعظِّم الله من عباده العلماء ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل لوجوب الخشية لدلالته على عقوبة العُصاة وقهرهم وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم والمعاقب المثيب حقه أن يخشى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ (**يداومون**) على تلاوة القرآن ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي مُسِرِّين النَّفل ومُعلِنين الفَرْض يعني لا يقتنعون

أي إنما يعظم الله من عباده العلماء وهذه القراءة شبيهة بقراءة ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٤] برفع إبراهيم ونصب ربه وقد تقدمت. اهـ بحروفه. وقال العلّامة الشهاب في نشر ابن الجزري القراءات المنسوبة لأبي حنيفة رحمه الله التي جمعها أبو الفضل محمد بن جعفر الخزاعي ونقلها عنه أبو القاسم الهذلي وغيره لا أصل لها. قال أبو العلاء الواسطي: إن الخزاعي وضع هذا الكتاب ونسبه إلى أبي حنيفة فأخذت خطوط الدارقطني وجماعة على أن هذا الكتاب موضوع لا أصل له قلت: وقد رأيت الكتاب المذكور وفيه إنما يخشى الله من عباده العلماء برفع الهاء ونصب الهمزة، وقد راج ذلك على أكثر المفسرين ونسبوها إليه وتكلفوا توجيهها وأبو حنيفة رضي الله تعالى عنه بريء انتهى فافهم. **قوله**: (**والخشية في هذه القراءة استعارة**)(١) أي هذه القراءة مبنيّة على استعارة الخشية للتعظيم لتنزّه ذاته تعالى عن حقيقة الخشية بيانه أن الاستعارة مسبوقة بالتشبيه شبه حال معاملة الله مع العلماء في تعظيمه إياهم وإجلاله لهم بحال معاملة مَن يعظم السلطان ومن هو بصدد خشية سطوته وهيبته فأدخل المشبه في جنس المشبه به فهي الاستعارة التبعية الواقعة على طريق التمثيل.

قوله: (**يداومون**(٢)) معنى الدوام مستفاد من اختلاف الأفعال حيث جيء ﴿يَتْلُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١١٣] على صيغة المضارع ﴿وَأَقَامُوا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٧] ﴿وَأَنفَقُوا﴾ على صيغة الماضي و﴿يَرْجُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٨] على صيغة المضارع

---

(١) فاستعير لفظ الخشية للتعظيم ثم اشتق من الخشية المستعارة لفظ يخشى.
(٢) مستفاد من صيغة المضارع.

بتلاوته عن حلاوة العمل به ﴿يَرْجُونَ﴾ خبر «إنّ» ﴿تِجَـٰرَةً﴾ هي طلب الثواب بالطاعة ﴿لَّن تَبُورَ﴾ (لن تكسد) يعني تجارة ينتفي عنها الكساد وتنفُق عند الله.

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿لَّن تَبُورَ﴾ أي ليوفّيَنَّهم (بنفاقها) عنده ﴿أُجُورَهُمْ﴾ ثواب أعمالهم ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ بتفسيح القبور أو بتشفيعهم فيمن أحسن إليهم أو بتضعيف حسناتهم أو بتحقيق وعد لقائه. أو ﴿يَرْجُونَ﴾ في موضع الحال أي راجين. واللام في ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ تتعلق بـ ﴿يَتْلُونَ﴾ وما بعده أي فعلوا جميع ذلك من التلاوة وإقامة الصلاة والإنفاق لهذا الغرض (وخبر «إنّ ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾) لفرطاتهم (﴿شَكُورٌ﴾ أي غفورٌ لهم شكور لأعمالهم) أي يعطي (الجزيل) على العمل القليل.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي القرآن. و«من» للتبيين ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ حال مؤكدة لأن الحق لا ينفك عن هذا التصديق ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما

ليدلّ على أن المراد الاستمرار والمداومة والتحقق ويساعده مقام المدح نحو فلان يقري الضيف ويحمي الحريم. **قوله**: (لن تكسد) في المصباح كسد الشيء يكسد من باب قتلَ كسادًا لم ينفق لقلة الرغبات فهو كاسد وكسيد. اهـ.

قوله: (بنفاقها) برواجها. **قوله**: (وخبر إن ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي غفور لهم[1] شكور لأعمالهم) وعلى هذا التقدير لا بد فيهما من العائد فقدر بقوله لهم أي لفرطاتهم والشكر في حق العباد صرف كل واحد من اللسان والجنان والجوارح إلى طاعة المنعم وفي حقه تعالى المجازاة على طاعة العباد والشكور من أبنية المبالغة ووجهه أنه تعالى يقبل القليل من طاعة عباده فيضاعف لهم الجزاء. **قوله**: (الجزيل) أي العظيم.

---

(١) فيقدر العائد إلى لهم.

تقدّمه من الكتب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ فعَلمك وأبصرَ أحوالك ورآك أهلًا لأن يُوحي إليك مثل هذا الكتاب المُعجز **(والذي هو عيار على سائر الكتب)**.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي أوحينا إليك القرآن ثم أورثناه من بعدك **(أي حكمنا بتوريثه)** ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم أمته من الصحابة والتابعين وتابِعِيهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة لأن الله اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة **(وسطًا)** ليكونوا شهداء على الناس، واختصَّهم بكرامة **(الانتماء)** إلى أفضل رُسُله. ثم رتَّبهم على مراتب فقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، **(وهو المرجأ)** لأمر الله ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ هو الذي خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ وهذا التأويل يوافق التنزيل فإنه تعالى قال: (﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾) [التوبة: الآية ١٠٠] الآية، وقال بعده: (﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾) [التوبة: الآية ١٠٢] الآية، وقال بعده: (﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾) [التوبة: الآية ١٠٦] الآية. والحديث فقد

قوله: (والذي هو عيار على سائر الكتب) هذا مأخوذ من قوله: مصدقًا... الخ والعيار بكسر العين ما يعلم به صحة غيره أو فساده مصدر عايرت الموازين إذا قايستها بغيرها لتعلم صحتها وهو مجاز هنا عما يعلم به صحة غيره منها فما وافقه فهو صحيح من عند الله وما خالفه فليس منه تعالى بل هو محرّف سواء كان التحريف بالزيادة أو بالنقصان.

قوله: (أي حكمنا بتوريثه) والتوريث وإن كان مستقبلًا لكن حكمه ماضٍ فعبر بالماضي فيكون مجازًا مرسلًا لأن الحكم بالتوريث سبب للتوريث فذكر المسبب وأريد السبب. **قوله: (وسطًا)** خيارًا. **قوله: (الانتماء)** أي الانتساب. **قوله: (وهو المرجأ)** أي المؤخر. **قوله:** (﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾) الآية في تفسير الجلالين (﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾) وهم من شهد بدرًا أو جميع الصحابة (﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾) إلى يوم القيامة (﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾) في العمل (﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾) بطاعته (﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾) بثوابه (﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾) وفي قراءة بزيادة من (﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾). اهـ. **قوله:** (﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾) الآية في تفسير الجلالين وقوم (﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾) من

رُوِيَ **(عن عمر)** رضي الله عنه أنه قال على المنبر بعد قراءة هذه الآية: قال رسول الله ﷺ: «سابِقُنا سابِق ومُقتصِدنا ناج وظالِمُنا مغفور له»، وعنه عليه السلام: «السابق يدخل الجنة بغير حساب، والمُقتَصِد يُحاسَب حسابًا يسيرًا ثم يدخل الجنة، وأما الظالم لنفسه فيُحبَس حتى يظن أنه لا ينجو ثم تناله الرحمة فيدخل الجنة» رواه **(أبو الدرداء)**.

(والأثر) فعن ابن عباس رضي الله عنهما: السابق المُخلِص، والمُقتَصِد المُرائي، والظالم الكافر بالنعمة غير الجاحِد لها لأنه حكم للثلاثة بدخول الجنة. وقول السلف فقد قال الربيع بن أنس: الظالم صاحب الكبائر، والمُقتَصِد صاحب الصغائر، والسابِق المُجتَنِب لهما. وقال الحسن البصري: الظالم مَن رَجَحَت سيئاته، والسابق مَن رَجَحَت حسناته، والمُقتَصِد مَن استوت حسناته وسيئاته. وسُئِل أبو يوسف رحمه الله عن هذه الآية فقال: كلهم مؤمنون، وأما صفة الكفّار فبعد هذا وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾. وأما الطبقات الثلاث فهم الذين اصطفى من عباده فإنه قال: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ ﴿وَمِنْهُم﴾ ﴿وَمِنْهُمْ﴾ والكل راجع إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم أهل الإيمان وعليه الجمهور. وإنما قدَّم الظالم للإيذان بكثرتهم وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقون أقلّ من القليل. وقال ابن عطاء: إنما قدَّم الظالم لئلا ييأس من فضله. وقيل: إنما قدَّمه

التخلّف نعته والخبر (﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾) وهو جهادهم قبل ذلك واعترافهم بذنوبهم أو غيز ذلك **(وآخر سيئًا)** وهو تخلّفهم (﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾). اهـ. **قوله**: (﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾) الآية في تفسير الجلالين (﴿وَءَاخَرُونَ﴾) من المتخلّفين **(مرجون)** بالهمز وتركه مؤخرون عن التوبة (﴿لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾) فيهم بما يشاء (﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾) بأن يميتهم بلا توبة (﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾) بخلقه (﴿حَكِيمٌ﴾) في صنعه بهم. اهـ. **قوله: (عن عمر)** بن الخطاب القرشي العدوي رضي الله تعالى عنه. **قوله: (أبو الدرداء)** اسمه عويمر بن مالك وقيل: اسمه عامر بن مالك وعويمر لقب شهد ما بعد أحد من المشاهد، واختلف في شهوده أحدًا توفي قبل أن يقتل عثمان رضي الله تعالى عنه بسنتين. **قوله: (والأثر)** قال السخاوي: الأثر لغة البقية واصطلاحات الأحاديث مرفوعة كانت أو موقوفة على القول المعتمد وإن قصره بعض الفقهاء على الموقوف.

ليعرِّفه أن ذنبه لا يُبعِده عن ربه. وقيل: إن أول الأحوال معصية ثم توبة ثم استقامة. وقال سهل: السابق العالِم والمقتصد المتعلِّم والظالم الجاهل. وقال أيضًا: السابق الذي اشتغل بمعاده، والمقتصد الذي اشتغل بمعاشه ومعاده، والظالم الذي اشتغل بمعاشه عن معاده. وقيل: الظالم الذي يعبده على الغفلة والعادة، والمقتصد الذي يعبده على الرغبة والرهبة، والسابق الذي يعبده على الهيبة والاستحقاق. وقيل: الظالم مَن أخذ الدنيا حلالًا كانت أو حرامًا، والمقتصد مَن يجتهد أن لا يأخذها إلا من حلال، والسابق مَن أعرض عنها جملة. وقيل: الظالم طالب الدنيا، والمقتصد طالِب العقبى، والسابق طالِب المولى ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بأمره أو بعلمه أو بتوفيقه ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي إيراث الكتاب ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ خبر ثانٍ لـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ والخبر ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ أي الفِرَق الثلاثة (﴿يُدْخَلُونَهَا﴾: **أبو عمرو**) ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جمع أسورة جمع سِوار ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أي من ذهب مرصَّع باللؤلؤ (﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ **بالنصب والهمزة: نافع وحفص عطفًا على محل** ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾) أي يُحلَّون أساور ولؤلؤًا ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ لما فيه من اللذة والزينة.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا (ٱلْحَزَنَ)﴾ خوف النار أو خوف الموت أو هموم الدنيا ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ يغفر الجنايات وإن كثرت ﴿شَكُورٌ﴾ يقبل الطاعات وإن قلَّت.

قوله: (﴿يُدْخَلُونَهَا﴾: **أبو عمرو**) أي قرأ أبو عمرو بضم الياء وفتح الخاء والباقون بفتح الياء وضم الخاء. **قوله**: (﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ **بالنصب والهمزة: نافع وحفص عطفًا على محل** ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾) والباقون بالخفض مع التنوين وأبدل الهمزة الأولى الساكنة حرف مد السوسي وأبو بكر هذا حالة الوصل، وأما الوقف فحمزة يبدل الأول واوًا وكذا الثانية تبدل واوًا وله أيضًا فيها الروم.

قوله: (﴿ٱلْحُزْنِ﴾) بفتحتين والحزن بالضم والسكون بمعنى واحد كالبخل والبخل والعامة قرأوه بفتحتين.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ (ٱلْمُقَامَةِ)﴾ أي الإقامة **(لا نبرح)** منها ولا نفارقها يقال أقمت إقامة ومقامًا ومقامة ﴿**مِن فَضْلِهِۦ**﴾ من عطائه وإفضاله لا باستحقاقنا ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب ومشقّة ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ إعياء من التعب وفترة. **(وقرأ أبو عبد الرحمٰن السلمي** ﴿لَغُوبٌ﴾ **بفتح اللام)** وهو شيء يلغب منه أي لا نتكلّف عملًا يلغبنا.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ جواب النفي ونصبه بإضمار «أن» أي لا يُقضى عليهم بموت ثانٍ فيستريحوا ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ من عذاب نار جهنم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء (﴿نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾) ﴿يُجزَى كل كفور﴾: **(أبو عمرو)** ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ يستغيثون **(فهو يفتعلون من الصراخ)** وهو الصياح بجهد ومشقّة، واستعمل في الاستغاثة لجهر صوت المستغيث ﴿رَبَّنَا﴾ يقولون ربنا ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي أخرجنا من

قوله: (﴿ٱلْمُقَامَةِ﴾) مصدر ميمي بمعنى الإقامة لأن المصدر الميمي من المزيد يكون على صيغة المفعول كالمدخل والمخرج والممزق. **قوله**: **(لا نبرح)** أي نفارق. **قوله**: (وقرأ **أبو عبد الرحمٰن السلمي** ﴿لَغُوبٌ﴾ **بفتح اللام**...) الخ في الكتاب المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات ولغات العرب ومن ذلك قراءة علي عليه السلام ﴿فِيهَا لَغُوبٌ﴾ بفتح اللام وهي قراءة السُلمي. اهـ.

قوله: (﴿نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ **أبو عمرو**) أي قرأ أبو عمرو بياء مضمومة وفتح الزاي ورفع كل والباقون بنون مفتوحة وكسر الزاي ونصب كل. **قوله**: **(فهو يفتعلون من الصراخ...)** الخ وصيغة الافتعال تفيد أن الصُراخ صادر منهم على وجه الجد والشدة غير ما أفاده نفس الصراخ، ولذا قال يستغيثون فهو يفتعلون.

النار رُدَّنا إلى الدنيا نؤمن بدل الكفر ونُطع بعد المعصية فيُجاوبون بعد قدر عمر الدنيا ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ يجوز أن يكون «ما» نكرة موصوفة أي تعميرًا يتذكر فيه مَن تذكّر وهو مُتناوَل لكل عمر تمكّن فيه المكلَّف من إصلاح شأنه وإن قصر، إلا أن التوبيخ في المُتطاول أعظم. ثم قيل: هو ثمانِ عشرة سنة. وقيل: أربعون. وقيل: ستون سنة ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ الرسول عليه السلام أو المشيب (**وهو عطف على معنى** ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾) لأن لفظه لفظ استخبار ومعناه إخبار كأنه قيل: قد عمّرناكم وجاءكم النذير ﴿فَذُوقُواْ﴾ العذاب ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ناصر يُعينهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ما غاب فيهما عنكم ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كالتعليل لأنه إذا علم ما في الصدور وهو أخفى ما يكون فقد علم كل غيب في العالم. وذات الصدور مضمراتها (**وهي تأنيث ذو في نحو قول أبي بكر رضي الله تعالى عنه: ذو بطن بنت خارجة جارية**). أي ما في بطنها من الحبل

قوله: (**وهو عطف على معنى** ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾...) الخ أي عطف وجاءكم محمول على معنى ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ لا على لفظه لأن لفظه إنشاء ولفظ المعطوف خبر ولا يجوز عطف الخبر على الإنشاء بلا تأويل والتأويل هنا أن ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ وإن كان إنشاء صورة لكنه خبر في المعنى لأن الاستفهام للتقرير أي للتثبيت فالمعنى قد عمرناكم قدر ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ ولم يبق لكم عذر في ترك التذكر.

قوله: (**وهي تأنيث ذو في نحو قول أبي بكر رضي الله تعالى عنه: ذو بطن بنت خارجة**) أي حبيبة بنت خارجة بن زيد صحابية بنت صحابي (**جارية**) أنثى. في صحيح الموطأ للإمام مالك رضي الله تعالى عنه (مالك عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن خالته) عائشة (زوج النبيّ ﷺ أنها قالت أن أبا بكر الصدّيق) عبد الله بن عثمان (كان نحلها) بفتحتين (جادّ) بفتح الجيم والدال المهملة الثقيلة (عشرين

لأن الحبل يصحب البطن. وكذا المُضمرات تصحب الصدور وذو موضوع لمعنى الصحبة ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يقال للمستخلف خليفة ويجمع على خلائف، والمعنى أنه جعلكم **(خلفاء)** في أرضه قد ملّككم مقاليد التصرف فيها وسلّطكم على ما فيها وأباحَ لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ منكم **(وغمط مثل هذه النعمة السَّنِيَّة)** ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ فوَبال كفره راجع

وسقًا) من نخلة إذا جدّ أي قطع، قاله عيسى (من ماله بالغابة) بمعجمة وموحدة موضع على بريد من المدينة في طريق الشام وهم من قال من عوالي المدينة فلما حضرته الوفاة أي أسبابها قال: والله يا بنية بتصغير الجنان والشفقة (ما من الناس أحب إليّ غنى بعدي منك) بكسر الكاف (ولا أعزّ أشق) وأصعب (عليّ فقرًا بعدي منك) وفيه أن الغنى أحب إلى الفضلاء من الفقر (وإني كنت نحلتك جادّ عشرين وسقًا فلو كنت جددتيه) بفتح الجيم والدال الأولى وإسكان الثانية قطعية (واحتزتيه) بإسكان الحاء والزاي بينهما فوقية مفتوحة أي حزتيه (كان لك) لأن الحيازة والقبض شرط في تمام الهبة فإن وهب الثمرة على الكيل فلا تكون الحيازة إلا بالكيل بعد الجدّ، ولذا قال: جددتيه واحتزتيه. قاله: الباجي (وإنما هو اليوم مال وارث وإنما هما أخواك) عبد الرحمٰن ومحمد (وأُختاك) يريد مَن يرثه بالبنوة لأنه ورثه معهم زوجتاه أسماء بنت عميس وحبيبة بنت خارجة وأبوه أبو قحافة وإن روي أنه ردّ سدسه على ولد أبي بكر (فاقتسموه على كتاب الله قالت عائشة: فقلت: يا أبة والله لو كان كذا وكذا) كناية عن شيء كثير أزيد مما وهبه لها (لتركته) اتباعًا للشرع وطلب لرضاك (إنما هي أسماء فمن الأخرى فقال أبو بكر: ذو) أي صاحبة (بطن) بمعنى الكائنة في بطن حبيبة (بنت خارجة) بن زيد بن أبي زهير بن مالك الأنصاري الخزرجي صحابيّة بنت صحابي شهد بدرًا وآخى النبيّ ﷺ بينه وبين أبي بكر ويقال: إنه استشهد بأحد (أراها) بضم الهمزة أظنها (جارية) أنثى فلذا قلت: أُختاك فكان كما ظنّ رضي الله تعالى عنه سميت أم كلثوم. قال ابن حزين: قال بعض فقهائنا وذلك لرؤيا رآها أبو بكر رضي الله تعالى عنه. اهـ مع زيادة من شرحه للعلّامة الزرقاني رحمه الله. **قوله**: **(خلفاء)** جمع خليف بدون تاء. **قوله**: **(وغمط مثل هذه النعمة)** في مختار الصحاح غَمِط النعمة من باب فهم وضرب ولم يشكرها. اهـ. **قوله**: **(السَّنِيَّة)** أي الرفيعة.

عليه وهو مَقْت الله وخسار الآخرة كما قال: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ وهو أشد البغض ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ هلاكًا وخسرانًا.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ آلهتكم التي أشركتموهم في العباد ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿أَرُونِى﴾ بدل من ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ لأن معنى ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني كأنه قيل: أخبروني عن هؤلاء الشركاء عمّا استحقوا به الشركة، أروني أيّ جزء من أجزاء الأرض **(استبدّوا)** بخلقه دون الله؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أم لهم مع الله شركة في خلق السمٰوات ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أي معهم كتاب من عند الله ينطق أنهم شركاؤه فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب. ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ علي وابن عامر ونافع وأبو بكر ﴿بَلْ إِن يَعِدُ﴾ ما يعد ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم﴾ بدل من ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وهم الرؤساء ﴿بَعْضًا﴾ أي الأتباع ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ هو قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: الآية ١٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ يمنعهما من أن تزولا لأن الإمساك منع ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ على سبيل الفرض ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ ما أمسكهما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ من بعد إمساكه. و«من» الأولى مزيدة لتأكيد النفي والثانية **(للابتداء)** ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ غير مُعاجِل بالعقوبة حيث يمسكهما وكانتا جديرتين **(بأن تهدّا هدًّا)**

قوله: (استبدوا) أي انفردوا في لسان العرب استَبَدَّ فلان بكذا أي انفرد به.اهـ. وأيضًا فيه يقال: استبدّ بالأمر يستبد به استبدادًا إذا انفرد به دون غيره. اهـ.

قوله: (للابتداء) أي لابتداء الغاية. **قوله: (بأن تهدّا هَدًّا)** من هدّ الحائط يهدّ بالكسر أي انهدم.

لعِظَم كلمة الشِّرك كما قال: (﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾) [مريم: الآية ٩٠] الآية.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ نصب على المصدر أي إقسامًا بليغًا أو على الحال أي جاهِدِين في أيمانهم ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ بلغ قريشًا قبل مبعث النبي ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم أي من الأمة التي يقال فيها هي إحدى الأمم تفضيلًا لها على غيرها في الهدى والاستقامة كما يقال **(الداهية)** العظيمة هي إحدى الدواهي ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ فلما بعث رسول الله ﷺ ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي ما زادهم مجيء الرسول ﷺ إلا تباعدًا عن الحق **(وهو إسناد مجازي)**.

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى

قوله: (﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾) أي تنخسف بهم الآية تمام الآية ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم: الآيتان ٩٠، ٩١] أي تسقط وتنطبق عليهم من أجل أن دعوا للرحمٰن ولدًا.

قوله: **(الداهية)** في المصباح الداهية النائبة والنازلة والجمع الدواهي وهي اسم فاعل من دهاه الأمر يدهاه إذا نزل به. اهـ. **قوله**

(وهو إسناد مجازي) يعني أن إسناد زادهم إلى مجيء الرسول إسناد[1] مجازي من قبيل إسناد الحكم إلى سببه لأن نفس مجيئه لا يزيدهم نفورًا وإنما ازداد نفورهم عن الحق بسبب مجيئه.

---

(١) لأن الزيادة في الحقيقة منه تعالى على قاعدة أهل الحق.

ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مفعول له وكذا (﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾) والمعنى وما زادهم إلا نفورًا للاستنكار ومكر السيء، أو حال يعني مستكبرين وماكرين برسول الله ﷺ. (وأصل قوله: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ وأن مكروا السيء، أي المكر السيء)، ثم ومكر السيء ثم ومكر السيء والدليل عليه وقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ يحيط وينزل ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ ولقد حاق بهم يوم بدر وفي المثل «مَن حفر لأخيه (جبًا) وقع فيه (مكبًا) ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهو إنزال العذاب على الذين كذبوا برسلهم من الأمم قبلهم، والمعنى فهل ينظرون بعد تكذيبك إلا أن ينزل بهم العذاب مثل الذي نزل بمن قبلهم من مُكَذِّبي الرُّسُل، جعل استقبالهم لذلك انتظارًا له منهم ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ بيَّن أن سُنَّته التي هي الانتقام من مُكَذِّبي الرُّسُل سُنَّة لا يبدلها في ذاتها ولا يحوِّلها عن أوقاتها وأن ذلك مفعول لا محالة.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ استشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه في مسايرهم إلى الشام واليمن والعراق من آثار الماضين وعلامات هلاكهم ودمارهم ﴿وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ من أهل مكة ﴿قُوَّةً﴾ اقتدارًا فلم يتمكنوا من الفرار ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ﴾ (ليسبقه ويفوته) ﴿مِن شَىْءٍ﴾ (أيّ شيء) ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ بهم ﴿قَدِيرًا﴾ قادرًا عليهم.

قوله: (وأصل قوله: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ وأن مكروا السيِّىء) بفتح أن (أي المكر السيِّىء) ثم ومكر السيِّىء فحذف الموصوف وهو المكر استغناء عنه بوصفه وهو السيِّىء فبقي وأن مكروا السيِّىء ثم بدل أن مع الفعل بالمصدر أي ثم غير أن مكروا بالمكر بأن حذف أن مع الفعل وأقيم موضعه المصدر فصار ومكرا السيِّىء ثم أضيف إلى الصفة فصار ومكر السيِّىء.

قوله: (جبًّا) الجب البئر لم تطو. **قوله**: (مكبًّا) أي ساقطًا على وجهه. **قوله**: (ليسبقه ويفوته) معنى ليعجزه بطريق اللزوم. **قوله**: (أي شيء) فيه رمز إلى أن من صلة في من شيء فاعل ليعجزه.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ **(بما اقترفوا من المعاصي)** ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ على ظهر الأرض لأنه جرى ذكر الأرض في قوله: ﴿لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ (وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ)﴾ [فاطر: الآية ٤٤] ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ **(من نسمة تدبّ عليها)** ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ أي لم تخفَ عليه حقيقة أمرهم وحكمة حكمهم والله الموفّق للصواب.

قوله: (﴿وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾) أعيد لا تنبيهًا على الاستقلال في النفي. **قوله**: **(بما اقترفوا من المعاصي)** في المصباح اقتراف الذنب فعله. اهـ. **قوله**: **(من نَسَمة)** بفتحتين أي ذي روح من التنسم وهو التنفس وهذا معنى لغوي للدابة. **قوله**: **(تدبّ عليها)** أي تتحرك عليها.

هذا آخر ما أمليته في حد ما في سورة الملائكة.
الحمد لله الموفّق لإتمامه، والله أعلم بأسرار كلامه،
فالآن أشرع بإذن الله متوكّلًا عليه في شرح ما في تفسير سورة يٰس
والله يقول الحق وهو يهدي السبيل